وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

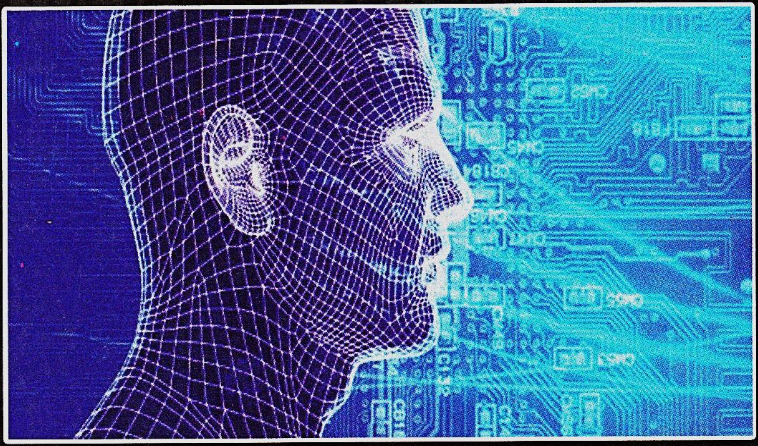

التلاعب بالوعي

تأليف: سيرجي قره - مورزا
ترجمة: عياد عيد

٥
دراسات اجتماعية

التلاعب بالوعي

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

التلاعب بالوعي

تأليف: سيرجي قره - مورزا
ترجمة: عياد عيد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٢م

العنوان الأصلي للكتاب :

Манипуляция сознанием

التلاعب بالوعي / تأليف سيرجي قره – مورزا؛ ترجمة عياد عيد .–
دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب؛ ٢٠١٢م .– ٥٢٠ ص؛
٢٤ سم.

(دراسات اجتماعية؛ ٥)

١- ٣٠٣,٣٠٩٤٧ ق و هـ ت ٢- العنوان
٣- قره- مورزا ٤- عيد ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

دراسات اجتماعية

«٥»

سيرجي غيورغيفيتش قره – مورزا

- ولد في ١٩٣٩/١/٢٣.
- أنهى كلية الكيمياء في جامعة موسكو الحكومية عام ١٩٦١.
- معيد وموظف في معهد كيمياء التراكيب الطبيعية في أكاديمية العلوم السوفييتية، ومن ثم معهد الكيمياء العضوية في أكاديمية العلوم السوفييتية بين ١٩٦١ و١٩٦٨.
- مرشح دكتوراه في العلوم الكيميائية عام ١٩٦٦.
- أوفد للعمل في كوبا بين ١٩٦٦ و١٩٦٨، وبين ١٩٧٠ و١٩٧٢.
- موظف ومن ثم رئيس قسم ومن ثم نائب مدير معهد تاريخ المعارف الطبيعية والتقنية في أكاديمية العلوم السوفييتية بين عامي ١٩٦٨ و١٩٩٠.

- حاصل على درجة دكتوراه في العلوم (تاريخ العلم والتقنية ومناهجهما) عام ١٩٨٨.
- بروفيسور منذ عام ١٩٨٨.
- نشر في تلك الفترة أكثر من ٥٠ مقالة في الكيمياء وتاريخ العلم ومنهجيته، وكتباً علمية منها «مشاكل تنظيم العلم» (١٩٨١)، «تكنولوجيا البحوث العلمية» (١٩٨٩)، وغيرهما.
- دخل في عداد مجموعة من خبراء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي الذين كانوا يحضرون مواد متعلقة بتنظيم العلم والعلاقات القومية وغيرها بين عامي ١٩٨٦ و١٩٩١.
- سافر بانتظام لإلقاء المحاضرات في جامعات إسبانيا بين ١٩٨٨ و١٩٩٦.
- عمل بروفيسوراً في جامعة سرقسطة (إسبانيا) بين عامي ١٩٨٩- ١٩٩٠.
- عمل مديراً في المركز التحليلي للسياسات العلمية والصناعية (أكاديمية العلوم السوفييتية ومن ثم أكاديمية العلوم الروسية ثم في وزارة العلوم الروسية) بين ١٩٩٠- ٢٠٠٠.
- اهتم بمسائل التحليل المنظوماتي وخصوصاً في موضوعي «العلم وأزمة الحضارة الصناعية»، و«روسيا مجتمع تقليدي – المشروع السوفييتي».
- اشتهر منذ عام ١٩٨٩ بمقالاته في صحف «البرافدا» و«روسيا السوفييتية» و«زافترا» (الغد) وغيرها. أشهر كتبه: «انتزاع الإلكترودات من أدمغتنا» (١٩٩٤) و«الإنتلجنسيا فوق رماد روسيا» (١٩٩٥، ١٩٩٧)، و«المركزية الأوربية- إيديولوجية البيريسترويكا المخفية» (١٩٩٦) و«خمسة أسئلة للقادة» (١٩٩٨)، و«تاريخ الدولة والقانون في روسيا» (١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١ بالاشتراك مع مؤلفين آخرين)، و«التلاعب بالوعي» (٢٠٠٠).

مقدمة

إننا شهود على أحداث ذات بعد كوني ومشاركون فيها. لقد تمكنوا أمام أعين جيل واحد من تفجير روسيا، وربما كسرها. لقد وحدت هذه الحضارة الهائلة الكتلتين الأساسيتين في العالم الإنساني - الغرب والشرق، ووازنت بينهما طوال عشرة قرون. أعادت روسيا بعد الصدمة الأولى في القرن العشرين، وكانت في هيئة الاتحاد السوفييتي، بعث ملامحها الأساسية، واكتسبت وجهها من جديد (مع أنه مغسول بالدم). لكن الجرثومة بقيت في جسمها، ووجد المرض مكامن ضعف جديدة، وبدت الأزمة أشد وطأة بكثير. ترنح أحد دعائم عيش الإنسانية كلها المشترك وبدأ يتناثر. وانجر العالم كله إلى البيريسترويكا مصحوباً برعب متزايد.

يبدو واضحاً من كل شيء أن الفتنة طويلة الأمد، وأن الكثير من المغامرات غير المتوقعة ما زال ينتظرنا. يمكن القول إن حرَّفنا قليلاً جملة خروشوف الشهيرة: «لن يصاب الجيل الحالي من الناس السوفييت بالملل حتى الممات». ويبدو أن هذا التنبؤ سيتحقق، خلافاً لتوقع نيكيتا سيرغييفيتش. خصوصاً وأن مدة الحياة مع مثل هذا المرح تتقلص سريعاً.

كي لا نشعر، إذ نختم الحسابات مع الحياة، بالخجل المؤلم من الحماقات التي ارتكبناها من المفيد لنا أن نناقش: ما الذي حدث؟ لماذا رغبنا في الأفضل فحدث لا كما يحدث دائماً بل كما لا يمكن لأحد أن يراه في كابوس مرعب.

فحتى الآن ما زال مودعو مصرف «تشارا»[1] بعضهم يشتكي لبعض: «أستيقظُ آملاً في أن يكون هذا كله مناماً. فكيف أستطيع، أنا الذكي والحصيف، أن أحمل مدخراتي كلها وأعطيها للمحتالين. وبطواعية!» لا، هذا كله ليس مناماً. حتى أن «تشارا» ليس سوى نذر يسير. الأدق، ليس نذراً يسيراً، بل قطرة ماء انعكست فيها هذه البيريسترويكا والإصلاح والديمقراطية كلها وغيرها مما هو موجود أيضاً تحت قبعة الساحر.

أظن أن العواطف قد بردت قليلاً، ويمكننا مناقشة كل شيء معاً بشيء من الفائدة وحتى بشيء من الضحك (العصبي أحياناً، لكنه لن يكون هستيرياً) - أكنا من ضحايا خداعنا الحقبوي أم من أولئك الذين استطاعوا، كما يخيل لهم، الانتفاع منه. هؤلاء باتوا قلة لكنهم موجودون. والإنسان لا يحب أن يبدو مغفلاً، لذلك يأخذ يتباهى - أنا الآن مصرفي ومدير أعمال.

قد يتسنى لمناقشاتنا أن تساعدنا، أنفسنا، في حياتنا، لكنها على الأرجح ستساعد أولادنا - لأنهم هم الذين سيضرسون. كما أن ثمة رغبة في أن نبقي للتاريخ وللأجيال القادمة شهادات شهود عيان مع بعض المحاولات لإدراكها على الأقل. فنحن اليوم نقرأ روايات مختلفة عما حدث للروس في بداية القرن السابع عشر، ويصعب علينا الفهم. أي فتنة كانت؟ لماذا صدقنا اللصوص والخبثاء، لا بل أجلسناهم حتى على العرش الروسي؟ لماذا راح قواد المناطق بعضهم يسابق بعضاً على تسليم المدن لقوى المغامرين المندهشين القليلة، فاندفع القوزاق ينهبون المدن الروسية؟

---

(١) مصرف تشارا هو مصرف روسي عانى من نشاطه عشرات الآلاف من الروس بمن فيهم كثيرون من النخبة المسرحية والسينمائية. تأسس المصرف عام ١٩٩٢، وبدأ يستقطب الأموال بفوائد عالية، وكانت هذه الأموال تهرب إلى خارج روسيا. كف المصرف مع نهاية عام ١٩٩٤ عن دفع أموال المودعين وكان دينه قد بلغ ١٣١ مليار روبل، ثم عثر على صاحب المصرف مقتولاً في حمام منزله بينما اختفت زوجته وشريكته عن الأنظار حتى غادرت روسيا عام ١٩٩٦. (**المترجم**).

ثم إننا في الأساس أناس غير مؤمنين (الشموع والصلبان ليست كل شيء)، لكن ثمة فكرة سرية تطن في رؤوس الغالبية: سوف نضطر في نهاية الأمر إلى تحمل المسؤولية أمام موتانا. يسألني والدي الذي لم يرجع من الحرب: «ما الذي ابتدعتموه هناك؟ اشرح لنا، فنحن هنا نتحزر ولا نستطيع أن نفهم». علينا إذن أن نستعد، لا يمكننا أن ندس تحت أنوف أسلافنا كلام غورباتشوف قائلين: هاكم، هذه هي الحقائق التي شغلتنا. فالتفكير لدى أسلافنا لم يكن جديداً بل سليماً.

فلنبدأ شيئاً فشيئاً نكرّ الخيط مستعيدين التاريخ في الذاكرة كي نفهم بأي وسائل عجيبة أقنعونا بأن نفعل كل ما فعلناه. خصوصاً وأن ما راكمناه من أفعال لم يكن قليلاً، وفعلناه بلا أي عصا وجزرة، لا بل بحماسة، وحتى بإعجاب. ثمة الآن من فطن بعد فوات الأوان. أما الآخرون فيتبجحون: كنا نعرف! لقد حذرنا! هؤلاء الناس لا يغيرون شيئاً في اللوحة العامة.

أولاً، أمثال هؤلاء الأذكياء كانوا قلة قليلة. اقرؤوا على الأقل خطابات غولنا المحافظ ليغاتشوف[1]. الأمر ذاته لكن على نحو أسوأ. أما الآخرون فصحيح أنهم حذروا، لكن تحذيراتهم كانت غير مفهومة عن عمد، حتى بدا

---

(١) **إيغور ليغاتشوف** – (١٩٢٠) سياسي روسي معروف، أنهى عام ١٩٤٣ معهد الطيران باختصاص «بناء الطائرات». كان عضواً في اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفييتي بين عامي ١٩٧٦ حتى ١٩٩٠، وعضواً في المكتب السياسي بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٩٠. أيد عام ١٩٨٥ ترشيح غورباتشوف لمنصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي وكان أحد الداعين إلى البيريسترويكا حتى عام ١٩٨٨، حيث راح بعد ذلك ينتقد أساليب ووتائر تنفيذ الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الاتحاد السوفييتي. انتخب بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٣ عضواً في مجلس الدوما. تنسب إليه فكرة الحملة ضد الكحول التي بدأت عام ١٩٨٥. **(المترجم)**.

وكأنها كتبت في إدارة أ. ن. ياكوفليف[1]. حسبنا أن نتذكر رسالة نينا أندرييفا[2]. طبعاً، ما كتبتهُ كتبته صادقةً، لكن إدارة أ. ن. ياكوفليف، كانت تكتفي بانتقاء مثل هذه الأقلام ونشرها «سهواً».

ثمة، في نهاية المطاف، في كل مجتمع بشري (لا بل في كل قطيع) عدد من المتمردين بالفطرة، والمماحكين بطبيعتهم. إنهم يتذمرون دائماً ويعارضون. خذوا على الأقل سولجينيتسين[3]. قلَّ مَنْ فعل ما فعله من أجل

---

(١) **ألكسندر نيكولاييفيتش ياكوفليف** (١٩٢٣). عضو أكاديمية العلوم الروسية منذ عام ١٩٩٠. شغل بين عامي ١٩٦٥ و١٩٧٣ منصب النائب الأول لرئيس قسم الدعاية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي. كان بين ١٩٧٣ و١٩٨٣ سفير الاتحاد السوفييتي في كندا. تدرج بعد ذلك في العديد من المناصب إلى أن انتخب عام ١٩٨٧ عضواً في المكتب السياسي للحزب. كان في أثناء البيريسترويكا من المقربين من غورباتشوف، وينسب إليه الكثير من المبادرات والقرارات في تلك الفترة. طرد عام ١٩٩١ من الحزب الشيوعي. وترأس لجنة إعادة الاعتبار لضحايا القمع السياسي التابعة للرئيس الروسي. وشغل بين ١٩٩٣ و١٩٩٥ منصب مدير الإدارة الاتحادية الروسية للتلفزيون والإذاعة. مؤلف كتابي «المقدمة، الانهيار، الخاتمة» (١٩٩٢)، و«كأس البلشفية المرة وإصلاح روسيا» (١٩٩٤). **(المترجم)**.

(٢) **نينا ألكسندروفنا أندرييفا** (١٩٣٨) كيميائية ومدرسة في لينينغراد، وكاتبة مقالات وسياسية. رأت في البيريسترويكا الغورباتشوفية أداة لتدمير الاتحاد السوفييتي، وقد حصلت على شهرة واسعة في ١٣ آذار ١٩٨٨ بعد مقالتها «لا أستطيع أن أتخلى عن مبادئي» التي عدها أنصار البيريسترويكا بياناً للقوى المعادية لإعادة البناء في الاتحاد السوفييتي. **(المترجم)**.

(٣) **ألكسندر سولجينيتسين** (١٩١٨- ٢٠٠٨) كاتب وشاعر روسي وناشط اجتماعي وسياسي عاش وعمل في الاتحاد السوفييتي وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية ومن ثم عاد إلى روسيا. حائز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٧٠. عمل بنشاط عدة عقود (١٩٦٠-١٩٨٠) ضد الأفكار الشيوعية والنظام السياسي السوفييتي. من أعماله «يوم واحد من حياة إيفان دينيسوفيتش» (١٩٦٢)، «فناء ماتريون» (١٩٦٣) وغيرها. **(المترجم)**.

تدمير البناء السوفييتي. أخيراً دمروه، وفعلوا كل ما كان يطلبه – وها هو غير راض مرة أخرى. يقول: لا، اقتلوا، لكن على أن يكون قتلاً جميلاً. على أن يكون الراحل متورداً ومبتسماً. أظن أن من المستحيل عدُّ أمثال هؤلاء المستائين دائماً دليلاً على ثبات إدراكنا القومي.

لذلك سنقبل التالي بمثابة حقيقة: لقد تمكن بطريقة ما جزء منظم وذو تأثير من البشرية (ضم في عداده بعضٍ مواطنينا أيضاً) من أن يجعل مجتمعنا بأكمله، قرابة ٣٠٠ مليون إنساناً من غير الأخذ في الحسبان «حلفائنا»، يتصرف بنشاط وفاقاً لبرنامج جلب منافع كبيرة لهذه المجموعة، وألحق أذى هائلاً بنا أنفسنا. اليوم، إذ انتهت مرحلة مهمة من هذا البرنامج وباتت النتيجة أمام أعيننا، يمكننا أن نعدَّ هذا حقيقة فعلاً وأن لا نتوقف عنده بعد الآن. الخسائر والمكتسبات معروفة وواضحة، وهي محسوبة ومنشورة في كتب المحاسبة العالمية، ومكتوبة حرفياً على سحنات السياسيين السعداء.

مهما قال الشكاكون الذين فطنوا بعد فوات الأوان، إذا ما اعتبرنا أننا نحن من يمثل الشعب (أي الجسد الواحد ذا الإدراك فوق الشخصي)، فقد آن الأوان كي نعترف بأن حكمتنا الشعبية قد كبت لسبب من الأسباب. لقد ابتلعنا على نحو جماعي الطعم تلو الطعم حتى ساقونا إلى الخطاف وأخرجونا إلى سطح التقطيع. صحيح أن ثمة اليوم أيضاً من يصيح وهو مستلق على هذا السطح: «هذا ما كنت أريده ولا أستطيع أن أتخلى عن المبادئ! فليعش الرفيق تشوبايس[١]!». غير أن هؤلاء ليسوا إلا أصحاب طبائع هشة، ولا يثيرون إلا الشفقة.

---

(١) **أناتولي تشوبايس** (١٩٥٥) رجل سياسية ودولة. شغل من ١٩٩١ وحتى ١٩٩٤ منصب رئيس لجنة الدولة في روسيا الاتحادية لإدارة ملكية الدولة. ومن ١٩٩٤ حتى ١٩٩٦ منصب النائب الأول لرئيس إدارة الرئيس الروسي، ومن ١٩٩٦ – حتى ١٩٩٧ منصب نائب رئيس الحكومة. من أشهر شخصيات الحقبة ما بعد السوفييتية في مجال الإصلاحات والاقتصاد الليبرالي (**المترجم**).

إذن، تعالوا نفهم ماذا كان هذا الطعم، ومن جهزه، وبأي كلمات ألاحوا به أمام أنوفنا. لأن ما فعلوه بنا يسمونه اسماً مملاً: هو التلاعب بالوعي الاجتماعي. إن برنامج التلاعب هذا ليس له مثيل في التاريخ بأبعاده ونفقاته ومدته ونتائجه. وأنجزت في أثناء التحضير له وتنفيذه كمية هائلة من الاكتشافات وحتى الابتكارات، ورُوكمت معرفة جديدة مهمة عن الإنسان والمجتمع، وعن الإعلام واللغة، وعن الاقتصاد والبيئة. قبل أن تبدأ أعمال الحسم في روسيا أجريت اختبارات «حادة» (وغالباً دموية حصراً) على الكثير من الشعوب، وتم الحصول على معرفة قيِّمة حول الإثنيات والأنتروبولوجيا. لم يتغير العالم بسبب من انهيار الاتحاد السوفييتي فقط. لقد غير النشاط الخفي نفسه في مجال التلاعب بالوعي الاجتماعي لعدة شعوب على الأرض وجه العالم ومس عملياً كل ساكن على الكوكب. وخصوصاً الفئة المثقفة من الإنسانية والقارئ والمشاهد التلفزيوني.

نجاح التلاعب بوعي شعوب الاتحاد السوفييتي، وفي مقدمتهم الشعب الروسي («الشعب الأكثر عصياناً» وفاقاً لكلام دالاس) أصاب على نحو خطر بالدوار رؤوس السياسيين المنتصرين وخبرائهم. الصحافة اليوم مليئة بالزعيق الظافر حول الإمكانية الجوهرية للتحكم التام بسلوك الإنسان وبنفقات قليلة جداً. أصيبت بالمقابل بالغم جملة أولئك الذين عدوا أنفسهم ضحية التلاعب، وباتوا يؤمنون بسلاح سري اخترعه الــ ك. ج. ب. أو إدارة المخابرات المركزية (أو كلاهما)، ويؤمنون بوسائل تأثير نفسية استطاع من خلالها السياسيون الخبثاء أن «ينوموا» الناس. واضح أن الإيمان بقوة العدو الغامضة تصيب إرادة المقاومة بالشلل. لذلك فإن «بناء» هذا الإيمان (عبر الشائعات والمقالات. «الفضائح» و«الاعترافات») - هو بحد ذاته وسيلة مهمة من وسائل التلاعب بالوعي الاجتماعي.

يقسم الناس بغض النظر عن عقائدهم وميولهم السياسية إلى نوعين. بعضهم يعدون أن الإنسان، من حيث المبدأ، هو طفل كبير، وأن التلاعب

بوعيه (طبعاً من أجل خيره هو نفسه) من قبل حاكمه المتنور والحكيم – ليس مسموحاً به فقط، بل هو وسيلة «تقدمية» مفضلة. يرى مثلاً الكثيرون من المختصين والفلاسفة أن الانتقال من القسر، وخصوصاً المترافق مع استعمال العنف، إلى التحكم بالوعي هو خطوة كبرى في تطور البشرية.

الآخرون يرون أن حرية إرادة الإنسان التي تفترض امتلاك عقل صاف وتسمح بالقيام باختيار مسؤول (وليكن خاطئاً) – هي قيمة هائلة. ترفض هذه الفئة من الناس شرعية التحكم بالوعي وترفض تبريره الأخلاقي. وفي النهاية يرون أن العنف الجسدي أقل تدميراً (إن لم يكن للفرد فلجنس البشر) من ممارسة «الزومبي»[١] **ZOMBIE** على البشر وتحويلهم إلى روبوتات.

يتحدد هذان الموقفان انطلاقاً من قيم الإنسان ومثله. هذا معناه أن الجدل حول أي الموقفين أصح وأفضل ليس ذا نفع. إنه يشبه تماماً الجدل حول أيهما أهم – الروح أم الجسد. يمكن أن نحاكم عقلانياً، وحتى منطقياً، أي العواقب على المجتمع والفرد يجرها تحول هذا الموقف المثالي أو ذاك إلى مذهب سياسي. وهل يؤثر تجسيد هذا المذهب في الحياة تأثيراً مباشراً في عيش الإنسان– أم أن لهذا التأثير مستويات عتباتية حرجة. أي هل مسموح «بالتلاعب ضمن حدود عقلانية» أم أن الاعتراف به على أنه وسيلة إدارة مبررة يعني القفز إلى مجتمع مختلف نوعياً.

لذلك سنسعى إلى تجنب الاتهامات وتقويم المُثُل في هذا الكتاب الذي نعرضه على القارئ بصفته أساساً فقط، وقالباً للحوار. سنتحدث عن الأفعال

---

(١) الزومبي في الثقافة الشعبية المعاصرة هو إما الجثة المعادة إلى الحياة بطريقة خيالية أو الإنسان الحي الذي فقد التحكم بذاته وجسده أو الخاضع لأوامر الآخر. يعود مفهوم الزومبي إلى العبادات الدينية في غرب أفريقيا التي تنص على قدرة السحرة الخارقين على إعادة إحياء الموتى وتحويلهم إلى عبيد لهم. (**المترجم**).

– فهذه يمكن، بل من الضروري، تقويمها من موقع الضمير كونها تمس حياة الناس. لكن إخفاء أحكامنا لا جدوى منه، بل هو مضر، فهذا ليس مناظرة دعائية. لا حاجة إلى تجنيد المناصرين لما نؤمن به، فالأهم بكثير هو تشكيل بؤرة للحوار في مجتمعنا المنقسم. لذلك أفضّل أن أحذر من أن هذا الكتاب قد كتب من موقع عدم تقبل التلاعب لا بالوعي الاجتماعي ولا بالوعي الفردي. إنني واثق من أن ما ينتظر الإنسان هو المصيبة على هذه الطريق التي توفر، طبعاً، الراحة والرفاهية. ينتظره استنزاف الوجود وانطفاء جنس البشر كلهم بمن فيهم فئة الكهنة الجالسين وراء منصة التحكم بآلة التلاعب.

لكن هذا شأن شخصي، والأفضل أن نقرأ عنه لدى دوستويفسكي[1]. أما نحن فسنتحدث عن الأشياء الواضحة والمدركة – عن تكنولوجيا التلاعب بالوعي، التي تكونت في زماننا والتي استخدمت ضد الاتحاد السوفييتي وضدي وضد شركائي في المواطنة.

---

(١) **فيودور دوستويفسكي** (١٨٢٢ – ١٨٨١) الكاتب الروسي الكبير، الذي أنهى المدرسة الهندسية المتوسطة، ثم التحق بالجيش، وبعد أن تخرج برتبة ضابط استقال وتفرغ للعمل الأدبي. استهوته في بادئ الأمر الفكرة الاشتراكية، وانخرط في إحدى حلقات الاشتراكيين، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام، لكن العفو القيصري أدركه وهو على المقصلة، واستبدل الحكم بالنفي. تحول في ما بعد حتى صار يعتبر أن منبع العدمية والليبرالية والإجرام والإدمان هو الإشتراكية لأنها تنكر وجود الله. أشهر أعماله "الجريمة والعقاب"، "الأخوة كارامازوف"، "الأبله" **(المترجم)**.

القسم الأول

ما معنى التلاعب بالوعي

الفصل الأول. عمّ يدور الحديث

حين يسمع إنسان يحترم نفسه عن التلاعب بوعيه فإنه يظن أنه هو تحديداً لا يمكن أن ينخدع. فهو فرد، وذرة حرة من البشرية. كيف يمكن التأثير فيه؟ الذرة ذرة، لكن تبين أن بالإمكان شطرها، وإن كانت كلمة ذرة (آتوم) بحد ذاتها تعني غير القابل للانقسام.

فلنحدد مادة حديثنا سائرين من العام إلى الخاص.

ثمة في جميع التصورات عن العالم، بدءً من الأساطير القديمة ذاتها، فعل الخلق. تحول الآلهة الفوضى (Chaos– هيولى) إلى الكون (Cosmos) – أي إلى كلٍّ منتظمٍ، الجزيئات جميعها فيه مرتبطة بخيوط وأوتار غير مرئية. إن الإنسان المفعم بالمشاعر الكونية يحس بوحدة الوجود، ويرى نفسه ساكنا من سكان هذا البيت الهائل والرائع.

لقد حطمت الثورة العلمية وكوبرنيكوس وغاليليه ونيوتن(١) هذا التصور عن العالم بصفته كوناً متناغماً، و«اكتشفوا» الفضاء وجعلوا الوقت

(١) **نيكولا كوبيرنيكوس** (١٤٧٣– ١٥٤٣) فلكي بولوني مكتشف مركزية الشمس ودوران كوكب الأرض حولها رافضاً بذلك التعاليم المتبعة خلال قرون عن أن الأرض هي مركز الكون. عبر كوبيرنيكوس عن أفكاره في مؤلفه «حول دوران الأجرام السماوية» (١٥٤٣) الذي منعت الكنيسة الكاثوليكية تدواله بين عامي ١٦١٦ وحتى ١٨٢٨. **غاليليو** (١٥٦٤ – ١٦٤٢) عالم إيطالي وأحد مؤسسي العلوم الطبيعية، عد أن التجربة هي أساس المعرفة وأرسى أسس علم الميكانيك المعاصر، وطرح فكرة الحركة النسبية وأوجد قوانين العطالة وسقوط الجسم الحر وحركة الأجسام في المستوي المائل و الحركة المركبة وغيرها. صنع تيلسكوباً يكبر الأجسام ٣٢ مرة، واكتشف الجبال على القمر، وأقمار المشتري الأربعة والبقع الشمسية. دافع عن فكرة

«مستقيماً». غير أن فكرة التأثير المتبادل بين الأشياء ظلت باقية – لكن على هيئة الحتمية الميكانيكية. كل شيء في العالم مترابط، لكنه ما عاد الآن مترابطاً بأوتار رائعة، بل بقانون الجاذبية الكونية مثل المسننات في الساعة. فالأرض تبرمج سلوك الحجر المقذوف.

«الله لا يلعب بالنرد!» – هذه عقيدة علم الميكانيك، حتى في أحدث نسخه. هذا الإيمان بأن تأثير جسم واحد في سلوك جسم آخر تأثيراً دقيقاً تماماً وأحادي المعنى قد وصل إلى أقصى حدوده. لقد أكد لابلاس(1) على أنه قادر، إن أطلعوه على إحداثيات الجزيئات في الكون ونبضها جميعها (كتلتها واتجاه حركتها وسرعتها)، على أن يحسب وضع العالم (جزيئاته كلها) في أي لحظة من الماضي والمستقبل. لقد تخطينا الآن في الكثير من النواحي مثل هذه الحتمية «العنيفة» ونعترف بأن العالم أعقد من آلة ميكانيكية.

إننا لا نعير في الحياة العادية الهادئة انتباهنا إلى التأثير المتبادل بين الأشياء. لا يخطر في بالنا أن نفكر في ما الذي كان سيحدث لو أن الاحتكاك

مركزية الشمس ما أدى إلى خضوعه لمحاكم التفتيش فاضطر إلى التخلي عن تعاليم كوبيرنيكوس. قضى بقية حياته محتجزاً في منزله قرب فلورنسا. عام ١٩٩٢ أعلن الباب يوحنا بولس الثاني أن قرار محكمة التفتيش كان خاطئاً ورد الاعتبار لغاليليو.
اسحق نيوتن (١٦٤٣ – ١٧٢٧) رياضي وميكانيكي وفلكي وفيزيائي إنكليزي. مؤسس علم الميكانيك الكلاسيكي. ومكتشف قانون الجاذبية الأرضية. ووضع نظرية حركة الأجرام السماوية. (**المترجم**).

(١) **بيير سيمون لابلاس** (١٧٤٩ – ١٨٢٧) عالم فلك ورياضي وفيزيائي فرنسي. مؤلف نظرية الاحتمالات وعلم ميكانيك الأجرام السماوية (حركة المنظومة الشمسية عموماً واستقرارها). مؤلفاته: «نظرية الاحتمالات التحليلية» (١٨١٢) و«رسالة علم الميكانيك السماوي» (الأجزاء من ١ إلى ٥ – ١٧٩٨–١٨٢٥) له الكثير من الأعمال في المعادلات التفاضلية والرياضيات والفيزياء والحرارة والصوت وعلم المساحة وغيرها. (**المترجم**).

على سبيل المثال لم يكن موجوداً. لو لم يستطع المسمار أن يتماسك في الخشب، ولو لم يكن بالإمكان شد العزقة على اللولب. لا يدهشنا أن كومة من الحبوب الملساء المنسابة، ما إن تبقى مستلقية بعض الوقت حتى تتشابك في وحدة متراصة. دعكم من الحبوب، حتى الرمال الصلبة تماماً والملساء تتماسك في كومة بحيث يمكنكم السير عليها. لكن يكفي أن تطبطبوا على هذه الرمال قليلاً حتى تحطموا ترابط حباتها الضعيف، فتتزعزع مثل الماء ويمكن أن تغرقوا فيها.

ما يجذب انتباهنا ليس حال السكون، ولا المسمار البارز من لوح الخشب ولا جبل الرمال المسالم، بل حال تحطيم المنظومة المستقرة وتبدل (إعادة بناء) هيكليتها، أي حال الكوارث. يذهلنا أن ساقية صغيرة، ولو بالقطرات، يمكن أن تجرف سداً هائلاً. ومن غير الممكن السماح بهذه الساقية في أي حال من الأحوال لأنها سوف «تطلق» عملية متسلسلة متسارعة ذاتياً. فالقطرة التي تزيح حبة تراب سوف توسع مجرى الماء بعض الشيء. لقد دخلت ثقافتنا أمثولة هولندية عن صبي صغير رأى كيف كان يرشح الماء من السد فسد الثقب بإصبعه، وظل واقفاً في مكانه منهكاً حتى عثر عليه الكبار.

حين تعرفنا إلى الطاقة الذرية ذهل البشر من تجلي هذا الأثر العتباتي المرعب. هاكم، قطعة من اليورانيوم الخامل تماماً موضوعة أمامكم. أضيفوا إليها جزيئاً مجهرياً – بروتوناً واحداً في الحال المثالية– وسيحدث الانفجار النووي. تنشأ كتلة حرجة يتخطى فيها التأثير المتبادل للجزيئات العتبة التي يقع وراءها التفاعل المتسلسل لانقسام النواة. إنني أذكر كيف فكر الكثيرون من الناس وتحدثوا عن ذلك عام ١٩٤٥ حين فجر الأمريكيون القنبلتين الذريتين في اليابان، وكيف نشر في الصحف شرح الفيزياء المشهور للانفجار الذري.

وربما ما يثير الدهشة أكثر هو الآثار العتباتية في الانفجارات اللانووية، التي تحدث نتيجة التفاعلات الكيماوية وتراكم الحرارة. انفجرت في

ميناء هامبورغ على المرسى أكوام من الأسمدة الآزوتية غير الخطرة عادة إطلاقاً. فقط لأن حجم هذه الأكوام كان كبيراً جداً، وازداد فيها تراكم الشقوق[١] الحرة عن القيمة الحرجة، بدأت العمليات التي لم يكن ينتظر حدوثها أحد. حين أقدم ن. ن. سيميونوف[٢] على دراسة التفاعلات التسلسلية المتفرعة أجرى العديد من التجارب المدهشة التي ظلت غير قابلة للتصديق مدة طويلة. لقد اكتشف أن أبخرة الفسفور تشتعل بوجود الأوكسجين في حيز ضيق من الضغط. ففي وعاء زجاجي يحتوي على مزيج من أبخرة الفسفور والأوكسجين حدثت ومضة حين فتح الصنبور وأدخل إلى الوعاء غاز الأرغون الخامل، الذي يمكن بوساطته إطفاء الحرائق! وعلى العكس، فقد خمد الاحتراق على الفور حين أدخل الأوكسجين النظيف إلى الوعاء الذي فيه الغاز المشتعل!

حتى منظومات الطبيعة غير الحية تكوِّن مثل هذه التشكيلات المعقدة، وتكشف عن مثل هذا السلوك المدهش والمعقد ما يجعلكم تقريباً تبدأون تتقبلون الاستعارات جدياً. يخيل لكم أنها تمتلك ذاكرة وتفكيراً. ها هي السحب تسبح، وأحياناً، تندفع في السماء محافظة زمناً طويلاً على شكلها الغريب – المحكم، والدقيق أحياناً. لماذا هذا البروز الطويل الشبيه بعنق البجعة لا يتشتت، ولا يتبعثر حتى بالرياح؟ فهو ليس سوى ضباب من أصغر قطرات

(١) الشق في الكيمياء هو مجموعة من الذرات ذات الوجود الجماعي المستقل، تنتقل في أثناء التفاعلات الكيميائية كمجموعة، وليس لها وجود استقلالي ثابت خارج المركبات الكيميائية. **(المترجم)**.

(٢) **نيكولاي سيميونوف** (١٨٩٦ – ١٩٨٦) فيزيائي سوفييتي وأحد مؤسسي الفيزياء الكيميائية. عضو أكاديمية العلوم السوفييتية (١٩٣٢). وضع النظرية الكمية العامة للتفاعلات التسلسلية (١٩٣٤)، ونظرية الانفجار الحراري للمزيج الغازي. حائز على العديد من الجوائز (جائزة لينين عام ١٩٧٦ ونوبل عام ١٩٥٦ بالمناصفة مع هينشيلوود). **(المترجم)**.

الماء. لماذا هو راسخ توازن التجاذب والتنافر المتبادل بينها؟ لماذا خرطوم الإعصار الدقيق يمشي في الأرض ثم في القرية وكأنه يبحث عن كوخ من الأكواخ لينتزع سقفه؟ فهو لا يتفكك، ولا يتحطم إلى هبات رياح غير منتظمة، حتى حين يصطدم بعائق كبير. ها هو يطيح بكومة من الألواح الخشبية فيخيل أنه انتهى وتحطم. لكنكم سترونه بعد أمتار عشرة وهو يستعيد بناءه ويبرم بالسرعة ذاتها ويمضي قدماً.

هذا مع أن التأثير المتبادل في هذه المنظومات غير العضوية يعزى فقط إلى انتقال الكتلة والطاقة. وهي لا تستطيع بالمعنى الصارم للكلمة أن تتقبل المعلومة وتعالجها. أما حين ننتقل إلى مملكة الطبيعة الحية فإننا سنرى تهذيباً وتعقيداً في العلاقة المتبادلة بين «المشاركين» ما يجعل العادة وانعدام حب المعرفة المنقذ هما ما يتيحان لنا فقط العيش وممارسة أعمالنا، وإلا ما كنا لنفعل شيئاً سوى التأمل والتفكير. ولكان حتى التعرف إلى أبسط أفعال تسجيل المعلومة الجينية وحفظها ومقارنتها سيوقظ الشعور الديني. كيف قدر لهذه الأعجوبة أن تنشأ من تراكمات عشوائية لمواد آزوتية، ومن مادة مخاطية ما، عبر الاختبار والانتقاء؟ هل يعقل أن الوقت كاف لدى الكون لبناء هذه الآلية من خلال الارتقاء البسيط؟

كيف يتم تأمين الاستقرار غير المعقول في «سلوك» الجسم الحي في أثناء تنفيذ البرنامج المسجل في جيناته؟ لقد أذهلتني في شبابي حقيقة ربما تكون تافهة من وجهة نظر الأخصائي. عملت في كوبا في المناطق الاستوائية. بدا الوقت هناك وكأنه لا يتحرك. الشمس نفسها كل يوم والحر نفسه والنبات الكثيف. فجأة بدأ في نهاية أيلول، وفي يوم واحد تقريباً، قسم من الأشجار، التي جيء بأجدادها إلى هنا من أوربا قبل قرون، يصفر وتتساقط أوراقه. لماذا؟ ما السبب؟ من أعطى الإشارة وكيف؟ فلا شيء قد تغير في الوسط المحيط. إن بنية الشجرة خاضعة لبرنامج مسجل في جزيء الـــ ر ن ك، و«لمؤقتِ بيولوجي» يتك بدقة مطلقة عبر آلاف السنين.

انظروا إلى عباد الشمس، الذي ليس لديه «أعضاء حركة»، كيف يدير رأسه بدقة الدقيقة مقتفيا أثر الشمس. تلتقط «أعضاء الحس» لديه بدقة الزاوية التي يسقط بها النور عليه، فتعطي «أعضاء التحكم» الأوامر الدقيقة جداً للخلايا.

لقد شاهد الكثيرون على الأرجح الفيلم التعليمي «الكريات البيض». مهمة هذه «الكريات الدموية البيض» هي الهروع إلى المكان الذي حدث فيه خلل في سلامة الأوعية الدموية وبدأت تنفذ منه أجسام غريبة إلى الجسم. تهاجمها الكريات البيض وتلفها، فتموت وتغطي «بأجسادها» المنفذ. إنها تلتقط وجود المواد الغريبة في الدم ولو بكميات لا تذكر، ثم تندفع إلى حيث يزداد تركيزها. هكذا تعثر على منبعها، وتتحرك بسرعة حتى بعكس تيار الدم. إنها ليست سوى خلية واحدة لا أنف لها ولا دماغ ولا أرجل. لكننا نراها في الفيلم المصور تحت مجهر قوي مثل جيش من المواد العاقلة الغريبة والنشطة جداً. ثمة في أحد مشاهد الفيلم وعاء يحتوي على محلول فسيولوجي (محلول ملح ضعيف) ومقسوم بحاجز زجاجي. تحت الحاجز الكريات البيض في المحلول، أما في الأعلى في الركن فتُقطر بحذر قطرة من مادة زلالية مغايرة في النوع. وها هي الكريات البيض تبدأ تندفع في الأسفل بعد أن «تشتم» رائحة العدو، ثم تحدد الاتجاه، وتبحث عن المسام في الصفيحة الزجاجية وتشرع تندس فيها. تتسلل إلى الأعلى عبر هذه المسام الأسطوانية كما يخرج رجل من فتحة بئر «متكئاً على يديه»، وتسبح مباشرة نحو قطرة الزلال. إن برنامج السلوك هذا معقد وينفذ بانتظام.

إليكم الفيروس - التكوين الفاصل بين الحياة والطبيعة غير الحية. إنه يدل على القدرة على الإخلال ببرنامج الآخر. يتكيف الفيروس ليستغل نمطاً محدداً من الخلايا الحية، «فيحسن» العثور عليها والتشبث بقشرتها. وما إن يتشبث بها حتى يحقن في الخلية جزيئاً واحداً من الـــ ر. ن. ا. (rna-

الحمض النووي الريبي)، كتبت فيه أوامر «إنتاج» الفيروسات. وتظهر في الخلية حكومة ظل سرية تُخضع لإرادتها النشاط الحيوي لهذه المنظومة الهائلة (الخلية مقارنة بالفيروس هي بلاد كاملة). تصير موارد الخلية الآن موجهة لتنفيذ الأوامر المكتوبة في المصفوفة المقحمة فيها، ويعاد ضبط منظومات الخلية الإنتاجية المعقدة كي تنتج ألباب الفيروس وتلبسها قشرة بروتينية ثم تموت الخلية المنهكة بعد ذلك.

هذا أنموذج تأسيسي ابتدائي للتأثير المتبادل الذي يجبر فيه أحد مشاركي المأساة الحياتية الآخرين على العمل لخدمة مصالحه ووفاقاً لبرنامجه بحيث لا يسمون ضحايا ولا يثير لديهم المقاومة. إننا أمام حال من التلاعب المدبر عن طريق استبدال الوثيقة التي كتب فيها برنامج الإنتاج بأكمله.

عموماً، لا يوجد عدد لأساليب التأثير في سلوك أعضاء المجتمع البيئي المحيط بالتكوين الحي. يحيط النبات بسداته، وتحيط المدقة ذات الديكور الفخم الجذاب بالزهرة، التي تفرز الرحيق العطري. تندفع الحشرة نحو رائحة الزهرة مسددة ثمن الرحيق بالتلقيح.

تتظاهر السرعوفة (حشرة فرس النبي) بأنها وريقة جافة، ولا يمكنكم تمييزها. إنها تنتحل هيئة بريئة متواضعة كاذبة كي تهدئ ضحيتها.

تطير النحلة المستكشفة إلى الخلية ما إن تجد خميلة من الأزهار الحاملة للرحيق، وتبدأ ترقص أمام زميلاتها مشيرة بدقة إلى الهدف والمسافة التي تفصلهن عنه.

حين تجد الحبارة نفسها ضحية هجومِ مفترسٍ مرعب لها، تطلق سائلاً حبرياً ثم تنتزع أحشاءها وترميها في الغيمة القاتمة. تتمايل الأحشاء هناك على نحو مغر فيفرح المفترس الساذج: لقد وقعتِ في الفخ أيتها الحبارة العزيزة! وبينما يبدأ يجوس في غمامة الحبر تبتعد الحبارة التي ضحت بجزء من أجل الكل لتستولد أحشاء جديدة.

أحياناً «يلتقط» مفترس أو متطفل الإشارات التي ترسل إلى الوسط المحيط، فتصير قاتلة لمرسلها. يلحق فطر الستريغ ضرراً هائلاً بمحاصيل القمح في آسيا وأفريقيا. لا تنتعش أبواغه النائمة في الأرض إلا في اليوم الرابع من إطلاق حبة القمح جذرها بعد زراعتها - يتطفل الفطر على برعم الجذر الطازج. كيف يحدد هذا الفطر لحظة تنشطه وهجومه؟ الإشارة هي إحدى المواد التي يفرزها الجذر (عزلوها منذ وقت قريب من أرض مزروعة ونظفوها ودرسوا بنيتها وسموها ستريغول). يكفي أن يقع جزيء واحد من الستريغول على بوغ الفطر حتى تنطلق عمليات عاصفة من النشاط الحيوي. تبرمج بذرة القمح «عبر تسرب المعلومات» سلوك المتطفل عليها جالبة الكارثة لنفسها.

يحدث العكس في أحوال أخرى، فيبرمج المتطفل «بمعلومته الكيميائية» (عبر إفرازات ما) سلوك الأحياء التي يستغلها. تكون فاعلية هذه البرمجة عالية أحياناً إلى حد يصير مناسباً معه الحديث عن التأثير التنويمي. وهذا يثير الدهشة خصوصاً حين تشارك في البرنامج كتلة كبيرة من الأجسام، كما يحدث مثلاً لدى الحشرات «الاجتماعية» التي تعيش في مستعمرات كبيرة. هكذا، مثلاً، اتخذت لنفسها مكاناً خنافس اللوميهوزا الضئيلة في أوكار النمل[١].

تشبه خنافس اللوميهوزا بسلوكها وحركاتها النمل إلى حد كبير، وهي تتقن جيداً لغة إيماءاتها. تمنح حشرات النمل المتضامنة والمحبة للعمل الطعام لشقيقاتها عند أول طلب. وتعبر النملة عن طلبها هذا على نحو معين حين تربت على رفيقاتها. «تعلمت» الخنافس هذه الإيماءات وصارت تنتزع

(١) أورد فاشبير هذا المثال المأخوذ من كتاب «النمل» لهاليفمان في صحيفة «دويل» (المبارزة). وهو يجري مماثلة سياسية مع الأنظمة في وكر النمل تفرض نفسها تلقائياً. سنترك السياسة جانباً فما يهمنا هو مبدأ العلاقة المتبادلة بين الخنافس والنمل.

طعامها بسهولة. لكنها شرهة جداً وتجبر أفواجاً كاملة من النمل على أن تتحول لإطعامها. ثمة على جسم الخنافس حزم صغيرة من الشعر الذهبي تتجمع عليها الإفرازات. تلعق النملات العاملات هذه الإفرازات فتفقد أي نوع من أنواع التفكير السليم[١]. وتبدأ تطعم الخنافس ويرقاتها باندفاع يجعلها تحرم شقيقاتها وحتى يرقاتها ذاتها من الطعام. إذ تحب الدخلاء فإنها تنحدر هي نفسها إلى الدمار التام، حتى أنها تطعم الخنافس بيوضها مبقية نفسها بلا خلف، وإذا ما تعرض وكرها للخطر فإنها تنقذ يرقات الخنافس تاركة يرقاتها.

واضح أن خنافس اللوميهوزا ترسل عبر إفرازاتها المخدرة إشارات تحاصر برنامج السلوك المهم المزروع في جسم النملة. هذا البرنامج الذي يحرض النملة في الحال الطبيعية على إنجاز الأعمال الموجهة من أجل تأمين الحياة في وكر النمل واستمرار النسل. ويبدو أن المعلومة المنقولة من قبل الخنافس لا تحاصر البرنامج «الطبيعي» فقط، بل تعيد ترميزه وتنشط أفعال النمل التي تجلب النفع لهذا المتطفل، وتكون النملة في أثناء ذلك سعيدة بتنفيذ هذه الأعمال.

لكن لماذا تخصص صحيفة «دويل»[٢] السياسية الخالصة مكاناً لهذا المشهد من حياة الحشرات؟ لماذا حظي في وقته اكتشاف الستريغول ووصفُ

---

(١) تستخدم الخنافس في هذا برنامجاً آخر مكتوباً في النمل. يحتفظ النمل في زرائب مجهزة تجهيزاً خاصاً بمزارع كاملة من قمل النبات الذي يفرز سائلاً حلواً شبيها بالرحيق. تحلب النملات القمل مثل الأبقار بالضغط بأرجلها على القسم الضروري من جسم القملة، وتتلذذ بلعق السائل من الشعيرات. تتظاهر خنافس اللوميهوزا بأنها مرضعة وتعرض على النمل «حليبها».

(٢) صحيفة دويل (المبارزة) أسبوعية روسية صدرت بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٩. سمت نفسها «صحيفة صراع الآراء الاجتماعية من أجل أولئك الذين يحبون التفكير». وكان توجهها الأساسي مناهضاً للصهيونية والفاشية المعاصرة، التي تعني بها الصحيفة المنظمات اليهودية والليبراليين، ومناهضاً للنزعات الأولغارشية في تطور الدولة الروسية المعاصرة. وكان من بين الناشرين فيها مؤلف الكتاب نفسه قره - مورزا (**المترجم**).

العلاقة المتبادلة بين فطر الستريغ وحبة القمح بالاهتمام الكبير؟ لأننا سنعرف الأوضاع التي عانينا منها في حياتنا البشرية. وأحياناً، لم نعان منها وحسب بل شعرنا بأننا ضحاياها. أي لأن العلاقة المتبادلة في عالم أشكال الحياة الدنيا، وأحياناً في الطبيعة غير الحية، هي مثال لنا وأنموذج مبسط لما يحدث في المجتمع البشري. وكما يشير كارل ماركس[١] فإن: «التلميحات إلى الأسمى لدى الأجناس الحيوانية الدنيا لا يمكن أن تكون مفهومة إلا إذا كان هذا الأسمى قد صار معروفاً».

إذ نلحظ علاقات البشر المعقدة (وحتى التي تم تعقيدها خصيصاً) فإننا نبحث عن مماثلات جلية و«شفافة» في الطبيعة ونراقبها عبر العدسة المكبرة أو المجهر. هكذا نبسط مشاكلنا المعقدة و«نعريها»، ونجد لها في المماثلات البسيطة والأنموذجات كلمات ومفاهيماً وأشكالاً – أي أدوات التفكير والتفسير. لكن اهتمامنا الرئيسي هو الإنسان.

الإنسان في الطبيعة الحية هو ظاهرة جديدة نوعياً. إنه ليس ببساطة مخلوقاً اجتماعياً قادراً على العيش متبادلاً المعلومة بكثافة مع أمثاله وحسب (فالنمل على هذه الشاكلة)، بل يمتلك العقل القادر على التفكير التجريدي، ويمتلك الكلام واللغة. اللغة والتفكير منظومتان كبريان معقدتان، يمكن التأثير فيهما بهدف برمجة سلوك الإنسان. يتمتع الإنسان بسيكولوجية معقدة، يعد التخيل الجزء الأهم منها. وهذا التخيل متطور إلى حد يمكن للإنسان معه أن يعيش في وقت واحد في بعدين، وفي «واقعين» – حقيقي ومتخيل. يحدد

---

(١) **كارل ماركس** (١٨١٨–١٨٨٣). مفكر ألماني ومؤسس النظرية الماركسية. وضع أسس الفهم المادي للتاريخ، وطرح مقولة حتمية هلاك الرأسمالية والانتقال إلى الشيوعية بنتيجة الثورة البروليتارية، وأكد على ضرورة القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. من مؤلفاته: «رأس المال» (١٨٨٥) «فقر الفلسفة» (١٨٤٧)، «الحرب الأهلية في فرنسا» (١٨٧١). (**المترجم**).

العالم المتخيل إلى درجة كبيرة (ولدى الكثيرين بالدرجة الأولى) سلوك الإنسان. لكنه متزعزع ومطواع، ويمكن التأثير فيه من الخارج بحيث لا يلحظ المرء هذا التأثير.

عموماً، لا يعيش الإنسان في العالم الفيزيائي القائم موضوعياً فقط، بل في ما يسمى النوسفير noosphere (المجال العقلي) المبني اصطناعياً – وهو عالم يبنى بنشاط جنس البشر الواعي. لقد أدرَجَ مفهوم النوسفير(١) كل على حدة الأنتروبولوجي الجزويتي الفرنسي تيار دو شاردين وفيلسوفنا ف. ي. فيرنادسكي(٢) المجرب العظيم في علم الطبيعة. وإذ نحاكم هذا المفهوم يمكننا القول إن الإنسان يعيش في عالم الثقافة المبني اصطناعياً.

على هذا النحو فإن الكائنات الحية جميعها تؤثر في سلوك تلك التي تتعايش معها في تجويفها البيئي مستخدمة الأشياء الطبيعية والبرامج التي

---

(١) كان هذا تخطياً واعياً للتفكير الغربي السائد وللإحساس بلوحة العالم الميكانيكية، التي يبعد فيها الإنسان إلى خارج حدود العالم، وتكون علاقته به بصفته دارساً له أو سلطاناً عليه. النوسفير (المجال العقلي) هو جزء ضروري من لوحة العالم ولا يمكن للإنسان أن تكون علاقته بالطبيعة مثل علاقة الذات بالموضوع.

(٢) **بيير تيار دو شاردين** (١٨٨١– ١٩٥٥) لاهوتي فرنسي وفيلسوف ورجل دين يسوعي وأحد واضعي نظرية النوسفير. له مساهمات كبرى في الأنتروبولوجيا والفلسفة واللاهوت الكاثوليكي. لم يترك من بعده مدرسة أو تلاميذ، لكنه أسس تياراً جديداً في العلم هو التياردية. **فلاديمير إيفانوفيتش فيرنادسكي** (١٨٦٣-١٩٤٥) مجرب في الطبيعة ومفكر وناشط اجتماعي روسي. مؤسس مجموعة العلوم المعاصرة عن الأرض، والكثير من المدارس العلمية ولعبت أفكاره دوراً بارزاً في تشكيل لوحة العالم العلمية المعاصرة، وتركزت اهتماماته الفلسفية حول المجال البيولوجي وارتقاء هذا المجال إلى المجال العقلي (النوسفير) الذي يصير فيه العقل البشري هو العامل المحدد للتطور وقوة هائلة تتساوى بتأثيرها في الطبيعة مع العمليات الجيولوجية (**المترجم**).

كتبتها الطبيعة على شكل غرائز. لكن الإنسان إضافة إلى ذلك يؤثر في سلوك الآخرين من خلال تأثيره في مجال الثقافة.

طبعاً، بالإمكان من حيث المبدأ برمجة سلوك الإنسان أيضاً من خلال التأثير الخارجي المباشر في البنية والعمليات البيولوجية فيه. مثلاً، بغرس إلكترودات في الدماغ وتحفيز أو تعطيل هذه المراكز أو تلك من مراكز التحكم بالسلوك. ويمكن حتى بشيء من الحذق التقني أن لا يتم غرس إلكترودات وإنما التأثير عن بعد في الجملة العصبية العليا لدى الإنسان باستخدام الحقول الفيزيائية أو الوسائل الكيميائية(١).

كما شاع كثيراً، في الماضي واليوم أيضاً، التأثير في سلوك الإنسان عبر التدخل الجراحي الفظ في جسمه. ظلوا في الولايات المتحدة الأمريكية زمناً طويلاً يستعملون على نحو واسع الجراحة الفصية – وهي الإزالة الجراحية لبعض المراكز في القسم الجبهي من الدماغ، فيفقد الإنسان المستاء بعد ذلك روح العصيان ويصير راضياً عن كل شيء (لا شك في أن أحدكم قد شاهد فيلم فورمان «الطيران فوق عش الوقوق»).

يتعرض قسم لا يستهان به من النساء في البلدان الفقيرة (ويحدث اليوم أيضاً، في ظل الأزمة الثقافية الصعبة، في جمهورية ألمانيا الديمقراطية

---

(١) أحدثت في زمانها الكثير من الضجيج تجارب خوسيه ديلغادو في جامعة أتلانتا، التي جعلت سرية فيما بعد. لقد اختبروا هناك ما يسمى «محفز الدماغ عن بعد». كانت ترسل إشارة عن بعد إلى الإلكترودات المغروسة في دماغ أحد القرود بمساعدة مرسل راديوي. وكان في مقدور المجرب وفاقا لما يراه أن يولد في الحيوان الرغبات والانفعالات – الشهية والخوف والعدوانية وما شابهها. أي أن يتحكم بالسلوك. زيادة على ذلك كان بالإمكان فعل ذلك بوساطة حاسوب مجهز بمرسل – أي كان السلوك «يبرمج» بالمعنى الحرفي للكلمة.

السابقة) للتعقيم طوعاً. إن هذا يغير تغييراً شديداً المجال النفسي وبعض جوانب السلوك. وحتى وقت قريب كان المخصيون في الكثير من البلدان يشغلون موقعاً بارزاً في المجتمع. كذلك يسلك الرجال الذين تعرضوا للإخصاء في طفولتهم أو شبابهم سلوكاً متوقعاً تماماً في المسائل المهمة(١).

لن نناقش في هذا الكتاب لا استعمال الالكترودات في «تصحيح» السلوك، ولا الجراحة الفصية، ولا فعل أشعة التأثير النفسي ولا التأثير بالعيون. فهذا كله يعد وفاقاً للمعايير الروسية تدخلاً إجرامياً في الجسم الإنساني، وعلينا أن نأمل أنه لن يستخدم في السنوات القريبة على نحو مكشوف وواسع. وإذا ما استخدمت هذه الوسائل في أحوال طارئة فإنها ستُكتشف عاجلاً أم آجلاً وسيصيب هؤلاء الأنذال نوع من العقاب. يعطينا التاريخ في هذا الخصوص أساساً للتفاؤل.

طبعاً، ينبغي أن نبقي السمع مرهفاً. ثمة ما يكفي من المتحمسين ذوي التفكير الشمولي، تحت أي راية، حتى الراية الديمقراطية نفسها. إنهم لثقتهم بأنهم قد منحوا الحق في اجتثاث علل الشعوب «المتخلفة» ينحطون بسهولة إلى استعمال مخططات التعديل البيولوجي «للمادة البشرية». قارنوا هذين التصريحين.

---

(١) حين يتحدثون عن المخصيين تتبادر إلى الذهن على الفور مجتمعات الشرق المستبدة – البلدان الإسلامية والصين القروسطية. غير أن الفكر المتنور لا يلحظ على نحو مخجل أنهم في الغرب الإنساني حيث حقوق الإنسان المقدسة كانوا حتى وقت قريب جداً، في قرننا، يخصون جملة من الصبيان ذوي السمع والصوت الجيدين من أجل دعم ثقافة الغناء السامية. يمكننا اليوم أيضاً أن نسمع في الغرب الغناء الرائع للمغنين المخصيين المشهورين (بالمناسبة، يبلغ خجل الإنسان المتعلم على الطريقة الأوربية حد أن الغالبية قد نست بطريقة ما أن كلمة تينور ذاتها تعني «المخصي»).

ل. تروتسكي[1] (١٩٢٣): «الجنس البشري، الحيوان العاقل الهامد، سوف يدخل من جديد في إعادة معالجة جذرية، وسيغدو تحت أصابعه نفسها هدفاً لأساليب معقدة في الاصطفاء الاصطناعي والتدريب النفسي الفيزيائي». غير أن تروتسكي لم يمض على الرغم من كل شيء أبعد من الاصطفاء والتدريب. تبين أن ورثة أفكاره أشد بأساً.

ن. أموسوف[2] (١٩٩٢): «سيؤدي تصحيح جينات الخلايا الجنينية مع الإخصاب الصناعي إلى اتجاه جديد في العلم القديم - اليوجينيا EUGENIC من أجل تحسين الجنس البشري. سيتغير موقف الرأي العام الحذر من التأثيرات الجذرية في طبيعة الإنسان، بما في ذلك العلاج القسري بالإلكترودات لأعتى المجرمين (من خلال القضاء)... لكننا هنا سنقع في مجال الطوباويات: أي إنسان وأي مجتمع يملك الحق في العيش على الأرض».

هذا كلام وأفكار متطرفين صريحين. لكنه يعكس رغبة عامة خفية لدى النخب («المتنورة» على الأقل) في امتلاك شعب أو سكان يسلكون في جميع مجالات الحياة سلوكاً مربحاً ومريحاً لهذه النخب تحديداً. هذان الزعيمان الروحيان «الصريحان» اللذان انتقيتهما ملفتان للنظر لأنهما يعدان معبودين لقسم مؤثر من الشريحة المثقفة في روسيا كلٌّ في مرحلته التاريخية. هيبة

---

(١) **ليف تروتسكي** (١٨٧٩-١٩٤٠) لقبه الحقيقي برونشتين. سياسي ورجل دولة وناشط في الحركة الاشتراكية الديمقراطية. وضع عام ١٩٠٥ نظرية «الثورة المستمرة». عضو المكتب السياسي في الحزب البلشفي عام ١٩١٧، وبين عامي ١٩١٩ و١٩٢٦. ونفي عام ١٩٢٩ إلى خارج الاتحاد السوفييتي بعد أن طرد من الحزب الشيوعي، وقتل في المكسيك على يد الإسباني ميركادير في عهد ستالين (**المترجم**).

(٢) **نيكولاي آموسوف** (١٩١٣) جراح سوفييتي في القلب والرئة. مؤلف كتاب «الأفكار والقلب» (١٩٦٥) وغيره. حائز على جائزة لينين عام ١٩٦١ (**المترجم**).

تروتسكي اليوم مشبوهة (وإن كان ثمة محاولة في أثناء البيريسترويكا لرفعه إلى منصة التتويج). لكن ن. أموسوف احتل منذ وقت قريب وفاقاً للاستطلاعات بين المثقفين المكانة الثالثة في قائمة الزعماء الروحيين الأحياء (بعد سولجينيتسين وليخاتشوف).

لكنني أكرر أننا لن نتكلم على مخططات «تحسين الجنس البشري» والعلاج بالالكترودات بأحكام قضائية ولا على ممارسة الزومبي بأشعة التأثير النفسي. بالمناسبة، صار مفهوم **ممارسة الزومبي** نفسه يستعمل كثيراً ذات اليمين وذات اليسار ما يجعل من المفيد تخصيص مكان صغير له وتحديد ماذا يعني.

من بين الخرافات المنتشرة في هاييتي استرعى الإيمان ***بالزومبي*** اهتمام العلماء. والزومبي هو الميت المعاد إلى الحياة، الذي يحرره السحرة الشريرون من القبر ويجبرونه على خدمتهم كعبد لهم. ثمة أسس مادية لهذا الإيمان: يستطيع السحرة إذ يستخدمون سماً عصبياً قوياً جداً neurotoxin (سم الأسماك رباعية الأسنان tetrodotoxin) خفض النشاط الحياتي الملحوظ للجسم حتى يصل إلى الموت الظاهري المصحوب بالشلل التام. إذا قدر للساحر أن يحدد الجرعة بدقة فإن هذا «المتوفى» يعود إلى الحياة في القبر وينتشله الساحر. يقدم الساحر لعبده «***خيارة الزومبي***» وهي عقار يحتوي على نبات *Datura stramonium L.* ذي التأثير النفسي القوي ما يجعله يصاب بالغيبوبة. فسر علماء الأنتروبولوجيا المعنى السوسيوثقافي أيضاً لممارسة الزومبي، فهي عقوبات يفرضها كهنة القبيلة بغرض الحفاظ على النظام وتأكيد سلطتهم. الإيمان بممارسة الزومبي وبقوة الزومبي منتشر بين فئات المجتمع الهاييتي كلها ويعد ***التونتون الماكوت*** المرعبون رجال الزومبي الخادمين للديكتاتور ديوفاليه[١]، وهو ما لم ينفه طبعاً.

---

(١) **جان كلود ديوفاليه** (١٩٥١) رئيس هاييتي بين عامي ١٩٧١ و١٩٨٦ عندما أطيح به وهرب خارج البلاد. تسلم السلطة في هاييتي من أبيه **فرانسوا ديوفاليه** (١٩٠٧-١٩٧١) الذي حكم هاييتي منذ عام ١٩٥٧ وأقام فيها نظاماً ديكتاتورياً. (**المترجم**).

لكننا لن نتحدث عن الزومبي بل عن الشيء البسيط الموجود في الواقع – هنا والآن– والذي صار جزءاً لا يتجزأ من حياتنا في الثقافة وفي الوسط المحيط بنا عموماً. سنتحدث عن التلاعب بالوعي وبسلوك الإنسان باستخدام الوسائل القانونية الواضحة والمرئية. سنتكلم على تلك التكنولوجيا الهائلة التي يستخدمها، انطلاقاً من واجباتهم الوظيفية ولقاء أجور غير كبيرة، مئات الآلاف من الموظفين المحترفين بغض النظر عن أخلاقياتهم الخاصة بهم وإيديولوجياتهم وذائقاتهم الفنية. إنها تلك التكنولوجيا التي تنفذ إلى كل منزل والتي لا يستطيع الإنسان من حيث المبدأ أن يختبئ منها. لكنه يستطيع دراسة أدواتها وأساليبها، وهذا معناه، أنه يستطيع أن يبني «وسائل حمايته الفردية».

فإذا غدت معرفة أدوات التلاعب بالوعي هذه وأساليبه متاحة لعدد كبير بما فيه الكفاية من الناس، فستصير ممكنة أعمال المقاومة المشتركة، أو في البداية، أعمال الوقاية من هذا التلاعب. طبعاً، سوف يبتكر المتلاعبون أدوات جديدة وأساليب جديدة. لكن هذا سيصير صراعاً غير سهل ومكلفاً، وليس قمعاً لسكان عزل وضعفاء. وسيصير صراع قلة قليلة (وإن كانت تملك المال والتنظيم) ضد جمهور هائل من الناس المبتكرين والمفكرين تفكيراً خلاقاً. الانتقال بحد ذاته إلى الصراع يعني انعطافاً مهماً في مصير شعبنا، وربما في مصير البشرية كلها.

خُصَّتْ روسيا في هذا الصراع المحتمل بدور مميز ومكانة خاصة. لقد انهمرت عليها بطريقة ثورية كالسيل تكنولوجيا التلاعب بالوعي المعاصرة كلها مصحوبة بنتائج صارخة ومتنافرة. لقد ولد هذا صدمة طبعاً، لكنه شكل في الوقت نفسه ظرفاً مهماً من أجل محاولة الإدراك، ومن ثم المقاومة. كانت عملية إحاطة الإنسان «بثقافة التلاعب» في أجزاء أخرى من العالم بطيئة وتدرجية (آسيا هي حال خاصة، ثمة لديها وسائل وقاية قوية). لم تحدث هناك صدمة ولا آلام مثلما حدث لدينا. تولَّد هناك اعتيادٌ خال من أي أمل في

محاولات التحرر الحادة الخلاقة. الضفدعة المرمية في الماء المغلي تقفز وإن كانت مجروحة. أما الضفدعة المرمية في الماء الدافئ فتطفو في القدر مستمتعة. إنها لا تلحظ أن القدر موضوع على النار، وأن حرارة الماء ستشتد. ستظل مستمتعة هكذا إلى أن تسلق.

مهمتنا أن نقفز ونساعد أولئك المستمتعين.

تتراكم المعرفة عن كيفية تأثير بعض الناس عبر التلاعب بالوعي في سلوك الآخرين كما في العلم والإبداع الفني، كذلك في التجربة اليومية. العلم الملزم بدراسة الواقع يصف في الأساس بنية عملية التلاعب نفسها وتقنياتها وأساليبها ومنظومة أساليبها بلا انحياز وعلى نحو محايد ومن غير أن يقدم تقويمات أخلاقية لأحد. هذه مقاربة تكنولوجية.

يغوص الأدب والمسرح والسينما في نفس الإنسان ويدرس دوافع تصرفاته ومنابع سرعة تصديق ضحايا التلاعب وعذاب ضمير المتلاعبين – يتم هذا كله عبر موشور المعايير الأخلاقية لهذه الثقافة أو تلك. أحياناً يبني الفنانون، وهم يصفون العالم الداخلي للمشاركين جميعاً في فعل التلاعب بالوعي، أنموذجات معقدة تبقى فيما بعد مادة للدراسات العلمية زمناً طويلاً. لقد «شطر» دوستويفسكي في «الأخوة كارامازوف» النفس البشرية وقدم كل جزء منها على هيئة مشارك مستقل في النزاع المعقد. ثمة حتى نظرية أن دوستويفسكي قدم في جملة أفراد أسرة كارامازوف تحديداً نفس الإنسان الروسي، طباعها الوحشية المقدسة وذهنها المرهف المتناقض وتعطشها لاختبار وضاعة السلوك كلها، وإغراء الخيانة.

لكن الرئيسي في الأمر هو أنه بنى أنموذجاً تنبؤياً، خوارزمية تقريباً، «للتلاعب الروسي». الذي يعمل بلا أعطال تحديداً مع حضور «الكارامازوفيين جميعاً» في الوسط الاجتماعي. يستخدم سياسيونا المرة تلو المرة هذه الخورازمية بنجاح، نزولاً عند نصائح خبرائهم الثقافيين الأذكياء. أما نحن، وعوضاً عن أن نقرأ دوستويفسكي بانتباه، فنبحث عن أشعة تأثير نفسي ما.

تشكلت على نحو منفصل مقاربة تركيبية هي وصف أحوال محددة تمت مراقبتها أو اختلاقها (case studies). «ينظِّف» الواقع فيها قليلاً بحيث يقنع الوصف بوجود تفاصيل حياتية، لكن الأنموذج يظهر في الوقت نفسه بوضوح كاف. لذلك يمكن في نهاية القصة استخلاص نتيجة محددة بما فيه الكفاية ومنطقها مفهوم للقارئ.

الأدب وفاقاً للتاريخ الأحدث مليء بشروح لأحداث مثل كيف جاء «حزب نابليون» في فرنسا بالجنرال الشاب - «رجل الأمة» إلى السلطة بحيث راحت قوى اجتماعية مؤثرة تتوسل إليه حرفياً ليقبل هذه السلطة. وقام منذ وقت قريب إيديولوجيو الغرب أمام أعيننا تقريباً بحملة رائعة في مجال التلاعب بالوعي الاجتماعي في أوربا مقنعين طبقتهم الوسطى بدعم اتفاقيات ميونيخ و«السماح» لهتلر بالسير نحو الشرق (مع أن إيقافه في تلك اللحظة لم يكن يحتاج إلى كثير من الجهد – لم يدر الحديث عن الحرب بل تحديداً عن السماح أو عدم السماح). هذه الحملة مشروحة كذلك بصفتها «حادثة أنموذجية». صارت جميع الحروب الأهلية المحلية والنزاعات القومية تُدرَس بعد الحرب العالمية الثانية على نحو مكثف، وصارت تُظهَر في كل حالٍ تقنياتُ التلاعب بالوعي الاجتماعي. أما عن «الثورات المخملية» والبيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي فليس ثمة ما يقال – ثمة هنا مادة دسمة لعلماء الاجتماع في العالم كلهم تكفيهم مائة عام. وحده «آب عام ١٩٩١»[١] قد تجاوز بمعاييره الرئيسية العمليات التحريضية الرائعة جميعها في التاريخ.

---

(١) محاولة الإطاحة بميخائيل غورباتشوف عن منصب رئيس الاتحاد السوفييتي في ١٩ آب من عام ١٩٩١من قبل لجنة الطوارئ الحكومية المكونة من بعض الناشطين في قيادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي وأعضاء في الحكومة والجيش والك. ج. ب. انتهت هذه المحاولة بتغيرات جذرية في الوضع السياسي في البلاد إذ أدى فشل المحاولة إلى استبعاد الحزب الشيوعي السوفييتي نهائياً عن الحكم وإلى تسريع انهيار الاتحاد السوفييتي (**المترجم**).

ليس ثمة لزوم للحديث عن الإبداع الفني. فموهبة الفنان تكمن تحديداً في عدم تعقب الأنموذج («الأخلاق») كثيراً، كي لا تكون «التجربة» التي يجريها الكاتب على أبطاله مختلقة ومصطنعة. الإنجاز الأسمى لهذا الجنس الأدبي هو على ما يبدو قتل الأب كارامازوف. إنه التجربة الحرجة *experimentum crucis* التي أجراها ووصفها دوستويفسكي بحِرفية مدهشة. وليس عبثاً أن يلقى الضوء عليها في مراجع التاريخ ومناهج العلم. لكن، عموماً، المؤلفات المخصصة للتأثير الدقيق في سلوك الإنسان تشكل قسماً كبيراً جداً من المراجع.

لن نتبع في هذا الكتاب مقاربة وحيدة من المقاربات، بل سنسعى إلى انتقاء الأفكار والمعلومات المفيدة لنا من مخزون المعرفة الجاهزة واستخدامها في «فضح» هذه الكلمات أو الأفعال التي نضطر إلى سماعها ورؤيتها واحتمالها في حياتنا الواقعية – اليوم وهنا، في روسيا.

الفصل الثاني.

«تشريح وفيزيولوجيا» التلاعب بالوعي

الإنسان مخلوق اجتماعي. هكذا قال أرسطو، ووحدهم الآلهة والوحوش قادرون على العيش خارج المجتمع. الفرد INDIVIDUUM– هو تجريد، وتصور مثالي عن الإنسان المعزول تكوَّن في القرن السابع عشر مع نشوء المجتمع الغربي المعاصر. كلمة IN-DIVIDUUM اللاتينية نفسها هي ترجمة للكلمة اليونانية A-TOM ذاتها، ومعناها بالروسية (والعربية– م) غير القابل للانقسام. أسطورة الفرد غير قابلة للتحقيق في الممارسة، فالإنسان يظهر ويوجد ليس فقط في تفاعل متبادل مع الأناس الآخرين بل تحت تأثيرهم أيضاً. الرضيع الذي ربته الوحوش الضارية (مثل هذه الأحوال معروفة ومدروسة) لا يصير ماوغلي الوسيم. إنه ليس إنساناً، ولا يمكن أن يستمر في العيش. لا يصير إنساناً حتى الرضيع الذي تعزله أمه عن الناس الآخرين.

هذا معناه أن برنامج السلوك الكامن فينا ***بيولوجياً*** غير كاف لنكون أناساً. إنه يتمَّم ببرنامج آخر مكتوب برموز ***الثقافة***. وهذا البرنامج هو إنتاج جماعي. معنى ذلك أن سلوكنا واقع دائماً تحت تأثير أناس آخرين. ولا نستطيع من حيث المبدأ أن نقي أنفسنا من هذا التأثير بحاجز صلب. وإن كنا نصادف بعض الرؤوس السميكة التي تحاول فعل ذلك.

أي نوع من التأثير في سلوكنا هو الذي نحدده بصفته ***تلاعباً***؟

واضح أن الكلمة نفسها تحمل صبغة سلبية. إننا نرمز من خلالها إلى ذلك التأثير الذي لا يرضينا، والذي يحرضنا على القيام بتصرفات نجد أنفسنا

معها خاسرين، وأحياناً حمقى. إذا أقنعك صاحبك في مضمار سباق الخيل بأن تراهن على الحصان الذي وصل أولاً فلن تقول حين تجد نفسك في فئة الرابحين: «لقد تلاعب بي». لا، فقد قدم لك نصيحة جيدة.

من جانب آخر ليس كل تأثير تخضعون له وتخسرون تسمونه تلاعباً. فإذا ما تعرضوا لكم في زقاق معتم ووضعوا السكين على بطنكم وهمسوا: «النقود والساعة، بسرعة»، فإن سلوككم سوف يتبرمج بفاعلية كبيرة. لكن لن يخطر في بالكم أن تسموا الغريب متلاعباً. فأي معنى نضعه في هذا المفهوم؟

كلمة «تلاعب» ذاتها MANIPULATION لها جذر لاتيني هو manus – أي اليد (*manipulus* – قبضة، حفنة، من *manus* و *ple* – ملئ). تفسر هذه الكلمة في معاجم اللغات الأوربية على أنها تعامل مع الأهداف بنوايا وأهداف محددة (مثلاً، الإدارة اليدوية، فحص الطبيب للمريض بالأيدي الخ). والقصد هو أن مثل هذه الأعمال تتطلب مهارة وحذق. أدوات التحكم بالآليات في التقنية، والتي تُعدُّ بمعنى من المعاني امتداداً لليد (العتلات، القبضات)، تسمى أدوات التلاعب MANIPULATOR، ومن عمل مع المواد النشطة إشعاعياً يعرف أدوات التلاعب التي تقلد ببساطة اليد البشرية.

من هنا نشأ المعنى المجازي المعاصر لهذه الكلمة، وهو التعامل الحاذق مع الناس كما التعامل مع الأشياء والأهداف. يفسر معجم أوكسفورد للغة الإنكليزية كلمة التلاعب بأنها «فعل التأثير في الناس أو التحكم بهم بمهارة، وباستهانة مبطنة خصوصاً، كتحكم أو معالجة مخفيين»[1].

على هذا النحو فإن مصطلح «التلاعب» هو استعارة، ويستخدم بالمعنى المجازي: مهارة اليد بالتعامل مع الأشياء تحولت في هذه الاستعارة إلى تحكم

---

(١) يعرِّف «معجم علم الاجتماع المعاصر» الصادر في نيويورك عام ١٩٦٩ التلاعب بأنه «نوع من استخدام السلطة، الذي يؤثر من يتمتع بها في سلوك الآخرين، من غير أن يكشف عن طابع السلوك الذي ينتظره منهم».

ماهر بالناس (وطبعاً، ما عاد بالأيدي بل «بأدوات تلاعب» خاصة). ونشير إلى أن هذا المفهوم يحد منذ البداية من مجموعة أساليب التحكم المفهومة على أنها تلاعب – إذ يرمز به فقط إلى التحكم المترافق ***بالمهارة*** أو حتى التحكم ***الخفي***.

تشكلت استعارة التلاعب تدريجياً. يرى علماء النفس أن المرحلة المهمة في تطورها كانت في الدلالة بهذه الكلمة على ممارسي السحر العاملين بأيديهم من غير أدوات معقدة («لاعب السحر»). يرتكز فن هؤلاء الممثلين المتبعين لشعار «مهارة الأيدي بلا أي احتيال» على خصائص الإدراك والانتباه البشريين – أي على معرفة نفسية الإنسان. يحقق لاعب السحر نجاح تأثيره حين يستغل الصور النمطية stereotype النفسية لدى المشاهدين، مشتتا انتباههم وحارفاً إياه ومن ثم مركزاً إياه، ومؤثراً في مخيلتهم بأن يكوّن لديهم وهمَ الإدراك. وإذا كان الممثل متمتعاً بالحرفية فإن اكتشاف التلاعب يصير صعباً جداً حتى لو كان الشكاكون الأذكياء ينظرون بكامل أعينهم.

حين دخلت هذه المبادئ تحديداً تكنولوجيا التحكم بسلوك الناس نشأت استعارة التلاعب بمعناه المعاصر، أي بصفته برمجة لآراء الجماهير وتوجهاتها وأمزجتها وحتى وضعها النفسي بغرض الحصول منها على السلوك الذي يحتاج إليه من يمتلك وسائل التلاعب.

إذا ما اعتمدنا تلك التعريفات التي يقدمها الباحثون الأجانب المرموقون لظاهرة التلاعب (باحثونا ما زالوا في المرتبة الثانية وإن كانوا في الممارسة مقحامين)، فبإمكاننا أن نميز مؤشرات أساسية وعامة للتلاعب. أولاً – إنه نوع من التأثير الروحي النفسي (وليس عنفاً جسدياً أو تهديداً بالعنف). هدف فعل المتلاعب هو الروح والبنية النفسية للشخصية الإنسانية.

أحد أول الكتب المخصصة مباشرة للتلاعب بالوعي هو كتاب عالم الاجتماع الألماني الغربي غيربيرت فرانكه «الإنسان المتلاعب به» (١٩٦٤).

وهو يعطي التعريف التالي: «ينبغي أن نفهم عملية التلاعب في أغلب الأحوال بصفتها تأثيراً نفسياً ينفذ سراً، وتالياً، على نحو يضر بأولئك الأشخاص الموجه لهم. أبسط مثال على ذلك هو الدعاية»

وثانياً، التلاعب هو تأثير مخفي، ولا ينبغي أن تكون حقيقة وقوعه ملحوظة من قبل المستهدف بالتلاعب. يقول غ. شيللر[1]: «لتحقيق نجاح التلاعب يجب أن يبقى غير ملحوظ. نجاح التلاعب مضمون حين يؤمن المتلاعَب به بأن كل ما يجري طبيعي ومحتوم. باختصار، يحتاج التلاعب إلى واقع مزيف لا يُلحَظُ فيه وجوده». حين تُكتشف محاولة التلاعب ويصير أمر افتضاحها معروفاً على نحو واسع كفايةً، فإن العملية عادة ما تطوى لأن حقيقة اكتشاف هذه المحاولة تلحق الضرر الكبير بالمتلاعب. وما يتم إخفاؤه بعناية أكبر أيضاً هو الهدف الرئيسي، لكي لا يؤدي حتى افتضاح فعل التلاعب ذاته إلى الكشف عن النوايا البعيدة. لذلك فإن إخفاء المعلومة وكتمها هو مؤشر إلزامي وإن كانت بعض أساليب التلاعب تتضمن في ذاتها «كشفاً ذاتياً إلى أبعد حد»، وتمثيل الصدق حين يمزق السياسي القميص على صدره أو يطلق على وجنته دمعة ذكورية شحيحة.

ثالثاً- التلاعب هو التأثير الذي يتطلب مهارة ومعارف كبرى. نصادف، طبعاً، عصاميين موهوبين ذوي بديهة هائلة، وقادرين على التلاعب بوعي المحيطين بهم باستخدام وسائل بدائية. لكن مجال فعلهم ليس كبيراً، ويقتصر على مدى تأثيرهم الشخصي - في الأسرة أو الفريق أو السرية أو العصابة. أما إذا دار الحديث عن الوعي الاجتماعي والسياسة في البعد المحلي على الأقل فعادة ما يُستدعى لوضع العملية مختصون، أو تُستخدم على الأقل معارف خاصة مستقاة من الأدب أو منظومة الإرشادات. بما أن

(١) غ. شيللر أحد أبرز الاختصاصيين في وسائل الإعلام الأمريكية وأستاذ في جامعة كاليفورنيا (المترجم).

التلاعب بالوعي الاجتماعي صار ***تكنولوجية*** فقد ظهر موظفون محترفون يتقنون التعامل مع هذه التكنولوجية (أو مع أقسام منها). ظهرت منظومة لإعداد الكوادر ومؤسسات علمية وأدب علمي وعلمي شعبي. لكنهم لم يُحدثوا حتى الآن جائزة نوبل بشكل واضح في هذا المجال (مع أن بعضاً ممن حازوا على جائزة نوبل للسلام أو في الأدب ينبغي أن يندرجوا في فئة أبرز المتلاعبين بالوعي).

المؤشر الآخر المهم، وغير الواضح كثيراً هو أنهم ينظرون إلى الناس الذين يتلاعبون بوعيهم لا كما ينظرون إلى أشخاص بل إلى أهداف ***وأشياء*** من نوع خاص. التلاعب هو جزء من تكنولوجية السلطة، وليس ممارسة تأثير في صديق أو شريك. تستطيع المرأة العاشقة أن تدير لعبة دقيقة جداً كي توقظ أحاسيس مقابلة – تؤثر في نفسية الرجل الذي سيطر على مخيلتها وفي سلوكه. وإذا كانت ذكية وصبورة فإنها تجري مناوراتها حتى لحظة معينة على نحو خفي، ولا تكتشف «ضحيتها» أي نوايا لديها. هذا طقس من طقوس علاقات الحب، ذو شكل محدد مرسوم في كل ثقافة. إذا دار الحديث عن حب صادق فإننا لن نسمي هذا تلاعباً. الأمر مغاير إذا قررت امرأة ماكرة أن تخدع مغفلاً. والمصيبة في أن من غير السهل التفريق بين الحالين.

لا ندرج في مفهوم التلاعب آداب السلوك (ETIQUETTE) – أي التأثير في سلوك المحيطين من خلال الاستعارات والصمت ولغة الإشارات المفهومة فقط في الثقافة المعنية. إذا فهم الإنسان الإشارة فإن مغزى مخاطبته يكون واضحاً ولا تشكل له سراً نوايا ذلك الذي «يمارس تأثيره في سلوكه». إذا سأل رجل إنكليزي صديقه الإنكليزي: «How do You do?» («كيف حالك؟») فإن صديقه يرد بالسؤال نفسه ثم ينتقلان إلى القضية. أما الروسي، كما يتندر الإنكليز، فيرد على سؤال التحية هذا بأن يبدأ يروي كيف مرضت زوجته، وأن دراسة ابنه الجَرِب سيئة.

لا يصمت الروس على الضيم ويتندرون حول كيف أن الأجانب لا يفهمون الأشياء البسيطة. سمعت في الطفولة طرفة عن إحدى مهاجراتنا من أوديسا في أمريكا حين قادوها إلى المحكمة:

- أنت متهمة بسرقة دجاجة.

- كم أحتاج إلى دجاجتكم!

(يترجم المترجم للقاضي قائلاً: «إنها تقول: إنها في أشد الحاجة إلى الدجاجة»).

- عليك في هذه الحال أن تدفعي للمالك دولارين.

- عافاك الله، لأنني خالتك!

(المترجم للقاضي: «إنها توجه لك التحية وتقول إنك ابن أختها»).

حين يخاطب إنسان إنساناً آخر مستخدماً أساليب آداب السلوك من السوية العالية (مثلاً، بلطف شديد) فإنه، طبعاً، يسعى إلى التأثير في سلوك الشريك لصالحه. لكن هذا ليس تلاعباً مادام لا يخفي حقيقة التأثير ولا النوايا. بل على العكس يجب أن تكون لغة الإشارة مفهومة وإلا فإن محاولة التأثير لن تكون ناجحة[1]. من غير آداب السلوك والأعراف المرتبطة بالخداع يستحيل العيش في المجتمع. لكننا باستعمال قواعد آداب السلوك لا نخاطب الإنسان بصفته شيئاً بل نحترمه كشخص. وهذا النوع من «الخداع الذي يسمو بنا» لا ندرجه في مفهوم التلاعب.

---

(١) حين كان يلتقي في الصين على طريق من الطرق موكبان لمندرينين (**مندرين** هي تسمية أوربية تطلق على كبار الموظفين في الصين الإقطاعية القديمة- م) كانت تجري مراسم طويلة ومعقدة من تبادل التحيات. وإذا لم يكن ثمة ما يكفي من الوقت لفعل ذلك فكانوا يرسلون إلى الأمام ممثلين عن الجهتين ويتفقون على أن تتظاهر الحاشيتان بأن إحداهما لم تر الأخرى. ويفترق الموكبان على الحمالات عبر الطريق الضيقة، وكان وجهاء الحاشية يغطون وجوههم بالمراوح اليدوية.

وعموماً فإن الخداع البسيط بصفته أحد الأساليب الخاصة المهمة في تكنولوجيا التلاعب كلها لا يستطيع أن يشكل تأثيراً تلاعبياً من تلقاء ذاته. لا يمكننا أن نسمي الثعلب الذي يستلب قطعة الجبن من الغراب مخادعاً. فهو لا يقول له: ارم لي قطعة الجبن فأقذف لك اللحم المقدد. إنه يطلب منه أن يغني. المعلومة الكاذبة إذ تؤثر في سلوك الإنسان لا تمس روحه ولا نواياه ومقاصده[١]. يشرح ي. ل. دوتسينكو[٢] في كتابه «سيكولوجية التلاعب» (موسكو. ١٩٩٦) قائلاً: «من يسألنا، على سبيل المثال، عن الطريق المؤدية إلى مينسك ونرشده مضللين إياه إلى بينسك – فهذا ليس سوى خداع. التلاعب سيكون له مكان في حال همَّ هذا الآخر في الذهاب إلى مينسك ففعلنا ما يجعله يرغب في الذهاب إلى بينسك».

يجري التأكيد في كتاب «الإنسان المتلاعب به» المذكور أعلاه على خصوصية التلاعب هذه بصفتها تأثيراً نفسياً: «إنه لا يحرض الإنسان الخاضع له على أن يفعل ما يريده الآخرون وحسب، بل يجبره على أن يرغب في فعل ذلك».

يتضح من هنا الجانب المقزز في الأمر. التلاعب بالوعي كله ما هو إلا ***تأثير متبادل***. لا يصير الإنسان ضحية للتلاعب إلا إذا كان منخرطاً فيه بصفته مساهماً في تأليفه، ومشاركاً به، لا يتحقق التلاعب إلا إذا أعاد الإنسان

---

(١) لذلك، على سبيل المثال، لا ينطبق مفهوم التلاعب على الأطفال الصغار ما داموا لا يستطيعون اتخاذ القرارات المستقلة والشعور بأنفسهم كذوات مسؤولة.

(٢) **يفغيني ليونيدوفيتش دوتسينكو**. بروفيسور في جامعة تيومينسك الحكومية، دكتور في العلوم النفسية، ورئيس قسم علم النفس الاجتماعي وعلم النفس العام. من مؤلفاته «لا تكن ببغاء، أو كيف تحمي نفسك من الهجوم النفسي» (١٩٩٤)، و«سيكولوجية التلاعب» (١٩٩٦، ١٩٩٧، ٢٠٠٠، ٢٠٠٢) **(المترجم)**.

بناء وجهات نظره وآرائه ومزاجه وأهدافه تحت تأثير الإشارات الحاصل عليها، وبدأ يتصرف وفاقاً للبرنامج. أما إذا ساوره الشك، وعاند، ودافع عن برنامجه الروحي فإنه لا يغدو ضحية. التلاعب ليس عنفاً، بل *إغراء*. كل إنسان وهب حرية الروح وحرية الإرادة. هذا معناه أنه مثقل بمسؤولية أن يصمد ولا يسقط أمام الإغراء. أحد المؤشرات الأكيدة على أن برنامجاً كبيراً للتلاعب بالوعي يتحقق في لحظة ما هو أن الناس يكفون عن إدراك الحجج العقلانية – إنهم يبدون وكأنهم يرغبون في أن يغرر بهم. لقد دهش أ. إي. غيرتسين[١] «يا لقلة ما يمكن الحصول عليه من المنطق حين لا يرغب الإنسان في الاقتناع».

ما يشكل الصعوبة الرئيسية في مناقشة موضوعنا هو ذلك الجانب من التلاعب بالوعي الذي رمزنا له «بالمخفي»، هذا مع توافر الحرفية والمهارة. المتلاعبون المحترفون، مثلهم كمثل لاعبي الخفة، لا يفشون أسرارهم ولا يسمحون للغرباء بالدخول إلى مختبرات إبداعهم، وحتى مذكراتهم، التي يتباهون فيها بمنجزاتهم في هذا المجال، تهدف إلى إطلاق ضباب أكثر من إلقاء الضوء وتحذير الأجيال القادمة.

على هذا النحو فإن المعنى الحقيقي لكلمات وأفعال مؤلفي العمليات المهمة في التلاعب بالوعي الاجتماعي «ومنفذيها الأساسيين» يظل مخفياً بعناية، ويحتاج إلى جهد خاص للكشف عنه. إننا مضطرون إلى أن ***ندرس*** الأحوال والمواقف التي تهمنا. وإذا كانت دراستنا موفقة فإننا سنحصل على

---

(١) **ألكسندر إيفانوفيتش غيرتسين** (١٨١٢- ١٨٧٠) ثائر روسي، وكاتب وفيلسوف. من أعماله «رسائل في دراسة الطبيعة» (١٨٤٥) وروايته «من المذنب» (١٨٤١-١٨٤٦) التي ينتقد فيها نظام القنانة في روسيا. هاجر إلى الغرب (١٨٤٧) وتوفي في باريس. **(المترجم)**.

المعرفة التي لا تعبر عن الاهتمام الأكاديمي وحسب، ولا ترضي فضول قراء القصص البوليسية السياسية وحسب. إن هذه المعرفة قد تساعد الإنسان الذي يرغب، إن استطاع مستقبلاً، في أن يحمي ذاته من التلاعب بوعيه الخاص ومساعدة رفاقه.

إن إظهار المعنى الحقيقي في كلمات وأفعال الناس الذين سعوا إلى إخفاء هذا المعنى هو تأويل وتفسير. حين نقارب هذه الأقوال أو الحقائق بصفتها هدفاً للدراسة (أو البحث) علينا منذ البداية أن نقبل بأن معنى الكلمات والأفعال المقترح علينا على نحو جلي ما هو سوى إحدى الصيغ الممكنة. وأن هذه الصيغة في المرحلة الأولى لا تتمتع بأي أفضلية أمام الصيغ الممكنة الأخرى التي علينا أن نبنيها بأنفسنا ومن غير تلقين. أي علينا أن نقارب أي كلمات أو أفعال تصدر عن السياسيين وإيديولوجييهم كالمحقق الذي يستمع إلى أول تفسير من المتهم. ليس في هذا أي إخلال في فرضية البراءة – فلا المحقق ولا نحن نلغي إمكان أن تكون الصيغة المسموعة حقيقة، ولا نسمي مؤلفها مخادعاً أو مجرماً. لكننا لا نعتمدها على الفور كحقيقة. ما نريده هو ***إثبات*** الحقيقة.

يتلخص الشرط الأول (والرئيسي على الأرجح) للتلاعب الناجح في أن الغالبية العظمى من المواطنين في الغالبية العظمى من الأحوال لا ترغب في إهدار قواها الروحية والذهنية ولا الوقت على التشكيك ببساطة في الأنباء. يحدث هذا في الكثير منه لأن الغرق السلبي في تيار المعلومات أسهل بكثير من إعادة المعالجة النقدية لكل إشارة. لا تكفي أي قوى لفعل ذلك ما لم يكن الإنسان متمتعاً إلى حد الآلية بمجموعة من «أدوات المراقبة الذهنية» التي تحلل المعلومة، من تلقاء ذاتها ومن غير إجهاد للوعي أو الإرادة وفاقاً لمؤشر واحد: هل فيها أعراض التلاعب بسلوكه. هكذا يستطيع السائق الماهر أن

يعمل طوال اليوم من غير أن يتعب، لأن يديه وساقيه تستجيب آلياً لجميع الإشارات عن حال السيارة والطريق. إنه لا يفكر: «ماذا أفعل إذا خطا فجأة هذا المعتوه الذي يترنح على حافة الطريق نحو القسم المخصص لمرور السيارات؟» إذا لزم الأمر فإن المقود لدى مثل هذا السائق سيدار، وستعمل المكابح من غير أي عمل مجهد للدماغ.

هكذا يلحظ على الفور أيضاً الإنسان الخبير، ولو قليلاً، في البحث عن المعاني المختلفة للكلمات والأفعال النبأ الذي يحتوي على أعراض وجود المعنى الخفي المهم – «تشرئب أذناه»، ويكون في أثناء ذلك متطوراً لديه الإحساس بالمعيار. فالمعنى المخفي موجود في الكلمات والأفعال كلها، ولهذا يتسم نسيج العشرة بين البشر بالغنى على هذا النحو. «لم نوهب المقدرة على أن نخمن كيف سيكون صدى كلمتنا» – لأن الناس سيظهِرون في كلمتنا على الدوام معان جديدة ما كنا لنرتاب نحن أنفسنا حتى بوجودها. إننا نتحدث هنا عن أمر آخر هو أن الإنسان المجرب «يصفِّي» الأنباء فارزاً تلك التي تتخطى عتبة «حاسة شمه للتلاعب». بناء عتبة اهتياج صحيحة هو شرط الانتصار في المعارك الصغيرة على هذه الجبهة غير المرئية. هكذا تلحظ على الفور عين السائق الماهر، حتى في حشد من المعتوهين، أولئك القادرين على أن يرموا بأنفسهم تحت العجلات. أما الباقين فعينه لا تسجلهم، وترميهم جانباً، فهم «أدنى» من عتبة الاهتياج.

لنفصل بين مسألتين. أن نلتقط ذلك النبأ، الذي يبرز منه الكثير من «السم» المجهز ليدخل عقولنا، أمر، والأمر الآخر هو البناء السريع للصيغة الصحيحة لمأرب الطباخ الذي يطبخ لنا السم. المسافة بين هاتين المسألتين كبيرة جداً. المسألة الثانية أعقد بكثير، وإذا ما أردنا العمل عليها فسنضطر إلى بذل الكثير من الجهد والوقت. إنها رياضة ذهنية جيدة لكنها غالية الثمن.

الحياة العادية لا تستلزم ذلك. يكفي أن نحل المسألة الأولى، أي أن نشتم رائحة الدسيسة وأن لا نصدق ببساطة مثل هذه الأنباء من غير أن نحاول أن نخمن ما الذي دبره في الواقع هؤلاء المحتالون. إذا اندفع باتجاهنا كلب ذو عينين متكدرتين ويترنح ويسيل الزبد من فمه فإن أول ما ينبغي فعله هو الابتعاد عن طريقه. أما حل مسألة أي مرض أصابه وما الجراثيم الموجودة في زبده فهو أمر غير سهل. بالإمكان ترك هذا الأمر للاختصاصيين والمهتمين بذلك، أما التنحي عن طريقه فهو أمر مهم لكل فرد.

حين يصرح المتحدث الصحفي لرئيس قوى الأمن الاتحادية ن. ستيباشين (أو إدارة مكافحة الجاسوسية – من الصعب التذكر) من على أطراف بلدة بيرفومايسكايا التي احتلتها عناصر سلمان رادوييف[١] المسلحة أن الرهائن قد قتلوا جميعاً على يد المسلحين ويمكن البدء بالقصف الواسع للبلدة فمن السهل على المرء أن يفهم ما الذي يكمن وراء ذلك. ما المغزى الحقيقي لهذه الأسطورة وهذه الأفعال؟ لكن المؤشرات على أن هذا كله جزء من مسرحية سياسية كبرى كافية تماماً. غير أن الأطفال المقتولين والقرى المدمرة في هذه المسرحية هي حقيقة.

---

(١) **سلمان رادويف** (١٩٦٧–٢٠٠٢) أحد أشهر القادة الشيشانيين الميدانيين، ومشارك نشط في الحركة الانفصالية الشيشانية، ومنظم عدد من الأعمال الإرهابية الكبيرة في روسيا. عام ١٩٩٦ وفي طريق العودة من داغستان، لجأ إيسرابيلوف مع رجاله إلى قرية بيرفومايسكايا مصطحباً معه ١٠٠ رهينة، وفي المرحلة الأخيرة من هذه العملية جرح إيسرابيلوف ليحل سلمان رادويف محله في قيادة العملية، ولينطلق من بعدها إلى عالم الشهرة. ألقي القبض عليه عام ٢٠٠٠ في قرية نوفوغروزينسكي من قبل رجال قوى الأمن الاتحادي وحكمت المحكمة بحبسه ثماني سنوات بجرم الإرهاب، ثم توفي في المعتقل عام ٢٠٠٢ نتيجة نزيف في الدماغ (**المترجم**).

أنشأ العلم (كما يحدث عادة من أجل أهداف أخرى) أدوات فكرية مفيدة للإنسان الذي يسعى إلى بناء دفاع ضد التلاعب. حتى أنها ليست ببساطة أدوات، بل مقاربة منهجية كاملة يمكن أن نسميها علم ***التفسير*** (HERMENEUTICS). التفسير بالمعنى الأولي (من كلمة يونانية معناها «أوضِّح») هو علم يعنى بشرح النصوص(١).

كان هذا العلم قد ظهر في العصر الهلنيستي من أجل دراسة النصوص القديمة وشرحها (مثلاً، هوميروس). بالمناسبة، لقد جرى الحديث حينذاك بسبب من عمى هوميروس عن صعوبة التأويل الصحيح لكلماته ما دام لا يستطيع، هو نفسه، أن يرى عم يدور الحديث. كتب هيراقليط(٢): «الناس مخدوعون في معرفة المرئي، مثل هوميروس. وهو أحكم الهيلينيين! كان صبيانه تحديداً يخدعونه أيضاً قاتلين القمل وقائلين: كل ما رأيناه وأخذناه

---

(١) ثمة علاقة مباشرة بين الهيرمينيوتيكس (التفسير) والهرمسية، هذا المذهب الفلسفي الديني الذي نشأ في العهود القديمة. الهرمسية تعني المنعة والكتامة (من هنا كلمة hermetic التي تعني، الكتيم ومحكم السد وغير الخاضع للنفوذ الخارجي). يعود معنى هذا المفهوم إلى الحكيم الأسطوري هرمس المعظم ثلاثاً، الساحر وعالم الفلك ومؤسس علم الألخيمياء، أثرت الهرمسية تأثيراً كبيراً في التقاليد الصوفية في القرون الوسطى وعصر النهضة، وأرست أسس التعاليم الغيبية في الغرب. ينقل المعنى في النصوص المكتوبة وفاقاً للتقاليد الهرمسية بوساطة رموز معقدة لا يفقهها إلا المطلعون عليها. لا يمكن أو من الصعب جداً فهم رسائل الألخيميائيين (أو على سبيل المثال جوردانو بونو) من غير معرفة هذه الرموز. مثل هذه النصوص يحتاج إلى فك شيفرنها بالمعنى الحرفي للكلمة أي إلى تأويلها INTERPRETATION. وهذا ما يمارسه علم التفسير (الهيرمينيوتيكس).

(٢) ***هوميروس***. شاعر ملحمي إغريقي قديم، ينسب إليه تأليف الإلياذة والأوديسة وغيرهما. تصور الأساطير هوميروس مغنياً أعمى رحالاً. **هيراقليط**- فيلسوف ومفكر إغريقي قديم، عاش في نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد. (**المترجم**).

رميناه، أما ما لا نراه ولا نأخذه فهو ما نحمله». يدور الحديث عن طرفة في أحد أناشيد هوميروس. إنه يتذكر كيف خاطب الصبية الصيادين من جزيرة هيوس: «أيها الصيادون الأركاديون، أي صيد تصيدون؟ فأجابوه: «كل ما اصطدناه رميناه، أما ما لم نصطده بعد فسنحمله معنا»[١].

صار الكتاب المقدس المادة الرئيسية لعلم التفسير في القرون الوسطى. فامتلأت أوروبا باللاهوتيين الذين أداروا نقاشات لا نهاية لها وأوجدوا تفسيرات هرطوقية. ثم صار علم التفسير في عصر النهضة أسلوباً مهما في «العلوم الاجتماعية» الناشئة. فاستخدمه بفاعلية السياسي والمفكر نيكوللو ماكيافيللي[٢] الذي وضع أسس النظرية الجديدة عن الدولة. وهو مهم لموضوعنا خصوصاً لأنه كان الأول من بين المنظرين عن الدولة الذي أعلن أن الدولة تقوم على القوة والتوافق («القنطوروس[٣] الماكيافيللياني»)[٤]. ينتج من هنا أن «الأمير» يجب أن يدير باستمرار عملاً خاصاً لكسب موافقة

---

(١) يعود إلى هذه المسألة نيتشه أيضاً متذكراً طرفة الصيادين. لكنه ينظر إلى الأمر نظرة أشد قتامة من هيراقليط: «ما يحتاج إلى البراهين الأشد تعليلاً والأشد رسوخاً هو الوضوح. لأن عيننا ينقصها الكثير جداً كي تراه». وكأنه يتحدث عنا.

(٢) **نيكولو ماكيافيللي** (١٤٦٩-١٥٢٧) سياسي ومفكر ومؤرخ وكاتب إيطالي. رأى السبب الرئيسي لضعف إيطاليا في انقسامها الذي لا يمكن التغلب عليه إلا بسلطة الدولة القوية، وعد أن الوسائل كلها ممكنة من أجل تمتين الدولة، ومن هنا مصطلح «الماكيافيللية» الذي يستخدم لتعريف السياسيين غير الملتزمين بالمعايير الأخلاقية. من أعماله «تاريخ فلورنسا (١٥٢٠- ١٥٢٥) وكوميديا «ماندراغورا» (١٥١٨) و«الأمير» (١٥١٣) (**المترجم**).

(٣) القنطوروس كائن خرافي في الأساطير اليونانية القديمة نصفه رجل ونصفه الآخر حصان (**المترجم**).

(٤) يتضح كم هذه الفكرة غير مبتذلة من أن الكثيرين من الماركسيين و«ضدهم» الديمقراطيين ما زالوا مقتنعين حتى اليوم بالطابع العنفي للسلطة. أما من طور فكرة ماكيافيللي هذه في إطار الماركسية فهو أنطونيو غرامشي، وسنأتي على ذلك أدناه.

الرعايا والحفاظ عليها. لهذا السبب رُمِز زمناً طويلاً وحتى وقت قريب إلى ظاهرة التلاعب بالوعي نفسها بكلمة ***الماكيافيللية***. ثمة ظن سائد بأن ماكيافيللي قد استبق في مجال الفلسفة السياسية نشاط اليعاقبة(١) في الثورة الفرنسية العظمى، الذين مارسوا، كما هو معروف، تلاعباً هائل الأبعاد بالوعي الاجتماعي.

دلت الدراسات الحالية على أن أعمال ماكيافيللي عن الدولة، التي عدت أصيلة أصالة استثنائية، هي ثمرة أبحاثه «التفسيرية» لمؤلفين قدامى. لقد أعاد بأسلوب جديد «كتابة» بعض أعمال أفلاطون وتيرنتيوس وليفي ودانتي(٢)،

---

(١) **اليعاقبة** هم من بقوا في نادي اليعاقبة في فترة الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر بعد خروج الجيروندينيين منه عام ١٧٩٢. وكان قادتهم: روبسبيير ومارات ودانتون وسان جيوست وغيرهم. اشتدت في مرحلة الديكتاتورية اليعاقبية (١٧٩٣-١٧٩٤) الصراعات بين تيارات هذا الفريق، فقد ناهض اليعاقبة اليمينيون الدانتونيون اليعاقبة اليساريين (شوميت وإيبر وغيرهما) الذين انفصل عنهم شتاء ١٧٩٣ ٩٤ من أتباع إيبر. سارت غالبية اليعاقبة وراء روبسبير، وقد وضع انقلاب التيرميدور حداً لسلطة اليعاقبة.(**المترجم**).

(٢) **أفلاطون** (٤٢٨- ٣٤٧ ق.م.) فيلسوف إغريقي وتلميذ سقراط. أسس قرابة ٣٨٧ ق.م في أثينا مدرسته الخاصة (الأكاديمية الأفلاطونية). رأى أن الأفكار هي أشكال أبدية وغير متبدلة للأشياء وللوجود المتبدل والمتغير؛ ورأى أن الأشياء هي مثال للأفكار وانعكاس لها، وأن المعرفة هي ذكريات الروح عن الأفكار التي استوعبتها قبل اتحادها بالجسد. **ترنتيس** (Terentius) (قرابة ١٩٥-١٥٩ ق.م.) شاعر ملهاة روماني كان في الأصل عبداً لعضو من أعضاء مجلس الشيوخ اشتراه من قرطاجة مسقط رأسه، ثم أحضره إلى روما وعلمه ثم حرره، ترك ست مسرحيات اقتبسها عن الملهاة اليونانية التي نظمها مناندور «أندريا» و«فورميو» و«أدلفوي». خرج باستخدامه للأقنعة والحدث على أطر الأشكال الكوميدية التقليدية. ترك أثراً كبيراً في الدراما الأوربية. **ليفيوس** (Livius) (٥٩ ق.م – ١٧م) مؤرخ روماني، مؤلف «التاريخ الروماني من تأسيس المدينة» (١٤٢ كتاباً، بقي منها ٣٥ تروي أحداث الفترة حتى ٢٩٣ ق.م وبين عامي ٢١٨ و١٦٨ ق.م.). **دانتي** (١٢٦٥- ١٣٢١). شاعر إيطالي، مؤلف الكوميديا الإلهية (١٣٠٧-١٣٢١) في ثلاثة أجزاء («الجحيم»، «المطهر»، «الجنة»). اشترك في بعض الحملات الحربية في ريعان شبابه، ثم بدأ

وكذلك بعض أعماله هو. وفي قرننا وضع أنطونيو غرامشي[1] مخططاً كبيراً «لإعادة كتابة» كتاب «الأمير» لماكيافيللي من أعالي تجربة القرن العشرين.

عبر ماكيافيللي في رؤاه عن أمر يحمل أهمية مباشرة لموضوعنا: كلمات السياسي تحتاج دائماً إلى التفسير. وقد رفع حدة هذه المسألة إلى أقصى حد باعترافه في إحدى رسائله في ١٧ أيار عام ١٥٢١ قائلاً: «بقيت زمناً طويلاً لا أقول ما أؤمن به، كما لم أؤمن قط بما أقوله، وإذا حدث أحياناً أن قلت الحقيقة فعلاً فإنني كنت ألفها بقدر من الكذب يجعل من الصعب اكتشافها».

صار علم التفسير في القرن التاسع عشر أسلوباً فلسفياً عاماً، واتسع نطاق موضوعاته كثيراً. وبات يزعم أنه يتعلم «التآلف» مع النص بحيث «يفهم معناه أفضل من مؤلفه نفسه». حاول المؤرخون بوساطة علم التفسير استرجاع روح الثقافة ومعنى الأحداث في العصور المنصرمة وإعادة هيكلتهما. كما استخدم كبار فلاسفة عصرنا (هايدغر، هابرماس، فوكو) مقاربات هذا العلم ومازالوا يستخدمونها.

إضافة إلى ذلك حذرَنا الفلاسفة من أن المعرفة الإنسانية (التي يسمونها أحياناً لدينا خطأ *علمية*) تحتاج أيضاً إلى التفسير، لأن الرئيسي فيها ينمو مما

حياته الأدبية برواية طويلة «الحياة الجديدة». من أهم أعماله أيضا «المأدبة»، كتب أيضاً بعض المقالات باللغة اللاتينية درس فيها اللهجة العامية ونظام الحكم العالمي الموحد. عاش في عصر الحروب الصليبية وتأثر بها. (**المترجم**).

(١) **أنطونيو غرامشي** (١٨٩١- ١٩٣٧) مؤسس الحزب الشيوعي الإيطالي وقائده. انضم منذ عام ١٩١٣ إلى الحركة الاشتراكية وصار منذ عام ١٩١٧ قائداً للاشتراكيين في تورينو. عاش في الاتحاد السوفييتي بين عامي ١٩٢٢ و١٩٢٣ ثم ترأس بين عامي ١٩٢٣ و١٩٢٤ الحزب الشيوعي الإيطالي وصار رئيس المجموعة البرلمانية الشيوعية بين عامي ١٩٢٤ و١٩٢٦. اعتقله الفاشيون عام ١٩٢٦ وحكموا عليه بالسجن عشرين عاماً لنشاطه الثوري. أطلق سراحه عام ١٩٣٧، ليتوفى بعد بضعة أيام. له العديد من الأعمال في التاريخ والفلسفة والثقافة. (**المترجم**).

لم يكتمل قوله بعد. أعلن هايدغر[1] في كتابه عن كانط (١٩٢٩) قائلاً: «عموماً، ما ينبغي أن يكون حاسماً في أي معرفة فلسفية لا ينضوي في الفرضيات المقولة، بل في ما يمثل أمام نظرنا من خلال هذه الفرضيات وإن لم يكن قد قيل بوضوح»[2].

يستخدم علم التفسير على نطاق واسع في «علم آثار (أركيولوجيا) المعرفة» - أي في البحث عن المعاني الحقيقية لتلك المفاهيم الرئيسية، التي تكمن في أساس حضارة الغرب المعاصرة (كمثل الروح والجسد والفرد والحرية والنقود والعقارات والجريمة... الخ). «علم الآثار» هذا ينقب عن معان مدهشة تماماً وغير مرئية لنا (ويسمح لنا بالمناسبة أن نفهم أين يكمن الفرق الحقيقي بين روسيا والغرب بصفتهما حضارتين وثقافتين).

يحتل علم التفسير مكانة خاصة في ذلك القسم من الفلسفة الذي يشتغل في نقد الإيديولوجية بصفتها أداة رئيسية من أدوات الهيمنة والسلطة الاجتماعية في العالم المعاصر. من المفهوم أن لغة الإيديولوجية المتكونة كبديل للدين في المجتمع الملحد في الحضارة الصناعية، تهدف تحديداً إلى غرس المعاني الخفية في الوعي. لذلك يعد كل نص إيديولوجي حقلاً رائعاً لكي يعرض فيه علم التفسير قوته. هنا نكون قد اقتربنا تماماً من مسألتنا.

اتسع اليوم مجال تأثير علم التفسير اتساعاً حاداً بصفته مقاربة علمية. صار يُنظر إلى الكلمة (والنص أيضاً) على أنها تعبير جزئي وحسب عن معنى أوسع - أي كرمز. كلنا نعرف أن المعلومة المبثوثة يمكن أن تتجسد في أشد المنظومات الرمزية اختلافاً. الفستان والتموضع (البوز) والإيماءة قد

---

(٢) **مارتن هايدغر** (١٨٨٩-١٩٧٦) فيلسوف ألماني وأحد مؤسسي الوجودية الألمانية. تلميذ غوسيرل. طور نظرية الوجود التي يقبع في أساسها التناقض بين الوجود الحقيقي وعالم الحياة اليومية («الوجود والزمن»، ١٩٢٧). (**المترجم**).

(١) يبدو أننا في روسيا بسطاء جداً، ويصعب علينا فهم هذا. يعترف في أواخر العمر هايدغر، الذي يقر الكثيرون بأنه المفكر الأعظم في عصرنا، والذي خلف وراءه جهداً من خمسين مجلداً، فيقول: «لم أتحدث عما يقلقني حقاً سوى مرة أو مرتين خلال ٣٠-٣٥ سنة من عملي التدريسي».

تكون أبلغ من الكلمات، هذه «نصوص غير شفهية». وفاقاً لتقويمات علماء النفس الأمريكيين (ج. روش) تحتوي لغة الإيماءات (الإشارات) على ٧٠٠ ألف إشارة مميزة بدقة، في الوقت الذي لا يحتوي فيه أكبر معاجم اللغة الإنكليزية على أكثر من ٦٠٠ ألف كلمة. قال معلم الدعاية المعترف به موسوليني مرة: «الحياة كلها إيماءة». لكن ثمة أيضاً إضافة إلى الإيماءات جملة من منظومات الرموز الأخرى.

لذلك علينا من حيث المبدأ أن نؤول ونفسر دائماً أي نبأ كيفما كان «معلباً» في أي منظومة رموز كانت. يحدث أن ترتكب أخطاء مؤسفة حتى في أثناء تأويل ما يخيل أنها رموز شفافة ومتعارف عليها. كمثل تلك البائعة في السوق التي اغتمت حين سحب لص محفظة نقودها المخبأة في صدرها! لقد ظنت أنه مد يده «بنوايا طيبة». لكنها الآن تبكي مثلما يبكي الشعب الروسي بعد حماسة تشوبايس تجاه ملكية الدولة. إذن، يمكن في الحال العامة عدّ علم التفسير أي علم يدرس التأويل، أي «إظهار المعنى المخبأ في المعنى البيِّن».

هدفنا هو النشاط الخاص الموجه من أجل التلاعب بالوعي الاجتماعي. ما هي منظومات الرموز الرئيسية، التي ينبغي أن نُعمِلَ فيها أدوات علم التفسير؟ يمكننا أن نعد أن الأساسية منها من أجل موضوعنا هي الأنباء «المعلبة» في الكلمات والنصوص الشفهية (النصوص المطبوعة، والخطابات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية). تندرج هنا عناصر النص التي لا تقل أهمية عن الكلمات، وهي الفواصل بين الكلمات وفواصل الصمت، التي ربما تشكل في السياسة أنباءً أهم حتى من المعبَّر عنها بالكلمات. الأمر الرئيسي لدى السياسيين المتلاعبين بالوعي يكمن في الصمت، أما الكلمات فهي «إطلاق نار» لصرف الأنظار.

تتسم المعاني المخفية في الأشكال بأهمية كبيرة جداً (اللوحات والصور والسينما والمسرح.. الخ). طبعاً، ينجم التأثير الأشد فاعلية عن التشكيلات بين المنظومات الرمزية، ومع توافر المعرفة والفن يمكن ببساطة الحصول على تأثير *تآزري* (تعاوني) هائل من جراء اتحاد «اللغات» الذي سنتحدث عنه لاحقاً.

أخيراً، ينبغي أن تُخضَع الأفعال للتفسير أيضاً. حين يخرج سياسي ذو تجربة وبداهة هائلتين من الطائرة في إحدى زياراته الخارجية ويتبول على إطار عجلتها على مرأى من حشد من أصحاب المقامات الرفيعة الذين كانوا يستقبلونه بالورود(١) – فكيف يجب فهم ذلك؟ المعنى الواضح، الذي يُدفع به إلى معارضي هذا السياسي البسطاء، بسيط مثل الخوار. يا له من جلف وغير مهذب، أفرط في الشرب، ولم يستطع الصبر حتى يصل إلى المرحاض! فهل يمكن ائتمان مثله على مصير روسيانا المتخمة بالآلام! لكن هذا المعنى الواضح «لا معنى له» في الواقع. يخطط في مثل هذه الزيارات فريق كامل من المخرجين وعلماء النفس لكل إيماءة وكل حركة. الفعل الذي ذكرناه هو طقس كامل (علينا أن نعترف بأنه مبتكر) يحمل في ذاته عدداً من طبقات المعاني الخفية. وكل إنسان لم ير هنا حسبة باردة، وحتى وقحة، يكون قد سقط أسيراً لسحر هذا الطقس مهما غضب منه.

إن أي إيماءة وأي تصرف يحتويان، ما عدا المعنى الواضح المرئي، على جملة من المفاهيم المبطنة التي تُعبِّر فيها عن نفسها أقانيم و«أقنعة» مختلفة للإنسان. التواصل بين الناس هو مسرحية متواصلة، وأحياناً، مهرجان لهذه الأقنعة – «الأشخاص» (PERSONS). لنتذكر، بالمناسبة، أن الكلمة اللاتينية PERSON (شخص) قد نشأت من تسمية القناع في المسرح القديم، وتعني حرفياً «ما يَعْبُرُ من خلاله الصوت» (PER تعني من خلال و SONUS تعني الصوت). وكان الفم في تلك الأقنعة يصنع على شكل قمع كي يقوّى الصوت.

عموماً، يمكننا تشبيه الأفعال، وخصوصاً المعقدة وغير العادية، بالنصوص المكتوبة بلغة غير مفهومة تماماً وبعدم إفصاح وباستعارات («يعد

---

(١) المقصود هو الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين في أثناء إحدى زياراته الرسمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية (**المترجم**).

السلوك أيضاً استعارة تستخدم فيها لغة غير شفهية»). كتب بول ريكيور[1] أحد الاختصاصيين المرموقين المعاصرين في علم التفسير عن الأفعال بصفتها مماثلاً للنص: «كما في مجال الكتابة، يحرز النصر هنا احتمال أن تكون مقروءاً تارة، أو يغلب عدم الوضوح وحتى السعي إلى خلط كل شيء تارة أخرى». يؤدي هذا التعقيد في تأويل الأفعال في الحياة العادية إلى أخطاء لا تغتفر، وإلى إمكان «التظاهر بأنك أخطأت»، ويملأ حياتنا بالتدرجات والعلاقات متعددة الأشكال.

من الصعب جداً فهم معنى الأنباء المعبَّر عنها بكلمات وأفعال أناس من ثقافة أخرى. كتب الرسول بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس: «من يتكلم بلسان فليصلِّ لكي يترجم».

يورد كورت فونيغوت[2]، الذي أرقته مشكلة «عدم القدرة على التواصل»، على لسان بطله الكاتب الخيالي المجنون في إحدى رواياته الإرشادية («فطور من أجل الأبطال»):

«وصل مخلوق اسمه زوغ إلى أرضنا على صحن طائر كي يشرح لنا كيف نتجنب الحرب ونعالج السرطان. جلب معه هذه المعلومة من كوكب مارغو، حيث لغة السكان تتألف من الضراط ورقصة الدبكة. حط زوغ ليلاً في ولاية كونيكتيكوت. وما إن خرج إلى الأرض حتى رأى منزلاً يحترق. تسلل إلى المنزل وهو يضرط ويرقص الدبكة، أي محذراً قاطنيه بلغته من الخطر المرعب المحدق بهم جميعاً. لكن صاحب المنزل شج دماغ زوغ بعصا الغولف».

---

(١) **بول ريكيور** (١٩١٣) فيلسوف فرنسي زاوج بين مبادئ الفينومينولوجيا والوجودية والشخصانية. له مؤلفات في الأخلاق والجمال وتاريخ الفلسفة (**المترجم**).

(٢) **كورت فونيغوت** (١٩٢٢) كاتب أمريكي. يحاول من خلال مؤلفاته «البيانو الميكانيكي» (١٩٥٢)، «مهد للقطة» (١٩٦٣)، وغيرها كشف تناقضات الثورة العلمية التقنية القاسية، ويفكك مقولات التكنوقراطية والعلمية التي يترافق تطبيقها مع الكثير من المشكلات الاجتماعية والتشوهات الأخلاقية. (**المترجم**).

يبدو لنا الكثير من الإيماءات والأفعال المملوءة بالمعنى طبيعياً (أي أنها ملازمة لطبيعة الإنسان)، لكنها في الواقع هي وليدة الثقافة. وهذا معناه أنها يمكن أن تكون في ثقافة أخرى غير مفهومة أو مفهومة على نحو محرَّف. خذوا أمراً كالصفعة قد يبدو للوهلة الأولى بسيطاً. إنه إيماءة أوربية خالصة، أتت من عهد الفرسان وتجذرت في عهد النبالة. لا تعرفها العصور القديمة ولا الشرق ولا عامة الشعب. الصفعة هي «إخطار» ذو حجم هائل من المعلومة الاجتماعية والشخصية. حتى الإيماءة الأبسط - اللطمة - تحتاج إلى تأويل معقد. يُقْدِم القبطان آخاف ذو الساق الواحدة في رواية «موبي ديك» على ضرب مساعده بساقه الخشبية حانقاً. راح هذا الأخير يفكر طويلاً متألماً: هل عليه أن يشعر بالمهانة ويثأر؟ لكن البحار وصل في نهاية الأمر إلى نتيجة أنه لم يضرب بساق حية، وإلا لكان الأمر مهينا. أما الساق الخشبية فهي كالعصا، والضرب بالعصا لا يلحق المهانة بالرجل.

لكن عن أي صفعة أو لطمة نتكلم! هاكم القبلة. يخيل أن ليس ثمة منابع فطرية وطبيعية مثل منابع هذه الإيماءة. أليست طبيعتنا البيولوجية هي التي تحرض عليها؟ لكن، لا. هذه أيضاً ظاهرة من ظواهر الثقافة. كان اليابانيون يجهلون القبلة الأوروبية، وحين عرفوها ظلت مدة طويلة تثير نفورهم. أثارت محاولات خروشوف لثم فيديل كاسترو[1] في كوبا صدمة، وولدت سيلاً من النكات اللاذعة. إن العثور في ثقافة غير معروفة على إيماءة هامة تُفهم فهماً

---

(١) **نيكيتا خروشوف** (١٨٩٤-١٩٧١) زعيم شيوعي سوفييتي. أصبح عضواً أساسياً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي منذ عام ١٩٣٩. عين أمينا عاماً أول للحزب بعد وفاة ستالين. شارك في مؤتمر جنيف عام ١٩٥٥. انتقد عام ١٩٥٦ سياسة ستالين الديكتاتورية. شغل عام ١٩٥٨ منصب رئيس الوزراء بدلاً من بولغانين. وكان بذلك أول من جمع بين رئاسة الحزب والحكومة في الاتحاد السوفييتي. أقيل من منصبه عام ١٩٦٤. **فيديل كاسترو** (١٩٢٦) قائد الثورة الكوبية التي اندلعت عام ١٩٥٣ضد نظام باتيستا الديكتاتوري، وانتهت بتسلم الحزب الشيوعي الكوبي السلطة عام ١٩٥٩. **(المترجم)**.

صحيحاً هو فن كبير. ذهب ميكلوخو ماكلاي[١] وحيداً إلى قبيلة البابو المحاربة. حين وصل إلى القرية، التي اختبأ سكانها كلهم في الحال، جلس وخلع حذاءه وغفا. لقد عبرت هذه الإيماءة تعبيراً مقنعاً عن نواياه السلمية.

عموماً، إن كلمات «فطري»، «طبيعي»، «متجذر في الجينات» هي في أغلب الأحوال، بالتطبيق على الإنسان، ليست سوى استعارة. وهي جداً غير بريئة. وغالباً ما يستخدمها السياسيون كي يضفوا على تأكيداتهم الهذيانية شكلاً من البرهنة القطعية المنبثقة من «قوانين الطبيعة». (مثلاً: «لقد دمروا الكولاك[٢] في أثناء التحول إلى التعاونيات، ولذلك حصل انحطاط جيني لدى الشعب السوفييتي»). الإنسان في حقيقة الأمر مخلوق مطواع جداً، وتدخل معايير الثقافة التي يكتسبها «جوهره» بحيث تؤثر في فسيولوجيته. وتبدأ حقاً تبدو بملامح ما طبيعيةً وملازمةً بيولوجياً للإنسان - ويبدأ هو صادقاً يظن أن خصوصياته الثقافية الخالصة غير الموجودة في الثقافات الأخرى هي الخصوصيات «الإنسانية العامة» الوحيدة الصحيحة. وهذا مؤسف[٣].

---

(١) **نيكولاي ميكلوخو- ماكلاي** (١٨٤٦-١٨٨٨) عالم إثنيات روسي. درس أحوال السكان الأصليين في جنوب شرق آسيا وأستراليا وجزر المحيط الهادئ، بمن فيهم قبائل البابو في غويانا الجديدة حيث يوجد شاطئ مسمى باسمه. كان معاديا شديداً للعنصرية (**المترجم**).

(٢) الكولاك هم أغنياء الفلاحين في روسيا ما قبل الثورة (**المترجم**).

(٣) أذهلتني في سنوات شبابي الحادثة التالية. كنا طلاباً في الفترة العملية في أورسك، وأقمنا في السكن العمالي. ذهبنا في المساء الأول مع الفتية إلى المدينة كي نشتري ما يؤكل. رأينا في المتجر علباً كبيرة من اللحم المعلب وعلى لصاقتها رؤوس جياد. لقد صنعت من لحم الجياد (كان في أورسك الكثيرون من الكازاخيين والبشكيريين). اشترينا منها وأكلناها مع البطاطا، وقد أعجبتنا. دخلت الغرفة زميلاتنا العزيزات: «ألا يوجد لديكم ما يؤكل أيها الشباب؟ لم يتسن لنا أن نشتري شيئاً». كيف لا، هاكن البطاطا واللحم المعلب. أكلت الفتيات وبدون راضيات، غير أن أحدنا لم يستطع إلا أن يسأل: «هل تعلمن أي لحم معلب هذا؟» - وأشار إلى العلبة واللصاقة. إحدى الفتيات استفرغت في الحال. رد فعل بيولوجي على الشكل، على اللصاقة.

حتى في إطار الثقافة الكبرى الواحدة يعد تأويل الكلمات وتصرفات الناس من دائرة أخرى أو من طبقة أخرى (من ثقافة فرعية أخرى) مسألة غير بسيطة. كان عدم المقدرة على التفاهم مع الفلاحين أحد أسباب مأساة الشعبويين[١] – هذا الغصن من الثقافة الروسية الذي استبق الزمن بقرن ونصف القرن. عدم المقدرة هذا، الذي صار منبعاً للكثير من مآسينا، اتخذ بالمجمل أشد الأشكال تنوعاً. يصف تشيخوف[٢] في إحدى قصصه سبعة شبان من المثقفين المتحمسين، الذين قرروا العيش والعمل في القرية من أجل خير الشعب. لكن الفلاحين صاروا يسيئون إليهم جداً – تارة ينهبون البستان، وتارة يسرقون شيئاً من الفناء. فقالت الزوجة الشابة حانقة لفلاح مسن حين التقت به مرة: «كنا سابقاً نحبكم أما الآن فسوف نحتقركم». هرع المسن مستثاراً إلى زوجته العجوز وقال: «اسمعي، تقول السيدة الشابة: إننا سوف نحتقركم! ليس سيئاً في سني شيخوختنا. فليعطها الله الصحة، يا للسيدة الطيبة».

إذن ما هو مبدأ علم التفسير الرئيسي، وعلى ماذا يرتكز تأويل النصوص أو الأحداث؟ يرتكز على أن الكلمة أو الإيماءة تندرجان في سياقهما. النص (TEXT)، هذه الكلمة المأخوذة من الكلمة اللاتينية «نسيج»، «رباط»، (ومن هنا **TEXTURE** «بنية، تركيب، نسيج»)، هو كلية الأفكار

---

(١) الشعبويون أفراد تيار فكري ساد بين المثقفين الراديكاليين الروس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كانوا ينادون «بالثورة الفلاحية» ضد نظام القنانة وضد التطور الرأسمالي في آن معاً. من أشهرهم أ. ي. غيرتسين ون. غ. تشيرنيشيفسكي وم. أ. باكونين وغيرهم (**المترجم**).

(٢) **أنطون تشيخوف** (١٨٦٠-١٩٠٤) كاتب روسي. بدأ ككاتب قصص فكاهية قصيرة. موضوعاته الصراعات الروحية لدى فئة المثقفين ومشاعر الاستياء لدى بعض الناس والتساهل مع بذاءة الحياة لدى الآخرين. كما كتب في المسرح. بطله الرئيسي هو الإنسان العادي بقضاياه وهمومه اليومية (**المترجم**).

والكلمات المتشابكة بجملة من روابط قسم منها مخفي وغير مرئي. أما السياق(**CONTEXT**) فهو الكلية الأوسع التي ينسج فيها النص، وهو يُنسَج بروابط مخفية بالأساس. ويرتبط مستوى فهمنا للنص بمقدار عمق واتساع مقدرتنا على التقاط هذه الروابط، وهذا معناه رؤية التعبير عن الواقع المعقد وغير المرئي في النص. كتب أديبنا العظيم م. م. باختين[1]: «كل كلمة (كل إشارة) من النص تُخرِجنا خارج حدوده. وأي فهم له هو ربط للنص المعني بالنصوص الأخرى».

مفهوم أن النص الذي يصير تحفة هو ذلك النص الذي يطرح مسائل الوجود الأساسية، ولذلك يمكنه «أن يندرج» في شتى سياقات المكان والزمان المحددين. يمكن نقل سير أحداث تراجيديا شكسبير بغير عناء إلى اليابان في القرون الوسطى وإلى روسيا المعاصرة - إننا نربط أفكاره بسياق أي حضارة. يُقرأ غوغول[2] اليوم كما يُقرأ نبي ومعلم غيور للإنسان الروسي، لكن من سيقرأ بوبوريكين[3] المثمر أكثر منه بعشر مرات؟ لأن بوبوريكين كتب أشياء تستعمل «مرة واحدة» لذلك فإن هذه الأشياء ارتبطت بالسياق بروابط بسيطة وواضحة «هنا والآن».

غير أن الأهم لنا هو الوجه الآخر لمشكلة ارتباط النص (أو الحدث أو الفعل) بالسياق - أي ذلك العمل الذي يقوم به «متلقي الخبر»، أو القارئ أو

---

(١) **ميخائيل ميخائيلوفيتش باختين** (١٨٩٥-١٩٧٥) أديب سوفييتي ومنظر في الفن. كرس أعماله لدراسة صيرورة الأشكال الفنية وتبدلاتها (**المترجم**).

(٢) **نيكولاي غوغول** (١٨٠٩-١٨٥٢) كاتب روسي. ساهمت أعماله في صيرورة الواقعية الروسية الكلاسيكية. أهم أعماله «النفوس الميتة» (١٨٤٢) «المعطف» (١٨٤٢)، «الأنف»، «البورتريه». (**المترجم**).

(٣) **بطرس بوبوريبكين** (١٨٣٦-١٩٢١) كاتب روسي. صور في رواياته الكثيرة ومسرحياته حياة فئات المجتمع الروسي المختلفة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (**المترجم**).

المراقب أو المؤرخ أو المعاصر. كتب أحد أهم منظري علم التفسير المعاصر الرئيسيين هانس غيورغ غادامِر[1]: «بفضل واحد فقط من المشتركين في الحديث التفسيري، أي بفضل المؤوِّل، يكتسب عموماً المشترك الآخر، أي النص، صوته. تتحول بفضله وحده الرموز الكتابية مجدداً إلى فكرة».

التأويل، التفسير – هو استعادة الروابط بالسياق غير الجلية أو المخفية قصداً. يتحدد نجاح هذا العمل بالمعرفة والمقدرة والإرادة والإمكانات الإبداعية لدى القارئ أو المراقب. المعارف يمكن اكتسابها والمقدرة يمكن تنميتها. إننا نتعرف على الفور على الناس حتى في الصورة الصغيرة لا بل نتخيل شكلهم «الحي». أما الوحش في الغابات حين يبرزون له صورة لأناس يعرفهم أو أشياء اعتاد عليها فإنه ينظر إليها بلامبالاة تامة ولا يرى فيها شيئاً – إنه غير مدرب على إدراك هذه الأشكال.

لكن المعرفة والمقدرة لا تكفيان. من غير إعمال الفكر والخيال لن نحصل على شيء. حين ننظر إلى لوحة منظر طبيعي لفنان جيد فإننا نعيد إنتاج اللوحة في مخيلتنا بحيوية تجعلنا نظن أن الرسام قد رسم التفاصيل كلها وكل ورقة على الشجرة. لكن هذا مستحيل. فعدد الأوراق التي رسمها قليل جداً، وهي كبيرة على نحو غير متناسب. لو أن الرسام رسم التفاصيل بدقة لما عرفنا ببساطة الصورة. إنه، بمعرفته لقوانين الإدراك، ألمح لنا فقط وأعطانا إشارة، أما اللوحة فنحن نبنيها في مخيلتنا (بالاشتراك معه ومع إشاراته الماهرة). إننا مشاركون في رسم اللوحة.

إذن فأي هدف يسعى إليه من يرغب في التلاعب بوعينا حين يرسل لنا خبراً على شكل نص أو تصرفات؟ هدفه هو أن يعطينا إشارات كي نغير

---

(١) **هانس غيورغ غادامر** (١٩٠٠-٢٠٠٢) فيلسوف ألماني وأحد الممثلين الرئيسيين لفلسفة علم التفسير في القرن العشرين («الحقيقة والمنهج»، ١٩٦٠). له أعمال في تاريخ الفلسفة وعلم الجمال وفلسفة التاريخ (**المترجم**).

شكل السياق في إدراكنا حين ندرج هذه الإشارات في هذا السياق. إنه يلقننا روابط نصه أو سلوكه بالواقع، ويفرض علينا تأويلها بحيث يكون تصورنا عن الواقع محروفاً بالاتجاه الذي يريده المتلاعب. وهذا معناه أن هذا سوف يؤثر في سلوكنا وكلنا ثقة بأننا نتصرف تصرفاً متطابقاً تماماً مع رغباتنا الخاصة.

إن قول كلمة أو القيام بفعل يمس أوتار الروح لدينا كي نرى الواقع فجأة في هيئة مشوهة تتعارض تحديداً مع مصالحنا هو فن كبير. لا يمكن أن يكون مثل هذه الكلمة ومثل هذا التصرف واضحاً وساطعاً ومفهوماً، إنها موجهة لزاماً نحو أمر ما خفي عن العقل.

ثمة كلمات معناها مظلم أو تافه،

لكن فهمها بغير عناء مستحيل.

ما هي مهمة الإنسان الذي يلجأ، غير راغب في أن يكون ضحية سلبية للتلاعب، إلى دراسة صغيرة من وحي علم التفسير فيحاول أن يقدم تأويله للكلمات والتصرفات؟ مهمته هي إعادة التشكيل الكامل قدر الإمكان لسياق النبأ في ذهنه، وأن يقحم فيه بشتى الوسائل ما سمعه أو رآه. طبعاً، إعادة التشكيل الكامل للواقع أمر مستحيل، لذلك ينبغي اصطفاء جوانبه الجوهرية. لهذا الغرض تحديداً يعطينا علم التفسير إرشادات مفيدة بصفته أسلوباً علمياً. واضح أن ما يتصف بالأهمية والصعوبة الخاصتين هو إعادة تشكيل جوانب الواقع المخفية عمداً وارتباطها بالنبأ. مثلاً، مصالح أولئك الذين «ينظمون» النبأ. (ليس عبثاً أن يكتشف حتى الرومان القدماء المبدأ الأهم في علم التفسير الاجتماعي – «ابحث عن المستفيد»).

البحث عن المعنى المخفي هو عملية نفسية صعبة. إنها تتطلب شجاعة وإرادة حرة، فالأمر يحتاج إلى أن نتخلص وهلةً من وطأة النفوذ الذي غالباً

ما يتمتع به مرسل النبأ. أصحاب السلطة وعدول المال- وتحديداً هم بالأساس الذين يحتاجون إلى التلاعب بالوعي الاجتماعي - يمتلكون دائماً المقدرة على استئجار الفنان المحبوب لنقل النبأ، أو الأكاديمي المحترم، أو الشاعر الثائر العصي على الرشوة، أو القنبلة الجنسية، فلكل فئة من السكان مَثَلها. تتحدد مَلَكة التأويل من وجهة نظر علم النفس بمقدرة الشخصية على الانتقال بسهولة من سياق إلى آخر، واصلة «مقاطع» الواقع المختلفة في لوحة واحدة. اتضح من دراسات علماء النفس التجريبية أن قرابة ٣٠% من المعرضين للاختبار يعانون صعوبات كبيرة في هذا الشأن. هذا معناه أن التدريب واجب.

يُظن أن الناس في مقاربتهم للتأويل ينقسمون إلى نوعين أساسيين. بعضهم يبدأون يسعون إلى أن يعيدوا قدر الإمكان بناء منطق مؤلف النبأ تاركين جانباً إلى حين نسخهم الخاصة. فإن وجدوا في هذا المنطق عيوباً و«لا تتطابق النهايات بعضها مع بعض» بدأوا التنقيب عندئذ.

أما الآخرون فلا يضيعون الوقت في إعادة هيكلة «الأدوات الذهنية» لمؤلفي النبأ، بل يقبلون نتيجة النبأ الجاهزة بصفتها إحدى النسخ المقبولة، لكنها تظل واحدة من عدة نسخ ممكنة، وينتقلون إلى إنتاج جملة من نسخهم الخاصة. إنهم «يصممون السياقات» ويقيسونها على نسخة «المشكوك به» - أي مؤلف النبأ.

تستخدم المقاربتان معاً في الممارسة ضمن هذه التشكيلات أو تلك. المهم هو استيعاب توصية علم التفسير الرئيسية: «كثرة التأويلات، وحتى النزاع بينها لا تعد نقيصة أو عيباً، بل فضيلة من فضائل الفهم المكوِّن لجوهر التأويل». (ب. ريكر[١]). والمسألة ليست في التكوين التوفيقي لنسخة

(١) **بول ريكر** (١٩١٣) فيلسوف فرنسي جمع بين مبادئ الفينومينولوجيا والوجودية والشخصانية. كتب في علم الأخلاق والجمال وتاريخ الفلسفة (**المترجم**).

«وسطية» من عدة نسخ (هكذا كان يسيِّر الأمور غورباتشوف مانعاً أي فهم للعمليات الجارية). لا يمكننا الاقتراب من الحقيقة إلا بتحليل نسخ مختلفة. خصوصاً حين تكون للوجوه الفاعلة مصلحة في إخفائها.

لقد أوصل أكوتاغافا[1] هذه المشكلة إلى أقصى مدى في رواية «راسيومون» (يعرفها الكثيرون من خلال فيلم كوروسافا الذي عُرض عندنا). يحقق القاضي مع المشاركين في الحدث والشهود عليه، وهو معركة أحد الساموراي مع اللصوص التي قتل فيها الساموراي. حتى أن روح القتيل أدلت بالشهادة. وكم كانت مختلفة التأويلات التي قدمها المشاركون «للحقائق الموضوعية» التي تَطابق وصفهم لها!

إننا، يا لسوء الحظ، غالباً ما نعاني من ضيق الأفق: فما إن نحصل على النبأ حتى نقبل على الفور وبثقة مطلقة تفسيراً واحداً وحيداً له. ويكون دليلنا للفعل.

غالباً ما يحدث هذا لأننا «مقتصدون في التفكير» ونتبع القوالب والمفاهيم والأختام المعتادة والأحكام المسبقة المتجذرة. أذكر في بداية السبعينيات كيف بيَّنت لقرائها مجلة نخبة الاقتصاديين ورجال الأعمال الأمريكيين «هارفرد بيزنيس ريفيو» كم هي قوية لديهم الصور النمطية العرقية (stereotype). قُدمت لهم على غلاف المجلة لوحة غريبة وطلبت منهم هيئة التحرير التمعن فيها جيداً. رُسم فيها صالون حافلة يتشاجر فيه رجلان - أبيض وزنجي. كانت في يد أحدهما موسى حلاقة خطرة مفتوحة وجاهزة للطعن. بعد قرابة الثلاثة أشهر طبعت الصورة من جديد، لكن مع تغيير واحد - لم يكن ثمة وجود للموسى. طلبت هيئة التحرير من القراء أن

---

(١) **ريونوسكه أكوتاغافا** (١٨٩٢-١٩٢٧) كاتب ياباني شغله التشاؤم وأعماق النفس البشرية العصبية على المعرفة وعجز الخير في العالم البارد والقاسي. من أعماله «بوابة راسيومون» (١٩١٥) و«الخريف» (١٩٢٠) و«البرد» (١٩٢٤). مات منتحراً اكتئاباً (**المترجم**).

يجروا على أنفسهم التجربة التالية: أن يتذكروا من غير العودة إلى اللوحة الأولى في يد مَنْ مِن المشاركين في الشجار كانت الموسى. ثم نشرت بعد ذلك النتائج المدهشة، إذ قال أغلب القراء (البيض على نحو استثنائي تقريباً) إن الموسى كانت في يد الزنجي. بينما كانت في الواقع في يد الأبيض. تبين أن الصور النمطية أقوى من الذاكرة.

تنتج بسبب من ضيق النظرة والانصياع للصورة النمطية، التي تبرز ولو فترة قصيرة ومؤقتاً، أخطاء جسيمة وعثرات في الممارسة الفعلية. ليس مهماً حتى إن كنا نصدق النبأ الكاذب بلا قيد أو شرط، أو نشكل تأويلنا الخاطئ الخاص له. فسلوكنا في الحالين معاً لا يتوافق مع الواقع، وسينتظرنا الفشل. إليكم حادثة من تجربتي الخاصة. في بداية البيريسترويكا جعلوا مني لسبب من الأسباب، أنا الموظف العلمي العادي، نائباً لمدير المعهد على الرغم من أنني حذرت من أن هذا الأمر لن يجلب أي خير. بعد وقت قصير، حين بدأ الاستياء في كل مكان، أخذوا يفقأون في المعهد الدمامل القديمة، وصار الموظفون المتراصون وراء المدير يجعلون مني كبش الفداء. وإذ كنت غير مطلع على قواعد اللعبة رحت أرفس على نحو لم يتوقعوه إطلاقاً، وبدأت ببساطة حال من الهرج والمرج.

أدار المدير الذكي والمظلم ذلك كله من وراء الكواليس، وكنت مصعوقاً من قسوة مثقفينا الأكاديميين ووقاحتهم إلى حد فقدت معه المقدرة على القيام بتأويل مغاير للكلمات والتصرفات. استلمت مرة رسالة من المدير متعلقة بالقبول الدوري في الدراسات العليا (لقد جعلوا من هذا الأمر أيضاً بؤرة للنزاع). كانت الرسالة مليئة بالسخرية والتهديدات الشفافة والمتقنة، وكانت غير مقبولة إلى حد جلست معه وكتبت رداً حاداً ومعمماً – لقد قررت أن أنهي عدم الوضوح هذا. لكن الحذر دفعني إلى أن أعرض الرسالتين معاً على أصدقائي العاقلين. نظر أصدقائي الأذكياء في المعهد، الذين كانوا يراقبون

الزوبعة في كأس الماء (كان ما يحدث زوبعة في نظرنا، وقد شرق الكثيرون)، نظروا إلى رسالة المدير تماماً كما نظرت إليها. غضبوا، وأيدوا ردي. غير أنني عرضت النصين مع ذلك على صديق آخر لم تكن له علاقة بأمورنا ولم يكن عارفاً بشؤون معهدنا. قرأ النصين وسألني عدة أسئلة ثم قال «قد تكون محقاً. لكن بالإمكان تفسير رسالة المدير على هذا النحو»، - وأعاد ببساطة قراءة النص بكلمات أخرى. تأوهت. لم يكن في الرسالة أي تلميحات وتهديدات، بل كان فيها اعتبارات عملية طبيعية فقط. وإن وجد فيها استعارات فهي تصالحية وتوفيقية. لكن ما تشكل في وعيي الملتهب المتضيق (وليس في وعيي وحدي) بسبب من التأويلات الخاطئة للإشارات، هو شكل كامل ومتناغم وزائف تماماً للنبأ وسياقه. أنقذني صديقي من خطيئة واحدة على الأقل - فمزقت ردي وسعيت إلى أن أستخلص درساً للمستقبل.

على من يرغب في بناء دفاعه ضد محاولات التلاعب بوعيه أن يتخطى تحجر الفكر، وأن يتعلم بناء نماذج للشرح في ذهنه. مهما كان عقل الدوغمائي محصناً «بمبادئه التي لا يستطيع التخلي عنها»، فسيوجد المفتاح إليه بعد عدة محاولات، لأن مسار أفكاره يمكن التنبؤ به ولذلك فهو قابل للبرمجة. ويصير الدوغمائي، من غير أن يدري، ليس فقط ضحية للتلاعب بل أداة من أدواته. تماماً كما كانت «رسالة نينا أندرييفا» التي صارت عملاً مهماً في البيريسترويكا بصفتها برنامجاً هائلاً للتلاعب بالوعي الاجتماعي في الاتحاد السوفييتي.

لقد حذر فرانس كافكا[1]، الذي ساعد كثيراً على تشكيل تقنيات التلاعب المعاصرة بمكاشفاته النفسية المَرَضية، قائلاً في إحدى عظاته:

---

(١) فرانس **كافكا** (١٨٨٣-١٩٢٤) كاتب نمساوي. من رواياته «أمريكا» (١٩١٤)، ومجموعات قصصية: «مشاهدة» (١٩١٣)، «الطبيب القروي» (١٩١٩)، وغيرها. (**المترجم**).

«اندفعت الفهود إلى المعبد وولغت من قدور الأضاحي مفرغة إياها حتى القعر. تكرر هذا مرة إثر مرة. وفي نهاية الأمر بات ممكناً توقع هذا وتحول إلى جزء من الطقوس».

لذلك فإن الإفلات من التلاعب من خلال الدوغمائية والإصرار على الموقف و«بالعناد» مستحيل ببساطة. يتيح ذلك الصمود مدة فقط إلى أن يختاروا المفتاح المناسب لك، أو يتجاوزوك بصفتك عائقاً لا يمثل خطراً كبيراً (كما تجاوز منظرونا الجدد الفلاحين من غير أن يحاولوا إغراءهم بالحكايات عن الديمقراطية ومن غير أن يهدروا الجهد والمال على وضع تقنيات ولغة خاصة للتلاعب بوعيهم تحديداً).

التمكن من الواقع ممكن فقط بدراسة مذهب العدو وتكتيكه وسلاحه. ونحو هذا الهدف تحديداً توجهت تجاربنا في علم التفسير، أي إلى البحث عن سبل تأويل تلك الكلمات والأفعال التي تتجسد فيها محاولات التلاعب بوعينا.

لنبحث في البدء في أي ظروف للوجود الاجتماعي يصير التلاعب الوسيلة الأهم للهيمنة والسلطة، وفي أي المذاهب يتم التعبير عن المبادئ الرئيسية لوسيلة الهيمنة هذه.

الفصل الثالث

الديمقراطية والشمولية والتلاعب بالوعي

كما عرفنا سابقاً، فإن التلاعب هو وسيلة للهيمنة عبر التأثير الروحي في الناس من خلال برمجة سلوكهم. إن هذا التأثير موجه نحو بنى الإنسان النفسية، وينفذ بالخفاء مهمته الهادفة إلى تغيير آراء الناس ودوافعهم وأهدافهم بالاتجاه الذي تحتاج إليه السلطة.

يصير واضحاً من هذا التعريف الموجز جداً أن التلاعب بالوعي يظهر كوسيلة للسلطة في المجتمع المدني ذي النظام السياسي المرتكز على الديمقراطية التمثيلية. وهي «ديمقراطية غربية الطراز»، معتَمَدةٌ اليوم بفضل غسل الأدمغة على أنها ببساطة ***ديمقراطية*** تقف على النقيض من جملة أنواع الشمولية. أما في الواقع فللديمقراطية عدد من الأنواع (العبودية والفيتشا[1] والديمقراطية العسكرية والفايناخية وماشابه). لكننا لن نحيد عن موضوعنا.

صاحبُ السيادة في النظام السياسي للديمقراطية الغربية، أي المتمتع بالسلطة الكاملة كلها، هو مجموعة المواطنين (أي أولئك السكان المتمتعين بالحقوق المدنية[2]). هؤلاء المواطنون هم أفراد، وهبوا نظرياً جزيئات

---

(١) الفيتشا هي اجتماع للسكان في روسيا بين القرنين العاشر والخامس عشر من أجل حل المشكلات الاجتماعية. كذلك يسمى مكان الاجتماع الفيتشا (**المترجم**).

(٢) خلافاً للتصورات الساذجة لدى المتحمسين للديمقراطية لدينا، ثمة في الكثير من بلدان الغرب فئات واسعة من الناس منقوصة الحقوق. لن نتذكر العبودية غير البعيدة في الولايات المتحدة الأمريكية (مع أن هذا مسألة مبدئية فلسفية تمتد جذورها إلى التصورات الدينية عن الإنسان). لكن ها هي البرازيل التي تعد بلداً ديمقراطياً على العكس من كوبا. الهنود فيها – سكان البلاد الأصليون – لا يملكون حق الانتخاب. إنهم سكان ***البلاد*** وليسوا ***مواطنيها***.

متساوية من السلطة على شكل «أصوات». كل جزيء من السلطة معطى لكل فرد يمارَس في أثناء الانتخابات الدورية من خلال إسقاط ورقة الانتخاب في الصندوق. المساواة في هذه الديمقراطية مضمونة عبر مبدأ «إنسان واحد – صوت واحد». لا يتمتع أي أحد بصوت ما عدا الأفراد، ولا «ينتزع» أحد جزيئات السلطة منهم – لا الجماعة ولا القيصر ولا القائد ولا الحكيم ولا الحزب.

لكن كما هو معروف «المساواة أمام القانون لا تعني المساواة أمام الحقيقة». لقد شرح هذا جهاراً اليعاقبة حين أرسلوا إلى المقصلة أولئك الذين طالبوا بالمساواة الاقتصادية على أساس «الحرية والمساواة والأخوة»، أليس كذلك؟ وفاقاً لمعنى الملكية فإن المواطنين المتساوين في المجال السياسي غير متساوين. لا بل إنهم حتى ملزمون بأن لا يكونوا متساوين- الخوف تحديداً من الفقراء يكتل الجزء الميسور من المجتمع المدني ويجعل من أعضائه «مواطنين واعين وفاعلين». ترتكز بنية الديمقراطية كلها على هذا – أي على «مجتمع الثلثين»[١].

تكوِّن اللامساواة في الملكية في المجتمع «اختلافاً في الكمون» – أي عدم توازن شديد لا يمكن الحفاظ عليه إلا بمساعدة السلطة السياسية. هكذا تحديداً يعرِّف عالم الأخلاق العظيم ومؤسس علم الاقتصاد السياسي آدم

---

(١) يسمى الغرب «مجتمع الثلثين». الثلثان هما «الطبقة الوسطى» المتكتلة بفعل مشهد فقر أولئك المدفوعين إلى حافة الحياة. أصوات ثلث المواطنين المستاءين من هذا النظام «تخمد» وتنتزع من قبل مجتمع المواطنين «الفاعلين» – أي يُدفع المستاءون بعدد من الوسائل إلى عدم المشاركة في التصويت. تنزاح ديمقراطية الغرب مؤخراً نحو «مجتمع النصفين» – يرفض نصف المواطنين في الواقع المشاركة في الانتخابات. بنى في روسيا مواطنونا الديمقراطيون نظاماً سياسياً فريداً: تعد الانتخابات فعلية إذا جاء إلى الصناديق خمسة وعشرون بالمائة من الناخبين («مجتمع الربع»). وهذا، بالمناسبة، ما يسمونه امتلاك الحرية، ولا يثير لدى مثقفينا الليبراليين أي دهشة.

سميث[1] دور الدولة الرئيسي في المجتمع المدني: «اقتناء الملكية الضخمة والواسعة ممكن فقط عند إقامة حكومة مدنية. وبقدر ما تكون إقامتها من أجل حماية الملكية فإنها تصير في الواقع المدافعة عن الأغنياء ضد الفقراء، والمدافعة عن أولئك الذين يملكون في وجه من ليس لديه أي ملكية».

يدور الحديث هنا تحديداً عن الحكومة المدنية، أي عن الحكومة في ظروف المجتمع المدني. قبل ذلك، في «النظام القديم» لم تكن توزع السلطة على شكل جزيئات بين المواطنين، بل كانت تتركز لدى الملك المتمتع بحق الهيمنة غير القابل للتشكيك (واستخدام أداتها الرئيسية – أي القمع). وكما الحال في أي دولة فإن سلطة الملك (أو لنقل الأمين العام) تحتاج إلى الشرعية – أي اكتساب النفوذ في الوعي الجماهيري. لكنها لم تكن تحتاج إلى التلاعب بالوعي. كانت علاقات الهيمنة في مثل هذه السلطة مرتكزة على «التأثير الأوامري المكشوف، بغير أقنعة، – بدءاً من العنف والقمع والهيمنة حتى الفرض والإيحاء والأمر – مع استعمال الإكراه الفظ البسيط». بكلمات أخرى كان المستبد يأمر ولا يتلاعب.

يؤكد هذه الحقيقة دارسو التلاعب بالوعي الاجتماعي كلهم إذ يميزون بين وسائل التأثير في الجماهير في النظم الديمقراطية أو المستبدة والشمولية. إليكم محاكمات علماء أمريكيين بارزين:

ز. فريري خبير في وسائل الإعلام الجماهيري: «قبل استيقاظ الشعب لا وجود للتلاعب، بل يوجد قمع شامل. ما دام الواقع يقمع المظلومين تماماً فلا حاجة إلى التلاعب بهم».

---

(١) **آدم سميث** (١٧٢٣-١٧٩٠) اقتصادي وفيلسوف اسكتلندي وأحد أضخم ممثلي الاقتصاد السياسي الكلاسيكي. أجمل في «دراسة الطبيعة وأسباب ثروة الشعوب» مائة عام من تطور هذا الاتجاه في الفكر الاقتصادي، ودرس نظرية القيمة وتوزيع الدخل ورأس المال وتراكمه والتاريخ الاقتصادي في أوربا الغربية (**المترجم**).

ب. لازارسفيلد و ر. ميرتون عالما الاجتماع الأمريكيان البارزان: «أولئك الذين يتحكمون بوجهات النظر والقناعات في مجتمعنا يلجأون بقدر أقل إلى العنف الجسدي، وبقدر أكبر إلى الإيحاء الشامل. يحلون البرامج الإذاعية والدعاية محل الترهيب والعنف».

يقدم س. باركينسون الخبير المعروف، لا بل الشهير، في مجال الإدارة مثل هذا التعريف: «ينحصر فن الإدارة في المجتمع الديناميكي في حسن توجيه رغبات البشر نحو الوجهة اللازمة. كل من يتقنون تماماً هذا الفن يستطيعون إحراز نجاحات لا مثيل لها».

مع أن ***الإيديولوجية*** هي بديلة الدين في المجتمع المدني ونشأت بصفتها نتاجاً للثورة العلمية والتنوير في أوربا، فإن المؤسس الرئيسي منذ البداية لنظرية التلاعب بالوعي الجماهيري وتقنيته كان الولايات المتحدة الأمريكية. عموماً، الولايات المتحدة هي وليدة أوربا (كما كانوا يقولون في القرن الثامن عشر- الولايات المتحدة الأمريكية هي أوربا أكثر من أوربا نفسها). هنا، في الفضاءات المتحررة من تقاليد الثقافات الفئوية القديمة، نشأ الفرد في أنصع الأشكال وأتمها. ظهرت لدى «آباء الأمة» والطبقة الميسورة في الولايات المتحدة الحاجة الماسة إلى التحكم بحشد هائل من الأفراد الأحرار من غير اللجوء إلى عنف الدولة (كان ببساطة غير ممكن ومناقض للأساس الفكري لمذهب الفردانية الأمريكي نفسه). وفي الوقت نفسه لم يكن ممكناً الدعوة إلى معايير أخلاقية مثل احترام أصحاب المكانة - فقد سكن الولايات المتحدة منشقو أوربا الرافضون للنفوذ. وهكذا نشأ في التاريخ نوع جديد من الإدارة مؤسس على الإيحاء. قال الكاتب غور فيدال[١] إن «النخبة السياسية الأمريكية

---

(١) **غور فيدال** (١٩٢٥) كاتب أمريكي. كتب النثر الساخر. من رواياته «ويلليفو» (١٩٤٦) وثلاثيته التي تكشف عالم السلطة السياسية الخفي «واشنطن، دائرة كولومبيا» (١٩٦٧)، «نائب الرئيس بير» (١٩٧٣) و«الإمبراطورية» (١٩٨٧). **(المترجم)**.

قد انمازت منذ البداية بمقدرة تثير الحسد على إقناع الناس بالتصويت خلافاً لمصالحهم الخاصة».

إجمالاً، يقدم أحد أبرز الخبراء في وسائل الإعلام الأمريكية البروفيسور في جامعة كاليفورنيا غ. شيللر التعريف التالي: «يمكن وصف الولايات المتحدة بدقة تامة بأنها مجتمع مجزأ، حيث يعد التلاعب أحد أهم أدوات الإدارة الرئيسية الموجودة في يد مجموعة حاكمة غير كبيرة من مدراء الشركات والمدراء الحكوميين... منذ العهود الاستعمارية أصحاب السلطة يتلاعبون بفاعلية بالأغلبية البيضاء ويقمعون الأقليات الملونة».

يمكن القول إن الأمريكيين قد حققوا إنجازاً علمياً وفكرياً. فهل يعد مزاحاً بناء تقنية مبتكرة في إدارة المجتمع خلال زمن قصير! ما تراكم في المجتمعات الأخرى خلال آلاف السنين، وما احتاج في الثقافة الأوربية في أساسه إلى أعمال فلسفية تعميمية هائلة (مثل «سياسة» أرسطو و«جمهورية» أفلاطون)، تم تصميمه في الولايات المتحدة الأمريكية في مكان عار، بطريقة جديدة وبأسلوب علمي وهندسي بحت. يشير هربرت ماركوزه[1] إلى هذا

---

(١) **هربرت ماركوزه** (١٨٩٨-١٩٧٩) ولد في أسرة يهودية في برلين. شارك في ثورة نوفمبر والانتفاضة الاشتراكية في «اتحاد سبارتاكوس» الذي تحول إلى الحزب الشيوعي الألماني. بنتيجة مؤامرة قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني مع الدوائر الرجعية الألمانية والأنباء عن مقتل روزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنيخت اضطر ماركوزه إلى ترك صفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي مبقياً على صلته بالحركة العمالية. حاصل على الدكتوراه في الأدب عام ١٩٢٢. عاد عام ١٩٢٨ إلى فرايبورغ لمتابعة دراسة الفلسفة بإشراف هايدغر. تأثر بالفرويدية والماركسية وعمل في معهد الدراسات الاجتماعية في جامعة فرانكفورت مع تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر. مع قدوم الفاشيين إلى السلطة عام ١٩٣٣ هاجر ماركوزة إلى الولايات المتحدة. اتجه ماركوزة إلى دراسة علم نفس الجماعة والشخصية، وأبرز ما اهتم به هو كيف يستطيع المجتمع تشويه الشخصية. أثارت اهتمامه المنشورات الدعائية

التغيير الهائل قائلاً: «إخضاع الإنسان اليوم يتخلد ويتسع ليس فقط من خلال التكنولوجية، بل بصفته تكنولوجية أيضاً، ما يقدم أسسا أكثر أيضاً لشرعنة السلطة السياسية شرعنة تامة ولتوسيعها لتشمل مجالات الثقافة كلها». الإخضاع لا بالتكنولوجية، بل بصفته تكنولوجية! لم يكن في مقدور المستبد بناء تكنولوجية، وما فعله هو أنه أخضع الناس بمساعدتها مستخدماً، بالمناسبة، منظومات بدائية جداً (الفأس وجذع الشجرة – يعدان تكنولوجية).

ما بني في الولايات المتحدة هو التكنولوجية تحديداً، وقد عمل من أجل ذلك وما زال يعمل فصيل كبير من رجال الفكر المحترفين والمؤهلين. يشير غ. شيللر: «حيث يكون التلاعب الوسيلة الأساسية في التحكم الاجتماعي، في الولايات المتحدة على سبيل المثال، يحظى إعداد أساليب التلاعب وتطويرها تقديراً أعلى بكثير من أشكال النشاط الذهني الأخرى».

يمكن القول: إن خبراء الولايات المتحدة قد وصلوا في قضية التلاعب إلى حد الكمال – إنهم يوجهون لخدمة الدوائر الحاكمة تلك التيارات

والإيديولوجية السوفييتية، فألف كتاب «الماركسية السوفييتية» الذي وصف فيه الماركسية اللينينية السوفييتية ونقدها من وجهة النظر الماركسية الكلاسيكية والمدرسة الفرانكفورتية. لم يعد ماركوزة يؤمن بالدور الحاسم للطبقة العاملة وعد أن مجتمع الاستهلاك قد أفسد الجميع. ففي كتابه الشهير «الإنسان أحادي البعد» ما عاد ثمة أبطال لديه، وصار الجميع ضحايا ومنومين وما عادوا يتصرفون بإرادتهم الخاصة. الإنسان في الغرب أحادي البعد ما داموا يتلاعبون به. صار المجتمع خالياً من الطبقات، لكنه بعيد جداً عن الشيوعية. صار المجتمع منظومة شمولية جديدة من خلال التنويم ووسائل الإعلام التي تغرس في الوعي الفردي حاجات كاذبة وعبادة الاستهلاك. أما في الاتحاد السوفييتي فصارت الإيديولوجية نفسها عامل الاغتراب. إنها أشد فظاظة من الغرب لكنها بذلك منحت الناس الفرصة للهروب من السياسة نحو الثقافة. بهذا يفسر ماركوزه تطور الأدب والفن في الاتحاد السوفييتي خلافاً لإملاءات الحزب الشيوعي السوفييتي. **(المترجم)**.

الاجتماعية التي يخيل أنها تقع في موقع المعارضة لسلطة تلك الدوائر. يكتب العالم الأمريكي المعروف نعوم تشومسكي في كتابه «الأوهام الضرورية: الرقابة على الوعي في المجتمعات الديمقراطية»، أن حكومتي ريغان وبوش خلال الثمانينات استطاعتا انتهاج أشد السياسات الاجتماعية والعسكرية يمينيةً في الوقت الذي كان يجري فيه انزياح شديد في الرأي العام نحو المبادئ الاشتراكية الديمقراطية. أيدت الغالبية الساحقة في الاستفتاءات إدخال الضمانات الحكومية للتشغيل التام، والخدمات الصحية الحكومية وبناء رياض الأطفال، أما تناسب مؤيدي تقليص النفقات العسكرية ومعارضيها فكان ٣ إلى ١. كان نصف سكان الولايات المتحدة تقريباً واثقاً من أن جملة «من كل مقدرته ولكل حاجته» هي مادة في دستور الولايات المتحدة وليست على الإطلاق شعاراً من بيان ماركس الشيوعي[١].

صور الفيلسوفان أدورنو وهوركهايمر[٢] المحترمان جداً من قبل مثقفينا الليبراليين في كتابهما «جدلية التنوير» تنظيم الحياة كلها في الولايات المتحدة على أنه «صناعةُ ثقافةٍ هي، ربما، الشكل الأشد إتقانا للشمولية والأسوأ نوعية». لذلك فالحديث إذا ما دار عن ذلك فإنه لا يدور عن الخيار بين

---

(١) هذه معطيات الاستفتاء الذي خصص من أجل دستور الولايات المتحدة، الذي أجري عام ١٩٨٧.

(٢) **تيودور أدورنو** (١٩٠٣-١٩٦٩) فيلسوف ألماني وعالم اجتماع ومنظر في الموسيقى. ممثل المدرسة النقدية الفرانكفورتية. درس ومن ثم علم في جامعة غوته في فرانكفورت. هاجر إلى بريطانيا عام ١٩٣٤ ومن ثم إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٩. من أعماله «جدلية التنوير» بالاشتراك مع ماكس هوركهايمر، و«سوسيولوجيا الموسيقى»، و«مسائل فلسفة الأخلاق» و«فلسفة الموسيقى الجديدة». **ماكس هوركهايمر** (١٨٩٥-١٩٧٣) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني وأحد مؤسسي المدرسة الفرانكفورتية. هاجر بين عامي ١٩٣٤ و١٩٤٩ إلى الولايات المتحدة بعد قدوم الفاشيين إلى الحكم في ألمانيا، وعمل هناك في أستاذاً في جامعة كولومبيا. **(المترجم)**.

الديمقراطية والشمولية، بل عن نوعين مختلفين من ***الشمولية*** (أو نمطين مختلفين من ***الديمقراطية*** – التسمية مرتبطة بالذوق).

إذا لم نلتفت إلى الدعاية الرخيصة في التلفزيون، وقرأنا الكتب الجادة، فإننا سنعرف أن الأوهام «الديمقراطية» ما عادت موجودة منذ زمن في الفكر الفلسفي الغربي نفسه. اقترح مونتيسكيو[١] في نظريته عن المجتمع المدني فكرة ***فصل السلطات***، عاداً أن هذا سوف يحد من استبداد السلطة التنفيذية. هذه الآمال لم تتحقق وهذا ما بينه بجلاء تاريخ الغرب. حتى أن الكاتب موريس جولي[٢] كتب في نهاية القرن التاسع عشر كتابه الظريف «حوار في الجحيم بين ماكيافيللي ومونتيسكيو»، شرح فيه في ثانيتين ظلُ مكيافيللي، بصفته منظراً للسلطة التنفيذية الصلفة والقاسية، كيف يستطيع الأمير التلاعب «بفروع السلطة» الأخرى ببساطة، لأنه هو تحديداً من يتحكم بالتمويل، حتى من غير أن يلجأ إلى أساليب أشد قسوة. وهي أيضاً ستستخدم حين يلزم الأمر.

حين يكتب الفلاسفة كتابة جادة فإنهم يتركون جانباً الشتائم مثل «الشمولية» أو «عبادة الفرد» ويتحدثون عن نوعين من الطغيان – ***الشرقي***

---

(١) **شارل مونتيسكيو** (١٦٨٩–١٧٥٥) نهضوي فرنسي وحقوقي وفيلسوف وكاتب. دافع في مؤلفه الرئيسي «حول روح القوانين» (١٧٤٨) عن مبدأ فصل السلطات مقتفياً أثر لوكوم. وأيد الملكية الدستورية وفاقاً للأنموذج الإنكليزي. من أعماله الأخرى «رسائل فارسية» (١٧٢١) وغيرها. **(المترجم)**.

(٢) **موريس جولي** (١٨٢٩–١٨٧٩) محام وكاتب هجائي فرنسي، اشتهر بتأليفه للكتيب السياسي «حوار في الجحيم بين ماكيافيللي ومونتيسكيو، أو سياسة ماكيافيللي في القرن التاسع عشر»، الذي اتخذ منه استناداً إلى مقارنة النصوص أساساً «لبروتوكولات حكماء صهيون». تعرض موريس جولي للاعتقال على محاولته نشر هذا المؤلف وسجن مدة عامين. مات منتحراً بالرصاص. **(المترجم)**.

والغربي. يرى الفيلسوف الفرنسي المعاصر س. موسكوفيتشي[(١)] الفارق الرئيسي الذي يتسم به النوع الغربي في أنه يستند لا إلى التحكم بوسائل الإنتاج بل بوسائل الإعلام ويستعملها بصفتها جملة عصبية: «إنها تبسط فروعها في كل مكان، حيث يجتمع الناس ويلتقون ويعملون. إنها تنفذ إلى خبايا كل حي، وكل منزل كي تسجن الناس في قفص الأشكال المعطاة من أعلى، وتوحي لهم بلوحة الواقع المعممة على الجميع. يستجيب الطغيان الشرقي للضرورة الاقتصادية والري واستيعاب استطاعات العمل. أما الطغيان الغربي فيستجيب قبل كل شيء للضرورة السياسية. إنه يفترض الاستيلاء على وسائل التأثير والإيحاء كالمدرسة والصحافة والمذياع وما شابه... يحدث كل شيء وكأن التطور يسير من نمط إلى آخر: يترك الإخضاع الخارجي المكان لإخضاع الجماهير الداخلي، والهيمنة المرئية يستعاض عنها بالهيمنة الروحية غير المنظورة التي لا يمكن الوقاية منها».

أما التصور وكأن وجود «الآليات الديمقراطية» يوفر من تلقاء نفسه الحرية للإنسان، وانعدامها يقمعه، فما هو إلا ثمرة للسذاجة غير اللائقة تقريباً[(٢)]. كان بالإمكان إلى حد ما تبرير هذه السذاجة للروس في بداية القرن،

---

(١) **سيرج موسكوفيتشي** (١٩٢٥). عالم نفس فرنسي من أصل روماني. مؤلف العديد من الأعمال في مجال علم النفس الاجتماعي. رئيس مختبر الدراسات النفسية الاجتماعية والمدرسة العليا للأبحاث الاجتماعية التابعة لجامعة باريس. رئيس الجمعية الأوربية لعلم النفس التجريبي منذ عام ١٩٦٣، ومدير المختبر الأوربي لعلم النفس الاجتماعي الذي أسسه عام ١٩٧٥. **(المترجم)**.

(٢) يفلت أحياناً لا إرادياً من ديمقراطيينا مثل هذا الهراء ما يترك ببساطة أبلغ الأثر في النفس ولا يدع مجالاً للغضب. هاكم ما يقوله أوليغ بوبتسوف حين كان مديراً للتلفزيون: «الديمقراطية كما أفهم هي المجتمع الذي توجد فيه عبادة القانون». لقد وجدت فعلاً في الرايخ الثالث على سبيل المثال عبادة القانون، وخصوصاً قانون الصحة العرقية. معنى ذلك في نظر بوبتسوف أن هذا هو ذروة الديمقراطية. بعد ذلك بصق يلتسين على الدستور (قانون الدولة الأعلى) وفرق البرلمان بالمدافع – غير أن بوبتسوف راح يتمتم على هذا النحو: «يلتسين هو ضامن الديمقراطية». شر البلية ما يضحك.

لكن حتى حينذاك كتب بيرديايف[١] قائلاً: «تمثّلت الديمقراطية لدى الكثيرين من الروس المعتادين على الاضطهاد والظلم في شيء محدد وبسيط - يجب أن تجلب الخير العظيم، عليها أن تحرر الشخصية. كنا مستعدين باسم بعض حقيقة الديمقراطية غير القابلة للجدل أن ننسى أن دين الديمقراطية كما أعلنه روسو، وكما نفذه روبسبير[٢]، ليس فقط لا يحرر الشخصية ولا يؤكد حقوقها الأساسية، بل يقمعها تماماً ولا يريد أن يعرف شيئاً عن وجودها المستقل. السلطة المطلقة للدولة في الديمقراطيات ممكنة أيضاً كما في أشد الأنظمة الملكية تطرفاً. هكذا هي الديمقراطية البرجوازية ذات مبدأ سلطة الشعب الشكلية... تتحول الغرائز وتقاليد السلطة المطلقة إلى ديمقراطية، وهي تسود في الثورات الأكثر ديمقراطية كلها»[٣].

(١) **نيكولاي بيردياييف** (١٨٧٤-١٩٤٨) فيلسوف ديني روسي. نفي عام ١٩٢٢ من روسيا وعاش في فرنسا. انتقل من الماركسية إلى فلسفة الشخصية والحرية في إطار الدين والوجودية والشخصانية. من مؤلفاته «معنى الإبداع» (١٩١٦)، «معنى التاريخ» (١٩٢٣) «فلسفة الروح الحرة» (١٩٢٧) «الفكرة الروسية» (١٩٤٦). (**المترجم**).

(٢) **جان جاك روسو** (١٧١٢-١٧٧٨) كاتب وفيلسوف فرنسي. أدان الكنيسة الرسمية والتعصب الديني. ووقف في مؤلفه «مناقشة حول بداية اللامساواة وأسسها» (١٧٥٥) و«حول العقد الاجتماعي» (١٧٦٢) وغيرهما ضد اللامساواة الاجتماعية والأنانية الفئوية. الدولة من منظور روسو لا يمكن أن تنشأ إلا بنتيجة عقد بين أناس أحرار. **ماكسيميليان روبسبير** (١٧٥٨-١٧٩٤) أحد رجال الثورة الفرنسية، وأحد قادة اليعاقبة. ترأس فعليا عام ١٧٩٣ الحكومة الثورية ومكن من إعدام لودفيغ السادس عشر، وشكل محكمة الثورة التي أعدمت الزعماء الجيرونديين. ركز في يديه عملياً سلطة لا حدود لها، ونظم أعمالاً إرهابية واسعة. أعدمه التيرميدوريون (**المترجم**).

(٣) بالمناسبة، غرائز السلطة المطلقة وعبادة الفرد متطورة لدى الأوربيين الديمقراطيين أكثر بكثير من الروس. لن نتذكر ابتهاج الألمان لدى مرأى هتلر. لكن هاكم فيلسوف الغرب العظيم هيغل. قدر له في ١٣ تشرين الأول عام ١٨٠٦ أن يرى بين الحشد نابليون، فكتب: «رأيت الإمبراطور، روحَ العالم، وهو يعبر على حصانه شوارع المدينة. حقاً إنه لشعور بالقوة الهائلة - أن ترى مثل هذا الإنسان الممتطي الجواد، في حال من التركيز، مالئاً بذاته العالم كله ومتسيداً إياه». أقول بمقدار ما أتذكر من أحاسيس الشباب إن الروس أحبوا ستالين حباً إنسانياً عقلانياً، لكن ليس كما أحب هيغل نابليون. وإن كان لدينا أيضاً صغار أمثال هيغل.

إذا أردنا أن نتكلم بدقة فما إن تحول التلاعب بالوعي إلى تكنولوجية للهيمنة حتى صار مفهوم الديمقراطية نفسه شكلياً خالصاً ويستخدم فقط كختم إيديولوجي. وهذا الختم لا يؤخذ على محمل الجد في أوساط المحترفين. أشار غ. لاسويل في «موسوعة العلوم الاجتماعية» قائلا: «ليس علينا أن نتنازل للدوغما الديمقراطية، التي يمكن للناس وفاقاً لها أن يحكموا بأنفسهم على مصالحهم الخاصة».

بما أننا بدأنا نتكلم على الديمقراطية والشمولية فيجب أن نشرد برهة لنبرز حالاً خاصة: ماذا يحدث حين تُغرس فجأة بأسلوب ثوري قواعد «ديمقراطية» في مجتمع ذي تصورات «شمولية» عن الإنسان والسلطة؟ ليس مهماً، إن كان من يجلب الديمقراطية قوات المشاة العسكرية الأمريكية كما في هايتي أو بنما، أو المظليون البلجيكيون كما في الكونغو، أو المثاليون المحليون كما في روسيا ربيع عام ١٩١٧. ففي جميع الأحوال لم تترعرع هذه الديمقراطية من «الإحساس بالسلطة» المتكون في الثقافة، بل جلبت كثمرة رائعة من ثمار ما وراء البحار. ينشأ هجين قد يكون مقبولاً إذا عملنا بعناية وحذر (مثل «الديمقراطية» اليابانية التي بنتها سلطات الاحتلال الأمريكية بعد الحرب) لكن هذا الهجين في أغلب الأحوال مرعب مثل موبوتو(١).

إن هذا الأنموذج مهم لنا لأن مشكلة الديمقراطية والشمولية صارت منذ أكثر من عشرة أعوام الموضوع المتقدم في غسيل أدمغتنا. أما في الواقع فنحن، إذ نتبع منطق ديمقراطيينا، فإننا نحصل تحديداً على الهجين المذكور: لقد وضعوا على ماضينا «الشمولي»، وتفكيرنا «الشمولي» مزيجاً وحشياً من

---

(١) **جوزيف موبوتو** (١٩٣٠-١٩٩٧). رئيس زائير. مارشال. القائد الأعلى للجيش منذ عام ١٩٦١. مؤسس ورئيس الحزب الحاكم في زائير (١٩٦٧). أطيح به عام ١٩٩٧ ونفي خارج البلاد. (**المترجم**).

المعايير والمفاهيم (بريفكت PREFECT (الحاكم) والمير MAYOR(العمدة) ممزوجين مع الدوما والكتبة وآلاف الأحزاب).

إذن روسيا لم تكن قط «مجتمعاً مدنياً» من أفراد أحرار. وإذا ما تحدثنا بلغة جافة فإنها كانت مجتمعاً فئوياً شرائحياً (الفلاحون، النبلاء، التجار، رجال الدين – لا طبقات ولا بروليتاريا ولا ملاك). وإن تحدثنا بلغة أخف، مع شيء من السخرية، فإن فلاسفتنا الليبراليين الاجتماعيين يسمون هذا النوع من المجتمعات «***مجتمعاً دافئاً وجهاً لوجه***». الإيديولجيون الصريحون يقولون بصدق: الشمولية. كيف يكون سلوك الناس في مثل هذا المجتمع حين يضطرون فجأة إلى بناء سلطة (يلزمونهم بأن يكونوا «ديمقراطيين»)؟ هذا ما نراه اليوم ونصاب بالذهول – الشعب يختار أناساً لا نفع منهم، والأفضل من غير الروس، وغالباً جداً ما يكونون جناة. بالمناسبة لا يوجد هنا ما يثير الدهشة. هذا النمط البدائي وهذا الميل اللاواعي قد تجلى في اللحظة الأولى من تكون روسيا القديمة، حين دعوا لقيادتها الفارياغيين[١] النهابين.

ثمة لهذا تفسير مبتذل وشعبي وآخر سام ومثالي. تعالوا لنتذكر حادثة تهجين «خالصة» للسلطة حين اضطروا على الفور بعد ثورة شباط عام ١٩١٧[٢] إلى الانتقال في القرية والمدينة معاً من الدرك وموظفي القيصر إلى الشرطة والإدارة الذاتية و«وزراء الشعب». ما الذي حدث؟

---

(١) **الفارياغيون** هم بحارة ومحاربون وتجار اسكندنافيون. غزت فرقهم أوربا الشرقية بين القرنين التاسع والحادي عشر. استأجرهم الأمراء الروس القدامى، وخدموا لدى الإمبراطور البيزنطي. أقام قسم منهم في روسيا واعتنق المسيحية. (**المترجم**).

(٢) قامت ثورة ٢٣ شباط عام ١٩١٧ في روسيا وأطاحت بالنظام القيصري، بعد تأزم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إثر هزيمة روسيا في الحرب العالمية الأولى. شكلت الثورة حكومة مؤقتة لكن تطور الأحداث أدى بالنتيجة إلى قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية في العام نفسه. (**المترجم**).

لقد أبقى لنا م. بريشفين[1] في يومياته وصفاً دقيقاً جداً، ويوماً بيوم، لتلك الأحداث. كان ربما الكاتب الوحيد الذي قضى أعوام الثورة في القرية في قلب روسيا في عزبته في قضاء يليتسكي في محافظة أورلوفسك. وليس وراء منضدة الكتابة بل كان يحرث بنفسه هكتاراته الـ ١٦ (منعوه حتى من استئجار عامل). كما كان عدا ذلك في قلب الأحداث كلها لأنه كان مندوباً في اللجنة المؤقتة لدوما الدولة عن محافظة أورلوفسك، ويحضر الاجتماعات يومياً في لجنته الريفية ويجول على الأقضية والمراكز، ويتردد من وقت إلى آخر في بطرسبورغ - إلى الوزارات والدوما والمجلس. ذكر في تقريره إلى الدوما في ٢٠ أيار أن الفلاحين ينتخبون الجناة إلى اللجان والمجالس. وكتب قائلاً: «لقد تأكدت من خلال التحقيقات أن هذه الظاهرة عامة في منطقتنا». وحين جاء إلى العاصمة في بداية أيلول وبعد أن رأى وزير الزراعة وزعيم الإيسيريين تشيرنوف[2] فهم بريشفين أن الحديث لا يدور عن منطقته فقط بل عن روسيا كلها. هاكم ما كتبه في ٢ أيلول:

«تشيرنوف إنسان صغير، هذا واضح من تصعيراته وابتساماته وكلامه المسهب المعقد الخالي من أي محتوى. يلفظ كلمة "قرية" بلكنة فرنسية،

---

(١) **ميخائيل بريشفين** (١٨٧٣-١٩٥٤) كاتب روسي. كتب النثر الفلسفي الشاعري المرتبط بمواضيع الطبيعة والتاريخ الروسي والحياة الشعبية والفولكلور. يصف في «يومياته» (٣ أجزاء) التي صدرت بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٥ التراجيديا الاجتماعية والأخلاقية في الحقبة السوفييتية بما في ذلك القضاء على طبقة الفلاحين في روسيا في أعوام إنشاء التعاونيات. (**المترجم**).

(٢) الإيسيريون هم أعضاء حزب الاشتراكيين الثوريين. **فيكتور تشيرنوف** (١٨٧٣-١٩٥٢) سياسي روسي، وأحد مؤسسي حزب الاشتراكيين الثوريين وعضو لجنته المركزية ومنظر الحزب. شغل عام ١٩١٧ منصب وزير الزراعة في الحكومة المؤقتة وانتخب في الجمعية التأسيسية عام ١٩١٨. هاجر عام ١٩٢٠، وشارك في أثناء الحرب العالمية الثانية في حركة المقاومة الفرنسية. له أعمال في علم الاجتماع والمسألة الزراعية وكتب مذكراته (**المترجم**).

ويسمي نفسه "وزيراً قروياً". واضح أنه لا يملك شيئاً في روحه مثله عموماً كمثل غالبية "الوزراء القرويين" الحقيقيين الذين ترسلهم القرية الآن إلى المركز، والمركز إلى القضاء، والقضاء إلى العاصمة. هؤلاء المرسلون القرويون يختارهم الفلاحون غالباً من بين الجناة لأنهم عانوا، ولأنهم تعساء، ولا يملكون شيئاً، ولأنهم أناس أحرار، ولذلك بإمكانهم الوقوف إلى جانب الفلاحين من غير أن يكلفهم ذلك شيئاً. إنهم يتعلمون بسرعة ألفباء السياسة الضرورية، ويتلفظون على نحو مضحك بالكلمات الأجنبية كما يلفظ المرسل من قبل المثقفين تشيرنوف الكلمات القروية مع الـــ de الفرنسية. «الوزير القروي» والمندوبون القرويون متعارضون نفسياً مع الفلاح الحقيقي».

كيف إذن تتشكل في الواقع هذه السلطة وكيف يحاكم الأمور أولئك الراغبون في الخضوع لها؟ لقد سجل بريشفين سير مثل هذه الاجتماعات. إليكم هذه الحادثة في ٣ تموز من عام ١٩١٧. انتخابات اللجنة، القضية مهمة لأن اللجنة، خلافاً للمجلس، تقود الشؤون الزراعية. المرشح مِشكوف («الصدغان مشدودان، الجبين كالمكواة، العينان زائغتان. من يكون؟ ها هو – إنه كله هنا: لا محراث، ولا مسلفة، ولا أرض») مِشكوف لص. لكن الكاتب رئيس الاجتماع يجد الحجة:

«– خطيئته أيها الرفاق جلية، والخطيئة الجلية تعذب أكثر من الخفية، كلنا خاطئون!

وأعطى الكلمة لمشكوف نفسه كي يبرئ ذاته، فقال:

– أيها الرفاق، حكم علي قبل تسع سنوات، أما الآن فقد برأت نفسي بالسياسة. كل شيء مغفور بالقانون الجديد!

تكلم أناس من الحشد: – صحيح!

فقال أحدهم بهدوء:

- إن لم ننتخب مشكوف فمن علينا أن ننتخب. مشكوف شخص كله أمامنا: سرواله وقميصه وحذاؤه المهترئ - كل شيء هنا! كلمة واحدة، شخص خطيب، وليس لديه حصان ولا بقرة ولا محراث ولا مسلفة ويؤويه عمه شفقة، أما زوجته فتتسول. لا تنتخبوا شخصاً كبيراً، فلدى الكبير قطعان كثيرة وأرض وأعمال، الكبير بورجوازي. انتخبوا شخصاً صغيراً. ومِشكوف الأصغر عندنا.

أجاب مشكوف: - أشكرك أيها الرفيق، والآن سأشرح لكم ماذا يعني صندوق الانتخاب. إنه مسألة سرية ويتطابق مع سر من الأسرار، هذا السر ينبغي عليكم أن تحملوه بعناية شديدة وبلطف شديد وحتى تحت حراسة صارمة!

ودعاهم للانتخاب:

- لكن عليكم أن تنتخبوا الاشتراكيين الثوريين فقط، وإن انتخبتم أحداً من حزب الحرية الشعبية ومن البورجوازيين، فإننا سنكتسحه ونقلبه على الرغم من كل شيء!»

هذا هو الهجين بين الديمقراطية و«المجتمع الدافئ». وبالنتيجة، كما يكتب بريشفين، خلال نصف عام فقط بعد شباط «تم اغتصاب السلطة» («إنهم ببساطة يقتنصون الآن السلطة، يأخذونها بأيد عارية»). واقتناص السلطة واغتصابها لا يقدم عليه إلا أناس لا يصلحون لشيء:

«كما يشارك أساساً في أمور الأرض أولئك الذين ليس لديهم أرض وكثيرون ممن نسي حتى كيف ينبغي معالجتها، كذلك يشارك في أمور السلطة في أغلب الأحوال أناس عراة، وغير قادرين على العمل الإبداعي، ونسوا أن... السلطة الحكومية هي تعاسة للإنسان قبل كل شيء».

يلامس هنا بريشفين الوضع «المثالي»، الذي، ربما، قل ما نصادفه في غير الثقافة الروسية. عبء السلطة هو تعاسة للإنسان! السلطة هي دائماً

شيء ما خارجي في نظر «المجتمع الدافئ»، ومن يحمل عبء السلطة سيصير منبوذاً لا محالة. أما إذا وضع علاقاته الإنسانية فوق واجبه الحكومي فستكون سلطته سيئة وغير منصفة. ويصير من الصعب جداً في مثل هذا الوضع السير على حد السكين من غير إهلاك النفس. مفهوم لماذا يسعى الإنسان الروسي إلى أن «يرسل إلى السلطة» من لا يأسف له، والأفضل أن يستدعي الغريب، الألماني. وإذا ما ألزموه، كرمى للديمقراطية، أن يبني إدارة ذاتية فإن العزوف عن تنفيذ الواجبات السلطوية والفساد أمران حتميان.

يبدو هذا لدى بريشفين في المستوى المعاش على النحو التالي:

«١٤ حزيران. حصدنا البستان بأيدينا. نحتسي الشاي في البستان، وفي الطرف الآخر تجر الفلاحات ما تم حصده. سرنا لنخيف الفلاحات بالكلب، وإذا بعجول فوق الشوفان. استدعاء الشرطي غير ممكن – لا فائدة منه، فهو من القرية، عرابها كلها وخطابها ولا يستطيع أن يسير ضدها. منغصات الإدارة الذاتية: الدركي هو سلطة مجردة، من الجانب، والشرطي شخص من عظام الرقبة ومثقل بضيق التفكير...

فعلاً، الإدارة الذاتية في القرية غير ممكنة لأن الجميع فيها أهل، والسلطة يخيل أنها تعيش جانباً. لا أحد في قريتنا مثلاً يستطيع أن يزرع الملفوف والخيار لأن الصبية وعجول الجيران سيفسدون كل شيء. اقترحت فرض غرامة على من يفسد الزرع، لكنه لم ينل الموافقة.

قالوا: – إن فعلنا فسيصل الأمر إلى حمل السكاكين.

القرية ضيقة، الجميع أهل، والسلطة لا تحب القربى، ليس للسلطة أقارب.

هكذا انتخب مشكوف الجاني، شحيح العقل، الذي لا يملك بيتاً ولا مأوى، لأنه غير محاب ويقف مع الحقيقة – أي حقيقة؟ لا أحد يعرف؛ فقط لأنه يعيش من غير هذا العالم. السلطة ليست من هذا العالم».

في الحقيقة، أيد فلاحو روسيا (وخصوصاً أصحاب المعاطف الرسمية) البلاشفة لأن فيهم وحدهم كانت شرارة سلطةٍ «ليست من هذا العالم» - سلطة بلا أقارب. ينبغي القول إن غريزة الدولتية هذه قد استيقظت في البلاشفة بسرعة مدهشة. التباين مع الديمقراطيين الحاليين عجيب ببساطة. الظاهرة ذات المعاني العديدة التي صمتت عنها الإيديولوجية السوفييتية الرسمية، وعبثاً فعلت، هي «الإجرام الأحمر». خاضت السلطة السوفييتية في نهاية الحرب الأهلية صراعاً، أحياناً عبر المحاكم وأحياناً أخرى باستخدام القوات المسلحة، مع الحمر الذين كانوا يفتعلون النزاعات جوراً. حتى أنها في بعض الأماكن عدَّت أن هذا الخطر على السلطة السوفييتية هو الأهم. وقد خضعت للمحاكمة أحياناً منظمات حزبية كاملة - فهي ما عادت «من أقارب السلطة»[١].

وحين انقرض البلاشفة وصارت سلطتهم «تعيش وتدع غيرها يعيش» خرجت منها الروح، والحزب الشيوعي الروسي الطيب اليوم لا يدعونه كثيراً إلى السلطة، فهو من أهل البيت كثيراً.

---

(١) انتشر «الإجرام الأحمر» انتشاراً واسعاً في سيبيريا خصوصاً، حيث لعب الأنصار هناك الدور الرئيسي في الصراع مع البيض وليس الجيش الأحمر النظامي. حين تقرأ اليوم التقارير عن محاكمات الحمر فإنك ستصاب بالذهول. اكتشفت في مدينة صغيرة مؤامرة فاعتقل أفراد لجنة الطوارئ قادتها. ليلاً، أغار على المدينة لتحريرهم فصيل من البيض الفارين إلى الغابات. كان عدد أفراد لجنة الطوارئ والخلية الحزبية سبعة فقط فخاضوا المعركة طوال الليل، ثم أعدموا المتآمرين إذ لم تعد لديهم المقدرة على المواجهة، وغادروا. حاكموهم - بحضور حشد من الشعب، الذي عانى الأمرين من البيض، والذي كان غاضباً لا من «المجرمين»، بل من السلطة تحديداً ومن المحكمة الميدانية. ويكتب بريشفين باشمئزاز أن مثل هذه المقدرة على السمو فوق الصراع «مع ازدراء آلام الموالين» لم تكن موجودة لدى أي من القوى السياسية القائمة في روسيا - ما عدا البلاشفة. لكن هذه هي تحديداً «غريزة الدولتية».

وهكذا فقد أجرينا تصنيفاً. ثمة مجازاً أنموذجان «ناصعان» – الديمقراطية والشمولية. والوضع الأصعب هو وضعنا – أي عملية التهجين المفروضة للديمقراطية الغربية المركَّبة على ثقافة «المجتمع الدافئ». ويأمل إصلاحيونا من هذا الهجين أن يقتل مكوِّن «الشمولية» (الأصح يتظاهرون بأنهم يأملون). ويكاد يكون التلاعب بالوعي هو أداتهم الوحيدة في مساعيهم هذه.

وُضِعت تكنولوجيا التلاعب في الولايات المتحدة وهي تستخدم اليوم في حدود تتسع وتضيق في أجزاء أخرى من العالم (في روسيا ليس لها حدود) وينبغي أن تصير الوسيلة الوحيدة للتحكم الاجتماعي في النظام العالمي الجديد. طبعاً، يضاف إليها العنف تجاه «الملونين». مع العلم أن الفقراء هم من باتوا أكثر فأكثر يعدون ملونين بغض النظر عن لون الجلد (مثلاً ما عاد اليابانيون من الملونين، بينما صار الروس منهم تقريباً).

فلنتحفظ قليلاً وندع جانباً مشكلة التحكم الاجتماعي في المجتمعات «الشمولية». لماذا لا تندرج أساليب التأثير الروحي القاسية المستخدمة في اللاديمقراطية ضمن مفهوم التلاعب؟ فالمستبدون لم يقطعوا الرؤوس فقط وإنما أرهبوا «بالغراب الأسود» أيضاً. باختصار، لقد أثَّروا بالكلمة والموسيقى والصورة على نحو لا يقل ولو قليلاً عن المِخلعة[١]. فلماذا إذن التراتيل الدينية في المعبد وجلسة الموجه السياسي في الجيش الأحمر، التي تحرض الإنسان على سلوك معين، ليست تلاعباً بالوعي؟

تأثير الدين في الإنسان (لا نتحدث بعد عن الطوائف) أو «الدعاية» في ما يسمى المجتمعات الفكرقراطية، أياً كانت، روسيا القيصرية مثلاً أو الاتحاد

(١) **المخلعة** أداة تعذيب كانت تستخدم في روسيا في القرون الوسطى، وهي عبارة عن عارضة يمرر من فوقها حبل يشد إلى الأعلى يدي الخاضع للتعذيب المقيدتين خلف ظهره (**المترجم**).

السوفييتي، يختلف عن التلاعب بسماته الأصلية الرئيسية. سنلقي الضوء على مجمل هذه السمات حين سنتحدث عن أساليب التلاعب، لكننا سنشير هنا إلى سمة واحدة هي سرية التأثير في الإنسان والإيحاء له برغبات تناقض مسبقاً قيمه الرئيسية ومصالحه.

لا الدين ولا الإيديولوجية الرسمية في المجتمعات الفكرقراطية يتوافقان مع هذه السمة- لا بل إنهما يؤثران من حيث المبدأ على نحو مغاير. إن توجههما إلى الناس ليس ببساطة غير سري، بل معلن جهاراً. واتجاهات السلوك ومعاييره التي حرضت عليها هذه التأثيرات معلنة على نحو مكشوف تماماً، ومرتبطة ارتباطاً واضحاً وصارماً بقيم المجتمع المعلن عنها.

كان آباء الكنيسة و«آباء الشيوعية» يعتقدون أن ذلك السلوك الذي يدعون إليه بالصوت العالي إنما يصب في مصلحة خلاص روح رعيتهم ومن أجل هنائها. لذلك لم يكن حتى بالإمكان طرح مسألة الإيحاء بأهداف ورغبات كاذبة وإخفاء عملية التأثير الروحي. طبعاً، يمكن للتصورات عن خير الناس وحاجاتهم لدى النخبة أو القسم الأكبر أو الأصغر من الناس أن تختلف، وكان بإمكان القادة أن يضلوا الطريق تماماً. لكنهم لم «يتسللوا إلى تحت الجلد» وأكملوا سلطة الكلمة بالقمع المباشر. رفعت في إحدى ثكنات الجيش الأحمر يافطة: «لا تستطيع – سنساعدك. لا تحسن – سنعلمك. لا تريد – سنجبرك».

مغزى التلاعب مغاير: إننا لن نجبرك، بل سنتسلل إلى روحك، إلى لاوعيك، وسنفعل كل ما ترغب فيه. يكمن في هذا الاختلاف الرئيسي وعدم التطابق المبدئي بين العالمين: الدين أو الفكرقراطيا (في ما يسمى المجتمع التقليدي) والتلاعب بالوعي (في ما يسمى المجتمع الديمقراطي).

غير أن ما يضلل الكثيرين هو التشابه في بعض الأساليب «التقنية» المستخدمة في الخطاب الديني والدعائي والتلاعبي على حد سواء – وهو اللعب على المشاعر، ومخاطبة اللاوعي والمخاوف والآراء المسبقة. مع أن هذه الأساليب في الدين والدعاية الفكرقراطية هي في الواقع نتاج الضعف وعدم النضوج، أما في التلاعب بالوعي فهي نهج مبدئي، وهي ليست جلية

للعيان. عدا ذلك، تقع أحياناً الطوائف الدينية التي اتجهت نحو التجديد والمهتمة بالنجاح في المجال الاجتماعي والسياسي، ضحية إغراء امتلاك تقنيات التلاعب الكبرى فعلاً[1]. تتحدث عن هذا الأمر إحدى تأملات دوستويفسكي التي تكاد أن تكون الرئيسية لديه، والتي عبَّر عنها في أسطورة المفتش الكبير. تذكرون كيف أرسل المفتش الكبير إلى المحرقة المسيح الهابط إلى الأرض كي لا يخرب النظام العالمي القائم في المجتمع على أساس التلاعب بالوعي تحديداً (كما نقول اليوم). يلوم المفتش الكبير المسيح لأنه رفض أن يقود خلفه رجلاً مؤثراً في وعيه بالأعجوبة.

لم تحظ الإيديولوجية الشيوعية، خلافاً للكنيسة، بنقد على مستوى دوستويفسكي أو تولستوي[2]، لكننا نرى من غيرهما «تجديدية» خروشوف الممزوجة بإغراء استخدام تقنيات التلاعب وهي تصيبها بالجرح الذي نفذ منه أتباع ياكوفليف وبوربوليس[3] مفترسين إياها بشراهة. بدأ خروشوف يليح

---

(١) إننا لا نتحدث عن تلك الطوائف و«الكنائس» التي تعد قبل كل شيء منظمات سياسية أو اجتماعية (وأحياناً إجرامية)، والتي، على العكس، تستخدم «التقنيات» الدينية من أجل أهداف تلاعبية.

(٢) **ليف نيكولاييفيتش تولستوي** (١٨٢٨-١٩١٠). دوق وكاتب روسي. عضو شرف في أكاديمية العلوم في بطرسبورغ (١٩٠٠). ابتداء من سيرته الذاتية التي خطها في ثلاثية «الطفولة» و«الصبا» و«الشباب» بات موضوع دراسة «انسياب» العالم الداخلي للشخصية وأسسها الأخلاقية الموضوع الرئيسي لمؤلفات الكاتب. تعكس أعماله البحث المؤلم عن مغزى الحياة والمثل الأخلاقية وشرائع الوجود الخفية. من أعماله: «الحرب والسلم» (١٨٦٣-١٨٦٩)، «الجثة الحية» (١٩٠٠)، «سلطة الظلام» (١٨٨٧)، «القيامة» (١٨٨٩-١٨٩٩).(**المترجم**).

(٣) **غينادي بوربوليس** (١٩٤٥). رجل دولة. عمل بين عامي ١٩٨١ و١٩٨٩ مدرساً وإدارياً. شغل منذ عام ١٩٩١ منصب أمين مجلس الدولة التابع لرئيس روسيا الاتحادية، ونائباً لرئيس الحكومة الروسية. ترأس منذ عام ١٩٩٣ المركز الإنساني والسياسي «إستراتيجيا». (**المترجم**).

كالساحر بكمه الذي كان ينبغي أن تتساقط منه الأعاجيب: فلنلحق بأمريكا بإنتاج اللحم والحليب، ولنزرع الذرة في أرخانغلسك، ولسوف نعيش في الشيوعية بعد عشرين عاماً. بهذا بدأ ينهار المجتمع الفركرقراطي السوفييتي. يقال: التلاعب بالوعي في المجتمع الفكرقراطي لا يؤدي وظيفته («إنه مضر بالصحة»).

لكنني أكرر أن الاختلافات الأساسية في الحياة الواقعية تعتم على الانحرافات عن الأنموذج «الخالص»، ولذلك سنكتفي الآن بهذه السمة الأصلية الجلية أي الوضوح وحتى الاستعراض وممارسة الطقوس في إقرار معايير السلوك المرغوبة في المجتمعات التيوقراطية والفكرقراطية – والسرية وبلوغ الهدف من خلال التلاعب بالوعي في إقرار مثل هذه المعايير في المجتمع الديمقراطي (المدني، المفتوح، الليبرالي... الخ).

اتفقنا منذ البداية على أننا سنسعى في هذا الكتاب إلى أن لا نكسب الظواهر تقويماتنا الخاصة، بل إلى وصفها والكشف عن مغزاها. التقويمات تتبع من المُثل، والمُثل لدى القراء متنوعة والجدل حولها لا معنى له. يمكن فقط الاتفاق عند استيضاح هذه المثل على تعايشها. ولهذا علينا أن نفهم ما يجري، أي أن نميز المغزى مما نراه.

لذلك، عوضاً عن الانتقاص من قيمة هذا الأسلوب في التأثير في سلوك الإنسان أو ذاك، سندل على مقاربتين في المقارنة بينها. سنسمي الأولى وظيفية، والثانية أخلاقية.

إلى أي مدى تسمح المقاربات المبتكرة لأصحاب السلطة في المجتمعين الفكرقراطي والديمقراطي بأن ينفذوا بنجاح إحدى الوظائف الرئيسية، وهي تأمين استقرار المجتمع وإعادة إنتاجه واستمراره في الحياة؟

عموماً، المجتمع الفكرقراطي التقليدي والمجتمع الليبرالي إما ثابتان، أو ضعيفان أمام ضربات من أنواع مختلفة. الصنف الأول مذهل بصلابته حين يتعرض المجتمع كله أو القسم الأكبر منه إلى ضربات ثقيلة بحيث يظهر

شعور «إنهم يضربون أخوتنا». في هذه الحال يجعل الثبات المراقبين والسياسيين «من المجتمع الآخر» لا يذهلون وحسب، بل يدفعهم مرة تلو المرة إلى الارتباك وارتكاب الأخطاء الكبيرة.

ثمة القليل نسبياً من المواد المنشورة حول تحليل تلك الاستنتاجات التي قام بها مستشارو نابليون وهتلر، الذين أخطأوا في تنبؤاتهم حول ردة فعل شتى فئات المجتمع الروسي على العدوان على روسيا. يبدو أن هذا التحليل ما زال حتى الآن طي الكتمان في الغرب على الأقل بحدسٍ من المفكرين أنفسهم. لكن حتى ما نشر يدل على أن الغرب في «تجربتيه» الضخمتين معاً قد أخطأ خطأً أساسياً. لقد «أوّل» الروس إيماءات حاملي التقدم الغربيين على نحو مختلف تماماً عن ما حسبوه(١). كل ضربة من الخارج تلقاها الروس على أنها ضربة لروسيا كانت ترأب تصدعاتهم و«تؤجل» تناقضاتهم الداخلية.

كذلك تذهل اليوم الخبراء الغربيين (وتلامذتهم «الروس») مقدرتنا على صد ضربات المنتصرين على روسيا في الحرب الباردة. لم يؤد الإفقار الشامل إلى عدم تهدّم المجتمع وحسب بل إنه حتى لم يغضب الناس تقريباً، ولم يفسدهم. لم يتفكك المجتمع خلافاً للتوقعات، وظل يعيش وفاقاً للقوانين غير المكتوبة والمعايير الثقافية الغريبة عن قانون السوق ومعايير الفردانية.

إننا لا نرى ببساطة، من بروجنا المعتادة، ما يحدث في روسيا وكيف يُنظر إليه بعيون «الحضارة». هبوط الإنتاج في الغرب بمقدار واحد في المائة هو أزمة تغير سلوك الساكن هناك تغييراً عجيباً. حتى لو لم تمسه هذه الأزمة شخصياً وحتى لو لم يتهدده خطر الإفلاس مباشرة. أما إذا لامسته

(١) ارتكب نابليون خطأ مماثلا في إسبانيا أيضاً التي خيل أنها أوربية تماماً. كان القسم الليبرالي المستنير من المجتمع، المتعطش هناك إلى قدوم الديمقراطيين الفرنسيين أكبر عدداً من مثيله في روسيا، لكن ما حصل كان مربكاً. فذبح الإسبان الفرنسيين والبولونيين الذين يدسون أنفسهم دائماً وأبداً حيث لا ينبغي لهم أن يدسوها، وكذلك ليبرالييهم وهم يصيحون «عاش القيد!».

عجلة الأزمة فيحدث ببساطة تحول لا يمكن تصوره. يتحول هذا الإنسان المحترم والمهذب والبشوش أمام عينيك إلى بخيل حاقد. يبدأ يعذب أولاده، وينقطع عن أصدقائه ويشرع يوفر النقود كالممسوس مرتكباً تصرفات غريبة – في مقدوره أن يخدع في الحساب البائع المتجول، وأن ينهب طالب الدراسات العليا لديه مستوليا على نقوده. المنظر ثقيل على نحو استثنائي.

لقد كتب العديد من الأدبيات المؤثرة عن كيفية فقدان المجتمع الليبرالي السريع للمعايير الثقافية التي تجعله متماسكاً عند إفقار الطبقة الوسطى. ففي أثناء الكساد العظيم في الولايات المتحدة راح رجال الأعمال المفلسون يتساقطون من النوافذ مثل ثمار الإجاص الناضجة، فهل نرى شيئاً مشابهاً في روسيا؟ حتى افتراض ذلك يبدو مضحكاً. حسناً، فقدت ما أملك – سأعمل مديراً للبناء. قبل عامين وبسبب من مكائد إدارته احترق البنك الإسباني الضخم «سانتاندر». ففقد المساهمون قرابة ربع ثرواتهم. انعقد اجتماعهم في الصالة الكبرى، وكانت هناك كاميرات التلفزيون. لم أر في حياتي اجتماعاً كهذا لأناس ارتسمت على وجوههم مشاعر الاستياء والمصيبة الإنسانية العميقة. ويحدثونك أيضاً عن انعدام الروح في الغرب. لقد عكست الصور الفنية الملتقطة في ذلك الاجتماع للمساهمين، والتي ملأت الصحف، مأساة من أعلى مستوى.

قبيل تحرير الأسعار الذي حدث في روسيا في كانون الثاني عام ١٩٩٢ جرى حديث بيني وبين أحد الاشتراكيين الإسبان. قال لي: «تنتظركم ظواهر ممتعة. راقبها ثم حدثني عنها». لقد تنبأ مثلاً بأن موسكو عند ارتفاع الأسعار الحاد ستمتلئ خلال أسبوع بالكلاب الشاردة، وسيشكل هذا ظاهرة. يستخدم علماء الاجتماع لديهم كمؤشر بدائي على الصعوبات الاقتصادية المتزايدة، لكنه حساس جداً، نبأً بسيطاً عن عدد الكلاب الشاردة الملتقطة في الشوارع. إن نمو هذا المؤشر على مستوى التبدلات في التضخم ومؤشرات البورصة والإنتاج يقول: سيحدث ركود. حاسة الشم لدى الطبقة الوسطى مرهفة ولا تخطئ، وليس في مقدور أي علم اقتصادي أن يجاريها.

ماذا تفعل أسرة البورجوازي المحترمة حين تشتم رائحة اقتراب هذا الركود؟ تذهب للنزهة خارج المدينة. الجميع سعداء والأولاد مهتاجون والكلب يقفز فرحاً ويحاول أن يلعق وجه صاحبه. يطلقون الكلب ليتنزه عند طرف الدغل، وبينما يجري وراء الفراشات وهو ينبح يجلسون جميعاً في سيارة «التويوتا» ويصفقون الأبواب - والوداع. فعلاً، تسير في شوارع المدن النظيفة كلاب من سلالات الكولي والدوبرمان بعيون مجنونة. إنها لا تستطيع أن تفهم ما حدث لها، أين صاحبها وطعام الكلاب «Pedigree» الذي يقدمه لها. حتى أنني رأيت مرة كلباً من سلالة سان برنار مذهولاً هكذا. وكان المدافعون عن الحيوانات يلصقون إعلانات احتجاج تحمل صورة كلب كتب عليها: «ما كان ليفعل بك ذلك».

هل تحققت تنبؤات عالم الاجتماع الضليع بالنفس الغربية؟ ولا في حال من الأحوال، وهذا ما سرني أن أبلغه به. ظلت العجائز المتقاعدات المفقرات دفعة واحدة بعد ارتفاع الأسعار يخرجن كالسابق بكلابهن للنزهة. وصار الجيران يكومون قرب الشقق التي فيها كلاب ضخمة كمية أكبر من العظام. لا، لم يتكون بعد عندنا المجتمع المدني.

لكن المجتمع التقليدي بالمقابل ضعيف وهش هشاشة استثنائية أمام نوع من التأثيرات، المجتمع المدني غير حساس تجاهها على الإطلاق. يكفي أن يدخل الوعيَ الجماهيريَ الشكُ في عدالة نظام الحياة في المجتمع الفكرقراطي أو في عدالة سلطة الدولة حتى تهتز ركائز النظام السياسي وقد تنهار في ساعة واحدة. يتحدث عن ذلك «بوريس غودونوف» البوشكيني(١). وكتب عن

---

(١) **ألكسندر سيرغييفيتش بوشكين** (١٧٩٩-١٨٣٧) شاعر روسي ومؤسس الأدب الروسي الجديد، ومؤسس اللغة الأدبية الروسية الجديدة. كان بوشكين أول من حدد في شعره ومسرحه ونثره جملة مشكلات الأدب الروسي الرئيسية في القرن التاسع عشر، ولم يكن من النادر أن يكمن في أساس تعارض هذه المشكلات المأساوي وعدم قابليتها للحل الشعب والسلطة، والدولة والشخصية، ودور الشخصية والشعب في التاريخ، مثال «بوريس غودونوف» (١٨٢٤-١٨٢٥)، وملحمة «الفارس النحاسي» (١٨٣٣) وروايته «ابنة القبطان» (١٨٣٦). **(المترجم)**.

ذلك في «المعالم»[1] الفلاسفة الليبراليون التائبون بعد تجربة ثورة ١٩٠٥. كما أن أمام أعيننا دراما فعل القتل الثاني كلها بحق الإمبراطورية الروسية في هيئة الاتحاد السوفييتي.

المجتمع الفكرقراطي هو مجتمع ذو بنية معقدة مبنية تراتبياً وقائمة على عدة أفكار – رموز مقدسة وثابتة، وعلى علاقات النفوذ. ففقدان احترام النفوذ والرموز هو بمثابة الهلاك. إذا استطاع العدو أن يدس في هذه الأفكار فيروسات مدمرة لها فإن الانتصار مضمون. وعندئذ لن تفيد علاقات الهيمنة بمساعدة العنف، لأن العنف ينبغي أن يكون مشرعناً بالأفكار – الرموز ذاتها.

المجتمع المدني المؤلف من الذرات – الأفراد مترابط بخيوط مصالحهم التي لا تعد ولا تحصى. هذا المجتمع ببساطة لا يمكن فك عراه كالعفن، وكمستعمرة البكتيريا. لن تلحق الضربات الموجهة إلى نقاط منه (الأفكار والمثل) ضرراً كبيراً بالكل، ولن تشكل سوى ثغرات وتمزقات محلية فقط. لكن هذا النسيج بالمقابل يصعب عليه احتمال الضربات «الجزيئية» المسددة نحو مصالح كل فرد (الصعوبات الاقتصادية مثلاً). ولا يلزمه من أجل الاستقرار الداخلي سوى مراقبة «مروحة رغبات» المستعمرة كلها بحيث لا تظهر كتل اجتماعية كبيرة ذات رغبات متناقضة وغير متطابقة. وتكنولوجية التلاعب بالوعي تستطيع التعامل مع هذه المسألة. أما الصراع بخصوص درجة تلبية هذه الرغبات فمسموح به تماماً لأنه لا يقوض جوهر المجتمع.

هذا هو الجانب الفعلي الأداتي من القضية. ولا يوجد هنا ما يدعو إلى الجدل حوله. أما التقويمات المثالية المنبثقة من القيم الأخلاقية فهي أمر آخر. وجهات النظر هنا متناقضة قطرياً.

---

(١) «**المعالم**» مجموعة من المقالات عن الإنتلجنسيا الروسية (١٩٠٩) أطلقتها جماعة من الفلاسفة وكتاب المقالة الدينيين (بيرديايف، بولغاكوف، ستروفه، فرانك، غيرشينزون، إيزغويف، كيستياكوفسكي) انتقدوا فيها إيديولوجية المثقفين الثوريين الإشتراكيين وأحكامهم العملية – كالإلحاد والمادية والراديكالية السياسية وأدلجة الشعب. (**المترجم**).

الإنسان ذو نمط الأفكار الليبرالي (الذي يسود نوعاً ما في «الشريحة الثقافية» في روسيا) مقتنع أن الانتقال مِن العنف والقسر إلى التلاعب بالوعي هو تقدم هائل في تطور البشرية ويكاد يكون «نهاية التاريخ». أما عن المنظرين فلا شيء يمكن أن يقال – إنهم فرحون لهذا الانتقال إلى أقصى حد (إنهم موافقون بما يشبه المفارقة على أن يقوم في روسيا، كرمى لهذا الانتقال، وإلى أجل غير محدد، نظام عنف لا يحده شيء). وأما داخل المجتمع العلمي فالتقويمات عادة ما تكون أشد مرواغة. ففي كتابه «سيكولوجيا التلاعب» يقدم ي. ل. دوتسينكو استنتاجه الليبرالي مع بعض التحفظات: «يمكننا أن نتذكر عدداً غير قليل من أحداث الحياة، التي غدا فيها التلاعب خيراً ما دام يرفع مستوى التعامل من غلبة العنف عليه إلى غلبة التلاعب – أي إلى معاملة أكثر إنسانية بالمعنى المعروف[1]».

«بالمعنى المعروف»، «يمكننا أن نتذكر عدداً غير قليل من الأحداث» – هذا يفقد التقويم المبدئي قوته. الحديث لا يدور عن الأحداث، بل عن الاختيار الأخلاقي لنوع المجتمع ونوع العلاقات الإنسانية. ونشير على الفور إلى أن في الغرب ثمة بين الاختصاصيين المرموقين (وإن كانوا قلة) من يضع مباشرة وعلى نحو صريح التلاعب بالوعي أخلاقياً في مرتبة أدنى من القسر والعنف.

حجج أولئك الذين يرحبون بالانتقال من القسر إلى التلاعب بسيطة ومفهومة. السوط – مؤلم، أما المخدر الروحي فممتع. ما دام القوي سيجبر الضعيف على الخضوع لإرادته مهما كلف الأمر فليفعل ذلك بمساعدة المخدر وليس السوط. حسناً، للناس أذواقها. لكن تعالوا لننظر في مبررات من

(١) هذا الاقتباس من كتاب عالم نفس ديمقراطي يبسط الواقع إلى أقصى درجة، لكن هذا التبسيط من أجل البداية مفيد لنا. لاحقاً، سنتطرق إلى دور الأساليب «غير العنفية» للسلطة («الإيحاء» ذاته في الأنظمة الاستبدادية).

يعتقدون أن المخدر أسوأ من السوط. وقبل كل شيء مبررات المفكرين الغربيين أنفسهم الذين يرون المشكلة انطلاقاً تحديداً من مُثُل الغرب ومصالحه، ومن وجهة نظر مسار حضارتهم ومصيرها. إلى هؤلاء على الأقل ينبغي أن يستمع حتى الروسي الغربي الذي يحلم بأن يبني في روسيا ولو بؤر صغيرة من الغرب «مناطق ميكروية» من أجل صفوة الجمهور.

معلوم أن الغرب يعد نفسه حضارة أفراد أحرار تجمعوا (بعد تحلل المشاعية) في مجتمع مدني على أساس القانون. أدخلَ القانونُ والحقوق المدنية المصونة من قبل الدولة «حربَ الجميع الأزلية ضد الجميع» والصراعَ من أجل البقاء ضمن الأطر الحضارية. أطلق أحد فلاسفة المجتمع المدني الرئيسيين ت. هوبس[١] على الدولة القادرة على حضرنة «حرب الجميع ضد الجميع» اسم التنين على اسم المخلوق التوراتي الخارق. تحولت هذه الحرب إلى منافسة شاملة، وصارت الحياة الاجتماعية – سوقاً مفتوحة. أدرك فيلسوف المجتمع المدني لوك[٢] إدراكاً رائعاً أن السعي إلى الربح يفرق الناس لأن «لا أحد يستطيع أن يغتني إلا إذا ألحق الضرر بالآخر». لكن حرية الفرد تفهم قبل كل شيء على أنها تفرقة «المجتمع الدافئ وجهاً لوجه»

---

(١) **توماس هوبس** (١٥٨٨-١٦٧٩)، فيلسوف إنكليزي. أقام حين كان مناصراً للأنظمة الملكية في فرنسا بين عامي ١٦٤٠ و١٦٥١. انطلق في الفلسفة من معارفه الرياضية الخالصة، حيث رأى في الهندسة والميكانيك شكلان مثاليان للتفكير العلمي. شبه الدولة بالتنين الذي ورد ذكره في العهد القديم وعدها نتيجة عقد بين الناس وضع حداً لحال «حرب الجميع ضد الجميع» الطبيعية. («التنين»، ١٦٥١). **(المترجم)**.

(٢) **جون لوك** (١٦٣٢-١٧٠٤) فيلسوف إنكليزي. مؤسس المذهب الليبرالي السياسي. رفض وجود الأفكار الفطرية، ورأى أن المعرفة الإنسانية كلها تنشأ من التجربة. طور نظرية نشوء الأفكار العامة (التجريد). تستند أفكار لوك السياسية والاجتماعية على الحقوق الطبيعية ونظرية العقد الاجتماعي، وانطلق في التربية من التأثير الحاسم للوسط المحيط في تهذيب الإنسان. **(المترجم)**.

وتذريره- عبر المنافسة. تتوافق في المجال السياسي مع هذا المفهوم الديمقراطية التي تُفهم على أنها «حرب أهلية باردة»، وشكل آخر من أشكال المنافسة.

الشرط الأساسي للحفاظ على مثل هذا النظام هو حرية الفرد التي تسمح له في كل فعل «حرب» بأن يقدم على اختيار عقلاني واع وأن يوقع عقداً حراً. ومن غير المهم إن كان الحديث يدور أو لا يدور عن بيع القوة العاملة أو شرائها، أو عن هذه اللبانة أو تلك أو عن هذا البرنامج الانتخابي أو ذاك (في الانتخابات).

هذا وضع مثالي، ولا يمكن الوصول إليه بشكله الخالص. والسؤال هو: على أي طريق من طرق التطور يقترب المجتمع من الحال المثالية وعلى أي طريق يبتعد عنها، إن لم يدخل في طريق مسدودة. يعتقد اليوم قسم كبير من المفكرين أن الغرب حين جعل التلاعب بالوعي التكنولوجية الأساسية من أجل الهيمنة ارتكب خطأ حتمياً، ودخل في طريق مسدودة (صار مصيدة فئران لا مخرج منها، فحين تخرج منها ينقلب باطنها على ظاهرها فتجد نفسك من جديد داخلها). يكمن السبب في أن التلاعب بالوعي الذي يُنتَج دائماً في السر يحرم الفرد من الحرية إلى درجة أكبر بكثير من القسر المباشر. تفقد ضحية التلاعب المقدرة على الاختيار العقلاني كلياً، لأن رغباتها مبرمجة من الخارج. بذلك يسوء على نحو حاد وضعها في المنافسة في «حرب الجميع ضد الجميع». إن هذا، فعلياً، تدمير للحقوق المدنية الرئيسية وتالياً تدمير للأساس المبدئي الذي تقوم عليه الحضارة الغربية. ينشأ مكانه نوع جديد من الشمولية هو الأسوأ، ويستعيض عن السوط بأداة أشد فاعلية وأبعد ما تكون عن الإنسانية – إنها «صناعة الثقافة الجماهيرية» (MASS CULT) التي تحول الإنسان إلى رجل آلي مبرمج. كما قال الفيلسوف الألماني كراوس عن الفئة العليا الحاكمة الحالية في الغرب «لديهم الصحافة، ولديهم البورصة، والآن لديهم أيضاً لاوعينا».

سنبحث هذه الأفكار المتفرقة أو الصدامات الفكرية الكامنة في مسار هذه المحاكمات مستخدمين إياها في جوانب محددة من مشكلتنا. نشير فقط إلى أن هذا الموقف النقدي تجاه التلاعب نفسه غير مرتبط تقريباً بوجهات النظر السياسية، فالسؤال أعمق بكثير. إذ يرفض اليمينيون تحويل الإنسان إلى رجل آلي مثلهم كمثل اليساريين، ومثل الليبراليين كمثل المحافظين. ومن الغباء ربط هذا الموقف بالاشتراكية أو الشيوعية، أو «بيد موسكو» أو دسائس الحمر – البنيين.

لنعد إلى الأرض الأم ونتذكر كيف قوَّم المعبرون عن الثقافة الروسية الانتقال «من الشمولية إلى الديمقراطية». لم يلحظ عموماً «يساريونا» في القرن الماضي، المشغوفون تماماً بفضح نظام القنانة والاستبداد، هذه المشكلة (باستثناء غيرتسين، الذي هاله ما رآه في الغرب). عبَّر نافذو البصيرة والناظرون بعيداً إلى الأمام عن قلقهم على الفور.

رأى غوغول في الحضارة المفسِدة للإنسان «سلاح متعة» وقوة معادية للمسيحية. لقد عانى ليس فقط من الخوف على مصير روسيا بل من مرأى الخطر الذي يتهدد روح الأوربي. وبما أنه بات واضحاً أن الولايات المتحدة قد صارت المعبِّر التام الأكبر عن روح الغرب الجديدة فقد قال عنها محوراً جملة بوشكين: «ماذا تعني الولايات المتحدة؟ إنها جيفة؛ اضمحل الإنسان فيها حتى صار لا يساوي قشرة بصلة(١)».

المرجح أن القلق تحديداً على روح الإنسان في الأدب والفلسفة الروسيين كان الموضوع الرئيسي تجاه هذه الديمقراطية التي تسلحت

(١) قال بوشكين الجملة في الواقع على النحو التالي: «ما يمنعني من الإعجاب بهذه البلاد التي صار رائجاً الآن التفتن بها هو أنهم ينسون هناك كثيراً أن الإنسان ليس بالخبز وحده يحيا».

بالتلاعب بالوعي. لذلك كان الكثير من المحاكمات إما منبثقاً مباشرة من المثل المسيحية أو موشحاً بظلال دينية تلجأ إلى الاستعارات والمجازات المسيحية.

أشار إلى هذا ن. بيرديايف حين كتب عام ١٩٢٣ قائلاً: «الديمقراطية ليست بداية جديدة ولا تدخل العالم أول مرة. لكن مسألة الديمقراطية تصير أول مرة في عصرنا مسألة دينية مقلقة. إنها باتت تطرح لا على المستوى السياسي بل على المستوى الديني. لا يدور الحديث عن الأشكال السياسية حين يشعرون برعب ديني من سير الديمقراطية المتسارع، بل عن شيء ما أعمق. مملكة الديمقراطية ليست شكلاً جديداً من أشكال الدولتية، إنها روح خاصة».

أعيروا انتباهكم: الفلاسفة الروس المهاجرون، إذ عدوا أن النظام في روسيا بات نظامَ استبدادٍ بلشفي، رأوا الخطر على روح الإنسان في الغرب تحديداً. لقد عدوا مصيره، هو تحديداً، مأساوياً. وقد حذروا الليبراليين الروس السذج الموالين للغرب من الضلال العميق. كتب غيورغي فلوروفسكي[(١)]: «لا يخطر في بالهم أنه يمكن، بل وينبغي التفكير ملياً بمصائر الثقافة الأوربية النهائية... إن إعجابهم المتوهَّم بأوروبا يستر وحسب قلة انتباههم العميقة وعدم احترامهم لمصيرها المأساوي».

لو أن فلاسفة بداية القرن الروس سمعوا «بغربويينا» الحاليين لراحوا ينتفون شعر رؤوسهم. فحتى بيرديايف أكثر الغربويين المتنورين في زمانه كتب قائلاً: «الغربوية الروسية المتطرفة تحديداً هي ظاهرة من ظواهر الروح الأسيوية. يمكننا حتى أن نعبِّر عن المفارقة التالية: أصحاب النزعة

---

(١) **غيورغي فلوروفسكي** (١٨٩٣-١٩٧٩) لاهوتي أرثوذوكسي ومؤرخ ورجل دين روسي (١٩٣٢). عاش في المهجر منذ عام ١٩٢٠. أستاذ في المعهد اللاهوتي الأرثوذوكسي في باريس منذ عام ١٩٢٦. وأستاذ في أكاديمية القديس فلاديمير الأرثوذوكسية في نيويورك (١٩٤٨-١٩٥٥) وفي غيرها من الجامعات الأمريكية. من مؤلفاته «دروب اللاهوت الروسي» (١٩٣٧). **(المترجم)**.

السلافية... كانوا أول الأوروبيين الروس لأنهم حاولوا التفكير بالطريقة الأوربية على نحو مستقل لا أن يقلدوا الفكر الغربي كما يقلد الأطفال... وهاكم الوجه المعاكس للمفارقة: بقي الغربويون أسيويين، وكان وعيهم طفولياً، وانتموا إلى الثقافة الأوربية كما يمكن أن ينتمي إليها أناس غرباء تماماً عنها»[١].

يكتب أحد أكبر المؤرخين الغربيين أ. توينبي[٢] في عمله الرئيسي «إدراك التاريخ» عن هذا الإحلال لعبادة التنين محل المسيحية قائلاً: « تحوَّل عناد المعذبين المسيحيين في ساعة النصر إلى تعصب... كان الفصل الأسبق من تاريخ المسيحية المبشر الأسوأ بآفاق المجتمع الغربي الروحية في القرن العشرين... تلا ذلك في نهاية الأمر ظهور نمط دولة شمولي في العالم الغربي يضم في جنباته العبقرية الغربية في التنظيم والمكننة مع مقدرة شيطانية على استعباد النفوس يمكن أن تثير حسد مستبدي الأزمنة كلها والشعوب كلها مجتمعين... أعراض التخلف الروحي في العالم الغربي المعلمن في القرن العشرين جلية. انبعاث عبادة التنين صار ديناً وكل ساكن من سكان الغرب أدى نصيبه في هذه العملية».

---

(١) لقد بالغ بيرديايف طبعاً – لم يكن حتى باستطاعته أن يتخيل ما معنى «تقليد الغرب كالأطفال»، ما كان بمقدوره أن يتخيل وجود ظاهرة في روسيا مثل إيغور غايدار أو نوفورودسكايا. غربويو بداية القرن الروس كانوا على الرغم من كل شيء عارفين بالفلسفة الغربية، قرأوا هوبس ولوكا. إليكم ملحوظة م. بريشفين الدقيقة حول ميريجكوفسكي: «سماه أتباعه الفكرين «الأجنبي النيِّر»على كياسته الاستثنائية ودرجة علمه، سموه النير على العكس من المظلمين الذي لم يجلبوا لنا إلى روسيا زهور الثقافة الأوربية، بل أشواك المنافسة – أي الحقيقة الشاملة والتقسيم».

(٢) **أرنولد توينبي** (١٨٨٩-١٩٧٥) مؤرخ وعالم اجتماع إنكليزي. طرح نظرية تعاقب الحضارات المحلية وحلول إحداها محل الأخرى دائرياً، وعد أن القوة المحركة في هذه العملية هي «النخب المبدعة» التي تستجيب للتحديات التاريخية المختلفة وتجر وراءها «الأغلبية الخاملة». **(المترجم)**.

رأى دوستويفسكي أيضاً مأساة الغرب في ضوء المسيحية. استخدام المخدر الروحي بهدف الإدارة ليس فقط غير متطابق مع الإرادة الحرة، بل مع المسيحية – إنه مناقض لها، إنه خدمة مباشرة للشيطان. لنتذكر أسطورة المفتش الكبير ونختار منها فقط ذلك المكان المرتبط مباشرة بموضوعنا (هذا طبعاً استشهاد حر وموجز لكنه ينقل المعنى الرئيسي). وهكذا ظهر المسيح في إشبيلية حيث بُني بجهود السلطة الجبارة نظام اجتماعي مستقر. عرفه الكاردينال المفتش الكبير على الفور وسط الحشد واعتقله. أتاه ليلاً في الزنزانة بهدف الاستيضاح.

«أهذا أنت؟ لماذا أتيت لتعيقنا؟ لقد أتيتَ لتعيقنا وأنت تعرف ذلك بنفسك... نعم هذه القضية كلفتنا الكثير لكننا أنهيناها أخيراً باسمك. عانينا خمسة عشر قرناً من هذه الحرية، لكن هذا انتهى الآن، وانتهى نهاية راسخة. ألا تصدق أنه انتهى نهاية راسخة؟ لكن اعلم أن هؤلاء الناس الآن، وتحديداً الآن، أكثر ثقة من أي وقت مضى بأنهم أحرار تماماً، وهم، بالمناسبة، أنفسهم الذين حملوا إلينا حريتهم ووضعوها بكل طاعة تحت أقدامنا. لكننا نحن من فعل ذلك، فهل هذا ما كنت تتمناه، أمثل هذه الحرية؟

والناس فرحوا لأنهم يقودونهم من جديد مثل القطعان، وأن هذه الهبة المرعبة التي جلبت لهم هذا القدر من الآلام قد انتزعت أخيراً من قلوبهم. قل لي: ألم نكن على صواب إذ علَّمنا وعملنا على هذا النحو؟ هل يعقل أننا لم نكن نحب البشرية إذ أدركنا بهذا القدر من الحلم عجزها، وإذ خففنا بهذا القدر من الحب وزرها وسمحنا لطبيعتها الضعيفة ولو بارتكاب الخطيئة على الأقل، لكن بموافقتنا؟ فلأي غرض أتيت الآن لتعيقنا؟..

وهل أنا من سيخفي عنك سرنا؟ فاسمع إذن: إننا لسنا معك بل معه، هذا هو سرنا! لقد أخذنا منه روما وسيف القيصر وأعلنا أنفسنا قياصرة الأرض، وإن كان لم يتسن لنا حتى الآن أن نسير بقضيتنا حتى النهاية التامة. نعم، قضيتنا هذه ما زالت حتى الآن في البداية وحسب، لكنها بدأت. وإلا فمن سيسيطر على الناس غير أولئك الذين يسيطرون على ضميرهم والذين في

أيديهم خبزهم. لقد أخذنا سيف القيصر وإذ أخذناه رفضناك وسرنا خلفه. سيكون الجميع سعداء عندنا ولن ينتفضوا بعد الآن ويبيد بعضهم بعضاً كما كانوا يفعلون في كل مكان في حريتك. نعم، سنجبرهم على العمل، لكننا في الساعات الخالية من العمل سننظم لهم حياة تشبه لعبة الأطفال، مصحوبة بأغان للأطفال، وبجوقة، وبرقصات بريئة. نعم، سنسمح لهم حتى بارتكاب الخطيئة، إنهم ضعاف وعاجزون، وسوف يحبوننا كالأطفال لأننا سنسمح لهم بارتكاب الخطايا. ولن يكون لديهم أي أسرار يخفونها عنا. سوف نسمح لهم أو نمنعهم من العيش مع زوجاتهم وعشيقاتهم، أو أن يكون أو لا يكون لديهم أطفال – كل شيء مرتبط بطاعتهم – وسوف يخضعون لنا بفرح وسعادة.

ما أقوله لك سيتحقق، وسوف تبنى مملكتنا. أكرر لك، غداً سترى هذا القطيع الصاغر الذي سيندفع مع أول إشارة مني ليغرف الجمر نحو محرقتك التي سأحرقك عليها لأنك جئت لتعيقنا. إن كان أحد يستحق محرقتنا فهو أنت. غداً سأحرقك. انتهى».

طبعاً لم يكتب غوغول ودوستويفسكي والفلاسفة الروس للغرب. فالغرب حدد اختياره منذ زمن بعيد ويتجاوز أمراضه على الدرب التي يسير عليها فقط. علينا وحسب أن ندهش كيف استطاع دوستويفسكي التقاط جوهر هذه الأمراض(١).

(١) يقول مفتشه: « سوف نسمح لهم أو نمنعهم من العيش مع زوجاتهم وعشيقاتهم، أو أن يكون أو لا يكون لديهم أطفال – كل شيء مرتبط بطاعتهم». يبدو هذا مجازاً واستعارة. لكن انظروا إلى إنكلترا في بداية الثلاثينيات من قرننا. العالم الكبير السيد جوليان هاكسلي يبحث بحماسة عن معايير لا تسمح «بأن يرث الأرض الحمقى والكسالى وغير الحذرين والذين لا نفع منهم من بين الناس»، وتسمح بتقليص معدل الولادة في أوساط العمال، ويقترح هاكسلي اشتراط منح معونة البطالة بالالتزام بعدم إنجاب أطفال أكثر. ويكتب: «الإخلال بهذا الأمر يمكن أن يعاقب عليه بفترة عزل قصيرة في معسكر عمل. بعد ثلاثة أشهر أو ستة من العزل عن الزوجة ربما سيكون المخالف في المستقبل أكثر تبصراً». وكأنه قرأ «الأخوة كارامازوف» وهرع ليكتب هذا الكلام.

من كتب للغرب هو نيتشه[١]. وإذ لخص رؤيته لهذه الطريق لم يستهل عبثاً فصله بسطر من التراجيدية القديمة: «يا أيها الهيكل العظمي، هل ترتجف؟ كنت سترتجف ارتجافاً أشد لو عرفت إلى أين أقودك» أما الفصل («نحن المقدامون») فبدأه بالتأكيد على أن «الحدث الأعظم من بين الأحداث الجديدة هو أن "الله قد مات" وأن الإيمان بالله المسيحي صار شيئاً لا يستحق الثقة – لقد بدأ يلقي على أوربا ظلاله الأولى».

كتب غوغول ودوستويفسكي لروسيا وقبل كل شيء للروس. كانت مخاوفهما نبوئية، وكانت تحذيراتهما تبدو وكأنها موجهة لنا، نحن، في نهاية القرن العشرين. من سيقدم على الاختيار هو نحن أنفسنا، وعلى مسؤوليتنا، لكننا ملزمون أيضاً بأن نستمع إلى التحذيرات ونمعن الفكر فيها.

غير أننا سنأخذ في الحسبان أن التحذيرات «من المسيحية» سوف تترك الكثيرين لا مبالين. إن هذه التحذيرات في نظر الأغلبية ليست في الواقع سوى صوت فارغ (إنهم، وإن كانوا حتى لن يناقشوها، سيتخذون موقع المدافع مثل شومييكو[٢]، حاملين شمعة في الكنيسة وينتهي الأمر). لنحاول أن نحاكم عقلانياً، وعلى الأرض – من أجل الروس، لكن على الطريقة الغربية، كأننا موافقون على أن «الله قد مات» وتاركون جانباً القيم المسيحية. هذا غير مريح ويبدو وقاحة، لكن ليس في اليد حيلة. هكذا هو الوقت كما يقولون. لكن بالمقابل قد نجد الوضوح في شيء ما.

---

(١) **فريدريك نيتشه** (١٨٤٤-١٩٠٠). فيلسوف ألماني، ممثل فلسفة الحياة. أستاذ في جامعة بازل (١٨٦٩-١٨٧٩). تأثر بشوبنهاور وفاغنر. امتزجت عبادة الشخصية القوية الفردانية في أسطورته عن «الإنسان الخارق» (السوبر) («هكذا قال زرادشت» ١٨٨٣-١٨٨٤ و«الإرادة والسلطة»، ١٨٨٩) مع نظرته المثالية إلى «إنسان المستقبل». **(المترجم)**.

(٢) **فلاديمير شوميكو** (١٩٤٥) شغل منصب النائب الأول لرئيس حكومة روسيا منذ عام ١٩٩٢. **(المترجم)**.

بدأ نيتشه في الغرب هذا الحوار التوضيحي الثقيل - أي تدمير كل ما سماه اللاهوتي والفيلسوف الألماني رومانو غفارديني[1] «كذب الزمان الجديد»[2]. علينا نحن أيضاً أن نوازن بدم بارد «إيجابيات وسلبيات» عصا القسر وجزرة التلاعب، وأن يحدد كل منا: ما دامت أي سلطةِ هي شر فأي شر هو الأهون لنا نحن الروس.

لننظر إن كان وضع الإنسان يرتفع أم ينخفض لدى الانتقال من القسر المباشر إلى التلاعب بوعيه. فحتى في «حرب الجميع ضد الجميع» التي تخاض وفاقاً لقواعد المجتمع المدني (المنافسة) تقسم الأهداف الخاضعة للتأثير إلى ثلاث فئات: الصديق، الشريك، المنافس. يتفق الأخصائيون على أن الإنسان المتحول إلى هدف للتلاعب يسقط تماماً من هذا التصنيف. إنه ليس صديقاً ولا شريكاً ولا منافساً. إنه يصير شيئاً.

كتب باختين أن نزعتين تتصارعان في أفكار الناس وتصرفاتهم تجاه العالم والإنسان: نزعة إلى التشييء ونزعة إلى الشخصنة

---

(١) **رومانو غوارديني** (١٨٨٥-١٩٦٨). فيلسوف وكاتب كاثوليكي ألماني. ترأس في العشرينات الحركة الشبابية الكاثوليكية «كويكبورن». عارض سياسات النازية المعادية للسامية. «المسيحي أمام النازية» (١٩٣٩). «نهاية الزمان الجديد»، وله أعمال عن سقراط ودانتي ودوستويفسكي وريلكه. (**المترجم**).

(٢) كتب عام ١٩٥٤: «كذبُ الزمان الجديد هو لعبة مزدوجة، ترفض من جهة التعاليم المسيحية ونظام الحياة، وتسعى من جهة أخرى إلى أن تستحوذ على كل ما قدماه للإنسان والثقافة. انطلاقاً من ذلك بقي لدى المسيحي شك متواصل تجاه الزمان الجديد. لقد اصطدم في كل مكان بما كان منذ البدء خاصاً بالمسيحية، لكنه الآن موجه ضده... تقترب ازدواجية المعنى الآن من النهاية. فحيث ينقلب المستقبل ضد المسيحية ينقلب انقلاباً جدياً. ويعلن أن الاستعارات العلمانية من المسيحية هي عواطف فارغة ويصير الهواء شفافاً أخيراً. الهواء مشبع بالعداوة والتهديد، لكنه بالمقابل نظيف وواضح».

(PERSONIFICATION). كان الميل إلى الشخصنة قوياً في الثقافات «البدائية» (النمل في نظر ديرسو أوزال هو«أناس صغار»). حضرت الرَوْحنية ANIMISM، وبث الروح في الأشياء دائماً في الثقافة حتى في المجتمعات التقليدية المتطورة جداً. ما نراه في تكنولوجية التلاعب بالوعي على العكس من ذلك، وهو تعبير حاد عن نزعة مضادة – نحو تشييء الإنسان. وقد كتب أ. توينبي قائلاً: «نعلم جيداً، ونتذكر دائماً ما يسمى "الضلال الحماسي"، الذي يبث الروح في الأشياء غير الحية ويهبها الحياة. بيد أننا نصير الآن على الأرجح ضحايا العكس من ذلك – ضحايا "الضلال الحماسي" الذي يتعاملون به مع المخلوقات الحية وكأنها أشياء لا روح فيها».

بما أن هذا يتخذ طابعاً جماهيرياً فإن النتيجة هي انخفاض مضطرد وغير مدرك لوضع الإنسان. طبعاً، هذا يؤثر في البداية في الإنسان غير المنتمي إلى النخبة (إنها تتلاعب بالدهماء). لكن بعد ذلك يتحول هذا النظام إلى آلة ويشيئ الإنسان عموماً(١).

بذلك، إذ نوافق على بناء نظام سياسي في روسيا مؤسس على التلاعب بالوعي، فعلى كل منا أن يحسب حسابه بأن وضعه سوف ينخفض بدرجة احتمال كبيرة. وهذا معناه أن الخيرات الموعودة كلها كالحريات المدنية والإحساس بالذات سيداً، وغيرها... ستتحول إلى حلي مزيفة خالية من أي محتوى. أما ذلك الذي يحالفه الحظ ويجد نفسه في عداد الأقلية المتلاعِبة فسيصير واحداً من مضطهِدي أبناء عشيرتهم الذين سيكونون مضطرين إلى زيادة هذا الاضطهاد وتهذيبه. المستبد قد يصير طيباً ويلين – وعندئذ سيكون الناس له من الشاكرين. لكن المتلاعب محروم من هذه الفرصة – فالإنسان الذي تعود إليه البصيرة سوف يغضب.

---

(١) سوف نتحدث لاحقاً عن أن أحد الأسس العلمية للتلاعب بالوعي هو مذهب السلوكية الذي يدرس الإنسان على أنه آلة من وجهة نظر مبدئية.

لماذا ضرب الانتقال إلى الدولتية المعتمد على التلاعب بالوعي الروسَ على نحو أشد إيلاماً بما لا يقاس مما ألحق بالغرب من ضرر (وإن كان هذا يعد كارثة هناك)؟ لأن مقولة الحرية ذاتها قد تكونت في الثقافة الروسية على نحو مغاير[1]. بحث الإنسان الروسي وما زال يبحث عن حرية مختلفة. وقد لخص هذه المشكلة على نحو رائع ف. ف. كوجينوف[2] في كتابه الجميل «صفحات التاريخ المحيرة في القرن العشرين. "المائة السود" والثورة». ما يميز الشعب الروسي هو المزج الخاص بين حرية الروح وحرية الوجود. وعلى العكس، فقد نظر الروس بلا مبالاة كافية إلى الحريات السياسية والاقتصادية القيمة في الغرب. علينا أن نتذكر بوشكين:

لا أثمن غالياً الحقوق الصارخة،

التي لا يدور وحده الرأس منها.

لا أتبرم من رفضِ الآلهةِ

المصير السعيد لي في الاعتراض على الضرائب

---

(١) يسعى المنظرون الحاليون إلى جعل مفهوم الحرية «بيولوجياً» وصولاً إلى التأكيد وكأن الشعب الروسي يتصف «جينيا» «بذهنية العبد». شيء ما شبيه بخلل أثني في الكرومسومات (صبغيات في الخلية تحمل المعلومة الوراثية- م). هذا هراء راحوا بالمناسبة يضخونه في الوعي على نحو حثيث في أثناء البيريسترويكا. أما في الواقع فالحاجة البيولوجية إلى الفضاء الحر من أجل التنقل وإشباع الغرائز غير مرتبطة بأي شكل من الأشكال بالحرية كقيمة- كنتاج للثقافة. من الطبيعي أن هذه القيمة تمتلئ في الثقافات المختلفة وفي المراحل التاريخية المختلفة بمحتويات مختلفة. وبما أن موضوع الحرية في تكنولوجيا التلاعب بالوعي مفصلي فسنعود إليه غير مرة.

(٢) **فاديم فاليرياتوفيتش كوجينوف** (١٩٣٠-٢٠١١). أديب وناقد وكاتب ومؤرخ روسي. عمل في معهد غوركي للأدب العالمي. أعماله النظرية «أنواع الفن» (١٩٦٠)، «نشأة الرواية» (١٩٦٣)، «مقالات عن الأدب المعاصر» (١٩٩٠)، «صفحات التاريخ المحيرة في القرن العشرين: "المائة السود" والثورة». (١٩٩٥) وغيرها. **(المترجم)**.

أو منع القياصرة بعضهم من محاربة بعض؛
وليس بالمصيبة الكبيرة لي إن كانت الصحافة
تضلل بحريةٍ البلهاء، أو تضيق الرقابةُ المرهفةُ
على الهُزّال في مآرب المجلات.
هذا كله، كما ترون، كلمات، كلمات، كلمات.
دروب حقٍ أخرى هي الأفضل لي
حرية أخرى أطلبها هي الأفضل:
انتماء إلى القيصر، انتماء إلى الشعب –
أليس سياناً؟ ليكن الله معهم.
لا تحسب حساباً لأحد، لا تخدم إلا ذاتك
نفسها، ولا ترضي غيرها؛
لا تلوثُ ضميرك ولا خواطرك، ولا تحني عنقك؛
تطوف على هواك هنا وهناك،
مدهوشاً لجمال الطبيعة الإلهي،
وأمام إبداعات الفن والإلهام
مرتعشاً فرحاً في ذوبان الإعجاب.
– هذه هي السعادة! هذه هي الحقوق...

ولم يكن بمقدور لا نيقولاي الأول ولا ستالين، أن ينتزعوا منا هذه السعادة وهذه الحقوق، فما بالكم ببريجنيف[1]. لكن ما إن يترسخ نظام

(١) **نيقولاي الأول** (١٧٩٦–١٨٥٥) قيصر روسيا منذ عام ١٨٢٥. استلم الحكم بعد وفاة أخيه ألكسندر الأول المفاجئ. قمع انتفاضة الديسمبريين. اشتدت في عهده مركزية الجهاز البيروقراطي. وجرى قمع الانتفاضة البولندية ١٨٣٠–١٨٣١، والثورة المجرية ١٨٤٨–١٨٤٩. وأعيد الاعتبار لمبادئ التحالف المقدس. خاضت روسيا في عهده حروب القوقاز ١٨١٧–١٨٦٤، والحرب الروسية الفارسية ١٨٢٦–١٨٢٦، والحرب الروسية التركية ١٨٢٨–١٨٢٩، وحرب القرم ١٨٥٥–١٨٥٦التي انتهت بهزيمة روسيا. **جوزيف ستالين** (١٨٧٨–١٩٥٣). انتسب عام ١٨٩٨ إلى منظمة

التلاعب بالوعي حتى تحرمنا منها التلفزة المشتراة من قبل بيريزوفسكي(١) ونحن نستمتع ومن غير أن نلحظ. إنها تلوث ضمائرنا وخواطرنا. وبعد ذلك سنطوف لا على هوانا، بل بإيحاء من دعاية المكاتب السياحية كما تطوف بسرور الطبقة الوسطى الغربية.

يورد ف. كوجينوف في كتابه محاكمات بيردياييف «فيلسوف الحرية» عن هذا التمازج بين حرية الروح وحرية الوجود: «روسيا – هي بلد حرية الروح اللامحدودة...». والشعب الروسي «لن يتنازل عنها مقابل خيرات العالم كلها»، ولا يفضل «اللاحرية الداخلية لدى الشعوب الغربية على استعباده للخارجي. ثمة في الشعب الروسي حقاً حرية روح لا توهب إلا لمن

«ميسامي- داسي» الاشتراكية الديمقراطية. اعتقل ونفي ست مرات في الفترة بين ١٩٠٢-١٩١٣. انضم بعد ١٩٠٣ إلى البلاشفة. قاد ١٩٠٦-١٩٠٧ عمليات مصادرة الملكية ما وراء القوقاز. انتخب إلى المكتب السياسي لحزب البلاشفة عام ١٩١٧، قاد في الفترة بين ١٩١٧-١٩٢٢ اللجنة الشعبية لشؤون القوميات. أعلن نفسه في العشرينيات المتابع الوحيد لقضية لينين بعد صراع طويل مع قادة البلاشفة الآخرين. قاد الاتحاد السوفييتي للنصر في الحرب العالمية الثانية على ألمانيا الهتلرية، ولعب دور المنظر والمؤسس للمنظومة الاشتراكية العالمية، وتحول الاتحاد السوفييتي في عهده إلى دولة عظمى بعد نجاحه في تحقيق «المشروع النووي». **ليونيد بريجنيف** (١٩٠٦-١٩٨٢). الأمين العام للمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي منذ عام ١٩٦٤. أحد منظمي عملية إزاحة خروشوف عن الحكم في الاتحاد السوفييتي. غلبت في فترة حكمه النزعات المحافظة في الاقتصاد والمجالين الاجتماعي والروحي في المجتمع. عقد الكثير من الاتفاقيات مع الولايات المتحدة وألمانيا الاتحادية وغيرها من البلدان في محاولة لتخفيف التوتر الدولي، ووضع معايير للحفاظ على الأمن والتعاون في أوربا وتخفيف حدة التناقضات الدولية. **(المترجم)**.

(١) **بوريس بيريزوفسكي** (تولد عام ١٩٤٦) رجل دولة روسي، عضو مراسل في أكاديمية العلوم الروسية (١٩٩١)، أخصائي في مجال الرياضيات الحاسوبية. شغل منذ عام ١٩٩٦ منصب نائب رئيس مجلس الأمن الروسي. من أشهر الأغنياء في روسيا، وكان على علاقة وثيقة بأسرة الرئيس الروسي السابق يلتسين، ثم اضطر إلى مغادرة روسيا بسبب من الخلافات مع الرئيس الحالي فلاديمير بوتين. **(المترجم)**.

كان غير مستغرق كثيراً في التعطش إلى الربح الأرضي وأسباب الراحة الأرضية... روسيا – هي بلد الحرية المعاشة غير المرئية لشعوب الغرب، المستعبدة بالمعايير ضيقة الأفق. في روسيا وحدها لا وجود لسلطة الأعراف البرجوازية... وكم نمط الرحالة مميز لروسيا وكم هو رائع. الرحالة هو الإنسان الأكثر حرية على الأرض... روسيا – هي بلاد الحرية غير المتناهية والفيافي الروحية، بلاد الرحالين والمتجولين والباحثين». هذه هي كلمات فيلسوف غربوي. وكم هي بعيدة عن مُثُل أ. ن. ياكوفليف وإيغور غايدار[1]!

ومن الغباء التفكير اليوم بأن الروس المندفعين نحو مجال الأعمال يرغبون في أن يتخلوا عن هذا النوع من الحرية. بل على العكس. هذه الأعمال في نظر غالبية «الروس الجدد» هي مغامرة جديدة، وطواف في مجالات غير مطروقة. إنها في الجزء الأكبر منها رحلات بحث روحية وإن كانت مكلفة وحتى مدمرة. لكن لن ينمو منها برجوازي روسي.

انظروا على الأقل بأي لامبالاة يهجر أغنياؤنا الجدد فيللاتهم غير مكتملة البناء – إنها اليوم تتهدم في ضواحي موسكو كلها. هل هم مستغرقون في «التعطش إلى أسباب الراحة الأرضية»؟ وما هذه الفيللات التي أكثروا من بنائها»؟ ٩٠ بالمائة منها هي أكواخ ضخمة، وجميع قراهم ما هي إلا استمرار للقرى. وإن كان ثمة من يأتي إلى «بيوت الضواحي» هذه فإنه يزرع ثمار بطاطا لا يحتاج إليها مرتدياً سترة قطنية. بينما تظل زوجته طوال

---

(١) **إيغور غايدار** (١٩٥٦-٢٠٠٩).سياسي واقتصادي روسي. أحد قادة الإصلاحات الاقتصادية الأساسيين في روسيا في التسعينيات من القرن العشرين. شغل الكثير من المناصب في الحكومة الروسية كما كان رئيساً للحكومة مدة ستة أشهر. بدأ تحت قيادة غايدار الانتقال من الاقتصاد المخطط إلى اقتصاد السوق في روسيا، فجرى تحرير الأسعار وإعادة بناء النظام الضريبي وتحرير التجارة الخارجية والخصخصة.(**المترجم**).

اليوم تجمع وقفاها إلى الأعلى خنافس الكولورادو[1]. هذا كله شكل جديد للعصيان الروسي الخالي حقاً من المعنى وعديم الرحمة.

انتزاع حرية الروح والوجود هذه من الروس بالقوة أو شراؤها منهم محال. لكن انتزاعها بالخداع ممكن تقنياً. وهذا ما يشتغل عليه جيش كامل من الاختصاصيين. وأظن أن تقديم المساعدة لهم هو خنزرة كبرى. وهو سينتهي أغلب الظن نهاية مبكية. وسيضيف مصيبة أخرى وإصلاح المهدم سيكلف ثمناً أغلى.

---

(١) نوع من الخنافس المضرة بزراعة البطاطس (**المترجم**).

الفصل الرابع
المذاهب الأساسية للتلاعب بالوعي

١- تكنولوجيا التلاعب بصفتها معرفة مغلقة.

يذكِّرنا التلاعب بالوعي الاجتماعي وفاقاً للكثير من المؤشرات بحرب جيش مسلح من الغرباء وغير كبير ومنظم جيداً ضد مجموعة هائلة من السكان المسالمين غير المستعدين لهذه الحرب. حتى أن بعضهم يقول أحياناً إن التلاعب بالوعي هو «استعمار المتلاعب لشعبه». لقد تكونت تدريجياً منظومات أسلحة في هذه الحرب الخاصة، وتكونت تدريجياً بمقدار تراكم المعرفة عن الإنسان وسلوكه مذاهب التلاعب بالوعي.

بما أن هذه الحرب سرية ونجاحها يتحدد بمقدرة «المستعمِرين» على عدم السماح بقيام مقاومة منظمة فإن مذاهب التلاعب بالوعي الرئيسية تلخَّص في شكل ضبابي مستور فيما يخص الأسئلة الخاصة المواربة. وإذ صار التلاعب بالوعي جزءاً من الثورة البرجوازية فإنه حصل منذ البداية على التمويل السخي من طبقة أصحاب الأملاك. حين وصلت هذه الطبقة إلى السلطة وبنت دولتها البرجوازية الجديدة تماماً، فإن نشاطها في التلاعب بالوعي قد حصل على دعم وحماية من الدولة. إذا كان مفيداً للقضية فإن السلطات كانت تسمح للمنتفضين بأن يحطموا مبنى البلدية أو حتى قصر الرئيس لكن لم يسمح لهم قط بدخول المركز التلفزيوني.

غير أن الأمر الرئيسي هو أن الأقلية المهيمنة تمنع بالوسائل كافة العمل على فضح «المنوِّمين المغنطيسيين»، وتسعى إلى عدم السماح للجماهير بمعرفة مذاهب التلاعب بوعيهم وتقنياته. ويتم تحقيق هذا بالأساس

عبر المكافأة السخية «لأولئك الذين معنا» ومقاطعة «أولئك الذين ليسوا معنا». دائما ما كان يوجد علماء وفلاسفة يشعرون بالنفور من ممارسات مستعمري شعوبهم. لكنهم كانوا قلة وتسنى إغراق صوتهم بالضجيج.

ظهرت حال نادرة في القرن المنصرم: وجد رجل ذو عقل وروح عظيمين، أي ماركس، صديقاً صدوقاً استطاع أن يؤمن له مدى حياته نفقة وإن كانت شحيحة، لكنها كانت مستمرة. لقد كشف ماركس، إذ أنجز عملاً لا يصدق من حيث الحجم، ستر العديد من أكثر الأساطير أساسيةً في المجتمع البورجوازي- أسطورة السلعة ومنشأ ربح الرأسمالي. وكان التوازن في ثقافة ذلك الزمان متزعزعاً، وكانت أعصاب المجتمع عاريةً إلى حد صار معه بالإمكان نشر المعرفة المقدمة من ماركس على نحو واسع. وراحت طوال قرن كامل تهز بناء الرأسمالية كله وانتشرت موجات الاهتزاز في العالم كله. اضطر عدل النقود، كما يقال، إلى أن «يحل رباطه» عن قسم من الأرباح كي «يبرجز» عماله وينقل الاستغلال القاسي إلى خارج حدود عالمه(١).

حين كانت الدولة السوفييتية قائمة، وخصوصاً في الفترة «الهادئة» بدءً من الستينيات، كان بالإمكان تماماً الشروع في دراسة جدية لتكنولوجيات التلاعب وتقديمها للعالم كله، وللشعب السوفييتي في المقام الأول. لكن في ذلك الوقت كان قد بدأ تحول الإنتلجسيتنا النخبوية الإنسانية نحو البيريسترويكا المقبلة، وبدأت الدوائر الإيديولوجية تعمل عموماً ضد الدولة السوفييتية. لم تكن المعرفة الناتجة تنقل إلى الناس لبناء مناعة لديهم بل كانت تستخدم ضدهم، وهم الضعفاء من غير هذه المناعة. واليوم، الغالبية الساحقة من أولئك الذين حصلوا على مثل هذه المعرفة في الزمن السوفييتي (في كليات

---

(١) الآن حين سقط خطر الماركسية كما يبدو صار رأس المال في الغرب ينتزع «الامتيازات» المعطاة للعمال ويفكك «الدولة الاجتماعية». ويجري هذا كله بصمت لأن التلاعب بالوعي اليوم يمتلك فائضاً مضاعفاً من الموثوقية.

الصحافة وفي شتى المدارس الحزبية) تخدم بسعادة عارمة السادة الجدد لقاء نقود «معقولة». إذا كان المذيع التلفزيوني في الزمن السوفييتي يحصل على راتب متوسط لائق فإنه اليوم يتقاضى أكثر من البروفيسور بـــ ٥٠ إلى ١٠٠ مرة.

لذلك يستحيل العثور على الكتب التدريسية والأبحاث العلمية الجاهزة حول مذاهب التلاعب بالوعي. لكننا نستطيع أن نجمع حبةً حبة مكاشفات كبار هذه السلطة ومراقبة «أولئك الذين ليسوا معهم». فننظفها من «الضجيج» ونسوقها ضمن منظومة ما ونوضح المسألة على نحو ملموس.

وهكذا، تكونت مذاهب التلاعب بالوعي ونظرياته المتطورة منذ زمن ليس بالبعيد، في قرننا، لكن الحجارة الرئيسية وضعت في أساسها من قبل أولئك الذين حضروا للثورات البرجوازية في أوروبا. لقد كمنت لعبة الخفة في إنجاز هذه الثورات بأيادي الآخرين («البروليتاريا تناضل، والبرجوازية تتسلل إلى السلطة»). كان ينبغي حرفياً تأليب الإنسان البسيط على «النظام القديم» وإغرائه بسراب تلك البحبوحة التي ستنشأ ما إن يقطع رأس الملك.

لقد أدلى العلماء والفلاسفة والمفكرون الإنسانيون بدلوهم في برمجة سلوك الجماهير هذه في بلدان الغرب كلها التي حدثت فيها ثورات برجوازية عظمى. فكان في إنكلترا نيوتن وأتباعه الذين استخلصوا من لوحة العالم الجديدة أفكاراً عن الطابع «الطبيعي» (من الطبيعة) للدستور، ما يلزم بالحد من سلطة الملك («فالشمس تخضع لقانون الجاذبية»). وطور العالم والفيلسوف توماس هوبس أسطورة المجتمع البورجوازي الرئيسية والتامة، والمستمرة إلى الآن، عن الإنسان بصفته ذرة وحيدة وأنانية تخوض «حرب الجميع ضد الجميع» – bellum omnium contra omnes.

لكن الثورة في إنكلترا اندمجت تقريباً بالإصلاح البروتستانتي، بحيث أضحت الغلبة في جعبة الثوار الفكرية للدوافع الدينية. تكوَّن التلاعب بالوعي

بهيئته الخالصة في فرنسا بصفته حملة منظمة كبيرة. هنا كان المجتمع مهيأً لكسر «النظام القديم» من خلال نصف قرن من عمل التنوير. لقد أنجز رجالات التنوير، إلى جانب القضية العظيمة في تحرير تفكير الإنسان وامتلاكه النظرة العلمية الجديدة إلى العالم، غسلاً عميقاً للأدمغة على الصعيد السياسي الخالص، بعد أن حضروا جيلاً من الثوار الذين أغرقوا فرنسا بأنهار من الدم بضمير صاح (ومن ثم بدأوا في الحقيقة الحرب العالمية).

كان لدى تلك الثورة مراقبون يتأملون فيها، ومن ثم دارسون. أحدهم هو الإنكليزي إ. بيورك[١]. كان محافظاً، لكن من المفيد، وبغض النظر عن الكيفية التي ننظر بها إلى أفكاره، أن نأخذ في الحسبان ملحوظاته التي جمعها في كتابه «تأملات حول الثورة في فرنسا». إليكم ما يتعلق مباشرة بموضوعنا:

«لقد نمت مع رأس المال المالي طبقة جديدة من الناس سرعان ما شكل معها رأس المال تحالفاً وثيقا، وأعني الكتاب السياسيين. وهنا أسهمت بقسط ليس بالقليل أكاديميات فرنسا، ومن ثم الموسوعيون المنتمون إلى مجتمع الجنتلمانات أولئك.

كونت مكائد الكتّاب قبل بضع سنوات ما يشبه الخطة المنتظمة لتدمير الديانة المسيحية. كانوا مستثارين بروح الردة، وهذا معناه، بإحساس النجاح السهل أيضاً، وبجنون المطاردة. ما لا يمكنهم الوصول إليه على درب هدفهم العظيم عبر القانون المباشر أو العاجل، يمكن الوصول إليه عبر طريق الثقافية – أي بفضل الرأي العام. ولإدارة الرأي العام يجب القيام بالخطوة

---

(١) **إدموند بيورك** (١٧٢٩-١٧٩٧). صحفي وفيلسوف إنكليزي، وأحد أول إيديولوجيي المذهب المحافظ. دافع عن التقاليد الأزلية والمؤسسات الاجتماعية (الأسرة، المجتمع، الكنيسة). مؤلف كراسات ضد الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر. (**المترجم**).

الأولى – وهي الضغط على من يقود. لقد خططوا بمنهجية وإصرار من أجل الوصول إلى ذلك بوسائل المجد الأدبي كافة. كان الكثيرون منهم بالفعل يتبوأ أسمى درجات الأدب والعلوم. وقد قدرهم العالم كما ينبغي: لقد غفر لهم أنانيتهم وغضبهم وغرورهم آخذا في الحسبان موهبتهم الكبيرة... كان لآباء الإلحاد أولئك تعصبهم الخاص، وقد تعلموا مناهضة رجال الدين بأساليب هؤلاء الأخيرين نفسها. وللتعويض عن النقص في الحجة انطلقت الدسائس. وانضمت إلى منظومة الاحتكار الأدبي هذه صناعة تلطيخٍ وتسفيهٍ متواصلة وبأي وسيلة لكل من لم يدخل في تكتلهم...

يبدي الكتّاب، وخصوصاً حين يعملون باتجاه واحد وعلى نحو منظم، تأثيراً هائلاً في الرأي العام، لذلك فإن إخلاص هؤلاء الكتاب مضافاً إليه مال رأس المال كان عاملاً كبير الأهمية في إزالة الحسد الشعبي تجاه كل من استعبده الرخاء. راح هؤلاء الكتاب يراهنون على الحماسة الهائلة لدى فئات السكان الفقيرة، في الوقت الذي كانوا يقدمون فيه أخطاء القضاء والأرستقراطية ورجال الدين في هجائياتهم بكراهية وعلى نحو مبالغ فيه إلى أقصى حد. صاروا ديماغوجيين وصلة الوصل في اتحاد الغنى المقزز مع الفقر القلق والمدفوع إلى حافة اليأس».

لقد اجتذب أصحاب النفوذ المالي في فرنسا الأدباء والعلماء، فأثر هؤلاء، مستغلين أمجادهم، في الرأي العام بحيث استطاعوا «تعطيل» العداء الطبيعي لدى طبقات الشعب الفقير تجاه طبقة الأثرياء وتأليب فقراء المدن على دعائم النظام القديم كلها. هذا بطبيعته إنجاز رائع للفكر والكلمة. صار سلاح الأغنياء هو ذاته ما يضمر العداء لهم، أي سعي الإنسان إلى المساواة والعدالة.

وبما أن «سلاطين الفكر» شكلوا مجتمعاً متراصاً، فقد ظهر فيه الوعي الذاتي بسرعة كبيرة وبدأ العمل النظري. فظهرت في فرنسا أول مرة كلمة

إيديولوجية، وبنيت المنظمة المؤثرة - ***المعهد***[1]، الذي أشرف عليه الإيدولوجيون. لقد أسسوا «علم أفكار الناس». وكما يشير بيورك فإن هؤلاء الإيديولوجيين سعوا قبل كل شيء إلى «الضغط على من يقودون». فقبلوا في صفوف دائرتهم الضيقة جداً (المعهد) نابليون الصاعد إلى السلطة. وبدوره قدر هذا الأخير أهمية هذا التحالف تقديراً صحيحاً، فراح حتى بعد أن صار عضواً في مجلس المديرين (DIRECTORY)[2] يوقع «نابليون بونابرت، عضو المعهد»[3] (عموماً، كان نابليون على الصعيد الروحي منتجاً مكتملا من منتجات رجالات التنوير. كانت مكانة روسو في نظره لا تقبل الجدل، حتى أن كلمات هذا الأخير كانت في أبحاث نابليون الشاب تغني عن أي حجة - لا حاجة إليها ما دام روسو قال هكذا. يمكن حتى أن نقول إن نابليون الشاب كان نتاجاً للتلاعب بالوعي. وكما كتب شقيقه الأكبر عام ١٧٨٦ فإنه «كان معجباً متحمساً بجان جاك، وما يسمى، أحد سكان العالم المثالي». أحد سكان العالم المثالي هذا معناه أنه مجنون. حين أزاح الأغنياء الجدد جانباً

---

(١) المقصود معهد فرنسا، وهو مؤسسة علمية رسمية أنشئت عام ١٧٩٥، وضمت ٥ أكاديميات فرنسية (**المترجم**).

(٢) اسم الحكومة المؤقتة التي تشكلت في فرنسا بين عامي ١٧٩٥ و١٧٩٩ (**المترجم**).

(٣) فيما بعد، حين صار نابليون إمبراطوراً وظل الإيديولوجيون يراهنون على المشاركة الكبيرة جداً في السلطة، أمر بإبقائهم في أمكنتهم مانحاً إياهم مرتبات كبيرة جداً. اتضح أن عدداً ممن في المعهد كانوا ناشزين - تقاضوا الرواتب لكنهم ظلوا يعكرون المياه. حينئذ نشر نابليون في الصحيفة مقالاً رائعاً ضد أولئك الإيديولوجيين الذين «يشوشون رؤوس الناس». نشرها تحت اسم مستعار، لكن على نحو علم الجميع معه من الكاتب الفعلي. راح نجم أولئك الإيديولوجيين يأفل، لكن القضية ظلت على قيد الحياة، وتحدد المكان في السلطة بدقة - الحصول على الرواتب العالية لكن مع البقاء في الظل.

الستارة التي ما عادوا يحتاجون إليها أي اليعاقبة و«أسعارهم الباهظة»، صار نابليون ماجناً طبعاً، لكن كان الوقت قد تأخر).

سنعود مرة أخرى إلى السؤال حول كيف توضع الإيديولوجيات. سنشير هنا فقط إلى أن الاختصاصيين الأوائل الذين سموا أنفسهم إيديولوجيين حددوا على نحو صحيح تماماً مجالين رئيسيين لنشاط الإنسان الروحي ينبغي التحكم بهما لبرمجة أفكاره – المعرفة والتواصل. تألف «منهج الإيديولوجية» الذي هموا بتدريسه للنخبة الحاكمة في فرنسا من ثلاثة أقسام: العلوم الطبيعية والمعارف اللغوية («القواعد») والإيديولوجية نفسها. وهكذا بني الأساس الذي كان ينبغي أن توضع فيه الأفكار الفيروسات من المعارف عن العالم (وعن الإنسان نفسه) ومن تبادل الأخبار (المعلومات).

لقد فهم إيديولوجيو المجتمع الجديد في خضم الثورة الفرنسية تحديداً أن أداة السلطة الرئيسية ستكون في اللغة. هنا ساروا عن وعي نحو قضية معادية لله عداء حقيقياً – وهي البناء الممنهج للغة الجديدة كما في المختبر. الفاتح هنا كان لافوازيه[1] الذي بنى لغة الكيمياء، لكن الأهمية الفلسفية لهذا خرجت خارج أطر هذا العلم (بالمناسبة، لقد أصابت جراءة لافوازيه بالرعب الكيميائيين الإنكليز المؤمنين).

تم في الوقت نفسه إدراك تأثير المعايير الكمية في أفكار الناس وتأثير العدد الذي يحل محل النوعية المليئة بفكرة غامضة غير خاضعة للرقابة. وكانت إحدى أولى قضايا الثورة الفرنسية وأضخمها في بناء الإحساس الجديد بالعالم لدى الجماهير هي وضع منظومة القياس المترية. لقد شارك فيها أبرز العلماء والإيديولوجيين. وقد تم بمساعدة هذه المنظومة ربط مجالي المعرفة

(١) **أنطوان لافوازييه** (١٧٤٣-١٧٩٤) كيميائي فرنسي وأحد مؤسسي الكيمياء المعاصرة. صاغ عام ١٧٨٩ قانون مصونية الكتلة في التفاعل الكيميائي. قاد بين عامي ١٧٨٦-١٧٨٧ عملية وضع مصطلحات جديدة للكيمياء (**المترجم**).

واللغة. وصارت الطبقة الحاكمة تهيمن بمساعدة «لغة الدقة» الجديدة هذه على الأفكار والكلمات عن مقولات الوجود الأساسية – الفراغ والزمان. اليوم، إذ نستعرض المدرسة المتكلمة «بلغة الدقة» هذه لا نستطيع حتى أن نتخيل أي أهمية كانت لهذا في برمجة أفكارنا. يؤكد في أثناء ذلك على نحو محدد الفيلسوف الفرنسي البارز حالياً ميشيل فوكو(١)، الذي أخذ على عاتقه مهمة «التنقيب عن المعاني» المؤسسة للغرب المعاصر، على أن: «لغة الدقة» (لغة الأرقام) ضرورية تماماً من أجل «الهيمنة بوساطة الإيديولوجية». سنعود لاحقاً أيضاً إلى مسألة أي دور في التلاعب بالوعي تلعبه الكلمة والرقم – أي «لغة الرياضيات» و«لغة الأرقام المزدوجة».

حينئذ صار المجتمع المعاصر يبني الآلية الأهم من أجل الهيمنة المقبلة لطبقة أصحاب الأملاك – وهي المدرسة من النوع الجديد. لقد قسمت هذه المدرسة التلاميذ منذ الصف الأول إلى «دهليزين» – بعضهم تتم تربيتهم وتعليمهم كي يكونوا قادرين على التلاعب بوعي الآخرين، وبعضهم الآخر (الأغلبية) كي يكونوا مستعدين للخضوع للتلاعب بسهولة. تثير الكتب التدريسية في المادة نفسها والمكتوبة من قبل العلماء الفرنسيين البارزين أنفسهم، لكن الموجهة «لدهليزي» المدرسة المختلفين، الذهول ببساطة. صارت المدرسة معملاً «منتجاً» للمجتمع الطبقي(٢).

---

(١) **ميشيل فوكو** (١٩٢٦-١٩٨٤) فيلسوف فرنسي ومؤرخ للثقافة والعلوم. ممثل البنيوية. أهم مؤلفاته «تاريخ الجنون في الحقبة الكلاسيكية» (١٩٦١)، «الكلمات والأشياء» (١٩٦٦)، «أركيولوجيا المعرفة» (١٩٦٩). «المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن» (١٩٧٥). **(المترجم)**.

(٢) اتبعت المدرسة السوفييتية التي أنشئت بعد الثورة الروسية المبادئ الرئيسية للمدرسة الروسية «المسيحية» القديمة التي ربت الشخصية. لقد كانت موحدة ومنظمة على نمط الجامعة (النمط «الكلاسيكي»). قاومت مدرستنا زمناً طويلاً نوعاً ما وبنجاح إدخال مبادئ المدرسة «المعاصرة» إليها. ينسخ اليوم المدرسون الروس هذه المبادئ «محسّنين» التعليم الشعبي في روسيا من غير أن يروا ما الذي يقترفونه.

القرن التاسع عشر كله هو تاريخ عن كيف استمد الإيديولوجيون من الاتجاهات كلها (لكنهم جميعا في إطار خطة عامة واحدة هي المذهب الصناعي المرتكز على أساس الإيمان بالتقدم وقوانين التطور الاجتماعي) الحجج من منبع لا ينضب وهو العلم. ومن ثم يحولونها إلى سلاح إيديولوجي بمساعدة اللغة والعدد المبنيين لهذا الغرض خصيصاً.

القرن العشرون هو زمان بناء النظريات والمذاهب الكبرى ووضع التكنولوجيات الهائلة على أساسها، القادرة على اجتراح المعجزات. وهو، طبعاً، زمان استخدام هذه التكنولوجيات في ممارسة الحرب والهيمنة. سنوجز باختصار بعض التصورات (المذاهب) وخصوصاً الضرورية منها من أجل الحديث عن واقع الأمور الآن.

٢- تعاليم أنطونيو غرامشي عن الزعامة

أنطونيو غرامشي هو مؤسس الحزب الشيوعي الإيطالي ومنظره، ونائب في البرلمان، اعتقله الفاشيون عام ١٩٢٦ وسجنوه، ثم أطلق سراحه مريضاً تماماً في عفو عام ١٩٣٤، وتوفى عام ١٩٣٧. سُمح له في بداية عام ١٩٢٩ بأن يكتب في السجن، فبدأ عمله الضخم «دفاتر السجن»، الذي نشر في إيطاليا أول مرة في الفترة بين ١٩٤٨ - ١٩٥١. صدرت عام ١٩٧٥ طبعة علمية نقدية لهذا العمل في أربعة أجزاء مصحوبة بالتعليقات، وصارت إعادة طباعتها باللغات كلها ما عدا الروسية تتوالى الواحدة تلو الأخرى منذ ذلك الوقت، أما الأبحاث المكرسة لهذا العمل فلا حصر لها - آلاف الكتب والمقالات. صدر باللغة الروسية ربع «دفاتر السجن» تقريباً، ومنذ بداية السبعينيات حين سار التحضير السري للبيريسترويكا على قدم وساق، فرض إيديولوجيو الحزب الشيوعي السوفييتي حظراً تاماً على اسم غرامشي (وإن كان بالإمكان القول احتكاماً إلى مؤشرات غير مباشرة، إن أعمال غرامشي قد درست دراسة مستفيضة من قبل إيديولوجيي البيريسترويكا أنفسهم).

حجة انتزاع غرامشي (المختلقة بالكامل) من التداول هي، كما قيل، تباعده العميق مع لينين. أما في الواقع فالسبب كان على ما يبدو في أن تعاليم

غرامشي كانت موضوعة في أساس الحملة الهائلة في التلاعب بوعي سكان الاتحاد السوفييتي من أجل القيام «بالثورة من الأعلى».

لم يكتب غرامشي «دفاتر السجن» من أجل النشر، بل لنفسه، وتحت رقابة السجن. قراءتها ليست بسيطة، لكن جهود عدد كبير من «الغرامشيين» أعادت المعنى لموادها جميعها تقريباً، والاختلافات في التفسير ليست كبيرة. الحديث، في المجمل، يدور حول الإسهام المهم في أقسام المعرفة الإنسانية كلها تقريباً - الفلسفة وعلم السياسة والأنتروبولوجية (علم الإنسان)، والثقافة والتربية. لقد أدى غرامشي هذه المساهمة مطوراً الماركسية ومدركاً معاني تجربة الإصلاح البروتسانتي والثورة الفرنسية والثورة الروسية عام ١٩١٧ وفي الوقت نفسه تجربة الفاشية. لقد أسس على هذا النحو نظرية جديدة عن الدولة والثورة - من أجل المجتمع المعاصر (تطويراً، وربما، تجاوزاً للنظرية اللينينية التي بنيت في ظروف روسيا الفلاحية). لكن تبين أن غرامشي الذي عمل من أجل انتصار الشيوعية قد قام بجملة من الاكتشافات في المعارف العلمية العامة.

كما هو معروف، «المعرفة قوة» ويمكن أن يستثمر هذه القوة كل من يمتلك المعرفة ويحصل على إمكان استخدامها. ساعدت النار الإنسان على الخروج من حاله البدائية وإن كان الإنسان الذي أرسل إلى محارق التفتيش قد يتذكر بالسوء أيضاً بروميثيوس[١] الذي سرق النار من الآلهة من أجل الناس. النظرية التي بنتها الشيوعية استثمرها أعداء الشيوعية بفاعلية (أما شيوعيونا فلا يرغبون حتى بمعرفتها). غرامشي ليس مذنباً في هذا الشأن.

إذا فتحنا اليوم قاعدة البيانات العلمية الغربية الضخمة على كلمة «غرامشي» (مثلاً، قاعدة البيانات الأمريكية الهائلة «الأطروحات»

---

(١) **بروميثيوس** هو عملاق سرق في الأسطورة اليونانية النار من السماء وعلّم البشر استعمالها، وبهذا قوّض الإيمان بقدرات الآلهة، فقيده زفس إلى صخرة عقاباً له على ذلك، وكان نسر يطير كل يوم وينقر كبده إلى أن حرره هرقل (**المترجم**).

(DISSERTATIONS) فإننا سنذهل ببساطة من اتساع مدى الظواهر الاجتماعية التي تدرس اليوم بمساعدة نظرية غرامشي. منها سير اندلاع النزاعات القومية، وتكتيك قادة الكنيسة في الصراع ضد «لاهوت التحرير» في نيكاراغوا، وتاريخ الرياضة في الولايات المتحدة وتأثيرها في الوعي الاجتماعي، وخصوصية الأدب الأفريقي الحالي، وفاعلية هذا النوع أو ذاك من الدعاية. إذا كان علم الاجتماع الغربي البراغماتي قد عد قبل ٢٠ أو ٣٠ سنة لزاماً استخدام منهج الماركسية الكلاسيكية لتحليل العمليات الاجتماعية المهمة كلها (طبعاً، إلى جانب المناهج الأخرى) فإنه يرى اليوم من الضروري «تقليب» المسألة ضمن مفاهيم غرامشي ومنهجيته[١].

أحد أهم فصول مؤلَّف غرامشي هو التعاليم عن ***الزعامة***. إنه جزء من النظرية العامة للثورة بصفتها تحطيماً للدولة وانتقالاً إلى النظام الاجتماعي السياسي الجديد. هاكم باختصار جوهر هذه التعاليم الذي يمس مشكلتنا مباشرة.

إن سلطة الطبقة المهيمنة، وفاقاً لغرامشي، لا ترتكز فقط على العنف، بل على ***التوافق*** أيضاً. آلية السلطة هي ليست الإكراه فقط بل الإقناع أيضاً. والاستحواذ على الملكية بصفتها أساس السلطة الاقتصادي لا يكفي – فهيمنة أصحاب الملكية بذلك لا تكون مضمونة آلياً ولا يتوافر الاستقرار للسلطة[٢].

---

(١) بالمناسبة، من المثير جداً للاهتمام إبراز تلك المسائل الاجتماعية التي يتبين لدى دراستها أن الماركسية الكلاسيكية قليلة الإنتاجية، بينما تعطي ماركسية غرامشي نتائج مهمة (مثلاً تنتمي إلى فئة هذه المسائل النزاعات القومية).

(٢) غرامشي ليس مثالياً، وهو يؤكد على أن «السلطة حين تصير أخلاقية سياسية لا تستطيع كذلك ألا تكون اقتصادية». لكنه يبتعد عن «الحتمية الاقتصادية» للمادية التاريخية، التي كانت تصب الاهتمام على البناء التحتي، على علاقات الملكية. أما لدى غرامشي فالاقتصاد هو بمثابة الهيكل العظمي للمجتمع، والإيديولوجية هي «الجلد». ويكتب قائلاً: «طبعاً، لا يمكن القول إن الجلد في جسم الإنسان ليس سوى وهم، وأن الهيكل العظمي هو الحقيقة الوحيدة، وإن كان قد قيل شيء مشابه لهذا زمناً طويلاً... ليس بسبب من الهيكل العظمي (بالمعنى الضيق) يغرمون بالنساء، مع أن من المفهوم إلى أي حد يجعل الهيكل العظمي الحركات رشيقة وما شابه ذلك».

وهكذا فإن الدولة، مهما كانت الطبقة التي تهيمن، تتألف من حوتين: القوة والتوافق. يسمي غرامشي الوضع الذي يتحقق فيه مستوى كاف من التوافق *الزعامة*. والزعامة ليست حالاً راكدة يتم الوصول إليها بالمصادفة، بل هي عملية دقيقة وديناميةومستمرة. عندئذ «الدولة هي زعامة مغلفة بدرع من الإكراه». بكلمات أخرى الإكراه ليس سوى درع لمحتوى أهم بكثير. إضافة إلى ذلك فإن الزعامة لا تفترض التوافق ببساطة، بل التوافق الرضائي (النشط) الذي يرغب معه المواطنون في ما تطلبه الطبقة المهيمنة. يقدم غرامشي التعريف التالي: «الدولة هي مجموع النشاط العملي والنظري كله، الذي تبرر الطبقة المهيمنة بوساطته هيمنتها وتحافظ عليها محققة في أثناء ذلك توافق المنقادين النشط»[١].

لا يدور الحديث ببساطة عن السياسة، بل عن النوعية الأساسية لمجتمع الغرب المعاصر. هذا جلي من الاستنتاجات القريبة التي وصل إليها بطريقة مختلفة تماماً مفكرون كبار آخرون. يكتب الفيلسوف الأمريكي ج. وايت، الذي درس هايدغر: «مع حلول عام ١٩٣٧ وصل هايدغر – جزئياً بسبب من تجربته السياسية في ظروف ألمانيا النازية، وجزئياً كنتيجة لقراءته أعمال نيتشه، حيث تم التعبير، كما تأكدنا بسهولة، عن الأفكار نفسها عملياً – وصل إلى الفكرة التي سماها غرامشي (في الوقت نفسه تقريباً، لكن انطلاقاً من تجربة أخرى ونوع آخر من القراءة) مشكلة "الزعامة": وتحديداً، كيف يمكن الحكم على نحو خفي عبر "التوازن المتحرك" للأحلاف المؤقتة المتكونة من شتى المجموعات الاجتماعية الغالبة، باستخدام "الإكراه غير العنيف" (وتمكين ما يسمى الثقافة الجماهيرية أو الشعبية)، بحيث يتم التلاعب بمجموعات المخضعين ضد إرادتهم لكن بموافقتهم وفي مصلحة قسم ضئيل جداً من المجتمع».

---

(١) مفهوم أن هذا يشكل تعقيداً كبيراً لصيغة لينين التي تقول: «الدولة هي آلة قمع طبقة لأخرى».

ما دامت قوة الدولة الرئيسية وأساس سلطة الطبقة المهيمنة هي الزعامة، فإن مسألة استقرار النظام السياسي و، على العكس، ظروف تقويضه (الثورة) تنحصر في سؤال واحد عن كيف يتم الوصول إلى الزعامة أو كيف يتم تقويضها. من هو العميل الرئيسي في هذه العملية؟ وما هي «تكنولوجيات» هذه العملية؟

وفاقاً لغرامشي فإن إرساء الزعامة وتقويضها هما عملية «جزيئية». إنها تنساب لا كصدام بين القوى الطبقية (نفى غرامشي تلك المماثلات الميكانيكية التي تمتلئ بها المادية التاريخية الفظة)، بل بصفتها تبدلات غير مرئية، وبجرعات صغرى، في آراء كل إنسان وأمزجته ووعيه. تستند الزعامة إلى "نواة المجتمع الثقافية" التي تضم في ذاتها جملة التصورات عن العالم والإنسان، عن الخير والشر، عن الرائع والمنفر، جملة الرموز والصور، التقاليد والآراء المسبقة، معارف العديد من القرون وتجاربها. وما دامت هذه النواة مستقرة فإن في المجتمع «إرادة جماعية مستقرة» موجهة للحفاظ على النظام الموجود. وتقويض هذه «النواة الثقافية» وتحطيم هذه الإرادة الجماعية هما شرط الثورة. تهيئة هذا الشرط تعني العدوان «الجزيئي» على النواة الثقافية. هذا ليس قولاً عن حقيقة من الحقائق يمكن لها أن تصنع منعطفاً في الوعي أو وضوحاً مفاجئاً. بل هو «كمية هائلة من الكتب والبروشورات والمقالات في المجلات والصحف والأحاديث والجدالات، التي تتكرر بلا نهاية وتشكل بمجموعها الهائل ذلك الجهد المستمر الذي تولد منه الإرادة الجماعية بدرجة معينة من التجانس، وبدرجة ضرورية لنجاح الفعل المتناسق والمتواقت في الزمان والفضاء الجغرافي»[١].

---

(١) حين نضجت «أزمة الزعامة» ونشأت حال «الحرب» كانت ثمة حاجة، طبعاً، لا إلى تأثيرات «جزيئية» في الوعي، بل إلى عمليات سريعة موجهة، وخصوصاً، تلك التي تسدد ضربات قوية إلى الوعي وتؤدي إلى الصدمة وتجبر جماهير كبيرة من الناس على الانتقال من الموقع السلبي إلى الموقع النشط. يرى غرامشي في ذلك ردة فعل مترابطة («سلسلة التراكيب») ويسميها التنفيس CATHARSIS (تطهير العواطف) –

ما زلنا نتذكر كيف بذلت آلة الحزب الشيوعي السوفييتي الإيديولوجية مثل هذا الجهد المديد الهائل في أثناء البيريسترويكا، قبل تحطيم النواة الثقافية للمجتمع السوفييتي نهائياً في وعي الإنسان السوفييتي وقبل أن تتصبَّ ولو مؤقتاً زعامة «المخصخصين». لقد خُطط لهذه «الثورة من الأعلى» كلها («الثورة السلبية» وفاقاً لاصطلاح غرامشي) بدقة وفاقاً للتعاليم عن الزعامة والعدوان الجزيئي على النواة الثقافية. يكتب مستشار يلتسين الفيلسوف أ. ي. راكيتوف بصراحة في المجلة الأكاديمية: «لقد تطلب تحويل السوق الروسية إلى سوق الرأسمالية المعاصرة حضارةً جديدة، وتنظيماً اجتماعياً جديداً، وبالتالي تغييرات جذرية في نواتنا الثقافية».

ما الشيء الذي ينبغي التأثير فيه أولاً في النواة الثقافية من أجل إرساء الزعامة (أو تقويضها)؟ يقول غرامشي، ليس على نظرية العدو على الإطلاق. ينبغي التأثير في الوعي الاعتيادي اليومي، في أفكار الإنسان المتوسط «الصغيرة». والوسيلة الأكثر فاعلية في التأثير هي التكرار المتواصل للمزاعم نفسها كي يعتاد الناس عليها ويتقبلوها لا بالعقل بل بالإيمان بها. يكتب غرامشي: «الجماهير بطبيعتها لا تستطيع استيعاب الفلسفة إلا بصفتها إيماناً». ولفت الانتباه إلى الكنيسة التي ترسخ المعتقدات الدينية من خلال التكرار المستمر للصلوات والطقوس.

أدرك غرامشي إدراكاً رائعاً أن الصراع على الوعي الاعتيادي كما تخوضه القوى المدافعة عن زعامتها كذلك تخوضه القوى الثورية. فهؤلاء وأولئك يمتلكون فرصة في النجاح، لأن النواة الثقافية والوعي الاعتيادي ليسا

على غرار الفعل المطهر لوعي الجمهور الجماعي والمنور له الذي تؤديه التراجيدية في المسرح. يكتب غرامشي عند الانتقال من اللغة الفلسفية إلى لغة الحرب قائلاً: «يجب أن لا نفهم من تناسب القوى العسكرية حقيقة وجود السلاح والفصائل العسكرية فقط بل كذلك مقدرة الحزب على شل العقد العصبية الأساسية في جهاز الدولة».

محافظين وحسب، بل متبدلان أيضاً. ذلك القسم من الوعي الاعتيادي الذي يسميه غرامشي «المعنى السليم» (فلسفة الكادحين العفوية) منفتح على تقبل الأفكار الشيوعية. هنا منبع «الزعامة التحريرية». أما إذا كان الحديث يدور عن البرجوازية الساعية إلى الحفاظ على زعامتها أو إلى إرسائها فإن ما يهمها هو تحييد هذا المعنى السليم أو قمعه مقحمة في الوعي أساطير خيالية.

فمن هو إذن الشخص الفاعل الرئيسي في بناء الزعامة أو تقويضها؟ جواب غرامشي أحادي المعنى: الإنتلجنسيا. وهنا يطور فصلاً كاملاً عن جوهر الإنتلجنسيا وولادتها ودورها في المجتمع وعلاقتها بالسلطة. الوظيفة الاجتماعية الرئيسية للانتلجنسيا تؤديها الفئة غير المحترفة (المهندس، العالم، رجل الدين... الخ). ولدت الإنتلجنسيا في المجتمع المعاصر تحديداً بصفتها مجموعة اجتماعية خاصة، حين برزت الحاجة إلى بناء الزعامة من خلال الإيديولوجية. إن بناء الإيديولوجيات تحديداً ونشرها وإرساء زعامة هذه الطبقة أو تلك أو تقويضها هو المعنى الرئيسي لوجود الإنتلجنسيا.

الزعامة الأكثر فاعلية للبرجوازية السائرة نحو السلطة تكوَّنت في فرنسا حيث قام بسرعة تحالف وثيق بين رأس المال والإنتلجنسيا(١). لقد قبعت تحت هذا التحالف صلة وثيقة بين البرجوازية والإنتلجنسيا من جهة والإصلاح الألماني الذي ولد تيارات فلسفية قوية من جهة أخرى (كما يقال، «كانط قطع رأس الله وروبسبير رأس الملك). عموماً، يرى غرامشي أن اتحاد الإصلاح البروتستانتي مع الأنموذج السياسي للثورة الفرنسية هو الحد الأعظمي النظري في فاعلية إرساء الزعامة.

حين تبيع الإنتلجنسيا جهدها فإنها تنجذب إلى حيث توجد النقود. يكتب غرامشي: «المثقفون هم "أجراء" الجماعة المهيمنة، المستخدمون من أجل

---

(١) أما في إيطاليا مثلاً، حيث كانت الإنتلجنسيا كوسموبوليتية ولامبالية تجاه حاجات البرجوازية القومية فقد تطورت الرأسمالية تطوراً واهناً.

تنفيذ الوظائف المسخرة لمسائل الزعامة الاجتماعية والإدارة السياسية». لكن يبقى في المجتمع دائماً جزء من الإنتلجسيا يسميه غرامشي «تقليدياً»، وهو تلك الإنتلجنسيا التي تخدم الجماعة التي فقدت الزعامة لكنها لم تستبدل الراية. عادة، تسعى الجماعة الجديدة التي حصلت على الزعامة إلى تدجينها. عدا ذلك تولد الحركات الاجتماعية التي تنضج من أجل الصراع على نيل الزعامة إنتلجنسياها الخاصة التي تصير العميل الرئيسي في التأثير في النواة الثقافية وتبوء الزعامة.

هذا عرض موجز ومبسط جداً لبعض نقاط تعاليم غرامشي. وأرى واضحاً من هذه النقاط كم هي هذه النظرية خصبة وواسعة. كان غرامشي واحداً من أولئك الذين وضعوا أسس علم الاجتماع الجديد الذي تخطى المادية التاريخية (بنسختيه الماركسية والليبرالية) ليس عبثاً أن يرد اسمه في صف واحد مع أسماء م. باختين في العلوم الثقافية وم. فوكو وغيره من المجددين في الفلسفة. غرامشي هو أحد أوائل الفلاسفة الذين أحسوا بلوحة العالم العلمية الجديدة ونقلوا روحها الأساسية إلى العلم الذي يدرس المجتمع[١].

سأورد بعض الأمثلة على تلك العمليات الاجتماعية التي دلت دراستها الحالية على أنها سارت بالتطابق مع تعاليم غرامشي عن الزعامة (وهي بالأساس مأخوذة من الأطروحات العلمية الأمريكية). أما عن البيريسترويكا فسنتحدث لاحقاً.

---

(١) ولدت المادية التاريخية في ثقافة منبعها لوحة العالم الميكانيكية التي رسمها نيوتن، لهذا السبب تبدو استعاراتها ومجازاتها كلها ممكننة مثل حركة المكبس في الآلة البخارية. وكما يقال فإن لوحة العالم هذه تنام على «فيزياء الوجود». تكونت لوحة العالم الأخرى في قرننا، وقد أخذت في الحسبان تلك «الشذوذات» التي استثنيت من اللوحة الميكانيكية أي اللاعكوسية، واللاخطية، والتذبذب والعمليات التسلسلية والتنظيم الذاتي. هذه هي «فيزياء الصيرورة». واهتمامها الرئيسي موجه نحو عمليات الانتقال والتبدل والكوارث.

ربما يكون التأكيد الأكبر على صحة نظرية غرامشي هو الإستراتيجية الصحيحة لحزب المؤتمر القومي الهندي من أجل تحرير الهند اللاعنفي من التبعية الاستعمارية. لقد تبوأ الحزب بمجموعة «من الأفعال والكلمات الصغرى» الزعامة الثقافية بين جماهير الناس. وكانت الإدارة الاستعمارية والنخب الموالية للإنكليز عاجزة عن مقاومة أي شيء – لقد فقدوا الحد الأدنى الضروري من توافق الجماهير على دعم النظام السابق.

«العملية» الرائعة الأخرى المحضرة بوعي هي انتقال إسبانيا السلمي بعد موت فرانكو من المجتمع الشمولي المغلق إلى اقتصاد السوق الليبرالي والهيكلية الاتحادية والديمقراطية على النمط الغربي. حلت أزمة زعامة النخبة الفرانكية بوساطة سلسلة من المواثيق مع المعارضة اليسارية الطامحة للزعامة. وبنتيجة هذه المواثيق والحلول الوسطية تم «قبول اليساريين في عداد النخبة»، أما الفرانكيون فبدلوا اللون والمصطلحات المقيتة وصاروا «ديمقراطيين»، في حين تمكن اليساريون من «إقناع» الجماهير بالصبر والتخلي عن مطالبهم الاجتماعية – اليمينيون ما كانوا ليستطيعوا فعل ذلك.

يشرح علماء الثقافة استناداً إلى نظرية غرامشي دور الأشياء («السلع ذات الاستهلاك الواسع») في إرساء زعامة البرجوازية وتدعيمها في المجتمع الغربي. تبني الأشياء (الثقافة المادية) الوسط المحيط الذي تعيش فيه الطبقة الوسطى. إنها تحمل «أخباراً» تبدي تأثيراً قوياً في الوعي الاعتيادي. فإذا صُممت هذه الأشياء «كرموز» («كمنظومات معلومات من رموز») مع الأخذ بعين الاعتبار وظيفتها هذه فإنها تستطيع أن تصير بحكم نطاقها الهائل وتنوع تيارها قوة حاسمة في صياغة الوعي الاعتيادي[١]. لقد صار تحديداً تصميم

---

(١) قال روكفيللير في زمانه حين دفع بهذه الفكرة إلى مداها الأقصى، إن على الأمريكيين كي يستحوذوا على وعي الإنتلجنسيا الأفريقية أن يقيموا صناعة شيئين جميلين ورخيصي الثمن فقط: الصندل والقلم الناشف. فالإنسان يراهما ويلمسهما بلا انقطاع، من الفجر حتى المغيب. اقترح روكفيللر أن لا يبخلوا في الوسائل من أجل إنتاج أفضل الأقلام الناشفة ذات التصميم الفاخر.

السلع ذات الاستهلاك الواسع في الولايات المتحدة (تحتل السيارة مكانة خاصة بينها) الآلية الرئيسية في بناء القيم الثقافية (بناء «النواة الثقافية» والحفاظ عليها). يشير الاختصاصيون على نحو خاص إلى مقدرة هذه الآلية على «نمذجة المجتمع وتقطيعه».

النمذجة والتقطيع هما شرط الزعامة المهم في المجتمع المدني، الذي يتطلب الحفاظ على «تذرير» الناس وفردنتهم. لكن ينبغي في الوقت نفسه توحيد «القطع» بروابط لا تفضي إلى وحدة عضوية – أي بروابط غير خطرة على الزعامة. يبين الدارسون وفاقاً لمنهجية غرامشي أن الرياضة كانت الوسيلة الفاعلة في هذا الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد ولدت رموزاً وأشكالاً ربطت بروابط ناعمة لا تفضي إلى أي نوع من الوحدة الاجتماعية بين شتى قطع المجتمع – من القاع الزنجي وحتى النخب البرجوازية. لقد كوَّنت الرياضة قَطعاً خاصاً في الثقافة الجماهيرية العامة والوعي الاعتيادي.

تبدو مثيرة جداً للاهتمام دراسات أحوال أخرى أكثر خصوصية، حين تخطط القوى المتعارضة حملاتها عمداً كصراع على زعامة الرأي العام في مسألة محددة. هكذا حدث مثلاً في حملة تاتشر[١] المتعلقة بالخصخصة عامي ١٩٨٤ – ١٩٨٥. حاولت النقابات الإنكليزية المعارضة للخصخصة أن تستميل إلى جانبها الرأي العام، لكنها خسرت النزال على الزعامة. عموماً، منح الإنكليز الموافقة على الخصخصة ولم يرتدّوا عن التاتشرية إلا حين لمسوا العواقب بأنفسهم.

---

(١) **مارغريت تاتشر** (١٩٢٥) رئيسة وزراء بريطانيا وزعيمة الحزب المحافظ بين عامي ١٩٧٥-١٩٩٠، ووزيرة التنوير والتعليم بين عامي ١٩٧٠-١٩٧٤ (**المترجم**).

تكشف منهجية غرامشي جيداً عن جوهر نشاط «اللجنة ثلاثية الأطراف» المشكلة بمبادرة من ن. روكفيللير بقيادة ز. بجيزينسكي[1]. وهي إحدى أكثر منظمات «حكومة الظل العالمية» انغلاقاً وسطوة. يدخل في عدادها قرابة ثلاثمائة عضو من الولايات المتحدة وأوربا واليابان، وهدفها هو استقرار النظام العالمي الجديد، الذي يضمن وصول الشركات العابرة للقوميات بلا عوائق إلى بلدان العالم جميعاً، وخصوصاً في مجال المال والطاقة. لقد تم الاعتراف في الواقع بأن هذه اللجنة ثلاثية الأطراف قد أدت إلى ظهور الأزمة المالية الشاملة الحالية وإلى فقدان العالم بأكمله الاستقرار مقارناً بالسبعينيات، لكن ما يهمنا هو استنتاج آخر: استطاعت منظمة الظل هذه أن تعبئ في البلدان الرئيسية كلها قوى مؤثرة من أجل التأثير في الرأي العام بحيث تختفي عموماً عواقب أنشطتها «المزعجة» من النقاشات العلنية. استطاعت هذه القوى (العلماء، والصحافة، و«الزعماء الروحيون») أن تؤثر في الوعي الاعتيادي على الصعيد العالمي، بحيث بدا الناس وكأنهم كفوا عن رؤية الأمور الواضحة. لقد عطلوا لديهم «المعنى السليم».

أخيراً، تم ضمن منطق تعاليم غرامشي الخالص تقويض زعامة القوى الاشتراكية في بلدان أوربا الشرقية من خلال الإنتلجنسيا الليبرالية. وضعت في الولايات المتحدة أطروحات حول دور المسرح في تحطيم النواة الثقافية في هذه البلدان – قراءة آسرة (خصص غرامشي نفسه أيضاً في نظريته عن

---

(١) **زبيغنيف بجيزينسكي** (١٩٢٨). عالم اجتماع ورجل دولة أمريكي. عمل بين عامي ١٩٧٧- ١٩٨١ مساعدا للرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي، ووضع إستراتيجية عالمية لمكافحة الشيوعية. طرح في السبعينيات نظرية دخول المجتمع الأمريكي في ما يسمى حقبة التفوق التقني، وهي أحد أشكال المجتمع ما بعد الصناعي. **(المترجم)**.

الزعامة مكاناً كبيراً للمسرح، وخصوصاً مسرح لويدجي بيرانديلو[١]، الذي ساهم بقسط غير قليل في مجيء الفاشيين إلى السلطة في إيطاليا[٢]). هكذا، على سبيل المثال، تم النظر إلى عمل هاينر موللر[٣] المشهور في مسرح ألمانيا الديمقراطية، الذي وضع في مسرحياته هدف «تقويض التاريخ من الأسفل». يعد هذا مثالاً أنموذجياً للظاهرة المسماة «المسرح المضاد للمؤسساتية»، أي المسرح الذي يقضم المؤسسات الاجتماعية. لقد بحث المخرجون عمداً، وفاقاً لاستنتاجات الباحثين، «عن التشققات في صخرة الزعامة وسعوا إلى توسيع هذه الشقوق – لاحقاً وحتى نهاية التاريخ»، ومنذ زمن بعيد سمي الانهيار المأمول «للحلف السوفييتي» المناهض للغرب نهاية التاريخ.

أظن أن بالإمكان اليوم الحديث عن مأساة غرامشي. أفكاره العبقرية كلها وتحذيراته التي توجه بها إلى رفاقه من أجل أن يتعلموا تجنيد المعنى السليم لدى الناس ورفع جماهير الكادحين إلى مستوى الإنتلجنسيا وتعبئة

---

(١) **لويجي بيرانديللو** (١٨٦٧-١٩٣٦) كاتب ومسرحي إيطالي. من أعماله «ست شخصيات بحثاً عن المؤلف» (١٩٢١). «اليوم نرتجل» (١٩٣٠)، رواية «الراحل ماتيا باسكال» (١٩٠٤). «الناس الصغار» في المجتمع المعاصر (١٩٢٢) حائز على جائزة نوبل (١٩٣٤). **(المترجم)**.

(٢) فهم بيرانديللو نفسه أيضاً دور المسرح هذا. فكتب أن موسوليني هو «رجل مسرح حقيقي، يخطب كمسرحي وممثل للدور الرئيسي على مسرح القرون».

(٣) **هاينر موللر** (١٩٢٩-١٩٩٥). مسرحي ألماني، تحدث في أعماله عن اللحظات المأساوية في التاريخ الألماني وعن الحياة في ألمانيا الديمقراطية. من أعماله «البناء» (١٩٦٠)، «ألمانيا، الموت في برلين» (١٩٧٧)، «حرب بلا معركة، حياة في ظل دكتاتورين» (١٩٩٤). كما عالج المواضيع الكلاسيكية («هرقل الخامس» و«هاملت الآلة» (١٩٧٧). **(المترجم)**.

إمكاناتها من أجل الاستحواذ على «الزعامة التحريرية» - كلها تقريباً درست واستخدمت من قبل العدو لأهداف معاكسة تماماً، من أجل قمع المعنى السليم ومن أجل إذلال الإنسان، ومن أجل التلاعب الفاعل بوعيه، ومن أجل تقوية زعامة الأقلية المهيمنة. وكانت، طبعاً، ذروة «العمل وفاقاً لغرامشي» هي البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي.

٣- المذهب النفسي

تَدرسُ تعاليم غرامشي الإنسان الاجتماعي، وليس الشخصية المنفصلة ولا الجماعات الصغرى. فالفاعل هنا هو الجماهير والطبقات والفئات الاجتماعية، ومجالات النشاط، والدولة. يتناول مسألة التلاعب بالوعي من الجهة الأخرى ذلك المذهب الذي تكوَّن تدريجاً في إطار علم النفس والنفسية (علم نفس الشخصية، وعلم النفس الاجتماعي، والتحليل النفسي). كان الأساس المهم هو التعاليم عن النشاط العصبي الأعلى (وخصوصاً نظرية الأفعال المنعكسة الشرطية) للفسيولوجي ي. ب. بافلوف(١). ظهر إلى الواجهة في حقل المعرفة الواسع هذا، وعند وضع مذهب خاص لبرمجة سلوك الإنسان في الخمسينيات من قرننا، التحليل النفسي- لا كنظرية علمية بقدر ما كان تعاليم (خارجة عن إطار العلم الصارم) وضعها زيغموند فرويد(٢) وطورها أتباعه.

---

(١) **إيفان بيتروفيتش بافلوف** (١٨٤٩-١٩٣٦) فسيولوجي روسي. مؤسس التعاليم عن النشاط العصبي الأعلى، وأضخم مدرسة فسيولوجية معاصرة. حائز على جائزة نوبل عام ١٩٠٤ **(المترجم)**.

(٢) **زيغموند فرويد** (١٨٥٦-١٩٣٩). طبيب نفسي وعالم نفس نمساوي، ومؤسس التحليل النفسي. طور منذ عام ١٩٣٨ في بريطانيا نظرية التطور النفسي الجنسي للفرد، وأرجع تشكل شخصيته وشذوذه إلى معاناة طفولته المبكرة. عمم مبادئ التحليل النفسي على شتى أنواع الثقافة الإنسانية كالميثولوجيا والفولكلور والإبداع الفني... الخ. أهم مؤلفاته: «تفسير الأحلام»(١٩٠٠)، « الأمراض النفسية في الحياة العادية» (١٩٠٤)، «محاضرات في منهج التحليل النفسي» (١٩١٠)، «الطوطم والتابو» (١٩١٣)، «أنا وهو» (١٩٢٣). **(المترجم)**.

راح عدد من العلماء الأوروبيين (وخصوصاً لوبون[١]) منذ نهاية القرن الماضي يركز الانتباه على أهمية الإيحاء في العمليات الاجتماعية. حتى أنهم تقدموا بفرضية عن وجود «غريزة الخضوع» لدى الإنسان. أصدر الفسيولوجي النفسي الروسي ف. م. بيختيريف[٢] عام ١٩٠٣ كتاب «الإيحاء ودوره في الحياة الاجتماعية»، وصف فيه ظاهرة الإيحاء الجماهيري تحت تأثير «العدوى النفسية»، أي عند نقل المعلومة بمساعدة شتى المنظومات الرمزية.

الإيحاء لدى بيختيريف مرتبط مباشرة بالتلاعب بالوعي ما دام يمثل «اقتحاماً [للوعي] من قبل الفكرة الغريبة من غير مشاركة مباشرة أو غير مباشرة لـــ "أنا" الذات». وهنا الفارق المبدئي بين الإيحاء والإقناع. أكان الإيحاء يتم بالكلمات أو بغيرها من الرموز، «فإنه يؤثر في كل مكان لا عن طريق الإقناع المنطقي، بل يؤثر في المجال النفسي على نحو غير مباشر من غير معالجة مناسبة، فيحدث بفضل ذلك تلقيح حقيقي بالأفكار أو المشاعر أو الانفعالات أو هذه الحال النفسية أو تلك».

يفترض الإقناع مشاركة نشطة من قبل الذات، لأن عدداً من الحجج يعرض عليها لتمحصها ثم تقبلها أو ترفضها. يؤكد بيختيريف على أن

---

(١) **غوستاف لوبون** (١٨٤١-١٩٣١) عالم اجتماع ونفس فرنسي. طرح أحد أول أشكال نظرية «المجتمع الجماهيري». درس في كتابه «علم نفس الشعوب والجماهير» (١٨٩٥) الحشد بصفته قوة مدمرة غير عقلانية تقمع فردانية الإنسان. (**المترجم**).

(٢) **فلاديمير ميخائيلوفيتش بيختيريف** (١٨٥٧-١٩٢٧) طبيب أعصاب وعالم نفس روسي. صاحب مدرسة علمية. له مؤلفات في التشريح والفيسيولوجيا والأمراض العصبية. درس التنويم المغناطيسي العلاجي والتربية الجنسية وسلوك الطفل في سنواته الأولى وعلم النفس الاجتماعي. كما درس الشخصية على أساس الدراسة الشاملة للدماغ بالأساليب الفيسيولوجية والتشريحية والنفسية. (**المترجم**).

الإيحاء، على العكس من ذلك، «يلتف حول» عقل الذات. وأنه يخمد بفاعلية نشاط الوعي حين يتاح له ذلك، وينوّم الحارس. كتب بيختيريف: «ينفذ الإيحاء إلى المجال النفسي، خلافاً للإقناع، متفادياً الوعي الشخصي، ويدخل مباشرة ومن غير معالجة خاصة مجال الوعي العام ويترسخ هناك مثل أي مادة من مواد الإدراك السلبي[١]».

سادت في الثلاثينيات والأربعينيات وجهة نظر مغايرة ترفض عملية الإيحاء اللاعقلانية المتخطية للعقل. لا بل على العكس، فقد تم قبول نظرية الإيحاء العقلاني. ووفاقاً لهذه النظرية فإن الإنسان عند الإيحاء لا يغير قناعاته وتقويماته بل يغير ***موضوع*** التقويم. أي يتم في الوعي بمساعدة الإيحاء استبدال موضوع المحاكمة، بحيث يهتف الإنسان في فكره: «آه، ها هو إذن! ها هو المذنب!» وما شابه ذلك.

يتم هذا الاستبدال عن طريق البناء الحاذق لسياق تسير من خلاله أفكار الإنسان في الاتجاه الذي يحتاج إليه المتلاعب. تأسس بناء على هذه النظرية ما يسمى «صحافة التعليق» - أي حين يترافق الخبر عن الواقعة مع تأويل المعلق، الذي يقترح على القارئ أو المستمع أشكالاً عدة من الشروح العقلانية. تساق الفكرة في إطار هذه الأشكال - لكنها على أي حال فكرة إنسان. تحدد مهارة المعلق مسألة صناعة الشكل الأقرب إلى ما يشبه الحقيقة الذي يناسب المتلاعب.

---

(١) كان جيل ما قبل الحرب أشد حباً للاطلاع منا، وكان كتاب بيختيريف مشهوراً على ما يبدو. حين كنت طفلاً كانت أمي تمنعني منعاً باتاً من تشغيل المذياع والاستماع إليه بنصف أذن من غير إمعان الفكر فيه كما يفعلون في الكثير من الأسر. كنت أستاء من هذا الاستبداد، فكانت تشرح قائلة: «إن شئت فاجلس واستمع بانتباه، وفكر بما يقال. أما إن لم تستمع جيداً فستبقى في رأسك التفاهات كلها. لن يكون في مقدورك أن تكررها لكنك ستصدقها».

بيد أن إمكانات مثل هذا «الإيحاء العقلاني» بدت متواضعة نوعاً ما. وفي الخمسينيات صار التحليل النفسي، وفي المقام الأول التعاليم عن اللاوعي، العمود الفقري للمذهب كله. صاغ فرويد الفكرة التي حلقت في الهواء: ثمة قوة مرعبة تختبئ في اللاوعي. كتب نيكولاي زابولوتسكي(١) في ملحمته «معركة الفيلة» (*معركة الكلمات! معاني المعركة!*):

أوروبا الوعي

في حريق الانتفاضة.

فيلة اللاوعي المقاتلة

تظهر وتدق الأرض بقوائمها...

لا تلوي على مدافع الأعداء،

التي تقصف بالحروف المحطمة.

فيلة اللاوعي!

حيوانات الجحيم المحاربة!

إنها تقف محيية بعويل مرح

مغانم النهب كلها، كلها.

وينهي زابولوتسكي الملحمة بمشهد المصالحة متأثراً بالتفاؤل السوفييتي (*والفيل سندجنه بالعقل، ليأكل الفطائر ويشرب الشاي*). أما في الواقع فليس كل شيء بهذه السهولة.

يُعتقَد أن الذي مكن من اعتماد التحليل النفسي كأساس لمذهب التلاعب بالوعي هو نجاح استخدامه في مجال الدعاية. لكن، في الواقع، الذي استخدم

---

(١) **نيكولاي ألكسندروفيتش زابولوتسكي** (١٩٠٣-١٩٥٨) شاعر روسي. من أعماله «انتصار الزراعة» (١٩٣٣)، وعالج في أشعاره المتأخرة مكان الإنسان في الكون. (**المترجم**).

أفكار التحليل النفسي في الممارسة (من غير الاستشهاد طبعاً بفرويد) هم الفاشيون في دعايتهم المؤثرة جداً. فهم لم يخاطبوا العقل بل الغرائز. فحولوا، بهدف تعبئة هذه الغرائز، المتلقين من شرائح المجتمع المختلفة إلى حشد عبر سلسلة كاملة من الطقوس – أي إلى جماعة خاصة تظهر مؤقتاً ويسيطر عليها هوى واحد. كتب المعماري أ. شبير أحد رجال الفكر القلائل المقربين من هتلر في مذكراته: «لقد عرف هتلر وغوبلز[1] معاً كيف يشعلان الغرائز الجماهيرية في الاحتفالات الخطابية، وكيف يلعبان على الحماسة المختبئة خلف واجهة الوقار الرائج. ديماغوجيان خبيران، استطاعا صهر عمال المصانع والبورجوازيين الصغار والطلاب بمهارة في حشد متجانس، صائغين على هواهما أفكاره».

انطلق الفاشيون من الصورة الجنسية الفرويدية: القائد – الرجل يجب أن يغري الجماهير – الأنثى، التي تروق لها القوة الفظة واللطيفة. هذه هي فكرة الفاشية الثابتة (idee fixe)، وهي في الاستخدام بلا انقطاع. تتمثل آلية

---

(١) **ألبرت شبير** (١٩٠٥-١٩٨١) رجل دولة ألماني، المهندس المعماري الشخصي لهتلر، وزير صناعة التسليح والحرب في الرايخ بين عامي ١٩٤٢-١٩٤٥، عضو الحزب القومي الاشتراكي العمالي الألماني. أهم مؤلفاته: «ذكريات- سمولنسك»، «الرايخ الثالث من الداخل. ذكريات وزير الصناعة الحربية في الرايخ». **أدولف هتلر** (١٨٨٩-١٩٤٥) قائد الحزب القومي الاشتراكي منذ عام ١٩٢١. رأس الدولة الفاشية الألمانية (١٩٣٣). مشعل الحرب العالمية الثانية والمبادر إلى الهجوم الغادر على الاتحاد السوفييتي في حزيران عام ١٩٤١. انتحر مع دخول القوات السوفييتية برلين، وأعلنته محكمة نيورنبرغ مجرم حرب نازياً. **جوزيف غوبلز** (١٨٩٧-١٩٤٥) وزير الدعاية منذ عام ١٩٣٣ ورأس الجهاز الدعائي في ألمانيا الفاشية. منظر العنصرية والعنف والحرب التوسعية. انتحر مع دخول الجيوش السوفييتية برلين وأعلنته محكمة نيورنبرغ واحداً من مجرمي الحرب النازيين. **(المترجم)**.

الدعاية كلها في إغراء المرأة وإيصالها حتى الإضناء («الإيهام»)[1]. يتم الاعتماد هنا على الغريزة الجنسية الأولى والرئيسية في تعاليم فرويد، إيروس[2] (كلمة غريزة في التحليل النفسي لها معنى مغاير عما تحمله في الفسيولوجية؛ فهي ليست فعلاً غير شرطي، بل هوى). بالمناسبة، كان فرويد نفسه على ما يبدو معجباً بتجديدية الدعاية الفاشية ففي عام ١٩٣٣ أهدى كتابه لموسوليني مسمياً إياه في الإهداء «بطل الثقافة».

اعتمدت كتلة الأساليب الثانية، التي استطاع الفاشيون بوساطتها دب الحماسة في الجماهير عبر مخاطبة اللاوعي لديها، على الغريزة الفرويدية الرئيسية الثانية في التحليل النفسي، وهي غريزة الموت، ***تاناموس***[3]. تتخلل عبادة الموت خطابية الدعاية الفاشية كلها. كتب الفاشيون الشعراء: «نحن - خاطبو الموت» أعاد مخرجو مسرحيات الاحتفالات الخطابية إحياء طقوس العبادة القديمة المرتبطة بالموت والدفن. كان الهدف من ذلك إشعال أشد النظرات سلفية تجاه الموت وخصوصاً لدى الشباب، وذلك باقتراح أن يصيروا هم أنفسهم خدماً للموت كوسيلة «للتغلب» عليه (وهكذا نجحوا في بناء جيش الـــ س. س. الخاص الشجاع شجاعة غير بشرية والذي لم يشهد التاريخ لنمطه مثالاً).

---

(١) كتب هتلر في «كفاحي»: «الناس البسطاء بغالبيتهم الساحقة يمتلكون طبيعة أنثوية إلى حد أن المحاكمة العقلية تحرض أفكارهم وأفعالهم بدرجة أقل بكثير من العواطف والانفعالات. مشاعرهم غير معقدة وهي بسيطة جداً ومحدودة. لا توجد فيها ظلال وكل شيء في نظرهم هو الحب والبراءة والصح والخطأ، والحقيقة والكذب». أما أساليب إفساد مثل هذه الجماهير الأنثى عبر التلاعب بوعيها فهي موضوع منفصل مدروس دراسة مفصلة بما فيه الكفاية.

(٢) إله الحب (**المترجم**).

(٣) إله الموت (**المترجم**).

شرع تلميذ فرويد عالم النفس إرنست ديختر من فيينا يكيف مفاهيم التحليل النفسي الأساسية من أجل الدعاية في الولايات المتحدة، التي هاجر إليها عام ١٩٣٨. بدأ من دعاية للصابون، ثم السيارات، وصنع لنفسه مكانة خيالية معتمداً على ولع الأمريكيين الشامل بالتحليل النفسي. فأسس «المعهد الأمريكي لدراسة دوافع السلوك». وإذ رفض من الناحية المبدئية نظرية الإيحاء العقلاني راح يؤكد حتى على أن القيمة الرئيسية للسلعة بنظر المشتري لا تنحصر في مهمتها الوظيفية بل في تلبية رغبات مدفونة عميقاً في لاوعيه، ويمكن أن لا يشك بوجودها حتى المشتري نفسه. «تُطرد» هذه الغرائز المظلمة والرغبات السرية في غالبية الأحوال إلى اللاوعي لأنها تحديداً غير ملائمة للوعي.

صارت وكالات الإعلان في الولايات المتحدة برأي ديختير «المختبرات الأكثر طليعيةً لعلماء النفس». إنها «تتلاعب بدوافع الإنسان ورغباته، وتبني لديه الحاجة إلى السلع التي لم يعرفها الناس بعد، أو ربما ما كانوا حتى ليرغبوا في شرائها».

جذب نجاح معهد ديختير في التلاعب بسلوك المشترين اهتمام السياسيين (وكانت أرباح المعهد في منتصف الخمسينيات قد حققت أرقاماً خرافية في تلك الأزمنة). وهكذا تم نقل التحليل النفسي من الدعاية للسلع إلى التلاعب بالوعي في المجال السياسي. المهمات كانت متشابهة من حيث المبدأ. وكما كتبت مجلة «التايم» فإن «الدعاية السياسية تقترب من الدعاية التجارية بالاستعاضة ببساطة عن السلعة بالمرشح»[1]. كان

---

(١) كتب روسير ريفس مؤسس الدعاية السياسية التلفزيونية: «إنني أتخيل في قمرة التصويت الناخب المتردد بين مرشحين، مثل المشتري المتردد بين عبوتي معجون أسنان في الصيدلية. سيختار ذلك الصنف الذي انطبع في ذاكرته بالشكل الأفضل». يمكنكم أن تقرأوا مفصلاً عن سياسة الدعاية في كتاب و.أ.فيوفانوف «الولايات المتحدة: الدعاية والمجتمع» (موسكو ١٩٧٤) ثم راقبوا كيف يستخدم الفيوفانوفيون لدينا معرفتهم اليوم في الممارسة في روسيا.

ديختير عام ١٩٦٠ مستشاراً في حملة كينيدي الانتخابية. وبعد الانتخابات صار ممكناً التحقق من فاعلية توصياته على أساس كمية هائلة من المادة الإحصائية. ثم صاروا يجتذبونه كمستشار في الحملات الانتخابية على الصعيد الدولي.

عام ١٩٥٧ عمم عالم الاجتماع الأمريكي المشهور فينس بيكارد مبادئ استخدام التحليل النفسي في الدعاية في كتابه الأكثر رواجاً «المُغويون السريون». يعد هذا الكتاب حتى الآن العمل الكلاسيكي في مجال الدعاية. لاحقاً، بات التحليل النفسي يستكمل بمناهج علم التفسير وعلم منظومات الرموز (علم الرموز)، والإثنوغرافيا وعلم الثقافة – مع بقائه نواة التناول العلمي.

ظهرت بعد معهد ديختير في الولايات المتحدة معاهد بحث شهيرة أخرى، درست فيها فرص استخدام التحليل النفسي في التلاعب بالوعي – لكن باتجاهات أشد خصوصية. أنجز عالم النفس المعروف لوي تشيسكين، الذي كان أيضاً من أوائل من استخدم التحليل النفسي في الدعاية، ومدير «المعهد الأمريكي لدراسة اللون»، عملاً واسعاً في التأثير في اللاوعي بمساعدة الألوان. لقد صممت استناداً إلى هذه الأعمال دعاية شركات مثل «بروكتير أند غيمبل» (للعطور)، «فيليب موريس» (سجائر)، «جنرال فودس» (سلع غذائية). هذه السلع كلها ذات طلب جماهيري وكانت المادة الإحصائية الناتجة عن بيعها هائلة، بحيث شكل ذلك للوي تشيسكين موضوعاً جيداً للدراسة وحصل على نتائج مثيرة. كان بالإمكان من خلالها، مثلاً، تحديد أي الانفعالات تحرضها في اللاوعي مجموعة ألوان لافتة انتخابية في الأحياء الراقية وأحياء الفقراء، ولدى أناس من عمر مختلف ودخل مختلف ومستوى تعليم مختلف ومن قوميات مختلفة... الخ

أجريت في مجال البث الإذاعي دراسات كبيرة عن تأثير جنس المذيع وموهبته وجرس صوته ووتيرة كلامه في اللاوعي. صارت هذه العوامل المتغيرة جميعها تنتقى تبعاً للأوتار التي ينبغي العزف عليها في اللاوعي لدى إذاعة هذا الخبر أو ذاك. تنبأ المحللون النفسيون في أثناء حملة كينيدي الانتخابية بأنه سوف يخسر في المناظرات الإذاعية أمام نيكسون في بعض الولايات بسبب من صوته المرتفع كثيراً و«لكنته الهارفاردية» - سوف يتقبلون هناك صوت نيكسون المنخفض والفظ بعض الشيء على أنه أكثر صدقاً. فنصحوا كينيدي بأن يتجنب الراديو لدى أي فرصة ويستخدم التلفزيون - في مجال الإدراك البصري خسرت صورة نيكسون. وقد أكد تحليل الأصوات في الدوائر المختلفة بعد الانتخابات صحة حسابات المحللين.

اكتشف جيمس وايكيري اتجاهاً هاماً في استخدام التحليل النفسي – فقد درس عامل اللاوعي في علم دلالات الألفاظ، أي تأثير الكلمة في اللاوعي. من الواضح أن إمكانات التلاعب بالوعي الرئيسية تكمن في مجال اللغة تحديداً. معروف، مثلاً، أن كلمة ***حياة*** تؤثر بقوة في اللاوعي وكذلك مشتقاتها بما فيها البادئة ***بيو***-. إنها، زيادة على ذلك، تتمتع بقوة إضافية لأنها تقرن بالعلم وتستخدم نفوذه. لذلك تستخدم هذه الإشارات في الدعاية استخداماً واسعاً. يكفي أن نلقي نظرة إلى صحيفة موسكوبية حتى نرى على الفور: «محل الصحة - بيونورمالايزر». «حانوت الحياة... النهد الفتي... قناع بيولوجي من أجل النهد بمائة روبل»..الخ. وقد تم في ما بعد نقل مناهج علم الدلالة وأساليبه المكتشفة والمختبرة في حقل الدعاية التجارية على الأهداف الجماهيرية إلى المجالين السياسي والإيديولوجي.

ربما لم يكن هذا الاتجاه الأساسي هو الذي جلب الشهرة الواسعة لوايكيري، بل اكتشافه المذهل الذي سماه دعاية «ما تحت العتبة»

SUBLIMINAL (أي ما تحت الوعي) أو سينما ما تحت الوعي[١]. معروف أن عمليات الإدراك غير خطية، فهي تمتلك عتبات محددة بدقة. لا تدخل إلى وعي الإنسان إلا تلك الإشارات التي تتجاوز لقوتها واستمرارها عتبة ما، أما الإشارات الباقية الأضعف والأقصر (الضجيج) فتتم غربلتها. لكن ما الذي يحدث لها؟

اتفق وايكيري مع أحد أصحاب دور السينما في نيويورك وأجرى التجارب التالية. وضع جهاز إسقاط سينمائي ثان، وراح يسقط به على الشاشة بين فواصل مشاهد الفيلم ومن خلال ومضات صغيرة (٠,٠٣ ثا) كلمات «كوكا كولا» و«تناولوا البشار». كانت هذه الإشارات أدنى من عتبة الإدراك، لأن الوعي يركز على الأشكال البصرية التي تستمر مدة لا تقل عن ٠,٠٥ – ٠,٠٦ ثا. لم يكن في مقدور الوعي تسجيل الإشارات المرسلة من جهاز الإسقاط الثاني، حتى أولئك الذين تم تحذيرهم لم يتمكنوا من لحظ هذه اللقطات. لكن العين رأتها، وافترض وايكيري أن هذه الإشارات قد انطبعت في مكان ما من اللاوعي.

استمرت هذه التجارب بضعة أشهر وأعطت نتيجة راسخة: بعد العروض التي يشغل فيها جهاز الإسقاط الثاني مع الدعاية ازدادت في

(١) دخلت كلمة السينما «السوبليمية» إلى الأدب الشعبي الروسي (لدى و.أ. فيوفانوف مثلاً). ويبدو أن اكتشاف فايكيري قد تم ربطه على نحو غير مفهوم بأحد مفاهيم التحليل النفسي الهامة وهو SUBLIMAIZE (أي التسامي، التهذيب). يفهم التسامي على أنه تحويل طاقة الأهواء النفسية من الأهداف الجنسية إلى أغراض أسمى، كالإبداع الفني مثلاً (إ. فروم). وهذا ليس له أي علاقة بتأثيرات ما تحت العتبة. أحياناً يسمى في الأدب الروسي أسلوب التأثير المكتشف من قبل فايكيري «الإيحاء الغيبي» (OCCULT). وهذه أيضاً ترجمة غير موفقة لكلمة OCCULT التي تعني ببساطة في هذه الحال «الخفي». لقد دخلت كلمة OCCULT في اللغة الروسية بمعنى «السري، الصوفي» وهذا ليس له أي صلة بالإيحاء الخفي لفايكيري.

الكافيتريا مبيعات الكوكا كولا ١٦% والبشار ٥٠%. كانت فاعلية الدعاية نمثل هذه المنتجات غير مسبوقة. لكن الأمر الرئيسي الذي أدركه الاختصاصيون على الفور انحصر في الإمكانات الجديدة الهائلة للتلاعب بسلوك الإنسان عموماً من خلال الإشارات المختلفة المرسلة له بتواتر أعلى من «عتبة التسجيل» (العين والأذن والشم) وأدنى من «عتبة الإدراك» (الوعي). حصل هذا على اسم التأثير في اللاوعي بمستوى ***ما تحت الإدراك*** (SUBPERCEPTION). وسرعان ما اختفت تقريباً من النشر العلني الدراسات ضمن هذا الاتجاه بعد تجارب وايكيري.

استخدام تأثير ما تحت العتبة في الدعاية ممنوع، لكن اكتشاف وجود «لقطات الـــ ٢٥ تكراراً» في أشرطة الفيديو لا يمكن إلا بمساعدة الأجهزة. من المثير للاهتمام أنه قد تم في روسيا التصريح رسمياً أكثر من مرة عن وجود رقابة إلزامية في التلفزيون على عدم وجود إشارات التأثير ما تحت العتبي في الدعاية (وعموماً في البرامج). أضف إلى ذلك أن دعاية واسعة تتم في موسكو لدورات فيديو لتعليم اللغات الأجنبية من قبل شركة «Intellect»، تجعل، كما قيل، «من المتاح خلال ٦٠ ساعة تدريسٍ حفظ أكثر من ٢٠٠٠ كلمة تبقى في الذاكرة أعواماً كثيرة حتى لو لم تُستخدم اللغة». ترتكز هذه الدورات كما يقال على التأثير ما تحت العتبي. قيل في الإعلان: «لقطة – الـــ٢٥ منعت في الدعاية بسبب من فاعليتها العالية جداً. لكنها لم تحظر في التعليم. استخدم منهج التعليم المكثف منذ الخمسينيات من قبل أجهزة الأمن في بلدان مختلفة لتأهيل «العملاء والدبلوماسيين!» وهاكم الآن – إنه متاح للروس البسطاء. سوف تغرس في الذاكرة لقاء سعر زهيد ٢٠٠٠ كلمة وستعلق هناك إلى الأبد «حتى لو لم تستخدم اللغة». بكلمات أخرى يعدنا الإعلان مباشرة بأن الإنسان سوف يصير معوقاً، لأن الذاكرة لا يمكن أن تعمل إلا بالتنظيف المستمر من ما لا تستخدمه. لا وجود للذاكرة النشطة من غير نسيان. لكن هذا كلام عاطفي...

انتقل مفهوم «*الدفاع النفسي*» الأكثر أهمية في هذه القضية من التحليل النفسي إلى مذهب التلاعب بالوعي. في البداية رمز بهذا المفهوم إلى ظاهرة شخصية ونفسية داخلية، ثم اتسع الإطار وصاروا يتحدثون عن «الدفاع النفسي» في العلاقة بين الشخصيات ومن ثم بين المجموعات. ثمة اليوم، مثلاً، اتجاه في علم النفس التطبيقي يعنى ببناء الدفاع النفسي للوفود المرسلة إلى الخارج من أجل المفاوضات.

طرح فرويد نفسه مسألة آليات النفس الدفاعية المقاومة للتدخل من الخارج (بسبب من مقاومة المريض لتأثير المحلل النفسي العلاجي). وضع أتباع فوريد فصول المسألة – أي أظهروا «حدود» النفس تلك وبُناها التي تقع تحت الحماية (مثلاً، صورة *الأنا*، التقويم الذاتي)، وطبقات التهديد والأذى الأساسية، ومؤشرات «إطلاق» آلية الدفاع (ظهور القلق) والأدوات الرئيسية لهذه الآلية.

مفهوم أن نصف نجاح التلاعب بالوعي مرتبط بالمقدرة على تحييد أدوات الدفاع النفسي وإبطالها في كل شخص وكل مجموعة اجتماعية. لذلك فإن المخزون الفكري كله المتراكم في التحليل النفسي قد التقط من قبل أولئك الذين جندوا أنفسهم لوضع تكنولوجيات التلاعب. وربما يكون أهم ما أخذ ليس من التحليل النفسي الكلاسيكي للشخصية بل من التعاليم عن اللاوعي الجماعي. الفكرة التي تخص مسألتنا مباشرة هي تلك التي طورها كارل غوستاف يونغ(١) عن دور *الرموز* الدفاعي في كتابه «النمط الأصلي والرمز».

(١) **كارل غوستاف يونغ** (١٨٧٥-١٩٦١) عالم نفس سويسري. مؤسس «علم النفس التحليلي». كان بين عامي ١٩٠٧-١٩١٢ أحد المساعدين المقربين لفرويد. أعاد النظر في الأفكار الرئيسية للتحليل النفسي ما أدى إلى القطيعة مع فرويد. طور التعاليم عن اللاوعي الجماعي الذي رأى في صوره منبع الرمزية الاجتماعية، بما في ذلك الأساطير والأحلام. (**المترجم**).

بعد أن ولد مع ولادة الرأسمالية والإيديولوجية بصفته نوعاً من السلطة، بات التلاعب بالوعي ممكناً بفضل نزع حزام الرموز الدفاعي الذي أكسب وعي أوربا المسيحية المتانة في القرون الوسطى. إن البروتستانتية التي منحت الأساس الأخلاقي للرأسمالية قد حطمت في الوقت نفسه الصور المقدسة. يكتب كارل غوستاف يونغ: «جرى التعبير دائماً عن الصور اللاواعية من خلال الصور الدفاعية والاستشفائية، فأخرجت بذلك إلى الفضاء الكوني القابع وراء حدود الروح. أحدث الهجوم الذي نفذه الإصلاح على الصور خرقاً بالمعنى الحرفي في جدار الرموز المقدسة الدفاعي... يعد تاريخ تطور البروتستانتية سفراً من أسفار الهجوم على الصور. راح الجدار يسقط تلو الجدار. حتى أن تدميرها لم يكن صعباً جداً بعد أن تم تقويض مكانة الكنيسة. تحطمت الصور الواحدة تلو الأخرى، الكبيرة والصغيرة، الشاملة والمفردة، إلى أن حل أخيراً فقر الرموز المرعب السائد حالياً... لقد تم دفع البشرية البروتستانتية إلى ما وراء حدود جدران الحماية وغدت في وضع يمكن أن يثير رعب أي إنسان يعيش حياة طبيعية، لكن الوعي المتنور لا يرغب في أن يعرف أي شيء عن هذا، وتالياً فهو يبحث في كل مكان عما فقده في أوربا».

يمكننا أن نعد أن الإصلاح (هذه «البيريسترويكا العظمى في أوربا») قد أعطى المتلاعبين المقبلين المبدأ الرئيسي: قبل الاستيلاء على عقول الناس من الضروري التحضير – أي تهديم الصور المقدسة («الهجوم على الرموز»). سننظر لاحقاً من خلال العديد من الأمثلة كيف تم هذا التحضير في أعوام البيريسترويكا لدينا (التي شبهها أ. ن. ياكوفليف بحركة الإصلاح).

ما زالت اليوم مسألة الدفاع النفسي (والتحييد الذي تحدثه) مستمرة بالتطور، وضمن خط التحليل النفسي داخل الشخصية. وصار التصور المهم فيها هو تصور نفسية الإنسان بصفتها مسرحاً لصراع جملة من «الشخصيات الفرعية» المكونة له – أي *الأنوات* الجزئية. وفي هذا الصراع قد يتغلب هذا

الأقنوم أو ذاك من أقانيم الإنسان، هذا الجانب من أناه أو ذاك. وهذا المنتصر هو الذي يبرمج السلوك(١). تغدو مهمة المتلاعب من وجهة النظر هذه في التحديد الصحيح على أي أنا فرعية من المربح له أن يراهن، وكيف يساعد هذه الأنا الجزئية في الإنسان على التغلب على خصومها.

ما شكل على الأرجح دفعاً لوضع هذا التصور هو التأويل التحليلي النفسي لرواية دوستويفسكي «الأخوة كارامازوف». فوفاقاً لهذا التفسير يشكل مجموع أعضاء أسرة كارامازوف، بمن فيهم سميردياكوف الابن «غير الشرعي»، الشخصية الإنسانية. يحدث فيها صراع مستمر بين إيفان العاقل وميتيا العاطفي وأليوشا صاحب النفس الصافية من جهة والمسن الشهواني كارامازوف وسميردياكوف النذل. وفي لحظة الذروة ينتصر سميردياكوف بعد تحالفه السري مع عقل إيفان وأخلاقه. يقال اليوم عموماً، إن دوستويفسكي قد صور الإنسان الروسي تحديداً، لكن هذه حالة، والمسألة أعمق.

ربما يمكننا أن نعد أن مصيبة الجنس البشري هي تلك النتيجة الثقيلة التي استخلصها من التحليل النفسي *البراغماتيون* الذين استثمروا في البداية التلاعب بالوعي في الدعاية التجارية ثم في السياسة: الأسهل للمتلاعب أن يدخل في حلف مع أنوات الإنسان الفرعية المنحطة والمظلمة. الأسهل تحريض الأهواء المرذولة والمكبوتة وتحويلها إلى قوة دفع هائل، وتقويتها و«شراؤها» وحضها على القيام بالعمل الذي تبغضه الشخصية بمجملها. ليكن انتصار تحالف المتلاعب هذا مع أقنوم الإنسان الدنيء مؤقتاً، وليكن حتى قصير الأمد. فهذا عادة ما يكون كافياً لتحقيق هدف التلاعب، لأن ما يهمه هو

---

(١) صورت الشخصية في الكتاب الأمريكي المشهور للكاتب ل. بروتو «من يلعب على أوتارنا» على أنها دمية عرائس يهز خيوطها الموجهة قرابة عشرة أناس صغار مختبئين في وعيها.

الحصول على السلوك الذي يحتاج إليه – فليشعرْ بعد ذلك عقل الإنسان وضميره بالندم. «القطار قد فات» كما يحب المتلاعبون جميعهم أن يقولوا عادة وهم يقفزون فرحاً. ميل سمات الطبع المنحطة تحديداً إلى عقد تحالف مع «العدو الخارجي» – المتلاعب – هي النتيجة العامة لجملة من الدراسات. وهي صارت مصيبة للبشرية لأن صناعة هائلة ظهرت على هذا الأساس تحديداً لتنشيط أهواء الإنسان المنحطة ولتسميم الثقافة الجماهيرية كلها باستمرار وتسميم مجال التخاطب بين الناس.

موضوع دراسة علم النفس الاجتماعي ليس الشخصية المنفردة بل ***جماعة*** الناس. ومن وجهة نظر إمكان التلاعب بسلوك الجماعة أو حتى الجماهير كان لكتابي غوستاف لوبون «سيكولوجيا الجماهير» و«روح الحشد» أهمية كبرى في ظهور اتجاه كبير كامل في علم النفس الاجتماعي. أكمل الأفكار التي عبر عنها لوبون وطورها الكثيرون من علماء النفس والفلاسفة (مثل ز. فرويد في كتابه «علم النفس الجماهيري وتحليل ***الأنا*** الإنسانية»). في الحوار الذي جرى في الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف التسعينيات حول مكان علم النفس الاجتماعي حدد صاحب الدعوة للحوار بدقة دوره التطبيقي في «وضع التقنيات المنظوماتية لصياغة شكل أفكار الناس وسلوكهم فيما بينهم، أي وضع التكنولوجيات السلوكية». واضح عندئذ من مراجع علم النفس الاجتماعي أن هذه التكنولوجيات تقترح إدخال «التصويبات في السلوك» من ***غير علم*** الأشخاص المنخرطين في العلاقات الإنسانية. يدور الحديث، بكلمات أخرى، عن التلاعب تحديداً، وليس عن التعليم أو الاختيار الحر. تم الإفصاح عن هذا الهدف أيضاً في الكلمة الرئاسية التي وجهها غ. أوللبورت المنتخب عام ١٩٤٧ رئيسا لقسم علم النفس الاجتماعي المحدث في ذلك الوقت في الجمعية النفسية الأمريكية – ليس ثمة أي شكوك في حق علماء النفس في تصحيح سلوك الناس من غير معرفتهم أو

موافقتهم[1]. انتقل علم النفس الاجتماعي منذ بداية الستينيات إلى الدراسات التجريبية الجماهيرية، التي وضعت على أساسها «التكنولوجيات السلوكية». طبعاً، لا يقود علم النفس الاجتماعي إلى وضع منهج التلاعب، لكن ما يهمنا هنا هو هذا الجانب تحديداً.

راح يتطور منذ بداية هذا القرن في إطار المذهب النفسي تيار نفسي مواز آخر هو ***مذهب السلوكية***(behaviourism) (من الكلمة *behavior* التي تعني السلوك). صرح مؤسسه ج. واطسون[2] منذ عام ١٩١٤ أن «مادة علم النفس هي السلوك البشري». لا بل راح يؤكد في ما بعد أن أي رضيع يمكن أن يحوّل إلى قاض أو مجرم. بكلمات أخرى، تكنولوجيات التلاعب والبرمجة قادرة على كل شيء. يهمل السلوكيون، خلافاً للتحليل النفسي، العوامل الذاتية كلها (التفكير، الانفعالات، الأهواء.. الخ) وينظرون إلى السلوك كلياً بصفته وظيفة للمحرضات الخارجية. إن هذا تصور ميكانيكي متطرف عن الإنسان الذي يدرس على أنه آلة يتم التحكم بها من الخارج مع كل ما تتسم به الآلة من حتمية (أي القدرة على التحديد الدقيق المسبق لرد الفعل على فعل الإدارة).

صعد مذهب السلوكية في السبعينيات من التشبيهات الميكانيكية البسيطة إلى مفاهيم الآلة الكيبيرنيتيكية (مذهب السلوكية الجديدة المرتبطة باسم فريدريك سكينر من جامعة هارفارد). أجرى سكينر بعد أن انتهى من أتمتة أجهزته المخبرية كلها عددا هائلاً من التجارب على الحيوانات ومن ثم على

---

(١) هذا مع العلم أن قانون الجمعية النفسية الأمريكية يطالب بأن يكون الخاضعون للتجارب النفسية على اطلاع بعواقب التجربة كلها، وأن يعلنوا موافقتهم الطوعية على الاشتراك فيها.

(٢) **جون بروديس واطسون** (١٨٧٨-١٩٥٨) عالم نفس أمريكي، مؤسس مذهب السلوكية (**المترجم**).

الإنسان. يتحدث ن. تينبرغن[١] الاختصاصي البارز في هذا المجال على نحو موارب في كتابه المشهور «سلوك الحيوانات» عن جهود مؤسس مذهب السلوكية الجديدة: «يوجز سكينر في هذه الكتب التي أثارت عاصفة من الجدل قناعته بأن البشرية تستطيع بل هي ملزمة بأن تتعلم أشكال السلوك "المقبولة"».

يعبِّر على نحو محدد أكثر الوجهُ المعاصر البارز في هذا الحقل إ. فروم[٢] قائلاً: «علم نفس سكينر هو علم التلاعب بالسلوك؛ هدفه الكشف عن آليات "التحفيز" التي تساعد على تأمين السلوك الضروري "لصاحب الطلبية"»[٣].

---

(١) **فريدريك بيريس سكينر** (١٩٠٤-١٩٩٠) عالم نفس أمريكي، وأحد اكبر ممثلي مذهب السلوكية الجديدة. اقترح سلسلة من المناهج التجريبية لدراسة سلوك الحيوانات، وتصدى لمشاريع طوباوية تهدف إلى إعادة بناء المجتمع. **نيكولاس تينبرغن** (١٩٠٧-١٩٨٨) أخصائي هولندي في علم نفس الحيوانات. وضع تعاليم عن سلوك الحيوانات الغريزي. حائز على جائزة نوبل عام ١٩٧٣. **(المترجم)**.

(٢) **إريش فروم** (١٩٠٠-١٩٨٠) عالم نفس واجتماع وفيلسوف أمريكي من أصل ألماني. الممثل الرئيسي للفرويدية الجديدة. استند إلى أفكار التحليل النفسي والوجودية والماركسية ورأى سبيل الخروج من أزمة الحضارة المعاصرة في بناء «المجتمع السليم» المؤسس على قيم الأخلاق الإنسانية. أهم أعماله «الهروب من الحرية» (١٩٤١)، «التحليل النفسي والدين» (١٩٥٠)، «المجتمع السليم» (١٩٥٥)، «فن الحب» (١٩٥٦)، «ثورة الأمل» (١٩٦٤). **(المترجم)**.

(٣) يطرح فروم إذ يوجز تعاليم السلوكية الجديدة مسألة عامة حول علاقة العلم بالأخلاق. يبتعد سكينر ابتعاداً مبدئياً عن السؤال عن أهداف التربية، فهو لا يبحث في مختبره إلا عن مناهج التأثير في السلوك. ويكتب فروم: «أما حين ننتقل من الظروف المخبرية إلى ظروف الحياة الواقعية فستظهر صعوبات جدية مرتبطة تحديداً بأسئلة عن سبب إخضاع الإنسان للتلاعب، ومن هو صاحب الطلبية». في الواقع حتى البحث عن المناهج لا يعد على الإطلاق حيادياً أخلاقياً، ويمكننا أن نظهر في نصوص سكينر أحكامه القيمية.

يرى فروم أن «بالإمكان تفسير شهرة سكينر غير المحدودة في الولايات المتحدة بأنه استطاع توحيد عناصر التفكير الليبرالي التقليدي التفاؤلي مع الواقع الاجتماعي والروحي». بكلمات أخرى، لقد أعطى من جديد للطبقة الوسطى الأمريكية الأمل في أن الإبقاء على الإنسان تحت المراقبة ممكن حتى من غير السلاح النووي.

كتب فروم: «تتعرض الشخصية في عصر الكيبيرنيتيك للتلاعب أكثر فأكثر. يتم التلاعب بعمل الإنسان ومتطلباته ووقت فراغه من خلال الدعاية والإيديولوجية – يسمي سكينر هذا "محفزات إيجابية". يفقد الإنسان دوره النشيط المسؤول في العملية الاجتماعية؛ ويصير "غير مضبوط" تماماً ويتعلم أن كل سلوك أو فعل أو فكرة أو إحساس لا يندرج في مخطط عام يشكل له منغصات كبرى؛ لقد بات عملياً ذلك الذي ينبغي أن يكونه. إن حاول أن يبقى وشأنه فإنه يضع نفسه في خطر – يعرض في الدول البوليسية حريته وحتى حياته للخطر، وفي المجتمعات الديمقراطية يغامر بفرص تقدمه أو بفقدان العمل، وربما، وهذا الأهم، يغامر بأن يشعر بنفسه معزولاً ومحروما من التواصل مع الآخرين».

نشير إلى أن عالم الإنتربولوجيا البارز والباحث في السلوك ك. لورنتس[1] الذي يختلف مع فروم في الكثير من النقاط، يرفض رفضاً قاطعاً مذهب السلوكية ويفسر شهرة هذه التعاليم في الولايات المتحدة بالميل إلى «التفكير التقني الفني المكتسب نتيجة الإنجازات في السيطرة على العالم غير العضوي الذي لا يتطلب الأخذ في الحسبان لا البنى المعقدة ولا نوعية المنظومة... إن مذهب السلوكية سيصل به إلى أقصى العواقب. الدافع الآخر هو التعطش للسلطة والثقة بأن بالإمكان التلاعب بالإنسان من خلال الترويض».

---

(١) **كونراد لورينتس** (١٩٠٣-١٩٨٩) عالم حيوان نمساوي، وضع تعاليم عن سلوك الحيوانات الغرائزي. حائز على جائزة نوبل (١٩٧٣) (**المترجم**).

يرى ك.لورنتس في السلوكية خطراً حقيقياً على البشرية: «التربية» المستمرة للإنسان من خلال أساليب السلوكية تهدد بالتحول إلى عامل الاصطفاء الطبيعي الهائل، الذي سوف يطرد ومن ثم يخفي تحديداً أولئك الناس الذين تتمثل فيهم أسمى الصفات وأروعها[1].

لكن هذا عموماً تقويم أخلاقي، وما يهمنا الآن هو حقيقة أن السلوكية صارت جزءاً مهماً من مذهب التلاعب بالوعي الذي وضع في حقل العلوم النفسية.

٤- الدينامية الاجتماعية للثقافة.

يستمد المذهب الثالث غذاءه من المعارف التي تم الحصول عليها من المجال الكبير المترامي بين الفروع العلمية، والذي يمكن أن نرمز له ***بالدينامية (الحركية) الاجتماعية للثقافة***. هذه المعارف عن كيفية إنتاج ثمار الثقافة وحفظها ونقلها وتقبلها هي أفكار ومعلومات فعلية وصور فنية ومؤلفات موسيقية وغيرها. إنها أيضاً نظريات عن التعليم ودراسات في حقل اللغة والعلوم الإعلامية. طبعاً، تتلاقى الدينامية الاجتماعية للثقافة بدرجة معينة مع علم النفس، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتعاليم عن الزعامة التي ذكرناها أعلاه. لكن الرئيسي فيها هو أنها تصورٌ عن حركة عناصر الثقافة كلها بصفتها منظومة كبرى يمكن إدارتها. وهذا معناه يمكن ضبط تياراتها بحيث تحرض «مستهلكي الثقافة» على هذا النوع من السلوك أو ذاك.

---

(١) مفهوم أن السلوك «المقبول» من وجهة نظر المعايير الاجتماعية والثقافية في الولايات المتحدة يفترض في المرحلة التاريخية الحالية الجانب الوسطي من الصفات تحديداً. يختم فروم برأي معمم مفاده: « سوف يعتمد مذهب السلوكية في نهاية المطاف أساساً له المسلمة البرجوازية عن أولوية الأنانية والمنفعة الذاتية على عواطف الإنسان الأخرى جميعها»

تعمل الديناميكية الاجتماعية للثقافة أساساً على التحليل الكمي للقوانين المعيارية البنيوية التي تتحرك وفاقاً لها «نتاجات الثقافة» في المجتمع بغض النظر أيضاً عن محتوى النبأ المنفرد وعن مشكلة الشخصية المفردة، ومع ذلك فإن للكثير من الاستنتاجات الشكلية لدراساتها أهمية عملية في التأثير في الإنسان. إن أي محاولة للتلاعب بالوعي تتطلب، كما يقال، «التلاؤم» مع الجمهور. لهذا يجب تحديد ملمحه الثقافي، ولغته، ونوع تفكيره، وطبيعة تقبله للأخبار. هذه المعطيات هي ما تقدمه الديناميكية الاجتماعية للثقافة. ما تقترحه برامج التلاعب الأكثر اكتمالاً من الناحية التكنولوجية هو ليس «التلاؤم» ببساطة بل بذل جهود خاصة أيضاً في صياغة الوسط الثقافي، وتحضير المرسل إليه لتقبل الأنباء المتلاعِبة، و«تصنيع» الآراء والرغبات التي يمكن التلاعب بها. ويعد هذا مادة بحث هذا الفرع المعرفي ذاته.

من المتعارف عليه أن قوة تأثير وسائل الإعلام الجماهيري وفاعليتها قد زادت من حدة تطور الدراسات العاصف في حقل الديناميكية الاجتماعية للثقافة. السؤال الثاني - لأي هدف ولخير من؟ وكما أشار أ. أينشتاين، «الوسائل متطورة مع الأهداف غير الواضحة - هي السمة المميزة لزماننا» (أو كما عبر بيكاسو[1] بسخرية أكبر. «أجد أولاً، ثم أبحث») عموماً، «عدم وضوح الأهداف» مرده الستار الدخاني المثار عمداً.

---

(١) **ألبرت أينشتاين** (١٨٧٩-١٩٥٥) عالم فيزياء ومنظر، وأحد مؤسسي الفيزياء الحديثة. عاش منذ عام ١٨٩٣ في سويسرا ومنذ ١٩١٤ في ألمانيا وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣. وضع النظريتين النسبيتين الخاصة والعامة. **باولو بيكاسو** (١٨٨١-١٩٧٣) رسام فرنسي، أصله إسباني. أسس مع براك منذ عام ١٩٠٧ مذهب التكعيبية بحيث صورت الأشكال والأشياء المشوهة من خلال تشكيلات من الأحجام والمستويات الهندسية البسيطة (**المترجم**).

ينحصر الاستنتاج الأساسي الأعمق والأول للدينامية الاجتماعية للثقافة (الضروري لقضيتنا) في أن المجتمع البرجوازي، خلافاً للمجتمعات الفئوية، قد خلق نوعاً جديداً من الثقافة – هو النوع الفسيفسائي. إذا كان مجموع المعارف والأفكار يعد من قبل، في حقبة الثقافة الإنسانية، كلاً منتظماً مبنياً تراتبياً ومتمكناً من «هيكل» المواد الأساسية والمواضيع الرئيسية و«الأسئلة الأبدية»، فإن الثقافة الآن، في المجتمع المعاصر، قد تناثرت إلى فسيفساء من المفاهيم العشوائية، المترابطة والمبنية على نحو سيئ. تسمى أحياناً المجتمعات التي تعيش في تدفق مثل هذه الثقافة «ديمقراطية الضجيج».

انتقلت الثقافة الإنسانية من جيل إلى جيل من خلال آليات كانت الجامعة قالَبها الجيني. قدمت الجامعة تصوراً متكاملاً عن الـ universum[١] – أي الكون، بغض النظر عن الحجم والمستوى الذي كانت تُقدَّم به هذه المعارف (بني كتاب أحرف الهجاء السوفييتي على نمط الجامعة – من أجل الطفل الصغير). وشكلت الديسيبلينات (كلمة لاتينية تعني التعليم وقضيب التعذيب في الوقت نفسه) هيكل مثل هذه الثقافة.

أما الثقافة الفسيفسائية بالمقابل فيتقبلها الإنسان على نحو غير اختياري تقريباً، وعلى شكل قطع ملتقطة من تيار الأنباء الذي يغمر الإنسان. يشرح الاختصاصي الشهير في وسائل الإعلام أ. مول في عرضه الموجز، لكن الرائع جداً، لجوهر الثقافة الفسيفسائية (في كتاب «الدينامية الاجتماعية للثقافة») أن المعارف في هذه الثقافة «تتشكل من نُبذ مبعثرة، تتصل وفاقاً لزمن الاستيعاب وتناغم الأفكار أو تداعيها بعلاقات تآلف عشوائية تماماً. لا تشكل هذه النبذ بنيةً، لكنها تتمتع بقوة تعشيق تضفي على "شاشة المعارف"، بما لا يقل عن الروابط المنطقية القديمة، متانةً معينةً وتماسكاً ليس بأسوأ من تماسك شاشة التعليم الإنساني "الشبيهة بالقماش"».

---

(١) مصطلح فلسفي يعني «العالم بصفته كلاً واحداً» (المترجم).

أنتجت الثقافة الفسيفسائية والمدرسة الجديدة المصمَّمة لإعادة إنتاجها («معمل الأتباع») إنساناً جديداً - هو «***إنسان الجمهور***». (حالة القصوى هي ***الحشد***). وقد كتب عنه بتشاؤم الفيلسوف أورتيغا- ي - غاسيت في مقاله الشهير «انتفاضة الجماهير». الأمر الرئيسي لنا هو أن «إنسان الجمهور» هذا هو هدف مثالي للتلاعب بالوعي. إنه متوافق تماماً مع الثقافة التي ولدته (والتي يولدها) ومع مؤسساتها، حتى أنه يشكل معها وحدةً. يكتب أ. مول عن الثقافة الفسيفسائية: «لا تتشكل المعارف أساساً في منظومة التعليم بل في وسائل الاتصال الجماهيري».

عاش الغرب اختباراً هائلاً هو الفاشية. وقد تبين أن الاستحواذ على وسائل الإعلام في المجتمع المؤتمت يسمح بتحقيق تلاعب تام وشامل بالوعي، ويؤدي عملياً إلى إقحام المجتمع كله في مشروع انتحاري هو الأشد عبثيةً. اعترف زميل هتلر أ. شبير في كلمته الأخيرة أمام محكمة نيورنبيرغ قائلاً: «تم بمساعدة مثل هذه الوسائل التقنية كالراديو ومكبرات الصوت انتزاع التفكير المستقل من ثمانين مليون إنسان».

الدينامية الاجتماعية للثقافة هي حقل واسع جداً، وسوف نلجأ إلى مفاهيمها عند الحديث عن أساليب التلاعب بالوعي أو مشاهد محددة منه. نشير هنا فقط إلى أن المذهب المتكون على أساس هذه المعرفة (مثله كمثل التعاليم عن الزعامة) يفرز الوضع الرئيسي التالي: إذا كان ينبغي «غسل دماغ» المجتمع بأكمله وتنفيذ برنامج تلاعب ضخم عليه، وإخماد المعنى السليم لعدة أجيال، فإن ذلك يتطلب تحطيم منظومة التعليم «الجامعي» الديسيبليني، والاستعاضة عن الثقافة الإنسانية بالثقافة الفسيفسائية. لتحقيق هذا الغرض يحتاج المتلاعبون إلى الاستحواذ على المدرسة ووسائل الاتصال الجماهيري. وبتحقيق هذين الشرطين يمكن الوصول إلى نجاح كبير أو صغير، لكن إن لم يتم تحقيق هذين الشرطين فإن النجاح مستحيل تقريباً.

القسم الثاني

المرامي الرئيسية للتلاعب بالوعي

الفصل الخامس

تجهيزات العقل: منظومات الرموز

لنر إلى أي البنى النفسية والذهنية في وعي الشخصية ولاوعيها، وكذلك إلى أي لبنات من النوى الثقافية في المجتمع، يوجه المتلاعبون ضرباتهم في المقام الأول لتحطيم الدفاع النفسي و«تحضير» الإنسان للتلاعب. ما الذي ينبغي فعله لإخماد المعنى السليم؟

سنضطر هنا إلى تعقيد المسألة قليلاً. لا يقتصر التحضير للتلاعب على تهديم التصورات أو الأفكار فقط بل يكمن أيضاً في خلق أفكار ورغبات وأهداف جديدة وبنائها. هذه البناءات «الخدمية» مؤقتة، ومهمتها الرئيسية هي إحداث الخلط في الأفكار وجعلها غير منطقية وخالية من الروابط، وإجبار الإنسان على الشك في الحقائق الحياتية الراسخة، ما يجعله ضعيفاً أمام التلاعب.

قلنا إن الإنسان يعيش في عالمين – عالم الطبيعة وعالم الثقافة. يمكننا النظر إلى هذا الطابع المزدوج الذي يميز الوسط المحيط بنا من زاوية أخرى. يعيش الإنسان في عالمين – عالم الأشياء وعالم الرموز. الأشياء التي صنعتها الطبيعة والتي صنعها الإنسان هي الأساس المادي لعالمنا. أما عالم الرموز فيتصف بتنوع أكثر بكثير، وهو مرتبط بالأشياء، لكن بروابط معقدة وآنية وغالباً ما تكون عصية على الالتقاط (الإلهام لا يباع، لكن المخطوط يمكن أن يباع»). حتى أنواع الرموز الخاصة المألوفة منذ الطفولة، كالنقود (التي ظهرت بالمناسبة كي توحد عالم الأشياء مع عالم الرموز)، مليئة بالأسرار. كانت النقود منذ نشأتها مادة للجدل بين الفلاسفة والشعراء والملوك

والمعدمين. إن النقود بصفتها رمزاً مليئة بالأسرار وقد صارت منذ القديم منبعاً لا ينضب للخدع والتلاعبات. وعالم الرموز كله، بالمجمل، هو المرمى الأول للمتلاعبين.

١- لغة الكلمات

يبرز في عالم الثقافة الاصطناعي الذي يحيط بالإنسان عالم الكلمات الخاص - ***مجال اللغة (لوغوسفير)***. إنه يحتوي في ذاته اللغةَ بصفتها أداة للتخاطب وأشكالَ «التفكير الشفهي» جميعها.

اللغة بصفتها منظومة للمفاهيم والكلمات (الأسماء) التي يدرك الإنسان بها العالم والمجتمع هي ***وسيلة الإخضاع*** الرئيسية. قال ماركس: «نحن عبيد الكلمات»، ثم كرر نيتشه قوله حرفياً. وقد أثبتت جملة من الدراسات هذه النتيجة كنظرية. دخل مخزونَ الإنسان المعاصر الثقافي تصورٌ وكأن الإخضاع يبدأ من المعرفة التي تعد أساس الإقناع[1]. غير أنه في الأعوام الأخيرة بات يزداد أكثر فأكثر عدد العلماء الميالين إلى الرأي بأن المشكلة أعمق وأن الوظيفة الابتدائية للكلمة كانت منذ فجر البشرية التأثير ***الإيحائي*** والإخضاع لا من خلال الإدراك بل من خلال الشعور. هذا ما خمنه ب. ف. بورشنيف[2]، وما زال هذا التخمين يحظى إلى اليوم بالمزيد من الإثباتات.

---

(١) كلمتا مقتنع ومنتصر {بالروسية} لهما جذر واحد. ومنشأ هذا منذ القدم من اللغة اللاتينية حيث تعني حرفياً كلمة إقناع (*(convincere)*): «الإجبار على الوقوف مع المنتصر».

(٢) **بوريس فيودوروفيتش بورشنيف** (١٩٠٥-١٩٧٢) مؤرخ وعالم اجتماع سوفييتي حاصل على دكتوراه في العلوم الفلسفية والتاريخية (١٩٤١). عالجت أعماله الحركات الشعبية في فرنسا في القرن السابع عشر، وتاريخ الأفكار الاشتراكية والعلاقات الدولية في القرن نفسه، ودرس كذلك علم النفس الاجتماعي والاقتصاد السياسي والأنتروبولوجيا. **(المترجم)**

معروف أن الإنسان العاقل، حتى المعاصر، يشعر بالحاجة إلى الإيحاء. جميعنا في لحظات الاضطرابات الحياتية يبحث عن النصيحة لدى أناس ليسوا عارفين مطلقاً بالمشكلة التي تنشأ لدينا: ما نحتاج إليه تحديداً هو مواساتهم ووعظهم «الخاليين من المعنى». ليس في جميع هذه الـ «لا تجزع»، «تماسك»، «سينصلح كل شيء».. الخ، أي معلومة مفيدة لنا، وليس فيها أي خطة عمل. لكن هذه الكلمات تفعل فعلاً شافياً كبيراً (وأحياناً، يفوق التصور). الكلمات تحديداً، وليس المعنى. يمكن للكلمة بفضل قوة تأثيرها الإيحائي أن تقارن بالعوامل الفسيولوجية (لقد ذكرت رد فعل زميلتي في الجامعة التي قالوا لها إنها تناولت لحم الحصان).

قابلية الإيحاء بالكلمة هي صفة عميقة من صفات النفس وظهرت قبل المقدرة على التفكير التحليلي بكثير. هذا جلي من سير تطور الطفل. تبدي كلمات الكبار وممنوعاتهم في الطفولة المبكرة تأثيراً إيحائياً كبيراً، ولا يطلب الطفل أي مبررات. «الماما لم تسمح» هذا هو الأمر الرئيسي. حين يبدأ الأهل المتنورون يبرهنون المنع منطقياً فإنهم لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يربكون الطفل ويقوضون قوة كلمتهم. يكون الطفل قبل أن يبدأ يفهم الكلام الملفوظ بوضوح قادراً على الإدراك الصحيح «لأسلاف الكلمات» - أي الأصوات الصادرة بنبرات مختلفة، والإيماءات، وعموماً «لغة الجسد». يصف الإيتولوجيون - أي دارسو سلوك الحيوانات - بالتفصيل هذه اللغة وقوة تأثيرها في سلوك سرب الطيور مثلاً.

ظهور الإنسان مرتبط بالتبدلات التشريحية - أي تطور الحقول الثلاثية لقشرة الدماغ. لقد سمحت هذه الحقول بالاحتفاظ في الذاكرة بالانطباعات عن العالم المحيط وإسقاطها على المستقبل. وصار الإنسان البدائي يبدو وكأنه يعيش في واقعين - خارجي («حقيقي») ونفسي داخلي («متخيل»). يرى بعضهم أن هذا قد أغرق الإنسان زمناً طويلاً في حال عصبية شاقة. وكان

التعامل معها صعباً جداً عليه لأن الواقع المتخيل كان حتى أشد سطوعاً، على ما يبدو، وأكثر حركة، وولد إجهاداً انفعالياً قوياً («مفارقة الارتقاء النفسي العصبي»).

زاد هذا الإجهاد من صعوبة تكيف الناس مع الوسط المحيط. أفضل مَن تكيَّفَ واستمر في الحياة هو تلك التجمعات (القطعان) التي تعلم فيها القادة وغيرهم من أفراد الجماعات المرموقين إصدار أصوات – رموز خاصة. تلخصت خصوصيتهم في أنهم أثروا في الوضع النفسي لأبناء جلدتهم على نحو محفز ومنظِّم وتمكنوا، كما يخمن علماء النفس، من إخراجهم من حالهم النفسية العصبية الصعبة. هكذا ظهرت الكلمة، التي انحصرت قوتها لا في محتواها الإخباري بل في تأثيرها الإيحائي. شعر الناس بالحاجة إلى مثل هذه الكلمة وخضعوا لها بلا اعتراض. وهكذا ظهرت طبقة خاصة من الكلمات – الرموز – التعويذات. وقد حافظت في الكثير من التجمعات على قوتها حتى يومنا هذا بلا تغيير في شكلها تقريباً (كلمات лекарь-знахрь «الطبيب – الحكيم»، شامان). إنها تستخدم في التجمعات المستنيرة أيضاً، لكن بشكل موارب («الزعيم الكاريزمي»).

لم يخفت تأثير الكلمة الإيحائي ولو قليلاً مع ظهور الحضارة المتطورة. كتب هتلر في «كفاحي»: «القوة، التي أدت إلى حركة التيارات التاريخية الكبرى في المجال السياسي أو الديني، كانت منذ الأزمنة السحيقة هي السطوة السحرية للكلمة المنطوقة وحدها. يخضع الجمهور الأكبر من الناس لسطوة الكلمة دائماً».

كتب هتلر ذلك بصفته متلاعباً ممارساً ومنوماً مغنطيسياً. لكن الفيلسوف المعاصر س. موسكوفيتشي يؤكد على الأمر ذاته تقريباً في كتابه «علم الجماهير»: «المدهش وغير المفهوم في الكثير من النواحي هو سطوة الكلمات الكلية على سيكولوجيا الحشود. هذه السطوة التي لا تولد مما يقال بل

من "سحرها"، ومن الإنسان الذي ينطقها ومن الجو الذي تولد فيه. ينبغي عدم التعامل معها كأقسام من الكلام، بل كأشكال مولودة، كبذور ذكريات، وتقريباً كمخلوقات حية».

قوة التأثير الثانية هي الوعي المتطور وعملية المعرفة. يقول بيكون(١) منذ فجر العالم: «المعرفة سلطة» (هذه ترجمة أدق للجملة التي اعتدناها «المعرفة قوة»). يختبئ خلف التعطش إلى المعرفة التعطش إلى السلطة – هذا هو استنتاج بيكون الذي أكده فلاسفة الأجيال اللاحقة، من نيتشه حتى هايديغر. وهاكم، كانت إحدى نتائج الثورة العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ظاهرة ما كان بالإمكان تصورها من قبل: البناء المتعمد للغات جديدة بصرفها ونحوها وقواعدها. يقول لافوازيه مقترحاً لغة الكيمياء الجديدة: «المنهج التحليلي هو لغة؛ اللغة هي منهج تحليلي؛ المنهج التحليلي واللغة هما مترادفان». التحليل يعني التفريق والتقسيم (المعاكس للتركيب – التوحيد)؛ الإخضاع معناه التقسيم.

صارت اللغة تحليلية بينما كانت توحِّد سابقاً– كان للكلمات معنى وفيراً متعدد الطبقات. وكانت تؤثر في الكثير من الجوانب من خلال ***المضمون*** – أي تولِّد الكلمة الصور والأحاسيس من خلال التداعي. يعكس اصطفاء الكلمات في اللغة الطبيعية صيرورة الطابع القومي ونمط العلاقات الإنسانية وعلاقة الإنسان بالعالم. يقول الروسي «يوجد لدي كلب» وحتى «يوجد لدي كتاب» – ترجمة هذا حرفياً إلى اللغات الأوربية مستحيل. حلت مقولة ***الوجود المشترك*** في اللغة الروسية محل مقولة الملكية. إننا نعبر عن تبعية الكلب لصاحبه بالفعل ***وجد***.

---

(١) **فرانسيس بيكون** (١٥٦١–١٦٢٦). فيلسوف إنكليزي ورائد المادية الإنكليزية. أعلن أن هدف العلم هو سلطة الإنسان على الطبيعة واقترح إصلاح المنهج العلمي وتنظيف العقل من الأوهام، والاعتماد على التجربة. (**المترجم**).

صارت اللغة الطبيعية في الزمن الحديث في المجتمع الغربي الجديد تستبدل بها لغة مكونة تكويناً خاصاً. صارت الكلمات الآن عقلانية، وتم تنظيفها من جملة من المعاني المغرقة في القدم. لقد فقدت قداستها وقيمتها (اكتسبت عوضاً عن ذلك ثمناً). شكل هذا انقطاعاً في تاريخ البشرية كله. فاللغة من قبل، كما عبر عن ذلك هايديغر: «كانت الأقدس من بين القيم كلها». حين صار التلاعب بالوعي الوسيلة الأساسية للسلطة بدلا من القوة احتاج أصحاب السلطة إلى حرية الكلمة التامة – أي إلى تحويل الكلمة إلى أداة لا شخصية لها وخالية من الروح[١].

تحويل اللغة إلى أداة هيمنة أطلق البداية أيضاً لعملية تدمير اللغة في المجتمع المعاصر. لنستمع إلى هايديغر الذي أجمل بعد الحرب محصلة معينة لأفكاره (في «رسالة عن الإنسانية»): «اللغة هي بيت الوجود. يسكن الإنسان في مسكن اللغة... الاجتياح المطرد للغة المنتشر في كل مكان لا يقوض فقط المسؤولية الجمالية والأخلاقية في استعمالات اللغة جميعها. إنه يتجذر في تدمير الوجود الإنساني. تشذيب اللغة البسيط ليس بعد على الإطلاق شهادة على أن هذا التدمير ما عاد يتهددنا. إنه على الأرجح يتحدث اليوم عن أننا لا نرى الخطر ولسنا قادرين على رؤيته، لأننا لم نقف بعد قبالته. تدهور اللغة، الذي تأخر مؤخراً الحديث عنه كما يجب كثيراً، ليس سبباً في أن اللغة تنسل على نحو لا يمكن كبحه من مجالها الطبيعي تحت هيمنة ميتافيزيقية الذاتية الأوروبية الجديدة، بل إنه نتيجة له. ما زالت اللغة لم تفصح لنا عن جوهرها بعد: وهي أنها بيت حقيقة الوجود. اللغة، على العكس من ذلك، تنصاع لإرادتنا العارية ونشاطنا وتلعب دور أداة هيمنتنا على الواقع».

---

(١) طبعاً، لا يمكن لحرية الكلمة التامة أن تكون في أي مجتمع – ثمة دائماً شيء ما «مخالف لتعليمات الرقابة». وكما قال توماس جيفرسون، «لا تستطيع أي حكومة أن تقوم من غير رقابة: فحيث تكون الصحافة حرة لا يكون أحد حراً».

لنبرز الأمر الرئيسي في فكرته: ***اللغة تحت هيمنة ميتافيزيقية الغرب تنسل من مجالها الطبيعي وتصير أداة للهيمنة***. إزالة القداسة عن اللغة تحديداً و«تحويل قيمتها إلى سلعة» هو ما جعل حرية الكلمة ممكنة. الفقر المخجل في أفكار ديمقراطيينا وأولئك الذين ساروا وراءهم بات في أنهم فهموا حرية الكلمة لا بصفتها مسألة وجود بل بصفتها معياراً للتقويمات السياسية الرخيصة: حرية الكلمة موجودة – المجتمع جيد، حرية الكلمة غير موجودة – المجتمع سيئ. إذا أدخلنا في مجتمعنا السيئ حرية الكلمة فسيصير أفضل.

يدور الحديث في واقع الأمر عن نوعين مختلفين من المجتمعات. يعني «تحرير» الكلمة (تماماً «كتحرير» الأرض والعمل وتحويلهما إلى سلعة ونقود) إزالة القداسة والشرارة الإلهية عنها في المقام الأول أي نزع القدسية desacralization. ويعني أيضاً فصل الكلمة عن العالم (عن الشيء). لقد كفت الكلمة الاسم عن التعبير سراً عن السبب الأولي المسجون في الشيء. قال الفيلسوف القديم أناكسيماندر[1] عن القوة السرية للكلمة: «سأكشف لكم سراً مرعباً: اللغة عقِاب. الأشياء كلها يجب أن تدخل في اللغة، ثم تظهر منها من جديد على شكل كلمات بالتوافق مع ذنبها المحسوب».

شكل الفصل بين الكلمات والأشياء طفرة ثقافية وقفزة من المجتمع التقليدي إلى المدني الغربي. لكن لا علاقة لهذا الأمر بالتقويم وفاقاً لمعيار «سيئ – جيد» على الإطلاق، فمن أجل هذا تصير مهمةً جملة ملامح المجتمع المعطاة تاريخياً. والمجتمع المدني يمكن أن يكون قبيحاً ومريضاً روحياً وعقيماً، بينما يمكن أن يكون المجتمع التقليدي، وحتى الشمولي، ملهماً ويسمو بالإنسان.

---

(١) **أناكسيماندر** (٦١٠– بعد٥٤٧ ق.م)– فيلسوف إغريقي وصاحب أول مؤلف فلسفي باللغة اليونانية «حول الطبيعة». تلميذ فاليس، وصنع أول أنموذج للكون، ورسم أول خارطة جغرافية. طرح فكرة نشوء الإنسان «من نوع حيواني آخر» (الأسماك) **(المترجم)**.

تعطينا مقارنة روسيا بالغرب وفاقاً لعلاقتيهما بالكلمة مثالاً رائعاً عن نوعي المجتمعين. إليكم غوغول: «التعامل مع الكلمة يجب أن يكون بصدق. إنها هدية الله الأسمى للإنسان... خطرٌ على الكاتب المزاح مع الكلمة. لاَ تَخْرُجْ كَلِمَةٌ رَدِيَّةٌ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ»[١]. فأي حرية كلمة هنا! ثمة هنا تأكيد على المسؤولية – «ليس مقدراً لنا أن نخمن كيف ستصدح كلمتنا».

فما الذي نراه في المجتمع المعاصر، المدني؟ هاكم الصيغة التي قدمها أندريه جيد (على إثر إرنست رينان)[٢]: «لكي نمتلك فرصة التفكير بحرية يجب أن يكون مضموناً أن لا يكون لما يكتب عواقب». وهكذا تصير الكلمة بعد معرفتها ذات استقلال ذاتي مطلق عن الأخلاق[٣].

أنفق المجتمع البورجوازي على بناء اللغة الجديدة وغرسها في الوعي أموالاً أكبر بما لا يقاس مما أنفقه على الشرطة والجيش والتسلح. لم يحدث مثل هذا قط في الحضارة الزراعية (بما في ذلك في أوربا القديمة). يقولون، إن نوعية مجتمع الغرب الصناعي الجديدة تتلخص في الاستهلاك المتزايد

---

(١) يكرر غوغول قول الرسول بولس هذا عدة مرات في كتاباته. إنه يذكّر بأن: «العظماء كلهم ربوا الناس على الصمت وفرضوه طويلاً على أولئك الذين وهبوا فضيلة الكلمة خصوصاً، وفي تلك الأحيان والأوقات التي يرغبون فيها أكثر ما يرغبون في التباهي بالكلمة وحين تندفع نفوسهم حتى لقول الكثير مما ينفع الناس».

(٢) **أندريه جيد** (١٨٦٩-١٩٥١) كاتب فرنسي، ثار في مؤلفاته على الأخلاق التقليدية والأسرية. **جوزيف إرنست رينان** (١٨٢٣-١٨٩٢) كاتب فرنسي ومؤرخ ديني. حاول عقلنة كل ما هو ميتافيزيقي ما أثار ردة فعل عنيفة من الكنيسة الرسمية (**المترجم**).

(٣) يورد الفيلسوف الكاثوليكي المعاصر ج. ماريتين مثالاً وهو يتحدث عن إغراء «الأخلاق المخادعة الخالصة»: «كتب جيد في الوقت نفسه وبصدق كامل كتيبين – عبر في الأول عن حبه الوفي للإنجيل، وفي الثاني وعظ بالشذوذ الجنسي». سمى جيد نفسه الأخلاق: «خاضعة لعلم الجمال».

للوقود اللاعضوي. يضيفون اليوم أن ما لا يقل أهمية عن ذلك هو أن المجتمع صار يستهلك اللغة تماماً كما يستهلك الوقود اللاعضوي.

مع البدء بطباعة الكتب أزيحت لغة العلاقات الخاصة الشفهية ليحل محلها الحصول على المعلومة من خلال الكتب. كان عدد الكتب في القرون الوسطى قليلاً جداً (كانت في الكنيسة نسخة واحدة من الكتاب المقدس). وكانت قراءة الكتب في الجامعات مأجورة. صدر في أوربا مع بداية القرن السادس عشر وخلال ٥٠ سنة فقط من زمن طباعة الكتب ما بين ٢٥ إلى ٣٠ ألف عنوان بعدد نسخ يقارب الـــ١٥ مليون نسخة. كانت تلك لحظة انعطافية. صارت المدرسة الجديدة تبنى أيضاً على الكتاب الجماهيري.

كانت المهمة الرئيسية لهذه المدرسة هي اجتثاث اللغة «الأصلية» من شعوبها. يستخدم الفلاسفة كلمة «الأصلية» غير المستساغة للأذن الروسية ليرمزوا إلى تلك اللغة التي نمت نمواً طبيعياً قبل قرون وتبتعد جذورها عميقاً في ثقافة الشعب المعني - خلافاً لتلك اللغة التي بناها المجتمع الصناعي وتقبلتها الإيديولوجية. هذه اللغة الأصلية التي تعلمها الطفل في أسرته وفي الشارع وفي السوق - صارت تحل محلها على نحو مخطط لغة «صحيحة» يعلمها المحترفون المأجورون- لغة الصحف والراديو، والآن، التلفزيون.

صارت اللغة سلعة وتنتشر وفاقاً لقوانين السوق. يكتب الفيلسوف الفرنسي إيفان إيليتش الذي درس دور اللغة في المجتمع قائلاً: «صارت الكلمات في السوق في زماننا واحدة من السلع الرئيسية التي تحدد الناتج القومي المحلي. النقود تحديداً هي التي تحدد ما سيقال ومن سيقول وأي نوع من الناس سيقال له. تتحول اللغة لدى أغنياء الأمة إلى ما يشبه قطعة الأسفنج التي تمتص مبالغ لا يمكن تصورها». صارت اللغة المتحولة إلى رأسمال، خلافاً للغة الأصلية، منتج صناعةٍ لها تكنولوجيتها ودراساتها العلمية[1].

---

(١) أدى هذا، بالمناسبة، إلى أن يفقد الناس المقدرة على التخاطب بالكثير من اللغات، الذي كان مميزاً لأوربا «ما قبل السوق» وكان أيضاً مميزاً للفقر في بلدان العالم الثالث. إنسان «اللاسوق» كان متعدد اللغات.

حدث في النصف الثاني من القرن العشرين الانعطاف التالي. يستند إيليتش إلى دراسة اللغويين التي أجريت في تورونتو قبل الحرب العالمية الثانية. حينذاك كان الإنسان يسمع، من بين الكلمات التي يسمعها في السنوات العشرين الأولى من عمره، كل عاشر كلمة من مصدر ما «مركزي» - في الكنيسة، في المدرسة، في الجيش. وكان يسمع تسع كلمات من عشر من شخصٍ استطاع أن يلمس ويشم. انقلب اليوم التناسب - يسمع الإنسان تسع كلمات من أصل عشر من مصدر «مركزي» وهي تقال عادة عبر مكبر الصوت.

يعدُّ عالم الاجتماع الأمريكي هارولد لاسويل مؤسسَ الاتجاه العلمي المعني بدور الكلمة في الدعاية (ومن ثم في التلاعب بالوعي). كان قد بدأ دراساته منذ أعوام الحرب العالمية الأولى، وعمم النتائج عام ١٩٢٧ في كتاب «تقنية الدعاية في الحرب العالمية». لقد وضع مناهج التحليل الدلالي للنصوص - أي دراسة استخدام هذه الكلمات أو تلك من أجل نقل المعاني أو تشويهها. («يدرس علم الدلالة السياسي المصطلحات المفصلية، والشعارات والمذاهب من زاوية فهم الناس لها»). من هنا باتت في متناول اليد مناهج انتقاء الكلمات. بنى لاسويل منظومة كاملة نواتها تشكيل «الأسطورة السياسية» عن طريق انتقاء الكلمات المناسبة(١).

لكن أين يكمن الفارق الرئيسي بين اللغة «الأصلية» واللغة «الصحيحة»؟ تولد «الأصلية» من التخاطب الشخصي للناس الذين يوجزون أفكارهم - أي في خضم الحياة اليومية. لذلك فهي متصلة مباشرة بالمعنى السليم (يمكن القول إن صوت المعنى السليم «يتكلم باللغة الأم»). اللغة

---

(١) تثير أعمال لاسويل الإعجاب بصراحتها. فهو، إذ يتبع على نحو استثنائي معيار الواقع، يقدم تعريفاً حيادياً: «الأسطورة السياسية هي مجمع أفكار تكون الجماهير مستعدة للنظر إليها على أنها حقيقية بغض النظر عن كونها حقيقية في الواقع أم كاذبة».

«الصحيحة» هي لغة المذيع الذي يقرأ النص المعطى له من المحرر، الذي يتمم بدوره مادة كاتب المقالة طبقاً لملحوظات مجلس المدراء. إن هذا خطابية معدومة الشخصية، مبنية عبر سير كامل من الموظفين المأجورين. إن هذا تيار أحادي الاتجاه من الكلمات الموجهة إلى مجموعة محددة من الناس بهدف إقناعهم بأمر ما. هنا يجد بدايته «مجتمع المسرحية»- أي اللغة «المخصصة للمشاهد الذي ينظر إلى المسرح». ليس للغة المذيع في المجتمع البورجوازي الجديد أي صلة بالمعنى السليم، وهي تحمل المعاني التي وضعها فيها أولئك الذين يتحكمون بوسائل الإعلام الجماهيري. لقد بدأ الناس من غير أن يلحظوا ذلك بأنفسهم يتكلمون بمثل هذه اللغة المنفصلة عن المعنى السليم وصاروا أهدافاً سهلة للتلاعب.

كيف تكونت لغة الغرب «الصحيحة»؟ انتقلت بكميات هائلة من العلم إلى الإيديولوجية ومن ثم إلى اللغة العادية كلمات - «أميبات»، شفافة، غير متصلة مع سياق الحياة الواقعية. إنها غير متصلة بالواقع المحدد إلى حد أنها تستطيع الاندراج عملياً في أي سياق، ومجال استعمالها واسع على نحو استثنائي (خذوا مثلاً كلمة *التقدم*). تبدو هذه الكلمات وكأن لا جذر لها، ولا ترتبط بالأشياء (العالم). تنقسم وتتكاثر من غير أن تلفت الانتباه إليها – وتلتهم الكلمات القديمة. يخيل أنها غير مترابطة فيما بينها بأي رباط، لكن هذا انطباع خادع. فهي مترابطة مثل الكرات العائمة من شبكة الصيد – الروابط والشبكة غير مرئية لكنها تصطاد، وتشوش تصورنا عن العالم.

المؤشر الهام لهذه الكلمات - الأميبات هو «علميتها» المزعومة. فإن قلت ***كومونيكيشن*** عوضاً عن الكلمة القديمة ***التخاطب***، أو ***إيمبراغو*** عوضاً عن ***الحصار*** – فسيبدو وكأن أفكارك المبتذلة قد تسلحت بنفوذ العلم. حتى أنك تبدأ تفكر أن هذه الكلمات تحديداً تعبر عن المفاهيم الأساسية في تفكيرنا. الكلمات - الأميبات مثل الدرجات الصغيرة اللازمة للصعود على السلم الاجتماعي، واستخدامها يمنح الإنسان منافع اجتماعية. وهذا ما يفسر مقدرتها

«الالتهامية». الإنسان في «المجتمع الراقي» ملزم باستخدامها. لقد شكل ملء اللغة بالكلمات – الأميبات أحد أشكال استعمار المجتمع البرجوازي لشعوبه.

شكل انفصال الكلمة (الاسم) عن الشيء والمعنى المختبئ فيه خطوة مهمة على طريق تدمير الكون المنتظم كله، الذي عاش فيه إنسان القرون الوسطى والعهود القديمة وانتصب على قدميه بصلابة. ما إن بدأ الإنسان يتكلم «كلمات بلا جذر» حتى صار يعيش في عالم مجزأ، وما عاد يجد ما يستند إليه في عالم الكلمات.

تحول بناء مثل هذه الكلمات «عديمة الجذر» إلى أسلوب مهم في تدمير اللغات القومية ووسيلة لتذرير المجتمع. ليس عبثاً أن أكد عالمنا اللغوي وجامع الحكايات أ. ن. أفاناسيف[١] على أهمية الجذر في الكلمة: «نسيان الجذر في الوعي الشعبي ينزع من الكلمة المتكونة منه أساسها الطبيعي، ويحرمها من التربة، ومن غير ذلك تصير الذاكرة عاجزة عن احتمال غزارة معاني الكلمات؛ إضافة إلى ذلك فإن الربط بين التصورات المختلفة القائمة على قرابة الجذور يصير بعيد المنال».

إن كل انزياح اجتماعي ضخم يهز اللغة. وهو يزيد بشدة خصوصاً إبداع الكلمة. أدى تحطيم المجتمع التقليدي في أوربا القروسطية، كما قلنا من قبل، إلى تشكيل لغة جديدة ذات معجم «مبني علمياً». الإبداع الكلامي المتواتر كان مرافقاً أيضاً للثورة الروسية في بداية القرن. وقد كانت في تلك الثورة تيارات مختلفة. لكن الأقوى من بينها كان موجها لا إلى استبعاد المعاني الخفية التي توحد قوة اللغة بل إلى تعبئتها. حتى لدى الرمزيين الميالين إلى الغرب «ارتسمت بين الكلمات، كما بين الأشياء، تطابقات سرية». لكن الأثر الأكبر في هذه العملية كان لفيليمير خليبنيكوف وفلاديمير

---

(١) **ألكسندر نيكولاييفيتش أفاناسيف** (١٨٢٦-١٨٧١). عالم لغوي روسي، كتب مقالات عن الأدب الروسي في القرن الثامن عشر. من أعماله «النظرة الشعرية السلافية إلى الطبيعة» (١٨٦٦)، مجلد «الحكايات الشعبية الروسية» (١٨٥٥- ١٨٦٤). **(المترجم)**.

مایاكوفسكي. رأى بوريس باسترناك[1] لدى ماياكاوفسكي «جملة من التماثلات مع التصورات القانونية العامة»، التي يعد وجودها دلالة مهمة على لغة المجتمع التقليدي. استلهم ماياكوفسكي بناء قصائده من «مكامن الإبداع القديم». لقد بنى حرفيا ستائر في وجه لغة الكلمات - الأميبات.

تم لدى خليبنيكوف إكمال هذا الحكم المبدئي حتى الوضوح التام. لقد أعاد إلى الحياة طبقات كلام ما قبل بوشكين، وهو الذي كان يعد طوال حياته بوشكين وغوغول أحب كاتبين لنفسه، وبحث عن الجذور السلافية في الكلمات، وأدخلها اللغة المعاصرة عبر عملية إبداع الكلمات التي مارسها. حتى أنه حاول في «لغة نجومه» وفي حذلقاته أن يدخل إلى الكلام الروسي «لغة الوثنية المقدسة». كانت الثورة في نظر خليبنيكوف كمثل التغيرات الأخرى وسيلة لبعث لغتنا «الأصلية» وازدهارها («مللنا من كوننا لسنا نحن»). استجاب ابتكار الكلمات لدى خليبنيكوف لمبنى اللغة الروسية كله، وكان موجهاً، لا إلى التقسيم، بل إلى التوحيد وإعادة بناء روابط لغة المفاهيم والكلام البسيط وروابط الكلمات والأشياء[2].

---

(١) **فيليمير خليبنيكوف** (١٨٨٥-١٩٢٢)، كاتب وأحد مؤسسي الحركة الطليعية الروسية. تزعم منذ عام ١٩١٠ مجموعة المستقبليين. أحد إصلاحيي اللغة الشعرية والمجربين في حقل إبداع الكلمات، وقد لخص تجاربه في كتاب «لغة النجوم» التي حاول فيها البحث عن الجذور السلافية في الكلمات الروسية. **فلاديمير ماياكوفسكي** (١٨٩٣-١٩٣٠)، شاعر روسي، أحد إصلاحيي اللغة الشعرية الروسية وكان له أثر كبير في الحركة الشعرية في العشرينيات. قضى منتحراً. **بوريس باسترناك** (١٨٩٠-١٩٦٠) كاتب وشاعر روسي، حائز على جائزة نوبل عام ١٩٥٨، التي اضطر إلى رفضها خوفاً من نفيه من أراضي الاتحاد السوفييتي (**المترجم**).

(٢) كتب قائلاً: «إن إبداع الكلمات المعتمد على أن اللغة حتى اليوم تبتكر كل لحظة في القرية قرب الأنهار والغابات مكوّنة الكلمات التي تموت تارة وتنال حق الخلود تارة أخرى، ينقل هذا الحق إلى حياة الكتابة. الكلمة الجديدة لا ينبغي فقط أن تسمى، بل يجب أيضاً أن تكون موجهة إلى الشيء المسمى». إن هذا عملية متعارضة مع ما جرى في زمن الثورات البرجوازية في أوربا.

لم يكن إدخال العناصر الفولكلورية والقديمة في أثناء ذلك تراجعاً على الإطلاق ولا أصولية لغوية، لقد كان تطوراً. لقد وضع خليبنيكوف مثلاً أمامه مهمة من أعقد المهام، وهي توحيد الجذور السلافية القديمة مع حوارية اللغة التي وصل إليها التنوير («كل كلمة ترتكز على صمت عدوها»).

فما الذي نراه في خضم الثورة الحالية المعادية للسوفييتية في روسيا؟ ووفاقاً لأي مؤشرات نستطيع الحكم على حماستها؟ لقد نضجت وترسبت في الفكرة الاجتماعية ظاهرة ومشروع ثقافي كامل لديمقراطيينا - وهي خنق لغتنا الأصلية قسراً وعبر الهندسة الاجتماعية، وإغراق الوعي، وخصوصاً لدى الشباب، بالكلمات - الأميبات وبكلمات بلا جذر تحطم معنى الكلام. ينفذ هذا البرنامج في الحياة بقدر من القوة والغباء حتى أننا لسنا بحاجة إلى تصويره - فنحن جميعنا شهود عليه.

حين يسمع الإنسان الروسي كلمات «*سمسار في البورصة*» أو «*قاتل مأجور*» فإنها سترفع إلى وعيه طبقات كاملة من المعاني، وسيعتمد على هذه الكلمات بعلاقته مع ما ترمز إليه من ظواهر. لكن إذا قيل له «بروكر» أو «كيلر» فإنه لن يدرك سوى معنى شحيح، خال من المشاعر ولا يحرض على التداعي. وهو سيدرك هذا المعنى بسلبية ولا مبالاة[١]. الاستعاضة المنهجية

---

(١) تحدثتُ مرة عن هذه المسألة عبر الإذاعة، فاتصلت بي بعد البرنامج إحدى المستمعات وروت لي حادثة تثير الاهتمام. دعوها مرة كخبيرة بصفتها طبيبة نفس وأعصاب إلى تحقيق في جريمة قتل. تلخص المنهج في أنهم عرضوا على شاشة أمام المتهم جملة عشوائية من الكلمات المنطوقة كانت من بينها كلمات مرتبطة بالجريمة. قاس الخبراء قفزات كمون التيار البيولوجي في الدماغ (افترضوا أن هذه الكلمات إن أدت إلى رد فعل انفعالي قوي غير طبيعي فهذا معناه أنه مشارك في الجريمة). كان المتهم قرغيزياً ويتكلم اللغة الروسية جيداً. بيد أنه لم يبد ولو رد فعل طبيعي على الكلمات المرعبة. الكلمات الغريبة وإن كان يعرفها جيداً لم تحرض في وعيه معان مترابطة. رد فعله تغير تغيراً حاداً حين راحوا يلفظون له هذه الكلمات باللغة القرغيزية.

والحثيثة عن كلمات اللغة الروسية بمثل هذه الكلمات – الأميات الغريبة عنا ليست «توسيخاً» أو دلالة على انعدام الثقافة. إنها جزء ضروري من التلاعب بالوعي.

كتب سكرتير الحزب الشيوعي الإسباني خوليو أنغيتا في بداية التسعينيات: «قال أحد السياسيين المشهورين إنه حين تستعمل الطبقة الاجتماعية لغة أولئك الذين يستغلونها فإنها تصير مستغَلّة نهائياً. اللغة ليست بريئة. الكلمات حين ينطقون بها تدل مباشرة على أننا مستغَلون أو أننا مستغِلون». بعد ذلك يشرع ينظر في كلمتي ***القائد والزعيم*** ويشير إلى أن الصحافة لا تسعى بالمصادفة وبإلحاح إلى إخراج كلمة ***قائد*** من الاستعمال. لأن هذه الكلمة قد نشأت تاريخياً لترمز إلى الإنسان الذي يجسد الإرادة الجماعية، إنه متكون بهذه الإرادة. ظهرت كلمة ***الزعيم*** من فلسفة المنافسة. الزعيم يجسد فردانية المستثمر[١]. مدهش كيف تتكرر المنهجيات ذاتها بأدق التفاصيل في شتى نقاط الأرض. ففي روسيا أيضاً لا يقول التلفزيون كلمة ***قائد***. كلا– ***زعيم روسيا البيضاء لوكاشينكو، زعيم الحزب الشيوعي زيوغانوف***...

استمد الاختصاصيون الكثير من «البرنامج اللغوي» للفاشيين. قال موسوليني: «تمتلك الكلمات قوة سحرية هائلة». إذ انكب الفاشيون على «دب التعصب في الجماهير» فإنهم أقدموا على خطوة أخرى نحو قطع الصلة بين الكلمة والشيء. يسمى برنامجهم أحياناً «الإرهاب الدلالي (السيمنتيكي)»،

---

(١) يجري على النحو ذاته إزاحة كلمة الناخبين بإلحاح وإحلال كلمة إليكتورات ELECTORATE محلها. حين يقول النائب «ناخبيّ» فإن دلالة هذه الكلمة تشير إلى أن النائب هو منتج جماعته التي انتخبته (كونته). يتم إدراك التعبير «إليكتوراتي» كتعبير «مَلاكي» (مؤسستي). الإليكتورات هو جمع سلبي غير مرئي ويبنى من قبل السياسي تقريباً.

الذي أدى إلى وضع «نقيض اللغة»[1]. استخدمت في هذه اللغة بنية جملة «محطمة» مع تكرار رتيب لتأكيدات وتعاويذ غير مترابطة فيما بينها. اختلفت هذه اللغة اختلافاً شديداً جداً عن «اللغة الطبيعية».

تُدرج في اللغة بكميات كبيرة كلمات تناقض الوضوح والمعنى السليم. إنها تقوض التفكير السليم، وتضعف بذلك الحماية ضد التلاعب. يتحدثون مثلاً اليوم كثيراً عن «العالم أحادي القطب». هذا تعبير هراء ما دامت كلمة «قطب» غير منفصلة بمعناها عن العدد اثنين وعن وجود قطب *ثانٍ*. أدرجت في تشرين الأول من عام ١٩٣٣ في الصحافة الغربية عبارة «البرلمان العاصي» - إشارة إلى مجلس السوفييت الأعلى لاتحاد جمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية. هذه العبارة سخيفة حين تطلق على الدائرة الأعلى في السلطة *التشريعية* (لذلك يقولون عادة في مثل هذه الأحوال «الانقلاب الرئاسي»). ومثل هذه الأحوال لا يحصى.

كتب تورغينيف عن اللغة الروسية: «في أيام الشكوك، في أيام التأملات الصعبة، أنت وحدك لي الركيزة والسند». ولحرمان الإنسان من هذه الركيزة وهذا السند كان لزاماً تماماً على المتلاعبين، إن لم يستطيعوا إلغاء اللغة الروسية، أن يشوهوها إلى أقصى حد على الأقل ويلوثوها. حين نعرف هذا فإننا نستطيع أن نستخدم هذه الأعمال التخريبية اللغوية كلها كمؤشر أكيد: احذروا، تجري عملية تلاعب بالوعي.

لقد دُرست مواصفات الكلمات - الأميبات التي ملأ المتلاعبون اللغة بها دراسةً جيدة. وتم اقتراح قرابة ٢٠ معياراً لتمييزها - جميعها بليغة بلاغة

---

(١) الكاتب إيتالو كالفينو، الذي آلمه إمكان تحويل الإنسان إلى «مجموع تجريدي من معايير السلوك المفروضة مسبقاً»، قوَّم من وجهة النظر هذه أيضاً «إرهاب الفاشيين الدلالي»- «الابتعاد عن أي كلمة تحمل معنى، وكأن الدورق والموقد والفحم قد صارت كلمات بذيئة، وكأن ذهب، والتقى، وعرف هي أعمال قذرة».

استثنائية، وكأن مؤلفيها قد درسوا صحافتنا «الديمقراطية». تدمر هذه الكلمات مخزون عائلة المترادفات وتقلص حقل المعاني الشاسع إلى مقام واحد عام. يكتسب هذا المقام «عمومية مجروفة» ويتمتع في الوقت نفسه بحد أدنى من المحتوى إن لم يكن صفراً. الموضوع الذي يعبَّر عنه بهذه الكلمات يصعب جداً تعريفه بكلمات أخرى – خذوا على الأقل كلمة «تقدم»، وهي إحدى أهم الكلمات في اللغة المعاصرة. لقد أشير إلى أن لا بعد تاريخي لهذه الكلمات – الأميبات، ومن غير المفهوم متى ظهرت وأين، إذ ليس لديها جذور. وهي تكتسب بسرعة طابعاً أممياً.

يستطيع كل منا أن يتذكر كيف تسللت إلى دائرة الاستخدام لدينا مثل هذه الكلمات – الأميبات. لم تكن تدعي الأصالة فقط (بصفتها «قيماً إنسانية عامة») بل الكثير من الأمور الأقل شأناً. ففي أيلول عام ١٩٩٢ شغلت في روسيا كلمة «فاوتشر(voucher)[١]» أحد الأماكن الأولى من حيث تواتر الاستعمال. قصة هذه الكلمة مهمة من أجل فهم سلوك الإصلاحيين (إذ يعترف بدور الكلمة في التفكير، كما عبر عن ذلك أ. ف. لوسيف، حتى «المثقفين الوضعيين الخرفين»). حين أدخل غايدار كلمة فاوتشر في لغة الإصلاح لم يشرح كعادته لا معناها ولا منشأها. سألت بقدر ما استطعت «المثقفين الوضعيين». لقد فهموا جميعهم هذه الكلمة فهماً ضبابياً وعدوها «علمية» تماماً، لكنهم لم يستطيعوا ترجمتها بدقة إلى الروسية. قال أحدهم: «كانت في ألمانيا في فترة إصلاحات إيرهارد»، وقال آخر: «هذه سندات وزعوها في أثناء الخصخصة زمن تاتشر». بحث بعضهم عن هذه الكلمة في المعاجم، لكنهم لم يجدوها. فالأمر ليس مزاحاً – الحديث يدور عن وثيقة ستتناثر بمساعدتها الثروة القومية. إن رمزه بكلمة لا وجود لها في المعجم وباسم

---

(١) سند خصخصة. تم توزيع هذه السندات على الروس في بداية التسعينيات حين جرت عملية خصخصة القطاع العام، ومن ثم جرى بيعها للرأسماليين الجدد (**المترجم**).

مزيف هو تزوير هائل. وهكذا التقيت بدكتور في الاقتصاد لديه معجم اصطلاحات البورصة الأمريكية العامية، ووجدنا فيه تلك الكلمة التي ليس لها مكان في الأدب الطبيعي. أما في روسيا فأدخلت كمفهوم مفصلي في لغة الحكومة والبرلمان والصحافة. يشبه هذا أن نسمي في مؤتمر طبي الأعضاء التناسلية بعبارات عامية.

يستلزم الكشف عن المعاني الابتدائية الحقيقية حتى للكلمات الرئيسية في اللغة الجديدة إنجاز عمل يسميه الفلاسفة «علم الآثار» - ما يعني حرفياً التنقيب عميقاً. لقد تم اكتشاف الكثير، وحين نقرأ هذه الدراسات وهذه التنقيبات عن المعاني التي عمرها ثلاثة قرون فسيصيبنا الذهول من الأناقة التي غلفت بها معاني المفاهيم التي أدخلناها اللغة الأصلية غافلين. يمكننا أن نكتب عن إنشاء معنى كل مفهوم من هذه المفاهيم وعن تقنيعه رواية بوليسية.

خذوا كلمة «إنسانية» humanism. ما هو معناها المموه؟ تعالوا ننقب ولو قليلاً. الإنسانية humanism – هي ليست ببساطة شيئاً ما جيداً وطيباً، بل إنها «**ية**»[1] ***(«ism»)*** معينة، وتصور فلسفي محدد عن الإنسان يبرر ممارسة سياسية محددة تماماً. نمت هذه الفلسفة في مُثل التنوير، وجوهرها هو تأليه فكرة الإنسان المحددة تماماً، مع قمع، وحتى تدمير، لجميع أولئك الذين لا يندرجون ضمن هذه الفكرة. الإنسانية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة الحرية التي تُفهم على أنها ضم الشعوب والثقافات كلها في الثقافة الأوربية. يبرز من هذه الفكرة الازدراء والكراهية تجاه الثقافات التي تقاوم ذلك. تم تحقيق مقولة الإنسانية بالشكل الأنصع والأكمل من قبل أولئك المثاليين الراديكاليين الذين هاجروا من أوربا إلى الولايات المتحدة، وكانت نتيجته الأبلغ التدمير الحتمي للهنود الحمر. يشرح دو توكويل في كتابه «الديمقراطية

---

(١) اللاحقة التي تضاف إلى الكلمات فتصير معبرة عن مذهب من المذاهب (رأسمال – رأسمالية، إنسان – إنسانية) (**المترجم**).

في أمريكا» كيف طرد الأنغلوساكسونيون الهنود والزنوج من المجتمع – لا لأنهم شككوا بفكرة حقوق الإنسان العامة بل لأن هذه الفكرة لا يمكن أن تطبق على تلك «المخلوقات العاجزة عن العقلانية». يكتب دو توكويل أن الحديث كان يدور عن تدمير جماعي للناس مع احترام كامل وصادق لقوانين الإنسانية[1].

نمت نظرية المجتمع المدني من فكرة الإنسانية. وقد طور مؤسسها الفيلسوف لوك فكرة «حقوق الإنسان المصانة». ألهمت مقالاته جيلاً كاملاً من الثوريين. سار لدينا باغريتسكي[2] في الحياة «وفي روحه باسترناك وفي يده مسدس الناغان»، أما الأوروبيون فساروا مع لوك والمقصلة. لم يكن لوك مناصراً نشيطاً للعبودية وحسب ولم يساعد ضمن هذه الروحية في وضع دستور الولايات الجنوبية الأمريكية وحسب، بل وضع مدخراته في الشركة الأفريقية المَلَكية المحتكرة تجارة الرقيق في بريطانيا. تعالوا في نهاية الأمر لنعلن الحقيقة أمام عيون الجميع: كانت تجارة الرقيق مرتبطة مباشرة بالتنوير. خلال القرن الثامن عشر تحديداً، قرن النور، وبين عامي ١٧٠١ و١٨١٠ بيع ٦،٢ ملايين أفريقي إلى أمريكا (توفى في السجون في الطريق،

---

(١) على العكس من ذلك لم يكن الفاتحون الإسبان إنسانيين وكانوا على الصعيد الشخصي أقسى بكثير من فلاسفة هارفرد. لكنهم كانوا يذبحون الهنود كبشر. إذ أقر قضاة محاكم التفتيش في أمريكا مرسوماً: «كل إنسان هو شكل الله بطبيعته ذاتها. لا يجوز رفض هذا بشأن الهنود – وإن كانوا لا يعرفون الدين الحق، وإن كانوا يسلكون سلوكاً لاأخلاقياً، وحتى إن كانوا غير عاقلين». وبعد الفتوحات العاصفة تزاوج الإسبان مع الهنود ونشأت أمم الكريولو (أحفاد الفاتحين الأوائل في أمريكا اللاتينية «*المترجم*»). أما في القرى فظل الفلاحون الهنود يعيشون في مشاعاتهم «اللاإنسانية» ويتكلمون بلغتهم.

(٢) **إدوارد باغريتسكي** (كنيته الحقيقية زيوبين) (١٨٩٥-١٩٣٤) شاعر روسي. امتلأ شعره بالرومانسية ومشاعر التمرد والفوضوية والحرية. (**المترجم**).

كما يظنون، عشرة أضعاف هذا العدد). وبين عامي ١٨١١ و ١٨٧٠ حين لعنت أوربا كلها روسيا على إخلالها بحقوق الإنسان نقل الأوربيون الإنسانيون إلى أمريكا ١،٩ مليون زنجي أيضاً وباعوهم هناك – مع أن البحارة العسكريين الروس استطاعوا القبض على عدد من تجار الرقيق وشنقهم.

إذن، حتى في كلمة لطيفة كالإنسانية ثمة معنى عميق يمتلك قوة تدميرية لروسيا. إننا جميعاً هنودٌ وزنوجٌ في إطار الإنسانية ما عدا حفنة «الروس الجدد». ولو اهتممنا باللغة لانتبهنا إلى تلك المشكلة التي طرحت أمامنا حتى في إطار الماركسية: «تطهير الإنسانية من الإنسانية» (ما يسمى اللاإنسانية النظرية). إنني لا أتحدث عن الإعجاب الأخرق بكلمات ساتين النيتشوي: «كل شيء في الإنسان، كل شيء من أجل الإنسان». لقد عبر غوركي[1] بواقعية عن معنى مذهب الإنسانية المعادي للمسيحية (والمعادي للطبيعة)، أما نحن فلم نر حتى ذلك.

لكن لم يتسن لهم أن يحرموا روسيا من لغتها في المجمل. لم يتسن للمدرسة البرجوازية أن تتشكل وتسيطر على القسم الأكبر من الشعب. كان الأدب الروسي هو الدرع الأمين. لقد حقق ليف تولستوي نصراً حين ابتكر من أجل مدرستنا نصوصاً بلغتنا الطبيعية «الأصلية». الشعوب الصغيرة والروس المختلطون معهم ظلوا ثنائيي اللغة أو متعددوها، ما زاد كثيراً من قواهم الدفاعية. لم تضع المدرسة السوفييتية نصب أعينها هدف تضليل الجماهير، ولم تجعل من اللغة سلعة. كانوا يقرأون لكل طفل في البيت

---

(١) **مكسيم غوركي** (اسمه الحقيقي ألكسي بيشكوف) (١٨٦٩-١٩٣٦). كاتب روسي. عكس في كتبه ورواياته («الأم»، ١٩٠٦) تنامي الحركة الثورية في روسيا، وأرسى المبادئ الجمالية الفكرية للأدب الروسي المعاصر بما في ذلك مبادئ الواقعية الاشتراكية. (**المترجم**).

والمدرسة وفي المذياع الحكايات الروسية وبوشكين. هل يمكن أن نصدق أن طفلاً في الصف المتوسط في إسبانيا لم يسمع قط بوجود حكايات أطفال إسبانية. سألت أصدقائي جميعاً – لم تكن ثمة حكايات إسبانية في أي أسرة (كان لدى أولادي في موسكو مجلد كبير للحكايات الشعبية الإسبانية). بعضهم سمع عن حكايات طبعت بطابع أوربا وصارت خارج القومية (يعرفونها من خلال أفلام ديزني) – حكايات بيرو وأندرسون والأخوة غريم. لكنها اليوم تتعرض للتحديث مثل الكتاب المقدس. صدرت في برشلونة عام ١٩٥٥ ترجمة عن الإنكليزية لكتاب فين غارنير بعنوان «حكايات الأطفال الصحيحة سياسياً». سيخيل للإنسان من روسيانا «التي ما زالت متوحشة» أن هذا ليس سوى مسرح عبث.

إليكم بداية الحكاية المشهورة المصححة (سأترجم حرفياً)(١): «عاشت في قديم الزمان شخصية صغيرة السن باسم القبعة الحمراء. طلبت منها أمها ذات مرة أن تحمل لجدتها سلة من الفواكه والمياه المعدنية، لكن لا لأنها عدت أن هذا عمل خاص بالمرأة، بل – أعيروا انتباهكم – لأن ذلك كان عملاً طيباً، يمكن أن يعزز مشاعر التواصل بين الناس. عدا ذلك لم تكن الجدة مريضة على الإطلاق، بل على العكس، كانت تتمتع بصحة جسدية ونفسية رائعة، وكانت قادرة تماماً على خدمة نفسها ما دامت كبيرة في السن وشخصية ناضجة...». الجميع راضون: أنصار المساواة بين الجنسين، والليبراليون، والمناضلون من أجل الحقوق الديمقراطية «لصغار السن». لكن حتى ذلك القليل «الأصلي» الذي تبقى من الحكاية المقلصة قد تم استبعاده.

لقد أفرطنا في «طهي» لغة المجتمع الصناعي وملأناها بأفكارنا، لكننا في لحظة من اللحظات بدأنا نتعرض للهزيمة. لقد سلمت المدرسة مواقعها مثلما فعلت الصحافة والطبقة الثقافية كلها. بدا صعباً علينا أن نفهم ما يحدث:

---

(١) هذه الحكاية معروفة لدينا بعنوان «ليلى والذئب» **(المترجم)**.

كان استبدال المعاني في إيديولوجية المجتمع البرجوازي سراً – لا يقل عن استخلاص القيمة المضافة من العمال. يكتب إيلليتش: «الكبت الداخلي مرعب مثل التابو المقدس – لا يسمح لإنسان المجتمع الصناعي بالاعتراف بالفوارق بين اللغة الرأسمالية واللغة الأصلية، وهو يقدَّم من غير سعر محسوب اقتصادياً. هذا الكبت هو من ذات النوع الذي لا يسمح برؤية الفارق الأساسي بين الإرضاع من الصدر ومن خلال زجاجة الرضاعة، بين الأدب والكتاب المدرسي، بين الكيلومتر الذي عبرته ماشياً أو راكباً».

فلنعد إلى الغرب. طبعاً، لو دمرت اللغة الأصلية بالأميبات تماماً لدمر المجتمع، لأن الحوار كان سيصير مستحيلاً. لكنها مع ذلك مقموعة في المجتمع الغربي المعاصر باحتكار اللغة الصحيحة مثلما هي مقموعة المنتجات الأصلية بالمنتجات الصناعية. وكما يكتب إيلليتش فإن اللغة الأصلية في المستقبل «يجب أن تقدم كأضحية لإيديولوجية توسع اقتصاد السوق، الاقتصاد – الشبح؛ هذه الأضحية هي الهدف الأخير الذي تضعه نصب عينيها غطرسة الـــ*homo economicus* (الإنسان الاقتصادي)».

إننا نرى اليوم كيف يقوض التحديث آخر حصن للغة المحافظة على معانيها القديمة – أي الكنيسة. ليس كافياً أن الكهنة خارج الخدمة، وحتى في اللباس الكهنوتي، صاروا يتكلمون بلغة «صحيحة» تماماً مثل الصحفيين أو السياسيين، بل باتت النصوص المقدسة معرضة للتحديث. تشكل الأعمال في هذا المجال برنامجاً كاملاً. إنهم مقدمون في إنكلترا على إصدار كتاب مقدس جديد بلغة «معاصرة» وبعشرة ملايين نسخة. سماه اللاهوتيون من الطراز القديم «حداثة، لكن بلا بركة» (انتزع مفهوم البركة ذاته منه وحلت محله «الخيرات غير المستحقة»). أخلي من الكتاب المقدس أيضاً مفهوما التكفير عن الذنب والتوبة. أخيراً، استبدلت بكلمة الصلب المفصلية في المسيحية عبارة «التثبيت على الصليب». استعاضوا عن الفكرة المسيحية المليئة بالكلمات والجمل ذات المعنى العميق والمهذبة خلال ألفي عام، بكلمات

«مفهومة أكثر»، وكما قال الشماس يوركا، صار الكتاب المقدس شبيها بمسلسل تلفزيوني، لكنه فقد محتواه النفيس[1].

بات معروفاً اليوم الكثير عن اقتحام اللغة بهدف برمجة السلوك، حتى أن في مقدور الإنسان ذي التفكير العميق أن يستخدم هذه المعرفة في ممارسته الخاصة. لقد قدم الكاتب أورويل[2] فهمه الفني مع شكله الخاص «للغة الجديدة» في روايته التنبؤية «١٩٨٤». قدم أورويل وصفاً خيالياً للنظام الشمولي الذي كانت وسيلة القمع الرئيسية فيه هي اللغة الجديدة، وهي لغة مبتكرة خصوصاً لتغير معاني الكلمات المعروفة. لقد امتهن أنصار البيريسترويكا لدينا أفكار أورويل إذ قرنوها بنقد الشيوعية[3]. بالمناسبة،

---

(١) إننا لا نتحدث عن الرقابة السياسية الوضعية البذيئة للكتاب المقدس. لقد بدأوا ينتقلون منذ وقت قريب في الولايات المتحدة إلى ترجمة «صحيحة سياسياً» للكتاب المقدس حذف منها ذكر أن اليهود هم من صلبوا السيد المسيح. لقد صلب، لكن من صلبه ولماذا – هذا غير مهم. وهذا لكي تستبعد «معاداة السامية» من الإنجيل. ولكي لا تستاء مناصرات المساواة بين الجنسين تم تغيير مفهوم الله – الآب (صار الآن الله – الآب – الأم) لذلك تم تدمير جوهر الثالوث المقدس كله. أدخل أيضاً الكثير من التغييرات «الديمقراطية» المماثلة.

(٢) **جورج أوريل** ((اسمه الحقيقي إريك بلير) (١٩٠٣–١٩٥٠). كاتب وصحفي إنكليزي. شارك في الحرب الأهلية في إسبانيا ١٩٣٦–١٩٣٩ وجرح فيها. صور في روايته التنبؤية «١٩٨٤» (١٩٤٩) المجتمع العالمي المقبل في هيئة تراتبية شمولية وغارقاً في الخوف والحقد. (**المترجم**).

(٣) وصف أورويل في نبوءته «١٩٨٤» المجتمع الغربي المعاصر تحديداً الذي يعيش «نزوة الديمقراطية» – أي شمولية اصطناعية إحدى أدوات السلطة فيها هي اللغة الجديدة، وهي لغة اصطناعية أبدلت المعاني فيها. هذه اللغة هي لغة المجتمع المعاصر المدفوعة إلى نهايتها المنطقية، إنها لغة الصحافة. العمليات التي تجري في المجتمع التقليدي مهما كانت شمولية وقاسية فإنها ذات طبيعة مغايرة من حيث المبدأ.

استطاع الاتحاد السوفييتي توحيد قواه في الحرب ضد الفاشية بالعودة تحديداً إلى اللغة القديمة محيياً المعاني القريبة إلى نفوسنا. حين بدأ ستالين أمره الشهير بكلمتي «سيم أوفيدوملياياتسا»(١) (بهذا نطلعكم) فإن كلمة «سيم» وحدها دلت على منعطف هام لن تغفره «الديمقراطية العالمية» لستالين قط.

انطلاقاً تقريباً من التاريخ الذي حدده أورويل بدأت فعلاً في روسيا عام ١٩٨٥ حملة لبناء «اللغة الجديدة» وإدخالها في الاستعمال. لقد انطلقت مستخدمة كامل طاقة الآلة الإيديولوجية للحزب الشيوعي السوفييتي الذي غيرت قيادته نهجها. لهذا السبب يدور مثل هذا الصراع على المدرسة – إنها تقدم للأطفال لغة يصعب بعد ذلك تغييرها. دخل مفهوم أورويل الفلسفة وعلم الاجتماع وصار بناء اللغات الجديدة إحدى تكنولوجيات الإصلاحيين – أفلا نرى اليوم ذلك في روسيا!

٢- لغة الصور

كتب لوبون («ميكيافيللي المجتمع الجماهيري» كما سموه مؤخراً) منذ القرن الماضي: «الحشد يفكر عبر الصور، والصورة المحفَّزة في المخيلة تحفِّز بدورها صوراً أخرى ليس لها أي صلة منطقية بالأولى... الحشد قادر على التفكير عبر الصور فقط، إنه حساس تجاه الصور وحسب. وحدها الصور تستهويه أو تولد فيه الرعب أو تصير محركات السلوك فيه». ثم يعود في مكان آخر إلى الصلة بين الكلمة والصورة: «يتصل جبروت الكلمات اتصالاً وثيقاً بالصور التي تحفزها ولا يرتبط مطلقاً بمعناها الحقيقي. تحدث في أحيان كثيرة كلمات ليس لها أي معنى محدد تأثيراً كبيراً في الحشد. تكون مصطلحات كالديمقراطية، على سبيل المثال، والاشتراكية والمساواة والحرية... الخ غير محددة إلى حد أنك لن تستطيع حتى في أثخن المجلدات أن تتبين معناها بدقة».

---

(١) سيّ Сей بالروسية هي كلمة قديمة قليلة الاستعمال في اللغة الروسية الحديثة وتعني «هذا» (إيتو Это). (*المترجم*).

تتكون طبيعة التلاعب من وجود تأثيرين مزدوجين - يرسل المتلاعب إلى المتلقي إشارةً «مشفرة»، إضافة إلى النبأ المرسل على نحو مكشوف، على أمل أن توقظ هذه الإشارة في وعي المتلقي تلك الصور التي يحتاج إليها المتلاعب. يرتكز هذا التأثير الخفي إلى «المعرفة غير الواضحة» التي يتمتع بها المتلقي، وعلى مقدرته على أن يشكل في وعيه الصور المؤثرة في مشاعره وآرائه وسلوكه. يكمن فن التلاعب في إطلاق عملية التخيل عبر السكة اللازمة، لكن بحيث لا يلحظ الإنسان التأثير الخفي.

أي أن للصور مثلها كمثل الكلمات قيمة إيحائية، وتولد رد فعل متسلسل في المخيلة. يمكننا إضافة إلى المجال اللغوي في الثقافة أن نميز عالماً خاصاً من الصور الرسومية البهية المدركَة بمساعدة البصر - ***الإيدوسفير*** (المجال الشكلاني) (من الكلمة اللاتينية إيدوس - المنظر، الشكل). تزييف لغة الكلمات والأرقام هو الخلفية العامة لخشبة «مجتمع المسرحية». لقد بين القرن العشرون إمكانات لدى المنظومات الرمزية بصفتها وسائل للسلطة ما كان بالإمكان من قبل تخيلها. وقد شغلت مكاناً خاصاً بينها الصور ***البصرية***.

تستخدم هذه الصور، كقاعدة، بالمعية مع النص والأرقام، ما يعطي أثراً تعاونياً مضاعفاً ومرتبطاً بأن نوعين مختلفين من الإدراك يتحدان ويدخلان في مرحلة الرنين و«يهز» أحدهما الآخر - الإدراك الدلالي والجمالي. تستند دائماً أشد وسائل الإعلام تأثيراً إلى طباقية الأصوات، والتعددية الصوتية المتناغمة للمعنى والجمال. إنها تستحوذ في وقت واحد على الفكر والإحساس الفني («الدلالة تقنع والجمال يغوي»).

ترتكز إلى هذا قوة تأثير المسرح (النص، تردد الأصوات، اللون، مرونة الحركات) وخصوصاً الأوبرا. حين يؤثر النبأ «المغلف» بأنواع مختلفة من الرموز من خلال قنوات مختلفة فإنه قادر على المحافظة على اهتمام الإنسان وانتباهه مدة طويلة. لذلك فإن فاعلية نفاذه إلى الوعي

واللاوعي أكبر بما لا يقاس من النبأ «ذي اللون الواحد». يشكل اتحاد منظومات رمزية كثيرة في المسرح نوعية جديدة تماماً، مع العلم أن صالة المشاهدين تلعب دوراً مهماً في تكوينه. فهي تشكل في بعض الأحوال حشداً خاصاً. أشار لوبون إلى أمر هام: «غالباً من المستحيل تماماً عند القراءة تفسير نجاح بعض العروض المسرحية. وغالباً ما يكون مدراء المسارح غير واثقين من النجاح حين يقدَّم لهم مثل هذه العروض، لأنها ينبغي أن تتحول إلى حشد كي يتم الحكم عليها».

يمكن رؤية تأثير توحيد الكلمة والشكل جيداً حتى في التشكيلات البسيطة. معروف منذ القدم أن إضافة ولو قدر قليل من الإشارات البصرية الفنية إلى النص يخفض بحدة عتبة الجهود الضرورية من أجل إدراك الخبر. تجعل الرسوم الكتاب سهل المنال للطفل أو المراهق الذي لم يستطع استيعابه في الطبعة «الخالية من الرسوم». وتجعل الصور والرسوم البيانية المقال ممتعاً (وفي الواقع مفهوماً) للعالِم.

كانت كتب الكوميكس comics الاختراع العبقري من أجل نقل الأنباء إلى الناس غير المعتادين على القراءة – وهي نصوص موجزة ومبسطة، يزود كل مقطع فيها برسم(١). بعد أن صارت كتب الكوميكس الجزء المهم من الثقافة الجماهيرية في الولايات المتحدة ظلت في الوقت نفسه حتى ظهور التلفزيون أداة هائلة في يد الإيديولوجية. يمكن القول إن تاريخ الإيديولوجية الأمريكية المعاصرة كله متشابك بعرى لا تنفصم مع تاريخ كتب الكوميكس. كتب عالم الثقافة أومبيرتو إيكو(٢) الذي درس ظاهرة الكوميكس أنها «ولدت

---

(١) كانت في البداية نصوصاً هزلية مصحوبة بالرسوم، ثم انتشر هذا الشكل الناجح إلى الأنواع الأخرى من الأخبار بما فيها التربوية الخالصة – أما الاسم فظل كما هو.

(٢) **أومبيرتو إيكو** (١٩٣٢) عالم وكاتب إيطالي. ألف العديد من الكتب عن تاريخ الثقافة في القرون الوسطى ومسائل علم منظومات الرموز. (**المترجم**).

ظاهرة فريدة – هي الثقافة الجماهيرية، التي تدرك فيها البروليتاريا الأنموذجات الثقافية البرجوازية وهي على ثقة تامة بأنها المعبر الذاتي عنها والمستقل».

يصعب علينا في روسيا، البلد ذي ثقافة القراءة التقليدية، أن نتخيل أي دور لعبته كتب الكوميكس في تشكيل الوعي الجماهيري لدى الأمة الأمريكية. لقد «ساقت» الأسرةَ الأمريكيةَ المتوسطة من جيل إلى جيل، مكونة «جملة إحداثيات» ومعايير إيديولوجية مستقرة. وردت في أحد الكتب عن تاريخ الكوميكس الصادر عام ١٩٧٧ معطيات عن السلاسل الشهيرة التي بقيت تصدر إلى ذلك الوقت مدة ٨٠ عاماً بلا انقطاع! ومنذ وقت قريب أتمت سلسلة «سوبرمان» المعروفة لدينا ٥٩ سنة من الصدور المستمر. كتب باحث فرنسي في الكوميكس عن شخصياتها قائلاً: «يمضي الأمريكي حياته كلها بصُحبة الأبطال أنفسهم، ويمكنه أن يبني مخططاته في الحياة انطلاقاً من حياتهم. هؤلاء الأبطال متشابكون مع ذكرياته منذ طفولته المبكرة، فهم أقدم أصدقائه. وإذ يعبر معهم الحروب والأزمات وتغيير أماكن العمل والطلاقات فإن شخصيات الكوميكس تصير العناصر الأكثر استقراراً في وجوده».

سوف نتحدث عن المعنى الإيديولوجي للأنباء المدسوسة في الكوميكس لاحقاً. سنتحدث عن الحقائق أولاً. تدل الحادثة التالية على الحد الذي باتت معه كتب الكوميكس في نظر الأمريكيين «خبزهم الروحي» الضروري. قبيل الحرب العالمية الثانية أدى إضراب عمال الطباعة إلى انقطاع في وصول كتب الكوميكس إلى الأكشاك. كان امتعاض السكان عظيماً حتى أن عمدة نيويورك راح يقرأ في تلك الأيام بنفسه قصص الكوميكس في المذياع – كي يهدئ مدينته المحبوبة. أقام سكان إحدى مدن ولاية إيلينوي الصغيرة استفتاء عاماً وغيروا اسم مدينتهم إلى ميتروبوليس المدينة الخيالية التي مارس فيها «سوبرمان» نشاطه.

بينت دراسات ضخمة استخدمت فيها مناهج مستقلة أن عدد من كان يقرأ الكوميكس يومياً في الصحف في الولايات المتحدة منتصف الستينيات قد تراوح بين ٨٠ و١٠٠ مليون إنسان. وأن من بين قراء الصحف كان ٥٨% من الرجال و٥٧% من النساء يقرأون في الصحيفة الكوميكس فقط. حتى في أثناء الحرب العالمية الثانية كان القارئ المتوسط يقرأ أولاً الكوميكس في الصحيفة ومن ثم أنباء الحرب في المقام الثاني. يظهر الاهتمام الأكبر بالكوميكس لدى من تتراوح أعمارهم بين ٣٠ و٣٩ عاماً. بيد أن الأطفال جميعهم في سن الدراسة (٩٠%) يقرأون الكوميكس بانتظام. مناقشة الكوميكس المقروءة هي الموضوع الرئيسي للنقاشات بين التلاميذ ما يجعل هذا الجنس من الثقافة الآليةَ الأهم في جعل الأطفال اجتماعيين.

صارت الشخصيات المبتكرة، وحتى الأنماط الأصيلة «للأجناس الشبيهة بالإنسان» المبنية اصطناعياً مثل سوبرمان وباتمان، جزءاً لا يتجزأ من العالم الروحي للإنسان الأمريكي. حين أدخل آل كاب مؤلف السلسلة المشهورة «ليل أبنر» الشخصية «لينا – الضبعة»، «أقبح امرأة في العالم» فإنه طلب من القراء أن يرسلوا له مقترحاتهم مع وصف ملامح وجهها، وقد استلم من قرائه أكثر من مليون رسالة مع رسومهم لها[١].

استطاعت الكوميكس تحقيق مثل هذا «الاستحواذ» الفاعل وغير العادي على جمهور القراء بفضل المزج بين النص والأشكال البصرية تحديداً. وبعد أن حصلت على مثل هذه السلطة على القراء صارت تنفذ جملة من الوظائف الإيديولوجية. فصارت «المختبر» الرئيسي المكوِّن للغة الجديدة. راح مؤلفو الكوميكس والاختصاصيون في التحليل النفسي وعلم اللغة يصممون الكلمات

---

(١) طبعت في الولايات المتحدة في نهاية السبعينات كوميكس «ليل آبنر» في أكثر من ١٠٠٠ صحيفة وقرأها ٨٠ مليون قارئ يومياً. وقد رشح جون ستينبك آل كاب لنيل جائزة نوبل في الأدب.

الجديدة ويغرسونها في الوعي، فتدخل على الفور إلى الوعي الاعتيادي ولغة الثقافة الجماهيرية ومن ثم اللغة الرسمية.

لنأخذ مثالاً آخر وهو استعمال الأشكال البصرية مع نفوذ العلم. يدور الحديث عن الخرائط الجغرافية، التي تؤثر في الإنسان تأثيراً إيديولوجياً هائلاً. فمنذ بداية القرن (الأدق، منذ ظهور الجيوسياسة – التعاليم المؤدلجة إلى أقصى حد عن العلاقات المساحية بين الدول) صارت الخرائط تستخدم بتواتر من أجل التلاعب بالوعي الاجتماعي.

أوجد الإنسان في أثناء تطور الحضارة لغتين متساويتين في الحقوق من حيث المبدأ من أجل تسجيل المعلومة وحفظها ونقلها – لغة الرموز (العدد والحرف) والأيقونات (الشكل البصري واللوحة). يشغل اختراع الخارطة على طريق توحيد هاتين اللغتين مكانة خاصة تماماً – إنها حقبة مهمة في تطور الثقافة.

الخارطة، بصفتها وسيلة «لتدوير» المعلومة غير المتجانسة وتوحيدها، لا تتمتع ببساطة بفاعلية هائلة تقترب من الصوفية وحسب. إن لها صفة لم تفسر بعد تماماً – فهي «تدخل في حوار» مع الإنسان. الخارطة هي أداة إبداع مثلها كمثل لوحة الفنان الموهوب الذي «يكملها» المشاهد بتفكيره ويضيف إليها معرفته وإحساسه، فيصبح مشاركاً الفنان في تأليفها. تعبئ الخارطة طبقات المعرفة غير الواضحة لدى الإنسان الذي يتعامل معها (والمعرفة غير الواضحة وغير المتكونة يفوق مخزونها المعرفة المدركة والمعبر عنها بالكلمات والأرقام). وهي تعبئ في الوقت نفسه اللاوعي الذي تعشش فيه الأحكام غير العقلانية والآراء المسبقة – أي يلزم فقط أن يُدفع الإنسان بمهارة نحو الطريق المناسب لعمل الفكر والمشاعر. تكشف الخارطة مثل المرآة السحرية القاتمة والمتصدعة ملامح أجَدَّ فأجدّ للصورة بمقدار ما يمعن الإنسان النظر فيها. وفي أثناء ذلك تكون فرص تكوين تلك الصورة التي يحتاج

الإيديولوجيون إليها في مخيلة الإنسان هائلة جداً. فالخارطة ليست انعكاساً للواقع المرئي كلقطة تصوير جوي مثلاً. إنها تعبير بصري عن تصور للواقع موضوع بما يتطابق مع هذه النظرية أو تلك، أو هذه الإيديولوجية أو تلك.

يتم إدراك الخارطة في الوقت نفسه بصفتها منتجاً من منتجات العلم القديم الوقور والمحترم، ويؤثر في وعي الإنسان بكل ما تمتلكه المعرفة العلمية من نفوذ. إن هذا النفوذ في نظر الإنسان المتخرج من منظومة التعليم المعاصر الأوربية لا يقبل الشك بالقدر ذاته الذي لا تقبل فيه الشك النصوص المقدسة في نظر المتعصب دينياً.

أول من لجأ إلى استخدام الخرائط الجغرافية على نطاق ضخم من أجل معالجة السكان إيديولوجياً كان الفاشيون الألمان. لقد حكموا سريعاً بأن الخارطة كلما كانت منفذة على نحو أفضل وأكثر «علميةً» كان التأثير في الوعي أكبر في الاتجاه المطلوب. ولم يبخلوا بالنقود بحيث صارت الخرائط المزورة التي بررت مخططات النازيين الجيوسياسية تحفاً من تحف نشر الرسوم الخرائطية. ملأت هذه الخرائط الكتب المدرسية والمجلات والكتب. وصارت دراستها اليوم فصلاً ممتعاً من فصول تاريخ الجغرافيا (وتاريخ الإيديولوجية).

صار اختلاق الخرائط الجغرافية في الأعوام الأخيرة (خصوصاً في القطاع التاريخي) الوسيلة المفضلة من أجل إشعال الذهان القومي عند التحضير للنزاعات الإثنية. إن هذا مجال «ساخن» من مجالات التلاعب بالوعي الاجتماعي. الخريطة البهية الجميلة المشغولة «علمياً» التي توضح التوزع السابق للشعب الذي فقد أراضيه القديمة... الخ تؤثر تأثيراً مضموناً في المشاعر القومية المؤججة. ويكون في أثناء ذلك الإنسان الذي ينظر إلى الخارطة ضعيفاً تماماً أمام ذلك النص الذي يرفقه الإيديولوجيون بها. إنها تفتنه على الرغم من أنه، عادة، لا يحاول التدقيق فيها.

كنا، نحن أنفسنا، منذ وقت قريب شهوداً على الإيديولوجيين الذين استطاعوا في أثناء البيريسترويكا، وهم يليحون بخارطة منطقة البلطيق الممهورة بتوقيع مولوتوف(١) غير الواضح، أن يشلوا أي مقدرة على التحليل النقدي ليس فقط لدى نواب مجلس السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي، بل لدى غالبية الناس الطبيعيين ذوي التفكير السليم. حاوِلوا اليوم أن تسألوا: أي سر مرعب رأيتم هناك؟ لماذا ساوركم الشك لدى مرأى قصاصة الورق التافهة هذه في شرعية وجود الاتحاد السوفييتي نفسها، وفي نتائج الحرب العالمية الثانية؟ لن يتذكر أحد. ولم يكن ثمة شيء في تلك الخارطة. ببساطة، لقد عرف متلاعبونا جيداً تأثير مرأى الخارطة ذاته في الوعي. وبما أن الرقابة الشمولية على وسائل الإعلام كانت في يدهم، ولم تكن الدعوات إلى المعنى السليم تستطيع الوصول إلى الجماهير، فإن النجاح كان مضموناً.

لعبت هذه الممارسة الفاشية المبتكرة دوراً كبيراً جداً عموماً في إقحام الأشكال البصرية في التلاعب بالوعي. وبعد أن تجاوزت الفاشية عقلانية الزمن الجديد «عادت» إلى الفن القديم بتوحيد الناس بالنشوة من خلال فعل سحري هائل – لكن مع جبروت التكنولوجيا المعاصرة كله. نشأت عند توحيد الكلمات مع الأشكال البصرية لغة تَحوَّل من خلالها الشعب الكبير والعاقل مؤقتاً إلى حشد هائل من الحالمين كما في القرون الوسطى السابقة.

يتذكر أ. شبير مناصر هتلر كيف استخدم الأشكال البصرية في تصميم ديكور مؤتمر الحزب النازي عام ١٩٣٤: «فصَّلت فكرتي أمام لجنة تنظيم المؤتمر. افترضت وضع آلاف الرايات لجميع المنظمات المحلية في ألمانيا

---

(١) **فياتشيسلاف ميخائيلوفيتش مولوتوف** (لقبه الحقيقي سكريابين) (١٨٩٠-١٩٨٦) رجل دولة وسياسة سوفييتي. انضم إلى البلاشفة منذ عام ١٩٠٦. عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي بين عامي ١٩٢٦-١٩٥٧. كان من المقربين لستالين، وناهض النهج السياسي لخروشوف. عمل في السلك الدبلوماسي بين عامي ١٩٥٧- ١٩٦٢. **(المترجم)**.

خلف الأعمدة العالية التي تحد الميدان، لكي تتدفق عند إصدار الأمر بعشرة أرتال عبر الممرات العشرة بين صفوف الأمناء العامين القاعديين؛ وفي أثناء ذلك يسلط الضوء الكاشف على الرايات والنسور البراقة على الصواري بحيث نحصل بفضل ذلك على تأثير قوي. لكن حتى هذا برأيي لم يكن كافياً؛ قدر لي ذات مرة بالمصادفة أن أرى مصابيحنا الجديدة الكاشفة للطائرات، التي كان شعاعها يرتفع إلى عدة كيلومترات، فسألت هتلر ١٣٠ مصباحاً منها. لقد فاق التأثير مدى مخيلتي. ١٣٠ عموداً ضوئياً مرسوماً يبعد أحدها عن الآخر مسافة اثني عشر متراً فقط حول الميدان كله، كانت مرئية على ارتفاع تراوح بين ستة كيلومترات إلى ثمانية وانسابت هناك في الأعلى على شكل ناطحة سحاب ساطعة ما أظهر انطباعاً بوجود صالة عملاقة بدت فيها الأشعة المختلفة وكأنها أعمدة هائلة على امتداد الجدران الخارجية العالية إلى ما لا نهاية. أحياناً، كانت تسبح من خلال هذا التاج الضوئي سحابة مضفية على هذا المنظر الخيالي عنصر سراب منعكس بطريقة سريالية».

لقد رأى الألمان فعلاً «ظواهر» لم يستفيقوا منها إلا في نهاية الحرب. شروحاتهم هذه (بما فيها في محكمة نيورنبرغ) عدت نفاقاً، لكن حين تقرأها مع تعليقات علماء الثقافة تبدأ تصدقها. لقد ظل، مثلاً، غير مفهوم دائماً ماذا كان بمقدور الألمان أن يأملوا من مغامرة هتلر الجنونية. لكنهم لم يأملوا شيئاً، ولم يدر الحديث عن أي حسبة، لقد ظهرت فيهم الإرادة الجماعية التي لم يكن فيها لمثل هذا السؤال وجود. وجد الألمان أنفسهم في كون اصطناعي مبني باللغة، حيث، كما كتب غوبلز: «ليس لأي شيء معنى – لا للخير ولا للشر، لا للزمان ولا للمكان، وما يسميه الناس الآخرون نجاحاً، ما عاد يمكن أن يكون معياراً».

استخدم الفاشيون بفاعلية المنظر والسينما. لقد وضعوا على نحو موجه مسرحيات ضخمة فقد فيها الواقع طابعه الموضوعي، وصار أداة وديكوراً فقط. مخرج مثل هذه المسرحيات كان المعماري أ. شابير مؤلف كتاب

«نظرية تأثير الأنقاض» (أحياناً يترجمونها «نظرية قيمة الأنقاض»). فانطلاقاً من هذه النظرية تم قبل الحرب تهديم مركز برلين ومن ثم أعيد بناؤه بحيث يتشكل بعد ذلك من هذه الأبنية منظر الأنقاض تحديداً. لقد شكل منظر الأنقاض الجزء المهم من الأفلام الوثائقية عن الجبهة الروسية، صارت الأنقاض لغة الفاشية ذات التأثير الهائل في النفسية.(١)

عام ١٩٣٤ أمر الفوهرر بتصوير فيلم عن مؤتمر حزب النازيين. خصصت له أموال لا يمكن تصورها. وتم تحضير المؤتمر مع المليون (!) مشارك فيه لتصوير هذا الفيلم الهائل، كان الهدف هو الفيلم تحديداً: «تلخص جوهر هذا المشروع الهائل في بناء فضاء اصطناعي يبدو حقيقياً تماماً. وكانت النتيجة هي تصوير أول فيلم وثائقي حقيقي يصف حدثاً صورياً تماماً». – هذا ما كتبه باحث معاصر في هذا المشروع.

يقرر هتلر عام ١٩٤٣ بهدف رفع الروح المعنوية بعد الهزيمة في ستالينغراد تصوير فيلم خارق في خليج نارويت عن المعركة الحقيقية مع الإنكليز – أي في موقع الحدث مباشرة. راحوا يصورون في الجبهة السفن الحربية ومئات الطائرات مع آلاف المظليين. حين عرف الإنكليز بالسيناريو قرروا «المشاركة» في الفيلم وتكرار المعركة التي خسروها قبل ثلاثة أعوام. كانت حقاً «لقطات طبيعية» (حتى الجنرال ديتل الذي قاد المعركة الحقيقية كان عليه أن يمثل في الفيلم دوره الحقيقي). عمليات حربية حقيقية منفذة كمسرحية. هاكم كيف قدر إيديولوجيو الفاشية عالياً قيمة الأشكال البصرية.

---

(١) مدهش كم بقي هذا مغروساً طويلاً في نفوس السياسيين الألمان: فبعد الوحدة مع جمهورية ألمانيا الديمقراطية أمروا بهدم الأبنية الضخمة التي كانت قد بنيت للتو في مركز برلين – مسرحية جديدة لكن للديمقراطيين. حين ننظر بأي ذوق بث تلفزيون ن ت ف اللقطات «الوثائقية الفائقة» لأنقاض غروزني فإننا نبدأ نفكر بأن فريق عمل تلفزيوننا «المستقل» قد درس بعناية أعمال شابير.

لكن الأمر لم ينجح حينئذ – بدأ التذمر ينتشر بين الجنود الذين لم يرغبوا في الموت من أجل فيلم. فأمر الفوهرر ببدء تصوير فيلم عن المعركة مع نابليون. سحبوا من الجبهة في ظروف الحرب الشاملة ومع النقص الشديد في الموارد مائتي ألف جندي من أجل التصوير وستة آلاف جواد، ونقلوا عربات كاملة من الملح كي يحاكوا الثلج، وبنيت مدينة كاملة قرب برلين كان ينبغي أن تدمر «بمدافع نابليون» – في الوقت الذي كانت فيه برلين نفسها تحترق من القصف. بنيت سلسلة من الأقنية كي يتم تصوير إغراق كولبيرغ.

تمت دراسة دروس الفاشيين بعناية. واستخدِم توحيد الكلمة مع الشكل البصري كسلاح للدعاية الغربية. تبين سلسلة كاملة من الدراسات الممتعة كيف حضرت هوليود أمريكا لانتخاب ريغان، «فبنت» الريغانية بصفتها انزياحاً هائلاً نحو اليمين في عقول الطبقة الوسطى في الغرب. وثمة الكثير من العبر في عمل مؤرخ السينما الأمريكي د. كيلنير «السينما والإيديولوجية: هوليود في السبعينات». يمكننا التعبير عن الاحترام للاختصاصيين: لقد عملوا بإصرار وشجاعة وإبداع. بحث المصورون عن الأثر الإيديولوجي لزاوية اللقطة، وبحث اختصاصيو الإضاءة عن أثرهم الخاص.

اليوم، صارت وسيلة الإخضاع الرئيسية هي التلفزيون مع جنس فني خاص هو الدعاية، التي يتلخص معناها الرئيسي في التلاعب بالوعي تحديداً. لكن التلفزيون يستحق فصلاً خاصاً.

٣- منظومات رمزية أخرى

ليس في مقدورنا أن نناقش بالتفصيل أنواع منظومات الرموز كلها التي يمكن أن تصير هدفاً لتأثيرات التلاعب بالوعي. سنشير باختصار فقط إلى عدد منها. تبدو أهمية إحداها جلية. إنها لغة ***الأرقام***. ثمة في العدد، كما في الكلمة، الكثير من المعاني. يخيل أحياناً أن هذه المعاني باردة وعقلانية وواقعية على نحو استثنائي. الأمر ليس كذلك. حملت الأرقام منذ البدء

محتوى صوفياً ودينياً عميقاً. لكننا لن نتعمق في «عدد الوحش» وعموماً في الكابالية[١]. وإن كانت تستخدم اليوم في التلاعب بالوعي الوسواسي والديني لتحقيق أبسط الأهداف السياسية[٢].

نشير إلى أن المعنى الصوفي للرقم والعدد ليس متجذراً فقط في الثقافتين اليهودية والمسيحية، بل إنه ظاهرة عامة. الراعي وإن كان في تركمانيا أو في التوندرا، لن يقول أبداً كم لديه من الخراف أو الغزلان على الرغم من أنه يعرف «وجوهها» كلها. تصاب الوحوش الصغيرة بالرعب في الفيلم الكارتوني المأخوذ من الحكاية المحدَّثة حين راح الأرنب الذي تعلم الأرقام يحصيها. تتفرق هاربة وهي تزعق «ماما، لقد حسبني!»

كان الرقم كما الكلمة مرتبطاً منذ البدء ***بالشيء***. عد أتباع طائفة فيثاغورث الدينية أن الرقم يعبر عن جوهر الشيء وطبيعته، لذلك لا يمكن للرقم أن يكذب، وفي هذا تكمن أفضليته على الكلمة. حتى أن الفيثاغورثيين عدوا أن الرقم هو ذلك القالب (الأنموذج PARADIGM) الذي تبنى به الأشياء. الأشياء «تقلد الأرقام». لا يمكن أن يكون العالم مفهوماً إلا من خلال الرقم.

---

(١) الكابالا (قبالة) هي تعاليم صوفية قروسطية في اليهودية تدعو إلى البحث عن أساس الأشياء كلها في الأرقام وحروف الأبجدية اليهودية، وعن العقاقير في التمائم والصيغ. (***المترجم***).

(٢) يكفي أن نذكر بالكلمة الملحة في صحيفة «نيزافيسيمايا» (المستقلة) للحاخام الرئيسي في موسكو راف بنحاس غولدشميت: «تدلنا الهيماترية، وهي أحد أقسام الكابالا حيث تُقدم التفسيرات للظواهر على أساس القيم الرقمية للكلمات والمفاهيم، على أن مجموعي القيم الرقمية لكلمة «ميتساريم» (مصر) وكلمة «الاتحاد السوفييتي» متساويان. كذلك الأحداث الآن متشابهة في الكثير من النواحي». من قرأ كتاب المآل ويعرف أي كوارث حلت في أثناء ذلك قي مصر فسيفهم معنى إرشادات الحاخام هذه لليهود المؤمنين. والحجة كلها في أرقام الكابالا.

طرح المسألةَ بصلابة فيلسوفُ القرن الخامس عشر ولاهوتيه نيكولاي كوزانسكي، الذي قدم الكثير في مرحلة التحضير للتنوير: «هناك، حيث تتعرض لغة الرياضيات إلى الفشل لا تستطيع الروح البشرية أن تفهم شيئاً أو تعرف شيئاً». تفسَّر قوة «لغة الأرقام» بأنها حيادية إلى أقصى حد، وأنها لا تستطيع الكذب (خصوصاً إذا كان الإنسان مختبئاً عموماً خلف الحاسوب). إن هذا ينزع من أولئك الذين يعالجون الأرقام الكثير من القيود ويمنحهم حرية لا يمكن أن تقاس «بحرية الكلمة». هذا ما قاله تحديداً كانتور[١] أحد علماء الرياضيات المعاصرين العظماء: «يتلخص جوهر الرياضيات في حريتها».

يشير ماكس ويبير[٢] خصوصاً إلى ذلك الدور الذي لعبته «روح العد» (*calculating spirit*) عند ظهور الرأسمالية: «لقد حولت البوريتانية[٣] «هذه "الحسابية"، التي تعد في الحقيقة مكوناً مهماً من مكونات الرأسمالية، من وسيلة لتدبير الأمور الاقتصادية إلى مبدأ للسلوك الحياتي كله». عززت الثورة العلمية، التي جعلت المذهب الميكانيكي أساس النظرة إلى العالم، من

---

(١) **غيورغ كانتور** (١٨٤٥-١٩١٨) عالم رياضيات ألماني، أرسى أسس نظرية الجمل التي كان لها بالغ الأثر في تطور علم الرياضيات (**المترجم**).

(٢) **ماكس ويبر** (١٨٦٤ - ١٩٢٠) عالم اجتماع ومؤرخ واقتصادي ومحام ألماني. استند منهجه المتأثر بالغنوصية الكانطية الجديدة إلى فكرة رسم حدود المعرفة الخبيرة والقيم، وإلى مقولة "المفاهيم" التي يفسَّر بها الفعل الاجتماعي من خلال تأويل الدوافع الذاتية، وإلى نظرية الأنماط المثالية - الهياكل التجريدية والعشوائية للعملية التاريخية. عارض الماركسية وأرجع العامل الحاسم في نشوء الرأسمالية الأوربية الغربية إلى البروتستانتية. مؤلفاته الأساسية: "التاريخ الزراعي للعالم القديم"، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، "الاقتصاد والمجتمع" (**المترجم**).

(٣) **البوريتانية** حركة دينية وسياسية قادتها البرجوازية الإنكليزية والاسكتلندية ضد المذهب التجريدي والكنيسة الأنكليكانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. أسس البوريتانيون جماعات كنسية خاصة بهم اتبعت حياة الزهد المسالمة، وعادت الترف ولم تعترف بالصوم والقديسين، وطالبت بفصل الكنيسة عن الدولة (**المترجم**).

«حسابية» الغرب هذه. فهو كما يقول الفلاسفة يتسم منذ زمان ديكارت[١] «بالولع بالمكان» الذي يتجلى في الميل إلى «منهج التفكير الرياضي»[٢].

لكن حرية أولئك الذين «يمتلكون الرقم» تعني تبعية أولئك الذين «يستهلكونه» العميقة وإن كانت خفية. قوة إقناع الرقم هائلة. لقد استشرف ذلك ليبينيتس[٣]: «في تلك اللحظة التي ستتحول اللغة كلها فيها إلى صيغ، ستنتهي الخلافات كلها؛ وسيجلس المتخاصمون وراء منضدة واحدهم قبالة الآخر ليقولوا: فلنحسب!». تعني هذه الطوباوية استعاضةً تامة عن النوعيات (القيم) ببدائلها الكمية (الأثمان). وهذا بدوره يلغي مشكلة الاختيار ويُحل محلها مسألة الحساب. وهذا هو معنى سلطة التكنوقراط الشمولية.

قوة الإيحاء السحرية التي يتمتع بها الرقم تجعل من الصعب تقريباً، إذا ما أدرك الإنسان تأكيداً كمياً سخيفاً، إزاحته لا بالمنطق وحسب بل حتى بالحجج الكمية أيضاً. يمتلك الرقم صفة التشبث بالدماغ تشبثاً لا رجعة عنه.

---

(١) **رينيه ديكارت** (١٥٩٦-١٦٥٠) فيلسوف وعالم رياضيات وفيزياء وفسيولوجي فرنسي. عاش في هولندا منذ عام ١٦٢٩. وضع أسس الهندسة التحليلية وقدم مفهوم انتقال الكمية. أدخل العديد من الرموز الجبرية. واكتشف قانون مصونية الحركة. مؤسس العقلانية ونصير التعاليم عن الأفكار المتعادية. أهم أعماله: «الهندسة» (١٦٣٧)، «مناقشات حول المنهج» (١٦٣٧)، «بداية الفلسفة» (١٦٤٤). **(المترجم)**.

(٢) مقابل ذلك يتحدثون عن «الولع بالزمان» الذي يتسم به منهج التفكير «النحوي» - فقد ظهرت في اللغة الطبيعية أشكال زمنية عبَّر فيها الإنسان عن الإحساس بالزمن. حتى أنهم يقولون أحياناً (خصوصاً في التطبيق في الاقتصاد) «ثمة علم "الرقم" وعلم "الكلمة"».

(٣) **غوتفريد ليبينيتس** (١٦٤٦-١٧١٦) فيلسوف ورياضي وفيزيائي ولغوي ألماني. أسس عام ١٧٠٠ جمعية براندبورغ العلمية التي تحولت فيما بعد إلى أكاديمية برلين للعلوم. وضع بطلب من القيصر الروسي بطرس الأول مشاريع تطوير التعليم وإدارة الدولة في روسيا. **(المترجم)**.

تنمو قوة الرقم التلاعبية نمواً مضاعفاً حين تكون الأرقام مرتبطة بصيغ ومعادلات رياضية - يصير المعنى السليم عاجزاً أمامها. ظهر هنا فن التلاعب الكبير الكامل (خصوصاً في مجال الاقتصاد، الذي ساد فيه في وقت من الأوقات «علم» كامل هو القياس الاقتصادي؛ انهارت سمعته في أزمة عام ١٩٧٣ حين تبين أن حساباته جميعها كانت خاطئة). كتب مكتشف البيتون المجهد ومؤسس منهج حساب التصميم المعاصر إ. فريسنه في مذكراته، أنه دائماً ما كان يدهش لماذا كان المهندسون والمتعهدون يطلبون منه ومن موظفيه حساب متانة الكتل والأعمدة... الخ، عوضاً عن أن يشاهدوا اختبارات المتانة الطبيعية البسيطة- الأضمن والأسهل بما لا يقاس. ويكتب: «فهمت في نهاية الأمر أنني كنت في غالبية الأحوال أتعامل لا مع حمقى بسطاء بل مع منافقين ومتلاعبين يعرفون أن الاعتراف بنتائج الاختبارات التي تجري بحضورهم يلقي على كواهلهم مسؤولية أكبر بكثير من الاعتراف بنتائج الحساب. كانوا يختبئون وراء درع المعادلات التي كلما كانت أعقد كانت أضمن لهم». فلماذا إذن كان التغطي بالرقم والمعادلة يحمي من المسؤولية على هذا النحو الفاعل؟ لأن الرأي العام هو هكذا. لقد عرف المهندسون والمتعهدون في الممارسة قوة الأرقام السحرية.

المنظومة الرمزية المهمة الأخرى هي ***المجال السمعي***، وعالم أشكال الثقافة السمعية. لقد شغلت دائماً الأصوات المؤثرة لا في العقل، بل في المشاعر بالأساس، مكاناً مهماً في برمجة السلوك. نشأت الكلمة بقوتها السحرية من الأصوات المبهمة التي كان يصدرها قائد القطيع. كل من تعامل مع الحيوانات يعرف كم التباين غني وكم تؤثر بقوة في المستمع أصوات يخيل أنها متجانسة - مواء القطط، نباح الكلاب، صهيل الخيول. أما ما يخص الكلمة فإن إدراكها مرتبط إلى درجة كبيرة بالصوت الذي تُنطق به. أولئك الذين خدموا في الجيش يعرفون مثلاً ما معنى «الصوت الآمر». أشير إلى أن المؤسسين البارزين للفونولوجيا (علم الأصوات الكلامية)، أي قسم

اللغويات الذي يدرس العلاقة بين المكونات المعنوية (الدلالية) والصوتية للغة، هما ر. و. جاكوبسون ون.س. تروبيتسكي[1] روسيًا الأصل (يعود للأخير العمل التأسيسي «أسس الفونولوجيا»).

تحدثنا عن «الإرهاب الدلالي» - أي قتل الكلمات التي تتمتع بمعان كثيرة عميقة أو تبديل معناها وبناء لغات جديدة وأخرى مضادة. لكن المهم أيضاً هو لفظ الكلمات والجمل ونطقها بصوت مسموع. «اللغة هي ازدهار الأفواه». أكد قائل هذه الجملة هايديغر: «كي ينكشف سر الوجود بجلائه المخبأ كله على المستمع أن يهب نفسه بحرية لسلطان الشكل الذي يسمعه».

ذكرنا في الفصل الرابع دراسات المحللين النفسيين عن كيف يؤثر صوت السياسي في اللاوعي وكيف انعكس ذلك على تقبل المناظرات الإذاعية بين كينيدي ونيكسون. نستطيع اليوم أن نراقب البرنامج الواسع «المعلل علمياً» لإفساد الأسس اللفظية في اللغة الروسية. هاكم قضية تبدو بريئة وهي تغيير مذيعي الإذاعة والتلفزيون.

اعتاد الروس خلال ستين عاماً على نمط معين من «الصوت الإذاعي» كما يعتادون على شيء ما طبيعي. وقل من عرف في الواقع أن مدرسة إذاعية أصيلة خاصة قد تشكلت في الاتحاد السوفيتي كنوع خاص من الثقافة

---

(١) **رومان أوسيبوفيتش جاكوبسون** (١٨٩٦-١٩٨٢) لغوي وأديب روسي الأصل. هاجر من روسيا عام ١٩٢١، واستقر في الولايات المتحدة عام ١٩٤١. أحد مؤسسي الحلقات اللغوية البراغية والباريسية والنيويوركية وأحد مؤسسي البنيوية في المعارف اللغوية. تركزت مؤلفاته حول المعارف اللغوية ومشاكل القواعد اللغوية العامة.
نيكولاي سيرغييفيتش تروبيتسكي (١٨٩٠-١٩٣٨) لغوي روسي الأصل، هاجر من روسيا عام ١٩٢٠. أحد منظري حلقة براغ اللغوية. وضع أسس الفونولوجيا والمورفونولجيا، وأحد مؤسسي علم المنظومات الرمزية (السيميوتيك). درس لغات شعوب القوقاز وبعض اللغات الأفريقية (**المترجم**).

وحتى الفن في القرن العشرين. قبل قرابة العامين من البيريسترويكا كنت في المكسيك، انضم إليَّ عند العشاء، حين علم أنني روسي، رجل مسن هو بروفيسور من براغ واختصاصي في مجال نادر جداً - علم اللفظ الإذاعي. جاء إلى مكسيكو ليلقي سلسلة محاضرات ونزل في الفندق الذي كنت أنزل فيه. حدثني البروفيسور عن أشياء لم أكن حتى أتصورها. روى لي كيف يؤثر في تقبل النبأ جرسُ الصوت والإيقاع والوتيرة وجملة من عوامل القراءة الأخرى، وقال إن في الاتحاد السوفييتي إحدى أفضل المدارس في العالم، وأن في إذاعتنا المذيع نفسه يستطيع بامتلاكه بمهارة لعدد من «الأدوات الصوتية» أن يتلو على أكمل وجه نبأ في مجال الطب وفي موضوع زراعي - وهما يتطلبان ترتيباً مختلفاً. بدا له مدهشاً كيف تمكنا من تجسيد التقاليد القديمة للثقافة الروسية الموسيقية والشعرية في مجال جديد كالإذاعة.

فما الذي نسمعه اليوم؟ يستخدم المذيعون إذ يقلدون «صوت أمريكا» مقاما وإيقاعا غريبين عن اللغة الروسية. النبرات لا تتوافق إطلاقاً مع المحتوى، وغالباً ما تكون مهينة وحتى تجديفية. يبتلع المذيعون كلمات كاملة، وأما عن الأخطاء البسيطة مثل عدم مطابقة الحالات الإعرابية فلا لزوم للحديث. تُقرأ الأنباء بصوتٍ وكأن المذيع يفك الخطوط بصعوبة. هذا كله تعزيز «للإرهاب الدلالي» من جانب علم اللفظ الصوتي.

لن نتحدث عن تأثير الموسيقى في الوعي، فهو واضح - يكفي أن نتذكر تأثير الموسيقى العسكرية أو الجنائزية، وأغنية «انهضي أيتها البلاد الهائلة»(١) أو عرض فرقة الروك أمام حشد المولعين. لقد كتب بحر من الكتب عن دور الموسيقى في برمجة السلوك (عادة بالترافق مع قنوات التأثير الأخرى كالكلمة ومرونة الحركات والأشكال البصرية). المسألة هنا واضحة.

(١) مطلع النشيد الأممي، النشيد الوطني للاتحاد السوفييتي (**المترجم**).

أضيفُ فقط أن جزء المجال السمعي الذي لا يقل أهمية عن الصوت هو *الصمت*. ما يؤثر في تفكير الإنسان ووعيه ولاوعيه هو تعاقب الصوت والصمت تحديداً – مع إيقاعه وتواتره. لقد عاد نيتشه غير مرة إلى الفكرة العميقة: «الأحداث العظيمة تحدث في فترات الصمت» («تأتي على براثن الحمام»). فإذا كان الحديث يدور عن ترابط الوجود والسياسة (وهنا تحديداً تكمن مسألة التلاعب بالوعي) فإن دور الصمت يزداد أكثر. حتى أن هايديغر، الذي تابع فكرة نيتشه عن أرستقراطية الأقوياء والمتنورين المدعوين لإدارة الجماهير، قد طرح مسألة تكوين *السيجيتيك* – أي تقنية الصمت. إن هذا تخاطب بوساطة الصمت «هادئ» ومتعمد على هذا النحو أو ذاك بين المطلعين.

وعلى العكس، لتجنب إمكان ولادة مجموعات خاصة من النخبة (الإنتلجنسيا) بين جمهور المدارين، يجب حرمان هذا الجمهور من الصمت تماماً. وهكذا برزت في الغرب المعاصر ظاهرة حصلت على اسم «*ديمقراطية الضجيج*». بنيت مثل هذه الصياغة الصوتية (والضجيجية) للفضاء المحيط بحيث لا يحظى الإنسان المتوسط عملياً بفواصل كافية من الصمت كي يركز ويكمل التفكير حتى النهاية بالمعنى المترابط. إن هذا شرط مهم من شروط الضعف أمام التلاعب بالوعي. النخبة، على العكس من ذلك، تقدر عالياً الهدوء ولديها الإمكانات الاقتصادية كي تنظم حياتها خارج «ديمقراطية الضجيج».

نؤكد على أمر أقل وضوحاً من الصمت وهو إشارات *الروائح*. إن قيمتها غالباً ما تسقط من الحسابات. يمكن أن نعد حقيقة عدم تقدير عالم الروائح من وجهة نظر التلاعب بالوعي والسلوك حق قدره أمراً مستغرباً. معلوم أن منظومة الرموز هذه تؤثر في السلوك أشد التأثير. يكفي أن نتذكر أي دور تلعبه العطور بصفتها رموزاً، وحاملة للأنباء في أدق العلاقات

الإنسانية. معلوم أيضاً أن مجازية العطر تستخدم في الدعاية استخداماً واسعاً جداً. تؤثر الكلمات عن الرائحة في مجال نفسي خاص هو المخيلة، وتحت تأثير الكلمات يشعر الإنسان وكأنه يشم هذه الرائحة أو تلك.

لغة السياسيين مليئة بمثل هذه الاستعارات حتى تصل إلى أدنى مستوى من الاصطلاحية العامية. تذكروا: «فاحت رائحة الشواء». وإحدى أقوى الاستعارات - «رائحة الدم». حين يطلقها السياسيون في الوعي الجماهيري فإنهم في أحيان كثيرة يقيمون فعلياً مسرحية دموية غير كبيرة مضحين بعدد من الحيوات كي يثيروا صدمة نفسية لدى المواطنين.

استخدم الغرب في الممارسة الروائح إلى أقصى درجة في تعزيز نواة المجتمع الثقافية واقترح على الناس من شتى المجموعات الاجتماعية والثقافات الفرعية كلها «مؤونة» غنية من الروائح. تم تطوير فروع صناعية ضخمة لعبت فيها الروائح دوراً مفصلياً - العطور والتجميل ومنتجات التبغ والمشروبات... الخ. لقد خطط المصممون حرفياً لروائح المطاعم والفنادق والمطارات وأحياء كاملة. ومن جاء إلى الغرب من الاتحاد السوفييتي كان أول ما يلحظه هو التباين في عالم الروائح خصوصاً.

ارتقى في الفترة الأخيرة فهم الروائح بصفتها رموزاً وإشارات إلى مستوى جديد بفضل دراسة سلوك الحيوانات. تعد الروائح عموماً لدى الحشرات «الاجتماعية» الوسيلة الرئيسية لتبادل المعلومات. تفرز الحشرات الفيرومونات - وهي تركيبات كيميائية ذات نشاط انتقائي دقيق. تميز رائحتها الكائنات الأخرى من النوع ذاته، التي ما إن تحصل على الإشارة في هيئة الرائحة حتى تستجيب لها على النحو الملائم. تنقل الفيرومونات المعلومة الضرورية عند التزاوج وبداية التثول، وتنقل إشارات الخطر والأوامر بالهجوم... الخ. بات الإنسان يستخدم الروائح بنشاط في عالم الحشرات من أجل التأثير في سلوكها. كثير من المختبرات وبغض النظر عن حجم الجهود

والنفقات، يستخلص الفيرومونات ويدرسها ويركبها من أجل خداع الحشرات بإعطائها إشارات كاذبة(١).

مفهوم أن التلاعب بسلوك الحشرات الضارة يرفع من إمكانات الإنسان النوعية. إذ ما عاد الأمر في العديد من الأحوال يتطلب معالجة مساحات شاسعة بالمبيدات الحشرية. يكفي أن يوضع السم وحسب في مصائد مع جاذب من الفيرومون. الملايين من هذه المصائد موزعة في الغابات الاسكندينافية مثلاً، حيث تزحف نحوها الخنافس آكلة القشرة وتموت فيها.

يا للأسف، لقد فقد الإنسان المتربي في المدرسة الأوربية العقلانية المعارف التقليدية عن دور الروائح في سلوك الإنسان. هنا يقع الجزء الخطر المتوقع وغير المغطى من جبهة دفاعنا ضد التلاعب بالوعي. أذكر حادثة بليغة.

أقيمت عام ١٩٩٢ قبل مؤتمر «ريو دو جانيرو- ٩٢» سلسلة من الندوات العلمية التحضيرية. دعوني إلى حضور إحداها في مدينة بيلين عاصمة الأمازون. قادونا يوم الأحد إلى جولة سياحية، إلى سوق بيلين الأضخم في أمريكا. كان هنود الأمازون يتوافدون إلى هذه السوق عبر الأنهار والقنوات على القوارب ذات المحركات والصنادل والزوارق. رافقنا عالم إثنوغرافي من الجامعة المحلية، ابن ألمانيٍّ وإنكليزية استوطنا البرازيل. كانت جماعتنا العلمية مميزة جداً في السوق (جميعنا كنا كما لو بالاتفاق في سراويل قصيرة ونظارات سود)، ابتعدنا عنها أنا والصيني إلى الأمام (الاثنان «غير المتحضرين») كي لا تكون الحال مزعجة على هذا النحو. تردد فجأة خلفنا في حشد دكاترة العلوم انفجار من القهقهة ما جعلنا نعود أدراجنا على الرغم منا. فما الذي حصل؟

---

(١) احتاجوا لتحديد بنية أربع فيرومونات فقط من فيرومونات طويل الأنف القطني إلى عدة ملايين من هذا النوع من الحشرات. واستمرت دراسة المحرض الجنسي للصرصور الأمريكي ثلاثين عاماً.

كانت هناك صفوف حيث جلس حكماء من قبائل مختلفة ومعهم رزم أعشاب وأصداف وأسنان ما. وقف زملاؤنا أمام عجوز فرشت أمامها زجاجات وعلباً وعلقت ضفائر. راحت العجوز بناء على طلب دليلنا السياحي تتناول هذه القنينة أو تلك وتفتحها، أما هو فراح يشرح للناس تركيب هذا العقار أو ذاك والهدف منه. وكان شرحه كل مرة يثير قهقهة خرقاء – هاكم أي خرافات بقيت حتى القرن العشرين. كانت العجوز خبيرة بالعقاقير المؤثرة في السلوك الغرامي. فتحت إحدى الزجاجات وقدمتها، كان فيها منقوع كحولي لأعشاب ما، وكانت بينها قطعة سمك غريبة. قدم لنا الدليل السياحي العقار لنشمه، ثم شرح أن هذا عطر تبرد رائحته الحماسة الجنسية والاهتمام بالشريكة. شم الجميع الرائحة وانفجروا مقهقهين مرة أخرى. نظرت العجوز بلامبالاة تامة وبوجه حجري (الصيني أيضاً).

لكن هؤلاء كانوا جميعهم أناساً متعلمين ومثقفين من أوربا والولايات المتحدة. لقد بدوا وكأنهم نسوا أبسط الأمور. عقدت أواصر الحديث مع أحدهم، فقلت له: أتعلم أن الأقنان في أوربا في العصور الوسطى كانوا يسيرون في الغابات وهم يقودون خنزيراً بسلسلة، وكانوا يبحثون عن الكمأة من أجل أسيادهم؟ كان يعرف ذلك، لأنه ثمة رسم نافر مشهور يصور هذا المشهد. فلماذا إذن يشتم الخنزير رائحة الكمأة من خلال طبقة من التراب سماكتها نصف متر؟ ولماذا كانت الكمأة على العشاء طبقاً فاخراً؟ هذا ما لم يكن يعرفه. تلخص الأمر في أن نزوة الطبيعة جعلت الكمأة تفرز المادة نفسها التي تفرزها غدد الخنزير الجلدية لحظة نشوته الجنسية. هذه الرائحة التي لا يميزها الإنسان تقريباً تفقد الخنزير عقله.

استخلصوا منذ وقت قريب كمية ضئيلة من هذه المادة ونظفوها ودرسوها. فتبين أن غدد ما تحت الإبط لدى الرجل تفرزها في الوضع نفسه. لذلك حتى الروائح غير الملتقطة تؤثر في سلوك الإنسان – حتى لو كان في

ثلة علماء من هارفارد، حتى لو كان في قلعة الإقطاعي الذي يقدم لزوجته الكمأة. فلم السخرية إذن من الحكماء الهنود؟ لقد تراكمت لديهم ثقافة غير معروفة لنا تقريباً عن الارتكاسات اللاشرطية العامة لدى الجنس البشري. رائحة البخور تثير الأوروبي وتكوِّن لديه مزاجاً روحياً خاصاً، هذه الرائحة لا تقول شيئاً للبوذي، لكن تهيمن عليه رائحة التبوغ الأسيوية الغريبة عنا.

قال لي الصيني بنبرةٍ مصالحةٍ عن الدكاترة من هارفرد بعد هذه الحادثة: إنهم أطفال كبار، لا ينبغي طلب الكثير جداً منهم. لكننا بسبب من سذاجة الأطفال هذه لا نلحظ إطلاقاً مجالاً كاملاً من الرموز التي يمكن أن تصير هدفاً للتلاعب. ربما تجري الدراسات والأبحاث منذ زمن خلف ستار هذه السذاجة. يجب أن نراقب ذلك.

الفصل السادس

التفكير: أنواعه وعتاده.

١- التفكير المنطقي

حين تحدثنا عن الكلمات والأرقام والرموز الأخرى التي يتبادل الناس من خلالها المعلومات وينظمون تفكيرهم، بدا الحديث وكأنه يدور عن ذرات «عتاد العقل». بيد أن الإنسان في أثناء ارتقائه البيولوجي والثقافي أنتج آليات لهذا «العتاد» ذات بنية معقدة. أحدها هو التفكير المنطقي والعقلاني.

كتب نيتشه: « يكمن التقدم الأعظم الذي أحرزه الناس في أنهم يتعلمون الاستنتاج الصحيح. وهذا ليس على الإطلاق شيئاً طبيعياً كما يفترض شوبنهاور[١] حين يقول: "الجميع قادرون على الاستنتاج، أما على المحاكمة فقلة هي القادرة". بل إنه لم يُكتسب إلا مؤخراً وما زال غير سائد إلى الآن».

فعلاً، فغالبية المتعلمين على الطريقة الأوروبية لا يمعنون الفكر في كم هو هش وحساس هذا المكتسب مؤخراً – أي المقدرة على التفكير منطقياً. يكمن الأمر في أن علم النفس قد نشأ بصفته علماً أوربياً خالصاً، وقد عكست مفاهيمه كلها منذ البداية حقيقة نفسية إنسان المجتمع الغربي المعاصر وعقله. أظهرت دراسة علماء الأنتروبولوجيا العميقة للثقافات غير الغربية بدءً من منتصف القرن العشرين اختلافاً هائلاً في أنماط التفكير.

(١) **أرتور شوبنهاور** (١٧٨٨-١٨٦٠) فيلسوف ألماني. ممثل مذهب الطوعية. انتشرت فلسفته المتشائمة في أوربا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يتمثل جوهر الحياة لدى شوبنهاور في الإرادة غير العاقلة والاندفاع الأعمى وغير الهادف نحو الحياة. **(المترجم)**.

عمم ل. ليفي- بريول خصائص ما سموه التفكير البدائي ما قبل المنطقي أو سلف المنطق (بعضهم سماه حتى منطقاً مَرَضياً) أكد ليفي - بريول ذاته أن مصطلح التفكير البدائي مجازي. يدور الحديث ببساطة عن بنيتين فكريتين مختلفتين موجودتين في المجتمع ذاته وحتى في الوعي الفردي نفسه. أي أن إنسان الثقافة الأوربية المعاصرة يستطيع في بعض الظروف أن «يغير الموجة» ويبدأ يفكر بسلف المنطق.

يكمن جوهر التفكير «البدائي» في أنه ينظم سلسلة الصلات السببية النتيجية ولا يطابق استنتاجاته مع تجربته. تحمل أسباب الظواهر عند مثل هذه الرؤية للعالم طابعاً صوفياً. يكتب ليفي- بريول عن هذا النوع من التفكير: «إنه ليس مضاداً للمنطق، وهو أيضاً ليس لا منطقياً. وإذ أسميه سلف منطق فإنني أرغب في أن أقول إنه لا يسعى قبل كل شيء إلى تجنب التناقضات مثل تفكيرنا. إنه لا يحمل على الإطلاق ميلاً إلى السقوط بلا أي أساس في التناقضات، لكنه لا يفكر أيضاً بتجنبها. إنه ينظر إليها أغلب الأحيان بلامبالاة. هذا ما يفسر أننا نجد هذا القدر من الصعوبة في تعقب سير هذا التفكير».

المهم لنا هنا هو أن التلاعب بالوعي، بصفته تكنولوجيا، المرتكز على التفكير سلفي المنطق غير ممكن (أما بصفته ارتجالاً في بعض الحالات المحددة فممكن). يتلخص الأمر في أن التفكير لا يمكن التنبؤ به من قبل التكنولوجي، إنه لا يستطيع أن يحدد «خوارزميته». عموماً، لم يكن ثمة حاجة خاصة إلى مثل هذا التلاعب، لأن تكنولوجيي الغرب كانوا ببساطة يدمرون حاملي مثل هذا المنطق أو يزربونهم في مستنقع.

أما التفكير المنطقي فهو، على العكس من ذلك، شفاف وبنيته مدروسة دراسة رائعة. هذا معناه أن بالإمكان التدخل فيه وتشويه البرنامج لحرمان الإنسان من المقدرة على القيام باستنتاجات صحيحة. يحصل المتلاعب على

الكثير جداً حين يُدخل الفوضى إلى السلسلة المنطقية: يشعر الإنسان بعجزه ويبدأ يبحث بنفسه عمن يقوده كما يقاد الأعمى. وإذا ما تمكن من تشويه البرنامج المنطقي بحيث يصل الإنسان «من تلقاء نفسه» إلى الاستنتاج اللازم، فإن ذلك يكون أفضل. يتم بمساعدة هذه الأساليب إلغاء المقدرة لدى القسم الأكبر من الناس على التحليل البنيوي للأخبار والظواهر - أي يحل ***التقويم*** الإيديولوجي على الفور محل التحليل. من هنا هذه اللاأخلاقية الظاهرية المرعبة والمعايير المزدوجة. المرض على أرض الواقع أخطر: صار الناس غير قادرين على التحليل تحديداً. ويبدو من نظرة جانبية حتى أن السلطة المتلاعبة تكوِّن عامدة أوضاعاً إشكالية غريبة كي توحد أتباعها بأواصر الهراء («إنني أؤمن ما دام سخفاً»).

ها هم يقودون هونيكير[1] من موسكو إلى المحكمة في ألمانيا الاتحادية لأن الجنود في فترة حكمه أجبروا الناس على تطبيق قانون الحدود. فهل شكك أحدهم في شرعية هذا القانون؟ لا، القانون طبيعي تماماً. هل شكك أحدهم في شرعية هونيكير نفسه كقائد للدولة؟ لا، لم يشكك أحد - استقبلوه حينذاك في كل مكان كصاحب سيادة وأقاموا له في العواصم كلها التشريفات المتبعة. كذلك لم يساور الشك أحداً أيضاً في أن الشبان الذين خاطروا بحياتهم عند جدار برلين قد فعلوا ذلك لاعتبارات سياسية عوضاً عن الذهاب عبر الطريق المتفق عليها على نحو غير علني عبر بلغاريا ويوغسلافيا والنمسا.

حاكموا هونيكير بقوانين دولة أخرى (جمهورية ألمانيا الاتحادية)، وهذا ما لم يحاول أحد تفسيره. طبّقوا هذا على أي حادثة أخرى (مثلاً، خان

---

(١) **إريش هونيكير** (١٩١٢-١٩٩٤) رئيس مجلس الدولة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية والامين العام للحزب الاشتراكي الألماني الموحد بين عامي ١٩٧٦-١٩٨٩. أقيل من مناصبه في تشرين الأول من عام ١٩٨٩، وطرد في كانون الأول من الحزب، ثم اعتقل بعد توحيد الألمانيتين واتهم بما وصف بجرائم حكومية. **(المترجم)**.

كلينتون زوجته فاختطفته أجهزة الأمن في المملكة العربية السعودية وقطعوا رأسه في الساحة – هكذا يعاقبون الزاني). لكن هذا ليس الأغرب. الأمر الرئيسي هو أنهم يقولون إن إطلاق النار على الناس الذين يعبرون الحدود بلا وثائق في المكان غير المخصص لذلك جريمة. وإن حدث ذلك فإن الديمقراطية ملزمة بالقبض على قائد مثل هذه الدولة (أو القائد السابق) أينما كان وإرساله إلى السجن. هكذا إذن؟ لكن متى سيقودون إلى السجن المدام تاتشر؟ ففي فترة وصايتها أطلقوا النار على الحدود مع جبل طارق على المئات من الناس الذي أرادوا الشيء نفسه – العبور بلا وثائق. متى ستبدأ محاكمة السيد بوش؟ كانت أصوات الطلقات تتردد على امتداد ريوغراندي كل خريف كرمى للحفاظ على القوانين المقدسة عن الحدود الأمريكية، وكانت «الظهور المبللة» تغرق بعد أن تصاب بالطلقات القانونية. ما الذي كان يرجوه هؤلاء الناس غير عبور الحدود على نحو غير قانوني كرمى لشيء ما جاذب وراءها؟ أين يكمن الفارق بين قضية هونيكير وقضية بوش؟ مات عند جدار برلين خلال أربعين عاماً ٤٩ إنساناً بينما أعدم بالرصاص في ريوغراندي خلال الثمانينات فقط ألفا مكسيكي (أما خلال أربعين عاماً فالعدد على الأرجح كان عشرة آلاف). بنيوياً – ليس ثمة أي فارق وإن كانت وحشية رئيس الولايات المتحدة لا تقارن ببساطة بقسوة قائد جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

اليوم، بعد أن أجملت نتائج الكثير من الدراسات عن الوعي الجماهيري في أعوام البيريسترويكا أدخل علماء النفس في التداول مصطلح شيزوفرينيا الوعي الاصطناعية. الشيزوفرينيا (من الكلمتين اليونانيتين *schizo* – أي أَشْطُرُ، و*phren* – أي العقل أو الإدراك) – هي شطر الوعي. أحد أهم أعراض الشيزوفرينيا هو فقدان المقدرة على وضع الصلة بين الكلمات والمفاهيم المنفصلة. هذا يحطم ترابط التفكير. واضح أن «إصابة» الوعي

بالشيزوفرينيا اصطناعياً إن نجح فسيغدو الناس غير قادرين على ربط الأخبار التي يحصلون عليها في منظومة منطقية ولن يستطيعوا إدراكها بطريقة نقدية. لن يبقى أمامهم شيء سوى أن يصدقوا ببساطة استنتاجات المذيع الأنيق والعالِم صاحب السمعة والشاعر المشهور. لأن أي مَخرج آخر – متمثل في رفض أنبائهم عند العتبة و«عدم تصديق أحد» بلا تمييز يُحدِث توتراً لا يقدر عليه الكثيرون.

هل ممكن في الواقع إفساد منطق أصحاب النوع العقلاني من التفكير، وإن كان ممكناً فكيف يتم؟ يتلخص التأكيد الأول، الذي يبدو غريباً للوهلة الأولى، في أن تدمير المنطق والتلاعب يتم بسهولة أكبر في الوعي العقلاني إلى أقصى حدود العقلانية. التفكير الأكثر صفاء وعقلانية هو أيضاً الأضعف إلى أقصى حد. أما ذلك التفكير «المسلح» بالتصورات اللاعقلانية فهو أكثر ثباتاً بكثير. يمكننا أن نعد هذا حقيقة تجريبية: ففي أثناء البيريسترويكا تبين أن الإنتلجنسيا تحديداً معرضة أكثر للشيزوفرينيا الاصطناعية، وبفارق شاسع عن الفئات الاجتماعية الأخرى. الأكثر ثباتاً كان تفكير الفلاحين.

المشهد الصغير الذي درسه علماء الاجتماع والنفس جيداً هو التلاعب الناجح بالوعي من قبل شركة «MMM» AO (سيرجي مافرودي)[١]. كان ذلك تجربة كبرى من نوعها. استطاعوا بمساعدة الدعاية المنجزة وفاقاً للقوانين الغربية الكلاسيكية أن يقنعوا مجموعة كبيرة من المواطنين – ٧% من أهالي موسكو – بأن يحملوا نقودهم إلى مجموعة من أصحاب الأعمال من غير أي أمل عقلاني باستعادتها. حملوها وسلموها – ثم فقدوها. لكن حتى بعد ذلك ما يزال ٧٥% منهم «يصدقون سيرجي مافرودي»– وهم ينتخبونه

---

(١) **هرم MMM** هو هرم مالي شبيه ببورصة افتراضية تغري المواطنين بإيداع أموالهم لدى مؤسس الهرم (رأس الهرم) لقاء فوائد خيالية، وقد اشتهر هذا الهرم في روسيا لما أحدثه من خسائر بين صفوف المودعين، وهو يشبه ظاهرة جامعي الأموال عندنا (**المترجم**).

نائباً في البرلمان. حتى بعد الانهيار التام والنهائي في ٢٩ تموز ١٩٩٤ وقف آلاف الناس كي يشتروا بحزم بطاقات «MMM»(١).

درست عدة مجموعات من الباحثين بنية تفكير هؤلاء الناس، والنتائج لا تثير أي شك: كان منطق المحاكمات لديهم «مشطوراً» مدة من الزمن. عند استفتاء المودعين تم توجيه السؤال التالي لهم: «هل فهمتم أن مثل هذا الربح الذي وعدتكم به «MMM» ليس بالإمكان كسبه؟». أجاب ٦٠% بالمائة على نحو يثير الدهشة بنعم، كنا نفهم أن من المستحيل الحصول على مثل هذه الأرباح لكننا سرنا وسلمنا النقود. فممن تكوَّن مودعو «MMM» AO؟ كانوا أساساً ممثلي الإنتلجنسيا العلمية الفنية بعمر حتى ٤٠ عاماً. بينهم ٦٧% من الموظفين، و٩% من التجار (أيضاً من رجال الفكر السابقين)، و٦% من العمال. الباقون متقاعدون وعاطلون عن العمل يتوزعون من ناحية نوع التفكير بالتناسب ذاته. يشكل على هذا النحو المثقفون والعمال نسبة ١٣ إلى ١. هذا مع العلم أن دعاية «MMM» كلها كانت بالأساس موجهة إلى العامل البسيط. طبعاً، كان الرهان أيضاً على الولع الروسي، وعلى أن الإنسان الروسي هو إنسان مقامر *homo ludens* إلى حد كبير. لكن مع ذلك...

لكننا سنتابع «التنقيب عن المعاني». لنتذكر كيف حدثت عقلنة التفكير حين تحول إنسان القرون الوسطى إلى أوروبي معاصر. لقد دمر العلمُ، حين أعاد بناء التفكير على أساس عقلاني، (تاركاً الروح للكنيسة وليس العقل) الثقافة التقليدية ونمط الوعي التقليدي. صارت العقلانية وسيلة جبارة لتحرير الإنسان من جملة من المعايير والمحظورات المسجلة في التقاليد والأساطير والتابوهات. هكذا تكوَّن الفرد الحر الضروري للمجتمع البورجوازي(٢). خرج

---

(١) لم تكن هذه البطاقات تتمتع بوضع البطاقات الثمينة الرسمي إطلاقاً، وطبعت «وفاقاً لحقوق المنتجات الإعلانية». لكن هذا لم يقلق أحداً.

(٢) يتفق المفكرون ذوو النزعة الليبرالية والمحافظة على حد سواء على أن عملية إعادة بناء الفكر هذه قد أطلقها الإصلاح البروتستانتي الذي أرسى بداية فلسفة التنوير «بعد أن أحلت العقل الفردي محل العقائد الشعبية المتحجرة» (على حد تعبير دو ميستر).

المنهج العلمي من وراء جدران المختبرات وصار يصوغ التفكير ليس فقط في مجالات النشاط الأخرى بل في الوعي الاعتيادي. لقد شكل هذا نقطة ضعف، لأن أغلبية المسائل التي يتعامل معها الوعي الاعتيادي لا تندرج في أنموذجات التفكير العلمي المصوغة، وخصوصاً الميكانيكية منها.

كتب ديكارت: «لا يجوز قط قبول أي شيء لم أعرفه كما هو بوضوح على أنه حقيقي... لا أدرج في محاكماتي إلا ما يتمثل في عقلي بقدر من الوضوح وبقدر من الجلاء ولا يعطيني أي مبرر لإخضاعه للشك». هذا معناه أن ما يُستثنى من التفكير، من «عتاد العقل»، هو المعرفة المكتوبة بلغة التقاليد (إنها لا تدرَك بوضوح، ولا تعد واضحة وجلية تماماً). هذه هي تحديداً العقلانية. حتى أن الفلاسفة في أحيان أخرى يضعونها في تعارض مع التفكير (قال هايديغر: العقل الممجد عقوداً المعدود عدواً عنيداً للتفكير»).

كتب ك. لورينتس عن تدمير التقاليد تحت وطأة العقلانية: «يفعل فعله في هذا الاتجاه نفسه حكم قانوني تماماً في البحث العلمي وهو عدم تصديق أي شيء لا يكون مبرهناً. لذلك لا تثق الشبيبة ذات "التكوين العلمي" بالتقاليد الثقافية. هذه الارتيابية خطرة على التقاليد الثقافية. فهذه التقاليد تحتوي مخزوناً هائلاً من المعلومات التي لا يمكن أن تُخضَع للمناهج العلمية».

لكي نحول على الفور دون التفسيرات المواربة ألفت الانتباه إلى تدقيق ك. لورينتس المهم جداً: حكم العقلانية الشرعي تماماً في البحث العلمي. إن تأثيره المدمر على عتاد العقل يتجلى تحديداً حين «يخرج العقل إلى خارج جدران المختبر العلمي» - أي حين يدور الحديث عن إدراك المشكلات الواقعية الكاملة في الحياة. إن تطبيق المنهج العلمي الخالص على مثل هذه المشكلات ليس علماً بل علميةٌ – أي عملية غير شرعية ومحاكاة للعلم. يكتب ن. أ. بيردياييف: «لا يشكك أحد جدياً في قيمة العلم. العلم هو حقيقة لا تقبل الجدل ويحتاج إليها الإنسان. لكن بالإمكان الارتياب في قيمة العلمية

ولزومها. العلمية هي نقل معايير العلم إلى مجالات أخرى من الحياة الروحية الغريبة عن العلم. ترتكز العلمية على الإيمان بأن العلم هو المعيار الأعلى لحياة الروح كلها وعلى أن الجميع يجب أن يخضعوا لنظامه المقرر، وعلى أن ممنوعاته ومسموحاته تتسم بالأهمية الحاسمة في كل مكان... إن معايير العلمية تسجن وتطلق من السجن كل ما تريد وكيف ما تريد... لكن العلمية ليست علماً وهي ليست مستخرجة من العلم. ولا يعطي أي علم توجيهات للعلمية في مجالات غريبة عنها».

لماذا تُدعِّم «جزر التقاليد»، أي المعارف المحفوظة في أعماق الذاكرة التاريخية وغير المخضعة للشك والتحليل المنطقي، التفكير العقلاني؟ لماذا تلعب دور أجهزة فاعلة للإنذار بالخطر؟ لأنها تبدأ توثر آلياً ومن الصعب إيقافها من الخارج من قبل المتلاعبين بوعينا.

لنأخذ خدعة «MMM» ذاتها. واضح أن الناس قد خدعوا بإمكان الحصول على نقود كثيرة «سهلة» إن هم أطلقوا أموالهم للنمو من خلال مافرودي. كيف يمكن موافقة ذلك مع التقليد الثقافي الروسي؟ إنها متناقضة معها تماماً[1]. لو أخذنا المجلدات الثلاث لعمل ف. دال[2] «أمثال الشعب الروسي» فإننا سنعثر في المجلد الأول على مائة من الأمثال التي تحذر من إغراء النقود السهلة والمضاربات – لا تنتظر منها خيراً («خبز وماء أفضل

---

(١) نشير بالمناسبة إلى أن التقاليد في ثقافة أخرى كانت ستدعم إغراء الربا. النقود لدى البروتستانت «مثمرة بطبيعتها» أما لدى الروس فهي غير مثمرة بطبيعتها، والكسب ممكن إما بالعمل أو عبر الاحتيال. لكن التقاليد لدى البروتستانت كانت ستفرض القيام بحسبة دقيقة جداً للمخاطرة وكانت ستكبح الغش.

(٢) **فلاديمير إيفانوفيتش دال** (١٨٠١-١٨٧٢) كاتب ومؤلف معاجم روسي. وضع معجم «أمثال الشعب الروسي» (١٨٦١-١٨٦٢)، و«المعجم التفسيري للغة الروسية الحية» في أربعة أجزاء (١٨٦٣-١٨٦٦). **(المترجم)**.

من كعكة ومصيبة». «النقود مكومة والجلد يرتجف»، «قرش في المنزل أفضل من روبل في الشتات»، «الفقر جار قريب للوفرة»..الخ). لو أن هذه الأمثال بصفتها انعكاساً «للمعرفة غير الواضحة» كانت مدرجة في عتاد العقل لكانت أطلقت إشارات الخطر عند تقدير الأرباح الممكنة من المساهمة في الـــ «MMM» ولأجبرت الكثيرين على الاستماع إلى صوت المعنى السليم. لقد غدا الناس الذين دربهم التعليم الاحترافي وطبيعة عملهم على التفكير العقلاني والذين قمعوا فيهم محرمات التقاليد، أكثر قابلية للتلاعب من أناس العمل الجسدي ذوي مستوى التعليم الأقل. وقد أثر هذا خصوصاً في المنتمين إلى الأجيال الشابة التي وجهوا أمزجتها خلال أعوام البيريسترويكا ضد معايير آبائهم وأجدادهم التقليدية.

يشير ك. لورنتس بمرارة عميقة إلى الحقيقة التالية: «الرفض القاطع لثقافة الآباء – حتى لو كان مبرراً تماماً – قد يجر وراءه عواقب مهلكة بعد أن يجعل الشاب المحتقر للوصية ضحية لأعتى الدجالين عديمي الضمير، إن لم نتحدث عن أن الشباب المتحررين من التقاليد يستمعون عادة برغبة إلى الديماغوجيات ويتقبلون بثقة تامة الصيغ المذهبية المزينة والمجملة». أشدد على أن ك. لورينتس، عالم الأنتروبولوجيا البارز هذا، يرى هذا الرفض للتقاليد مهلكاً لاستقرار الوعي حتى حين يكون هذا الرفض مبرراً تماماً من وجهة نظر محتوى التقاليد. أي أن دور التقاليد الدفاعي غير مرتبط مباشرة بممنوعات محددة (مثلاً «لا تركض وراء النقود السهلة»). تعمل دعامات التقاليد في التفكير العقلاني بصفتها آلية عامة تحمي الوعي من الانشطار.

كتب ك. لورينتس عام ١٩٦٦ في مقال «طقسنة التطور النوعي والثقافة»: «الشاب "الليبرالي" المتطبع بما فيه الكفاية بالتفكير العلمي النقدي لا يمتلك عادة أي تصور عن القوانين العضوية للحياة العادية المتشكلة عبر التطور الطبيعي. لا يساوره حتى الشك بأي عواقب مدمرة يمكن أن يؤدي إليها تكييف المعايير العشوائي، حتى لو كانت هذه المعايير تمس جزئية قد

تبدو ثانوية. لن يخطر في بال هذا الشاب أن يرمي جانباً جزءً من منظومة ميكانيكية أو من سيارة أو جهاز تلفزيون لأنه لا يعرف فقط الغاية منه. لكنه يصدر حكمه القطعي على معايير السلوك الاجتماعي التقليدية بأنها رواسب، أي بأنها معايير وإن باتت قديمة حقاً لكنها ضرورية حياتياً. ما دامت معايير السلوك الاجتماعي الناشئة من خلال التطور النوعي مغروسة في جهازنا الوراثي، أكانت خيراً أم شراً، فإن قمع التقاليد قد يؤدي إلى انطفاء معايير السلوك الاجتماعي الثقافية كلها كما تنطفئ شعلة الشمعة».

يصعب استيعاب هذا الأمر بسبب من التناقض الظاهري التالي: نمط التفكير العقلاني إلى أقصى حد الذي يقدم للإنسان المنهج الرئيسي في العلم، قد يصير هو تحديداً وسيلة لتدمير المنطق (العقلانية) عند الخروج من وراء جدران المختبر. حذر الاقتصادي المعاصر الكبير ل. فون ميزيس(١) قائلاً: «الميل إلى تركيد الدوران hypostasis، أي إلى نسب المحتوى الواقعي إلى المقولات المبنية في العقل هو العدو الأسوأ للتفكير المنطقي». بالمناسبة، لا يفعل اقتصاديونا شيئاً سوى ذلك.

ليس نادراً أن تنفِّذ التقاليد، التي تبدو ببساطة جنونا كبيراً، وظيفة حمائية – أي أنها تفرض حظراً على المعرفة الدقيقة. يحدث أن لا يصير المعنى الحمائي المخفي مفهوماً إلا بعد حدوث الكارثة. كتب عالم السياسة الإسرائيلي يارون إسراي: «المثال المثير للفضول عن التابو السياسي في مجال الإحصاء الديموغرافي هو لبنان، الذي تأسس نظامه السياسي على

---

(١) **لودفيغ فون ميزيس** (١٨٨١-١٩٧٣). اقتصادي نمساوي أمريكي، أحد زعماء المدرسة النمساوية الجديدة، ومنظر كبير في الليبرالية. عد تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية إخلالاً في عملية تطور الاقتصاد الطبيعية. ورأى أن الرأسمالية هي نظام متوافق مع الطبيعة البشرية. **(المترجم)**.

التوازن الحساس بين السكان المسيحيين والمسلمين. لقد تأجل هناك خلال عقود إجراء إحصاء للسكان لأن الإشهار الدقيق علميا لشكل الواقع الاجتماعي غير المتوافق مع وظيفة التوازن بين الطوائف الدينية قد يؤدي إلى عواقب مدمرة للنظام السياسي». بعد عام تماماً من نشره هذا القول احتلت إسرائيل لبنان وأجبروه على عقلنة نظامه السياسي. لقد أدى ذلك إلى حرب أهلية استمرت عشرين عاماً ودمرت هذا البلد المزدهر(١).

إلى جانب التقاليد، التي تضم في ذاتها معرفة غير جلية راكمتها أجيال كثيرة واختُبرت بالتجربة والمعنى السليم، تلعب دوراً حمائياً هاماً مضامين الإدراك الصوفي للعالم. وقبل كل شيء، طبعاً، تلك التي تصل إلى مستوى الدين، لكن ليس تلك فقط. إذا عدنا إلى مثال «MMM» فإننا سنرى: أن حواجز الوعي الديني المضمنة في التفكير العقلاني كانت ستولد عند هذا الإغراء حواراً مع وصية العهد القديم «بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا». أي كان سيظهر حاجز آخر.

قيل الكثير عن أن الإصلاح تحديداً قد أحدث في التفكير الأوروبي انقلاباً أدى إلى سيادة النظرة العقلانية على العالم والإنسان. وقد شدد في

---

(١) أحياناً تثير لامسؤولية التفكير العقلاني المحتقِر للتقاليد الذهول. يروي ليفي ستروس كيف قتل ابن ثمل أباه في أرض إحدى القبائل الهندية غير الكبيرة. لقد خرق التابو، ووفاقاً لقوانين القبيلة يعاقب من يقتل ابن قبيلته بالانتحار. يرسل الموظف الأبيض شرطياً هندياً ليقبض على القاتل، لكن الشرطي يرجوه أن لا يفعل ذلك فالشاب جالس ويجهز نفسه للانتحار المكتوب له. وإن حاول أحد اعتقاله فسيكون مجبراً على الدفاع عن نفسه وعندئذ سيفضل أن يموت مقتولاً. أما إذا استخدم الشرطي السلاح فسيكون قد خرق التابو أيضاً. عم تتحدث- أي غباء، ما هذه الخرافات. وحدث كل شيء كما تنبأ به الشرطي تحديداً. لقد وجد نفسه مضطراً في أثناء الاعتقال إلى إطلاق النار فقتل ابن قبيلته، ثم دفع ثمن تنفيذ الأمر وأطلق النار على نفسه.

الوقت نفسه مفكرون مختلفون أمثال ماكس ويبر وف. نيتشه انطلاقاً من أسس مختلفة على الدور الطليعي في هذه الحركة «لمنبوذي الغرب» اليهود. إن هذا هو أحد جوانب تناقض مكانهم في الثقافة الأوربية: كان اليهود مع حفاظهم في وسطهم على أسس المجتمع التقليدي محدِّثين نشيطين ومتحمسين للمجتمع «الخارجي» من حولهم. لقد سعوا خصوصاً مع حفاظهم على المكون الصوفي في تفكيرهم إلى «مَنْطَقة» التفكير إلى أقصى حد خارج جماعتهم.

يتحدث نيتشه إذ يقارن بين أنواع العلماء عن تأثير «التاريخ الأسبق» فيهم – أي في أسرهم ونشاطاتهم الأسرية وميولهم المهنية. العلماء المتحدرون من أسر رجال الدين والمدرسين البروتستانت لم يصلوا في تفكيرهم إلى العقلانية التامة: «لقد اعتادوا على نحو راسخ أن الجميع يصدقونهم – كان ذلك «حرفة» لدى آبائهم! أما اليهودي فعلى العكس، واحتكاماً لنطاق أنشطته وماضي شعبه فإن أقل ما اعتاد عليه هو أن يصدقوه: انظروا من وجهة النظر هذه إلى العلماء اليهود – إنهم جميعهم يعقدون الآمال الأكبر على المنطق، وتالياً، على الإجبار على الاتفاق معهم عن طريق الحجج؛ إنهم يعرفون أنهم يجب أن ينتصروا بمساعدته حتى هناك حيث تقف في وجههم الكراهية العرقية والطبقية، وحيث يصدقونهم مكرهين. لأن لا شيء أكثر ديمقراطية من المنطق: في نظره كل شيء بوجه واحد، وحتى الأنوف المائلة يعدها مستقيمة».

اليوم، إذ نراقب الثمار المحزنة للبيريسترويكا والإصلاح نجد لزاماً علينا أن نعترف بمرارة أن الإنتلجنسيا في روسيا قد توصلت خطوةً خطوة إلى أنها ابتعدت عن «نمط التفكير الروسي»، على الأقل فيما يخص المسائل السياسية والاجتماعية. كان هذا النمط الروسي ظاهرة خاصة وملفتة في تاريخ الثقافة العالمية، وكان تحديداً متماسكاً تجاه التلاعب. كمنت خصوصيته في المزاوجة بين العقلانية وتضمينات التقاليد والصوفية. وقد أشار العديد من

المفكرين إلى هذا بأشكال مختلفة. أما الشاعر الروسي فياتشيسلاف إيفانوف فقال في بداية القرن:

عقلنا الجشع السيد نفسه –
مثل اللهب العقلُ الروسي خطِر،
كم هو جامح وكم هو واضح
كم هو مرح وكم هو متجهم

إنه يفكر بالأرض أسلم تفكير
مستحماً في الظلمة الصوفية

لقد رأينا مع نهاية القرن المنصرم أن القسم الأنشط سياسياً من الإنتلجنسيا الروسية قد سقط في واقعية بذيئة وساذجة، مخرجاً تماماً من محاكماته «وصايا الآباء» والمبادئ الإنجيلية والصوفية الفلسفية (مستعيضين عنها عموماً ببدائل رخيصة، وحتى بلاصوفية الفلكيين وكاشبيروفسكي[١]). إذ يرغبون في أن يكونوا «أقدس من البابا» فإنهم في هذا ينفصلون عن الغرب عملياً. كتب فيتينشتاين[٢] الشاب متابعاً فكرة كانط وشوبنهاور: «إننا نشعر، حتى لو أعطينا الأجوبة عن الأسئلة العلمية الممكنة كلها، بأن مشكلاتنا الحياتية ما زالت لم تمس بعد. لن يبقى، طبعاً، بعد ذلك أي أسئلة أخرى...

---

(١) **أناتولي ميخائيلوفيتش كاشبيروفسكي** (١٩٣٩) طبيب نفسي، اشتهر عام ١٩٨٨ لمساعدته عبر الاتصال التلفزيوني من كييف (أوكرانيا) ثلاث سيدات في مدن أخرى على إجراء عمليات جراحية بلا ألم ومن غير مخدر(**المترجم**).

(٢) **لودفيغ فيتينغشتاين** (١٨٨٩–١٩٥١) فيلسوف وعالم منطق ألماني، ممثل الفلسفة التحليلية. عاش منذ عام ١٩٢٩ في بريطانيا وطرح برنامج بناء اللغة «المثالية» اصطناعياً على غرار لغة الرياضيات والمنطق. فهم الفلسفة على أنها «نقد للغة». وضع مذهب التذرير المنطقي بصفته إسقاطاً لبنية المعرفة على بنية العالم. (**المترجم**).

لكن سيبقى ما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. إن هذا يبين نفسه. هذا هو الصوفي».

توصل الديمقراطيون الوضعيون ببساطة في أثناء حملتهم على الصوفية إلى سخافة. هاكم ما كتبه في مجلة «أسئلة الفلسفة» أحد زعمائهم الروحيين ن. أموسوف[1]: «الله – مادة. لا ينبغي رفض الله (حتى لو لم يكن موجوداً)... يا للأسف، "مادية" الله، ولتكن الأكثر مجازية، فإنها أساس الصوفية التي لا تجلب للمجتمع سوى الأذى. ويبدو أن لا مفر من التكاليف». يقرأ رجال الفكر هذا الكلام الفارغ بهيئة جدية ويعملون الفكر فيه ويتمتمون به لأنفسهم: «الله – مادة. لا ينبغي رفض الله حتى لو لم يكن موجوداً...» – وينشطر وعيهم. النتيجة مؤسفة – عجز تام أمام التلاعب بالوعي.

الضربة الثالثة التي وجهتها العقلانية لعتاد العقل كانت برمي «الميتافيزيقيا» جانباً – أي كل ما هو نوعي وغير قابل للقياس وغير قابل للقول. ولَّد نجاح العلوم الدقيقة إيماناً غبياً بإمكاناتها الخارقة وفي قدرتها على تحويل المعرفة كلها إلى علم. رأى ن. أ. بيرديايف في هذا مؤشرات أزمة عميقة في الوعي. فكتب عام ١٩١٤: «لم يكن من قبل قط مثل هذه الرغبة في جعل الفلسفة علمية حتى النهاية. هكذا يشكلون هدفاً للعلم هو في الحقيقة خارج العلوم وفوق العلوم، أما القيم فيدرسونها بمنهج لا يمكن أن تكون من صلاحياته. ليس من المستحيل فقط دراسة القيمة علمياً، بل يستحيل التقاطها».

يدينون بهذه العقائد الجامدة الهلنستية في ظروف الأزمة التحديثية، كما في روسيا اليوم، بحماسة الأصولية. حتى أن ن. أموسوف يكتب: «ستبتلع العلوم الدقيقة علم النفس ونظرية المعرفة وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع، وتالياً

---

(١) **نيكولاي آموسوف** (١٩١٣) جراح وأكاديمي أوكراني. صاحب كتاب «الأفكار والقلب» (١٩٦٥). حائز على جائزة لينين (١٩٦١) **(المترجم)**.

لن يبقى مكان للمحاكمات عن الروح والوعي والعقل المرح، وحتى عن الخير والشر. كل شيء مقاس ومتحكَّم به». هذا ما بادر به ي. زامياتن[١] في كتابه «نحن»: «إن كانوا لا يفهمون أننا نحمل لهم السعادة الخالية من الخطأ رياضياً فإن من واجبنا أن نجبرهم على أن يكونوا سعداء».

العقلانية التي «نظفت» التفكير المنطقي وعلم الأخلاق من الميتافيزيقيا انحطت إلى الهلنستية – أي إنكار القيم («الغرب هو حضارة تعرف ثمن كل شيء ولا تعرف قيمة لشيء»). كان نيتشه هو فيلسوف الهلنستية العظيم، وقد تابع فكره في قرننا هايديغر. يشير هايديغر نفسه مباشرة إلى الصلة بين الهلنستية والإيديولوجية التي تتسم بها الحضارة الغربية: «الهلنستية لدى نيتشه ليست ظاهرة سقوط فقط على الإطلاق – الهلنستية بصفتها عملية تأسيسية للتاريخ الغربي هي مع ذلك وقبل كل شيء شرعة هذا التاريخ. لذلك ما يهم نيتشه في تأملاته عن الهلنستية ليس وصف كيف تنساب تاريخياً عملية إفقاد القيم السامية قيمتها وهو ما كان يمكن لاحقاً أن يتيح فرصة تقدير غروب أوربا – لا، إن نيتشه يعي الهلنستية بصفتها "منطقاً داخلياً" لاكتمال الغرب التاريخي».

أما كيف تنعكس الهلنستية في الثقافات المختلفة فهذا موضوع كبير خاص لا نستطيع الخوض فيه. على كل حال اكتسبت الهلنستية في الثقافة الروسية أكثر من مرة طابعاً انفجارياً وخصوصاً نتيجة المزج بين العقلانية والإيمان العميق، وحتى السلفي. لقد فكر دوستويفسكي بذلك، حتى أن نيتشه أدخل مفهوماً عن نوع خاص من الهلنستية هو «الهلنستية ذات الشكل البطرسبورغي (أي الإيمان باللاإيمان إلى حد الشعور بالألم عليه). لكننا

---

(١) **يفغيني زامياتين** (١٨٨٤-١٩٣٧) كاتب روسي، هاجر إلى فرنسا عام ١٩٣٢. يصف في روايته «نحن» التي نشرت عام ١٩٢٤ باللغة الإنكليزية وعام ١٩٨٨ باللغة الروسية. شكل بناء المجتمع الشمولي. (**المترجم**).

نتحدث فقط عن الهلنستية الغربية التي نزعت برقة عن العقل الحماية ضد التلاعب، وقشرة وراء قشرة.

قال نيتشه لساكن الغرب: «الله مات! وأنت قاتله، لكن القضية في أنك لا تحسب حتى لذلك حساباً» كان نيتشه ما يزال مؤمناً بأن الغرب بعد قتل الله سيجد المخرج مولداً من نوياته ما فوق الإنسان (الإنسان السوبر). وهذا ما كان ينبغي أن يكون عليه الفاشيون. لكن هايديغر بعد أن عرفهم من الداخل (أراد أن يكون فيلسوف الفوهرر) وصل إلى استنتاج أشد وطأة: «ما فوق إنسان» نيتشه هو المواطن الغربي المتوسط الذي يمنح صوته «لمن ينبغي أن يصوت له». إنه هذا الفرد الذي تخطى أي حاجة إلى المعنى واستقر على نحو رائع في اللامعقولية التامة، في السخف المطلق، والذي يتقبل بلامبالاة تامة أي دمار؛ والذي يعيش راضياً في غابات مرعبة من الأجهزة والتكنولوجيات ويرقص في مقبرة الآلات هذه، واجداً دائماً المبررات البراغماتية العقلانية.

يعمق هايديغر أيضاً مفهوم الهلنستية: إنها ليست ببساطة ثابت الغرب الحسابي، إنها مبدأ نشيط يهاجم الغرب باستمرار، و«ينهمر» عليه. إنه رسالة للغرب. لا يعطي هايديغر في أي مكان ولو تلميح نصيحة للإنسان، ولا يدل على طريق الخلاص، واستنتاجه متشائم: الغرب هو مصيدة فئران حدث فيها فقدان تام لمعنى الوجود. ومصيدة من هذا النوع من المستحيل الإفلات منها، إنها عندئذ ينقلب داخلها إلى خارجها فتجد نفسك من جديد داخلها.

كيف حدث هذا كله للغرب – إنه لسر. يلتقي الفلاسفة على أن ليس ثمة تفسير مقنع لهذا، كل فيلسوف يقدم أسباباً جوهرية لكنها غير كافية. ثمة هنا فقدان للرموز والتقاليد وبناء اللغة الجديد وانفصام الروابط الإنسانية ما يجعل جوهر الإنسان الثقافي في تعارض مع طبيعته البيولوجية.

لكن ما يهمنا هنا هو جانب واحد من القضية – إنه ضعف التفكير العقلاني «المتحرر من العقائد الجامدة» أمام التلاعب. لقد حرض هذا الخطر (أي ضعف العقل أمام أحابيل الشيطان) غوته على البحث عن نوع خاص من النظرة العلمية إلى العالم التي توحد المعرفة والقيم. تبين أن الطريق التي يقترحها غوته مسدودة، لكن المهم هو اقتراحه نفسه. يذكرنا العالم الألماني ف. هايزنبرغ[1] الذي راقب إغراء الفاشية قائلاً: «ما زال غوته قادراً اليوم أيضاً على أن يعلمنا أنه لا ينبغي علينا أن نسمح بتشويه الأعضاء المعرفية الأخرى كلها على حساب تطوير تحليل عقلاني وحيد، وأن علينا، على العكس من ذلك، أن نصيب الواقع من خلال الأعضاء التي وهبت لنا كلها، وأن نتكل على أن الواقع المتكشف لنا في مثل هذه الحال سيعكس ما هو جوهري و"موحد، وخيِّر، وحقيقي"».

يشدد ف. هايزنبرغ على فكرة مهمة: قد تؤدي الهلنستية حين تحطم آليات دفاع الوعي ضد التلاعب، لا إلى تناثر المجتمع، ولا إلى الحركة البراونية[2] غير المنتظمة من قبل أناس فقدوا التوجهات. قد تكون النتيجة أيضاً توحيد الجماهير ضمن إرادة واحدة موجهة نحو أهداف غريبة تكاد تكون جنونية. يكتب قائلاً: «السمة المميزة لأي توجه هلنستي هو انتفاء الأساس العام الصلب الذي في مقدوره أن يوجه نشاط الشخصية. يتجلى هذا في حياة الفرد المستقل في أن الإنسان يفقد الإحساس الغريزي بالصواب

---

(١) **فيرنير هايزنبرغ** (١٩٠١-١٩٧٦) فيزيائي ألماني، أحد مؤسسي ميكانيك الكم. له مؤلفات في بنية النواة الذرية وميكانيك الكم العلائقي، ونظرية الحقل الواحدة، وفلسفة الطبيعة. حائز على جائزة نوبل عام ١٩٣٢. **(المترجم)**.

(٢) **الحركة البراونية** هي الحركة العشوائية التي تقوم بها الجزيئات الصغيرة المعلقة في السائل أو الغاز تحت تأثير ضربات جزيئات الوسط المحيط، اكتشفها روبيرت براون (١٧٧٣-١٨٥٨) عام ١٨٢٧. **(المترجم)**.

والخطأ، بالوهمي والواقعي. يؤدي هذا في حياة الشعوب إلى ظواهر غريبة حين تغيِّر اتجاهها القوى الهائلة الموحدة لتحقيق هدف معين وتؤدي من خلال فعلها المدمر إلى نتائج متناقضة تماماً مع الهدف المعلن. عندئذ يمكن أن يكون الناس معميين بالحقد إلى حد أنهم يبدأون يراقبون ذلك كله باستهتار ويشدون أكتافهم بلامبالاة. ويبدو أن مثل هذا التغيير في نظرة الناس مرتبط بعض الشيء بتطور الفكر العلمي».

واضح كم يصير التفكير الذي رفعت عنه رقابة المعايير الأخلاقية الراسخة «متحللاً من القيود». السهولة المذهلة التي تم إغراء الناس بها بالمغامرات الاقتصادية في أثناء البيريسترويكا يمكن شرحها في الكثير من جوانبها بأنهم تمكنوا مدة من الزمن من إيقاف آليات الرقابة الأخلاقية في الوعي الجماهيري – أي ذلك الصوت الداخلي الذي يسأل: «هل سيكون هذا جيداً؟». يمكن القول إن مسألة الخير والشر كانت مبعدة تماماً من العملية الفكرية، وأدى كل شيء إلى معايير عقلانية فارغة تماماً– «الفاعلية»، «المردودية» وما شابه ذلك. أذكر كيف بدأت قبل الإصلاح بوقت طويل أحاديث عن أفضلية البطالة، لكن عُدَّ ببساطة النظر في هذه المسألة على المستوى الأخلاقي والتأمل في آلام الناس الذين ستطالهم البطالة لهجةً سيئة في هذه الأحاديث. كلا، كانت المناظرات «عقلانية» على نحو استثنائي[١]. سنتحدث عن عملية التلاعب بالوعي بخصوص البطالة على نحو مستقل لاحقاً.

---

(١) المثير للاهتمام هو «أن مالتوسيينا الجدد» يوجزون في الصحف أفكاراً متوحشة، لكن لم يقدر لأحد أن يسمع هذه الأفكار منهم شخصياً في صالة وهم ينظرون إلى عيون الناس. يستحون. مثل الصبي الذي يكتب بالطبشور كلمة بذيئة على السور، يكفي أن تمسك به من تلابيبه وتطلب منه أن يقرأ بصوت مسموع ما كتب– سيشكو باكياً: «إنني أخجل أيها العم». لماذا إذن تكتب ما تخجل من قوله بصوت مسموع؟ هل تظن أننا سنسر بما كتبت؟ غير أن الصبي يتخلص بهذه الطريقة من عقده وسينمو إنساناً طبيعياً وإن كان يشوه الأسوار. فإلى من سينمو الأكاديمي أموسوف وقد تخطى عقده التاسع؟

تؤدي لاتاريخية التفكير العقلاني المنظف من التقاليد إلى أن يفقد الإنسان المقدرة على وضع الأحداث في جملة إحداثيات «مرتبطة» بمقاييس مجردة راسخة. كل شيء يصير نسبياً ويوزن بأثقال مطاطية وزنها غير معروف. أوحى الإيديولوجيون على سبيل المثال بأن أنظمة ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا التي سقطت عامي ١٩٨٩- ١٩٩٠ كانت «ديكتاتوريات شمولية وقمعية». هذه المفاهيم تفترض أن الفكر الاجتماعي غير الموافق على الإيديولوجية الرسمية مخنوق، وأن أعمال المعارضة المهددة للنظام تقمع بقسوة.

كيف إذن يتوافق هذا مع الحقيقة الواضحة بأن الفاعل على مسرح هذه البلدان السياسي كان مجموعات كبيرة شاملة من السكان وأن التيارات الإيديولوجية قد تشكلت فيها منذ زمن بعيد؟ وبأي قمع ضد المعارضة حاولت هذه الأنظمة أن تحمي نفسها منها؟ يقول شهود «الثورة المخملية» في براغ إن عدد الضربات بالعصي لو كان في الغرب لما عدوه حادثة تستحق الاهتمام. كان عدد من ضربوا في لندن في المظاهرات ضد ضريبة السكن الجديدة التي فرضتها تاتشر أكبر بمئات المرات. لكن الوعي الاجتماعي لدى التشيكيين الذين تربوا في ظروف «الديكتاتورية القمعية» تجلى بحيث أنهم قدموا للمحاكمة وزير الداخلية السابق بتهمة هذه الضربات. ينتج أننا إذا اعتمدنا تعريفاً واحداً «للديكتاتورية القمعية» انطلاقاً من واقع تشيكوسلوفاكيا فإن علينا أن نسمي دول الغرب الموقرة أنظمة دموية.

عموماً، يقدم لنا فهم الأحداث في تشيكوسلوفاكيا مادة ضخمة. لقد كتَّل التدخل عام ١٩٦٨ ليبراليي العالم كله (يمكننا أن نطبق عليهم شعار «يا عمال العالم اتحدوا!»). بدأت حينئذ تحديداً، عمليا، إعادة البناء (البيريسترويكا) في الاتحاد السوفييتي. لكن لنتذكر ضد من كان غضب ليبراليي المطابخ الموسكوبية موجهاً حينذاك. كان موجهاً ضد محاولة بريجنيف الرومانسية من

أجل تجديد الاشتراكية. لو برهن لهم أحدهم في تلك اللحظة أن الهدف من «ربيع براغ» ليس الاشتراكية ذات الوجه الإنساني على الإطلاق وإنما ترميم الرأسمالية والقضاء على المعسكر الاشتراكي لذهب الكثيرون من منشقي (nonconformist) ذلك الزمان طوعاً إلى جيوش اتفاقية وارسو. لكن أسطورة «ربيع براغ» انهارت اليوم.

جلس دوبتشيك[1] المبتسم بسرور في البرلمان المعادي للشيوعية وراح يختم القوانين عن عودة المعامل إلى مالكيها المهاجرين السابقين. فمن كان المحق في تقويم جوهر الأحداث - بريجنيف أم «الشيوعي الديمقراطي» المتوقد؟ (إننا لا نناقش إن كان بريجنيف قد اختار الوسائل الصحيحة أم لا، لأن الجدل لم يكن حول الوسائل بل عن تفسير المشروع البراغي ككل تحديداً). لكن لم يقل أحد من هؤلاء الديمقراطيين اليوم: نعم، لقد انخدعت بشأن «مجددي الاشتراكية»، وأشعر اليوم بالخجل من سذاجتي. أو: نعم، لم يكن الهدف من ربيع براغ على الإطلاق تجديد الاشتراكية، لكنني أنا أيضاً كنت أتظاهر بأنني اشتراكي، وأن فصلي من الحزب الشيوعي السوفييتي، عموماً، صحيح. كلا، تبين أن «المجددين» كانوا معادين للاشتراكية وظلت الأسطورة نقية.

حين راحت صحافتنا الديمقراطية تبني الأسطورة المهمة في البيريسترويكا عن المنشقين التشيكيين ومثاليي «الاشتراكية ذات الوجه الإنساني» وغيرها. صمتت عن معلومات معروفة عن أن الكثيرين من أولئك «المثاليين» كانوا مناضلين شرهين من أجل التملك. هاكم أحد أقدم المنشقين

---

(١) **ألكسندر دوبتشيك** (١٩٢١-١٩٩٢) الأمين العام الأول للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في الفترة بين كانون الأول ١٩٦٨ ونيسان ١٩٦٩. كان أحد قادة عملية الإصلاح في تشيكوسلوفاكيا. طرد من الحزب عام ١٩٧٠. رئيس الجمعية الاتحادية في تشيكوسلوفاكيا عامي ١٩٦٩ و١٩٨٩. (**المترجم**).

ستانيسلاف ديفاتي (حتى أنه ترأس بعد «الثورة المخملية» الـــ ك. ج. ب. الجديد الديمقراطي). - لقد اشترى في ظل السلطة الجديدة متجر كوتفا الأضخم في براغ والمعروف للسياح الروس جيداً. مقابل ١٠٠ مليون دولار! وكم مرة قدر لنا أن نسمع عن فاتسلاف هافل[1] رجل الفكر غير المعروف من أحد والذي رفعه المنشقون إلى الأعلى، أنه غير طماع ويكاد يكون قديساً وأنه مثقف حقيقي. راحت الصحف الغربية تواسيه بأعلى صوت على مصيبته - وفاة زوجته. وها هو يقرر، وهو لما يخرج بعد من المصيبة، أن يهب ممتلكاته كلها إلى الصندوق الذي أسس تخليداً لذكرى الراحلة. الأدق ممتلكاته كلها تقريباً - لقد أبقى، كما صرح هو نفسه، قليلاً جداً منها من أجل تلبية احتياجاته الشخصية: الاستديو السينمائي «باراندوف»، وعدة فنادق ومنازل سكنية مربحة وسط براغ. أمن أجل تجديد الاشتراكية هذا مزق مثقفونا قمصانهم على صدورهم؟

اليوم، حين فككت الاشتراكية أيضاً وما عادت تشيكوسلوفاكيا نفسها موجودة، استطعت أن أتحدث باهتمام إلى بعض التشكيين، ويمكنني أن ألخص وجهات نظرهم ضمن أنموذجين بعيدين على نحو متساو عن المعنى السليم. لخص الشيوعي القديم الذي لم يغير قناعاته و«ألقي به» خارج أكاديمية العلوم صيغة الشيوعيين البطولية: «لم يكن كل شيء سيئاً في تشيكوسلوفاكيا في الأعوام الأربعين الأخيرة». لكن هذا وأن تقول، وأنت على فراش الموت: لم يكن كل شيء في الحياة سيئاً، سيان. إن هذا ليس سوى فلسفة مبتذلة (والأبسط، غباء). لأن أحداً في الواقع لا يعد أن «كل شيء كان سيئاً» - إن هذا ببساطة استعارة مانوية ولا يحتوي على شيء من المعنى الحقيقي أكثر

---

(١) **فاتسلاف هافل** (١٩٣٦). رئيس تشيكيا منذ عام ١٩٩٣، ورئيس تشيكوسولفاكيا بين عامي ١٩٨٩-١٩٩٢. ترأس في مرحلة «ربيع براغ» عام ١٩٦٨ «نادي الكتاب المستقلين»، ثم صار فيما بعد أحد زعماء حركة الدفاع عن حقوق الإنسان في البلاد. (**المترجم**).

مما تحتويه شتيمة بذيئة(١). ولا يبقى سوى الذهول فقط من أن الشيوعيين الذين عاشوا هذا الزلزال لم يصلوا إلى السؤال: «ما الذي كان سيئاً في تشيكوسلوفاكيا خلال الأربعين عاماً الأخيرة».

بكلمات أخرى: في أي اللحظات الحرجة من تاريخ ما بعد الحرب اتخذ القرار غير الصحيح تماماً في الظروف التاريخية المحددة لتلك اللحظة تحديداً؟ لأنه إذا تبين أن الاختيار الذي اتخِذ في الحقيقة في اللحظات الحرجة كان هو الأنسب، فإننا سنضطر إلى الاعتراف بأن الشيوعيين قادوا في الجوهر (وليس في الصغائر) سفينة الدولة في تشيكوسلوفاكيا على النحو الأمثل. الدفة اليوم في يد خصومهم الديمقراطيين والمحصلة الأولية لقيادتهم هو انهيار البلاد.

حين تتناقش مع المفكرين الشبان المعادين للشيوعية الذين يؤكدون أن «كل شيء كان سيئاً» ينتج كل مرة الحوار نفسه تقريباً:

- هل يعد حقيقةً غير مرتبطة بالتشيكيين أن الأمريكيين قد تكاسلوا (أو بخلوا بدمائهم) ولم يحرروا تشيكوسلوفاكيا من الألمان بأنفسهم وتنازلوا عنها لستالين؟

---

(١) هذه المقارنة ليست سطحية كلياً. ففي فجر البيريسترويكا حين بدأ النمو العاصف «للإحساس بالكرامة الشخصية» قدر لي أن أشاهد في إحدى الحافلات هذا المشهد: راح فتى ثمل في لباس عامل بناء يشتم شاباً ذا هيئة متقفة كما يقال- «... أمك». رفع هذا الأخير المسألة خلافاً للعادة إلى مستو مبدئي: «هل تعرف أمي شخصياً؟». لم يفهم الثمل: «لا، لا أعرفها. ماذا تقصد؟». «إذن كيف تتحدث عنها هكذا، كيف تهينها؟»- امتلك المثقف تماماً زمام المبادرة. «ماذا دهاك؟ من أهانها؟» بدا الصغير ببساطة في ذهول تام. «لقد قلت... أمك. تعال معي» - حتى أن الزعيم الجديد المقبل أخرج كتيباً أحمر. صحا الفتى على الفور، وحاول أن يدعوه إلى المعنى السليم: «ماذا دهاك، ما شأن أمك هنا. هذا قول روسي لا أكثر». لكن يبدو أن المثقف قد غير المعنى السليم إلى أمد طويل.

- نعم، هذه حقيقة.

- هل كان بمقدور أحد (أنت الذكي على سبيل المثال) أن يمنع وصول الجيوش السوفييتية المحررة؟

- كلا، ما هذه الفكرة السخيفة، لقد توسلوا إليهم أن يأتوا سريعاً.

وهكذا عبرنا لحظة حرجة، فلنمض قدماً.

- هل كان في مقدور أحد عام ١٩٤٨ أن يمنع الانعطاف الحاد نحو «الاشتراكية»؟

لا يستطع أحد أن يقول لا- فهذه الفكرة «تملكت الجماهير»، وأما الأنتلجنسيا فتملكتها عن بكرة أبيها. لكن الطريق حتى عام ١٩٦٨ كان قد تحدد مسبقاً بخيار المجتمع هذا كله مهما حاولنا اليوم أن نلعن هذا الخيار. كل من قاوم هذا الخيار في تلك اللحظة أبعد جانباً. أمثال هؤلاء كانوا قلة، وهذا الذكي الحالي لم يكن من ضمنهم، حتى أنه هو نفسه لا يبني مثل هذه الأوهام. هذا معناه أننا وصلنا معاً إلى مفترق طرق. يبقى عام ١٩٦٨. أسأله:

- لماذا لم يخرج والدك - كما لو أنك أنت في تلك اللحظة - إلى الشارع حاملاً السلاح، ولم يبدأ يطلق النار على الجنود الروس الذين عدهم محتلين؟

- وهل تظنه أحمق؟ لقد دفعوا بقدر من الجيوش جعل المقاومة تعني تدمير البلاد.

- هذا معناه أن «الشيوعيين» (وفي مقدمتهم الرئيس لودفيك سفوبودا) قد تصرفوا تصرفاً عقلانياً حين لم يدعوا الشعب إلى حرب المقاومة؟

- طبعاً، تصرفوا تصرفاً صحيحاً، وإلا لكان ذلك انتحاراً، خصوصاً وأن الغرب لم يكن ينوي مساعدتنا.

وينتج أن الشيوعيين الذين كانوا في السلطة قد اختاروا من بين البدائل القليلة جداً المتاحة في اللحظات الحرجة كلها تلك التي كانت تعني جراحاً

وآلاماً أقل للشعب والبلاد. أي خيار آخر كان سيفترض ضرورة السير ضد قوة الاتحاد السوفييتي الهائلة (الإقدام على «الانتحار»)، مع العلم أنه سيكون سيراً ضد أمزجة الغالبية العظمى من المجتمع، وحتى ضد توصيات الغرب. فعن أي سياسيين كان يمكن الحديث؟ وأي مستوى تفكير كان يمكن أن يكون لدى هذا الذكي الحالي لو قدر له أن يكون في سدة السلطة آنذاك ليفعل كل شيء على نحو مغاير وأفضل بكثير؟ أما الحديث عن تفكير المثقف الغربي بخصوص تشيكوسلوفاكيا فهو غير مريح: إنه لا يلقي على نفسه أي مسؤولية عن الواقع. لكن مثقفينا أيضاً لا يتحلون بمسؤولية أكبر.

٢- التفكير الجمعي. الاستعارات.

قيل في «إيديولوجية التاريخ» الأساسية إن بناء ***الاستعارات*** هو المهمة الرئيسية للإيديولوجية. لقد لعبت دائماً الفكرة المبنية بطريقة شاعرية دوراً هائلاً في توحيد الناس وبرمجة سلوكهم، وصارت حقاً قوة مادية. تتيح الاستعارات، بما فيها ***التفكير الجمعي***، اقتصاداً هائلاً في الجهود الفكرية. فهنا تحديداً تختبئ المصيدة التي يضعها المتلاعبون بالوعي.

طبعاً، لا يمكن فصل التأثير في فعل الإيحاء أو الإقناع بين تفكير عقلاني وتفكير جمعي وبين مشاعر أو مخيلة إلا على نحو مجرد. ففي الواقع تتحد التأثيرات في هذه المرامي ضمن «عملية» واحدة. بيد أن الوزن النوعي «لأجناس الأسلحة» ودور كل منها يختلفان بشدة تبعاً لظروف العملية المحددة، وقبل كل شيء، تبعاً لنوع ثقافة الجمهور. الاستنتاج العام لدراسات الدينامية الاجتماعية للثقافة هو التالي:

«لا تشارك الفكرة المنطقية في الإقناع إلا جزئياً في حال الثقافة المعاصرة، حين تبرز على شكل تسلسلات مقتضبة تربط بين المفاهيم المتجاورة في حقل التفكير». (أ. مول). كلما كان ضغط الثقافة الفسيفسائية أكبر كان دور المنطق أقل («شرطة أمزجة الإنتلجنسيا»)، وكان الوعي أكثر

تقبلاً للتلاعب. لذلك فإن التدمير الحالي للثقافة الجامعة بين جمهور السكان الملحوظ اليوم في روسيا هو الشرط الضروري من أجل الهيمنة الراسخة «للديمقراطية».

يحتل التفكير الجمعي مكان التفكير العقلاني. يكتب أ. مول عن إنسان المجتمع الغربي: «تستخدم الثقافة الفسيفسائية التي نعيش فيها أكثر فأكثر أساليب الإقناع المؤسسة مباشرة على أساليب جمع الأفكار المستخدمة من قبل التفكير الإبداعي. الأساليب الأهم بينها هي تلك التي حددها وليم جيمس: الجمع بالمزج (تصوير ثمرة موز وطفل في إعلان واحد)، الجمع بالمفاجأة التي تتسم بها السريالية (قطعُ بسكويت فينيرا ميلوسكايا الموضوع في مياه فيشي المعدنية)، والجمع بالملاصقة (النص المؤلف من ملحوظات لا يربطها سوى أنها مطبوعة بعضها إلى جوار بعض في صفحة واحدة)، الجمع بالتشابه الصوتي الذي يستخدمه مؤلفو الشعارات الإعلانية وشارات السلع.

تلعب هذه الطرائق في الممارسة دوراً مهماً عند الإيحاء للمتلقي بحجج المرسل إلى جانب وسيلة الإقناع الجمالية، التي لا يقنعون المستلم عند استخدامها بقدر ما «يغرونه» بها كي يتقبل في نهاية الأمر ما هو مغر على أنه مقنع. الإخراج الفاخر للكتاب، والإغراء العدواني للشقراء الفاتنة التي تنزع ثيابها على غلاف قطعة الصابون، النشرة الجوية على شكل «أغنية عن يوم الغد» التي تؤديها جوقة من الفتيات – هذا كله أمثلة على خلط المقولات المنظوماتي والفاعل على نحو استثنائي، الذي تستخدمه الدعاية السياسية بمهارة وعلى نطاق واسع، والذي صار لذلك سمة ملازمة للثقافة الفسيفسائية المعاصرة».

معروف أن الإنسان كي يعمل على تحقيق مصالحه (وليس مصالح المتلاعب)، عليه أن يحدد واقعياً ثلاثة أشياء: الوضع الحالي، والوضع المستقبلي الذي يرغب فيه، وطريق الانتقال من الوضع الحالي إلى المستقبلي.

يجبر إغراء اقتصاد الجهود الفكرية الإنسان عوضاً عن دراسة هذه الأشياء الثلاثة وإدراكها على اللجوء إلى الجمع والمماثلات: أي تسمية هذه الأشياء باستعارة ما تعود بالإنسان إلى أوضاع أخرى مدروسة. وأغلب الأحيان تكون وهميةً ثقته نفسها أيضاً بأن تلك الأوضاع المغايرة التي يشرح من خلالها لنفسه الوضع الحالي معروفة له ومفهومة. مثلاً، يقول الوطني لنفسه إن النظام الحالي مثل النير التتري. إنه واثق من أنه يعرف كيف كان النير التتري، وفي هذا ربما خطأه الأول- وهو الشرط الأول لنجاح المتلاعب. الخطأ الثاني مرتبط بأن استعارة النير التتري في أثناء تطبيقها على نظام تشوبايس وبيريزوفسكي غير صالحة إطلاقاً. هنا يكمن المنبع الثاني لقوة المتلاعب.

يبدو أن الغرب في تعاليمه الاجتماعية قد استوعب تقاليد التفكير الاستعاري أكثر من روسيا. فمن الغرب تحديداً جاءت انتلجنسيتنا الليبرالية التي تتغذى على موضوعاته. إن هذا يتجلى في اللحظات الحرجة كلها. ربما حدث ذلك بسبب من ثنوية التفكير الغربي وميله إلى أن يرى اصطدام المتناقضات في كل شيء ما يكسب الاستعارة القوة والإحكام: «السلم للأكواخ والحرب للقصور» أو «الحركة كل شيء، الهدف لا شيء!». راح تروتسكيونا، الأوربيون بروحهم، ينهالون باستعاراتهم على ستالين، الذي كان يشدد أكثر على الأمثال الروسية. «لا يمكن أن تبني سفينة واحدة من مائة قارب!» - هاكم الرفض الشاعري للتحول الصناعي في بلادنا الزراعية. وقد أثر ذلك في الإنتلجنسيا.

بين المؤرخ أ. توينبي من خلال مادة ضخمة أن التحولات العميقة تبدأ بفضل جهود قسم غير كبير من المجتمع، سماه «الأقلية المبدعة». إنها لا تتكون على الإطلاق لأن فيها عدد من المواهب أكبر من القسم الآخر من الشعب: «ما يميز الأقلية المبدعة ويجعلها محط إعجاب السكان الباقين كلهم هو اللعبة الحرة لقوى الأقلية المبدعة».

عام ١٩٨٥ استحوذت لا على مفاصل السلطة وحسب، وإنما على عقول الناس، مجموعة خاصة معقدة بمكوناتها، تمثلت بتيار ثقافي كامل وبثقافة فرعية في المجتمع السوفييتي – يسمى أفرادها مجازاً «ديمقراطيين». تبدلت خلال تلك الأعوام عدة فرق من الديمقراطيين كما في لعبة الهوكي على الجليد، وما زالت تتحضر فرقتان أو ثلاث مع أن كوادر جديدة ما عادت تظهر تقريباً – يرقعون القدماء ويعيدون طلاءهم. تعالوا ننسى قليلاً النهب ولنتحدث عن «ثقافة الديمقراطيين».

قدم الديمقراطيون أنفسهم في أجواء الحزب الشيوعي السوفييتي البريجنيفي المتحجرة والمملة والمتعفنة على أنهم مجموعة ذات تفكير متحرر من القيود ومليئة بالاستعارات الطازجة، والشعارات الجديدة والمجازات. لقد لعبوا لعبة حرة وأطلقوا شرارات الأفكار، أما نحن فأتممنا الأفكار وبنينا قلاعاً من الهواء ودخلنا هذه اللعبة. وعند التحقق لم يكن ثمة أي شيء عميق هناك، ووقعنا على فراغ، لقد بنينا بأنفسنا هيئة أولئك الديمقراطيين – على خلفية السوسلوفيين[1] الذين أصابونا بالملل.

رمى الديمقراطيون في الوعي حين قدموا إلى السلطة في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٥ حزمة كاملة من الاستعارات، وقمعوا ببساطة مدة من الزمن المقدرة على التفكير السليم – لقد سحروا الألباب. «بيتنا الأوروبي العام»، «معماريو البيريسترويكا»، «لا يمكن أن تكون المرأة حبلى قليلاً»، «مُحال تخطي الهاوية بقفزتين»، «شارع أعمدة الحضارة»، «الجياد لا تبدّل على العبارات»... الخ. ومع أن هذا كله كان بضاعة مع شيء من العفن إلا أن كثافة القصف قمعت القسم الرئيسي من المجتمع. لم يردّ هذا القسم عملياً بأي شيء ما عدا السباب الساذج. كانت صحيفة «زافترا» (الغد) تتلألأ أحياناً

---

(١) **ميخائيل سوسلوف** (١٩٠٢-١٩٨٢) من قادة الحزب الشيوعي السوفييتي، عالج مسائل العمل الإيديولوجي، وكان أحد منظمي استقالة نيكيتا خروشوف. **(المترجم)**.

كثيرة، لكن هذا لم يكن من بضائع الاستهلاك الواسع، ولم ينتشر بين الجماهير.

كان ثمة ثلاث استعارات قوية موجهة ضد الديمقراطيين، والغريب أن من أطلقها منشقون عن الديمقراطيين أنفسهم. «الثورة الإجرامية العظمى» لغوفوروخين. و«سددنا إلى الشيوعية فأصبنا روسيا» لزينوفييف. و«اغتيال الحارس» لليمونوف. لكن لو دققنا لوجدنا أنها كلها تجرد المعارضة من سلاحها، وتناقضها الداخلي يصب في مصلحة الديمقراطيين. لنأخذ قول زينوفييف المأثور: إنه يقصد أن روسيا والشيوعية جوهران منفصلان، لذلك يمكن التسديد إلى أحدهما وإصابة الآخر. تسديدهم سيئ كما يقول، وكان ينبغي أن يسددوا على نحو أفضل وكانت روسيا ستظل سليمة (هذا في الحقيقة كمن يقول: سددت إلى المعطف فأصبت القلب).

لكن ما معنى «اغتيال الحارس»؟ من كان حراس الاتحاد السوفييتي؟ الحزب الشيوعي السوفييتي، الجيش، الـــ ك.ج.ب. مجلس السوفييت الأعلى. من منهم اغتيل؟ أعضاء المكتب السياسي؟ رئيس الـــ ك.ج.ب. كريوتشكوف؟ مندوبو مجلس السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي؟ لقد اغتيل ملايين الكادحين الذين أطعموا هؤلاء الحراس وعلقوا آمالهم عليهم. نعم، ثمة من الحرس من جردوه من سلاحه أو رشوه أو ركلوه على مؤخرته. لكن لم يتم اغتيال أحد منهم – لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك. الحديث يدور عن تآمر الحارس أو توانيه أو عجزه. يجب فهم أسباب ذلك، لكن هذه الاستعارة لن تفقدنا الاتجاه.

لننظر على نحو منفصل في إحدى الاستعارات التي كانت رائجة جداً في الغرب، لكنها تخص الاتحاد السوفييتي. لقد تم فيما بعد بناء الكثير من الأساطير الإيديولوجية داخل الاتحاد السوفييتي أيضاً على نمطها (***«لا يجوز العيش هكذا»***).

قال أحد زعماء الاشتراكية الديمقراطية العالمية، المحترم جداً والمؤثر جداً، فيليبه غونزاليس رئيس الوزراء الإسباني مع فجر البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي إنه «يفضل أن يذبح في محطة مترو في نيويورك على أن يموت مللاً في موسكو». الاستعارة قوية، وقسمها الأول تعيد المخيلة إنتاجه على الفور. إنه يحصر الإنسان في فضاء الذاتوية (autism) التفكيري، وإن كان مع «إشارة معاكسة» - أي أن المخيلة ترسم وضعين غير مريحين مرتبطين بتناسب غير واقعي. لكن اللوحتين المتخيلتين معاً تمتلكان ملامح الواقع ولذلك تبدو الاستعارة أشبه بالحقيقة وتؤثر في الوعي.

لاقى قول فيليبه غونزاليس المأثور صدى كبيراً بين اليساريين الأوربيين، حتى أنه صار مدة من الزمن استعارة تفسر جوهر البيريسترويكا للمثقف الغربي. إنها معبرة جداً وتشكل مخططاً مفصلياً للادعاءات الإيديولوجية للإنتلجنسيا الغربية اليوم(١). يتلخص جوهر الأمر في أن هذا السياسي البارز يستغل صورته وسمعته كي يدعم تياراً سياسياً محدداً. فبما أن الرأي العام في الغرب كان يؤثر بقوة أيضاً في وعي انتلجنسيتنا في الاتحاد السوفييتي، فإن تصريح فيليبه غونزاليس مهم عملياً لنا أيضاً.

لن نناقش تفضيلات غونزاليس الشخصية. فكما يقال: «لكل ذوقه وسلوكه - إحداهن تحب الجبس والأخرى تحب الضابط». لنتحدث عن البنية

---

(١) كان يتكرر في أثناء البيريسترويكا على نحو متشابه مذهل على موائد الغداء الفاخرة التي تقام عادة في الغرب على شرف المحاضر المدعو المشهد ذاته مع فروقات بسيطة. كان الليبرالي أو الإنساني يتكدر بعد أن ينتهي من قطعة الروستو الهائلة، فيمسح فمه بالمنديل ويتنهد: «مساكين البوسنيون. يبدو أن الآلاف منهم سيموتون هذا الشتاء...».ثم تشتعل عيناه فجأة ويرمي المنديل: «لكن ليأخذني الشيطان! هذا أفضل من العيش تحت نير النظام الشيوعي الذي كان يحكمهم في يوغسلافيا!».إن لم تحتمل ودهشت: «لماذا هذا أفضل؟» فسينظرون إليك وكأنك قلت شيئاً بذيئاً.

المنهجية للمعضلة التي بناها. إنها بسيطة وبذلك فهي جيدة من أجل عملنا التطبيقي. لنسر بنداً بنداً.

١- المعضلة المطروحة من قبل الدون فيليبه والتي تؤسس لصورتين تشطر الوعي لأنها مكونة من قسمين غير متناسبين (أشد اختلافاً من الجبس والضابط). الموت مللاً حتى لو حصل في موسكو فهو مجاز، ولا أحد يموت من الملل. أما الموت بالسكين أو الشفرة فهو أمر مطلق. يعد بناء معضلة من قسمين غير متناسبين أداةً للتلاعب.

لماذا إذن التلاعب بالوعي في مقولة غونزاليس مؤثر وغير ملحوظ؟ لأن هذه المقولة تجبر الإنسان على أن يصدق الادعاء المنطقي العقلاني، بعد أن «تُطلق» مخيلته التي ترسم له لوحة مغايرة تماماً لتلك التي يحتويها الادعاء الواضح. لننظر أين يكمن هذا الاستبدال الدقيق.

مهمة غونزاليس هي تسجيل تقويم الحياة السوفييتية في الوعي («العيش في موسكو»). يعطى هذا التقويم من خلال المقارنة مع أشد الحقائق المرعبة وهي ذبح الإنسان في محطة ميترو في نيويورك. لو قيل: برأيي أن العيش في موسكو أسوأ من العيش في نيويورك لما أحدث هذا أي أثر، ولما عاب هذا الحياة في موسكو بشيء. لكن الأثر يتولد بأن الوعي يسجل لوحة مخيفة عن الحياة في موسكو («أسوأ من أن يموت المرء مذبوحاً») بينما ترسم المخيلة خطر الذبح وليس حقيقة الموت المحتم. أي العيش في نيويورك ببساطة.

يتم استكمال عدم تناسب قسمي المعضلة، بصفته وسيلة للتلاعب، بتشويه معناها كله على حساب الانتقال المعدود على أنه معيار الصورة من التفكير العقلاني إلى المخيلة فتزداد فاعلية التلاعب أضعافاً مضاعفة.

٢- تحرر المعضلة المقترحة الإنسان من الحد الأدنى من أخلاقية المحاكمة، فالإيديولوجي نفسه يقع خارج أي من قسمي المعضلة. لإن فيليبه

غونزاليس لن ينزل أبداً إلى محطة مترو في نيويورك، ولن يشعر بالملل أبداً في موسكو. إن بناءه هذا تحريضي.

ثمة معيار ثقافي (أو وهم أو حتى تابو) يمنع أن تقترح ما لم تختبره في تجربتك الخاصة على أنه أمر مرغوب فيه أو مقبول. القول «إنني أفضل أن يغرسوا في جسدي سكيناً (وأنصحكم بأن تقبلوا الأمر نفسه)» مسموح فقط لمن جرب ذلك ويستطيع أن يقول إن هذا فعلاً ليس مرعباً كما يظن الآخرون. لكن ثمة الكثير من الأسس كي نفترض أن اشتراكينا الديمقراطي ما إن تنغرس السكين في جسده – ولو قليلاً، بمقدار نصف سنتمتر – حتى يغير رأيه وسيختار البديل، أي أن يصاب بالملل في موسكو.

٣- يحتوي القول المأثور هذا حين يعني «بسكان موسكو» المتخيلين الناسَ السوفييت (يدور الحديث عن وضعهم) على خداع ثان – إنه يطرح معضلة كاذبة. ليس مطروحاً على سكان موسكو العاديين في الواقع أي بديل: إما السأم في مدينتهم أو السفر إلى نيويورك والمخاطرة هناك بحياتهم في المترو. ما يقترحه الدون فيليبه في الحقيقة هو نقل هذه المخاطرة المذكورة إلى مترو موسكو. بكلمات أخرى تدمير النظام الممل.

إن الغرب في هذه الحال يحذر صادقاً على لسان رئيس الوزراء الإسباني من أن إزالة النظام السوفييتي الممل يحمل معه لا محالة خطر الذبح في المترو كما يحدث هذا كثيراً في نيويورك. لكن هذا هو الأفضل على الأرجح كما يعلن خبير الغرب الذي وثقت به بصدق في ذلك الوقت غالبية السكان في موسكو. من تقبل هذا الادعاء وأدرجه في فهمه للعالم فإنه ينفذ القسم المتاح له من المعضلة، والقسم المتاح أكثر هو تمكين موسكو من أن تصير مثل المترو في نيويورك. لقد أعلن الإيديولوجي الغربي في حقيقة الأمر أن إنشاء وضع المترو النيويوركي في موسكو سيجلب الخير لسكان موسكو جميعاً – لن يصابوا بالملل. وهذا عموماً ما حصل، انحصر الخداع

في أن هذا خير بالمجمل. لكن استلزم الأمر دفع ثمن ما لقاء التخلص من الملل، وهذا ما لم يأت أحد على ذكره.

٤- ترفض المعضلة الأنموذج الفلسفي السابق للاشتراكية الديمقراطية الغربية كله. تقترح القضية الملخصة على شكل استعارة دقيقة (ولهذا هي مؤثرة) مسطرة قياس للقيم لم تُعتمد قط من قبل الاشتراكيين الأوربيين اعتماداً واضحاً. لماذا يصاب إنسان شريف ومهذب ومتوافق بصفاته مع صورة مؤلف المعضلة بالملل إلى هذا الحد في موسكو السوفييتية حتى «يفضل أن يذبح»؟

واضح أن الكلام لا يدور عن النوعية السيئة لخيرات محددة («أريد أن أسمع أوبرا في لا سكالا وليس في مسرح البولشوي[١] – وإلا فاذبحوني»). هذا معناه أن الأمر يكمن في قيم سامية ما. لننظر من يصاب حقاً بالملل في موسكو لأن مُثُل هذا الإنسان تحديداً هي التي يضعها اشتراكينا الديمقراطي على رأس مسطرة القيم[٢].

لقد عرف فيليبه غونزاليس تمام المعرفة أن في موسكو وحدها عدد المسارح أكبر مما في إسبانيا كلها. ويمكن بثمن كأس من الجعة في أحد مطاعم مدريد الشعبية (كي يعرف مستهلكونا أن الجعة تحتسى بالكؤوس هناك) شراء خمسة كتب جيدة أو اسطوانات ذات سعة كبيرة في موسكو. كان الاطلاع على أدب البلدان الأخرى في موسكو ذلك الزمان أوسع وأسرع بما

---

(١) **لا سكالا** مسرح الأوبرا في ميلانو في إيطاليا، افتتح عام ١٧٧٨. **مسرح البولشوي** (الكبير) في موسكو. تأسس عام ١٧٧٦. (**المترجم**).

(٢) ليس لهذا طبعاً سوى معنى منهجي. حين يشعرون بالملل في روسيا فإنهم يقيمون ثورة أو بيريسترويكا، وتصير الحياة غير آمنة وآسرة. إذا فقدت في ليلة واحدة مدخراتك كلها أو انخفضت قدرة مرتبك الشرائية عشر مرات فإن المشاجرات في شوارع نيويورك سوف تبدأ تبدو لك مملة.

لا يقاس مما كان عليه في إسبانيا. لقد عمل في موسكو قرابة ٧٠٠ ألف موظف علمي ومصمم ما كان نوع عملهم نفسه ليسمح لهم بأن يصابوا بالملل (أن يفضل اليوم الكثيرون منهم ممارسة التجارة قرب المترو فهو تحديداً خيار شخصي). الإنسان الذي قدر عالياً القيم الروحية والثقافية والفكرية لم يمتلك أي مبرر للسأم في موسكو[١].

لم يكن كذلك لدى القسم الأكبر من المجتمع الذي يجذبه منظر الرياضة أي مبرر للانتحار مللاً في موسكو. كانت موسكو بصفتها عاصمة رياضية تحتل بتنوعها ونوعيتها مرتبة أعلى بكثير من مدريد أو سلمنقة. كذلك لم يكن يشعر بالملل من لم يكتف فقط بإطعام أطفاله بل راح يربيهم أيضاً – كانت لديه من الوسائل ما يكفي لذلك، ولم يكن مضطراً إلى أن يجعل فتيانه المساكين حمقى بأفلام الفيديو السخيفة تماماً التي يتغذى بها ابن المثقف الغربي المتوسط منذ الثانية من عمره.

كانت حصة الفرد في موسكو من موائد الأصحاب العامرة بالشراب والضحك والنقاش أكبر بما لا يقاس من أي عاصمة أوربية. يقولون: لم تكن بينها تلك الألعاب السياسية التي تجذب الكثيرين. هذا أيضاً غير صحيح. فمن أين أتت جماعات الديمقراطيين والراديكاليين؟ هل استوردوهم من باريس؟ لا، إنهم «يلعبون» منذ ثلاثة عقود في موسكو، وعلى نحو يتسم بأقل قدر من الملل: بهيئة العملاء السريين الغامضة، لكن بحماية مضمونة من قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي، وبالتربيت الودي على الكتف في أثناء سفراتهم العديدة إلى الغرب. وماذا في الأمر إن «قمعوا» بعضهم- فأي عمل سري من غير هذا، أي نضال بطولي وأي شمولية؟ ينبغي أن يكون كل شيء وكأنه حقيقي.

---

(١) نؤكد، عموماً. على أن معضلة الدون فيليبه لا تمس مشكلة السأم والأسى الإبداعي – أي المكون الروحي المهم لكل كائن بشري، والذي من المستحيل الهرب منه إلى نيويورك. لن نمس نحن أيضاً هذه المسألة.

أستطيع بالمقارنة بين الواقعين أن أؤكد على أن الحياة في موسكو التي اندمج فيها الكثيرون من المثقفين كانت أكثر نشاطاً من مدريد أو نيويورك.

إذن مع أي صنف من المصابين بالملل يتضامن ليبرالِيُّنا؟ إنه يتضامن مع مجموعة اجتماعية محددة بدقة. إنهم أولئك الذين لا تجذبهم أي تسلية من التسليات المذكورة أعلاه، والذين تقلصت طموحاتهم حتى أدنى مستويات الاستهلاكية – حتى ***استهلاكية الصور***. لم تكن تكفيهم واجهات المحلات، ولا السلع. لقد عانوا من أنهم كانوا مضطرين إلى احتساء الجعة من الزجاجة وليس من العلب الصفيحية (كما في الغرب). عانوا لأن الفتيات أحببنهم مجاناً– أما هم فكانوا يرغبون في المومسات الأنيقات. حتى في السياسة جذبتهم المشاجرات والصفعات التي يتبادلها النواب في البرلمانات الديمقراطية. النواب في إيطاليا يليحون بالمماسح – هاكم أي نضال ضد الفساد! هذه هي السياسة!

واضح أن النظام الذي كان قائماً في موسكو لم يكن يلبي الحاجات الحياتية لهذه المجموعة الاجتماعية، وجعل حياتها مملة على نحو لا يطاق. لا شك في أن هذا عيب كبير في المشروع كله المسمى «الاشتراكية الواقعية». واضح بالقدر نفسه أن تدمير هذا المشروع وتفجر الجريمة في موسكو لن يساعدا فعلياً على تلبية الحاجات المذكورة، بل يقترحا على الناس مخرجاً من النوع اللااجتماعي وإحساساً خادعاً بالرضا الذي يتم الوصول إليه على حساب أناس آخرين – وفي هذا البند أيضاً تكذب معضلة الدون فيليبه.

لكن لنشدد على الأمر الرئيسي: يستعين هذا السياسي في مقولته باهتمامات وقيم لم يعلن عنها أي مجتمع على أنها أولوية. إنه يقدم تلك المجموعات من الناس الذين يعدون هامشيين حتى في مجتمعهم الاستهلاكي الراديكالي على أنهم حملة القيم العالية. هل يعقل حقاً أن هذا هو المعنى الحقيقي لفلسفة الاشتراكية الديمقراطية الحالية؟ كلا طبعاً، فمقولة فيليبه غونزاليس هي ببساطة عنصر من برنامج التلاعب بالوعي.

٥- تعني المعضلة المقترحة، إذا ما قبلناها جدياً، انهيار الأنموذج الأنتروبولوجي كله لقوى اليسار في الغرب. قدم الإنسان فيها على أنه منتج معقم من منتجات التلاعب، ومحروم من أي حرية إرادة شخصية. إن هذا أنموذج مأخوذ من مذهب السلوكية المتطرف المخترق بالميكانيكية والحتمية والذي يصور الإنسان على أنه دمية تهز أطرافها تحت تأثير «المحفزات». هل يعقل أن يصاب الإنسان بالملل أو يفرح تبعاً للنظام السياسي؟ حتى الجرذ الذي غرست الإلكترودات في دماغه يبدو مخلوقاً أعقد وأكثر حرية!

إذا كانت أنتروبولوجيا الاشتراكية الديمقراطية هكذا في الواقع فإن دوستويفسكي كان محقاً حين تنبأ عند مراقبته ارتقاء المجتمع الغربي المعاصر بتحول الإنسان إلى مخلوق متلاعب به. ولكي لا يصاب هذا المخلوق بالملل فإن هذا المجتمع يقدم له، ما عدا الخبز الأرضي، أذناً بارتكاب الخطيئة المراقبة (كأن تدعم الدولة في الغرب بيع الواقيات الذكرية)، وبهجة أغاني الأطفال (كالسينما الهوليودية المشهورة). هذه هي تحديداً الأشياء الثلاثة التي يوافق زعيم الأممية الاشتراكية كرمى لها على أن يضحي بحياته على يد الزعران في نيويورك. والأدق أنه يدعو رعيته الروحية إلى الإقدام على ذلك[(١)].

٦- أخيراً، ثمة غش دقيق آخر يمكن أن نسميه خطيئة المعضلة المطروحة للنقاش. على الرغم من أن هذه الكلمة مأخوذة من لغة المجتمع المدني فإن المفاهيم القديمة تخطر في الذهن في لحظات الأزمات الصعبة كالتي تتهدد اليوم.

---

(١) إن قبول هذا الأنموذج للإنسان يعني القطيعة مع الأنتروبولوجيا المسيحية. وهذا ما أسماه دوستويفسكي إرسال المسيح إلى المحرقة («المفتش العظيم»)، أما المؤرخ واللاهوتي رومانو غفارديني فقد عنى ذلك حين حذر قائلاً: « سترمي الحضارة الغربية جانباً القيم المسيحية المعلمنة التي عاشت متطفلة عليها».

إن أي شخص بالغ يعرف أن ما يشغل المرء ابتداءً من سن معين ليس وجوده الشخصي بقدر ما تشغله حياة أقربائه، وبالدرجة الأولى أولاده. المعضلة التي يدور الحديث عنها تم اقتراحها في شكلها العام – فالسياسيون لا يتحدثون عن شخصهم بل يشكلون تصورات من أجل المجتمع. هذا معناه: «أن الأفضل لي، ولك، ولولدي، ولولدك... الخ أن نذبح في المترو».

وهذا ما لا يملك الحق في ادعائه حتى ذلك الذي ذبحوه في مترو نيويورك – بل وحده من قتلوا ابنه. حينئذ فعلاً يستطيع أن يخرج إلى الصحافة والتلفزيون ويقول للعالم كله إنهم ذبحوا ابنه، وقد اتضح أن هذا ليس مرعباً إلى هذا الحد («هذا، ليأخذني الشيطان، أفضل على الرغم من كل شيء من أن يصاب ابني الحبيب بالملل في موسكو!». إن لم تعان من ذلك فخطيئة كبرى أن تتوجه بمثل هذه القضية إلى العالم، حيث يموت كل يوم عدد أكبر فأكبر من الأبناء. إنهم يموتون في روسيا لأن نخبتنا المدعومة من الديمقراطية الغربية قد أصابها الملل من العيش في موسكو السوفييتية.

٣- الصور النمطية STEREOTYPE

الاستعارات هي قوالب جاهزة للتفكير، لكنها قوالب جذابة جمالياً. إنها ***صور نمطية*** معبر عنها فنياً. تعد الصور النمطية الاجتماعية أحد «المواد» الأساسية التي يتسلح بها المتلاعب. جاء في المعجم أن: «الصورة النمطية الاجتماعية هي جملة راسخة من التصورات تتكون في الوعي كما على أساس التجربة الحياتية الخاصة كذلك بمساعدة مصادر المعلومات المختلفة. يتم إدراك الأشياء الواقعية والعلاقات والأحداث والشخصيات الفاعلة من خلال موشور الصور النمطية. الصور النمطية هي مكونات أساسية للوعي الشخصي والجماهيري. ويحدث بفضلها الاختصار الضروري للإدراك وغيره من العمليات الإخبارية والإيديولوجية في الوعي...». عادة تتضمن الصور النمطية في ذاتها علاقة الإنسان الانفعالية بالأشياء والظواهر بحيث

يدور الحديث عند معالجتها لا عن المعلومة والتفكير فقط، بل عن عملية اجتماعية نفسية معقدة.

لا يستطيع إنسان واحد أن يستمر في الحياة من غير «التلقائيات» في الإدراك والتفكير – لن يكفيه لا الوقت ولا القوة النفسية للتفكير من جديد بكل موقف. وبذلك كما أن الصورة النمطية تتسم بالرسوخ كأداة ضرورية للإنسان من أجل الإدراك والتفكير، كذلك يمكن أن تُظهَّر وتدرس وتستخدم بصفتها هدفاً للتلاعب. بما أن منفعتها للإنسان تنحصر في كونها ضرورية للإدراك والتقويم السريعين ومن غير تفكير فإن المتلاعب يستطيع استخدامها «كفلاتر» ترى الضحية من خلالها الواقع[1].

طرح الصحفي الأمريكي المشهور ولتر ليبمان في كتابه «الرأي العام» (١٩٢٢) مقولة كاملة عن ***التنميط*** بصفتها أساساً للدعاية. كتب قائلاً: «من بين وسائل التأثير في الإنسان كلها فإن الوسيلة الأرهف والمتمتعة بقوة إيحاء استثنائية هي تلك التي تشكل سلسلة من الصور النمطية وترسخها. إنها تحدثنا عن العالم قبل أن نراه. إننا نصور لأنفسنا غالبية الأشياء قبل أن نتعرف عليها في التجربة. وهذه التصورات المسبقة، إن لم يحصننا تعليمنا، تتحكم من الأعماق بعملية الإدراك كلها».

تأسست الدعاية التجارية والماركات التجارية على قوة الصور النمطية السحرية. يبني الترداد المتكرر للكلمات والأشكال التصور النمطي عن النوعية العالية لسلعة من السلع ويسجن هذا التصور في اللاوعي. ولدى رؤية العلامة التجارية («مرسيديس»، «أديداس»...الخ) فإننا نكون مقتنعين بلا تفكير أن أمامنا شيء جيد. الصورة النمطية تعمل. حتى أن «ثقافة» كاملة قد

---

(١) لذلك فإن أحد أهم مبادئ الدفاع ضد التلاعب بالوعي يتجلى «في التخفيف من السيناريوهات النمطية في السلوك، وتوسيع مدى الأفكار الجاهزة والطرائق المتاحة». مفهوم أن هذا يحتاج إلى بذل جهود كبيرة.

ظهرت هي ثقافة تقليد العلامات التجارية بحيث لا تميز العين ذلك الفارق الذي تتضمنه حتى لا ينشب نزاع حول حقوق الملكية. أحد الصناعيين اليابانيين بدل لقبه فصار ميتشيموتو زولينغين- وراح ينتج سكاكين كتب عليها م. زولينغين. ولم يحصل الألمان في المحكمة على شيء. إن مثل هذه المحاكاة التي لا نلحظها دائماً منتشرة انتشاراً واسعاً(١).

إذا نجح دفع جماهير كبرى من الناس لرؤية الظاهرة الاجتماعية من خلال الصورة النمطية التي يحتاج إليها المتلاعب، فإنه يصير من الصعب جداً على غير الموافقين أن يدعوا الناس إلى المعنى السليم، وإقناعهم بأن يتوقفوا ويفكروا ولا يتخذوا قرارات سياسية متسرعة. أشار نيتشه: «بما أن الوقت لا يكفي للتفكير والهدوء في التفكير، فإنهم اليوم لا يناقشون الآراء غير المتوافقة، بل يكتفون بأن يكرهوها فقط. تتعلم الروح والنظر مع هذا التسارع الخرافي في الحياة على التأمل والمحاكمة غير الكاملين أو المزيفين، ويصير كل إنسان شبيهاً بالرحالة الذي يدرس البلاد والشعب من نافذة عربة القطار».

ليس لزاماً على تأكيدات المتلاعبين أن تتطابق مع الصور النمطية. يتم أيضاً تأمين التغطية للتلاعب عبر التصريحات المتناقضة إلى حد السخف مع

---

(١) أهداني أحدهم آلة حاسبة من ماركة جيدة – sharp. الأحرف معروفة. لم ألحظ إلا بعد عدة سنوات أن المكتوب على الآلة هو كلمة «shrap». أهديت منذ وقت قريب إبريقاً كهربائيا من ماركة «زانوسي». تبين أن هذا أسوأ من الآلة الحاسبة إذ اضطررت إلى احتمال بعض العذاب من أعطاله. حين فككته مرة أمعنت النظر في الماركة: Sanussi! لكنها مكتوبة بحيث تقرأ كالمعتاد Zanussi. ظهر لدينا أيضاً أمثال هؤلاء المعلمين، ففي دعاية اتحاد العقاريين الإستراتيجي (اختصار الأحرف الأولى من كلماته بالروسية CCP (**المترجم**)) - «علامة الجودة» التي تدفئ روح الإنسان السوفييتي. تنشأ الثقة على الفور حتى قبل أن تلحظ أن المكتوب هو CCP وليس CCCP (اختصار الأحرف الأولى من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية باللغة الروسية (**المترجم**)). لكنك لن تستطيع الاعتراض فهذه هي علامتهم الجديدة.

الصور النمطية – المهم هو حصر التفكير في أخدود ممهد. دعا أ. موراشوف الرئيسُ الثاني لحركة «روسيا الديمقراطية» إلى مقاطعة المحادثات السوفييتية الأمريكية في بداية عملية البيريسترويكا، لأنها، كما قال، تصب في مصلحة «إمبراطورية الشر». وحين خطب ضد زيارة جورج بوش إلى موسكو، قدم درة من درر العقل الديمقراطي قائلاً: «إذا ذهب جورج بوش إليها على الرغم من كل شيء، فإن الديمقراطيين سيتظاهرون في موسكو تحت شعار "بوش نصير الشيوعيين"»(١).

تصير مهمة المتلاعبين أسهل حين تكون الصور النمطية المستهدفة قليلة نسبياً، وخصوصاً لدى الإنتلجنسيا المخترقة بالتفكير العقلاني (أي غير المثقلة بالتقاليد والرؤية الدينية للعالم). يضع مثل هذا التفكير قسماً صغيراً من التجربة الإنسانية كلها في الوعي، وهذا القسم «يترسب» في الذاكرة على شكل صور نمطية لاستنتاجات كاملة وجاهزة ومدروسة ويتم التعرف عليها بسهولة (إن لم يكن حرف الألف فحرف الباء) (٢).

ينجح في المحكمة في إحدى الروايات البوليسية النفسية الإنكليزية المجرم ومحاميه المستهتر بالقوانين في التلاعب بالمشاركين الآخرين في الدراما. شاء القدر أن تجد امرأة سافلة نفسها وصية على صبي ورث ثروة كبيرة. راحت تحرض الكراهية في نفسه. وجد الصبي العزاء في أرنبه، فقتلته بحجة الخوف من الأمراض الجلدية (دسته في المدفأة المشتعلة أمام الصبي). ثم رمت أمامه صحيفة تصف جريمة قتل – تسميم بغبيرات

---

(١) عموماً، ربما كان موراشوف يحاول في ذلك الوقت أن يبين على هذا النحو أنه لم يستلم نقوداً لقاء خدماته من بوش نفسه (كانت الوثائق المالية قد تسربت إلى الصحافة الأمريكية في ذلك الوقت تحديداً).

(٢) أدرج إ. غوسيرل «ترسيب» (SEDIMENTATION) التجربة على شكل صور نمطية. إن هذه العملية تختصر على المتلاعب جملة من الجهود والنفقات.

الأرغوت (ergot) المخلوطة في السَلَطة. فعل الصبي الشيء نفسه وتناولا معاً صحفة من السلطة السامة- لم يكن في مقدور الصبي الصادق أن يفعل أي شيء آخر. خرجت إلى الحمام وغسلت معدتها، أما هو فمات.

بدأ التحقيق والمحاكمة. كان المحقق والقاضي والمحامي مدركين لكل شيء إدراكاً رائعاً، لكن لم يكن ثمة أدلة مباشرة – الجلي هو محاولة طفل عصبي قتل مخلوق يكرهه، وإن كان الثمن حياته نفسها (حتى أن الطفل اعترف بذلك قبل موته). ارتبط الحكم بالمحلفين. فبنى المحامي دفاعه على الصور النمطية في تفكيرهم. لقد درس كلاً منهم تبعاً للمصادر التي توافرت لديه ومن ثم راح يراقب سلوكهم في المحكمة.

كان الهدفَ الأصعبَ شابٌ ذكي ومتعلم ومرهف. لكن المحامي اكتشف أنه ماركسي، وبنى جزءاً من مرافعته على أساس طبقي خصيصاً له. المتهمة متحدرة من أسرة بروليتارية وعملت طوال حياتها في خدمة الأسياد الأغنياء، وكونت لهم قيمة مضافة، وكانت مغرَّبة عن التعليم والثقافة، خشنت طباعها لكنها نفذت واجباتها بشرف بقدر ما استطاعت. وها هو المجتمع البرجوازي ينتقم منها... الخ. لم يفهم المحلفون الآخرون شيئاً من هذا الجزء، فقد تم تحضير جزء خاص لكل منهم بلغة صوره النمطية تحديداً. وكان أن برأوا القاتلة جميعهم مع أنها لم تكن موضع إعجابهم.

لنجاح التلاعب بالوعي الاجتماعي يجب امتلاك «خارطة صور نمطية» موثوقة لمجموعات السكان وفئاتهم المختلفة – أي السياق الثقافي للمجتمع المعني كله. وقد أُنجِز حجم كبير من الأبحاث في هذا المجال من قبل الأخصائيين الأمريكيين العاملين على دراسة البنى الفكرية لدى المجموعات النافذة في البلدان الأجنبية بهدف التأثير فيها في الاتجاه الذي يخدم الولايات المتحدة («كي تثير السياسة الخارجية الأمريكية الإعجاب أو كي يتم قبولها بلا اعتراض بالحد الأدنى»). هذا المجال من التلاعب العولمي بالوعي يسمى

بخجل في الولايات المتحدة «دبلوماسية شعبية». وقد تشكلت بصفتها مجالاً خاصاً من مجالات الدينامية الاجتماعية للثقافة[1]. بذلت الجهود الأكبر في الولايات المتحدة من أجل دراسة الصور النمطية الثقافية لدى شتى مجموعات السكان في الاتحاد السوفييتي (خصوصاً الإنتلجنسيا بصفتها القوة الرئيسية التي تبني شرعية الدولة أو تهدمها). وتثير دقة الباحثين الأمريكيين في الشؤون السوفييتية وموضوعيتهم الإعجاب من وجهة النظر الاحترافية. لقد عثروا على الأوتار التي يجب اللعب عليها.

من المهم خصوصاً استخدام الصور النمطية في «الاستحواذ على الجمهور». و«الاستحواذ» هو أحد العمليات الأساسية في التلاعب بالوعي. يجذب المتلاعب في أثناء تنفيذها انتباه الجمهور ثم يحافظ عليه و«يضمه» – أي يجعله مناصراً لأحكامه (يولد إحساساً بالانتماء إلى الـ «نحن» الوحيدة نفسها). يتكيف المتلاعب في هذه المرحلة مع صور الجمهور النمطية ولا يناقضها. فمهمته هي اكتساب الثقة، فيبدو وكأنه يطلق نداء: «نحن وإياك من دم واحد – أنت وأنا».

ينصح عالم النفس الاجتماعي البارز ف. زيمباردو: «تزداد فاعلية المتصل إذا عبر في البداية عن آراء متوافقة مع وجهة نظر الجمهور... تخيلوا أحد جانبي الحجة إذا كان الجمهور مؤيداً. تخيلوا جانبي الحجة إذا كان الجمهور غير متفق معكم أو إذا كان ثمة احتمال أن يسمع الجمهور حكماً مناقضاً من شخص آخر». الأمر الرئيسي هو أن لا تثير لدى الناس الشك في أنك تنوي التلاعب بهم.

---

(١) يدرس خبراء الولايات المتحدة الوضع المضمون للقضايا ولا يسمحون للسياسيين بإدارة الأمور بغباء. فقد حكموا، مثلاً، بأن جماهير الأمريكيين صدقت بسهولة أن كنيدي قد قتل على يد وحيد مجنون، لكن الأوروبيين لا يصدقون ذلك. إنهم يظنون أن قتله كان مؤامرة كبرى أخفيت حقيقة وجودها عن المجتمع. وهكذا استثنيت فرضية القاتل الوحيد من الدعاية في أوربا.

مدهش كيف يتسنى لناشطي آلة التلاعب الإيديولوجية حتى الذين باتوا مكروهين أن يعيدوا بناء علاقتهم الطيبة مع الجمهور حين ينتقلون إلى لغة الصور النمطية القريبة من قلبه. يبدأ التلفزيون المعادي للمرحلة السوفيتية يستخدم فجأة العبارات السوفييتية قبل ثلاثة أشهر أو أربعة من الانتخابات، ويبث الأفلام والأغاني السوفيتية، فتلين غالبية الجمهور وتبدأ تثق من جديد بالمذيعين الذين كانوا مكروهين حتى الأمس («انظر، لقد تغيرت ميتكوفا، عادت إلى رشدها»).

أظهر المحلل س. دورينكو من القناة الأولى في التلفزيون الروسي مثالاً تعليمياً خالصاً في عملية «الاستحواذ» في ٥ شباط من عام ٢٠٠٠. حضّر في البداية تقريراً إخبارياً وطنياً تماماً من الشيشان، وتحدث حديثاً جيداً مع الجنرال كازانتسوف، ثم مع الجنود، وكل ذلك ضمن الحدود من غير أن يثير نفور الإنسان الطبيعي. حتى أنه ألمح بشيء ما إلى خيانة ليبيد وتشيرنوميردين عام ١٩٩٦. دبت الحيرة - ما الذي حدث حتى بدأ يتكلم بصوت إنساني. وفجأة، ومن غير أي مقدمات، ربط ذلك كله «بخيانة قيادة قوات الأمن الاتحادية»، التي لاحقت اثنين من العاملين فيها رفضا، كما قيل، «اغتيال بيريزوفسكي». كان هذا نزاعاً بين مجموعتين في السلطة لن نستطيع الخوض في تفاصيله مهما فعلنا. يدور الحديث هنا عن كيف استطاع س. دورينكو بمهارة تليين وعي المشاهد كي يوحي له بفكرته السياسية الرئيسية (وهي بالمناسبة مدمرة عموماً للدولتية).

تستخدم في التلاعب، كقاعدة، الصور النمطية التي ترسبت مسبقاً في الوعي. وكما كتب غ. لاسويل في كتابه الأول عن الدعاية، «مهمة الداعية تنحصر عادة في التمكين أكثر من الاختلاق». لكن الصور النمطية الجاهزة لا تستخدم مباشرة، بل أغلب أحيان بأسلوب ما يسمى، ***شق الأقنية*** أو ***تبديل*** الصور النمطية. مثلاً، كانوا في الدعاية المعادية للسوفييت يضغطون بقوة

كبيرة جداً على مشاعر العدالة والمثل الموازِنة لدى الأناس السوفييت. بدأوا تدريجياً يحلون محل الصورة النمطية عن النفور من الكسب بغير العمل صورة نمطية عن النفور ومن ثم عن الكراهية تجاه فئة الموظفين المستغِلة كما يدعون للطبقة الكادحة. ***شقوا أقنية*** استياء الناس باتجاه العاملين في الإدارة المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بصورة الدولة. استخدم هذا الأسلوب بنشاط عند تأجيج النزاعات القومية. يتلخص جوهره في التغيير التدريجي للسياق الذي تغرس فيه الصورة النمطية والشكل الذي تراه مجموعة اجتماعية ما. وهذه التغيرات الصغيرة لا تتناقض مع الصورة النمطية المعتادة. لقد عبر عن هذه الفكرة غيبيلس: «تصورات الجمهور الموجودة يمكن أن توجه إلى أهداف جديدة بوساطة كلمات تقترن مع وجهات النظر الموجودة».

غالباً ما يستلزم التلاعب التشديد المسبق على صورة نمطية وحتى بناؤها – أي «طرْقُ الأخدود»، «شق الأثلام». يدور الحديث عادة عن صورة نمطية ***متوهمة***، أي الإيحاء بفكرة أو تفسير كاذبين، بحيث تصير معتادة وتكتسب صفة البداهة («إذا حُلَّت الكولخوزات فستحدث وفرة في المنتجات»). إذا كان برنامج التلاعب ذا طابع طويل الأمد كما كان مثلاً في عملية البيريسترويكا، فإن مثل هذه الأعمال التحضيرية يمكن أن تنجز سلفاً من غير أي إجهاد تلاعبي، ومن غير إثارة أي شكوك.

إذا تسنى بناء صورة نمطية كبيرة وقوية وتجذيرها فإن بالإمكان بعد ذلك استخدامها طويلاً ولأهداف مختلفة جداً. ففي نهاية الأربعينيات وفي الخمسينيات بذلت في الولايات المتحدة جهود كبيرة لبناء تصورات نمطية عن الاتحاد السوفييتي بصفته «إمبراطورية الشر»، التي تهدد مصالح الأمريكيين جميعاً. لقد كمنت هذه الصورة النمطية في أساس التبرير الإيديولوجي للحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي. بعد ذلك صارت الاستثمارات الابتدائية تعطي إيرادات سياسية كبيرة، وصار بالإمكان تبرير الكثير من عمليات الولايات

المتحدة بضرورة الصراع ضد «الخطر الأحمر». عام ١٩٨١ كتب الفيلسوف صموئيل هنتينغتون الرائج اليوم في الغرب: «مرة أخرى نضطر إلى أن نصور [تدخل الولايات المتحدة، أو غيره من عملياتها الحربية] بحيث يتكون انطباع كاذب بأنها عملية حربية ضد الاتحاد السوفييتي. إن الولايات المتحدة تتصرف على هذا النحو منذ زمن مذهب ترومان». أي كان عليهم تفسير التدخل في جمهورية الدومينيكان أو لبنان، لكن ما دام يقدم على أنه عمل ضد الاتحاد السوفييتي، فلا يتطلب الأمر أي إيضاحات – فالصورة النمطية تعمل عملها.

يخفي السياسيون أحياناً ممارساتهم متحدثين عنها كما يتحدثون عن أمر سخيف ومحيلين إلى المماثلات المتموضعة في الوعي على شكل صور نمطية. فقد ساعدت الولايات المتحدة مثلاً جلاد كمبوديا بول بوت[١]. لكن الأمر لم يكن مريحاً! هذا معناه ينبغي تكذيب ذلك. فكيف تم تكذيبه؟ يكتب نعوم تشومسكي: «راحت الولايات المتحدة للمرة الأولى بعد أعوام الحرب تدعم المجموعات التخريبية التي شكلها هتلر في أوكرانيا وأوربا الشرقية. ساعدها على القيام بذلك أناس مثل رينهارد غيلين رئيس الاستخبارات العسكرية لدى النازيين على الجبهة الشرقية، الذي عينته إدارة المخابرات المركزية رئيساً لعمليات التجسس في ألمانيا الغربية، وكلفته بتشكيل "جيش سري" من آلاف أعضاء الـــ س س[٢]، عليه أن يساعد المجموعات العاملة

---

(١) **بول بوت** (ولد عام ١٩٢٨) – عام ١٩٧٦- ١٩٧٩ رئيس النظام اليساري المتطرف في كمبوديا المسمى «الخمير الحمر». عاش منذ عام ١٩٧٩ في المهجر. (**المترجم**).

(٢) **س.س.** (SS اختصار الكلمة الألمانية Schutzstaffeln- فصائل الحماية) منظمة فاشية، وإحدى دعائم النظام الفاشي الأساسية. تزعمها عام ١٩٢٩غيملر، وقد ارتكبت أعمال إرهاب جماعي في ألمانيا والبلدان التي احتلت في الحرب العالمية الأولى. عدت هذه المنظمة منظمة إجرامية في محكمة نيورنبرغ (**المترجم**).

داخل الاتحاد السوفييتي. بدا ذلك غير متوافق مع المعنى السليم إلى حد جعل معه أحد المختصين في الشؤون الدولية المطلعين جيداً من صحيفة «بوسطون غلوب»، يورد، وهو يدين دعم الولايات المتحدة السري للخمير الحمر، التشبيهَ التالي بصفته أعلى درجات السخف: "هذا يشبه تماماً كما لو أن الولايات المتحدة قد راحت تتغامز مع حركة النازيين السرية التي ناضلت ضد السوفييت عام ١٩٤٥". لكن هذا ما فعلته الولايات المتحدة تحديداً في بداية الخمسينات- ولم تكتف بالتغامز فقط!». لم تحم الصورة النمطية «لا يجوز مساعدة عدو الحليف» إدارة المخابرات المركزية من افتضاح أمرها في بداية الخمسينيات وحسب، بل حتى صعبت عملية فضحها في السبعينيات أيضاً بالمماثلة.

الصورة النمطية المعادية للسوفييت والمعادية للشيوعية (والمعادية في الواقع للروس) قوية إلى حد أنها ما زالت تفعل فعلها بعد سنوات كثيرة من انهيار الاتحاد السوفييتي وانتقال السلطة في روسيا إلى أعداء الشيوعية. ففي عام ١٩٩٦ اكتشفت في النمسا مقبرة جماعية لعدد من الناس أعدموا بالرصاص. يبين التلفزيون المتعطش إلى الجثث مع التحذير المنافق («المشاهد التي سنعرضها قاسية على الإدراك») بأدق التفاصيل استخراج الرفات وهو يكاد يدس الكاميرا في الجماجم. ثمة في حفرة واحدة ما بين ألفي جثة إلى ثلاثة آلاف. فمن الذي أعدم النمساويين؟ الروس طبعاً. يكتب محلل الصحيفة الإسبانية «بايس» متهكماً: «ما انفك الروس عن أن يكونوا قتلة بطبيعتهم، هذا هو عرقهم – يقتلون الشيشانيين، وكل من تقع عليه يدهم عموماً. هل هم سيئون هكذا لأنهم كانوا شيوعيين؟ أم أنهم كانوا شيوعيين لأنهم سيئون؟». ثم ينبئ لاحقاً بأن ما نتج كان مخجلاً – لم يصل الروس إلى تلك الأماكن في النمسا. هذا معناه أن رفات أولئك المساكين تعود لسجناء في معتقل ما نقلهم النازيون إلى هنا وأعدموهم كي يموهوا أثرهم. ها هم السفلة! لكن الموقف المخجل مرة أخرى – الأسنان في الجماجم كلها متينة وفيها آثار

التغذية الجيدة، لا بل إن بقايا الخرق تدل على أنها كانت لضباط. ظهر مؤرخ ذكي وشرح أن هذه رفات ضباط نمساويين أعدمهم نابليون. لكن علماء الآثار سخروا منه- فالطبقة الجيولوجية ليست تلك الطبقة، وعمر الرفات غير مطابق. أخيراً، برق نبأ قل من لحظه، وهو أن هذه المجزرة الجماعية هي من فعل أيدي اليانكي الطيبين، ليختفي بعد ذلك أي ذكر لهذه الحادثة. لا تتطابق مع الصورة النمطية! لو كانت الجيوش السوفييتية في تلك المنطقة من النمسا لما برزت أية مشكلة على الإطلاق، ولما راح أحد يدرس ويشكك، ولكان غورباتشوف ويلتسين ذاتهما سيعترفان بذلك.

إن البرنامج المؤثر المتعلق بتكوين الصورة النمطية قد نُفِّذ في الصحافة الغربية والتلفزيون في أثناء الحرب في البوسنة، وحصل على اسم «شيطنة الصرب». إذا كان المنظرون في زمن ريغان قد أدخلوا في الاستعمال مفهوم «إمبراطورية الشر»، فإن هذا كان مرتبطاً بالشيوعية شكلياً على الأقل. أما الآن فإن شعباً بأكمله كبيراً نوعاً ما كجماعة إثنية قد سمي «وليد جهنم»(١).

شكلت الحملة بين عامي ١٩٩٣ - ١٩٩٥ لشيطنة الصرب في الصحافة الغربية تجربة كبرى في التلاعب بوعي المواطن الغربي. نشرت أيضاً مقالات مهمة مخصصة «لشيطنة» الصرب بصفتها تكنولوجيا. كانت النتيجة الرئيسية: إذا أُقحمت كلمة «صربي» في سياق سلبي باستمرار ومدة طويلة (إدراجها ببساطة في وصف الأحداث المرعبة مع نعوت غير مريحة)

---

(١) واضح أن مثل وجهة النظر هذه تعني قطعاً تاماً مع مبادئ التنوير الفلسفية كلها التي بنيت عليها عموماً الإيديولوجيات ومفاهيمها الأساسية في الغرب - الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني. لقد حلت حقبة جديدة. ليس فقط شعارات ديمقراطيينا، بل حتى لغتهم (وخصوصاً يافلينسكي) بدأت تفقد معناها ببساطة. والمكان الذي يدعوننا إليه ما عاد موجوداً. لم يعد ثمة أي «طريق أعمدة»، أي «عودة إلى الحضارة»، حتى ولو في هيئة طوباوية.

فستنشأ لدى مشاهدي التلفزيون، وبغض النظر عن موقفهم، كراهية مستقرة للصرب. يجب عدا ذلك بالطبع منع وصول أي صربي إلى الكاميرا التلفزيونية – فأي كلام إنساني عقلاني (حتى لو كان حول موضوع جانبي) سيقضي على الوهم.

أوردت حادثتان ورد فعل الرأي العام عليهما كمؤشر على أن الكراهية تجاه الصرب قد تكونت (مع أن مثل هذه الحوادث كان غير قليل). الأولى – اكتشاف قوات هيئة الأمم المتحدة في أراضي كراينا الصربية التي يسكنها الكرواتيون مقابر جماعية لسكان صرب قتلهم المسلحون في أثناء عملية «الرعد»[١]. كان مثل هذه الجرائم التي ارتكبها الصرب وحتى أقل منها بكثير يثير في ذلك الوقت في الغرب ردود فعل عاصفة، وغالباً ما يرد عليها بالقصف الجوي. أما في هذه الحال فلم يكن ثمة أي رد فعل. وقد سجل علماء الاجتماع وجود معايير مزدوجة راسخة في الرأي العام.

الحادثة الثانية – الإعلان في بداية عام ١٩٩٦ عن حقيقة أن الولايات المتحدة قد أرسلت إلى البوسنيين المسلمين سلاحاً بقيمة ٣٠٠ مليون دولار قدمتها السعودية، خارقة بذلك حظر الأمم المتحدة الذي ينبغي على الأمريكيين تحديداً حمايته. كان توريد السلاح السري هذا قد بدأ منذ عهد بوش من أجل التحضير للحرب في البوسنة، لكنه انتشر في عهد كلينتون. تمت عمليات توريد السلاح عبر كرواتيا التي كانت تحصل على نصفه كأجر على مشاركتها. أحياناً، كانوا يقومون برحلات جوية ليلية عند الضرورة لنقل السلاح إلى عزت بيغوفيتش في توسلا. لو كشف النقاب عن خرق الحظر

(١) جرى التحقيق من قيل لجنتين مستقلتين- بعثة مراقبي المجتمع الأوربي ومجموعة خبراء الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. وكما صرح أحد الدبلوماسيين المرموقين لمراسل صحيفة «الغارديان» أن التقارير لن تنشر لأن الكرواتيين حلفاء الغرب: «ثمة ما يشبه المعاهدة مع كرواتيا بعدم فتح صندوق باندورا هذا».

لصالح الصرب لنتج عن ذلك نزاع دولي كبير وقمع بحق الصرب – مع تأييد الجمهور الغربي كله. أما في هذه الحال فلم يحدث شيء. فعلت الصورة النمطية فعلها.

نجحت عملية وضع تكنولوجيا «بناء» سياسيين بالاستناد إلى الصور النمطية. ترمز الكلمة العامية «ترويج[١]» إلى منظومة كاملة من أساليب دفع أناس إلى أعلى المستويات السياسية بغض النظر عن صفاتهم الخاصة أو تمتعهم بالشهرة. تعد الصورة «image» أحد أعقد الصور النمطية– وهي تعني الشكل النمطي لرجل السياسة أو الناشط الاجتماعي المرسوم خصيصاً في أثناء سير برنامج العمل كله. وكما ذُكر في أحد الكتب التعليمية «فإن الأمر الرئيسي في الصورة ليس في ما هو موجود في الواقع، بل في ما نرغب نحن في رؤيته، وفي ما نحتاج إليه». أي على الصورة أن تتوافق مع التوقعات النشطة لدى الناس، أي مع الصورة النمطية النشطة في الوعي الجماهيري[٢].

كتب ر. برايس مؤلف خطابات نيكسون في حملته الانتخابية عام ١٩٦٨ قائلاً: «علينا أن نغير لا الإنسان بل انطباعه المُدرَك. وهذا الانطباع

---

(١) تعني الكلمة الروسية раскрутка إدخال الشيء في عجلة الدوران أو الاستعمال، وتستخدم في العامية بمعنى الدعاية لشيء ما أو ترويجه (**المترجم**).

(٢) كان الوعي الاجتماعي في الاتحاد السوفييتي مع اقتراب نهاية البيريستروكا قد تشظى إلى حد جعل معه الكثير من الصور النمطية المغروسة يتقلص إلى أبسط الصيغ، وأحياناً إلى كلمات – كليشيهات متفرقة. تجلى ذلك على نحو مدهش في انتخابات عام ١٩٨٩. حتى أن الكاتب ف. مكسيموف أبدى استغرابه قائلاً: «ما الذي ينتج؟ لدى انتلجنسيتنا الليبرالية التقدمية الآن سلسلة كاملة من المفاتيح التي تؤمّن من خلالها لنفسها الراحة الفكرية. عليكم فقط أن تنطقوا بالكلمات المحفوظة: "ديمقراطية، تعددية، جور، سيادة" حتى تحصلوا على إذن بالمرور إلى قسم معين ذي نفوذ من المجتمع».

متعلق غالباً بوسائل الإعلام أكثر منه بالمرشح». إن وسائل الإعلام في الواقع لا تفعل شيئاً سوى أنها تنشر الشكل المرسوم من قبل الخبراء وتغرسه في الوعي. إنهم ينتقون ملامح هذا الشكل الرئيسية إما انطلاقاً من الصور النمطية الجاهزة و«المسخَّنة» في الوعي الجماهيري، أو أنهم، إذا سمح الوقت والوسائل، يغيرون فلمياً الصور النمطية اللازمة ويكملون بناءها ويقوونها.

حصلت على شهرة واسعة الشركات التي بنت ريغان وتاتشر من «مادة» خيل أنها لن تتيح أي أمل بالنجاح. شكلت بمعنى معين هذه العمليات وما تلاها من تنفيذ مؤثر لبرنامج أوساط الظل الحاكمة («الموجة الليبرالية الجديدة») المبني اصطناعياً لحظة انعطاف حاسمة في التاريخ. لقد بينت بوضوح تام أن أي أوهام ديمقراطية قد استنفدت ذاتها. يُبنى السياسيون في المجتمع «الديمقراطي» الغربي ويمارسون نشاطهم بمعزل عن مصالح كتلة الناخبين الأساسية وبمعزل حتى عن مزاجها.

بيد أن العملية الكلاسيكية التي أنهت وضع تكنولوجيا «الترويج» لم تكن دفع ريغان أو تاتشر، بل الحملة الانتخابية إلى مجلس الشيوخ الأمريكي «للمليونير الذي صنع نفسه» م. شابّا عام ١٩٦٦. إنها تثير اهتمامنا كونها استخدمت كأساس من أجل «بناء» يلتسين.

من دفع شابّا هو ج. نيبوليتين الاختصاصي البارز في الدعاية السياسية ورئيس جمعية المستشارين السياسيين الأمريكية وصاحب شركة الإعلان الضخمة. أما شابّا فهو رجل أعمال ممتلئ حيوية، بدأ عام ١٩٤٨ صناعة الهوائيات التلفزيونية بــ ٥٠٠ دولار، لتصل ثروته في الستينيات إلى ١٢ مليون دولار. عرض على ج. نيبوليتين لقاء دفعه إلى مجلس الشيوخ ٣٥ ألف دولار، وتكاليف التجارب على الدعاية. وبعد أن درس المتلاعب المعطيات الموضوعية كوَّن صورة غير مبشرة: «١- شابّا غير معروف للناخبين. ٢- شابا يهودي (لن يكون هذا الأمر حجة للخسارة، لكنه لن يساعد

في الانتخابات). ٣- مطلّق ومتزوج مرة ثانية. ٤- لا يتمتع بمنظر خارجي موح. فهو قصير القامة ومحدودب، وحين يبتسم يتجعد أنفه مثل الأرنب، وهو ليس بالخطيب الجيد. لأنه يمط الجملة عوضاً عن أن يضع نقطة ويبترها بحدة. وليس لديه أي دعم من أي منظمة من المنظمات».

وافق نيبوليتين - ليس كرمى للنقود بقدر ما كان كرمى لاختبار التكنولوجيا. وبعد أن درس الموقف اختار شعار الحملة الرئيسي- «إنسان ضد الآلة». تم وضع أسطورة عن مناهضة شابًا «للجهاز» - أي زعماء الحزب الديمقراطي الذي تحدر منه شابًّا.

أنجز فيلم تمثيلي، لكنه يقلد الوثائقي، مدته نصف ساعة. اختير الإحساس «الإنساني العام» بعدم الثقة بفئة الموظفين والبيروقراطية وسوء النية تجاههما كهدف من أجل التلاعب. عملياً، لم يكن ثمة أي حديث إطلاقاً عن شابّا، فقد أشعل الفيلم ببساطة وبفاعلية الذهان المعادي للموظفين، ولم يكن شابّا سوى شخص أعلن تحدي الآلة. عرض الفيلم قبل الانتخابات بعدة أيام في بنسلفانيا، حيث انتُخب شابّا، ٣٥ مرة في التلفزيون (١٠ مرات عشية الانتخابات). نجح شابا في الانتخابات الأولية على الرغم من أن أحداً من الخبراء لم يتوقع أن ذلك كان ممكناً.

ومع أن شابّا خسر الجولة الثانية (مثله في ذلك مثل هامفري المرشح إلى منصب نائب الرئيس الذي قاد حملته نيبوليتين أيضاً) إلا أن المعطيات التي تم الحصول عليها في أثناء هذه الحملة، فيما يتعلق بالتلفزيون خصوصاً، وسعت إمكانات التلاعب. ما يهمنا هو التأكيد على أن بالإمكان رفع إنسان غير صالح على الإطلاق وفاقاً لجميع المؤشرات من خلال ركوب موجة العداء لفئة الموظفين. وإذا كانت لديه صفات إيجابية (طويل القامة مثلاً) وساعدته فئة الموظفين ذاتها فإن نجاح التلاعب مضمون.

اختيرت من أجل يلتسين وبنيت له صورة «المناضل ضد فئة الموظفين». لم يكن ثمة أي مادة «حقيقية» من أجل ذلك، لا في سيرة يلتسين الذاتية ولا في آرائه الشخصية. كاد يكون هو نفسه نتاجاً نمطياً «لثقافة فئة الموظفين». لكن الصورة image بنيت خلال فترة قصيرة جداً باستعمال مجموعة غير كبيرة من الأساليب البدائية (التنقل بالمترو، وزيارة مستوصف حي، واستعماله «موسكفيتش» كسيارة شخصية)، ودخلت بقوة كافية الوعي الجماهيري. حتى بعد عام ١٩٩٢ حين استعرض يلتسين في معيشته وسلوكه وعلى نحو مكشوف أقصى درجات التعبير عن العجرفة الوظيفية لم ينشأ في الوعي الجماهيري أي إحساس بعدم تطابق الصورتين.

الفصل السابع

المشاعر

١- التأثيرات الانفعالية بصفتها مقدمة للتلاعب.

هدف التلاعب المساوي بالأهمية للتفكير هو مجال *المشاعر*. حتى أنه قد يكون المجال الرئيسي أو على الأقل المجال الأول الذي يوجه التأثير نحوه. المشاعر في الأحوال جميعها أكثر حركة وأكثر طواعية، وإذا ما تسنى «إبلاؤها» فإن التفكير أيضاً يصير ضعيفاً أمام التلاعب. يمكن القول إن اللعب على المشاعر في التلاعب الكبير بالوعي هو مرحلة إلزامية. كتب مؤسس التعاليم عن التلاعب بالوعي الجماهيري غ. لوبون: «لا تثار الانطباعات لدى الجماهير أبداً بمنطق الكلام، بل ما يثيرها هو الأشكال الحسية التي تولدها كلمات معينة أو تداعيات تلك الكلمات».

إن درجة الانعكاس الحسية أقرب إلى العالم الخارجي من التفكير وتستجيب على نحو أسرع ومباشر أكثر. لذلك من الأسهل «استغلالها». يقول ديزرائيلي[1] حتى: «أن ما يسمونه رأياً عاماً يستحق في الواقع اسم المشاعر العامة». وإذا كان ثمة حاجة إلى إقناع الجمهور بأمر ما فإن هذه العملية يجب أن تبدأ فقط بالتأثير في الانفعالات أي أن الجمهور لن يرغب في أن يبذل لا

(١) **بنيامين ديزرائيلي** (١٨٠٤-١٨٨١) دوق بيكونسفيلد ورئيس وزراء بريطانيا عام ١٨٦٨، وبين عامي ١٨٧٤-١٨٨٠. زعيم الحزب المحافظ وكاتب (**المترجم**).

الجهود ولا الوقت على الحجة المنطقية[١]. هاكم الاستنتاج العام للدينامية الاجتماعية للثقافة: «يتم إقناع الجمهور لا بالحجج بل بالانفعالات. تستند كل حجة عملياً على بنى النبأ الكامنة. ولا تحمل هذه البنى طابعاً منطقياً إلا في حال الأنباء المرتبطة على هذا النحو أو ذاك بالعلم» (أ. مول). عبَّر نيتشه عن هذه الفكرة على نحو أقرب إلى القول المأثور: علاقة العقل والقلب تشبه الحب، وينتج من جماعهما الحمل، حيث القلب هو الرجل والعقل هو المرأة.

عدا ذلك، فإن بناء «رد فعل متسلسل» في مجال المشاعر أسهل – أي عدوى المشاعر وجائحة المشاعر. كتب لوبون الكثير عن مطواعية الإيحاء بصفتها صفة عامة من صفات الحشد: «ينتقل إلى العقول في الحال الإيحاء المصاغ الأول نتيجة قابليته للعدوى، وينشأ على الفور مزاج متوافق معه». معروفة هنا منذ القدم الظواهر التي لا وجود لها في النفسية الفردية وهي التقليد والانتشار العفوي للمشاعر الجماهيرية. لقد وصفت منذ القرون الوسطى بالتفصيل الجائحات العفوية للمشاعر العامة التي ظهرت ووصلت حد الهستريا أو الجنون. فعام ١٢٦٦ اجتاح إيطاليا وباء جلد الذات، وانتشر عام ١٣٧٠ في القسم الأكبر من أوربا وباء «الرقص»، وفي فرنسا في وقت لاحق جنون المتشنجين convulsionary، وفي هولندا جنون الخزاميين TULIP (كانوا يدفعون ثمن بصلة خزامى جيدة منزلاً فاخراً أو سفينة) كما لوحظت جائحات المشاعر الجماهيرية في أعوام إرساء سلطة الفاشيين في ألمانيا.

---

(١) كان منشئ خطابات البيت الأبيض أو. غيفين أحد واضعي أفكار الحملة الانتخابية لنيكسون عام ١٩٦٨. كتب يقول: «الناخبون في الواقع كسالى، ولا يريدون حتى أن يبذلوا جهداً كي يفهموا عما نتحدث. يتطلب العقل أسمى درجات الانضباط وتركيز الانتباه. الانطباع المعتاد أسهل بكثير. العقل ينفر المشاهد، والمنطق يضايقه. الانفعالات تهيجه، إنها أقرب إلى السطح، وتصقل بنعومة».

لذلك يعد «الهز» المسبق للمجال الانفعالي حكماً مبدئياً عاماً من أحكام التلاعب بالوعي الجماهيري. الأداة الرئيسية التي تستخدم من أجل ذلك هي بناء أو استغلال أزمة أو وضع شاذ يؤثر تأثيراً قوياً في المشاعر. قد يكون ذلك كارثة تكنولوجية كبيرة، أو عنفاً دموياً (عملية يقوم بها إرهابيون أو جريمة أحد المهووسين أو نزاع ديني أو قومي)، أو إفقاراً حاداً يصيب مجموعات كبيرة من السكان، أو نزاعاً سياسياً ضخماً.. الخ.

يسهل خصوصاً إثارة تلك المشاعر التي تعد في الأخلاق المعتادة مدانة مسبقاً: الخوف، الحسد، الرضا عن النفس. فهي حين تنفلت من عقال الوعي تكون الأقل انصياعا للتحكم الذاتي وتتجلى على نحو عاصف خاص. أما المشاعر النبيلة المستندة إلى القيم التقليدية الإيجابية فيكون تجليها أقل حدة، لكنه أكثر استقراراً. تستخدم في التلاعب استخداماً مؤثراً المشاعر الطبيعية كالشفقة والتعاطف مع الضعيف والعاجز. ويكون المتلاعب الخامل في الكثير من الحالات – أي ذلك الذي يشدد على ضعفه وعدم مقدرته على الإدارة، وحتى عدم رغبته فيها – الشخصية الأهم في برنامج التلاعب. لقد لعب مثل هذا الدور في أعوام البيريسترويكا أ. د. ساخاروف (وكذلك أشخاص مثل زينوفي غريدت[١]). إنهم لا يحلون محل المتلاعبين النشطين والصلبين، بل يضعفون بشدة الدفاع النفسي لدى الناس.

---

(١) **أندريه ديميتروفيتش ساخاروف** (١٩٢١-١٩٨٩) فيزيائي وناشط اجتماعي، عضو أكاديمية العلوم السوفيتية. أحد صانعي القنبلة الهيدروجينية عام ١٩٥٣ في الاتحاد السوفييتي. دعا منذ بداية الخمسينات إلى حظر التجارب على الأسلحة النووية، وكان منذ نهاية الستينيات وخلال السبعينيات أحد زعماء حركة الدفاع عن حقوق الإنسان. انتخب قبيل وفاته عضواً في مجلس السوفييت الأعلى. **زينوفي غريدت** (١٩١٦-١٩٩٦) ممثل سوفييتي معروف. **(المترجم)**.

إن أي مشاعر تعد صالحة للتلاعب بالوعي – إذا كانت تساعد ولو بعض الوقت على تعطيل المعنى السليم. لكن المتلاعبين يبدأون دائماً يهزون تلك المشاعر التي تكون «حيوية» في الوعي الجماهيري. يكتب عالم الاجتماع الأمريكي غ. بلومير في عمله «السلوك الجماعي»: «تتجلى وظيفة الدعاية بالدرجة الأولى في اللعب على الانفعالات والأوهام التي تكون سائدة لدى الناس». لنتذكر كيف «هزوا» في الإنسان السوفييتي شعوره المجروح بالعدالة. لنمعن الفكر في حقيقة واضحة: صار الإنسان السوفييتي يشعر بالحقد تقريباً على فئة الموظفين – لأنها تمتعت «بالتسهيلات والامتيازات». وتم على هذا الأساس خلق يلتسين كمعبود مؤقت. أما اليوم فإن هذا الإنسان الذي أرعد وأزبد في وجه الموظفين ينظر بلامبالاة إلى اللصوص، وبات أولئك الذين نهبوه يستعرضون بوقاحة ثرواتهم غير المشروعة. لم تُغفر سيارة «الفولغا» السوداء لرئيس اللجنة المنطقية، بيد أن «المرسيديس» البيضاء لمدير المنطقة الإدارية لا تخز العين مع أنه هو نفسه الذي كان الرئيس السابق للجنة المنطقية.

سنلامس قليلاً فقط مسألة مماثلة تماماً، لكنها ثقيلة جداً وهي إراقة الدماء. لقي في آب من عام ١٩٩١ ثلاثة شبان مصرعهم حين كانوا يحاولون إشعال النار في عربة نقل مشاة عسكرية. وعلى الرغم من أن أحداً لم يهاجم هؤلاء الشبان أو قادة الديمقراطية إلا أن موتهم هز جمهور الناس. عُد ذلك جريمة وحشية ارتكبها نظام الشيوعيين. وفي تشرين الأول من عام ١٩٩٣ ارتكب نظام «الديمقراطيين» مذبحة مروعة ذات أبعاد غير متناسبة إطلاقاً، ترافقت مع جملة من الجرائم الواضحة ضد الأخلاق وأبسط حقوق المواطنين – ولم تقابل عملياً بأي استياء لدى الإنسان «المتوسط». فما هي حقيقة الأمر؟

واضح أن الحديث لا يدور عن الحسابات العقلانية. هذا معناه أن الأمر لا يكمن في الاختيار الخاطئ ولا في المصالح الاجتماعية، بل في الشعور

المثلوم عميقاً. لندع جانباً مسألة التكنولوجيا – أي كيف تم ثلم إحساس الإنسان السوفييتي بالتضاد مع عقله. فقد بات واضحاً (على الرغم من أن الناس يخجلون من الاعتراف بذلك) أن التسهيلات والامتيازات التي شغلت عقل ديمقراطي المطبخ عشرين عاماً ليست سوى أسطورة. لقد مثل هونيكير بصفته غولاً فاسداً حين علمت فئة المثقفين في ألمانيا الديمقراطية أن لديه مسبح في بيته الريفي. قياسه ١٠ أمتار! روت برعب خلف طاولة مستديرة على التلفزيون الموظفة في مسرح الباليه في كوبا، التي فرت إلى إسبانيا، عن اللاعدالة الاجتماعية السائدة في ظل حكم كاسترو: يضعون المرضى من المسؤولين في المشفى المركزي في هافانا في صالة منفردة لا يستطيع العامل البسيط الدخول إليها. وراحوا يتأوهون جميعهم. مع أن الصحف جميعها في ذلك اليوم تحديداً قد ذكرت أن أحد مدراء واحد من مئات البنوك في إسبانيا لم يحضر التحقيق في قضية من القضايا لأنه غادر إلى نيويورك على طائرته الخاصة لمراجعة الطبيب.

لكن الفتاة من مسرح الباليه ومحدثيها كانوا صادقين! هذا معناه أنهم لم يتبعوا صوت العقل. فالمنطق البارد يقول: أي مجتمع يجب أن يؤمن للقيادات العليا ظروفاً مادية «محسنة» وإن كانت آليات هذا التأمين مختلفة. فهل كانت علية القوم في ألمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفييتي وكوبا شرهة؟ كلا، كان المجتمع يخصص لهم باعتدال قسماً صغيراً من الخيرات المادية. مارس خروشوف الصيد مرة في القرم، فدخلت هذه الحادثة التاريخ بصفتها جريمة العصر. أما العربدة الاعتيادية لرئيس اللجنة المنطقية فتلخصت في أنه كان يستحم في الساونا ومن ثم يحتسي زجاجة كونياك. حين توفي مولوتوف عام ١٩٨٦ بلغت ثروته كلها ٥٠٠ روبل من أجل الدفن (لا بل كان قد أرسل قبل ذلك ١٠٠ روبل إلى صندوق تشيرنوبل). حتى بريجنيف الذي جعلته الدعاية البيريسترويكية رمز اللص الكوني، أبقى من بعده، كما اتضح، بضع سيارات

أجنبية مستعملة – كانت لدى قائد الإمبراطورية السوفييتية نقطة الضعف هذه، لقد أحب قيادة سيارة جيدة.

كان قادة المفاصل العليا في الاتحاد السوفييتي من وجهة نظر الحسبة العقلانية الفئة «الأقل دخلاً»- وقد صرحت بذلك حتى منظرة البيريسترويكا ت. ي. زاسلافسكايا. فلماذا إذن أثارت السخط هذه الخيرات القليلة ونقاط الضعف، بينما تلقى مثل هذا الصبر فخفخة محدثي النعمة الوقحة أو دخول المدراء المخصخصين غير المعقولة؟

يتلخص الأمر في أن إيماناً سرياً عاش في أعماق وعي الكثيرين من الناس، وأحيانا في لاوعيهم، بأن الاشتراكية ستكون تحديداً مملكة العدل والمساواة. أثار تحطيم هذا المثال، مع التضخيم الهائل وتسميم الوعي الفظ، نوبة من الغضب لم يكن بالإمكان تعويضها بحجج العقل (لا بل لم يتيحوا لهم المجال للتعبير). استند المشروع السوفييتي منذ البداية على طوباوية صدقها الناس: رئيس اللجنة المنطقية ملزم بأن يكون أخاً لنا وليس مديراً مأجوراً. الأخ الذي يأكل سراً أكثر من الأسرة يولد حقداً أكبر مما يولده لص من الشارع – لأنه خائن. وهو يحاكم وفاقاً لمعايير مغايرة تماماً. استندت البيريسترويكا كلها بالتحديد على استغلال هذه الطوباوية وهذا الإحساس المجروح. وعوضاً عن أن يدعوا الناس إلى المعنى السليم ويقولوا: المرحلة البطولية باتت وراءنا وليبق رئيس اللجنة المنطقية مديراً لنا ببساطة، أشعلوا في الناس شعور الأخ المغدور.

أفضلية فئة الموظفين الديمقراطيين الجديدة في أنهم «كفوا عن الكذب». لا بل إن التلفزيون زيادة على ذلك يؤكد للناس خصيصاً أن الموظفين الجدد كقاعدة غير نظيفي اليد. يتقاضى موظف الدولة الشاب بريفنوف مرتباً قدره ٢٢ ألف دولار في الشهر – ما يساوي مرتب ١٠٠ بروفسور في جامعة موسكو الحكومية. واضح أن هذا سرقة غير مستورة تقريباً. لكن ليس ثمة أي

ادعاءات بحقه لأن السارق أقل جرماً من الخائن. أن يسرق رجل الدين، ولو قليلاً، فإن فعلته تهز الإنسان، أما أن يسرق التاجر فلا تهزه إطلاقاً.

بالمناسبة، إن سلوك الإنسان المتوسط هذا لا يدل على الإطلاق على أنه تحول إلى الرأسمالية. بل على العكس، إذ تبين أن إيمانه العميق بالاشتراكية متجذر فيه أقوى بكثير مما كان يمكن توقعه. حتى أنه كان ثمة في هذا الإيمان شيء ما وثني، شيء ما من عبادة الأصنام. وهذا ليس فقط في الإنسان الروسي. فتلك الحسناء من مسرح الباليه الكوبي هي أفضل شاهد على انتصار فكرة الاشتراكية. لقد انتقلت من غير أن تعي نفسها ذلك إلى معايير مختلفة تماماً للعدالة – وهي مستعدة لأن تقضي على نظام كاسترو لأنه لا يتوافق مع هذه المعايير. لكنها لا تفكر بتطبيق هذه المعايير على إسبانيا – أي ماذا يمكن طلبه من الرأسمالية! إنها هنا سوف تصارع من أجل البقاء وفاقاً لقانون الغاب تماشياً مع قواعد اللعبة المحلية.

يكاد يكون ***الخوف*** هو الشعور الرئيسي الذي يستغل الاستغلال الأوسع في التلاعب بالوعي. وثمة حتى المعادلة التالية: «المجتمع المعرض لتأثير الخوف غير المعتدل يفقد عقله الجماعي». بما أن الخوف هو العامل الأساسي الذي يحدد سلوك الإنسان فإنه يستخدم دائماً كأداة للإدارة.

لندقق المفهوم؟ ثمة خوف حقيقي يستجيب للخطر الواقعي. وهذا الخوف هو تعبير غريزي عن الحفاظ على الذات. إنه ينذر بالخطر ويتم على أساس هذا الإنذار اختيار السلوك الأنسب (الهروب، الدفاع، الهجوم.. الخ). قد يكون الخوف الواقعي مفرطاً، فيصير حينئذ مضراً – بالقدر الذي يشوّه به الخطر. لكن ثمة خوف موهوم «عصبي» لا ينذر بالخطر الواقعي، بل يتشكل في المخيلة، في عالم الرموز، في «الواقع الافتراضي». إن تطور مثل هذا الخوف غير صائب وأحياناً مهلك.

أقلق التفريق بين الخوف الحقيقي والخوف العصبي الفلاسفة منذ القدم. حتى أنهم عدوا الخوف المتوهم ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا من ظواهر

الإنسان، وسماه بلوتارخ panic (الذعر) (pan – تعني تَجَسّدُ الطبيعة). كتب شوبنهاور أن «الذعر لا يَعرِف أسبابه، وفي الحال القصوى يقدم الخوف نفسه سبباً للخوف». ويورد كلمات روجر بيكون(١): «غرست الطبيعة الإحساس بالخوف والرعب في الأحياء كلهم لتحافظ على حياتها وجوهرها، ولتتجنب كل ما هو خطر وتبعده عنها. بيد أن الطبيعة لم تستطع الالتزام بالحد اللازم: فهي دائما تمزج بالخوف المنقذ خوفاً عبثياً وزائداً».

أحد أنواع الخوف الموهوم هو الخوف *الهوسي*، حين تتم مضاعفة حجم الخطر ومقدرة «العدو» كثيراً، ويصور على أنه مطلق مع أنه في الواقع بعيد جداً عن ذلك. الحال القصوى من الخوف العصبي هي حال الخوف **الشيزوفريني** (الانفصامي)، الذي تتخطى شدته حدود فهم الإنسان الطبيعي. إنه الخوف الدائم من الإنسان ومن المجتمع المحيط، لكنه يبلغ من الشدة بحيث أنه لا يملك أي صلة بالقدرات الحقيقية لهذا المحيط على إلحاق الضرر. يتذكر المصابون بالشيزوفرينيا الذين سجنوا في أشد معسكرات الاعتقال النازية رعباً أنهم كانوا يحتملون رعب تلك المعسكرات على نحو أسهل بما لا يقاس من نوبات الخوف في أثناء الذهان (psychose).

ينصب الاهتمام الرئيسي في التلاعب على الخوف الموهوم غير المعتدل، أي على أساليب إثارته وخصوصاً في ظروف فصم الوعي (جعله شيزوفرينيا). وكذلك تعطيل الخوف الحقيقي المنقذ وإخماده – أي الوصول إلى عدم الاهتمام واللامبالاة والاعتياد النفسي على الخطر الحقيقي.

---

(١) **بلوتارخ** (قرابة ٤٥- قرابة ١٢٧) كاتب ومؤرخ يوناني قديم، أهم مؤلفاته «سير حيوات مقارنة» للإغريق والرومان (٥٠ سيرة)، وقد جُمعَ كل ما وصل إلى عصرنا من مؤلفاته تحت عنوان «أخلاقيات». **روجر بيكون** (١٢١٤-١٢٩٢) فيلسوف إنكليزي، وراهب فرانسيسكاني. أستاذ في جامعة أكسفورد. أولى أهمية كبرى للرياضيات والتجربة. اشتغل بالعدسات والفلك والألكيمياء وتنبأ بالكثير من الاكتشافات التي تمت لاحقاً. **(المترجم)**.

الخوف بصفته شعوراً مرتبطٌ بالغرائز (أي أنه ملازم بيولوجياً للإنسان)، ويتجلى بطرق مختلفة في الثقافات المختلفة. فمثلاً «مقاطع الخوف» لدى اليابانيين وسكان الغرب مختلفة تماماً. لا يخاف اليابانيون عقاب الله وعذابات ما بعد الموت، وليست لديهم مفاهيم الخطيئة المميتة التي تعد المنابع الأساسية للخوف في «ثقافة الذنب» في الغرب. لكن اليابانيين بالمقابل يشعرون بالخوف الشديد أمام «الآخر» وخصوصاً إذا ما فرطوا أمامه بهيبتهم، ويجبَرون على الخجل من الجماعة. يقال إن اليابان هي «ثقافة الخجل». الخوف من العار قوي إلى حد أن حالات الانتحار بين الشباب كثيرة جداً في اليابان بسبب من فشلهم في اجتياز امتحانات القبول في الجامعات[١].

وضعت مذاهب التلاعب بالوعي كلها تطبيقاً على الثقافة الغربية والخوف «الغربي» (تعطي المذاهب المطبقة اليوم على روسيا أحياناً نتائج غير متوقعة إطلاقاً، وأحياناً أخرى تكون عجيبة). لذلك فإننا نحتاج إلى أن نتذكر تاريخ هذه الظاهرة التي نجهل الكثير عنها – وهي خوف الإنسان الغربي.

٢- الخوف الغربي

«ثقافة الخوف» الغربية غير عادية لنا إلى حد أننا ما زلنا نلحظه حتى اليوم، فحين نتعرف بجدية على الغرب تتكشف لنا لوحة وجود بائسة حقاً. إنه «فيي» غوغول[٢] تماماً- أمثاله من الشياطين والأشباح يعذبون روح القاطن

---

(١) لاقى كتاب العالم المشهور سيتيهيا ياماموتو «اليابانيون واليهود» نجاحاً هائلاً في اليابان والغرب (نشره تحت اسم مستعار هو إيسايا بن داسان). يبين فيه كيف تكونت تاريخياً «مقاطع خوف» مختلفة تماماً بين هذين الشعبين الخصوصيين جداً.

(٢) عنوان إحدى قصص الكاتب الروسي غوغول، و«فيي» «Вий»هو شخصية من شخصيات الجان في الأدب الأوكراني الشعبي على شكل مسن شعر حاجبيه يصل حتى الأرض، ولذلك فهو لا يرى شيئاً بعينيه الضخمتين، لكن إذا استطاع بضعة رجال أقوياء أن يرفعوا شعر حاجبيه فلا شيء يستطيع أن ينجو من نظرته الرهيبة، فهو يستطيع بنظرة منه أن يقتل الناس ويدمر المدن والقرى ويحولها إلى رماد منثور (**المترجم**).

في الغرب[١]. ليس مصادفة أن يمثل موضوع الخوف في الفن. الطلب على «أفلام الرعب» في الغرب ظاهرة استثنائية، وتعبر أفلام هيتشكوك[٢] عن نوعية عميقة في الثقافة.

لدي صديق قريب نوعاً ما، فيلسوف من ألمانيا الاتحادية. روى لي منذ وقت قريب كيف زار موسكو في السبعينيات وتناول الغداء في منزل أمين سر سفارتهم. راح الحاضرون يتبادلون القصاصات فيما بينهم وراء المائدة رغبة منهم في قول شيء ما جوهري. لم يتحدثوا بصوت مسموع، لقد خافوا من أجهزة تنصت الـــ ك ج ب. لم أستطع تصديق ذلك وقضيت ساعة كاملة وأنا أسعى إلى أن يعيد صديقي تصوير الموقف بدقة ويشرح لي سبب هذا الخوف بين أناس متعلمين وغير حمقى وغير صغار في السن. كان حديثاً مَرَضياً، وأصاب القلق المرعب صديقي وبدا منظره غريباً. آلمه أنه لم يستطع أن يعثر على جواب عن سؤال بسيط: مم خفتم؟ فإن تشعر بالخوف فيجب أن يكون لديك تصور ما عن شكل هذا الخطر. تبين أن لدى هذه الجماعة من الدبلوماسيين والفلاسفة الوقورين لم يكن ببساطة مثل هذا التصور، ولم يكن للخوف بداخلهم أي خطوط تحدده. جرى بيننا الحديث التالي تقريباً:

- قل لي يا هانس، هل خفتم من أن يقتحم الـــ ك ج ب المبنى ويطلق النار مباشرة على الجالسين إلى المائدة؟

---

(١) ارتبط الكثيرون من هؤلاء الشياطين بالحرب الباردة- الذهان النووي وعَرَض «الروس قادمون» لم يكونا مزاحاً. مفهوم لماذا الغرب ممتن لغورباتشوف. وسنتحدث عن هذه المخاوف حديثاً خاصاً.

(٢) **ألفرد هيتشكوك** (١٨٩٩-١٩٨٠) مخرج سينمائي إنكليزي أمريكي. أخرج أفلاماً ذات مواضيع بوليسية واستخدم شتى أساليب التعبير السينمائي لبناء جو خاص من الرعب والسخرية. (**المترجم**).

- كف عن هذا الهراء.

- هل خفتم أن يطرد المضيف الدبلوماسي من البلاد بصفته شخصاً غير مرغوب فيه؟

- لا، لم يفكر أحد بذلك؟

- هل خفتم أن يستدعوكم إلى مكان ما ويعنفوكم؟

- لا، لا، ليس كما تقول. لم يفترض أي منا أي شيء محدد.

حين مررت بأشكال العواقب كلها التي قد تخطر على البال بما فيها أكثرها براءة والتي يمكن أن يجرها قول الأفكار بصوت مسموع وراء المائدة (حتى لو افترضنا أن الــ ك ج ب لا يفعل شيئاً سوى أن يسجلها على شريط مسجل) حل في حديثنا فاصل صمت ثقيل وكأننا لامسنا شيئا ما مهماً لا نستطيع فهمه. صار واضحاً أن مرضاً قد ظهر في الطبقة الثقافية في الغرب تجاه الاتحاد السوفييتي (الــ ك ج ب هو رمزه). وأسباب المرض ليست في الاتحاد السوفييتي، فهي غير مرتبطة بواقعه. الأسباب كامنة في تفكير المثقفين الغربيين وفي لاوعيهم.

استطاع الغرب أن ينقل عدوى هذا المرض، وكأنه صبها في الأذن، إلى الطبقة المثقفة في الاتحاد السوفييتي - أي إلى الإنتجلنسيا التي ما زالت وحدها لدينا محافظة على الأوهام الغربية.

لكن لنعد إلى المنابع. يمكن القول إن الغرب المعاصر قد نشأ سائراً من موجة خوف ديني شامل إلى موجة أخرى (يقولون أيضاً: وجودي EXISTENTIAL- مرتبط بالوجود) اجتاحت في وقت واحد ملايين الناس في أوربا الغربية. مثل هذه الظواهر غير ملحوظة في الثقافة المسيحية الشرقية (في الحوليات الروسية مثلاً)؟

ظاهرة الخوف الشامل الأولى الموصوفة في الأدب هي القناعة التي اجتاحت أوربا الغربية بقرب مجيء المسيح الكذاب وحلول يوم الحساب مع

نهاية الألف الأول. تثير الانطباعات القصة التي تروي كيف استقبل البابا سلفستر والإمبراطور أوتون الثالث عام ألف في روما متوقعين نهاية العالم. لم تحل نهاية العالم منتصف الليل، وتحول الرعب الشامل إلى فرح عاصف. لكن موجة الخوف الجماعي عصفت بأوروبا من جديد – قرر الجميع أن عقاب الله سيحل عام ١٠٣٣ بعد ألف عام من صلب المسيح. وقد غلب موضوع الحساب الأخير في التعاليم الصوفية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر(١).

كان الرعب الديني قوياً ومدمراً إلى حد أن الكنيسة الغربية وجدت نفسها مضطرة إلى أن تعيد النظر في دوغمائياتها. فوضع لاهوتيوها بعد نقاشات طويلة تصوراً عن «عالم ثالث بعد الموت» يوازن الخوف – وهو المَطهَر، الذي تمت المصادقة رسمياً على وجوده عام ١٢٤٥ من قبل البابا إينوكينتي الرابع. المميز في الأمر هو أن الكنيسة الأرثوذوكسية لم تجد أي ضرورة للقبول بهذه البدعة اللاهوتية.

كانت الوسيلة الأخرى لإضعاف الخوف الديني هي وضع معايير كمية للخطيئة والغفران عبر إدخال توازن بين الذنوب من جهة وعدد القداديس مدفوعة الأجر وقيمة الهدايا للكنيسة وكمية التبرعات للأديرة من جهة أخرى (ثم وضعت بعد ذلك صكوك الغفران). بيد أن الكنيسة الكاثوليكية كانت قد رمت على هذا الدرب بذرة العقلانية والإصلاح.

لم تكن فترة التقاط الأنفاس طويلة واجتاحت أوربا في القرن الرابع عشر موجة جديدة من الخوف الجماعي. كانت أسبابها كثيرة (حرب المائة عام المرعبة، وإفقار الناس الشامل)، لكن السبب الرئيسي كان وباء الطاعون

---

(١) لم يكن يوجد مثل هذا الخوف من الموت في القرون الوسطى المبكرة لأن التصورات الوثنية القديمة عن حياة ما بعد الموت كانت ما تزال حية في الوعي الجماهيري، وهي لم تكن تتحدث عن العقاب المخيف على الحياة غير الصالحة.

أعوام ١٣٤٨-١٣٥٠ الذي قضى على أرياف بكاملها قضاء مبرماً. تتالت الأوبئة الواحد تلو الآخر حتى القرن السابع عشر. وتبينت من الطاعون تحديداً خصوصية الخوف الجماعي: فمع الوقت نسي أمره وتبدل شكل الغول. ومع أول أعراض الوباء الجديد كان شكل السابق يعود إلى الحياة في الوعي الجماهيري بهيئة خيالية مبالغ بها.

وصل «الخوف الغربي» في القرن الخامس عشر ذروته. هذا واضح لأن الموت والشيطان شغلا المكان المركزي في الفن التشكيلي. راح التصور عنهما يفقد الصلة بالواقع ويصير نتاجاً خاصاً من نتاجات العقل والشعور ونتاجاً للثقافة. كتب المؤرخ وعالم الثقافة ي. هيويزينغا[١] في مؤلفه «خريف القرون الوسطى» عن هذا النتاج: «الارتعاد المتولد في مجالات الوعي المرعوب من قبل الأشباح المفزعة، المثيرة لنوبات مفاجئة من الخوف الدبق الجليدي». تدخل اللغة كلمات مرتبطة بالموت لا توجد مماثلات مكافئة لها في اللغة الروسية.

أحد تلك الكلمات مثلاً، التي ظهرت في اللغة الأدبية الفرنسية عام ١٣٧٦ هي الكلمة المهمة «macabre» (حاول الكثيرون من الباحثين استيضاح منشأ هذه الكلمة، وثمة سلسلة كاملة من الفرضيات التي يتعذر رفضها). لقد دخلت اللغات الأوروبية كلها وهي تترجم في المعاجم إلى اللغة الروسية بكلمات جنائزي، كئيب، مرعب وما شابه. لكن هذه الكلمات لا تنقل المعنى الحقيقي لكلمة macabre، فهو أكبر من ذلك وأشد رعباً. ألف في فن الغرب عدد لا حصر له من اللوحات والمنمنمات والصور المحفورة تحت عنوان «La danse macabre» - «رقصة الموت». وهذا جنس أدبي كامل (الرئيسي فيه هو أن الذي «يرقص» ليس الموت أو الميت بل «الأنا الميتة» أي الصنو

---

(١) **يوهان هيويزينغا** (١٨٧٢-١٩٤٥) مؤرخ وفيلسوف هولندي، كتب عن تاريخ الثقافة في القرون الوسطى وعصر النهضة («خريف القرون الوسطى» ١٩١٩، وغيرها) (**المترجم**).

الميت المرتبط على نحو وثيق بالإنسان الحي). صار الممثلون يمثلون رقصة الموت. ودخل التاريخ وصف تصور رقصة الموت عام ١٤٤٩ في قصر الهرتسوغ بورغوندسكي[١].

تبدل تأثير موضوع الموت والآلام في وعي الناس في القرن الخامس عشر تبدلاً نوعياً بفضل طباعة الكتب والصور. جعلت آلة الطباعة الصور في متناول سكان أوروبا كلهم حرفياً. وصلت رقصة الموت عملياً إلى كل منزل. ونقلت الصور أيضاً نسخاً للوحات فنانين مشهورين، وأكثر النسخ كان للوحات إيرونيم بوسخ (١٤٦٠-١٥١٦)[٢]. كانت هذه اللوحات تعبيراً عبقرياً ومركزاً عن الخوف من الموت وعذابات الجحيم. يقال إن بوسخ وضع موسوعة فنية للشر من الأنواع والأشكال كلها.

حدث الإصلاح على هذه الخلفية تحديداً - أي القطع بين «البروتستانتيين» والكنيسة الكاثوليكية («الزانية البابلية»)[٣]. ثمة في المعرفة

---

(١) يعلق هيويزينغا: «لو تخيلنا الشكل الخارجي لهذه المسرحية: الألوان، الحركات، انزلاق النور والظلام على قامات الراقصين - لأحسسنا إحساساً أفضل بكثير بوهج الموت الذي تثيره رقصة الموت في نفوس أناس ذلك الزمان».

(٢) تدل الحيلة الصغيرة التالية على كم كان الطلب على نسخ لوحات بوسخ كبيراً: كان الفنان العظيم ب. بريغل الأكبر لا يوقع رسومه الأولى باسمه بل يقدمها على أنها رسوم من لوحات بوسخ.

(٣) يشرح عالم النفس إ. فروم قائلاً: «التأثير الأكبر والأطول زمنا في التطور في أوربا والعالم كله مارسه الإصلاح نفسه. اتجهت البروتستانتية والكالفينية نحو الروح الأبوية الخالصة في العهد القديم واستبعدتا المبدأ الأمومي من تصوراتهما الدينية. ما عاد الحب الأمومي للكنيسة والسيدة العذراء يشمل الإنسان بعد الآن. لقد وجد نفسه وحيداً أمام الآب الجدي والصارم الذي لا يمكن الحصول على رحمته إلا بفضل الطاعة التامة».

الإنسانية موضوع خاص هو «خوف لوثر[1]». وجوهره أن لوثر كان معبراً عبقرياً عن مخاوف عصره الشاملة كلها. لقد وصل خوفه من الشيطان إلى حال الصدمة وولد الرؤى وقاد إلى البصيرة. لكن لوثر «تسامى» بمخاوفه إلى جهد إنفعالي وإبداعي صارت نتيجته رسائل وتوجيهات عبقرية.

يصعب علينا فهم البنية الروحية والفكرية للبروتستانتية، فأسسنا الثقافية تختلف كثيراً، لا بل إن هذه البنية معقدة جداً، وفيها الكثير من السفسطة المتفننة. وما يخص موضوعنا مباشرة يتلخص على نحو مبسط في التالي.

جمع لوثر تحت رايته هذا القسم الكبير من مؤمني أوربا لأنه دل على طريق تجاوز الخوف الديني الميتافيزيقي. أولاً، لقد «قونن» الخوف ولم يسمه مبرراً فقط بل ضرورياً. الإنسان الذي يمزق الخوف روحه هو فريسة للشيطان. ثانياً، جعل لوثر الخوف «فردياً» وحرمه من قوته الجماعية المعدية. حدث ذلك نتيجة الابتعاد عن فكرة الأخوة الدينية وإنقاذ الروح الجماعي. على كل فرد منذ الآن أن يتدبر شأنه مع الله منفرداً، وليس مع المنقذ بقدر ما هو مع الإله الآب الرهيب. لم تعد الغبطة ولا التكفير عن الذنوب هما هبة المسيح العظمى، بل الإيمان الحقيقي[2].

تمتد لدى لوثر الطريق نحو التغلب على الخوف من خلال الإيمان الفردي: «الشفاء من الخوف يتم بالاستماع الداخلي لله في الذات». صار هذا الإيمان ملجأً شخصياً وفردياً من الخوف. لكن التحوّل الحاصل من رفض الخلاص الجماعي زاد بدوره بلا حدود الخوف والحقد الشامل الذي أغرق

---

(١) **مارتن لوثر** (١٤٨٣-١٥٤٦) رجل الإصلاح في ألمانيا الذي بدأه في خطبته عام ١٥١٧ في فيتينبورغ طارحاً ٩٥ قضية ضد صكوك الغفران وضد دوغمائيات الكاثوليكية. أسس نظاماً لاهوتياً يختلف عن التقاليد الكاثوليكية. ترجم الكتاب المقدس إلى الألمانية (**المترجم**).

(٢) حذر لوثر وكأنه يتنبأ بذلك: «العقل هو عاهرة الشيطان».

الغرب في الفوضى زمناً طويلا. لقد ولد «خوف لوثر» حملة مطاردة الساحرات التي لا يمكن أن تقارن بها ملاحقات محاكم التفتيش الكاثوليكية (التي كانت أسطورتها نتاج القرن التاسع عشر بصفته جزءاً من برنامج كبير للتلاعب بالوعي). لقد أُحرق في أثناء الإصلاح هنا قرابة المليون «ساحرة» في الوقت الذي كان فيه عدد سكان أوربا ما يزال قليلاً نسبياً.

لكن حتى «الساحرات» أنفسهن كن ممتلئات بالحقد، فالحديث في غالبية الأحوال على ما يبدو كان يدور حول نساء تظهر عليهن أعراض الجنون (ثمة دراسات تتعلق بقصص الأمراض النفسية في هذه الحقبة تعتمد على تحليل محاضر التحقيق مع «الساحرات»). كتب نيتشه عن ذلك الوقت: «الهراطقة والساحرات هم جوهر نوعين من الناس الحاقدين: الشيء المشترك بينهم هو أنهم يشعرون أيضاً بأنهم حاقدين، لكنهم في أثناء ذلك يشعرون بقوة تدفعهم إلى أن يفرغوا حقدهم على كل ما هو مسلَّم به (أكان ذلك أناساً أو آراء). إن الإصلاح – كنوع خاص من مضاعفة روح القرون الوسطى تجاه الزمن بعد أن فقدت هذه الروح الضمير الحي – قد ولدهم بكميات كبيرة».

أدى الإصلاح إلى حرب الثلاثين عاماً التي هلك فيها ثلاثة أرباع سكان تشيكيا وثلثا سكان ألمانيا. لقد انطبع ذلك إلى الأبد في ذاكرة الإنسان الغربي التاريخية. ويصير الموت من جديد الموضوع الرئيسي في رسومات ديورير وغولبين – بصفته الآن نتيجة للحروب الدينية المرعبة والإعدامات الجماعية. أبعادها لا يمكن أن تحدها مخيلة.

تشكل فكرة الموت والبعث حتى اليوم أحد مواضيع المبشرين البروتستانتيين الرئيسية، أما في القرن التاسع عشر فكانت تكمن في أساس جنس خاص من العظات في الولايات المتحدة هي الـ Revivals (الانبعاثات). تحولت هذه العظات إلى مسرحيات شعبية كان الناس يتوافدون لحضورها في عربات من على بعد مائة ميل حاملين معهم مفارش النوم

واحتياطياً من الطعام يكفي أياماً كثيرة. وقد بقي وصف أحد هذه التجمعات في ولاية كينتوكي في آب ١٨٠١. اجتمع فيه ٢٠ ألف إنسان. أوصل المبشرون الناس إلى حال من الرعب جعلتهم يفرون مذعورين بينما أصيب الكثيرون منهم بالإغماء، وكان المرج أشبه بميدان معركة مغطى بالجثث المسجاة. وبما أن نجاح العظات كان يتحدد بعدد «الساقطين» فقد أحصي عددهم بدقة. بلغ عدد الناس الذين فقدوا الوعي من الرعب في يوم من تلك الأيام ٣٠٠٠ شخص.

يلخص الفيلسوف الدانمركي س. كركيغور نتائج صيرورة «خوف لوثر» في ثلاثيته «الخوف والارتعاد» (١٨٤٣) و«مفهوم الخوف» (١٨٤٤) و«المرض حتى الموت» (١٨٤٩). يَمثُل الموت هنا كشرط أساسي لنشوء الفرد واكتسابه الحرية. الحديث لا يدور، طبعاً، عن الخوف الواقعي – «الإنسان نفسه يخلق الخوف».

يكتب كركيغور: «الخوف هو إمكان الحرية، ومثل هذا الخوف وحده يربي تماماً قوة الإيمان، ما دام يلتهم كل ما هو متناه ويكشف زيفه كله. لم يمتلك أي مفتش كبير بين يديه هذا الكم من المقدرة على التعذيب المخيف مثل التي يمتلكها الخوف. ولا يستطيع أي جاسوس أن يهاجم بهذا القدر من المهارة متهَماً في اللحظة التي يكون فيها هذا الأخير في أضعف أحواله، ولا يستطيع بمثل هذا التفنن نصب الفخاخ التي ينبغي أن يقع فيها هذا الأخير كما يستطيع الخوف؛ ولا يفهم أي قاض نافذ البصيرة كيف يجب استجواب المتهم – أي استجوابه كما يفعل الخوف الذي لا يفارق المتهم أبداً لا في مسراته ولا في ضجيج الحياة اليومية ولا في العمل، لا في النهار ولا في الليل».

إننا اليوم ملزمون بأن نقرأ مثل هذه الأشياء مهما كان صعباً علينا نحن الذين تربينا على الأرثوذكسية المضيئة، وبوشكين، والحكايات الروسية. فالمعلن على نحو مكشوف أن المهمة الفائقة للبيريسترويكا والإصلاحات هي

أن تجعلنا على الأقل بروتسانتيين من الدرجة الثانية، وأن «نعود إلى الغرب». علينا، إذن، أن نعرف كيف يريد القادة الجدد أن يرونا. فأين المثال؟ وعلى مثال من نصنع الحياة؟ وبماذا ربى نفسه فرد الغرب الحر؟

ويقولون لنا – بالخوف: «يصير الخوف له روحاً خادمة مجبرة على أن تقوده على الرغم منه والخوف يتملكه إلى حيث يريد أن يذهب. ولأن الخوف حين يعلن عن قدومه، وحين يشير بدهاء إلى أنه وجد الآن وسيلة جديدة تماماً لبث الهلع، وسيلة هي الأشد إثارة للرعب من أي شيء استخدم من قبل، فإنه لا يتملص، لا بل إنه أكثر من ذلك لا يحاول أن يبقي الخوف على مسافة بالضجيج والتشويش – كلا، إنه يرحب بمجيء الخوف، يرحب به ببشاشة كما قبل سقراط بفرح كأس السم، إنه ينغلق مع الخوف عن الجميع، ويقول كما يقول المريض قبل العملية الجراحية، حين يجيء أوان البدء بهذه العملية المؤلمة: "حسناً، أنا مستعد الآن". ويدخل الخوف روحه ويعاين بانتباه كل شيء، وينتزع منه بالترويع كل شيء متناه وضحل ومن ثم يقوده إلى حيث يريد أن يذهب».

زاد من الخوف الديني في الإصلاح الخوف الاجتماعي من تحطم الجماعات (الكنسية والفلاحية والحرفية). ارتبطت البروتستانتية ارتباطاً وثيقاً بظهور المجتمع البرجوازي وما يتصف به من فردانية. كتب فيلسوف الحرية ن. بيردايف في كتابه «معنى التاريخ» (١٩٢٣): «عاش الإنسان في القرون الوسطى في جماعات، وفي كلٍّ عضوي لم يشعر فيه بنفسه ذرة معزولة، بل كان جزءً عضوياً من الكل الذي شعر أن مصيره مرتبط به. اختفى ذلك كله في المرحلة الأخيرة من التاريخ الجديد. صار الإنسان الجديد ينعزل. وحين يتحول إلى ذرة منتزعة يتملكه إحساس بالرعب المبهم، ويبحث عن المخرج من خلال الاتحاد في جماعات». يشير إ. فروم إلى عواقب أخرى لخوف الفرد: «أصيب الإنسان المتحرر من قيود الحياة الجماعية القروسطية بالخوف من الحرية الجديدة التي حولته إلى ذرة معزولة. لقد وجد الملجأ في عبادة

جديدة لصنم الدم والتربة، التي تنتمي العصبية القومية والعنصرية إلى أوضح أشكالها». في نهاية المطاف الفاشية هي نتيجة خوف جنون الشك غير المحتمل في الإنسان الغربي.

سيل الخوف القوي التالي أضافته الثورة العلمية التي هدمت الفضاء المنظم ورمت الإنسان من على ذروة الكون. ردة الفعل الأولى على شكل العالم الذي قدمه كوبيرنيكوس كانت الخوف. حتى أن مفكر ذلك الزمان الكبير باسكال اعترف: «إن صمت هذه الفضاءات اللامتناهية الأبدي يخيفني».

عمّق التنوير «الخوف الذي خلقه الإنسان نفسه». خيل أن حماسة هذه الحركة الثقافية كلها، «التي تغلبت» على الدين (ليس عبثاً أن سموها الوثنية الجديدة) كانت موجهة إلى تحرير الإنسان من الخوف من خلال إعلاء شأن العقل والتفكير العقلاني. أخذ التنوير على عاتقه بعد أن أحلَّ العلم محل الكنيسة مهمة بناء الأخلاق الدنيوية التي تفرض الفضيلة البرجوازية. لذلك تم تشييد بنيان كامل للتعليم الجديد ومنظومة تربية جديدة (بما فيها المدرسة التي سنتحدث عنها حديثاً مستقلاً).

ولدت عبادة العقلانية في الثقافة البرجوازية في الإنسان على نحو غير متوقع أناه الأخرى – لقد فاقمت اللاعقلاني فيه (سمى المؤرخ الإنكليزي نيدهيم ذلك، بعد أن درس ثقافة الصين، شيزوفرينيا التفكير الأوربي، وهي الظاهرة الخصوصية جداً والمميزة للغرب وحده). هذا اللاعقلاني «الطبيعي» في الإنسان تم تفسيره في الأخلاق البرجوازية على أنه شيء ما مخجل وخطر. فتحت تأثير هذه الأخلاق نشأ في الفرد ما يسمى «الخوف الداخلي» – أي خوفه من «طبيعته الذاتية التي لا تقهر».

مشكلة الخوف من الطبيعة في برنامج التنوير كله هي مشكلة مركزية. لقد ظهر العلم نفسه كتعبير عن إرادة السلطة على الطبيعة، أما الخوف منها فعد شعوراً لا أساس له بل حتى أنه مرضي. كان الخوف من الطبيعة في

حقيقة الأمر موجهاً في الإحساس ما قبل العلمي الكوني بالعالم إلى «غير الطبيعي» الواقف وراء الظواهر والأشياء كلها، كان خوفاً من الله. كان الإنسان إذ وجد نفسه في مركز الكون مسؤولاً عن كل شيء أمام الله.

قدم التنوير لوحة مختلفة تماماً عن العالم عرضت فيها ظواهر الطبيعة كلها وأشياؤها على أنها نتيجة لأسباب بسيطة قابلة للمعرفة ويمكن التعبير عنها رياضياً. اختفى الله من الطبيعة، أما الإنسان المتحرر من المسؤولية أمام الله فتحول إلى سيد على الطبيعة (يسمون التنوير «لاهوت السيادة على الطبيعة»). لقد نحى هذا الأمر الخوفَ اللاعقلاني من الطبيعة (بقي طبعاً الخوف العقلاني من المخاطر الطبيعية الحقيقية، لكن الحديث لا يدور عن هذا الخوف).

ولَّد فقدان الخوف من الطبيعة الخارجية شكلاً تاريخياً جديداً من الخوف من الطبيعة الداخلية (التنوير هو الحقبة التي «عانت من إظلام الروح»). لم تشتك أي طبقة اجتماعية في التاريخ على هذا النحو من عدم التوفيق الملازم لحالها الروحية كما اشتكت البرجوازية في حقبة التنوير. صار المجتمع البورجوازي المجتمع الأول الذي تعرض للقسر في المجال الداخلي – من خلال خلق الخوف الداخلي. صار هذا الخوف الذي كان الوجه الآخر «للفضيلة البرجوازية» أحد العناصر الرئيسية لتراص المجتمع المدني. وتجلى بالإحساس بالذنب وتأنيب الضمير والرغبة الجنسية المقموعة (المنقولة إلى عالم اللاوعي والمخيلات والشذوذ).

نشأ نظام تعليم يطلب سيادة العقل الشاملة ويعلن الحرب على الخيال والأهواء بصفتها قوى مدمرة للتفكير العقلاني. ولد ذلك في الإنسان الخوف من الأهواء الذاتية بصفتها إخلالاً معيباً بالأخلاق الاجتماعية والفضيلة. كلما «انسحر» العالم انزوى الخوف عميقاً في الداخل. خصص الكثيرون من فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين أعمالهم لهذا الأثر غير المتوقع

للتنوير. ويعد معاصرانا ت. أدورنو وم. هوركهايمر أن المطلب الذي صاغه التنوير بسيادة العقل الشاملة قد أدى تحديداً إلى انفصام الإنسان وغربته الذاتية – أي إلى مرض المجتمع الغربي المعاصر[١].

وصل نيتشه في إطار بحثه عن الخلاص من الخوف من الله ومن أخلاق المجتمع البرجوازي إلى الهلنستية (العدمية)، وإلى فكرة الإنسان الخارق (السوبر) المنتصب «في ذلك الجانب من الخير والشر». لقد وصل من خلال هذه الرميات إلى طريق مسدودة. «التسيد هو أن تكف عن أن تكون عبداً لله: لم يبق سوى هذه الوسيلة لتعظيم الناس»، – وعلى هذا الدرب وصل إلى قتل الله. «حين يعظ الطيبون يثيرون النفور؛ وحين يعظ الأشرار فإنهم يثيرون الخوف» – من هنا ظهر الماكر أبيض البشرة الذي يرفض الأخلاق.

حين نقرأ عن حالات الذعر الشامل في بلدان الغرب «العقلاني» في زماننا فإن تصديق الوقائع يستحق بذل جهود كبيرة – كم هي بعيدة عن المألوف. ثمة الكثير من الوصف للخوف الجماعي الذي اجتاح الولايات المتحدة في أثناء بث التمثيلية الإذاعية عن رواية غ. ويللس «حرب العوالم».

كان ذلك عام ١٩٣٨. بُثت تمثيلية «الغزو من المريخ» كتقرير إخباري من مكان الأحداث. صدق جمهور سكان الولايات الشرقية الذين شملهم بث

(١) لا ننظر في هذا الفصل في «المخاوف الاجتماعية» المخلوقة عمداً من قبل المجتمع البرجوازي – من الجوع والفقر والبطالة. فبعد أن كانت هذه المخاوف في البداية عقلانية اكتسبت مع الزمن طابعاً وجودياً، وصارت تقريباً مخاوف دينية. يكتب عالم الاجتماع الأمريكي البارز ر. ميرتون في كتابه «النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية» (١٩٦٨): «يؤدي الصراع التنافسي المستمر إلى قلق الأفراد الحاد بخصوص وضعهم. أحد وسائل تخفيف هذا القلق هو التخفيض المستمر في مستوى الشكاوي. يؤدي الخوف إلى عدم الفعل، أو، الأدق، إلى الفعل بصرامة ضمن أطر النظام المعمول به».

الراديو أن الحديث يدور عن أحداث حقيقية، وتعرض لنوبة خوف شاملة. صارت حادثة الذعر المستثار اصطناعياً غير المتعمدة هذه مادة للكثير من الدراسات وقدمت معرفة مهمة. يقول أحد الاستنتاجات إن الذي شكل الظرف لمثل هذه القابلية الإيحائية المعدية لدى جمهور الأمريكيين هو عدم الاستقرار العام في المجال الانفعالي الذي أدت إليه الأزمة الاقتصادية الطويلة (الاكتئاب الكبير) وذلك الاهتياج الذي ولدته اتفاقيات ميونيخ وترقب الحرب.

بعد ذلك، وعلى سبيل التجربة في الحقيقة، أعيد بث تمثيلية «الغزو من المريخ» الإذاعية في بلدان عانت من عدم استقرار اجتماعي واقتصادي أو من أزمة – وكانت النتيجة نفسها التي حدثت في الولايات المتحدة. أثارت التمثيلية في تشرين الثاني من عام ١٩٤٤ ذعراً شاملاً في سانتياغو دو تشيلي. وفي شباط من عام ١٩٤٩ انتهى الذعر الذي أثارته التمثيلية في كيتو عاصمة الإكوادور بسقوط ضحايا والإصابة بعاهات وحرق مبنى الإذاعة. يصف يو. أز شيركوفين في كتاب «المشاكل النفسية للعمليات الإخبارية العامة» سلسلة مشابهة من حوادث الخوف الجماعي الأخرى، التي تثيرها التمثيليات الإذاعية (وضعوا في بعض الأحوال سيناريوهات لأفلام مثيرة).

ما يهمنا هو استنتاج الكتاب: إن تاريخ منظومات الاتصالات كله في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية لا يشهد أي سابقة تذكِّر ولو من بعيد بمثل هذه الحوادث. والقضية ليست فقط في أن سياسة الإذاعة لم تكن سياسة تلاعب – لم يكن الوعي الجماهيري نفسه قابلاً للتلاعب به. لم يكن مجال أحاسيس الإنسان السوفييتي محضراً لذلك في جميع الظروف التاريخية الثقافية.

٣- مخاوف الحرب الباردة

اجتاحت موجة الخوف اللاعقلاني الجديدة الغرب مع بداية الحرب الباردة. لم تكن نافعة الدعوة إلى التعقل وشرح أن الاتحاد السوفييتي لا يرغب في تهديد الولايات المتحدة بالحرب بل ولا يستطيع ذلك. كتب معبود الرأي

العام إ. أينشتاين في كانون الثاني من عام ١٩٤٨: «يجب علينا أن لا ننسى أن أي احتمال بأن تهاجم دولة ما الولايات المتحدة في المدى المنظور غير موجود إطلاقاً، وأقلها الاتحاد السوفييتي المدمر والمفقر والمعزول سياسياً». ولا فائدة.

كرر أينشتاين في كانون الثاني من عام ١٩٥١: «تخلق سياسة الولايات المتحدة الحالية عقبات جدية في وجه السلام الشامل أكبر بكثير من سياسة روسيا. تدور الحرب اليوم في كوريا وليس في الألاسكا. روسيا معرضة للخطر أكثر بكثير من الولايات المتحدة، والكل يعرف ذلك. يصعب علي أن أفهم كيف يمكن أن يوجد أناس حتى الآن يصدقون خرافة أن خطراً يتهددنا. إنني لا أستطيع تفسير ذلك إلا بانعدام الخبرة السياسية. سياسة الحكومة كلها موجهة إلى الحرب الوقائية ويسعون في الوقت نفسه إلى تصوير الاتحاد السوفييتي على أنه دولة عظمى عدوانية».

عام ١٩٦٥ قال أحد مهندسي سياسات ترومان وفكرة الحرب الباردة، والخبير الأمريكي الأفضل في شؤون الاتحاد السوفيتي والعارف الضليع فعلاً بروسيا ومدير مجموعة التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية ج. كينان، قال عن المرحلة الأولى من الحرب الباردة: «كان واضحاً تماماً لكل من امتلك ولو تصوراً بدائياً عن روسيا في ذلك الوقت أن القادة السوفييت لم يكن لديهم أي نية في نشر مُثُلهم بمساعدة عمليات قواتهم المسلحة عبر الحدود الخارجية... [هذا] لم يكن متوافقاً لا مع المذهب الماركسي، ولا مع حاجات الروس الحياتية في إعادة بناء ما دمرته لديهم الحرب الطويلة والمضنية، ولا مع مزاج الديكتاتور الروسي نفسه بمقدار ما كان معروفاً». لذلك فإن الخوف من الاتحاد السوفييتي الذي وصل حد الذهان كان مثاراً عن عمد تام.

حين حُضرت مخططات الحرب الباردة بدأ المعهد الأمريكي لدراسة الرأي العام يجري استفتاءات دورية بين سكان الولايات المتحدة موجهاً إليهم

سؤال: «هل تتوقعون الحرب خلال الـ ٢٥ سنة القادمة؟». أجاب في نهاية عام ١٩٤٥ بنعم ٣٢% من الخاضعين للاستفتاء، وعام ١٩٤٦ ٤١% وبعد عام ٦٣%. كان الحديث يدور عن الخوف الشامل الذي تملك غالبية السكان. وفي أثناء ذلك كانت قيادة القوات المسلحة الأمريكية، كما أظهرت الوثائق التي نشرت في الأعوام الأخيرة، تعترف سراً بعدم صدور أي تهديد عسكري من الاتحاد السوفييتي.

صار الخوف الشامل المختلق في الولايات المتحدة نتاج برنامج ضخم للتلاعب بالوعي (امتد حتى البيريسترويكا). لقد أقنعوا الأمريكيين بالاعتماد على الخوف تحديداً بأن الاتحاد السوفييتي يهدد بالحرب. كان ذلك بداية مأساة كبرى. معروف أن الإنسان (أو المجتمع بأكمله) وهو في حال الخوف الموهوم غير قادر على الاقتراب من الشيء الذي يهدده بصفته ذاتاً لها مثلها المشروعة ومصالحها الخاصة، وعلى أن يفهمه ويتخيل ما يعانيه. تصير الرغبة الوحيدة هي تدمير موضوع الخوف.

أعلن تشرشل في ٦ آذار من عام ١٩٤٦ في فولتون بحضور ترومان الحرب الباردة على الاتحاد السوفييتي (سمى يلتسين هذه الكلمة بأنها الأعمق والأذكى من بين كل ما سمعه). وبدأت على الفور سلسلة من الخطابات التي لا يستطيع أحد أن يقرأها حتى اليوم من غير أن يرتعد. لقد تبنت اللجنة الموحدة للتخطيط العسكري في الولايات المتحدة في الواقع حتى قبل خطاب فلوتون هذا، في ١٤ كانون الأول ١٩٤٥، توصية حددت فيها ٢٠ مدينة في الاتحاد السوفييتي لتقصف بالقنابل الذرية الـ ١٩٦ كلها التي تمتلكها الولايات المتحدة. ومع تراكم الترسانات ازداد عدد المدن المستهدفة بالقصف.

لكن ما يهمنا ليس هذا بل طابع ذلك الخوف الذي تملك الأمريكي المتوسط حين صار معروفاً أن الاتحاد السوفييتي قد امتلك القنبلة الذرية. عرفت هذه الظاهرة «بالخوف النووي». لقد اكتسب على الفور ملامح الخوف

اللاعقلاني، حتى أن اتحاد علماء الذرة في الولايات المتحدة نظم دراسة ضخمة لعلماء النفس بهدف إيجاد وسائل لضبط هذا الخوف في أطر عقلانية.

يصف مدير مركز تاريخ الفيزياء س. ر. ويرت هذه الظاهرة، التي درسها خلال خمسة عشر عاماً، في كتابه «الخوف النووي: تاريخ الأنماط». وضع علماء النفس منذ البداية نصب أعينهم هدف «تعبئة الخوف السليم المحرض على الفعل وتنفيذ الإجراءات الفاعلة ضد خطر الحرب الحقيقي» - أي تحول الخوف الموهوم إلى خوف حقيقي. عموماً، لم يتم الوصول إلى هذا الهدف، واتخذ الخوف النووي في الولايات المتحدة الملامح نفسها التي تمتع بها خوف القرن العاشر والخوف من الطاعون في القرن الخامس عشر و«خوف لوثر» - أي ملامح الخوف الوجودي لدى الإنسان الغربي.

يصف س. ويرت كيف ظهرت في البلاد منظومة كاملة لتأجيج الخوف الذي دخل منطقة الرنين، بحيث أن أي حدث أو خبر (بناء منظومة الدفاع المدني مثلاً) كان يزيد من مستوى الخوف عوضاً عن أن يخفضه. بالنتيجة عد الخبراء في بداية الخمسينيات أن الخطر الرئيسي على الولايات المتحدة ليس نابعاً من القنابل الذرية والهيدروجينية السوفييتية بصفتها وسيلة للتدمير بل من ذلك الذعر الذي سينتشر في حال الحرب. يشير س. ويرت أيضاً إلى أن مثل هذا الخوف لم ينشأ في الاتحاد السوفييتي، ويفسر ذلك بأن وسائل الإعلام الجماهيري السوفييتية لم تشتغل على تأجيج الخوف بل نشرت على نحو حثيث المعارف عن استخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية. بيد أنني أظن أن الأمر لا يكمن في ذلك[1].

قدمت دراسة «الخوف النووي» الواسعة والطويلة معرفة مهمة. اصطدم العلماء بظاهرة مست طبقات النفس العميقة، بحيث اختفت عمليات

(١) فعلت وسائل الإعلام السوفييتية بعد كارثة تشيرنوبيل كل ما في وسعها كي تخلق في البلاد الذهان النووي. شكلت تلك الحملة فصلاً مهماً من فصول البيريسترويكا، لكنها لم تنجح في إثارة الخوف اللاعقلاني.

الربط المعتادة بالوضع الاجتماعي أو مستوى التعليم أو الاطلاع على الخطر الحقيقي. بدت ضعيفة خصوصاً نفسية الشباب. لقد لُحظت هنا غالباً آلية متطرفة للدفاع الذاتي عن الوعي تبدأ تعمل في الأوضاع التي لا مخرج منها وهي «الذهول». إنه قمع أي شكل من أشكال الخطر ورفضه وهو خضوع مستهتر له.

كتب س. ويرت أن ما أقلق علماء النفس أكثر من أي شيء آخر هو حقيقة أن هذا «الذهول» قد تملك مع نهاية الستينيات أولئك الذين كانوا بحكم وظيفتهم ملزمين بالحفاظ على علاقة واقعية بالمشكلة – العسكريين ورجال السياسة، ومن ثم دارسي «الخوف النووي» أنفسهم. لقد زادت هذه الحقيقة القلق، إذ ظهر في الوعي الجماهيري شك بأن تكون السلطات متحكمة بالمشكلة النووية. انتشر الخوف من السلاح النووي في المفاعلات الذرية، ومن ثم في تجليات الطاقة النووية كلها. ساء الوضع في السبعينيات حتى أن علماء النفس حكموا بأن الكادر البشري في المحطات الذرية وقع تحت تأثير «الخوف النووي».

باتت لاعقلانية هذا الخوف بادية من أن الكوارث التكنولوجية المؤلمة صار يتم تقبلها بهدوء أكبر بما لا يقاس من حوادث بسيطة في محطات توليد الكهرباء الذرية (الكارثة التي حصلت في المصنع الكيميائي التابع لشركة أمريكية في المدينة الهندية بخوبال التي راح ضحيتها أكثر من ألفي شخص وأبقت أكثر من ١٠ آلاف معاق). أطلقت الحادثة الجدية نوعاً ما التي وقعت في محطة توليد الكهرباء الذرية «تريمايل – أيلاند» في بنسلفانيا شرارة رعب جعلت الصحافة تقارنها جدياً بهيروشيما والحرب النووية ونهاية العالم. يكتب س. ويرت مستنداً إلى تقارير الكثير من مجموعات الباحثين أن أبعاد ذلك الذعر لا يمكن أن تفسر إلا بتأثير وسائل الإعلام الطامعة بالإثارة: «كان ذلك خوفا نوويا حقيقياً شاملاً لا يشبع، وانتشر في مجالات السلطة العليا كما بين المواطنين العاديين».

لقد استخدم، طبعاً، الخوف النووي في الولايات المتحدة في الدعاية السياسية الموجهة ليس فقط إلى بناء شكل «العدو الخارجي» الضروري، بل في السياسة الداخلية أيضاً. يعد فيلم «ديزي» أحد أقوى الأفلام السياسية التي أنتجها الديمقراطيون في أثناء الحملة الانتخابية عام ١٩٦٤. كان الهدف منه التشهير بالمنافس الخطر المحافظ اليميني الجمهوري باري غولدوتير. تظهر في الفيلم فتاة صغير وهي تقطف وريقات زهرة أقحوان وتعد: واحد، اثنان، ثلاثة... بعد ذلك يبدأ صوت رجولي يعد عداً عكسياً من وراء الصورة: عشرة، تسعة، ثمانية. عند الصفر يظهر وجه الطفلة في لقطة قريبة وعيناها ممتلئتان رعباً، وينمو فيهما فطر الانفجار النووي. عرض الفيلم مرة واحدة فقط قبل شهرين من الانتخابات، لكنه أحدث انطباعاً جعل كثيرين من الناس يتصلون بالبيت الأبيض مطالبين «بإيقاف غولدوتير». لقد قضى رعب الأمريكيين من الحرب النووية على باري المسكين.

نكتشف اليوم باستغراب، حين أزيلت السرية عن الكثير من وثائق الحرب الباردة، أن ما كان وراء الكثير من أفعال أعدائنا التي بدت تبجحاً أو استهتاراً هو خوف حقيقي صادق غير مفهوم لنا إطلاقاً. لقد بلغ الأمر حد الطرافة. فقبل عامين، مثلاً، اعترفت شخصيات أمريكية رسمية بأن أكثر من خمسين مستودع سلاح وذخائر أقيم في الخمسينيات على أراضي النمسا من غير الاتفاق مع حكومتها. قررت قيادة الجيش الأمريكي أن الاتحاد السوفييتي سوف يحتل قريباً جداً أوربا وجهزت على نحو رومانسي قاعدة لحرب الأنصار (أفرطوا في قراءة مذكرات الأب كوفباك). نشأ النزاع اليوم بسبب من أن الخرائط السرية لتوزع هذه المستودعات الخفية قد ضاعت ولم يكلل البحث عن الكثير منها بالنجاح. إنها هدية غير سيئة لتجار السلاح.

لماذا إذن صارت هذه المقدرة على خلق هذا الشكل المبالغ به من الخوف في المخيلة أساساً لإستراتيجية كاملة من استراتيجيات التلاعب

بالوعي؟ لأن الخوف اللاعقلاني هو وسيلة مؤثرة «لتعطيل» المعنى السليم والآليات الدفاعية النفسية. الإنسان المهزوز بالخوف يخضع بسهولة للإيحاء ويصدق أي وسيلة «إنقاذ» تعرض عليه. لقد جرب علماء النفس في الوكالات الإعلانية الخوف الشامل (وغالباً اللاواعي) بصفته مقدمة لبرمجة السلوك وذلك في أثناء الحملات الضخمة. كانت إحداها إقامة سوق شاملة للبرادات في الولايات المتحدة.

وصل علماء النفس الذين درسوا المخاوف الخبيئة في فترة الحرب العالمية الثانية إلى استنتاج أن الأمريكيين يعانون من حاجة كبيرة إلى الأشياء التي تشكل لهم رمزاً للأمان والاستقرار والمستقبل القابل للتنبؤ به. اكتُشفت لدى الكثيرين عقدة «الرغبة في العودة إلى الطفولة» ورمزها الأم التي تحمي طفلها من الجوع. عد الخبراء أن البراد يمكن أن يكون ذلك الشيء القادر على أن يأخذ على عاتقه وظيفة مثل هذا الرمز: «يمثل البراد للكثيرين من الناس ضمانة أن الطعام موجود دائماً في المنزل، والطعام في المنزل يرمز إلى الهدوء والدفء والأمان».

دلت الدراسات كذلك على أن الطعام يرمز إلى أمر أكبر بكثير من التغذية فقط. الناس المصابون بالخوف من المستقبل (الخوف غير مرتبط بأي شكل من الأشكال بمشكلة الغذاء) ميالون إلى خزن قدر من الطعام في المنزل أكبر مما يستطيعون تناوله. احتياطي الطعام يزيل القلق.

كان تاريخ الطلب الجماهيري على البرادات في الولايات المتحدة واضحاً، حتى أن الحسابات الاقتصادية والمعنى السليم لم تدعم هذا الطلب. لم يكن في الولايات المتحدة انقطاعات في المواد الغذائية. ووفاقا لتحليل الاختصاصيين فإن كلفة البراد المستهلك للطاقة وتلك المواد التي تترك فيه طويلاً ثم ترمى في القمامة كانت على قدر يجعل شراء البراد من وجهة نظر براغماتية لا معنى له على الإطلاق. ومع ذلك فقد تنبأ علماء النفس بالطلب

الجماهيري، وأنشئت صناعة برادات بالجملة وانطلقت الدعاية من وجود الخوف المكبوت، وتأكدت حساباتهم.

تم بعد ذلك التنبؤ على نحو مماثل بنجاح شيء - رمز آخر يزيل المخاوف الخبيئة وهو مكيف الهواء. قدمت حملة الدعاية هذه السلعة على أنها وسيلة للوقاية من العالم الخارجي. يمكن للإنسان بوجود المكيف أن ينام والنوافذ مغلقة، فلا يستطيع أي شيء «خطر» أن ينفذ إلى المسكن من الخارج. لا حاجة إلى الحديث عن أن استنتاجات علماء النفس والمحللين النفسيين قد استخدمت في السياسة بكامل أبعادها وغالباً حتى بإفراط.

٤- المخاوف ونوع الثقافة

حين نلقي في فكرنا نظرة إلى تاريخنا مقارنين إياه بتاريخ صيرورة إنسان الغرب، تقع عيوننا فوراً على هذا الفارق: لم يصب الإنسان الروسي قط في وعيه بفيروس الخوف الصوفي. لم تفعل الأرثوذكسية ذلك، ولم تفعله الحكايات الشعبية عن العجوز ياغا. كانت خطايانا تغفر من خلال التوبة، وحتى اللص كوديار كان يستطيع أن يأمل في إنقاذ روحه.

تحدثنا سابقاً عن خوف الموت «الغربي» الخاص. يعرف الإنسان الروسي الذي لم يفقد ذاكرته التاريخية أن شيئاً مثل هذا لم يحدث في روسيا على الرغم من الحروب المخيفة والكوارث. شغل الموت ومشكلة إنقاذ الروح مكاناً كبيراً في أفكار الإنسان الأرثوذكسي وأحاسيسه، لكن فلسفة الموت كانت ملونة بأحاسيس شاعرية وبحب الأرض، والقريب المتروك وكل من رحل من قبل. خصص للموت في المجلد الأول من مؤلف ف. دال «أمثال الشعب الروسي» القسم الأكبر. لكن ليس فيه أي مثل يعكس الخوف الوجودي.

لقد قُدِّم في الأمثال اللقاء نفسه مع الموت على أنه أمر خضع للتفكير ملياً منذ زمن ولا يشكل كارثة: «الموت ليس حياكة خفاف: استلقى تحت

الأيقونات وجحَّظ عينيه، وانتهى كل شيء» الإنسان في الموت لا يكون غير وحيد فقط، بل يشعر على نحو خاص بدعم الأخوة: «لو أن الناس من قبلنا لم يموتوا لما عثرنا نحن أيضاً على الطريق إلى العالم الآخر»، «الناس يموتون، الطريق لنا يمهدون. السابق للاحق جسر إلى القبر». حتى في الوداع الدفء باد: «حين تموت ودع الدنيا – وضيعتنا!». يشدد هيويزينغا في الفصل عن تقبل الأوروبي للموت في العصور الوسطى المتأخرة على انتفاء المواضيع الشاعرية وظلال الدفء فيه انتفاء تاماً – ليس فيه سوى الرعب الكبير الخالص.

لقد وقف فلاسفة الدين الروس البارزون جميعهم في بداية قرننا ضد الخوف من عذابات الإنسان الخاطئ الأبدية. فتحدث ف. ف. روزانوف عن الغفران الشامل لجنس البشر في السموات. وكان ن. أ. بيرديايف قريباً منه إذ عبر عن فكرة أن الجحيم اختلقه «ساديون حاذقون». وعد ن. ف. فيودوروف[1] من السخف أن «يحكم على بعض الناس (الخاطئين) بالعذابات الأبدية، وعلى الآخرين (التقاة) بالتأمل الأبدي في هذه العذابات».

طبعاً، كان الفلاسفة الأرثوذكسيون الروس على ما يبدو على حافة الهرطقة من وجهة النظر اللاهوتية الصارمة، لكنهم عبروا عن الأنموذجات الأصيلة في الثقافة القومية. حتى أن ن. ف. فيودوروف طرح السؤال عن الإمكانية المبدئية لتجنب الحساب الأخير من خلال الوحدة الروحية، وكتب ن.

---

(١) **فاسيلي فاسيليفيتش روزانوف** (١٨٥٦-١٩١٩) كاتب وفيلسوف روسي. له أعمال نقدية للعديد من الأدباء الروس كدوستويفسكي وغوغول ولرمونتوف، من مؤلفاته «القصيدة الإنجيلية» (١٩١٢)، «منفيو الأدب» (١٩١٣)، «رؤيا عصرنا» (١٩١٨). **نيكولاي فيودوروف** (١٨٢٨-١٩٠٣) مفكر ديني، وأحد مؤسسي الكونية الروسية. طرح «مشروع» بعث الموتى الشامل («الآباء») والتغلب على الموت من خلال العلم المعاصر («فلسفة القضية العامة» (١٩٠٦). **(المترجم)**.

أ. بيرديايف عن فكرة فيودوروف هذه: «التنبؤات الرؤيوية مجازية وليست قَدرية، والبشرية حين تسير على درب "القضية العامة" المسيحية تستطيع أن تتجنب دمار العالم والحساب الأخير والإدانة الأبدية. إن ن. فيودوروف متشبع بحماسة الخلاص الشامل وهو بذلك يقف في موقع أسمى بكثير من المسيحيين الثأريين الذين يرون في هذه الثأرية أرثوذكسيتهم».

أدى أيضاً عدم وجود «خوف لوثر»، الذي ولد أخلاق الرأسمالية البروتستانتية، إلى التهور المعروف لدى الروس في إدارة اقتصادهم ما أدخل اليأس دائماً في نفوس غربويينا. كتب م. ي. سالتيكوف – شيدرين[١] كيف بُهر بالحقول المزروعة حين سافر إلى الخارج أول مرة: «أؤكد وأنا خائف من أن أثير الريبة في نفس القارئ على أن من حق الساحل البروسي المستاء من الطبيعة التمتع بشهرة إنتاج ما يسمى الأقماح "العاصفة" أكثر بكثير من مراعي تشيمبار المباركة، حيث يحدثوننا عن أن عمق طبقة التربة السوداء يبلغ أرشينين[٢].... أما هنا فواضح أنهم لا يراهنون على أي رحمة واسعة عظيمة، بل على العكس لا يفكرون ليلاً نهاراً إلا بفكرة واحدة: كيف لا يموتون جوعاً وسط الرمال والمستنقعات. في تشيمبار يقولون: إن لم يرسل لنا الله المطر فلن نموت أيها الأخوة ميتة غير عادية! ويقولون في إيدتكونين: سيكون ما يشاء المطر، أما نحن فلن نقبل بالموت!» ثمة من يستخلص من هنا أخلاق الكسل لدى الأرثوذوكسيين، أما نحن فنستخلص شيئاً آخر هو عدم وجود الخوف.

---

(١) **ميخائيل يفغنيفيتش سالتيكوف** (كتب بلقب مستعار هو شيدرين) (١٨٢٦-١٨٨٩) كاتب روسي بنى في مؤلفاته التي تمتزج فيها الفنية بالنثرية صورة ساخرة للبيروقراطية الروسية بصفتها من مخلفات نظام القنانة، وكان لأعماله أبلغ الأثر في تطور الأدب الروسي (**المترجم**).

(٢) **الأرشين** مقياس طولي روسي قديم يساوي ٠,٧١ م (**المترجم**).

لم تصل لوحة العالم العلمية إلى روسيا عبر الإصلاح المصعوق والثورة البرجوازية. تم، طبعاً، إدراكها بصعوبة لكنها لم تثر الخوف. إليكم كيف يلخص الفيلسوف أ. ف. لوسيف[1] موقف الإنسان الروسي في بداية قرننا من لوحة العالم الكوبيرنيكية: «ليس الطلبة فقط بل العلماء المحترمون جميعهم أيضاً لا يلحظون أن عالم فيزيائهم وعلم فلكهم هو عالم ممل بما فيه الكفاية وأحياناً منفر وهو أحياناً سراب جنوني ببساطة، وهو ذلك الثقب الذي يمكن أيضاً أن يكون محبوباً ومبجلاً... هذا كله غير أنيس وهذا كله ليس حميمياً، إنه شرير وقاس. كنت تارة على الأرض تحت السماء العزيزة، سمعت عن الكون "أنه لا يتحرك"... وفجأة لا شيء، لا الأرض ولا السماء، ولا "إنه لا يتحرك". طردونا من رقابنا إلى مكان ما، إلى فراغ ما، لا بل راحوا أيضاً يطلقون أقذع السباب في إثرنا... "ها هو وطنك – نبصق عليه ونمسح البصاق بأقدامنا!" حين اقرأ الكتاب المدرسي عن علم الفلك أشعر وكأن أحدهم يطردني بالعصا من منزلي، لا بل إنه مستعد لأن يبصق في وجهي». يتذمر الإنسان الروسي، لكنه لا يخاف.

تطورت الأحداث في روسيا على نحو مغاير. أوحى الحكام القساة من إيفان الرهيب وحتى ستالين للناس بخوف عقلاني وحقيقي تماماً. خوف الحقبة الستالينية الذي كاشفتنا به الإنتلجنسيا الليبرالية في البيرويسترويكا هو الخوف «الغربي» وفاقاً للمؤشرات كلها. ليس عبثاً أن الكثيرين عدوا أن طروحات يو. أفاناسيف ود. ليخاتشوف ول. رازغون غير صادقة وهي «إيديولوجية» خالصة. يبدو أن الناس البسطاء قد أخطأوا فخوف النخبة كان حقيقياً، لكنه كان غريباً عن أولئك الذين لم تهب عليهم روح «الغرب» (طال التنكيل أيضاً

---

(١) **ألكسي فيودوروفيتش لوسيف** (١٨٩٣–١٩٨٨)، فيلسوف ولغوي روسي. تركز اهتمامه على مشكلة الرمز والعالم، أهم أعماله «تاريخ علم الجمال القديم» (١٩٨٦). **(المترجم)**.

أسر أهلي الكبيرة، لكنني،إذ كنت أعرف به منذ الطفولة، لم أر في أقاربي أي خوف صوفي منه)[1].

لم يتسن أيضاً للخوف «الداخلي» من الأخلاق البرجوازية والفقدان المحتمل للوضع البورجوازي أن يظهر في روسيا، ولم يؤججوا فينا الخوف من الرؤيا النووية. حتى أن بإمكاننا القول إن الخوف النووي لدينا كان غير متطور بين جمهور الناس كما كان تماماً غير متطور لدى الفلاحين الخوف من الجفاف الذي كتب عنه سالتيكوف – شيدرين. حين أجلوا على وجه السرعة السكان من المدينة بعد حادثة محطة توليد الكهرباء الذرية في تشيرنوبل تعرضت الشرطة لمشكلة غير مفهومة للغرب: راح الناس يعودون متخطين الحواجز عبر ممرات سرية إلى مساكنهم التي تركوها ليأخذوا أشياءهم. بعد ذلك مد المحتالون رؤوسهم ليسحبوا ما بقي. لقد عادوا إلى المنطقة الموبوءة.

يمكن اعتماد النتيجة العامة التالية: لم يلعب الخوف ***الوجودي*** حتى آخر وقت دوراً ملموساً في ثقافة روسيا – أي الخوف على وجود الإنسان نفسه، الخوف بصفته جانباً مهماً من حياته ذاتها. لقد شددت الأرثوذكسية والثقافة التي نشأت على أرضيتها على الحب. وهذا بحد ذاته لم يبق مكاناً للخوف الوجودي: «لاَ خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ لأَنَّ

(١) مسألة أن التنكيل لم يثر لا الخوف الصوفي ولا «الذهول» واضحة من أن الوعي العادي قد طور عدة وسائل لاتقاء شره والسيطرة على الخطر. أذكر أن لا أمي ولا عمي لم يلقنا الأولاد «دروساً» بل قدما لنا، بالمناسبة، على نحو غير ملحوظ منظومة كاملة من المعارف عن كيفية تمييز «الوشاة» مثلاً. كان «الوشاة» كما تذكر الأجيال القديمة موجودين عادة في كل جماعة، ولم يكونوا يعاملونهم حتى بنفور، لم يحاول أحد أن يعزلهم أو يمتنع عن دعوتهم إلى الأماسي..إلخ. لقد صاروا جزءً من الطبيعة المحيطة ولم يكن يشع منهم أي خوف وجودي.

الْخَوْفَ له عَذَابٌ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ فَلَمْ يتَكَمَّلْ فِي الْمَحَبَّةِ». (رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤/١٨).

بيد أنهم نجحوا في تهييج خوف غير معقول في ذلك القسم من الناس السوفييت الذين تم اختراقهم إلى الحد الأكبر في أثناء البيريسترويكا بطريقة التفكير العقلانية والأوهام الغربية. لا يدور الحديث عن ذلك الخوف العقلاني من المخاطر الواقعية وهو ضروري للمرء كي يعيش في العالم المتغير المليء بالأمور غير المحددة. لا، فحتى هذه الحصافة بالذات وهذه المقدرة على استشفاف ولو الأذية الشخصية كانت معطلة لدى الإنتلجنسيا الليبرالية في أثناء البيريسترويكا. فقد كان واضحاً بين عامي ١٩٨٨ و١٩٨٩ أن هذا النهج المعادي للسوفييت الذي دعمته الإنتلجنسيا بنشوة سوف يدمر قبل كل شيء معنى وجودها نفسه. لقد تم التحذير من ذلك بوضوح – لن يكون أحد من أقوياء هذا العالم بحاجة لا إلى العلم ولا إلى الثقافة في روسيا المدمرة. كلا، لم يكن موجوداً مثل هذا الخوف العقلاني، واليوم يغمغم رجالات الثقافة وأكاديمية العلوم الأبية مثل المواشي الجائعة: «أطعمونا!».

يدور الحديث عن الخوف الموحى به، الخوف الهذياني، الذي لا يستطيع المثقف الليبرالي المرتعد نفسه أن يفسر أسسه. لقد أطلقوا فيه الفكرة الفيروس، الفكرة القالب، فنمّا هو بنفسه غولا أفقده المقدرة على الفهم. ها هي غالبية المثقفين تصوت عام ١٩٩٦ ليلتسين (كان موقف المدن العلمية بليغا بلاغة خاصة). وقد وصل علماء الاجتماع الذين درسوا دوافع هذا الاختيار إلى نتيجة مفادها أن الخوف قد استولى عليهم من زيوغانوف!

لم يكن ثمة أي أسباب إيجابية لدى الإنتلجنسيا لدعم يلتسين. كانت خرافة الديمقراطية قد ديست بالأقدام تماماً ورميت جانباً، ولم يكن ثمة أي أمل في النفاذ إلى «بيتنا الأوربي العام». كان قد صار واضحاً للجميع أن نظام يلتسين ينفذ سياسة تفكيك الصناعة وبنى الحضارة المعاصرة عموماً، لذلك لم

تكن لدى الإنتلجنسيا أي حظوظ في شغل مكانة اجتماعية مرموقة فيه (الدوافع الشخصية).

إذا حوكمت الأمور برأس بارد فإن الإيمان الذين استحوذ على عقول أناس متعلمين («سيأتي زيوغانوف ويبدأ يشنق الجميع») لم يكن بالإمكان تأكيده بأي حجج عقلانية، وكان مستحيلاً الحصول على هذه الحجج من الأحاديث. إضافة إلى ذلك حين كان يقدر بوسيلة ما تهدئة الجليس وحثه على التعقل واحترام قوانين المنطق فإنه كان يوافق لا على عدم وجود أي علاقة بين حملات التنكيل الستالينية وزيوغانوف وحسب بل حتى على أن المناعة ضد التنكيل هي الأقوى بين الشيوعيين تحديداً. وإذا كان ثمة إغراء معشش بالتنكيل فهو بين السياسيين الشعبيين الكاريزميين تحديداً. ومع ذلك تبين أن إستراتيجية حملة يلتسين الانتخابية المرتكزة على الخوف كانت ناجحة.

لو كان هذا الخوف يقرض روح المثقف الليبرالي وحده ويعذبها لكان بالإمكان الإشفاق عليه، لكن هذا الذهان صار قوة سياسية لأن هذا القسم من الإنتلجنسيا عد أن من حقه، كرمى للخلاص من عقدته، عدم الإشفاق على أحد، وتأييد مثل هذه التغييرات في البلاد التي تلحق آلاماً لا تتوافق مع الحياة بعدد هائل من مواطنيهم. ترى الإنتلجنسيا الليبرالية هذه الآلام بأم عينها ومع ذلك تؤيد النظام الذي يتسبب بهذه الآلام مبررة ذلك فقط بالخلاص من الشبح المخيف نفسه الذي خلقته هي نفسها.

دعوني قبل انتخابات مجلس الدوما عام ١٩٩٥ إلى طاولة مستديرة بعنوان «الثقافة، التعليم، العلم» أقامتها الغرفة الاجتماعية التابعة لرئيس روسيا الاتحادية. يبدو أنهم قرروا تجريب التعددية. اجتمعت صفوة «الديمقراطيين من الثقافة»، كان الاستماع ممتعاً. صاغت رئيسة الغرفة كاتبة الدراما السؤال بطريقة شكسبيرية: «إذا انتصر الشيوعيون في الانتخابات فإن زيوغانوف سيضعنا جميعنا إلى الحائط. هل تدركون ذلك جميعكم؟». هز الجميع

رؤوسهم موافقين. نعم، إنهم يفهمون ذلك. كدت أهب واقفاً: «اشرحوا لي أيها السادة، أي قضايا تخفونها وراءكم كي يتعطشوا إلى وضعكم إلى الجدار؟» فمثل هذه الأفكار لا يخطر على البال ببساطة. هذا معناه أن شيئاً ما يخز «كتاب الدراما» هؤلاء. حاولت استيضاح الأمر- لكن لا، كان ما «يخزهم» هو الخوف المتوهم، الذي لا يمكن ترجمته إلى لغة المخاطر الملموسة.

استحوذ الخوف بعض الوقت، إضافة إلى انتلجنسيتنا الليبرالية، على قسم من «مستثمرينا» (المرتبطين عموماً بالإنتلجنسيا ارتباطاً قوياً). حين قامت لجنة الطوارئ الحكومية «بالانقلاب العسكري»[1] المرعب صار واضحاً لسكان موسكو صباح ١٩ آب أن العسكريين لن يطلقوا النيران ولن يدوسوا أحداً بالدبابات. لكن بعد مؤتمر «العصابة» الصحفي اتضح تماماً أننا لسنا سوى جمهور مسرحية كبيرة. عندئذ استدعيت في اليوم التالي «ميليشيات» الديمقراطيين إلى «البيت الأبيض». فأي مشاعر أحست بها «الميليشيات»؟

كتبت صحيفة «إزفيستيا»: «لفت انتباه الكثيرين وجود عدد غير قليل من المستثمرين في صفوف الميليشيات. إنهم أنفسهم الذين وعدهم غينادي

---

(١) **لجنة الطوارئ الحكومية** هي هيئة تشكلت ذاتياً في الاتحاد السوفييتي وتألفت من عدد من ممثلي قيادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي وحكومة الاتحاد السوفييتي أقدمت بين ١٩ آب و٢١ آب من عام ١٩٩١ على ما سمي انقلاباً بهدف إبعاد غورباتشوف عن منصب رئيس الاتحاد السوفييتي وتغيير النهج الذي كان يقود البلاد عليه ومنع توقيع «اتفاق اتحاد الدول المستقلة» الذي كان مزمعا توقيعه في العشرين من الشهر نفسه. لكن هذه المحاولة انهارت وأعيد غورباتشوف إلى الحكم واعتقل أفراد اللجنة جميعاً، ما عدا وزير الداخلية بوريس بوغو الذي انتحر. أراد أعضاء اللجنة استعادة دور القانون في البلاد ووقف انهيار الدولة، وقد تم الإفراج عن المعتقلين في العفو الصادر عام ١٩٩٤ قبل أن يقدموا للمحاكمة. شكل هذا الانقلاب ذريعة قوية للإجهاز على الدولة السوفييتية ويرى فيه مؤلف الكتاب مسرحية كبرى(**المترجم**).

يانايف[1] بعدم إعاقة أعمالهم في أثناء المؤتمر الصحفي الهزلي في ١٩ آب. صار مفهوماً من المقابلات القصيرة مع ناشطي البورصة ومدراء أعمال الشركات المشتركة والصغيرة والشركات المساهمة والمصارف التجارية ما الذي جاء بهم إلى هنا وأجبرهم على حمل القضبان الحديدية والعصي والحجارة. لم يروا في "برنامج" لجنة الطوارئ الحكومية الدعية نهاية الحريات الديمقراطية وحسب، بل رأوا نهايتهم أنفسهم».

نهايتهم أنفسهم، يا للهول! هذا من المؤتمر الصحفي الذي أجراه يانايف المرتعد! هل يمكن تصديق ذلك؟ تبين أن هذا ما حدث. يكتب م. ليونتيف في صحيفة «نيزافيسيمايا غازيتا» (الصحيفة المستقلة): «لم يشكل انقلاب عسكري قط في أي دولة من دول العالم مثل هذا التهديد المحسوس جسدياً لحياة عشرات الآلاف من المستثمرين. ولم تحصل الديمقراطية قط على مثل هذا القدر من الدعم الكامل من قبل البزنس». كُتب ذلك بجدية تامة، فالذهان واضح وضوح العيان. إننا نرى هنا بوضوح انشقاق مجموعة عن الشعب وفاقاً لمؤشر ثقافي: لقد صارت عِرضة للخوف «الغربي». هذا معناه أنها عرضة لأساليب تلاعب جديدة بالسلوك غير مألوفة لنا.

يعد هذا خطراً. كتب الصحفي س. خابيروف أحد المدافعين عن «البيت الأبيض» في «يومياته» التي نالت الشهرة: «إننا في حقيقة الأمر – نحن المشاركين في الحرب الأهلية الهادئة إلى الآن– مجموعتان من المواطنين مستعدتان لأن تطلق إحداهما النار على الأخرى. وفي جميع الأحوال فإن الناس المدافعين عن "البيت الأبيض" قادرون تماماً على فعل ذلك...». لم يكن

---

(١) **غينادي يانايف** (١٩٣٧-٢٠١٠) نائب رئيس الاتحاد السوفييتي منذ كانون الأول وحتى آب من عام ١٩٩١. انتخب في حزيران ١٩٩٠ عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي. كان أحد أعضاء لجنة الطوارئ الحكومية وأعلن نفسه في انقلاب آب رئيساً للاتحاد السوفييتي بعد تنحية غورباتشوف. **(المترجم)**.

في نية العسكريين كما هو معروف إطلاق النار على أحد، لم يكونوا مهيئين نفسياً لذلك على الإطلاق، حتى أن الأوامر منعتهم من فعل ذلك منعاً باتاً. أما الديمقراطيون المحتشدون فتبين أنهم «كانوا قادرين تماماً على فعل ذلك». يا للعجب – هذا هو أثر البيريسترويكا.

عموماً كانت ثقافة الخوف قسماً مكوناً هاماً من برنامج البيريسترويكا والإصلاحات كله. استخدمت من أجل ذلك المواضيع الممكنة كلها: حملات التنكيل عام ١٩٣٧، والمجاعات، وندرة المواد، والكوارث التقنية، والإجرام، والإيدز، والمخاطر البيئية، والحروب بين القوميات وعنف الشرطة. وكانت أشكال الخوف في كل موضوع تُضخ في الوعي الجماهيري بقوة لا يمكن تصورها، وبوسائل آلة الدعاية الحكومية كلها، ومن ثم بالتلفزيون «المستقل». لقد عرضوا أمامنا على نحو متواصل مشاهد تدمير بِندِر المرعبة، ومن ثم قصف غروزني[1] وقمع المظاهرات، وأخيراً قصف مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية روسيا الاشتراكية السوفييتية الذي صور كمسرحية بكاميرات تصوير منصوبة مسبقاً.

طبعاً، تستطيع الحياة نفسها أن تساعد على ضخ المخاوف في فئات المجتمع الروسي المختلفة. ما زال صعباً علينا القول إن كان الحديث يدور عن مخاوف حقيقية أم أنها قد اتخذت طابعاً عصبياً إن لم يكن شيزوفرينياً. يستخدم الخبراء الغربيون ازدياد عدد الحراس الشخصيين كمؤشر كمي على ازدياد الخوف. ووفاقاً لهذا المؤشر يمكننا الحديث عن الخوف الشيزوفريني: كان في العهد السوفييتي ما يقارب الثلاثة آلاف شخص فقط يمتلكون حماية شخصية في موسكو. بينما تنفق البنى التجارية الكبرى اليوم على الحماية ما يقارب ثلث دخلها. إلا أن نصف عدد رجال الأعمال تقريباً في روسيا في نهاية ١٩٩٦ كان في قلق مستمر على حياته وحياة أقربائه.

---

(١) بِندِر مدينة في مولدافيا. **غروزني** عاصمة الجمهورية الشيشانية (**المترجم**).

المؤشر الثاني على الخوف هو اليقين العام لدى رجال الأعمال وكبار الموظفين بأن هواتفهم خاضعة للتنصت. يكتسب هذا الخوف أيضاً طابع جنون الشك (البارانويا). المواطن البسيط على ما يبدو غير معرض لهذا الخوف العصبي. المألوف لديه هو الخوف الواقعي الصحي من المجرمين المتكاثرين في كل مكان في ظل فقدان دوائر الأمن الكفاءة تماماً. إذا كان سابقاً خطر هجوم أحد الزعران محصوراً فيه تحديداً وكانت مؤخرة المواطن تحميها الشرطة فإن أحداً اليوم لا يثق بأنها ستقف إلى جانبه إذا كان هذا الأزعر عضواً في عصابة ذات نفوذ.

كتب ف. إ. شليابينتوخ البروفيسور في جامعة ميتشيغان (المختص في شؤون روسيا وعالم الاجتماع السوفييتي السابق، الذي عمل في «البرافدا»): «يؤثر الخوف في الحياة الشخصية في الكثير من قرارات الروس – هذا وضع لم يكن معروفاً عملياً بين الستينيات والثمانينات... القضاة يخافون المتهمين، وخوفهم ليس بلا أساس، ويخاف مفتشو الضرائب من مكلفيهم، ورجال الشرطة من المجرمين. السائقون يخافون خوف الموت من أن يصطدموا بالمصادفة بسيارة أخرى لأن "الضحية" قد يطلب تعويضاً مساوياً ثمن سيارة جديدة أو شقة سكنية».

يرى ف. إ. شليابينتوخ سبب استحالة مكافحة الجريمة وتحسين الوضع في أن الأوليغارشيين «الإقطاعيين» الروس جميعهم وخدمهم كثيري العدد، أكانوا في الوظيفة الحكومية أم في مجال الأعمال، يخافون جميعهم بلا استثناء من الملاحقة القانونية لأنشطتهم أكثر بكثير من القتلة المأجورين... «إن الحقائق المنشورة تجعل مجافانادزه وتشوربانوف، اللذين كانا رمزي الفساد في عهد بريجنيف، طفلين بريئين بالمقارنة مع رجال اليوم».

هذه المخاوف الواقعية هي موضوع آخر، ما يهمنا هنا هو أنهم يخلقون أساساً لتحويلها على نحو مصطنع إلى خوف شيزوفريني بهدف تهيئة ظرف

موات للتلاعب بالوعي الجماهيري – لأهداف سياسية في المقام الأول. مثلاً، من أجل نقل السلطة إلى جنرال «شديد» يعد بفرض النظام بقبضة حديدية.

٥- خوف الإرهاب

صار اليوم حقيقياً لروسيا ***خوف الإرهاب*** المشغول في الغرب منذ زمن طويل كأداة للتلاعب بالوعي. أدرج أرسطو مفهوم الإرهاب (*terror* تعني الرعب) ليرمز إلى نوع خاص من الرعب الذي كان يستحوذ على مشاهدي المأساة في المسرح اليوناني. كان ذلك رعباً من اللاوجود المتجسد في هيئة الألم والفوضى والدمار. يرى بعضهم أن إدراك الإرهاب من خلال المسرح قد ولد طقس المحكمة كنوع من أنواع المسرح الذي ينتصر على الإرهاب بالقانون. في وقت لاحق واستناداً إلى موجة التنوير اكتشفت في الغرب طريقة هائلة للتأثير في أفكار المواطنين وسلوكهم – وهي ***الإرهاب***. يعود مذهب تحويل الخوف إلى سلاح في يد السلطة إلى اليعاقبة وقد تم شرحه بالتفصيل في مؤلفات مارات[(١)]. أقدمت الدولة الجديدة من أجل خلق الخوف الشامل على هدم صورتها الخاصة بصفتها ضامنة للحقوق – نظمت الدولة بنفسها المجازر «وكأنها عفوية» في السجون بحق المعتقلين السياسيين. لقد صاغ مارات نفسه فرضية من أهم الفرضيات: للاستحواذ على السلطة أو الحفاظ عليها عبر إخافة المجتمع (وهذا هو المعنى السياسي لكلمة «إرهاب») يجب إنشاء وضع الهستريا الشاملة.

بعد الدولة صارت القوى السياسية التي تناهض الدولة (أو أعداءها) تستخدم أيضاً الإرهاب في «حرب الجميع ضد الجميع». وهكذا ظهر

---

(١) **جان بول مارات** (١٧٤١-١٧٩٣) أحد قادة اليعاقبة، طبيب، بدأ منذ ايلول عام ١٧٨٩ يصدر صحيفة «صديق الشعب»، وقاد مع روبسبير عملية التحضير لانتفاضة ٣١ أيار- ٢حزيران من عام ١٧٩٣ التي انتزعت السلطة من الجيروندينيين. قتل على يد كورده (**المترجم**).

الإرهاب كأداة لإخافة المجتمع والدولة لأغراض سياسية. ظهر أيضاً كنوع خاص من أنواع المسرح السياسي، الذي يشعر النظارة فيه بالرعب. هدفه الرئيسي ليس قتل شخصيات محددة، بل تحديداً التأثير في مشاعر أوسع نطاق من الناس. يعد الإرهاب وفاقاً للمفهوم المعتمد من قبل علم السياسية الأمريكي «تهديداً بالعنف أو استخداماً له لأغراض سياسية من قبل أشخاص أو مجموعات منفصلة تعمل كما في المحيط كذلك ضد الدولة القائمة حين يكون هذا العمل موجهاً من أجل التأثير في عدد من الناس أكبر من الضحايا المباشرين»(١). بذلك يكون الإرهاب وسيلة تأثير ***نفسي***. غايته الرئيسية ليس من صار ضحية، بل من بقي حياً. هدفه ليس القتل بل إخافة الأحياء وإيقاع الفوضى في صفوفهم. الضحايا هم معدات، والقتل هو أسلوب. ينماز الإرهاب بذلك عن الأعمال التخريبية التي تكون غايتها تدمير الهدف (جسر، محطة كهرباء) أو القضاء على العدو. أحياناً يتطابق الهدفان (اغتيال رجال السياسة مثلاً)، لكننا سوف نتحدث فقط عن الإرهاب الموجه ضد السكان.

تحدثنا أعلاه عن وجود خوف عقلاني حين يحدد الإنسان تحديداً صائباً منبع الخطر وحجمه ويتخذ الإجراءات الكفيلة بالتقليل منه، وعن وجود خوف غير ملائم (عصبي) حين يصاب الإنسان باللامبالاة أو يقدم على عمل ضار به أو حتى مهلك له نفسه. هدف الإرهابيين هو بث الخوف غير الملائم تحديداً. الناس المذعورون وذوو المعنويات المنهارة يقدمون أنفسهم على أعمال لا تخدم مصالحهم إطلاقاً أو يطلبون من السلطات القيام بها، أو على الأقل يستحسنون القيام بها. أحياناً تكون أعمالاً تخدم مصلحة الإرهابيين أو

(١) نشير إلى أن الإرهاب يمكن أن يكون مواليا للحكومة، وغالباً ما يكون إرهاب دولة. لكن الأمر الرئيسي هو أن الدوائر الحاكمة تعلمت استخدام الخوف الذي يبثه الإرهابيون من الأصناف كافة لمصلحتها، لذلك يكون من الصعب غالباً التحديد بدقة من الذي يشكل «الفرق الحمر» ولمصلحة من تعمل.

على الأغلب من يطلبونها منهم ويستأجرونهم لتنفيذها. وأحياناً يكون الرابح الأكبر هو السياسيون الذين يستخدمون مجاناً أعمال «الآخرين» الإرهابية(١).

قد تكون هجمات الإرهابيين موجهة لاستهداف مجموعة ضيقة تنتمي إليها أنت نفسك (شكل على سبيل المثال سكان البناء في بويناكسك مثل هذه المجموعة). حينئذ يكون الخطر عظيماً - يطلقون النيران السديدة، إنهم يصوبون نحوك تحديداً. لكن إذا ضربوا مجموعة واسعة (مثلاً مجموعة «سكان روسيا»، أو حتى «الموسكوبيين») فإن خوفك على شخصك لا معنى له - احتمال أن تكون الضحية ضعيف جداً، يمكن فقط أن تصيبك رصاصة طائشة نادرة. وهذا الخطر في الأحوال جميعها أقل بثلاث مراتب (بألف مرة) من احتمال أن تكون ضحية حادث وأنت تقود سيارة. يموت كل عام من بين ١٥ مليون سائق في روسيا ما يقارب الألف. وعام ١٩٩٩ قضى بالأعمال الإرهابية قرابة المليون. لكننا لا نخاف من ركوب السيارة.

لماذا إذن لا نخاف من السفر بالسيارة ونخاف من الإرهابيين؟ قبل كل شيء لأن أقوياء هذا العالم غير مهتمين إن كنا نخاف من السيارة. لذلك فإن تلفزيونهم لا يعرض لنا من الصباح حتى الليل جثث ضحايا حوادث السير المشوهة. لو أنهم عرضوها بالتواتر نفسه كما يعرضون ما تقترفه أيادي الإرهابيين لأصابنا الذعر من السيارة(٢). من هنا يصير مفهوماً الاستنتاج

---

(١) مثلاً، كانت زعزعة الوعي بنتيجة الانفجارات مفيدة جداً لنظام يلتسين. إذ صار بالإمكان على خلفية الذهان الناتج عنها إما تثبيت يلتسين («لا تُستبدل الجياد على العبارات») أو الإطاحة به سلفاً وبلا ضجيج ودعوة المجتمع إلى الالتفاف حول «الحكومة الجديدة». عدا عن أن الوقت لم يكن ملائماً للنزاع مع شركة «مابيتكس» - حتى التذكر يثير الاشمئزاز. أما الصرب فنسوهم تماماً وكأنهم غير موجودين.

(٢) يروى أن هنري فورد حين راح يفضح بنشاط «سطوة اليهود» جاءه رجال هوليود البارزون وقالوا إنهم إن استمر في فعله هذا فسيعرضون في كل فيلم إخباري مشاهد حوادث السير التي تقع فيها سيارات «فورد». وكف فورد على الفور عن معاداة السامية.

الذي خلص إليه العلماء منذ زمن وهو أن الإرهاب نشأ بالتزامن مع نشوء وسائل الإعلام وهو مرتبط به ارتباطاً وثيقاً. الإرهاب المعاصر هو الأخ الشقيق للتلفزيون. لم يكن لقصف العراق أو إطلاق النار على مبنى مجلس السوفييت أو التفجيرات في بيتشاتنيكي أي معنى لو أن التلفزيون لم ينقلها إلى كل بيت.

كانت الصحف في القرن الماضي ضرورية جداً للإرهاب، لكنهم كانوا مضطرين إلى إراقة الكثير من الدماء، فالصحف لا تنقل مشهد الدماء. تشير معطيات عدد من المؤرخين إلى أن الإرهابيين قبل عام ١٩١٧ قتلوا في روسيا قرابة ١٧ ألف شخص (ربما كانوا يبالغون، لكن العدد في الأحوال كلها كان بالآلاف). أحدث ذلك أثراً، لكنه كان أقل بكثير من الأثر الذي تحدثه اليوم مائة ضحية. القراءة والسمع ليسا ***كالمشاهدة***.

إننا لا نستطيع أن نعيش بلا صحف وتلفزيون، لكن هذه الوسائل يمكن أن تكون عوناً للإرهابيين في بث الخوف غير الملائم، ويمكنها أن تكون «معادية للإرهابيين». لم يكن ثمة إرهاب في الاتحاد السوفييتي لأن أهدافه لم تكن ممكنة التحقيق لأسباب كثيرة. لم تكن وسائل الإعلام السوفييتية تجري لقاءات مع القتلة ولم تكن تبث الخوف. أما اليوم، فتلفزيون روسيا، مثلاً، شريك الإرهابيين، إنه ينفذ باهتمام وعلى نحو خلاق ما يطلبه الإرهابيون. راح التلفزيون عام ١٩٩٦ يتغنى بباسايف(١) عارضاً باستمرار لحيته الرجولية، ويذرف الدموع الكاذبة («آه، لقد هلك أفراد أسرته جميعهم في أثناء

---

(١) **شامل سلمان باسايف** (١٩٦٥-٢٠٠٦) مشارك نشط في العمليات العسكرية في الشيشان، وأحد القادة الميدانيين. نظم عدداً من العمليات الإرهابية على الأراضي الروسية، وقد أدرج اسمه على لائحة الإرهابيين في هيئة الأمم المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد الأوربي. **(المترجم)**.

القصف») ويتأثر («آه، لقد أهدى الأطفال الأيتام الروس تلفزيوناً في غروزني»). لكن الأمر الرئيسي هو أنهم خصصوا له البث، وهذا غير مقبول تماماً إذا كانوا يرغبون في مكافحة الإرهاب وليس مساعدته.

بالمناسبة، إنهم يخصصون له البث اليوم أيضاً وإن كان بوقاحة أقل («صرح باسايف في غروزني أن...»). وهبَّت أسرة الصحفيين الديمقراطية كالجبل دفاعاً عن مراسل راديو «الحرية» أ. بابيتسكي الذي راح يبث من معسكر المسلحين، والذي اعتقل في غروزني. إن قضية بابيتسكي رائعة بحد ذاتها، لكننا سنأخذ قسمها الأول فقط – وهو إقامته لدى المسلحين التي صورها الديمقراطيون من شوستر وحتى أولبرايت على أنها حق للصحفي بل هي واجب من واجباته. نعم، الصحفيون الأجانب لم يخرجوا من بين فصائل مسلحي باسايف. حتى أن التلفزيون الروسي عرض في ٥ شباط ٢٠٠٠ إحدى تلك الفصائل التي صورت في برنامج أحد المحطات التلفزيونية الأجنبية. يليح بالسكين مسلح ملتح ويردد: «هذه من أجل بوتين. اشتريتها براتبي التقاعدي». منتهى الذكاء، وغاية في الديمقراطية. لدي قصاصة من صحيفة «بايس» الإسبانية بتاريخ ٢٨ تشرين الأول ١٩٩٨. قدمت رابطة ضحايا الإرهاب ذات النفوذ احتجاجاً رسمياً لسفير بريطانيا العظمى وطلبت منه نقله إلى رئيس الوزراء طوني بلير، وذلك لأن برنامجاً في الـــ بي بي سي أظهر في خبر سريع تصريح عضوين في منظمة الباسك الإرهابية إيتا بأن هذه المنظمة سوف تعلن الصلح ابتداء من ١٦ أيلول وسوف توقف أعمالها الإرهابية. وهكذا ومض تصريح يدعو إلى السلم فنتجت عنه مذكرة رسمية للسفير ورئيس الوزراء. ماذا كان سيحدث لو أن مراسل الـــ بي بي سي أقام بين عصابة من الإرهابيين في مكان ما في البيرين، وراح أفرادها يليحون بالسكين ويتعهدون بجز حنجرة ملك إسبانيا – وأذيع ذلك في أوربا

كلها؟ عدم توافق مذهل مع ما يحدث في روسيا – وكأن هؤلاء الكيسيليوفيون والفلياركوفسكيون لا يرون[1]. لكن لنعد إلى الإرهاب نفسه.

للإرهاب أساس ثقافي هو ***العدمية*** – أي رفض الأخلاق العامة. إنه نتاج الغرب الذي أعلن «حرب الجميع ضد الجميع» قاعدةً في الحياة. صار الإرهاب أول مرة أسلوباً معتمداً للهيمنة ومبرراً أخلاقيا في أثناء الثورة الفرنسية، وولد توأمه الإرهاب كأسلوب للنضال ضد السلطة. نشأ بعد ذلك إرهاب الدولة كرد على إرهاب المعارضة. ترعى دول الغرب الإرهاب لديها ضمن حدود معينة. إن هذا أداة مهمة لحشد السكان حول السلطة («إننا مضطرون إلى أن نغفر لها الكثير لأن الإرهابيين من غيرها سيقتلوننا جميعاً»). إن هذا أحد أقوى وسائل التلاعب بالوعي وتشتيت انتباه المجتمع عن خداع العلية. إن هذا أداة فاعلة في حشد الشباب الراديكالي من طبقات المجتمع المنبوذة وتوجيه طاقتهم نحو أهداف مزيفة[2].

---

(١) ترى القوانين الأوربية في الاتصال مع الإرهابيين جريمة جنائية. شاهدت في التلفزيون الإسباني منظراً مؤلماً – كان أحد أصحاب المال يجهش باكياً، لقد أخذه إرهابيو الباسك رهينة. كان يملك النقود فنقل صديقه المحامي الفدية للخاطفين وأنقذه. انتشر الخبر فحكموا على المحامي بالسجن خمسة أعوام إن لم أكن مخطئاً على إقدامه على الاتصال بالإرهابيين. بكى الرجل لأنهم رفضوا توسلاته كلها بأن يضعوه في السجن محل صديقه. ماذا سيقول بهذا الشأن المدافعون عن الصحفي من راديو «الحرية»!.

(٢) انتقل الإرهاب مع الرأسمالية من الغرب إلى دول أخرى. كان إرهاب المعارضة والدولة في روسيا القيصرية مرتبطين على نحو وثيق. صار إيفنو أزيف عام ١٩٠٣ قائد منظمة حزب الإيسيريين العسكرية وهو من عام ١٨٩٣ حتى ١٩٠٨ عميل مأجور للبوليس. سمحوا له عام ١٩٠٤ بأن يقتل الوزير ف. ك. بليفه لكنهم أمروه عام ١٩٠٦ بأن يحول دون اغتيال الوزير دورنوفو.

بنت إسرائيل منظومة إرهاب معقدة وجديدة من حيث المبدأ. تتألف هذه المنظومة من إرهاب الدولة والإرهاب «الإسلامي» المتلاعَب به والدوائر الخاصة بمكافحة الإرهاب. انتقلت الولايات المتحدة بعد إسرائيل إلى دعم الإرهابيين «الإسلاميين» - تبين أن هذا مؤلم قليلاً لكنه وسيلة فاعلة لتأليب المسلمين بعضهم على بعض وإبعاد جمهورهم العاقل عن الصراع. كتب المؤرخ والفيلسوف العربي البارز سمير أمين في كتابه «المركزية الأوربية: نقد الإيديولوجية» عن الحلف السري بين الغرب والأصوليين الإسلاميين: «كيف يمكن تفسير الدعم (المرفوض نفاقاً) الذي يقدمه الغرب للحركة التي تعاديه بغير الإضعاف الهائل للعالم العربي الذي تؤدي إليه النزاعات الداخلية (خصوصاً النزاعات المذهبية بين الطوائف والمنظمات)».

النتيجة المأساوية لتفجيرات المنازل السكنية والذهان الذي خلقه التلفزيون هي حقيقة أن الرأي العام في روسيا وكذلك السياسيين جميعاً تقريباً قد أغروا بفكرة «التعلم من الغرب وإسرائيل» وحتى «التعاون» معهما في مكافحة الإرهاب في روسيا.

يبدو من الوهلة الأولى فقط أن الحديث يدور عن «تبني التكنولوجيا». لكن خلف هذه التكنولوجيا يكمن تصور عن الخير والشر لا ينفصل عنها. إن تبنيها عن الغرب وإسرائيل ومن ثم المقدرة على خلقها، وبعد ذلك «ترويض» الإرهاب يعني نهاية روسيا كثقافة وكبلد متعدد القوميات. تتحدث حقيقة أن هذا يقال بجدية ولا يثير أي ردود فعل لدى الكتاب الروس والعسكريين والكنيسة الأرثوذكسية عن أزمة روحية عميقة.

لا تضع وسائل الغرب أمامها هدف اجتثاث الإرهاب ما دام الإرهاب ضرورياً للغرب. الهدف هو دعم الإرهاب في الحدود المعطاة (بمساعدة الآزيفيين). يدهش «الخبراء» في التلفزيون: إسرائيل تدفع الكثير للعملاء السريين بين الإرهابيين ما يمكنها دائماً من إحباط العمليات الخطرة جداً. إنهم

حتى قطعوا رأس إرهابي من الإرهابيين بالهاتف المحمول. لكن إذا كانت إسرائيل تدفع، وتدفع الكثير، فهذا معناه أنها هي نفسها تخلق الإرهاب. السوق هي السوق: إن وجد الطلب وجد العرض. لكي تحصل على النقود من «الموساد» يجب القيام بعمليات إرهابية. وثمة ما يكفي في كل مكان من الانتحاريين الشباب البؤساء.

واضح هنا فقدان المنطق. لماذا علينا أن نتعلم استئصال الإرهاب من الغرب حيث يزدهر، وليس من الاتحاد السوفييتي حيث لم يكن له ذكر؟ تعالوا نحدد بوضوح على الأقل لماذا لم يكن ثمة إرهاب في الاتحاد السوفييتي. أي ظروف أخمدت آلياً الرغبة ذاتها في الارتماء في هذه الدوامة؟ فهذا لا يمكن إرجاعه إلى الـــ ك. ج. ب. المرعب، مع أن اصبع الـــ ك ج ب المهدِّد كان ضرورياً.

لماذا إذن كف الشيشانيون الذين انتقلوا إلى جانب هتلر وكانت لديهم تشكيلات كبيرة في مؤخرة الجيش الأحمر تمتلك المدفعية، عن المقاومة، وصعدوا إلى عربات البضائع في القطارات من غير قتال ورحلوا إلى كازاخستان؟ لماذا لم يبدأوا الحرب الإرهابية - لا في نهاية الأربعينات ولا في الخمسينات ولا في الستينات؟ هل خافوا من الـــ ك. ج. ب؟ لا، فهم لم يخافوا شيئاً في أثناء الحرب، وبدء انتفاضة في مؤخرة الجيش الأحمر يعني حرق الجسور والسير نحو مغامرة كبرى. خضع المتمردون الشيشانيون لأن العقاب كان قاسياً وحتمياً وحريصاً جداً على الشعب. لم يشرعوا حينذاك بإعدام الرجال ولا قطع جذور الشعب بل رحلوه إلى الجانب الآخر من قزوين. حتى أنهم لم يحلوا المنظمات الحزبية والكومسمولية ولم يوقفوا القبول في الحزب. بهذا وحده فقط بينوا أن الشعب لن يخنق، وسوف يقبل الصبي المحارب دودايف في أفضل أكاديمية عسكرية وسيصير جنرالاً كبيراً، أما الصبي الذكي حسبولاتوف فسيصير بروفيسوراً.

لم يدفع النظام السوفييتي القاسي الشيشانيين إلى الحرب الإرهابية. لكن هذه الحرب أتتنا ولا مفر في ظل نظام يلتسين. علينا إذن أن نفهم ماذا في الأمر. فهذا درس جلي، أثر في الجميع حتى العظم ولم يكن جائزاً السكوت عنه.

لم يدع التلفزيون الناس وهو يخلق لديهم الذهان يفكرون بشيء مهم بات واضحاً. لقد فهم الجميع تقريباً أن الحديث لا يدور عن أي اقتصاد سوق آخذ في الازدهار في روسيا. الوضع كان يسوء من عام إلى عام ولم يكن ثمة أي أفق. فهموا، لكنهم ما زالوا صامتين – يصعب الاعتراف. كسر الدم الغزير في موسكو الموانع، وفي مثل هذه اللحظة يمكن القول إن اقتصاد سوق ناجح في روسيا لا يمكن أن يقوم الآن لأن الإرهاب ظهر.

هذا معناه أنهم خلقوا دائرة مسحورة. زادت من جهة حدة النزوع إلى تدعيم الدولة البوليسية المضطرة إلى فرض تقييدات جديدة متزايدة على الحريات كلها، بما فيها حرية الاستثمارات. فعن أي سوق يتكلمون ما دام رجال القوات الخاصة يهرعون مصطحبين الكلاب وراء كل عِدل من السكر! وإذا كان المتقاعدون يتصلون بالوزير روشايلو ليبلغوه عن كل شاحنة متوقفة. ومن جهة أخرى ازدادت نفقات المؤسسات الإنتاجية بحيث صارت غير قادرة على المنافسة في السوق.

حتى الإرهاب غير الكبير يكلف الاقتصاد ثمناً غالياً لا يمكن تخيله. أدى ظهور الحركة الراديكالية «سيندرو ليومينوس» («الدرب المضيء») في البيرو، والتي بلغ عدد أعضائها الألفين فقط، إلى ازدياد نفقات الإنتاج مرتين – هذا ما احتاج إليه الدفاع عن البنى التحتية الصناعية وحمايتها.

فماذا عن روسيا! لقد بنيت بنيتنا التحتية الهائلة كلها – أنابيب النقل، وخطوط نقل الكهرباء، والاتصالات.. الخ– في الاتحاد السوفييتي في ظل مجتمع مستقر. ولا يمكن من حيث المبدأ حمايتها من الإرهاب. إذا رغبنا في

الاستمرار باقتصاد السوق مع وجود الإرهاب فإننا سوف نضطر إلى بناء البلاد كلها من جديد – مثل قلعة داخلها آلاف مؤلفة من القلاع الصغيرة. لن تتوافر النقود لدى أحد من أجل ذلك، ومثل هذا الاقتصاد لن يكون قابلاً للتنفيذ.

لدينا إمكانية وحيدة هي اجتثاث الإرهاب من حيث المبدأ. لكن هذا لا يمكن الوصول إليه «بوسائل الغرب»- أي بالقصف الدموي، وإطلاق الصواريخ المجنحة «على القواعد»، واستئجار العملاء السريين. اجتثاث الإرهاب في روسيا ممكن فقط بوسيلة وحيدة هي إعادة بناء شروط الحياة التي تحرم الإرهاب من القاعدة الاجتماعية والثقافية. شروط الحياة المرتكزة على التضامن وليس على التنافس.

يؤكدون على أن التفجيرات في موسكو وفولغودونسك نفذها إرهابيون من الشيشان. ربما كان الأمر كذلك على الرغم مَن أن أعمالاً من مثل هذا النوع ليس المهم فيها المنفِّذون المحددون، بل الذين «طلبوها» - أي أولئك الذين ناقشوها وخططوا لها في مكان ما في نيس أو مالاخوفكا. إذا توافرت النقود فبالإمكان استئجار شيشانيين أو ليتوانيين وإيفنو فيشليليفيتش آزيف[1] نفسه. الشيشانيون أرخص ثمنا لأنهم حولوا الشيشان تحديداً إلى قاعدة رئيسية للإرهاب. فلماذا إذن؟ لندع جانباً الحكايات العنصرية عن قابلية أهل الجبال «الجينية» للقتال. ما كان مثل هذا ليخطر على بال أحد قبل ١٥ عاماً. ففي ذلك الوقت راح الفتيان الشيشانيون هم أنفسهم من الناحية الجينية تحت قيادة رئيس اللجنة المنطقية للكومسمول رادويف يجهزون لعيد الحصاد، وراح ياندربايف يَنْظم أشعاره، بينما دفع ماسخادوف سريته إلى ساحة الاستعراض

---

(١) **إيفنو فيسليليفيتش آزيف** (١٨٦٩-١٩١٨) أحد مؤسسي حزب الإيسيريين وزعيم من زعمائه. ترأس المنظمة العسكرية في الحزب. قام بعدد من الأعمال الإرهابية، وقد سلم للبوليس بين عامي ١٩٠١ و١٩٠٨ الكثيرين من الإيسيريين إلى أن اكتشف أمره بورتسوف فهرب من البلاد (**المترجم**).

العسكري. لم يكن أحد يرغب كرمى لأي إرهاب وأي وهابية لا في أن يدخل السجن فقط بل وحتى في أن يوجه له إنذار مسجل في سجله الخاص. كانت تلك الحياة تناسب الناس.

إن إرهاباً بمثل هذه الأبعاد التي تمثل أمامنا اليوم يحتاج إلى شروط. فالحصول على أطنان من المتفجرات وحفظها ونقلها من على بعد ألفي كيلومتر عن البناء يحتاج إلى الكثيرين من الناس الموثوقين والماهرين. ينبغي على الآلاف أن ينضجوا من أجل ذلك – ومن بينهم يتم انتقاء مائة. تتوافر مثل هذه الشروط حين يحدث إفقار شامل وغير عادل لأناس كانوا ناجحين من قبل ومتعلمين بما يكفي. حين ينهار أمام أعين عدد كبير من الشباب العالم المعتاد ويجدون أنفسهم ملفوظين من الحياة من قبل «هذا المجتمع».

وهذا ما حصل في الشيشان. الجريمة الشاملة والعنف في الشيشان هما قبل كل شيء نتيجة للإفقار الشديد الذي أدى إليه الإصلاح، وليس خَطّاب. لقد حطم الإفقار أطر الوعي. كان متوسط دخل الساكن الشيشاني عام ١٩٨٠ أقل بـــ ٢،٦ مرة من الموسكوبي، وصار عام ١٩٩٢ أقل بـــ ٩،١ مرة. بات هذا فارقاً خطراً وتجاوز الخط الأحمر. اشترى الموسكوبي المتوسط عام ١٩٩٢ سلعاً ومواد غذائية بـــ ٥٢،٣ ألف روبل وبينما اشترى الساكن في الشيشان بـــ ٣،٣ ألف. أي أقل بـــ ١٧ مرة! لو انخفض المستوى المعيشي لدى الموسكوبيين حتى المستوى في الشيشان لفاق انفجار الجريمة في عاصمتنا المتحضرة كل ما رأيناه. لقد زاد الفقر في الشيشان نتيجة الحرب أكثر (المعطيات لا تنشر). هذه الحقيقة ليست سبباً للإرهاب بل هي فقط بيئة مواتية له. كما الرأس – فالرأس ليس سبب ظهور القمل، لكن إن لم نغسل الرأس فالقملة المتسللة إليه تتكاثر.

الشرط الثاني هو الانزياح في الثقافة. فالإرهاب يحتاج لزاماً إلى تبرير وشرعنة بين قسم كبير كاف من الشعب. وإلا فإن الشباب لن ينضموا إلى

صفوف المسلحين مهما كان مقدار النقود. القتلة المأجورون هم نوع مغاير تماماً. الإرهابيون المجندون يَقتلون ويُقتلون من أجل المثال، ولكي يتم خلقه يجب في البداية تشويه منظومة القيم لديهم. يجب إقناعهم بأن مجموعتهم (الاجتماعية أو الدينية أو الإثنية.. الخ) لا تحتمل إطلاقاً الظلم الذي يجب أن يمحى بالدم وحده. عندئذ تحرك الإنسان مشاعر الثأر الذي يبدو وكأنه يقضي على الظلم ويعيد التوازن للعالم.

العمل الأول لتوجيه أفكار الشياشانيين ومشاعرهم نحو الثأر أقدم عليه ديمقراطيون من موسكو – أتباع ستاروفويت وبوربوليس ونويكين وبريستافكين. تحول الشياشانيون فجأة من «شعب قضى عقوبته» إلى «شعب منكل به». فمن الذي «نكل به»؟ إنها روسيا! هكذا طرح ديمقراطيونا المسألة.

ثم عد الإفقار الحاد الذي أصابه ظلماً – وهو ناتج مباشرة عن ممارسات موسكو. لكن هذا قليل – فقد نصبت موسكو دودايف زعيماً على الشيشانيين ومن ثم شرعت تتطيح به من خلال حرب مدمرة. وخيضت الحرب إضافة إلى ذلك مع خروقات للقانون والأخلاق هي الأكثر فظاظة. تمثل ذلك في هجوم بالدبابات من قبل مرتزقة لا يرتدون الزي العسكري وعلامات التمييز، وتمثل أيضاً في الامتناع عن فرض حال الطوارئ. عادة نكون لا مبالين تجاه القانون، لكن حين يسيل الدم فإن الممارسات غير القانونية تحدث أثراً هائلاً. الذنب هو ذنب السياسيين لكن بمساعدة الدعاية ليس صعباً إلقاؤه على روسيا كلها، وعلى الروس. وهذا ما اشتغل عليه بنشاط س. كوفاليوف.

لا يدور الحديث عن تبرير أفعال أولئك الذين التحقوا بالمسلحين والإرهابيين – فرد فعلهم إجرامي وغير ملائم، ويجب القضاء على الإرهابيين. لكن إن لم نفهم دوافعهم ونرى فقط تعطشهم المرضي إلى الدماء

أو جشعهم فلن تتاح أي فرص لحرمان الإرهاب من شرعيته بين أفراد الشعب الشيشاني. ومن غير ذلك يستحيل اجتثاث الإرهاب بالوسائل العسكرية. تدمر المدفعية بعيدة المدى والغارات الجوية المسلحين المكشوفين، لكن الإرهاب ينشأ ويشتد عوده. هنا يضطرنا الأمر إلى اختيار الشر الأقل. حتى أن «بطل الحرب في أفغانستان» غروموف يقترح استخدام الطيران الاستراتيجي ضد الإرهابيين.

سارع السياسيون والتلفزيون المنتمون إلى «الأوليغارشيين» بعد تفجيرات موسكو وفولغودونسك إلى التصريح بأن «الحرب الإرهابية» معلنة علينا جميعنا، وعلى روسيا كلها. على الأمة كما يقولون أن تتحد. إنهم يحاولون بإلحاح إكساب هذه الحرب طابعاً قومياً ودينياً. هذه ديماغوجية رخيصة. فخلف الأثر «الشيشاني» يسير أثر الحرب الأهلية الاجتماعية. إن تفجير منزل فخم في مركز موسكو ليس أصعب من ضاحية عمالية – فحتى المكاتب والمحلات التجارية هناك أكثر. ولكانت الضجة ستصل حتى السماء. لكن على ما يبدو هذا غير مسموح – فهناك «أصحاب» خَطَّاب وحماته من المليارديريين، كما لن يصيب الفزع السكان.

قيل إن بوروفوي اتصل بدودايف وإن بيريزوفسكي اتصل بأودوغوف. ربما حدث ذلك وربما لم يحدث. المهم هو أن إمكان حدوث ذلك نفسه لا يبدو مستغرباً لأحد. ثمة لدى مثل هؤلاء الناس – ليس بصفتهم أفراداً بل كمجموعة اجتماعية – مصالح مشتركة. لكن كان سيثير الدهشة العامة لو أذيع خبر اتصال أودوغوف سراً بكوبتسوف أو المعلمين الجائعين. فكوبتسوف والمعلمون لا يعملون في بيع النفط ولا يملكون البنوك التي يمكن من خلالها تمرير النقود المشكوك فيها.

لذلك فقد انقسمنا، «نحن الروس» إلى عالمين، تدور بينهما حرب أهلية «جزيئية». ولا يجب أن يدهشنا أن تنقل عدول السكر – السيكلونيت على

الظهور المتعرقة للشيشانيين قليلي التعليم من الفئات المعدمة. وأن يتميز الإنغوش في فرقة فرسان شكورو في فارونيج وأن تستطيع إدارة المخابرات المركزية تأليب هنود الميسكيتو من خلال الفاتيكان على الساندينيين (الذين أعادوا لهم أراضيهم التي استولت عليها «يونايتد فروت»).

تؤكد ميتكوفا بإلحاح ومن غير كلل أن «الإسلاميين» و«المتطرفين الدينيين» يخوضون حرباً ضد روسيا – وأن الحديث يدور عن حرب دينية. إنها جندية أو متطوعة في عملية تخريبية يتم من خلالها توجيه ضربة قاتلة لروسيا – وهي دب الفتنة بين الروس والعالم الإسلامي. ليس مهماً الاحتجاج الذي أعلنه رجال الدين المسلمون. ليس مهما أن العلماء العرب قد شرحوا أكثر من مرة أن «الإسلاميين» هم قناع سياسي ملفق منذ زمن قريب وكيفما اتفق. لا يخبرنا تلفزيون ن ت ف عن هذا أي شيء.

مصير الشخص الذي يسقط قتيلاً على يد إرهابي يكون وفاقاً لمبدأ «كل شيء أو لا شيء»، الحياة أو الموت. لكن الأمر مختلف فيما يخص المجتمع – ليس سياناً له بأي قوة سيلحق الإرهاب به ضربته، وما هو احتمال هلاك كل فرد حي فيه. حتى الآن لم يعلن الإرهاب في أي مكان في العالم الحرب الشاملة على المجتمع ولو مرة واحدة، ولم ينتقل إلى الثأر الشامل ولم يقطع الطرق نحو الاتفاق. خصوصاً لأن الحرب على الإرهاب لها قوانينها وأخلاقها. وإذا ما تحدثنا بفظاظة فالإرهابي يعترف بحق قتله، لكنه، ربما، لا يعترف بحق التنكيل الشامل بأقربائه (عرقه، وقبيلته، وشعبه).

ما هو ثالث نترات التولوين أو السيكلونيت مقارناً بغاز شلل الأعصاب المعاصر! لأي هدف ومن أجل من أجريت التجارب في ميترو نيويورك وطوكيو (الأخيرة كانت حية باستخدام غاز زارين التعليمي)؟ مجال إمكانات الإرهاب عظيم والأفضل خوض الحرب ضده بكفاءة وفاقاً لقوانين الحرب – أي تدمير الإرهابيين أنفسهم بلا رحمة لكن من غير تجاوز بعض الحدود.

حين تسمع السياسيين يصير مستحيلاً فهم إن كانوا مستهترين ويعبثون عن وعي بالناس أو أنهم أنفسهم لا يفهمون. أغلب الظن أنهم مستهترون، فما زال غراتشوف حراً وهو الذي نقل السلاح إلى الإرهابيين. ما زال تشيرنوميردين يتحدث معتزاً بنفسه وهو الذي أنقذ إرهابيي باسايف. يصفق الجميع معاً لستيباشين الذي سافر خصيصاً إلى منطقة تحصينات مسلحي خَطاب وعاين كل شيء بنفسه ثم قدم تقريراً بأن الأمور هناك على ما يرام، حيث يعيش أناس جيدون ولا يفكرون بأي شيء سيئ ضد النظام الدستوري. أليس هذا جريمة وظيفية؟ بالحد الأدنى! أليس هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين يشكلون الفئة السياسية العليا اليوم؟

لقد دمر هؤلاء الناس جميعهم روسيا، وقادوا عن قصد عملية انفصال الشيشان – كانوا يحتاجون لسبب ما إلى جيب إجرامي داخل روسيا. أي فعل في أيدي هؤلاء الناس، ما داموا في السلطة، يتحول إلى أداة لتدمير روسيا – حتى الحرب من أجل الحفاظ على روسيا. إن في هؤلاء الناس وفي النظام المقام من قبلهم تكمن جذور الإرهاب.

مذهل كيف يَقبل الكثيرون من الروس بسهولة، وحتى بفرح، أرخص الديماغوجيات. ما معنى «النظام الخاص» في موسكو؟ إنه ببساطة انعدام القانون. فكيف يمكن الفرح لذلك! ألا تكفي المخيلة لتصور روسيا الكوزلينكوفيين واليابونتشيكيين[1] من غير أي ظل للقانون؟ فقوة الشرطة موجهة للكشف عن «الأشخاص من القومية القوقازية» ذوي الوثائق غير الصحيحة. ويفرح الموسكوبيون، إذ يظنون أن الإرهابيين لا يملكون ما يكفي من نقود من أجل الوثائق الصحيحة. محزنة رؤية هذا الغباء الشامل الذي يخلفه الخوف على نحو غير طبيعي.

---

(١) كوزليونكوف ويابونتشيك لقبان لمجرمين مشهورين في التاريخ الروسي (**المترجم**).

ما معنى «الشريط العازل»؟ وحول ماذا؟ نصف الناشطين الشيشانيين اليوم منتشر في المدن الروسية. مكاتبهم ومقراتهم في موسكو وميونيخ وعمان. فكيف يمكن التفكير في مفاهيم القرن الماضي! لا، إنهم على الأرجح يعبثون بنا ببساطة. إنكلترا جزيرة وتقع خلف سابع أرض عن «أعضاء مجلس تعاونها»، لكنها عاجزة عن إقامة أي شريط عازل. أما روسيا فمنذ البداية، منذ زمن دولة كييف، استوعبت في ذاتها شعوبا. إنها لن تستطيع إقامة أي «شريط» ضد أمراضها الداخلية. الأمراض يجب أن تعالج، مستحيل قطع الأعضاء الداخلية المريضة.

لقد وُضعت روسيا مرة أخرى من خلال الانفجارات في نقطة التوازن غير المستقر. ثمة أمل وحيد في أن يكون العسكريون والموظفون وجمهور الناس البسطاء يهزون رؤوسهم بالموافقة للسياسيين ويؤدون التحية لهم، بينما يعملون هم عملهم من غير ضجيج وبعقل وقلب. وبذلك يتم الحد من الإرهاب. لكن الأمر الرئيسي هو أن الخوف غير المعقول الذي بث قد انقضى سريعاً، مازالت الثقافة تلعب دورها الموازن.

الفصل الثامن

المخيلة، الانتباه، الذاكرة

١- المخيلة والسلوك

تعد المخيلة إضافة إلى التفكير والمشاعر هدفاً مهماً للتلاعب بالوعي. فلنمعن الفكر في كلمة *المخيلة* ذاتها! تحوّل جزء من الواقع إلى صورة يكوّنها وعي الإنسان (خياله)(١).

كتب لوبون في كتابه «روح الحشد»: «ترتكز عظمة المنتصر وقوة الدولة تحديداً على المخيلة الشعبية. يجرون الحشد وراءهم بالتأثير في مخيلته بالدرجة الرئيسية... ليست الحقائق من تلقاء نفسها هي التي تذهل المخيلة الشعبية، بل بأي صورة تنتشر وكيف تقدم للحشد. إن صح التعبير فمن الضروري أن تُقدِّم هذه الحقائق، حين تكثَّف، صورةً معبرة تستطيع أن تستحوذ بالكامل على عقل الحشد وتملأ منطقة مفاهيمه كلها. من يمتلك مهارة إنتاج التأثير في مخيلة الحشد يمتلك مهارة التحكم به»».

مفهومٌ أن المخيلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإدراك، إنها تدمج في صورة جديدة وحسب ما عرفناه في وقت ما من تجربتنا وتثبتها في الذاكرة: لا يمكن تخيل ما لم يكن موجوداً بعناصره المختلفة في الواقع. شبه أفلاطون الإدراك بعملية الطبع على الأسطوانة الشمعية، فالمخيلة وفاقاً لأفلاطون هي ذلك الأثر الذي يبقى بعد إبعاد أداة الطباعة. لا يُظهر الأطفال قبل السنة ونصف السنة

---

(١) الجدير بالذكر أن اللغات الأخرى ترمز إلى هذه العملية بكلمات مشابهة. ففي اللاتينية المخيلة هي imagination من كلمة imago أي الشكل.

من عمرهم أي مؤشرات على التخيل لأن المادة غير كافية لديهم من أجل ذلك.

يرتبط بالمخيلة ارتباطاً وثيقاً الهاجس، الذي يولِّد في الوعي أيضاً صوراً مبنية من عناصر الواقع المعروف سابقاً. بيد أن ما يحتل الصدارة في هذه الصور هو الشعور الحسي الذي تصنع منه استنتاجات تسير بعيداً على هذا النحو أو ذاك. يلعب الهاجس دوراً هائلاً في سلوك ممثلي «المجتمعات البدائية»، أما لدى الإنسان المتحضر فتصاغ الاستنتاجات عادة من خلال مفاهيم أكثر عقلانية ما إن «نطلق» العملية التي نسميها تخيلاً.

التخيل هو قدرة من مقدرات الإنسان الضرورية لإدراك الواقع فكرياً. إننا نعالج في عقلنا صور الواقع التي تنتجها مخيلتنا لنا. كتب أرسطو أن العقل حين يعي شيئاً ما فإنه يجب أن يبنيه في المخيلة. وانطلاقاً من «صور الأشياء» هذه ننتج، نحن، خط سلوكنا.

المخيلة والواقع «الخارجي» مرتبطان ارتباطاً وثيقاً. كتب كارل غوستاف يونغ: «إذا تخيل أحدهم أنني عدوه اللدود وقتلني فإنني أصير ضحية مخيلة بسيطة. الصور المبنية بالمخيلة موجودة ويمكن أن تكون حقيقية وبالقدر نفسه خطرة ومؤذية كالظروف المادية. إنني حتى أظن أن المخاطر النفسية أشد إثارة للرعب بما لا يقاس من الأوبئة والزلازل».

من هنا نفهم أنه للتحكم بسلوك الناس من المهم جداً التأثير في العمليتين معاً – إنتاج الصور انطلاقاً من الواقع وإنتاج إستراتيجية السلوك وتكتيكه انطلاقاً من الصور الناشئة في الوعي.

بما أن المخيلة هي مقدرة إبداعية فهي أقل من التفكير بكثير خضوعاً للانضباط (المنطق، التقاليد). هذا معناه أنها أكثر عرضة للتأثير من الخارج. قسم كبير من الناس عرضة للأحلام، فتنحط مخيلتهم إلى «الخيال (الفانتازيا) العقيم» (بيلينسكي)، الذي يقودهم أبعد فأبعد عن الواقع. المخيلة لدى آخرين،

على العكس من ذلك، مقيدة، ويصعب عليهم خلق صورهم الخاصة فيبدأون يبحثون عن الجاهزة منها – لا يستطيعون بمفردهم استيعاب الواقع فكرياً. يكون هؤلاء وأولئك الأكثر ضعفاً أمام التلاعب بوعيهم (وإن كان يبنى على نحو مختلف للفئتين).

حين نحول في وعينا الانطباعات التي حصلنا عليها من الواقع في زمان ما ومكان ما فإن المخيلة تبني الصور الفكرية والشعورية. بالتالي يستطيع المتلاعب من خلال المخيلة أن يؤثر في التفكير وفي المشاعر في الوقت نفسه. يمتلك التزاوج بين العالمين «المطواعين» – المخيلة والمشاعر خفة حركة وحساسية عظمى أمام التلاعب. يقال إن الانفعالات هي العناصر الأساسية في العالم النفسي، أما الصور فهي مادة بناء الانفعالات.

تتأسس، مثلاً، على المزاوجة بين المخيلة والمشاعر إحدى أقوى وسائل التأثير في الوعي الاجتماعي وهو الإرهاب المتوحد مع التلفزيون. تُنقل صورة الضحية البريئة المشوهة بالانفجار عبر التلفزيون إلى كل منزل، أما المخيلة «فتضع» مكان الضحية مشاهد التلفزيون نفسه أو أقاربه، وهذا يولد عاصفة كاملة من المشاعر. ما بعد ذلك هو شأن التقنية – أي توجيه هذه المشاعر نحو تلك الصورة الذي تعاقد المتلاعبون على تدميرها (صورة الجيش، المركز الفيدرالي، الأصوليون الإسلاميون، الشيشانيون...الخ). المهم فقط في هذه العملية هو السلسلة: ***العمل الإرهابي – التلفزيون- المخيلة – المشاعر – السلوك المطلوب***. يستحسن في أثناء ذلك إلغاء التفكير (المَعنى السليم) لأن الإرهاب لا يعد وسيلة واقعية للتدمير، ولا يشكل حتى خطراً حقيقياً كبيراً. هدفه – الإخافة، أي بث مشاعر الخوف غير الملائمة.

تجاوزت الممارسات التلاعبية للتلفزيون جميع الحدود بعد التفجيرات في موسكو صيف عام ١٩٩٩. فقد عرضوا في مجلس الاتحاد شريطاً مصوراً من قبل قطاع الطرق يبين كيف يعذبون المخطوفين ويقطعون رؤوسهم. ثم صرح بعد ذلك أحد مذيعي التلفزيون (أظنه دورينكو) قائلاً:

«كان بالإمكان بعد ذلك توقع أن يؤيد مجلس الاتحاد توجيه ضربة نووية للشيشان». هذا المعلق ذاته هو مجرم، لكن المهم هو الاعتراف: يعرف الإيديولوجيون قوة تأثير طباخي التلفزيون حتى أنهم يحاولون بمساعدتهم تأجيج انفعالات أعضاء المجلس الفيدرالي. فنواب المجلس يعرفون جيداً جرائم قطاع الطرق، لكن بعد عرض الشريط كان في مقدورهم، كما يفترض، اتخاذ قرار حتمي لا على أساس المحاكمة الناضجة بل تحت تأثير المشاعر المتدفقة. هاكم كيف يتصرف المحرضون.

وضع علم النفس تصنيفاً مفصلاً لأنواع المخيلة: المتعمدة والعفوية، المتصنعة والإبداعية، المحددة والتجريدية. تتطور لدى الكثيرين من الناس مخيلة من نوع «أحلام اليقظة» – أي المقدرة على الغرق في الخيال الخاص، والابتعاد عن الواقع. يُنتِج ذلك في حالات نادرة (والأصح، يطور) نوعاً خاصاً من التفكير هو ***التفكير الذاتوي (التوحدي)***، حين يعيش الإنسان في عالم داخلي مصطنع، و«ينفصل» عن الواقع. قد يصير هذا في أثناء الأزمات الاجتماعية الصعبة ظاهرة عامة وهدفاً يتمناه المتلاعبون بالوعي – أي حين يكون من مصلحة الطبقة الحاكمة إلهاء أكبر عدد ممكن من الناس عن الموقف السياسي النشيط (عن المشاركة في الانتخابات مثلاً).

الخيال الممتع بجرعات غير كبيرة قد يبدي تأثيراً محفزاً ومحرضاً على الفعل. لكنه يصير كافيا للإنسان المستسلم للأحلام مستحيلة التنفيذ حين يبدأ يصدق جاداً الصور المتكونة في المخيلة. فيحل محل الإنجازات الحقيقية ويشغل مكان الفعل ويصاب الإنسان بالخمول ولا يرغب في تحريك ولو إصبع من أصابعه لا من أجل الحصول على ما يرغب فيه فقط بل حتى من أجل إنقاذ نفسه.

وضع التعاليم عن ***الذاتوية*** (من الكلمة اليونانية آوتوس – أي الذات) في بداية القرن عالم النفس السويسري إ. بليلر[1]، مؤلف علم الشيزوفرينيا

---

(١) **إيغن بليلر** (١٨٥٧– ١٩٣٩) عالم نفس سويسري. وصف عام ١٩١١ الشيزوفرينيا بصفتها مرضاً مستقلاً (**المترجم**).

(ومؤلف المصطلح نفسه). الذاتوية هي حال مرضية من أحوال النفس، يركز فيها الإنسان على حياته الداخلية ويبتعد بفاعلية عن العالم الخارجي. وفي الظروف الصعبة تتحول حياة الإنسان تماماً إلى أحلام، لكن هذا يتجلى عادة بدرجات أكثر أو أقل، لذلك يبقى الإنسان عموماً طبيعياً. المهم لدينا هو الذاتوية الجماعية المستثارة اصطناعياً عبر التلاعب بالوعي. كانت البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي برنامجاً فاعلاً لتعبئة التفكير الذاتوي لدى القسم الأكبر من سكان المدن السوفييتية.

عموماً، يتزاوج في تفكير الإنسان دائما مكونان: التفكير الواقعي والتفكير الذاتوي. الاثنان معاً ضروريان، والمهم أن يبقى التوازن بينهما قائماً. مفهوم أن تخيل الأوضاع المستقبلية المرغوب فيها يحضِّر للتنفيذ ويوقظ الطاقة. وتخلق الذاتوية الظروف المواتية من أجل تمرين المقدرة الفكرية. تطور لعبة التخيل لدى الطفل، مثلاً، المقدرات التركيبية لديه تماماً كما تطور الألعاب الحركية المهارة والقوة لديه. لكن التفكير الواقعي في الكثير من الأحوال متعارض مع الذاتوي. يعالج الأول عناصر الواقع كما هي موجودة، بجوانبها غير المستحبة كلها، أما الثاني فيركب الصور المتكونة في المخيلة بحيث «يُفصل» منها القسم غير المستحب ويُخبأ تحت السجادة.

تقسم المخيلة وفاقاً لنوع المواضيع ونوع النشاط (المخيلة الفنية والعلمية والتقنية والدينية.. الخ). تقدم المخيلة، خلافاً للتفكير التحليلي الذي يفكك الشيء مركزا الانتباه على جوانبه المتفرقة، صورة مركبة – أي الانطباع عن الشيء ككل[١]. لذلك يكون أصعب على المنطق مراقبة تأثيرها في الوعي.

المهم لفهم عمليات الوعي الجماهيري هو أن المخيلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمحاكاة – أي أننا «نتخيل أنفسنا مكان أحدهم». تنتج غالباً هذه

---

(١) التفكير التحليلي هو ملكة خاصة تتطور بالتدريب. التفكير العادي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخيلة والفصل بينهما مهمة معقدة في علم النفس.

المحاكاة عفوياً في أثناء ذلك وتفلت من التحليل الذاتي النقدي. فحين يراقب الناس حركات راقصين يبدأون أحياناً يكررون هذه الحركات على الأقل بتحريك الأيدي، أو حتى بالتفكير، من غير أن يدركوا أنهم منغمسين في المحاكاة. بذلك إذا تمكنا من توجيه المخيلة بمهارة فبإمكاننا إحداث «عدوى» شاملة بالمزاج وحتى بالممارسة. بعض الزعماء والمشعوذين («الكارزميين») يتمتعون بمهارة التحريض على مثل هذه الأحوال.

المخيلة النشطة المرتبطة بوضع التنبؤات بالأوضاع أو مخطط الأعمال (خلافاً للأحلام والذكريات الضارة)، موجهة إلى المستقبل وتضع الصور ضمن إحداثيات زمنية معينة غالباً ما تكون دقيقة للغاية. هنا يمكن أن لا تكون الصور التي تخلقها المخيلة هي مادة للتلاعب وحسب، بل ديناميتها، و«الساعة الفكرية». قد يكون كافياً إقناع الناس بأن الحدث المتخيل سيحدث أبكر مما في الواقع أو بعده كي يتم الوصول إلى أهداف التلاعب بالوعي- أي خداع اليقظة أو، بالعكس، التحريض على الفعل قبل الأوان.

لعبة التخيل مرتبطة بشدة بدرجة تلبية حاجات الإنسان. الحاجات الملباة لا تولد المخيلة، أما إذا نقص الإنسان شيء ما فتبدأ تظهر في وعيه الصور - صورة الشيء الذي ينقصه وكذلك سبل امتلاكه. التبدل المصطنع لحال تلبية حاجات الناس الرئيسية هي أداة قوية للتحكم بمخيلتهم، وبذلك، التحكم بسلوكهم. النقص المعتدل في مورد من الموارد يحرض على المخيلة النشطة التي تجبر على الفعل وحل المعضلة. هذا، كقاعدة، لا يصب في مصلحة التلاعب بالوعي. عادة يسعى المتلاعبون قدر الإمكان إلى زيادة حدة استياء الناس حتى مرحلة الإحباط - أي الشعور بالقمع وانسداد الأفق. ففي مثل هذه الحال تبدأ تسود المخيلة السلبية- التهيؤات والأحلام والآمال. يظهر أيضاً السعي إلى «تحسين المزاج» اصطناعياً من خلال الكحول مثلاً.

يعد انكماش الوعي في نظر المتلاعب نتيجة مهمة جداً من نتائج الإحباط - أي تركيز الانتباه كله تقريباً على الحاجة غير الملباة تحديداً،

فيتشوه إدراك الواقع تشوهاً حاداً. حين يضيق الحذاء على القدم فإن الإنسان لا يفكر كم المعطف يدفئه جيداً. يولد الإحباط عناداً وتعنتاً يبدو من الجانب غباء مرضياً. عندئذ ليس مهماً إن كانت الحاجة غير الملباة تعد أساسية أو ثانوية وأحياناً أيضاً «موحى بها».

لنتذكر كيف تشكلت في أعوام البيريسترويكا لدى القسم الأكبر من الإنتلجنسيا مصيبة مرعبة بسبب من صعوبة السفر خارج الاتحاد السوفييتي. صار يبدو لهم حقاً أن هذه مسألة حياة أو موت، وكل شيء عداها غير مهم تقريباً. وكانوا كرمى لتلبية هذه الحاجة الملحة في حرية السفر لا يأسفون لفقدان العمل والراتب الشهري والحياة الآمنة (وحتى القدرة الفعلية على السفر إلى الخارج في مهمة علمية أو بمنحة سياحية).

عند موازنة تأثيرات التفكير المتبادلة تدرك مخيلةُ الإنسان ومشاعرُه الواقعَ في صور تنتظم طبقاً لمسطرة القيم المتجذرة في الوعي. فيتحدد بذلك سلوك الإنسان. وإذا وضع المتلاعب هدفاً له مسألة تغيير سلوك الإنسان واستبدال «برنامجه» فعليه أن يشوه مؤقتاً مسطرة قيمه – أي أن يجبر الناس على «الرغبة في ما لا يرغبون فيه». مثل هذه المسألة قائم، مثلاً، أمام الدعاية التجارية وكذلك أمام الدعاية السياسية. والمخيلة هي أحد الأهداف التي «تتم معالجتها» في أثناء سير التلاعب من أجل حل هذه المسألة.

كلنا رأينا بأعيننا أكثر من مرة كيف يسلك إنسان «تخيل شيئاً ما غير محدد» سلوكاً غير ملائم للواقع، وغالباً خلافاً لمصالحه البينة (نلحظ مثل هذا الغرابة على نحو أقل بكثير في سلوكنا الخاص، لكن قد يحدث هذا أيضاً). في هذه الحال لا يدور الحديث عن انفصام الوعي (الشيزوفرينيا) أو أي ذهان آخر أو عن تأثير المستحضرات النفسية التي تجعل المخيلة ساطعة. لا، الحديث يدور عن حال الإنسان الطبيعية.

بدأوا يقتربون من فهم هذه الحال في النصف الثاني من قرننا، حين وصلوا إلى استنتاج أن اللعب هو أحد جوانب الوجود الإنساني الأساسية. الإنسان الذي يلعب هو أقنوم مهم وضروري مثل الإنسان العامل والمناضل والمحب لابنه وأبيه. يصل الإنسان في اللعبة بوساطة الخيال والمخيلة إلى إمكانات الأحداث المستقبلية. يكمن تعقيد هذه الحال في أن الإنسان يعيش في وقت واحد في عالمين – في الواقع المعتاد وفي مجال المتخيَّل. وتصير بلا فائدة محاولة «تصحيح» سلوكه بالإشارة له إلى عدم توافقه مع الواقع – فنحن لا نعرف «عالمه الثاني».

كان فهم هذه المشكلة أسهل لو أن الإنسان آمن بصفته متوحشاً بثمرة تخيله، إذ كان بالإمكان إيقاظه. يتلخص الأمر تحديداً في أن الإنسان وفي عمر مبكر بما فيه الكفاية لا يخلط على الإطلاق بين المخيلة والواقع، لكنه يعيش في لعبة وفي زمان ومكان غير واقعيين حياة تامة وممتلئة، ولا يرغب في «العودة إلى الأرض». الطفلة الصغيرة التي تلعب بالدمية لا تسقط طبعاً في الوهم وتعد الدمية البلاستيكية طفلاً حياً. لكنها ستقاوم بشدة إخراجها من اللعبة.

لا يُلحظ هذا الأمر لدى الكبار على هذا النحو، لكن إجبارهم على الخروج من العالم المتخيل أصعب على الأرجح من الطفل. سحر الفن التشكيلي مؤسس على أننا نرى المنظر الطبيعي المرسوم في اللوحة لا كما رأيناه في الطبيعة. إننا نعرف أن اللوحة ليست سوى قماشة واقعية وشيء من الألوان ومحاطة بإطار خشبي. إنها جهاز يساعدنا على خلق عالم متخيل آخر أروع من الحقيقي(١). قد يكون العالم المتخيل بمساعدة اللوحة أكثر تعقيداً- فيمكن أن تكون فيه نفسه اللوحة والمرآة. كانت العلامة الفارقة في تشكل

(١) المزج والجمع بين العالم الواقعي (للوحة) والمتخيل (الصورة في اللوحة) هو تحديداً المرض. أحد أصعب أجناس أفلام الرعب مرتبط بالموضوع الذي «يدخل» فيه الإنسان اللوحة، أو الذي «تخرج» الشخصيات منه إلى العالم كما في رواية غوغول «البورتريه»..

الحضارة الغربية المعاصرة مع الفصل بين الذات والموضوع هي لوحة فيلاسكيز[١] «الوصيفات» (Las Meninas): ففيها تنعكس صورة الفنان في المرآة وهو يرسم اللوحة.

يكون العالم المولود بالمخيلة الإبداعية غنياً ومشبعاً على نحو خاص حين تحمل اللعبة طابعاً جماعياً. يستطيع السياسيون المتلاعبون حين يقدمون الغذاء للمخيلة ويديرون اللعبة بمهارة أن يشركوا فيها شعوباً كاملة. عندئذ قد تصير اللعبة مرعبة ومدمرة وحتى انتحارية- فقد ينشغل الشعب بها إلى درجة يصير معها من غير المفيد التعويل على تعقله، وفي أثناء ذلك يكاد كل فرد تقريباً أن يوافق على التقويمات العقلانية للواقع الحقيقي. بكلمات أخرى، القضية ليست في الخداع ولا في نقص المعلومة.

تتمتع خشبة المسرح بقوة سحرية – مثل النافذة إلى العالم المتخيل. لذلك يشغل المسرح من حيث تأثيره في الوعي مكاناً استثنائياً. يمكن القول إن المسرح يقف عند منابع الحضارة الأوروبية المعاصرة وتَحَولِ القبائل إلى مجتمع. يؤكد أرسطو في تعاليمه عن المسرح على أن فعل التراجيدية المطهر (المنفس) يتم في المخيلة تحديداً – من خلال تفاعل تأثير الخوف والشفقة[٢]. للوصول إلى مثل هذه التأثيرات ينبغي أن يكون العالم المبني أمام المشاهد شرطياً، ***فوق حقيقي***. لو كان شبيهاً تماماً بالحقيقي، أو اقترب في الحد الأدنى من مشاهد الآلام التي يستطيع الناس رؤيتها في الحياة العادية لانحصر التأثير بمشاعر الخوف أو الشفقة المحددة العادية.

---

(١) **رودريغز دو سيلفا فيلاسكيز** (١٥٩٩–١٦٦٠) رسام إسباني صار منذ عام ١٦٢٣ رسام البلاط في عهد الملك فيليب الرابع. رسم لوحات اتحدت فيها على نحو غير عادي عناصر الأساطير بعناصر الحياة الواقعية. (**المترجم**).

(٢) أدرج أرسطو مفهوم الكاتارسيس catharsis (تطهير العواطف، التنفيس) – ويعني الهزة التي تثيرها التراجيدية والتي تزيل الاغتراب بين المشاهِد المنفرد كشخصية والناس الآخرين وجنس البشر كلهم.

أولى لوبون اهتماماً كبيراً لتأثير المسرح في الوعي الشامل، وفي الحشد. فكتب: «العروض المسرحية التي تتمثل الصور فيها للحشد بأسطع أشكالها تمتلك دائماً تأثيراً كبيراً فيه... لا شيء يؤثر هكذا في مخيلة الحشد من الفئات جميعها مثل العروض المسرحية».

في المسرح كما في اللوحة الثابتة قد يكون العالم المتخيل أكثر تعقيداً. سحبُ الوعي، وخصوصاً الجماعي، إلى عالم متخيل مبني بمهارة يمكن أن يجعل منه عاجزاً تماماً – فيصير مقموعاً بالمخيلة. لقد أجبر هملت أمه وكلاودي بتلاعبه بالمخيلة على أن ينكشفا حين طلب من الممثلين تمثيل مسرحية تصور مقتل الملك- وقد رأى المشاهدون في إنكلترا في القرن السادس عشر هذا المسرح المزدوج. وهكذا صار هؤلاء المشاهدون الأوروبيين المعاصرين. وهكذا صار العالم أشبه اليوم بما يسمى «مجتمع المسرحية».

يدرك الإنسان الطبيعي، بعكس المصاب بالانفصام (الشيزوفرينيا)، أن صور مخيلته ليست واقعاً. لهذا السبب تحديداً تكتسب لديه معنى عميقاً خاصاً – إنها تبدو وكأنها تُظهِّر جوهر الأشياء والأحداث. وهذه الصور هي «أكثر واقعية» من الحقائق، إنها ***فوق واقعية***. حين يتعايش الإنسان معها يمكن أن يتعرض لومضة- يخيل له أنه ينفذ إلى جوهر الأشياء. وهذا ما يبدي تأثيراً هائلاً في سلوكه، بحيث قد يبدو هذا السلوك للمحيطين به، الذين لا يعايشون تلك الومضة نفسها، غريباً وغير مفهوم. أما إذا صارت هذه الومضة جماعية فستظهر هبة قوية شاملة، أو حتى أفعال تبدو أحياناً جنوناً شاملاً[١].

(١) يمكن نسب الإضرابات المعادية للسوفييت التي قام بها عمال مناجم الكوزباس عام ١٩٩٠ إلى عداد مثل هذه الأفعال. لقد دمر عدد من الأناس العاقلين بأيديهم ذلك النظام الذي عاشوا فيه كمجموعة اجتماعية تحظى بالامتيازات. وطالبوا بإقامة نظام سيتحولون فيه لا محالة كمجموعة اجتماعية إلى حثالة. لقد تخيلوا (وهذا ليس بمساعدة المتلاعبين) أنهم إذا خصخصوا المناجم فسيبيعون الفحم بالدولار أما ما تبقى – الضرائب وأسعار الطاقة والسيارات وتعرفة النقل..الخ – فستبقى كما كانت في النظام السوفييتي.

ينمو دور المخيلة بمقدار ازدياد تعقيد المجتمع – وذلك لبناء الصور الفكرية عن الناس الآخرين ونواياهم. بنى الإنسان، إذ انفصل عن القطيع ومن ثم عن العرق والقبيلة، عالمه المستقل وانخرط في المجتمع بصفته شخصية. لهذا حوّل وجهه المتمتع بتعابير حيوية استثنائية إلى قناع– أي كان على وجهه وفاقاً للمعايير الثقافية التي ظهرت أن يكتسي بتعبير متوافق مع الظروف. هذه المقدرة «على ارتداء القناع» وفرت للإنسان استقلاليته، ولم تسمح للآخر بالنفاذ إلى روحه وأفكاره. وهكذا ظهر القناع كشرط لوجود المجتمع نفسه (تحدثنا عن هذا في الفصل الأول). ولَّد ذلك في الوقت نفسه حاجة إلى تخيل ما هو مخفي وراء القناع.

لا يشعر الناس في فترة استقرار المجتمع بحاجة ملحة إلى تركيب صورة عن «الوجه الحقيقي» لأولئك الأشخاص الذين يؤثرون في حياتهم. أقنعة تلك الأشخاص هامدة بما فيه الكفاية وأحياناً ساكنة (كما كانت مثلا أقنعة أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي في مرحلة «الركود»[1]). طبعاً، كان الناس يعرفون أنهم أمام أقنعة، لكن أعمال الأشخاص المهمين للحياة كانت متوافقة مع هذه الأقنعة وبالإمكان التنبؤ بها. لم يكن الناس يحتاجون إلى أي شيء آخر لبرمجة سلوكهم.

يجد الناس أنفسهم في وضع آخر مختلف تماماً حين تسقط أقنعة الشخصيات المهمة للحياة فجأة. حين يعلن المنظِّر الرئيسي للحزب الشيوعي عن نفسه بأنه معاد للشيوعية، ويبدأ أمناء اللجان المنطقية في الحزب الشيوعي السوفييتي واتحاد الشبيبة الشيوعية السوفييتية يستولون على ملكية الشعب ويشرع ضباط الجيش الحامي يؤجرون أنفسهم لقصف مدن بلادهم.

---

(١) مرحلة الركود هي الفترة التي ساد الاستقرار فيها في الاتحاد السوفييتي زمن ليونيد بريجنيف، وقد ظهر هذا المصطلح في فترة البيريسترويكا (**المترجم**).

يولد هذا الواقع في المخيلة لوحات غير معقولة، ومع النقص العام في المعلومات يمكن التلاعب بها بفاعلية من قبل من يمتلك أدوات التلاعب.

ينشطر الوعي أكثر أيضاً حين يبدأ الناس بعد الصدمة الأولى يفهمون ما تحت الأقنعة الساقطة – أي الأقنعة الجديدة. ويتم الانتقال من قناع إلى آخر على شكل قفزات، من غير تلك الحالات الفاصلة التي يمكن ملاحظتها على وجه الإنسان. وهكذا يؤثر القناع نفسه وعملية إسقاطه تأثيراً ساحراً في الوعي الاجتماعي. يزيد هذا بحدة فرص التلاعب بالوعي، لذلك نجد حتى السياسيين المهتمين بالتلاعب يؤكدون، وأحياناً بتعاقب كبير، على أنهم أقنعة.

يولي الكاتب والفيلسوف الألماني إ. كانيتي[1] الذي راقب الفاشية وخلَّف «عمل حياته كلها» الضخم بحث «الجماهير والسلطة» (١٩٦٠)، اهتماماً خاصاً لمشكلة القناع – أي تحديداً لأداة السلطة تلك التي تؤثر بها في الوعي من خلال المخيلة. يكتب قائلاً:

«يؤثر القناع أساساً من الخارج. إنه غير قابل لأن يمس، ويحدد مسافة عنه. قد يقترب مثلاً في الرقص من المشاهد. لكن على المشاهد نفسه أن يبقى حيث هو موجود. تحجُّر الشكل يصب في ثبات المسافة؛ المسافة لا تتغير وفي هذا يكمن الطابع الساحر للقناع.

فالسر يبدأ خلف القناع مباشرة. وفي الأحوال الحرجة حين يؤخذ القناع مأخذ الجد ليس مسموحاً للإنسان أن يعرف ماذا يختبئ وراءه. إنه يعبر عن الكثير، لكنه يخفي أيضاً أشياء أكثر. إنه عبارة عن حاجز: حين يخفي وراءه الخطر الذي لا ينبغي أن يُعرف، وحين يمنع إرساء علاقات الثقة، فإنه يقترب

---

(١) **إلياس كانيتي** (١٩٠٥-١٩٩٤) كاتب ألماني، عاش في لندن منذ عام ١٩٣٨. من أعماله رواية «العمى « (١٩٣٥) مسرحية «الحرية» (١٩٣٢) «كوميديا الزهو» (١٩٣٤)، وحلل في بحثه الفلسفي الاجتماعي «الجماهير والسلطة» (١٩٦٠) طبيعة السلطة الاستبدادية. (**المترجم**).

من الإنسان حتى يلامسه، لكنه في هذا الاقتراب تحديداً يظل منفصلاً جداً عنه. إنه يهدد بالسر المتكثف خلفه. وبما أن قراءته مستحيلة كما يقرأ الوجه البشري المتحرك فإن الإنسان يخمن المجهول ويخاف منه...

لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن ينفلت من تحت القناع. التوتر بين تحجر القناع والسر المختبئ وراءه قد يصل إلى قوة غير عادية. وهذا هو سبب تأثيره المهدد... لا يجرؤ أحد على مسه. الموت هو عقاب إسقاط القناع من قبل شخص آخر. ما دام نشطاً فهو محصن ومصان ومقدس. وضوح القناع وجلاؤه معبأ في غموضه. سلطته تكمن تحديداً في أنه معروف بدقة لكن من غير المفهوم ماذا يخفي وراءه».

يصف كانيتي أساليب «أصحاب السلطة» الذين يستخدمون التلاعب بالوعي كوسيلة للهيمنة بمساعدة الأقنعة ويشرح دوافعهم. صاحب السلطة من هذا النوع يجب أن يستجيب نفسه لشرطين: تحجر قناعه الخاص وعدم قابلية التنبؤ بأفعاله. أما ما يخص رفاقه فأحد المبادئ هو فضحهم باستمرار، «إسقاط أقنعتهم». هذا كله مرتبط بفعل مهم في المسرح السياسي وهو التحول.

كتب كانيتي عن الحاكم المتلاعب: «التحولات التي يقوم بها نفسه لا تطاق له. إنه يستطيع أن يرفع إلى مناصب عليا أناساً كانوا مفيدين له سابقاً، لكن هذه التحولات الاجتماعية التي يقوم بها يجب أن تكون محددة بدقة ومحدودة وأن تبقى ضمن سلطته. حين يرفع الناس وينزلهم فإنه يصدر الحكم ولا يستطيع أحد أن يجرؤ على القيام بالتحول بمبادرة ذاتية منه. يخوض صاحب السلطة صراعاً لا ينتهي ضد التحولات الذاتية غير الخاضعة للرقابة. والفضح هو الأداة المستخدمة في هذا الصراع... الظاهرة الاجتماعية والدينية ذات الأهمية الكبرى هي منع التحولات».

شيء آخر عن صاحب السلطة: «إن سكون هذا النمط الممنوع عليه التحول الذاتي، وإن كانت تصدر عنه أوامر لا حصر لها تفضي إلى تحول الآخرين، قد دخل في جوهر السلطة. تحدد هذه الصورة بالذات تصور الإنسان المعاصر عن السلطة. صاحب السلطة هو ذلك الذي لا يتغير والمرفوع عالياً والموجود في مكان معين ومحدود بدقة وثابت. إنه لا يستطيع النزول إلى "أسفل"، وأن يصطدم بأحدهم مصادفة "فيحط من هيبته". لكنه يستطيع أن يرفع أياً كان بتعيينه في هذا المنصب أو ذاك. إنه يحول الآخرين رافعاً من شأنهم أو مخفضاً إياه. وما يفعله بالآخرين لا يمكن أن يحصل له. إنه الذي لا يتغير يغير الآخرين على هواه».

شاهدنا في أثناء البيريسترويكا وما تلاها من إصلاحات صيرورة مسرح الأقنعة والتحولات المنظم تنظيماً رائعاً. ارتفاع الناس وامتلاكهم الأقنعة ومن ثم افتضاحهم وسقوطهم – صار هذا كله منظراً آسراً يشل كل مشهد فيه تماماً عقل الملايين من الناس والكثيرين من السياسيين من شتى الألوان ويشل إرادتهم. عينوا تشوبايس – فضحوا تشوبايس – عفوا عن تشوبايس – طردوا تشوبايس – عينوا تشوبايس...الخ. من هم هؤلاء التشوبايسيون والنيمتسوفيون والبرينوفيون والشاخراينيون المرفوعون جميعاً من لا شيء؟ إنهم أقنعة. وفوقهم ثمة قناع متحجر واحد هو قناع «صاحب السلطة». سيحين وقت ما ويسقطونه وسيتبين أيضاً أن من وراءه ليس سوى حثالة. يراقب المخرجون في هذا المسرح باهتمام شديد كي لا يتحول أحد إلى شيء مستقل وهام يفلت من تحت سيطرتهم. فكروا فقط: لماذا لا تظهر في بلاد تغلي في الخفاء منذ عشر سنوات شخصيات بارزة خارجة عن السيطرة.

إن وعينا لا يمكن أن يتحرر ما دمنا لا نلقي عن كاهلنا وسواس هذا المسرح. ما دام إدراكنا لا يُخضِع للمراقبة مخيلتنا التي ترسم لنا صورة

السلطة الجبارة الحاضرة في كل مكان المختبئة وراء القناع. فخلف الأقنعة أنصاف موهوبين طماعون ومرعوبون.

٢- مجتمع المسرحية

شكل القرن العشرون منعطفاً في قضية التلاعب بالوعي العام. فمن جهة تراكم عِلمٌ اشتغل على هذه المشكلة هو ***علم النفس الاجتماعي***، الذي أرسى أحد أحجار الزاوية فيه لوبون في نظريته عن ***الحشد***. وظهرت فيه أيضاً تصورات نظرية تحدثنا عنها في الفصل الرابع، وتطورت على نحو موازٍ ممارسة مبتكرة وصارمة هي «تكوين الحشود»، وتحويل جماهير الناس الكبيرة إلى حشد والتلاعب به. ظهرت أيضاً وسائل تكنولوجية جديدة تسمح بالاستيلاء على الدعاية المتواترة بين ملايين الناس دفعة واحدة. ونشأت منظمات قادرة على وضع مسرحيات سياسية لم يكن العقل يستطيع من قبل تصور أبعادها- في هيئة فصول جماهيرية ومناظر جماهيرية وفي هيئة أعمال دموية.

تلخصت خصوصية الحياة السياسية في نهاية القرن العشرين بسيطرة التفكير الجنائي بصورته المتطرفة «اللاقانون» على السياسيين وحتى على العلماء – أي التفكير المصحوب بالإخلال التام بالمعايير والخلط بينها كلها. لقد رأينا خلال السنوات القليلة الأخيرة فقط مؤامرات ودسائس ذات ترتيب لا يخطر في بال ومتعددة الطبقات و«تنفي» إحداها الأخرى.

دل ذلك كله على الانتقال إلى حقبة جديدة هي ***ما بعد الحداثة***، ذات معايير أخلاقية وجمالية جديدة تماماً وغير معتادة لنا. ما الذي يعنيه هذا في التكتيك السياسي؟ إنه قبل كل شيء الانقطاعات المستمرة في الاستمرارية. الأفعال ذات «التعاقب» الشديد التي لا نتوقعها قط. لا يستطيع الإنسان أن يدركها كواقع ولذلك لا يستطيع أن يتجاوب معها بصورة فاعلة – فهو مشلول. وهكذا يتم الاستغناء عن مبدأ قابلية قياس «العقاب والجريمة». مثال

القصف المرعب للعراق غير الضروري على الإطلاق من أجل تحرير الكويت (ما لم نتكلم عن قصف بغداد بالصواريخ عام ١٩٩٣). الفعل المماثل كان قصف مبنى السوفييتات بالدبابات. لم يكن في مقدور أحد أن يفكر بأنهم سيرتكبون مثل هذه المجزرة في موسكو. تبع ذلك تدمير غروزني عام ١٩٩٥ الذي كان من وجهة النظر العسكرية بلا معنى. ثم قصف يوغسلافيا.

هذا كله مسرحيات كبرى تهز المشاعر بقوة شديدة. لكن ثمة حالات أقل حجماً وأهدأ. مثال هاييتي حيث ركلوا مؤخرات الجنرالات المتفوقين في الإعداد العسكري والسياسي في أكاديميات الولايات المتحدة، الذين ظلوا طوال حياتهم ينفذون ما كان يطلبه منهم العم سام. فجأة وصلتهم البيريسترويكا – وصلت مشاة البحرية الأمريكية لإحلال الديمقراطية وأرسلت أولئك الأوغاد أنفسهم الذين ضربوا من قبل بالعصي ديمقراطيي أريستيد لكي يضربوا بالعصي ذاتها جنرالاتهم. لكن هذا تجلى حرفياً بمسحة مأساوية في جنوب أفريقيا. فقد قرر مركز الدماغ العالمي في بداية التسعينيات أن جنوب أفريقيا يجب أن تنتقل ولو اسمياً إلى النخبة السوداء لأنه سيكون بالإمكان الاتفاق معها، بينما البيض لن يصمدوا مهما حصل. وبما أن الوقت لم يكن كافياً للقيام بإعداد إيديولوجي كالبيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي فإنهم عرضوا «جماعتهم» لصدمة نفسية ألغت لديهم كل مقدرة لا على المقاومة وحسب، بل حتى على النقاش. إليكم هذه الحادثة الصغيرة. تقاطر العنصريون البيض قبل الانتخابات إلى أحد البانتوستانات[١] للمشاركة في مهرجان خطابي. كان المهرجان مترهلاً ولا معنى له، ولم يكن فيه ما يخالف القانون. أمرهم رجال البوليس بالتفرق، فانصاع الجميع. فجأة، وبلا سبب أطلق رجال البوليس النار على إحدى السيارات. حين زحف ركابها المصدومون الجرحى خارجين منها اقترب ضابط أبيض وبورجوازي وقور وأطلق النار عليهم بدم بارد عن

---

(١) مناطق احتجاز السكان الأفارقة الأصليين في جنوب أفريقيا. (**المترجم**).

كثب، على الرغم من أنهم توسلوا إليه أن لا يقتلهم. كان في المكان لسبب ما جمهور من المراسلين. نشرت الصور في الصحف وتم عرض كل شيء في التلفزيون. لقد شاهد العالم كله مسرحية رائعة(١).

يتحدث الفلاسفة الغربيون الذين درسوا المعاصرة عن نشوء ***مجتمع المسرحية***. صرنا، نحن البسطاء، وكأننا مشاهدون نحبس الأنفاس ونحن نراقب التطورات المعقدة لمسرحية آسرة. خشبة المسرح هي العالم كله، ويدفعنا المخرج غير المرئي لأن نكون كومبارس بينما ينزل الممثلون عن الخشبة إلى الصالة. ونفقد جميعنا الشعور بالواقع، ولا نعود نفهم أين هو تمثيل الممثلين وأين هي الحياة الحقيقية. ما هذا الذي يسيل- أهو دم أم طلاء؟ أولئك النسوة والأطفال الذين حصدتهم النيران في بينديري أوسيراييفو أو خوجالي – هل يلعبون على نحو رائع «لعبة الموت» أم أنهم قتلوا حقاً؟ يظهر هنا تفاعل ديالكتيكي متبادل مع عملية تحول الناس إلى حشد. يقول لوبون عن الحشد إن «اللاواقعي يؤثر فيه تماماً كما يؤثر الواقعي، وأن لدى الحشد ميل واضح لعدم تفريق أحدهما عن الآخر».

يدور الحديث عن انزياح مهم في الثقافة، وعن مسح متعمد للحدود بين الحياة والمسرحية، وعن إكساب الحياة ذاتها ملامح المهرجان والطابع الظرفي وعدم الاستقرار. نشأ هذا كما أشار م. باختين عند تحطيم المجتمع

---

(١) إعدام العنصريين البيض في جنوب أفريقيا وضرب أعضاء العصبة العسكرية في هاييتي بأمر من قنصل الولايات المتحدة فتحا صفحة جديدة في تاريخ التكنولوجيات السياسية. توفر الأساليب الجديدة في التلاعب بالوعي تحكما مضموناً بسلوك الناس، وفي مثل هذه الظروف لا حاجة إلى المستبدين العتيقين ولا إلى الديكتاتوريين، حتى لو كانوا أوفياء للزعماء العالميين. ليس الأمر فقط في انعدام الحاجة إليهم، بل في أنهم مضرون أيضاً – فقد تستيقظ الوطنية فيهم. لذلك تم إرسال عدة مؤشرات للغوريلات المحتملين، وأفصح تلك المؤشرات هو تسليم بينوشيت.

التقليدي في أوربا القروسطية. اليوم يقومون بهذه الاكتشافات الثقافية من خلال الهندسة الاجتماعية. هل تذكرون كيف بدأ يو. ليوبيموف يسير نحو ذلك قبل ١٥ عاما «من المسرح»؟ لقد أزال ساتر أضواء المسرح ومسح الحدود. كان بحارة أكتوبر بسيرون لديه عبر الساحة أمام المسرح في تاغانكا، وعند الدخول كان الحارس يثقب البطاقات بالحربة. تمركز الممثلون في الصالة والمشاهدون على خشبة المسرح، واختلط كل شيء. انتقل اليوم مثل هذا الإخراج إلى السياسة، فصاروا يثقبون بالحربة النساء والأطفال في الشوارع والساحات.

ها هي «الثورة المخملية» في براغ عام ١٩٨٩. أي إعجاب نالته لدى ليبراليينا. أما هي في الواقع فكانت إحدى أكثر الحوادث رعباً. لقد سمعت بالقصة التالية من أناس مختلفين، لدينا، وفي الغرب: لم يكن في خريف عام ١٩٨٩ لا المتظاهرون ولا رجال الشرطة في براغ يرغبون في إظهار العدوانية – فهذا ليس من طبعهم. الصيد الوحيد للتلفزيون العالمي كان عبارة عن شرطي يليح بالعصا بوجه شاب، لكنه لا يضربه بها! وفجأة، يا للهول، يقتلون طالباً. طبعاً «النظام الديكتاتوري الدموي» التشيكوسلوفاكي يستسلم على الفور. دفعت الديمقراطية ثمن النصر حياةً شابة. لكن، كما يقولون، «الجسد الخالي من الحياة» للطالب الذي قتلته الديكتاتورية والذي حملوه إلى داخل سيارة الإسعاف أمام فرقعات عشرات الكاميرات التلفزيونية قد مثل دوره ملازم في الـــ ك. ج. ب. التشيكي. ارتبك الجميع في الجامعة – تبين أن ثمة طالبين يحملان اسم الضحية ولقبه. فمن منهما الذي قتل؟ لم يكن بالإمكان الإجابة عن ذلك. اتضح فيما بعد أن لا أحداً منهما كان موجوداً حينذاك في المكان، أحدهما كان في الولايات المتحدة، والثاني في الضواحي. أعدت المسرحية بإتقان. لكن هذا لم يعد يقلق أحداً. وهذا أمر مرعب لأنه يعني أن الجميع صاروا جزءً من المسرحية ولا يستطيعون أن يتخلصوا من السحر. لا يستطيعون القفز إلى ما وراء ساتر الأضواء إلى الصالة. الساتر غير موجود. حتى لم يعد مهماً جداً إن كان قد حدث كما يقولون أم لا. المهم

أن التشيكيين يعدون أن هذا ما كان، وأن هذه الحادثة كانت مسرحية، لكن اقتحامها حياتهم هو أمر مشروع.

يلعب العنف دوراً هائلا في الخلط بين الواقع والمسرحية. إنه يشغل مكاناً هاماً في حياة إنسان المجتمع المعاصر- وفي الوقت نفسه تضاعف صورته المبالغ بها والمغرية فنياً من خلال وسائل الثقافة. يقارن الكاتب الأمريكي ب. غيفورد العملية التي تحول كتلة العواطف والرذائل والجرائم إلى مسرحية هائلة، مع ما يراه في الحياة: «خلال ثلاثة أيام فقط حدث من حولي التالي: ابنة صديقي، عمرها ١٥ سنة، اغتصبت وقتلت بطلقة في الرأس في منتصف النهار في جامعة المدينة. كان ابني وخطيبته وعمر كل منهما ٢٠ عاماً ينتظران الحافلة مساء. اقترب منهما شاب يحمل سلاحاً وأجبر ابني على أن يستلقي على الرصيف ودفع الفتاة إلى السيارة وقادها إلى مكان خال فاغتصبها وضربها. رشح صديقي القديم، وعمره ٧٢ عاماً، للانتخابات البلدية ضد إحدى الزنجيات. حين ذهب إلى الناخبين هاجمته مجموعة من المجرمين الزنوج وحولته حرفياً إلى كستليتا». ويسأل غيفورد: «تعالوا لنفرق، أين الحقيقة، وأين المسرحية. هل ترون فرقاً؟ أنا كاتب ولا أرى الفرق». وهذا الفارق آخذ بالزوال أكثر فأكثر مع كل يوم – حتى بالتفاصيل. في السوبرماركت الذي يذهب إليه الكاتب وجد المسن الذي يجمع سلال التبضع عند موقف السيارات أمام المتجر يدين مبتورتين في إحدى السلال. إنها مزاح ببساطة. حتى لم يكن معروفاً إن كانت جريمة قتل قد ارتكبت قبل ذلك أم أن المازح حصل في مكان ما على يدي أحدهم «لا يحتاج» إليهما.

قدم الفيلسوف الفرنسي غي ديبور[١] تحليلاً بنيوياً لاستخدام مخيلة «الإنسان اللاعب» بهدف الهيمنة في كتابه المعروف «مجتمع المسرحية»

---

(١) **غي إرنست ديبور** (١٩٣١-١٩٩٤) كاتب وفنان طليعي وفيلسوف ومخرج فرنسي. ممثل التيار اليساري المعدل في الماركسية. مؤلف كتاب «مجتمع المسرحية» (١٩٦٧) **(المترجم)**.

(١٩٧١). لقد بين أن تكنولوجيات التلاعب بالوعي المعاصرة قادرة على تدمير المعرفة في الإنسان المذرر التي حصل عليها من تجربته التاريخية الواقعية، والاستعاضة عنها بمعرفة اصطناعية مصممة من قبل «المخرجين». تتراكم في الإنسان قناعة بأن الشيء الرئيسي في حياته هو الرؤية وحياته الاجتماعية نفسها – أي الرؤية والمسرحية.

يتحول الزمن التاريخي عندئذ إلى نوع جديد تماماً من الزمن هو زمن المسرحية والتأمل السلبي. والانقطاع عنه يصير مستحيلاً لأن صوراً أسطع بكثير مما يراها في حياته الحقيقية العادية وفي زمنه التاريخي العادي تمر أمام عينيه. «تنحط الحياة المحددة إلى الفضاء التأملي». (والمسرحية هي شيء ما تأملي).

تكمن قيمة هذه التكنولوجيا لدى السلطة في أن الإنسان المنغمس في المسرحية يفقد المقدرة على التحليل النقدي ويخرج من نظام الحوار، ويجد نفسه في عزلة اجتماعية. يولي غ. ديبور اهتماماً خاصاً لذلك الشعور الخاص بالزمن «الدوري المزيف» الذي يظهر لدى الإنسان المراقب للمسرحية السياسية. لا يصير زمن المسرحية، خلافاً للزمن التاريخي، قيمة عامة يستطيع الإنسان بفضلها أن يستوعب العالم مع الناس الآخرين، بل يصير نوعاً مختلفاً من سلعةٍ تستهلك استهلاكاً فردياً في عبوات أنموذجية. «يمسح» أحد «أكياس» المسرحية كيساً آخر. وكما كرر أكثر من مرة المنظِّر للمجتمع الغربي المعاصر ك. بوبير[1] في كتاب «المجتمع المفتوح وأعداؤه»، «ليس للتاريخ معنى!»

---

(١) **كارل رايموند بوبير** (١٩٠٢-١٩٩٤) فيلسوف وعالم منطق واجتماع. عاش حتى ١٩٣٧ في النمسا وبين عامي ١٩٣٧و١٩٤٥ في نيوزيلندا وعمل بعد ذلك أستاذاً في مدرسة الاقتصاد والسياسة في لندن. من أعماله «منطق الدراسة» (١٩٣٤)، «المجتمع المفتوح وأعداؤه» (١٩٤٥). **(المترجم)**.

مجتمع المسرحية هو «الحاضر الأبدي». وكما يكتب غ. ديبور، «يتم الوصول إليه عبر تعاقب أخبار لا ينتهي، يدور من تفاهة إلى أخرى، لكنها مقدمة بحماسة تجعل وكأن الحديث يجري عن حدث مهم». لنتذكر: تعيش روسيا منذ سبع سنوات في مسرحية تسمى «صحة يلتسين».

يحدث الشيء نفسه عند إدراك المكان: «يستهلك» المتأمل في المسرحية عبواتها الأنموذجية ويبقى هو ذاته خارج الواقع وخارج العلاقات الإنسانية. يصير مخرجو المسرحية الأصحاب المطلقين لذكريات الإنسان وطموحاته ومشاريعه.

يشير غ. ديبور إلى صفة مهمة أخرى من صفات «مجتمع المسرحية» - «الكذب بلا حساب؛ تصير نتيجة تكراره اختفاء الرأي العام. يجد نفسه في البداية غير قادر على إجبار نفسه على الاستماع، من ثم سرعان ما يصير غير قادر على أن يُصاغ».

صارت البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي هي تلك المرحلة تحديداً، حين أضحى كذب السياسيين فيما يخص المسائل الهامة في حياتنا لا يثير أي رد فعل اجتماعي. حين تبين أن الرأي العام لم يعد يتشكل صار بالإمكان الانتقال إلى المرحلة التالية: صار ممكناً تغيير الكذابين أ.ن. ياكوفليف وأ. غ. أغانبيغيان وإحلال إ. ت. غايدار وأ.ب. تشوبايس محلهما.

يسير الكذب جنباً إلى جنب مع وضع السرية بصفته طقساً من طقوس المسرحية. تصير السرية أهم جانب من جوانب الحياة وأكثرها شرعية، لذلك يغدو طرح الأسئلة والمطالبة بالإجابة عنها أمراً غير مناسب، وحتى غير لائق. إننا لا نعرف منذ زمن من يتخذ القرارات الأهم في حياتنا وأين يتخذها ولماذا يتخذها. ما الذي تحدث عنه غورباتشوف مع بابا روما؟ وأي اتفاق وقعه مع بوش في مالطا؟ متى ولماذا أُخذ الدين الهائل من أوربا؟ من قرر قبول برنامج صندوق النقد الدولي من أجل روسيا؟ لماذا عينوا كيريينكو ٤

أشهر محل تشيرنوميردين؟ عم تحدث تشوبايس في تقريره لنادي بيلديربورغ في أيار عام ١٩٩٨؟ لماذا عزلوا سكوراتوف؟ لا تقدم أي إيضاحات، لكن أحداً يا للغرابة الشديدة لا يطلبها- لا المعارضة ولا الصحافة الحرة. إننا لا نستطيع إلا أن ننظر إلى خشبة المسرح ونخمن.

أثار سيناريو تيميشوارا[١] الذي لا يصدق اهتماماً خاصاً لدى الفلاسفة - أي المسرحية التي أخرجت لإسقاط تشاوشيسكو[٢] وقتله. كان قتله ضرورياً لأنه شكل سابقة غير مسموح بها في «النظام العالمي الجديد» كله - لقد سدد الدين الخارجي كله محررا بلاده كلها من ربقة صندوق النقد الدولي. بيَّن أن بالإمكان من حيث المبدأ التملص من هذه الأنشوطة ولو بصعوبة.

انتحر غ. ديبور عندما انضمت السلطات العليا في الحزب الشيوعي السوفييتي إلى الدوائر الحاكمة في الغرب في إخراج المسرحيات السياسية ذات الأبعاد العالمية. لقد عد على ما يبدو أن الإنسان لا يملك حظوظاً في مقاومة مثل هذا التلاعب الشديد. كتب عالم الثقافة الإيطالي ج. أغامبين[٣] الذي درس «مجتمع المسرحية» عن عولمة المسرحية، أي عن اتحاد النخب

---

(١) **تيميشوارا**: مدينة غربي رومانيا (٢٩٠٧٨٦ نسمة ٢٠٠٨ أهم مدينة في إقليم بانات. مركز تجاري وصناعي أنشئت جامعتها عام ١٩٤٥. كانت مستعمرة رومانية وضمت للمجر عام ١٠١٠. سقطت في يد الأتراك عام ١٥٥٢، واستعادتها يوجين آل سافوي عام ١٧١٦. نقلت السيادة عليها لرومانيا عام ١٩٢٠. من معالمها قلعة يوهان هينادي التي أصبحت فيما بعد ثكنات عسكرية. **(المترجم)**.

(٢) **نيكولاي تشاوشيسكو** (١٩١٨-١٩٨٩) رئيس رومانيا منذ عام ١٩٧٤. الأمين العام للحزب الشيوعي الروماني منذ عام ١٩٦٥. أطيح به وأعدم رمياً بالرصاص عام ١٩٨٩ **(المترجم)**.

(٣) **جورجو أغامبين** (١٩٤٢) فيلسوف إيطالي، مؤلف أعمال في السياسة وفلسفة الأخلاق، مترجم للأدب الفرنسي. من أعماله «اللغة والموت» (١٩٨٢)، «المجتمع المقبل» (١٩٩٠)، وغيرها **(المترجم)**.

السياسية في الغرب والمعسكر الاشتراكي السابق على النحو التالي: «شكلت تيميشوارا ذروة هذه العملية حتى أن اسمها كان ينبغي أن يطلق على منهج السياسة العالمي الجديد كله. لأن هناك شرطة سرية، بعد أن نظمت مؤامرة ضد نفسها لكي تسقط النظام القديم، وتلفزيوناً، بعد أن دل من غير حياء ولو كاذب أو أوراق تين على وظيفة وسائل الإعلام السياسية الحقيقية، استطاعا تحقيق ما لم تكن النازية حتى لتجرؤ على تخيله: وهو دمج أوشفيتس وإحراق الرايخ[1] في عملية واحدة. أول مرة في تاريخ البشرية تنبش على عجل جثث أناس دفنوا منذ وقت قريب، وتجمع الأخرى من برادات الموتى، ثم تشوه لكي تحاكي أمام كاميرات التلفزيون القتل الجماعي الذي كان عليه أن يشرعن النظام الجديد. ما رآه العالم كله عبر البث المباشر في التلفزيون بصفته واقعة حقيقة صادقة كان منافياً تماماً للحقيقة. وبغض النظر عن أن التزييف أحياناً كان واضحاً فقد شرعنت منظومة وسائل الإعلام العالمية ذلك بصفته حقيقة – ليصير واضحاً للجميع أن الحقيقي منذ اليوم هو ليس إلا لحظة من اللحظات الضرورية لحركة الكاذب. تصبح الحقيقة والكذب على هذا النحو متماهيين وتتم شرعنة المسرحية من خلال المسرحية حصراً. بهذا المعنى تيميشوارا هي أوشفيتس حقبة المسرح، وكما لم يعد بالإمكان بعد أوشفيتس الكتابة والتفكير كالسابق، كذلك أصبح مستحيلاً بعد تيميشوارا مشاهدة التلفزيون كالسابق».

لكن جماهير الناس على الرغم من التحذيرات تشاهد التلفزيون كما كانت تشاهده من قبل. إننا لم نبذل جهودا ولم نضع في وعينا حاجزاً ضد ممثلي المسرحية السياسية ومخرجيها. لقد رأينا بعد تيميشوارا قصصا

---

(١) **أوشفيتس** هو مجمع مراكز اعتقال أقامه النازيون بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٥ في بولندا، وقد أعتقل فيه في تلك الفترة ما يقارب ١,٣ مليون معتقل. **مبنى الرايخ** في برلين. أنهى باول فالوت بناءه عام ١٨٩٤و كانت تعقد فيه جلسات البرلمان. أحرقه النازيون في ٢٧ شباط عام ١٩٣٣واتهموا الشيوعي الهولندي مارينوس فان دير زوراً، ليطلقوا بعدئذ حملة تنكيل واسعة استهدفت القضاء على معارضيهم. **(المترجم)**.

ممسرحة مماثلة في فيلنوس وموسكو، وبعد ذلك مزيداً من مسرحيات واقعية أكثر فأكثر، حيث دعت الضرورة إلى التضحية بعدد كبير من الكومبارس.

المسرحية منظومة شديدة المرونة. لا يوجد لدى المخرجين مخططات تفصيلية كما يوجد لدى البنّاء. البيريسترويكا والإصلاح هما سلسلة من الممارسات من أجل زعزعة الاستقرار، وهذه الزعزعة لا تحتاج إلى قاعدة اجتماعية متينة ولا إلى قوة كبيرة – تفجير جسر أسهل بمليون مرة من بنائه. وعندئذ يستحيل التنبؤ بدقة بأي طريق ستسير العملية، الموجود هو السيناريو فقط. لكن المخرجين مستعدون للعمل وفاقاً لأي سيناريو، ويحددون سريعاً أيها قابل للتنفيذ.

المثال الرائع هو «انقلاب غورباتشوف» في آب عام ١٩٩١. حينذاك تفوق غورباتشوف في اللعب على فريقه – على بافلوف وعلى يازوف وعلى يانايف. أما هم، وعلى الرغم من أنهم فهموا أنهم وقعوا في فخ رجل منافق، فلم يكن في مقدورهم أن يقرروا أي شيء – لم يتوقعوا مثل هذا السيناريو. كانوا «غير متوافقين بالكامل» مع المجتمع الجديد. لكن يلتسين بالمقابل، وكما يُظن، تفوق على غورباتشوف – فقد استجاب فريقه بسرعة كبيرة وبدقة وانتصر على الرغم من أن التزييف في مسرحيته كان واضحاً تماماً. غير أن غورباتشوف ويلتسن، كانا كما نشعر ممثلين في المسرحية ذاتها التي لن يخرج مخرجها إلى خشبة المسرح لينحني.

٣- التلاعب بالانتباه

المرميان الأهم اللذان ينبغي التأثير فيها عند التلاعب بالوعي هما ***الذاكرة والانتباه***. مهمة المتلاعب هي إقناع الناس بشيء ما. لهذا فهو يحتاج قبل كل شيء إلى أن يجذب انتباه الناس إلى خبره مهما كان الشكل الذي يعبر عنه. ثم يحتاج إلى أن يتذكر الإنسان هذا الخبر لأن القانون المجرب مراراً يقول: المقنِع هو ما يبقى في الذاكرة.

كما ذكرنا فإن مصطلح ***التلاعب*** نفسه قد نقل إلى مجال الوعي من مجال فن لاعبي الخفة. إن أهم الخبرات والمهارات لدى لاعبي الخفة المتلاعبين هي التمكن من أساليب صرف انتباه المشاهد عن الهدف الرئيسي. يحول لاعب الخفة المحترف الانتباه نحو ظاهرة يخلقها خصيصاً لذلك بمساعدة الكلمات والحركات والمؤثرات الخارجية (بما في ذلك استخدام النار والانفجار). وهكذا يتصرف من حيث المبدأ المتلاعبون بالوعي. لهذا فهم يطورون تكنولوجيات معقدة، وحتى بالغة الدقة وأحياناً دموية.

الانتباه، أي تركيز العمليات النفسية على هدف من الأهداف، يوجه هذه العمليات كلها وينظمها – الإدراك والتفكير والمشاعر والمخيلة... الخ. حين يركز الإنسان انتباهه على هدف مهم فإنه يغربل المشوشات والمعلومات الثانوية ويبعدها. وهذا تحديداً ما يسمح للإنسان بأن يمارس نشاطه النفسي الصائب. حتى عند قراءة أحد النصوص فإن الإنسان يميز دائماً عدة ***مراكز انتباه*** ليشدد انتباهه عليها ويملأ الفراغ بينها «بمادة تغليف»، ويمر عليها بنصف عين.

مفهوم أن الناس يستخدمون بنشاط مقدرتهم على تغيير ***وجهة*** الانتباه وعلى إعادة توليفه. إنهم ينقلونه، كالمصباح الكاشف، على الأهداف التي يعدونها الأهم في اللحظة المعنية[1]. وعلى هذا النحو يظهر لدى المتلاعب إمكان تبديل الهدف – أي إبعاد الهدف المهم إلى الظل، إلى منطقة ما قبل العتبة، ليدس أمام الإنسان هدفاً وظيفياً يشتت انتباهه (قد يكون موجوداً في الواقع أو مبنياً من قبل المتلاعب).

يستطيع الناس أيضاً تغيير ***تركيز*** الانتباه على الهدف ودرجة العمق في إدراكه واستيعابه- يضطر الإنسان في حياته إلى توزيع انتباهه. بذلك يمكن

---

(١) تتصف عوامل معرفة الانطباعات ونوعيتها وحيويتها بأهمية خاصة من أجل جذب الانتباه.

من خلال تشتيت الانتباه اصطناعياً وتوزيعه على أهداف عدة، ومن غير صرفه تماماً عن الهدف المهم للإنسان، تخفيض المقدرة على إدراكه واستيعابه إلى حد كبير. من المهم كذلك من أجل التلاعب بالوعي التقويم الصحيح لمواصفات الجمهور كاستقرار الانتباه وشدته. وهذه المواصفات مرتبطة بمستوى التعليم والسن والمهنة ومستوى تدريب الناس، وتخضع للدراسة التجريبية. لا تقل أهمية أيضاً القاعدة التكنولوجية لدى المتلاعب. فالتلفزيون الذي يشتغل في وقت واحد على النص والموسيقى والصور المتحركة المدركة بصرياً، يتمتع بمقدرة استثنائية عالية وسحرية على تركيز انتباه المشاهد وتشتيته وإعادة توجيهه. فاعلية التلفزة مرتبطة بأنها تعبئ منظومات الانتباه المحيطية ما يؤمن فائضاً كبيراً من المعلومة في المنظومة المكاملة المركزية. كلما كان الفائض أكبر كانت الجهود المطلوبة لإدراك الخبر أقل.

تعترض الدراسة التحليلية والنظرية للانتباه صعوبات كبيرة، لكن، بالمقابل، خصص لها كم هائل من الدراسات التجريبية بحيث امتلك المتلاعبون بالوعي احتياطياً كبيراً من «المهيجات» التي تسمح بصرف الانتباه أو تحويله أو تشتيته، وكذلك التأثير في استقراره وشدته(١). هذا مرتبط بطرق ضخ المعلومة البصرية والسمعية، ومواصفات محتواها وأشكالها كلها (بما في ذلك استخدام الأخطاء الإملائية والمنطقية بصفتها وسيلة لجذب الانتباه). مفهوم أن المهم من أجل تحقيق أهداف التلاعب هو أساليب **جذب**

---

(١) يستخدم الكثير من الاكتشافات المخبرية من غير شرح نظري جيد. فمنذ وقت قريب اكتشف أن انتباه مشاهدي التلفزيون يظهر في تلك اللحظة التي تبتعد فيها الكاميرا عن مركز الحدث (عن الممثل أو الموسيقي، أو الخطيب) وتبدأ تزحف نحو الجمهور شاملة بلقطة قريبة تارة هذا الوجه وتارة ذاك. يتم بمساعدة هذه الطريقة تثبيت الانتباه على الهدف الرئيسي، وقد دخلت هذه الطريقة في ممارسة العمل التلفزيوني.

الانتباه ***وتثبيته*** على النبأ المقنِع (الاستحواذ على الجمهور) وفي الوقت نفسه ***صرفه*** عن بعض جوانب الواقع أو بعض أجزاء النبأ – فالمفضل دائماً عدم الكذب وإنما الوصول إلى أن لا يلحظ الإنسان الحقيقة «غير المرغوب فيها».

أجريت دراسة أساليب صرف الانتباه أو تحويله بصفتهما شرطاً لازما للتلاعب الناجح في الستينيات في الولايات المتحدة انطلاقاً من التصورات عن دفاع الإنسان النفسي ضد الإيحاء. وقد اكتشف بسرعة كافية أن النبأ الموجه ضد رأي من الآراء أو توجيه من التوجيهات يصير أشد تأثيراً إذا تم لحظة نقله صرف انتباه المتلقي عن محتوى هذا النبأ. يصعب على المتلقي في هذه الحال استيعاب المعلومة وإنتاج الحجج المضادة وهي الأساس في مقاومته للإيحاء.

عرضوا على مجموعة من الطلاب في إحدى سلاسل التجارب فيلمان قصيران تلي فيهما خطاب يقنع المشاهد بأن الأخويات الطلابية مضرة. أظهر أحد الفيلمين الخطيب نفسه الذي ألقى الخطاب، بينما أذاعوا في الفيلم الثاني الخطاب ذاته لكن على خلفية سلسلة من اللقطات والصور غير المتعلقة إطلاقاً بالنص. لقد صرفوا الانتباه عن الحجج الواردة في الخطاب. لم يُلحظ بعد استعراض الفيلمين أي فارق في الآراء بين مجموعات المشاهدين الذين لم يمسهم محتوى الخطاب على نحو ملموس (الطلبة غير المنتمين إلى الأخويات). أما أعضاء الأخويات الطلابية، على العكس من ذلك، فقد استجابوا للتأثير على نحو مختلف. والإيحاء الأكبر كان من نصيب أولئك الذين شاهدوا الفيلم ذا الصور التي صرفت انتباههم.

ثم تعقدت المنهجيات وصارت أدق. قدمت المعلومة الكلامية لمجموعات من الخاضعين للاختبار مع مؤثرات تصرف الانتباه بشدة مختلفة. عرضوا عليهم صوراً منزلقة (سلايدات) كانت قوة صرف الانتباه فيها مختلفة. اتضح أن المعلومة المقنعة تكون أشد تأثيراً في ظروف صرف

الانتباه المعتدلة. تكون المقاومة النفسية للإيحاء قوية عندما لا يوجد ما يصرف الانتباه (يبدي متلقي المعلومة عندئذ درجة عالية من الشك تجاه أهداف المتحدث). لكن هذه المقاومة تزداد أيضاً حين يبالغ كثيراً في صرف الانتباه – يعود الإحساس بالشك لينمو من جديد. يجب عموماً أن نلحظ أن هذه النتيجة لا تنسحب على الوسائل المتطرفة في صرف الانتباه من خلال ***الصدمة النفسية***.

زادت تجارب الستينيات من فاعلية التلاعب في الصحافة والتلفزيون، بعد أن قدمت معايير كمية من أجل تحديد الصرف «الأمثل» للقارئ أو المشاهد عن حجج النبأ المقنِع. صارت الصحف تستخدم ترتيباً «إشكالياً» للمادة وتمزج الأنباء الهامة بالدسائس والشائعات المتناقضة، والإثارة والصور البليغة والدعاية، وصار التلفزيون يعد بطريقة جديدة مقاطع الفيديو منتقياً بدقة الصور التي تصرف الانتباه.

تتمتع الأحداث ***الفريدة*** بتأثير قوي استثنائي مشتت- أي الأحداث التي لا سابقة لها ولا تتكرر. يظهر لدى الإنسان أمامها «انتباه مزدوج» – فالناس كما يقال لا يصدقون أعينهم، ومضطرون أكثر فأكثر إلى التمعن في الهدف مركزين فيه انتباههم. وتحت غطاء مثل هذه الإثارة يستعجل السياسيون في تمرير أعمالهم المظلمة كلها. كما تتصف الأحداث ***غير العادية*** بتأثير واسع- أي الأحداث التي تحدث نادراً، وتجذب إضافة إلى ذلك الاهتمام بجوانبها الأخرى (القتل، الكوارث، النزاعات). أحياناً، يحدث العكس، فيمكن أن تستخدم الأحداث الهامة المبرمجة بصرامة من أجل صرف الناس عن فعل سياسي كان سيثير في وقت آخر نشاطاً اجتماعياً. وهكذا فقد أقيل يلتسين بمهارة شديدة في ٣١ كانون الأول من عام ١٩٩٩ حين استعد الناس جميعهم لاستقبال عام ٢٠٠٠ ثم دخلوا في حال الخمار حتى ٤ كانون الثاني.

٤- التلاعب بالذاكرة والتأثير فيها

تضطر الحال من أجل تحقيق أهداف التلاعب بالوعي إلى التأثير في أنواع ذاكرة الإنسان جميعها وبوسائل مختلفة. فمن جانب يجب أن يتذكر الإنسان (وأحياناً أن يحفظ عن ظهر قلب) فكرة ما أو استعارة أو صيغة («نعم، نعم، كلا، نعم!»). ومن جهة أخرى يحدث أن يكون ضرورياً «فصل» ذاكرته القصيرة أو التاريخية – فيبنون حاجزاً نفسياً ضد الإيحاء.

في الحال القصوى الإنسان الذي لا يتذكر شيئاً من تاريخ جماعته (شعبه، بلاده، أسرته) يسقط من هذه الجماعة ويصير ضعيفاً جداً أمام التلاعب. إن هذا شرط مهم لزيادة إمكان التزييف وتغيير مادة المزاعم. إذا نسي الناس الواقع بسرعة فإن أي مشكلة يمكن أن تطرح طرحاً كاذباً في غير سياقها الحقيقي. ومناقشتها، حتى لو حدثت، فإنها تفقد ملامحها العقلانية – أي يتم الوصول إلى النتيجة على أساس الانفعالات.

يشعر الناس بديهيا أن صلتهم بالتاريخ هي قيمة هائلة ومهمة في الحياة على الرغم من أنهم نادراً ما يستطيعون تفسير ذلك منطقياً. لماذا يثير قرار هدم منزل قديم يعيق الجميع مثل هذا القلق؟ لأنه شاهد حقيقي على أحداث قديمة ويخيل لنا أننا نستطيع أن نعتمد عليه في صلتنا بالتاريخ. تعد للوهلة الأولى عصية على الشرح أكثر تلك الفكرة المقدسة التي تضفى على الأراشيف. فما الحاجة إليها؟ الوثائق المنشورة لا تغير شيئاً تقريباً في حياتنا. ويصورونها أيضاً على أفلام ميكروية ويسجلونها على أقراص بصرية. إذا دمر إعصار وثائق أصلية فإن شيئاً لن يتغير عملياً – لكن هذا الخطر نفسه يبدو لنا مرعباً. فالوثائق الأصلية هي ***شاهد على التاريخ***. وكما يقال، «طابعها المقدس يكمن في وظيفتها العابرة للزمن»، في كبح الكرونوس – الزمن، الذي يبعدنا عن حياة أجدادنا. وللتلاعب بالوعي ينبغي أن يقطع الناس الذين يعيشون حالياً هذه الصلة.

قال يوهان هيويزينغا (١٨٧٢ – ١٩٤٥) إن تاريخ القرن العشرين قد صار «أداة كذب على مستوى السياسة الحكومية»، ولم يقترب أي استبداد شرقي قديم في «شهاداته» الخيالية من مثل هذا التلاعب بالتاريخ. عام ١٩٩٥ عبر أوروبا كما في موكب نصر فيلم المخرج الإنكليزي كين لوخ (Ken Loach) «الأرض والإرادة»، الذي مجَّد قضية التروتسكيين في أعوام الحرب الأهلية في إسبانيا. تحدث كين لوخ عند تقديم هذا الفيلم الإيديولوجي الخالص في مدريد معبراً بصراحة مدهشة: «من المهم أن يكتب التاريخ من قبلنا، لأن الذي يكتب التاريخ يتحكم بالحاضر».

لننظر في البداية في أهمية التذكر. حين يحصل الإنسان على نبأ ما فإن تفاعله مع الذاكرة يقسم إلى نوعين: يحدث في البدء تذكر ***خامل***. ثم تعالج المعلومة بالإدراك، وإذا تم الاعتراف شيئاً فشيئاً بأنها مقنعة، وملونة انفعالياً وتولد اهتماماً فإنها «تنغرس» في الذاكرة وتبدأ تؤثر في الوعي.

على هذا النحو فإن قابلية التذكر والقدرة على الإقناع واقعان في وحدة جدلية. ولكي لا يكون النبأ مرفوضاً على الفور من قبل الذاكرة الخاملة فإن عليه أن «يشبك» الوعي بشيء ما وأن لا يبدو على الفور كهراء تام. لكن حتى تنغرس المعلومة في الوعي عليها أن تكون مغلفة بشكل يجعلها تنطبع في الذاكرة. يخيل للإنسان دائماً أن ما يتذكره مقنع حتى لو حدث التذكر من خلال التكرار الميكانيكي الخالص، كالأغنية الملحاحة. ويبدأ النبأ المنغرس في الوعي يؤثر بغض النظر عن صدقه أو زيفه. يؤكد أ. مول قائلاً: «لقد تأسس النشاط الدعائي كله ومعالجة الوعي العام من قبل الصحافة على هذا الأساس تحديداً». عبر غيبليس عن هذه الفكرة قبل ذلك حين قال: «التكرار المستمر مبدأ أساسي للدعاية كلها».

توصل الباحثون إلى استنتاج محزن للإنسان البسيط: ما يتم تذكره جيداً بنتيجة التكرار المتواتر يؤثر في الوعي بغض النظر عن إن كان هذا التأكيد

يثير الاعتراض أو الرضا: «تقاس فاعلية الإقناع بعدد الناس الذين يثير لديهم النبأ المعني رد فعل معين، أما توجه رد الفعل هذا فليس أمراً جوهرياً». توجه رد الفعل **غير جوهري!** من يحدق في شاشات التلفزيون ويسمع النبأ ذاته عشر مرات يتعرض للتلاعب حتى لو شتم الشيطان كل مرة استياءً.

تم التحقق من هذا الاستنتاج في الدعاية التجارية التي تكمن قيمتها للعلماء في كم المادة التجريبية الهائل فيها. يعرف معلمو الدعاية أن ليس مهماً أن تثير رد فعل إيجابي أو سلبي لزيادة فاعليتها، بل المهم هو أن تعلق في الذاكرة. وهكذا ظهر نوع جديد من الدعاية هو «الدعاية المهيجة» التي يكون تأثيرها في اللاوعي أكبر كلما أغضبت الناس أو هيجتهم(١).

أجرى الاختصاصيون في مجال الإعلام كماً ضخماً من الدراسات بهدف معرفة مواصفات الخبر التي تسهّل تذكره. فاكتشفوا وجود قيمة زمنية حرجة («حجم ذاكرة زمني»): ينبغي أن يتموضع الخبر في فترة تتراوح بين ٤ إلى ١٠ ثوان، وأن يتموضع بعض أجزاء الخبر في فاصل بين ٠،١ و٠،٥ ثانية.

لتقبُّل المحاكمة التي لا تتسع لها الفترة بين ٨ إلى ١٠ ثوان سيضطر الإنسان إلى أن يبذل جهداً خاصاً، وقل من يرغب في بذله. هذا معناه أن الخبر ببساطة سوف يلفظ من الذاكرة. لذلك يصل المحررون الأكفياء بالنص في البرامج التلفزيونية إلى حد الابتذال حاذفين منه أي منطق ومعنى رابط، ومستعيضين عنهما بتداعيات الصور واللعب على الكلمات حتى لو كانت أغبى الاستعارات.

---

(١) معروفة في تاريخ الدعاية حادثة الشركة التي ضاعفت مبيعاتها من القمصان ثلاث مرات بفضل الدعاية الجديدة لها. فعوضاً عن الرجل الوسيم المبتسم ارتدى قميص هذه الشركة رجل متجهم أعور.

دُرس بالتفصيل تأثير عناصر الخبر الانفعالية في القدرة على حفظه. الذاكرة الانفعالية تحديداً هي النوع الأهم للتلاعب بالوعي من بين توازن أنواع الذاكرة كله (ذاكرة الصور والكلام والأصوات... الخ). ما يتم تذكره ويبدأ يؤثر قبل كل شيء آخر هو ما يثير الانطباع. تتحدث الكلمة بحد ذاتها عن نفسها – أي ما ***ينطبع***. أي معلومة إذا لم تدعم «بذاكرة المشاعر» فإنها تمحى بسرعة وتلفظ.

دور شتى أنواع المشاعر في التذكر «موزون» بدقة بحيث توجد سلسلة كاملة من الأنموذجات الرياضية التي تسمح بإجراء حسابات كمية عند «تصميم» البرامج وخطابات السياسيين. بعض الأخبار تغرس على نحو موجه في الذاكرة المديدة، وبعضها الآخر في القصيرة، وثالثها يستخدم كغطاء محايد هدفه خلق شبَهٍ عام بالحقيقة.

صلة الذاكرة الانفعالية ***بالتعرُّف*** (recognition) مهمة جداً. يلعب التعرف في التلاعب بالوعي دوراً مفصلياً لأنه يولد شعوراً كاذبا بالتعارف. يصير هذا مقدمة لتوافق الجمهور مع المتصل (مرسل النبأ)- أي أن الجمهور يتقبل المتصل **كواحد منه**. التعرف أهم بكثير «للاستحواذ» على الجمهور من الموافقة الواعية على المزاعم. لذلك من المهم جداً الحضور المتكرر أمام الناس على شاشة التلفزيون.

جميعنا يرى هذا دائماً في السياسة. عام ١٩٨٩ عبرت من التلفزيون إلى مندوبي الشعب ثلة كاملة من الصبية الذين كانوا يقدمون برامج رائجة ببساطة. لم يكونوا سياسيين، ولا اختصاصيين- بل مجرد ببغاوات يرددون الأفكار التي يجهزها المحررون. وهاكم، صاروا نواباً، وقرروا مصير البلاد. فهل تغير هذا الوضع خلال عشر سنوات من الحياة الصعبة؟ تغير في الحدود الدنيا. فعام ١٩٩٩ انتخبت إلى مجلس دوما الدولة أ. بوراتايفا فقط لأن الناس حفظوا وجهها الجميل كمذيعة في التلفزيون.

لكن لماذا انتخبوا، مثلاً، ن. إ. ريجكوف[1] ليصير نائباً وحتى جعلوا منه زعيماً؟ انتخبه الناس الذين تألموا من تدمير الاتحاد السوفييتي. لكن ما فعلته حكومة ريجكوف من أجل تدمير منظومة الاقتصاد السوفييتية، وهذا معناه النظام كله، كان أكبر بما لا يقاس مما فعله غايدار وتشيرنوميردين. ثلاثة قوانين دفنت الاقتصاد ومنظومتي التمويل والتخطيط: قانون الشركات وقانون التعاونيات وقانون تأسيس البنوك التجارية. لكن الناس يتذكرون ريجكوف بصفته رئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفييتي، وسيتعرفون فوراً على وجهه الصادق - أي سيحلمون برؤيته في السلطة مرة أخرى.

يضع المتلاعبون رهانهم الأكبر على التذكر *اللاإرادي* حين يمارسون تأثيرهم من خلال وسائل الإعلام. لذلك يكون بناء سيل من الأخبار المختلطة أهم لهم بكثير من عرض فكرة وحيدة محكمة يستطيع الإنسان التفكر فيها وتذكرها. تتراكم الأخبار المختلطة في طبقات الذاكرة الكامنة والنائمة وتؤثر على نحو مخفي وأغلب الأحيان في اللاوعي. ثم تدب الحياة فيها بالتداعيات والصور والأخبار الجديدة التي «توقظها». عندئذ لا يهتم المتلاعب حتى بالكيفية التي سينظر بها الإنسان إلى الخبر الذي حفظه لاإرادياً.

اكتشف علماء النفس عند دراسة عمليات الذاكرة ظاهرة «التأثير الغافي»: وهو وجهة النظر المرمية في طبقات الذاكرة الكامنة، التي كان

---

(١) **نيكولاي إيفانوفيتش ريجكوف** (١٩٢٩). رجل دولة وسياسة روسي. شغل منذ عام ١٩٧٠ منصب مدير مصنع أورال للسيارات، ومنذ عام ١٩٧٥منصب النائب الأول لوزير الصناعات الثقيلة والسيارات في الاتحاد السوفييتي. وبين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٢ النائب الأول لرئيس هيئة تخطيط الدولة. كان بين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٥ الأمين الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، ثم انتخب عضواً في المكتب السياسي بين ١٩٨٥ و١٩٩٠. رئيس مجلس الوزراء السوفييتي بين ١٩٨٥ و١٩٩١. انتخب عام ١٩٩٥ نائباً في مجلس الدوما الروسي. **(المترجم)**.

الوعي قد ضحدها في لحظة التذكر اللاإرادي، ومع مرور الزمن تتحول وجهة النظر في البداية، بعد أن «قضت مدتها»، إلى تصور غامض غير محدد ومن ثم إلى اتفاق معها. لقمع عملية التحول هذه من الضروري تذكير الإنسان من وقت إلى آخر بفكرة الزعم الأولية والأسباب التي تم رفضها من أجلها[١].

يتم تدمير الذاكرة التاريخية في أي مجتمع تستند فيه الهيمنة على التلاعب[٢]. إن فاعلية آلة الغرب الإيديولوجية لا يمكن تصورها ببساطة. فعدم المعرفة التامة في الغرب بأبسط المعلومات عن الحرب العالمية الثانية، مثلاً، ليس مزاحاً على الإطلاق. مثل هذه الأشياء لم تستقر في الوعي لدينا بعد.

أذكر كيف أذهلني في البداية الإسبانيون الشباب. قامت قبل نصف قرن في إسبانيا حرب أهلية طاحنة، لكنها وكأنها لم تحدث. ما زالت لدينا حتى الآن تتردد على مسامع الجميع أسماء كولتشاك ودينيكين وتشابايف

---

(١) اللافت أن سياسيي المعارضة في روسيا إما لا يعرفون ذلك أو أنهم يظاهرون خصومهم. فبعد أن يظفروا في لحظة ما من اللحظات باستياء الرأي العام في حملة ما عالية الضجيج، فإنهم «ينسونها» ما دام الهدف قد تحقق. لكن الطرح المرفوض من الوعي يبدأ يستحوذ شيئاً فشيئاً من خلال «التأثير الغافي» على أحكام الناس. هذا واضح تماماً في الموقف من الإتجار بالأراضي. لم تظهر أي حجج لصالحه لدى مناصري السوق، بل على العكس، كانت نتائج التجربة مع المزارعين محزنة إلى أقصى حد. لكن عاماً بعد عام يبدأ الناس أكثر فأكثر ينظرون إلى هذه الفكرة بترو، ومن ثم بمباركة. والمعارضة لا تقوم بأي دعاية مضادة ما دام الناس قد رفضوا الإتجار بالأراضي كما يُظن وليس ثمة أي حجج لصالحها.

(٢) ليست المسألة في برامج محددة بل في نوع التفكير الذي يلغي التقاليد بصفتها ذاكرة تاريخية جماعية واحتياطياً «للمعرفة غير الظاهرة». لولا ذلك لاستحال بناء ما بعد إيديولوجية الغرب – أي المركزية الأوربية.

وفرونزه[1]، لكن في إسبانيا لا يمكن تخيل ذلك. المدن في تينيريف حيث بدأ عصيان فرانكو[2] ممتلئة بالنصب التذكارية تخليداً لهذا الحدث. لم يغيروا هناك أسماء الشوارع ولم يزيلوا التماثيل، لكنها ما عادت تقول شيئاً للشباب. وقفت مرة أمام تمثال مؤسس الحركة الفاشية في إسبانيا («فالانغي») خوسيه أنطونيو بريمو دو ريفيرا، الذي أعدمه الجمهوريون. اقتربت حافلة تقل سياحاً إسبانيين، فخرجوا جميعهم واقتربوا من التمثال. سأل أحدهم جاره: «من هذا؟» فأجابه الآخر: «لا أعرف، أظنه معماري هذه المدينة».

يتم في الأحوال الضرورية للسياسيين «فصل» الذاكرة التاريخية لدى الساكن خلال فترة قصيرة قصراً مدهشاً. فقد كان عام ١٩٩٣ أحد مواضيع الصحافة الغربية الدائمة (ومواضيع نقاشات مثقفيهم «المطبخية») هو الحرب في يوغسلافيا. لكن كل شيء انحصر على نحو مذهل في مناقشة أحداث

---

(١) **ألكسندر كولتشاك** (١٨٧٤-١٩٢٠) أحد منظمي حركة البيض في الحرب الأهلية في روسيا بعد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧. شغل بين عامي ١٩١٨-١٩٢٠منصب «الحاكم الأعلى للدولة الروسية»؛ تزعم حركة مقاومة السلطة السوفييتية في سيبيريا والأورال. **دينيكين** (١٨٧٢-١٩٤٧) أحد قادة حركة البيض وقاد منذ عام ١٩١٨ جيش المتطوعين ضد السلطة السوفييتية ثم هاجر عام ١٩٢٠. **فاسيلي تشاپايف** (١٨٨٧-١٩١٩) أحد أبطال الجيش الأحمر المشاركين في الحرب الأهلية. لعب دوراً حاسماً في هزيمة جيش كولتشاك صيف عام ١٩١٩. قضى في المعارك. وقد صورت شخصية تشاپايف في رواية فورمانوف «تشاپايف» التي صور عنها أيضاً فيلم سينمائي. **ميخائيل فرونزه** (١٨٨٥-١٩٢٥). قاد في الحرب الأهلية أحد جيوش الحمر. وقد أشرف بعد الحرب بين عامي ١٩٢٤-١٩٢٥ على عملية إصلاح الجيش الأحمر (**المترجم**).

(٢) **فرانشسكو فرانكو باهاموند**ه (١٨٩٢-١٩٧٥) رئيس الدولة الإسبانية (كاوديلو) بين ١٩٣٧-١٩٧٥. رئيس مجلس الوزراء الإسباني بين ١٩٣٩-١٩٧٣. تزعم عام ١٩٣٦ عصياناً ضد الجمهورية الإسبانية (**المترجم**).

اليومين أو الثلاثة الأخيرة أو، في الحد الأقصى، الأسبوع الأخير. لم يثر اهتمام أحد على الإطلاق، وكأن حظراً كان مفروضاً على ذلك، لماذا بدأت الحرب وكيف حدث أن يبدأ المعيد في الجامعة بالأمس والمرتدي اليوم زي المنتفض الكرواتي يقتلع أعين الأطفال الصرب. الجواب البسيط الجاهز عن كل ذلك هو أنه مع سقوط الشيوعية بدأت الديمقراطية، وتفجر الحقد الإثني المتراكم بسبب من الظلم - ومن الطبيعي أن تبدأ الحرب من أجل التدمير المتبادل. وكأن أحداً لم يكن يتوقع أي شيء آخر.

وكم من النفور أثاره اقتراح البحث في الكيفية التي عاش فيها اليوغسلافيون في وئام خمسين عاما، وكتلة منهم (أكثر من ٣٠%) عقدت فيما بينها زيجات مختلطة. كيف «قمع» مع ذلك النظام الشيوعي الشمولي (وهذا في يوغسلافيا!) الحقد الإثني؟ ربما كان ينبغي التتلمذ عليه؟ لكن لا حياة لمن تنادي. وكأن الماضي الآمن لم يكن موجوداً. كان ذلك شذوذاً، والتفكير الغربي يهمل الشذوذ.

الفصل التاسع

أساطير الوعي الاجتماعي: مشاريع التلاعب الكبرى

الأسطورة هي التصور المعمم عن الواقع، الذي يجمع بين الأحكام الأخلاقية والجمالية، والذي يوحد الواقع مع التصوف. أي أن هذا التصور هو إلى حد كبير موهوم دائماً، لكنه لجاذبيته الأخلاقية والفنية يؤثر تأثيراً كبيراً في الوعي العام. تكون الأسطورة أحياناً وسيلة لإحلال صورة ظرفية يمكن «التعايش» معها محل صورة الواقع المخيف الموثوقة التي لا تطاق. وغالباً ما يقع تحت تأثير مثل هذه الأسطورة المحترفون أيضاً ما يؤدي إلى عواقب محزنة[1].

الأساطير التي تحمل في ذاتها مكونة لا عقلانية مهمة (دينية بالأساس) تصير جزءاً من التقاليد وتلعب دوراً مهماً في شرعنة البناء الاجتماعي في الدولة الفكرقراطية. بيد أن الأسطورة، كما قلنا، لا تفقد في المجتمع المعاصر

---

(١) طرح العالم العسكري الروسي ن. ن. غولوفين في الثلاثينيات (في المهجر) مسألة تأسيس علم عن الحرب و«سوسيولوجيا الحرب» - لأن جندي المستقبل يحصل على التصور عن الحرب من الأدب الذي يشوه تماماً صورتها الواقعية، وخصوصاً المعركة، ويحل محلها أسطورة. فكتب: «بنتيجة هذه النزعة الراسخة منذ القدم نحو تشويه الشكل الحقيقي للحرب تظهر هوة بين التصور "النظري" عن المعركة وتلك الانطباعات التي يحملها المحارب عند أول تماس مع واقع المعركة. أدت هذه الهوة في الأدب إلى مفارقات ستيندال وليف تولستوي» (بالمناسبة، ثمة رأي أن فرنسا هزمت على ذلك النحو المعيب في حرب عام ١٩٤٠ لأن مدرسي المدرسة المتوسطة كانوا واقعين تحت تأثير روايات باربيوس وريمارك وغيرهما الرافضة للعنف).

أيضاً قيمتها بصفتها شكلاً مهماً من أشكال الوعي الاجتماعي وتصوراً عن الواقع. دُرست بنية الأسطورة وطابع إدراكها جيداً، ما سمح بتأسيس صناعة كاملة في الدول الديمقراطية تختلق الأساطير وتنشرها بهدف التلاعب بالوعي والسلوك. مثل هذه الأساطير، طبعاً، نادرا ما يصير جزءاً من التقاليد طويلة الأمد، التي تدخل نواة الثقافة. (مثل أساطير اليونان القديمة أو الحكايات عن إيليا موراميتس). لكنها تستطيع أن تحجز مكاناً كبيراً في الثقافة الجماهيرية الفسيفسائية المائعة، والأهم من ذلك هو أنها تحل مسائل محددة في التلاعب بالوعي.

يتحدث الفيلسوف الألماني إ. كاسيرير[1] في عمله «تقنية الأساطير السياسية المعاصرة» عن التكوين الهادف للأساطير بصفتها أداة للتلاعب بالوعي الجماهيري لأغراض سياسية. فلنقم باقتباس كبير من هذا العمل:

«فسرت الأسطورة دائماً على أنها نتيجة لنشاط غير واع ونتاج للعبة المخيلة الحرة. لكن الأسطورة هنا تبنى وفاقاً للخطة. الأساطير السياسية الجديدة لا تنشأ تلقائياً، وهي لا تعد ثمرة برية للمخيلة الجامحة. بل إنها، على العكس، تعد خلقاً فنياً موضوعاً من قبل "معلمين" ماهرين وأذكياء. كان مقدراً لقرننا العشرين – حقبة الحضارة التقنية العظيمة – أن يؤسس تقنية جديدة للأسطورة، ما دامت الأساطير يمكن أن تبنى وفاقاً للقواعد نفسها التي تبنى بها أي أداة معاصرة أخرى، أكانت بندقية أم طائرة. يمثل هذا لحظة جديدة لها قيمتها المبدئية. إنها ستغير حياتنا الاجتماعية كلها.

(١) **إرنست كاسيرير** (١٨٧٤-١٩٤٥)، فيلسوف ألماني، ممثل المدرسة الماربورغية للكانطية الجديدة. عاش منذ عام ١٩٣٣ في المهجر واستقر في الولايات المتحدة عام ١٩٤١. ناقش في الفلسفة الثقافة مسائل اللغة والأسطورة والعلم والفن بصفتها «أشكالاً رمزية» **(المترجم)**.

استخدمت أساليب القمع والقسر دائماً في الحياة السياسية. لكن هذه الأساليب في غالبية الأحوال كانت تهدف إلى نتائج «مادية». حتى أقسى الأنظمة الاستبدادية كانت تكتفي فقط بقواعد عمل مفروضة على الإنسان. لم تهتم بمشاعر الناس وأفكارهم... تعمل الأساطير السياسية المعاصرة بطرق مختلفة تماماً. إنها لا تبدأ تجيز أفعالاً ما أو تمنعها. بل تبدأ تغير الناس أولاً كي تتوافر لديها فيما بعد المقدرة على تنظيم أعمالهم والتحكم بها. تعمل الأساطير السياسية كالأفعى التي تشل الأرنب قبل الهجوم عليه. يصير الناس ضحايا الأساطير من غير أي مقاومة جدية. إنهم مهزومون ومنصاعون حتى قبل أن يغدوا قادرين على وعي ما الذي حدث في حقيقة الأمر.

أساليب العنف السياسي العادية غير قادرة على إعطاء مثل هذا الأثر. لا يكف الناس حتى تحت أقوى أشكال الضغط السياسي عن أن يعيشوا حياة خاصة. يبقى دائماً مجال الحرية الشخصية المناهض لمثل هذا الضغط. الأساطير السياسية المعاصرة تدمر مثل هذه القيم.

إن سياسيينا المعاصرين يعرفون معرفة رائعة أن التحكم بجماهير الناس الكبيرة من خلال قوة المخيلة أسهل منه من خلال القوة الجسدية الفظة. وهم يستخدمون هذه المعرفة بمهارة. صار السياسي شبيهاً بمتنبئ عادي بالمستقبل. وصارت النبوءة عنصراً لا يتجزأ من تقنية الإدارة الاجتماعية الجديدة.

الفلسفة عاجزة عن تدمير الأساطير السياسية. الأسطورة بحد ذاتها حصينة. إنها غير حساسة تجاه الأدلة العقلانية، ويستحيل نفيها بمساعدة القياسات المنطقية. لكن الفلسفة تستطيع أن تقدم لنا خدمة مهمة أخرى. إنها تستطيع مساعدتنا على فهم الخصم. لكي ننتصر على العدو علينا أن نعرفه. وفي هذا يكمن أحد مبادئ الإستراتيجية الصحيحة. فهم الأسطورة لا يعني فقط فهم نقاط ضعفها وثغراتها فقط، بل إدراك قوتها أيضاً. كنا نتصف كلنا

دائماً بعدم تقديرها حق قدرها. وحين سمعنا أول مرة بالأساطير السياسية فإننا رأيناها سخيفة وغير معقولة، وخيالية جداً ومثيرة للسخرية إلى حد أننا لم نستطع قبولها جدياً. صار الآن واضحاً لنا جميعاً أن هذا كان ضلالاً عظيماً. إننا لا نملك الحق في تكرار مثل هذا الخطأ مرتين. ينبغي أن ندرس بعناية منشأ الأساطير السياسية وبنيتها وتقنيتها ومناهجها. إننا ملزمون بأن نرى وجه العدو كي نعرف كيف ننتصر عليه».

١- الأساطير السود

تُحفظ في الوعي الاجتماعي (وغالباً على نطاق دولي) لكي يتم إحياؤها في اللحظة المطلوبة والقيام بحملة سريعة للتلاعب بالوعي.

توضع الأساطير التاريخية السود الكبرى من قبل رجال فكر وفنانين مرموقين ويتم دعمها بجهود الدوائر الحاكمة من أجل الحفاظ على الزعامة الثقافية لهذه الدوائر الحاكمة. تبرر هذه الأساطير تلك الهوة مع الماضي التي أدت إلى إرساء النظام القائم. وإذا تم تدعيمها بعقول أجنبية ذات مكانة فإن هذه الأساطير تكتسب طابعاً مشؤوماً طويل الأمد، وتولد بنات لها أو أساطير مكملة.

تحظى مثلاً الأسطورة السوداء عن إيفان الرهيب(١) بأهمية كبيرة لتاريخ روسيا في الزمن الجديد ولعلاقتها مع أوروبا. (لقد فصّلها جيداً جداً ف. ف. كوجينوف في عدد من أعماله). فمن هذه الأسطورة ما زالوا حتى

---

(١) **إيفان الرابع الرهيب** (١٥٣٠-١٥٨٤)، أول قيصر روسي منذ عام ١٥٤٧. أدار الدولة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن ١٦ بمساعدة مستشارين (الرادا المنتقاة). قام بالعديد من الإصلاحات، واتسمت سياساته بالقسوة، وضم الكثير من الإمارات المجاورة لروسيا ومنها سيبيريا، وأرسى علاقات تجارية وسياسية مع العديد من دول أوربا وآسيا. انتقده ابنه فقتله في سورة من الغضب بأن ضربه بالصولجان على رأسه (**المترجم**).

الآن يستنتجون في أوساط مثقفينا وفي الغرب النمط الدموي والاستبداد القاسي الذي تتصف به روسيا «جينياً». ها هو مستشار يلتسين الفيلسوف أ. ي. راكيتوف يجمل «معايير وقياسات خاصة تكمن في أساس الحضارة الروسية». مجموعة الصفات السلبية كلها هنا مربوطة بالطابع السلطوي للدولة الروسية: «الكذب والافتراء والجريمة... الخ مبررة وأخلاقية إذا كانت مخضعة لمهمات الدولة الكبرى، أي تمتين القوة العسكرية وتوسيع المساحة».

تُذكَر قسوة إيفان غروزني (الرهيب) المرضية، ويشدد عليها، على أنها ليست شذوذاً بل صفة فطرية من صفات روسيا: «يجب أن نتحدث لا عن غياب الحضارة، ولا عن انعدام القانون، ولا عن غياب الوعي القانوني، ولا عن عدم شرعية آلية التنكيل في زمن غروزني أو بطرس أو نيقولاي الأول أو ستالين، بل عن القوانين نفسها التي كانت تنكيلية، وعن أن الدساتير كانت لا إنسانية، وعن أن معايير النشاط ومقاييسه وقواعده وأنموذجاته كانت مختلفة أساساً عن مثيلاتها في الحضارات الأوربية المعاصرة الأخرى». تم التعبير هنا عن الأطروحة الإيديولوجية الرئيسية وهي أن روسيا بصفتها حضارة كانت دائماً مختلفة بالأساس في المنحى السلبي عن الدول الأوربية المعاصرة لها – فبالمقارنة مع أوربا كادت روسيا إيفان الرهيب أن تكون بلد آكلي لحوم البشر، حيث سال الدم أنهاراً. وهذه القناعة هي رمز إيمان لا تستطيع أن تزعزعه بأي حجج عقلانية ما دام مؤسساً على أسطورة.

بأي اتجاه حقاً كانت مقاييس روسيا ذلك الوقت تختلف عن أوربا؟ أعدم خلال ٣٧ سنة من حكم إيفان غروزني من ٣ إلى ٤ آلاف إنسان- أي أقل بكثير من ليلة وارفولومي[١] وحدها في باريس في الأعوام نفسها (يسمي بعض المؤرخين حتى ١٢ ألف غوغوني أعدم حينذاك بأمر من الملك). أعدم

---

(١) ارتكب الكاثوليكيون في هذه الليلة في ١٥٧٢/٨/٢٤ (عيد القديس وارفولومي) في باريس مذبحة جماعية بحق الغوغونيين (**المترجم**).

في هولندا في تلك الفترة نفسها قرابة ١٠٠ ألف شخص. هذا كله معروف جيداً، بيد أن الإنسان الذي صدق الأسطورة لا يستطيع أن يتخلى عن ثقته القريبة من الدينية تقريباً بأن روسيا هي منذ البداية «إمبراطورية الشر».

اتحدت بطريقة مشابهة جهود الليبراليين الإسبان المناضلين ضد اتحاد الملَكية والكنيسة مع جهود البروتستانتيين الذين ناضلوا ضد الكاثوليكية لبناء أسطورة سوداء عن ***محاكم التفتيش***. نتيجة لذلك صارت هذه الأسطورة أداة ضغط على الرأي العام في المواجهة الجيوسياسية التي خاضتها إنكلترا والولايات المتحدة ضد العالم الإسباني. يعد الاعتراف في إسبانيا اليوم بهذه الأسطورة مؤشراً إلزاميا على ولاء المثقف للديمقراطية وانقطاعه التام عن «التقليدية الرجعية» (الفرانكية والإكليروسية...الخ).

أسطورة محاكم التفتيش مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأسطورة الغرب المعاصر الرئيسية عن أن الإصلاح البروتستانتي قد ولد ***الرأسمالية والعلم*** المرتبطين أحدهما بالآخر ارتباطاً لا تنفصم عراه. إن نشوء نوع جديد من الاستغلال على هذا النحو (أقسى في الكثير من الجوانب من الإقطاعي) قد تم تعويضه بطريقة ما بهبة التفكير العقلاني الرائعة والمعرفة المحرِّرة. فُصِّلت مقولة «العِلم البروتستانتي» تفصيلاً شديداً ابتداء من الثلاثينيات من قرننا من قبل عالم الاجتماع الأمريكي المؤثر ر. ميرتون[١].

دخلت لاحقا تاريخ العلم مقولة عدت بدهية تقريباً عن أن العلم ازدهر في شمالي أوربا لأن محاكم التفتيش لم تكن موجودة فيه. وعلى العكس من ذلك، كان الإصلاح المضاد ومحاكم التفتيش في جنوب أوربا غير متلائمين

---

(١) كتب في مقالته المشهورة: «العلم والتقنية والمجتمع في إنكلترا في القرن السابع عشر» (١٩٣٨): «توحيد العقلانية والمقاربة التجريبية هو سمة أصيلة من سمات الأخلاق البوريتانية ويشكل جوهر روح العلم المعاصر نفسه».

مع روح العلم[1]. ما هيمن هنا، وفاقاً للتاريخ الأنجلو ساكسوني، ليس الوعي العقلاني بل الدين المحافظ والوساوس والمشاعر.

واضح كم ستكون مهمة، من أجل الفهم الصحيح لمسيرة صيرورة المجتمع المعاصر المتسم بالتفكير العقلاني العلماني، معرفة أين ومتى وكيف تم الانتقال من تفكير حقبة التنوير التي صورت العالم على أنه مليء بالساحرات والعفاريت والسحر. أين هي بداية قرن التنوير، قرن ديكارت؟

وُجهت الضربة للأسطورة الإيديولوجية عن محاكم التفتيش من قبل العالم الأمريكي المؤرخ هنري تشارلز لي (١٨٢٥-١٩٠٩) قبيل مماته بعد أن بذل هو نفسه الكثير من الجهد لبنائها. فقد جعله كتابه «تاريخ محاكم التفتيش في القرون الوسطى» (١٨٧٧) صاحب المكانة الأولى في هذه المسألة. نشر عامي ١٩٠٦ - ١٩٠٧ «تاريخ محاكم التفتيش في إسبانيا» في أربعة مجلدات، حيث كتب في مقدمة الكتاب أنه سعى لا إلى أن يبين طقوس الأوتودافيه[2] *auto da fé* مع إحراق الشخصيات المعروفة، بل إلى أن يبين «التأثير غير المسبوق الذي أحدثه عمل هذه المحكمة اليومي والمستمر والسري في جماهير الشعب وإيضاح تلك الأطر التي زج فيها عقل الإسبانيين، والروح المحافظة الغبية التي جعلت الأمة أسيرة الروتين القروسطي ولم تدعها تستفد من حريات التفكير العقلاني».

---

(١) لامس خلاف الكاثوليكيين والبروتستانتيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر المسائل القاعدية في صيرورة الحضارة الغربية المعاصرة: التصور عن الإنسان (فرد أم عضو في أخوية)، وعن الإنسانية (الواحدة أم المجزأة إلى أعراق مختارة ومنبوذة)، وعن حقوق الشخصية والشعوب (الخلاف حول وضع الهنود).

(٢) تعني حرفيا بالإسبانية فعل الإيمان، وهي مراسم احتفالية دينية يتم فيها النطق بالحكم على الهراطقة. **(المترجم)**.

وها هو غ. تش. لي يحصل بعد صدور عمله إلى النور على وثائق قلبت وجهة نظره. كانت هذه الوثائق هي محاضر محكمة ١٦١٠ في مدينة لوغورنو، التي برهن فيها المفتش اليسوعي الشاب ألونسو دي سالازار، الذي حصل على تعليمه الحقوقي في جامعة سلمنقة، على أن لا وجود للساحرات والعفاريت. وفعل ذلك وفاقاً لمعايير المنهج العلمي السلبي الصارمة، سابقاً بذلك زمنه بكثير. أيد مطران توليدو المفتش العظيم برناردو دو ساندوفال سلازار، وأيده من بعده مجلس التفتيش الأعلى[1].

غير هذا القرار جذرياً المناخ الفكري كله في البلدان الكاثوليكية ومن ثم حال المجتمع بأكمله- «فالسحرة والساحرات» شكلوا الغالبية العظمى من ضحايا محاكم التفتيش. بالنتيجة أُوقفت «مطاردة الساحرات» في البلدان الكاثوليكية تحديداً بقرار من محاكم التفتيش – قبل مائة عام كاملة من بقية أقسام أوروبا حيث انتصر الإصلاح.

نظر غ. تش. لي بعينين جديدتين إلى المعطيات التاريخية بعد ذلك. وتبين أن المناضلين المشهورين من أجل التفكير العقلاني (كمثال ديكارت) كانوا في شمال أوربا منشقين نادرين، بينما كانت غالبية رجال الفكر البارزين حتى في القرن الثامن عشر تؤمن بوجود العفاريت والساحرات. وذهب مئات الآلاف من «الساحرات» إلى المحرقة في قرن الثورة العلمية (ظلوا يحرقونهن في الولايات المتحدة حتى القرن الثامن عشر وكان القضاة هم أساتذة جامعة هارفارد).

---

(١) انطلق المفتشون في مناقشاتهم من تلك المبادئ نفسها التي استخدمها فيما بعد ديكارت – لقد انطلقوا من المنهج. شكل الاعتراف بوجود الساحرات والمشعوذين غموضاً في التحقيق واستحالة في إيجاد البراهين الموثوقة من أجل المحكمة، ما جعل عملية التفتيش الحقوقية الحساسة كلها بلا معنى. تطلب إنقاذ التفتيش بصفته مؤسسة اجتماعية ومحكمة كنسية نزيهة «تطهير» العالم من العفاريت.

وجد العالِم الشريف غ. تش. لي في نفسه القوة والشجاعة كي يعلن عشية موته تحديداً: «لا توجد في التاريخ الأوروبي صفحات أشد رعباً من جنون مطاردة الساحرات خلال ثلاثة قرون، من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر. كانت إسبانيا خلال مائة عام مهددة بانفجار هذا الجنون المعدي. وتفسَّر حقيقة أنه قد أوقِف وقلِّص إلى حدود غير مؤذية بتنبه محاكم التفتيش وصلابتها... أردت أن أشدد على ذلك التباين بين الرعب الذي ساد في ألمانيا وفرنسا وإنكلترا، والتسامح النسبي لمحاكم التفتيش».

بدأ غ. تش. لي عملاً كبيراً من أجل التوصيف الوثائقي لمطاردة الساحرات، بالعودة إلى أراشيف الدول المسيحية كلها. وقد أنهى هذا العمل تلاميذه. يكتب المؤرخ المعاصر ف. دونوفان:

«إذا أشرنا على الخريطة بنقطة إلى كل حادثة حرق ساحرة مثبتة فإن التركيز الأكبر للنقاط سيكون في المنطقة التي تتجاور فيها فرنسا وألمانيا وسويسرا. كانت مدن بازل وليون وجينيف ونيورنبرغ والمدن القريبة منها ستتغطى بهذه النقاط. وكانت ستتشكل بقع مصمتة من النقاط في سويسرا من الرين وحتى أمستردام، وكذلك في جنوب فرنسا، وكانت ستلطخ أيضاً إنكلترا واسكتلندا والدول الاسكندينافية. يجب أن نشير إلى أن مناطق التجمع الأكبر للنقاط خلال القرن الأخير من مطاردة الساحرات على أقل تقدير ستكون في مراكز البروتستانتية. أما في الدول الكاثوليكية تماماً - إيطاليا وإسبانيا وأيرلندا - فعدد النقاط قليل جداً؛ وفي أسبانيا لا توجد أي نقطة عملياً».

المؤرخون الذين تجرأوا على الابتعاد عن أحكام الأسطورة السوداء حول محاكم التفتيش، استطاعوا على الفور التغلب على التناقض الذي خيل سابقاً أنه غير قابل للتفسير: وهو أن التأكيد على أن الإصلاح قد حرر التفكير لا ينسجم مع حقيقة أن رجالات البروتستانتية البارزين تحديداً (لوثر، كالفن، باكستر) كانوا من مطاردي الساحرات المهووسين. كان لوثر لا يكف عن

المطالبة بإظهار الساحرات وإحراقهن وهن على قيد الحياة. كتب صديق غ. تش. لي المؤرخ والفيلسوف ف. ليكي: «إيمان لوثر بالأحابيل الشيطانية كان مذهلاً حتى في زمانه... كانت المطاردة أقسى بالمناسبة [للساحرات] في اسكتلندا، حيث كان تأثير الإصلاح قوياً أكثر من أي مكان آخر». ريتشارد باكستر («الأعظم بين البوريتانيين») وأحد الكتاب الرئيسيين الذين يستشهد بهم ماكس ويبر في مؤلفه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»، صوَّره ر. ميرتون على أنه المعبر عن روح العِلم الجديد. لكنه نشر عام ١٦٩١ تحديداً كتاب «الدليل على وجود عالم الأرواح» الذي دعا فيه إلى الحملة الصليبية ضد «طائفة الشياطين».

لم تستطع أعمال غ. تش. لي وتلاميذه أن تزعزع الإيديولوجية المهيمنة في الغرب والمستمدة من أساطير علم التأريخ الأنغلوساكسوني. حتى في إسبانيا نفسها التشكيك بالأسطورة عن محاكم التفتيش معناه تعريض الذات للشك والاتهام بالميل إلى الفرانكية والإكليروسية والستالينية وغيرها من الآثام. حتى المؤرخ العارف بوضع الأمور الحقيقي لا يتجرأ اليوم في إسبانيا على الحديث عن ذلك إلا همساً أو سراً. بيد أن تاريخ صيرورة العلم والرأسمالية بين المؤرخين والفلاسفة بات ينظر إليه، طبعاً، على نحو مختلف. فمنذ ماكس ويبير الذي بدأ الانقلاب حتى م. فوكو الذي قدم في كتابه «الكلمات والأشياء» تأويلاً («أركيولوجياً») أكثر نزاهة، أنجز عمل كبير في تفكيك الأساطير.

صارت أوضح أيضاً الصلة الجدلية في عملية الإصلاح بين بناء حال الخوف وتذرير المجتمع بتحويل الإنسان إلى فرد لا يثق بأحد. لكن الأسطورة ظلت ضرورية للسياسيين إلى حد أن اعتراف غ. تش. لي قبل موته بقي مثل صوت يصرخ في الصحراء. لم يتغير أي شيء أيضاً بعد جملة من أعمال تلاميذه الآخرين – حتى في الدول الكاثوليكية!

٢- أساطير الغرب «المضيئة»: المركزية الأوربية.

تكونت الأساطير المضيئة بمجملها في ما وراء إيديولوجية المجتمع الغربي المعاصر الكبرى التي يحبون تسميتها *المركزية الأوربية*. أوروبا هنا ليست مفهوماً جيوسياسياً بل مفهوم حضاري (قالوا في القرن الماضي إن الولايات المتحدة صارت نواة أوروبا). أحياناً يحاولون إدراج مصطلح «المركزية الغربية» لكنه لا ينتشر.

يمكن أن نسمي المركزية الأوروبية ما وراء الإيديولوجية الغربية، لأن إيديولوجيات جزئية متنازعة تتطور ضمن أطرها أيضاً (الليبرالية والماركسية مثلاً). المهم هو أنها تتحدر من لوحة العالم نفسها، ومن المسلمات نفسها التي تخص طريق الغرب التاريخية.

ثمة لدينا اهتمام خاص بأساطير المركزية الأوربية بعد أن غُرِست في الوعي الاجتماعي في روسيا لوحة خادعة كلياً عن «الحضارة العالمية، إلى حيث يجب أن «نعود» كما يقال. تكمن فرادة وضعنا في أنه إذا كانت الداعية لـــ «أختام المركزية الأوربية الباهتة» في أفريقيا هي البرجوازية الكومبرادورية المتخلية عن جذورها الثقافية الوطنية (حثالة البرجوازية) فإن الداعية في روسيا كانت زهرة الأمة، فئة مثقفيها. جرى التعبير عن عقيدة المركزية الأوروبية لدى الإصلاحيين الروس في الكتاب البيان «لا سبيل آخر» للكاتب ل. باتكين: إن «الغرب» في نهاية القرن العشرين ليس مفهوماً جغرافياً، وليس حتى مفهوم الرأسمالية (وإن كان، بالطبع، مرتبطاً به جينياً). إنه تعريف شامل لذلك المستوى الاقتصادي والتقني العلمي والديمقراطي البنيوي الذي لا معنى من غيره لوجود أي مجتمع معاصرٍ حقاً ومطهرٍ من السلفية». المركزية الأوروبية لا تتحدر إلى نوع من أنواع المركزية الإثنية المختلفة التي لا يوجد شعب واحد حر منها. إنها إيديولوجية مرشحة للعالمية وتؤكد على أن الشعوب كلها والثقافات كلها تعبر الدرب نفسه ولا يختلف

أحدها عن الآخر إلا بمرحلة التطور. انتشرت المركزية الأوربية في القرن التاسع عشر انتشاراً واسعاً. لكن أطروحاتها الأساسية بقيت بلا تغيير حتى اليوم. حين يكون المجتمع على مفترق طرق ويحدد وجهة تطوره وسياسته فإن المتشبعين بإيديولوجية المركزية الأوربية يطرحون شعار «اتبع الغرب فهو العالم الأفضل».

لكن بناء عالم ذي نمط وحيد هو في الواقع طوباوية مبنية على الأسطورة وتغذي إيديولوجية الغرب. لنقرأ ك. ليفي- ستروس: «لا يمكن لحضارة عالمية أن تكون بذلك المعنى المطلق الذي غالباً ما يضفى على هذه العبارة، لأن الحضارة تفترض تعايش الثقافات التي تكتشف تنوعاً هائلاً؛ يمكن حتى القول إن الحضارة تنحصر تحديداً في هذا التعايش. ليس في مقدور الحضارة العالمية أن تكون غير تآلف، على النطاق العالمي، بين الثقافات التي تحافظ كل منها على أصالتها... واجب الإنسانية المقدس هو الحفاظ على ذاتها من التعصب الأعمى الميال إلى إضفاء صفة الإنسانية على عرق واحد أو ثقافة واحدة أو مجتمع واحد، ويجب أن لا ننسى أبداً أن أي جزء من البشرية لا يتمتع بصيغ قابلة للتطبيق على الكل، وأن الإنسانية المغرَقَة بنمط حياة وحيد غير ممكنة».

لننظر في عدد من أساطير المركزية الأوربية الأساسية التي تتكون بعد ذلك منها تصورات إيديولوجية ثانوية كاقتصاد السوق والديمقراطية والحرية الغربيتان والمجتمع المدني... الخ (سنتطرق لها في فصول أخرى).

الغرب بصفته حضارة مسيحية. الحضارة الغربية الأوربية مثلها كمثل الحضارات الكبرى كلها استخدمت في عملية تكتلها العامل الديني استخداماً فاعلاً. تُدرِج المركزية الأوربية في بنيتها، كإيديولوجية، أسطورةَ مسيحيةِ الغرب على أنها ذلك القالب الذي حدد النظام الاجتماعي ونمط عقلانية الغرب وثقافته بالمجمل. قُدمت هذه الأسطورة تبعاً للأوضاع التاريخية في أكثر

الأشكال اختلافاً، أو أخمدت كلياً (تحددت العلاقة مع الكنيسة في أثناء الثورة الفرنسية بشعار «اسحقوا المُقرِفة!» أما اليوم فيقولون إن الغرب هو حضارة يهودية مسيحية). المهم هو أن المسيحية قدمت على أنها السمة المكونة لصورة الإنسان الغربي - بالتضاد مع «الشرق المسلم». اضطر الإيديولوجيون إلى بذل جهد لا يستهان به لبناء مثل هذه الصورة. ولم يكونوا وحدهم في ذلك بل شاركهم الرسامون الأوروبيون أيضاً الذين ربوا الجمهور على فكرة أن الجميع في الأسرة المقدسة كانوا من ذوي البشرة البيضاء (انظروا على الأقل إلى لوحات روبينس التوراتية).

تحظى هذه الأسطورة بأهمية خاصة لدى روسيا ما داموا قد وضعوا فيها موضع الشك «شرعية» المسيحية الشرقية أي الأرثوذوكسية. يتحدث ديمقراطيونا المتفلسفون عن اعتناق بلاد الروس للمسيحية عن طريق بيزنطة كما يتحدثون عن خطأ تاريخي حتمي، وبذلك تكون قد «سقطت» من الحضارة المسيحية [١].

---

(١) يؤكدون بجدية أن الروس عبثاً رفضوا في القرن الثالث عشر المسيحيين التفتونيين(*) وقبلوا التتار المسلمين. ويصورون الشعب الليتواني في الوعي الجماهيري على النحو نفسه تماماً على أنه شعب مسيحي منذ البداية وهو الذي اعتنق المسيحية في القرن الخامس عشر بينما يعدون البولوفيين(*) الذين اختلطوا بالشعب الروسي مسلمين وهم الذين كانوا في الأساس مسيحيين.

(*) **التفتونيون** إحدى القبائل الألمانية وقد تأسست أخوية في فلسطين باسم الأخوية التفتونية في نهاية القرن الثاني عشر في أثناء الحملات الصليبية، أقامت هذه الأخوية في القرن الثالث عشر دولة التفتونيين على الأراضي التي اقتطعوها من بروسيا وليتوانيا وبولونيا، وقد دمرت في معركة غريونفالد عام ١٤١٠ - **البولوفيون** شعب يتكلم التركية كان في سهول كيبتشاتكي جنوب روسيا في القرن الحادي عشر، وقام بعدة غزوات على روسيا منذ عام ١٠٥٥ وحتى بداية القرن الثالث عشر حيث قضى عليه المنغوليون التتار، وانتقل قسم منهم إلى المجر. (**المترجم**).

تتماز المرحلة الحالية من المركزية الأوربية بالتناقض الداخلي في تفسير الأسطورة المسيحية. فمن جهة ازدادت الحاجة إلى الأساطير الموحِّدة، وفي الوقت نفسه نمط الحضارة المعاصرة نفسه، وكذلك أخلاقها وأساطيرها الأساسية الأخرى، آخذة في الابتعاد عن مسلمات المسيحية. لذلك فقد حذر اللاهوتي والمؤرخ الثقافي رومانو غفاردي منذ أربعين عاماً من أن نهاية تطفل الغرب على القيم المسيحية قادمة لا محالة.

راحت هذه الصعوبات تتفاقم منذ بداية الثورات التي أدت إلى تشكيل مجتمع الحضارة الصناعية المعاصر. أجبر الاستعمار والعرقية الضرورية لتبريره (التي لم تكن موجودة في العصور الوسطى في أوربا) على الابتعاد عن التصور المسيحي عن الإنسان. اضطروا إلى الاستعانة بفكرة الشعب المختار (عبادة «إسرائيل البريطانية»)، ومن ثم الوصول إلى نظرية غوبينو العرقية وإلى البحث عن أجداد كارل الكبير النورديكيين[١] وغيره من أحفاد «مينيلاي[٢] ذي الجدائل الشقر». كتب أ. توينبي: «يمكننا أن نصادف بين البروتستانتيين المتكلمين بالإنكليزية حتى اليوم "أصوليين" ما زالوا يؤمنون بأنهم مختارون من الله بالمعنى الحرفي الذي يستخدم في العهد القديم».

الابتعاد عن الإنجيل والتوجه إلى سلسلة كتب العهد القديم في أثناء الإصلاح كانا ضروريين للتفسير الأخلاقي للعلاقة الجديدة تجاه الكسب السريع وغير المعتادة في المجتمع التقليدي. يدرس هذه المسألة بالتفصيل ماكس ويبر في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية». الاعتراف وحده بمباركة الله للربا كان ضرورياً لتطوير رأس المال المالي، وعنى تبدلاً مهماً في لاهوتية الإنسان الغربي. كان هذا التبدل ثورياً إلى حد أن الطوائف

---

(١) النورديكيون عرق صغير في أوربا انتشر بين سكان شمال أوربا (*المترجم*).

(٢) **مينيلاي** ملك اسبرطة وزوج هيلانة، التي خاض حرب طروادة مع أخيه آغاممنون من أجل استرجاعها من باريس الذي خطفها (**المترجم**).

البروتستانتية الطليعية في هذا المجال سمت نفسها «الإسرائيليين البريطانيين» (كتب ويبر عن «العبرانية البريطانية» بصفتها ظاهرة ثقافية خاصة). لقد كان لجميع التيارات الثقافية بما فيها الصوفية (الماسونية مثلاً) التي لعبت دوراً مهماً في صيرورة المجتمع المعاصر طابعاً معادياً للمسيحية ساطع الوضوح.

أخيراً، إن حماسة الحضارة الصناعية كلها المرتبطة بالتكنولوجيا وعبادة النار والقوة، وملحمة تغيير العالم، تحمل طابعاً ليس مسيحياً بل تيتانومياً (جبابرياً). فعلاً، صورة بروميثيوس تخترق نظام التعليم الأوربي كله. وإذا ما تحدثنا عن نهاية قرننا فسيبدو أن البداية التيتانومية تترك مكانها للبداية السيكلوبية[١]. القوة صارت أكثر تدميراً، أما استعراضها فصار على نحو أقسى. لقد بدأت تطل منها طقوس الوثنية الجديدة.

الغرب استمرار لحضارة العصور القديمة. الأسطورة التأسيسية الأخرى للمركزية الأوربية هي الأسطورة المبنية حرفياً «بالطريقة المخبرية» عن أن الحضارة الغربية المعاصرة هي ثمرة من ثمار التطور المستمر منذ العصور القديمة (مهد الحضارة). تنعكس هذه الأسطورة على النحو ذاته في المخططات التاريخية جميعها[٢]. تمثلت في المجال الاقتصادي الاجتماعي على أنها تاريخ التبدل «الصحيح» للتشكيلات والتقدم المتواصل. هنا بمقدار تطور القوى المنتجة تحل العبودية محل البناء المشاعي الأولي، ثم تترك مكانها للإقطاعية التي تترك بعد ذلك في خضم الثورة الصناعية العلمية

---

(١) السيكلوب عملاق من عمالقة الأساطير (*المترجم*).

(٢) لقد درسنا في الاتحاد السوفييتي أيضاً كتب تاريخ تستند استناداً تاماً إلى المركزية الأوروبية، وعرفنا بالتفصيل تقلبات الديمقراطية الأثينية والجدالات في مجلس الشيوخ الروماني، أما الشرق فكان في نظرنا قناعاً ساكناً هامداً. كانت المركزية الأوربية قوية في تعليمنا حتى أننا حين انتقلنا في المدرسة لدراسة الحرب الإغريقية الفارسية كنا جميعاً إلى جانب الإغريق. كان الإغريق «أناسنا».

مكانها للرأسمالية. هذا التبدل في التشكيلات وحده المعترف به على أنه صحيح. وبما أن السلافيين والمنغوليين لم يعرفوا العبودية، ولم يكن في الصين نظام الأقنان ولا دولة دينية فهذا معناه أنهم لم ينجحوا في الوصول إلى الحضارة، وعليهم اليوم أن يجتازوا دورة تعليمية لدى الغرب.

مخطط تبدل التشكيلات ميثيولوجي. لم تكن اليونان القديمة جزءً من الغرب، بل كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمنظومة الشرق الثقافية. أما وريثاها فكانا بالتساوي أوربا الغربية البربرية (من خلال روما) والحضارة الشرقية المسيحية الأرثوذكسية (من خلال بيزنطة). «الهوس الهيليني» في القرن التاسع عشر مرتبط بعنصرية الحركة المحافظة المعروفة باسم «الرومانسية». فقد تكوَّنت إلى جانب الأسطورة «اليونانية» «الاستشراقية» (ORIENTALISM) – أي أسطورة الشرق الرومانسية. الملفت للنظر أن أسطورة «العصور القديمة» كانت في البداية مطورة بالتعارض مع الأسطورة المسيحية. يكتب عن ذلك سمير أمين مستنداً إلى مؤرخ العصور القديمة الأمريكي م. بيرنال:

«يستغل وهم المركزية الأوربية احتياطياً جاهزاً من العناصر، بحيث أنه حين يضم أحدها يستغني عن الآخر تبعاً لمتطلبات اللحظة الإيديولوجية. معروف مثلاً أن البرجوازية الأوربية كانت خلال زمن طويل لا تثق بالمسيحية، وحتى تشك بها، ولذلك نفخت "الأسطورة اليونانية"».

كانت اليونان وفاقاً لهذه الأسطورة أمَّ الفلسفة العقلانية في الوقت الذي لم يستطع فيه «الشرق» قط تجاوز الميتافيزيقيا... هذه العبارة مخادعة تماماً. وقد بين مارتن بيرنال ذلك حين وصف ما عبر عنه بقصة كيف «تم اختلاق اليونان القديمة». لقد ذكّر بأن الإغريق وعوا على نحو رائع انتماءهم إلى مجال الشرق القديم الثقافي. إنهم لم يقدروا عالياً ما تعلموه من المصريين والفينيقيين فقط، بل لم يعدوا أنفسهم «ضد الشرق» كما يصور التمركز

الأوروبي العالم الإغريقي. لقد عد الإغريق، على العكس من ذلك، المصريين أجدادهم، وربما أجدادهم الأسطوريين، لكن هذا غير مهم».

الأسطورة هي أيضاً التأكيد على استمرارية عملية الارتقاء الثقافي وتبدل التشكيلات. جاءت الإقطاعية عن طريق البرابرة الذين احتلوا الإمبراطورية الرومانية ذات النظام العبودي. لكن البرابرة أنفسهم بتكوينهم لم يمروا بمرحلة العبودية، فأي استمرارية هذه؟ إنه انقطاع أنموذجي في الاستمرارية، وبأقصى الأشكال المرتبطة بالهزيمة العسكرية.

أما عن الثقافة فحدث ولا حرج – فقد استمر الانقطاع في التقاليد القديمة أكثر من ألف عام (لذلك أيضاً الأسطورة عن القرون الوسطى «المظلمة» بصفتها زمناً ضائعاً، بينما سميت المرحلة بعد هذه القرون مرحلة البعث). إضافة إلى ذلك فإن الغرب أضاع كلياً الإرث الثقافي القديم مدة من الوقت ثم استعاده على شكل فتات من الشرق – من خلال العرب الذين حافظوا بعناية على الأدب الإغريقي ودرسوه. لقد تكونت الحضارة الغربية بالاشتراك مع العرب، والمركزية الأوروبية دون غيرها كله هي إيديولوجية الأحفاد الجاحدين.

الأسطورة عن التبدل «الصحيح» للتشكيلات الاجتماعية تؤكدها أسطورة أخرى مهمة هي *الارتقائية*. تضرب هذه الأسطورة جذورها بعيداً في تاريخ إدراك الزمان في الثقافة الأوربية، وتاريخ الانتقال من الزمان الدوري للحضارة الزراعية إلى فكرة الزمان اللانهائي المستقيم المتجه نحو المستقبل («سهم الزمن»). شكل الإدراك الجديد للزمان التربة المناسبة من أجل ظهور فكرة التقدم التي صارت أساساً ميتافيزيقياً، وتقريباً دينياً، لإيديولوجية التصنيع.

اكتسبت فكرة الارتقائية وضع الأسطورة التأسيسية بعد النجاح الباهر للداروينية. كان الانتصار الذي حققته النظرية البيولوجية هذه محدداً مسبقاً

بالحاجة الماسة إلى الأساس العلمي لما كان قد دخل الثقافة والممارسة الاجتماعية[1]. وقدمت الارتقائية عند تطبيقها على المجتمع والثقافة والحضارة فكرةَ التطور والاصطفاء الطبيعي. انقسمت المجتمعات إلى متطورة وضعيفة التطور (أو نامية)، ورسخت في الوعي العادي فكرة أن المجتمعات المتأخرة في التطور إما ستهلك في خضم المنافسة أو ستصير تابعة ومستغَلّة وأن هذا قانون الحياة الطبيعي[2].

وفاقاً لهذه الأسطورة حالف الحظ الغرب في أنه وقع منذ البداية على «شارع أعمدة» الحضارة العالمية، أما الآخرون فضلوا الطريق ويخرجون إليها متأخرين – أي عليهم أن يدفعوا للغرب بصفته المنافس الناجح. مقاومة ذلك بغير فائدة، لأن هذا هو قانون الطبيعة.

لكن الأنتروبولوجيين يعرفون أن الارتقائية بتطبيقها على الثقافة والمجتمع تصير مضاربة إيديولوجية وليس لها أي أساس علمي. يحاول ك. ليفي- ستروس في الكثير من الأمكنة شرح هذا بشتى الوسائل. ها هو أحد الشروح المتاحة: «الارتقائية البيولوجية والارتقائية المزيفة التي ننظر فيها هما مذهبان مختلفان تماماً... يمكن أن نستخرج من الأرض الأشياء المادية ونتأكد وفاقاً لعمق الطبقات الجيولوجية من تغير شكل صناعة الأشياء المعينة وطريقة تصنيعها. لكن الفأس لا يلد فأساً آخر فيزيائياً كما يحدث لدى

---

(١) ظهرت الداروينية الاجتماعية لسبينسر قبل الداروينية ذاتها. كان ماركس سعيداً بأن فهمه الاقتصادي السياسي للإنتاج الكثيف الموسع وللتقدم التقني قد حصل مع الداروينية على تفسيره الطبيعي.

(٢) لن نتعمق هنا في موضوع شائك كالعنصرية البيولوجية وتدمير الشعوب «المتأخرة في تطورها». لقد تحدث داروين نفسه عن تدمير أبوريغينيي تاسمانيا: «يمكننا أن نتوقع بثقة تامة في مرحلة من مراحل في المستقبل... ستدمر أعراق البشر المتحضرة الأعراق المتوحشة وستحل محلها في أركان الأرض كلها».

الحيوانات. والقول في هذه الحال إن الفأس قد ارتقى من فأس آخر يمثل صيغة مجازية لا تتسم بالصرامة العلمية.

ما يصح على الأشياء المادية التي تثبت التنقيبات وجودها الفيزيائي يصح أكثر على المؤسسات الاجتماعية والمعتقدات والأذواق التي لا نعرف عادة ماضيها. لا تقدم نظرية الارتقاء الاجتماعي والثقافي في أفضل الأحوال إلا أسلوباً مغرياً ومريحاً راحة خطرة لتصور الواقع».

يصنف ليفي- ستروس في العموم نظرية الارتقاء (التطور «الصحيح» و«الاصطفاء الطبيعي» للثقافات والشعوب) على النحو التالي: «تصب هذه المحاكمات المضارباتية عملياً في وصفة وحيدة أفضل ما يمكن أن نسميها هو أنها ارتقائية مزيفة. بم تتلخص؟ يدور الحديث بدقة متناهية عن السعي إلى استبعاد تنوع الثقافات – مع عدم الكف عن التلفظ بالتأكيدات على الاحترام العميق لهذا التنوع».

أسطورة التطور من خلال محاكاة الغرب. تقول إحدى الأساطير المحورية في المركزية الأوربية إن الغرب انطلق إلى الأمام بفضل أن الرأسمالية بنت قوى منتجة هائلة. المجتمعات الأخرى تخلفت ببساطة وهي الآن مضطرة إلى اللحاق به، لكن في نهاية الأمر ستسود في الأرض الرأسمالية الليبرالية على الشكل الأنكلوساكسوني، وستحل (بدأت تحل) «نهاية التاريخ».

تتعرض هذه الأسطورة التي تقع في قلب الفكر الغربي والخطرة على مصير البشرية لنقد حاد انطلاقاً من أسس مختلفة. فقد كتب أ. توينبي في الثلاثينيات في كتابه الأساسي «فهم التاريخ»: «أطروحة توحيد العالم على أساس المنظومة الاقتصادية الغربية بصفتها النتيجة القانونية لعملية التطور الوحيد المستمر للتاريخ البشري تفضي إلى تشويه فظ للحقائق، وإلى ضيق مذهل في الأفق التاريخي».

قدم ك. ليفي- ستروس بعد توينبي نقداً أساسياً للمركزية الأوربية حين درس تماس الثقافة الغربية مع الثقافات المحلية. لقد نفى الفكرة الميكانيكية نفسها عن وجود حضارة «صحيحة» واحدة يجب عد الطريق إليها شارع أعمدة للبشرية: «... من الصعب تخيل كيف يمكن لحضارة واحدة الاستفادة من شكل حياة حضارة أخرى من غير أن ترفض أن تكون منفردة بذاتها. إن محاولات القيام بمثل إعادة الترتيب هذه لا يمكن أن تقود في حقيقة الأمر إلا إلى نتيجتين: إما تفكك إحدى المنظومتين وانهيارها أو قيام تركيب فريد لكنه يؤدي إلى ظهور منظومة ثالثة لا تشبه الأخريين». لقد رأينا مثل هذا التركيب في روسيا (الاتحاد السوفييتي) واليابان، ونراه اليوم في الصين. كما نرى مثل هذا التفكك والانهيار اليوم في الاتحاد الروسي.

بيد أن الأسطورة عن التطور على درب الغرب تُستغل استغلالاً أشد كلما صار عدم إمكان تحقيقها أوضح وأجلى. سنتحدث أولاً عن شيء أقل وضوحاً – أي عن أن البلدان النامية الواقعة في فلك الغرب لا تسير على الإطلاق على دربه. يكتب سمير أمين: «المنظومة الإنتاجية في بلدان الأطراف لا تعيد إنتاج ما كان في المركز في مرحلة تطوره السابقة. تختلف منظومتا الإنتاج هاتان اختلافاً نوعياً. وكلما سارت رأسمالية الأطراف بعيداً على درب التطور صار هذا الاختلاف أشد حدة، وازداد التفاوت في توزيع الأرباح. تعيد هذه المنظومة الموحَّدة في أثناء تطورها إنتاج التمايز والاستقطاب بين المركز والطرف»[1].

---

(١) أطروحة البيريسترويكا عن «العودة إلى شارع أعمدة الحضارة» كانت كاذبة منذ البداية، إذ دار الحديث في حقيقة الأمر عن تحويل الاتحاد السوفييتي إلى دولة ذات اقتصاد «مكمِّل».

تم اكتشاف استحالة محاكاة طريق الغرب على العالم كله في المنتدى الفريد الذي بحث الوضع العالمي – العالم كله[١]. كان ذلك مؤتمر «ريو دو جانيرو- ١٩٩٢» عن البيئة الذي أقامته هيئة الأمم المتحدة على أعلى مستوى. قوبلت نتائج المؤتمر بالصمت التام من قبل الصحافة الغربية. وهذه الحقيقة كانت ملفتة للنظر بحد ذاتها. حظي المؤتمر بدعاية صاخبة خلال عامين تقريباً من التحضير. حضره قرابة خمسة آلاف صحفي (!). لكن بعد انعقاده بدت الصحافة العالمية كلها، المدارة من الدوائر العليا الغربية، وكأنها ملأت فمها بالماء[٢].

لم يكن ثمة في الواقع لا في الحاضر ولا في الماضي تطور لدى الغرب «معتمد على قواه الذاتية» وتستطيع الدول «المتخلفة» أن تتخذ منه مثالاً لها وتعيد إنتاجه على أرضيتها الخاصة. «الحضارة» الغربية المعاصرة منذ البدء كانت انصهاراً مشوهاً لعالمين يصوران انطلاقاً من أهداف إيديولوجية على شكل بلدان «متطورة» و«نامية».

تطور الغرب وجملة الثقافات الغارقة في «التطور الضعيف» هما عملية محددة تاريخية أحد قسميها (التطور والتطور الضعيف) مشروط بالآخر. يكتب ك. ليفي ستروس في «الأنتروبولوجيا البنيوية»: «المجتمعات

---

(١) عادة العالم مجزأ في «التحليلات» جميعها، وتتحدد التفاعلات المتبادلة بين الأجزاء على نحو غامض جداً. يشير سمير أمين إلى هذه الخدعة المنهجية: «تخرج الفكرة الغربية من مأزقها ببساطة حين ترفض النظر إلى العالم كله على أنه هدف واحد للتحليل ما يسمح بنسب اللامساواة بين مكونات العالم القومية إلى فعل العوامل "الداخلية" وحدها».

(٢) مدهش الإدراك لدى المثقف: انتظر الـــ «ريو- ٩٢» كما ينتظر الطفل اللعبة بعد أن صدعوا رأسه به. وحين انعقد المؤتمر حرموه تماماً من المعلومة التي رغب فيها. وهو حتى لا يلحظ ذلك. فرغباته خاضعة لإشارة من إلكترودات ما مغروسة في دماغه. لا وجود لإشارة: «ارغب في المعلومة عن ريو – ٩٢» فيظل لامبالياً. وحين تفرض عليه هذه المعلومة يرفضها.

التي نسميها اليوم "ضعيفة التطور" هي كذلك لا بسبب من أفعالها الذاتية... إذا أردنا قول الحقيقة فإن هذه المجتمعات تحديداً، ومن خلال تدميرها المباشر والموارب في المرحلة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، جعلت تطور العالم الغربي ممكناً. ثمة بين هذين العالمين علاقات تكاملية. لقد جعل التطور نفسه بحاجاته غير المشبعة هذه المجتمعات على النحو الذي نراها فيه اليوم. لذلك لا يدور الحديث عن تشابه عمليتين كل منهما تتطور منعزلة في مسارها».

كتب المؤرخ الأكثر تدقيقاً في قرننا ف. بروديل الذي درس «بنى الحياة اليومية» - أي الوصف المفصل لتيارات الحياة كلها واستعمال أدواتها: «الرأسمالية هي وليدة اللامساواة في العالم؛ فهي تحتاج لكي تتطور إلى مشاركة الاقتصاد العالمي... ما كانت لتستطيع أن تتطور قط من غير مساعدة عمل الآخر الكريمة». لقد استجرت إنكلترا من الهند وحدها وفاقاً لمعطيات بروديل في منتصف القرن الثامن عشر كل يوم دخلاً قدره مليوني جنيه استرليني، في الوقت الذي قدر فيه الاستثمار في إنكلترا بستة ملايين جنيه استرليني. فإذا حسبنا على هذا النحو دخل مستعمرات إنكلترا الشاسعة كلها فسينتج أن جميع الاستثمارات عملياً قد تمت على حسابها، وتم بذلك الحفاظ على مستوى حياة الإنكليز، بما في ذلك التعليم والثقافة والعلم والرياضة... الخ»[١].

---

(١) إنها حقيقة ملفتة وبليغة جداً. كان الاعتماد في أعوام البيريسترويكا الأولى على الشكوى من شمولية النظام السوفييتي، الذي كان فيه قارئنا محروماً من كتب أ. توينبي أو ك. ليفي- ستروس، أو ف. بروديل أو بيتريم سوروكين الرائع لأنهم لم يكتبوا في هدي المادية التاريخية. أصدر البيريسترويكي الشهير ي. أفاناسيف عام ١٩٨٦ طبعة فاخرة من كتاب ف. بروديل. فما الذي حصل؟ تبين أن هؤلاء الأعلام جميعهم غير متوافقين على الإطلاق مع برنامج أنصار السوق لدينا- حتى أنهم غير متوافقين أكثر من البلاشفة. فغدت هذه الأسماء كلها، التي ينبغي أن نضيف إليها أ. ف. تشايانوف، محاطة في روسيا الرسمية لا بالمنع فقط بل بالصمت التام. صاروا ببساطة من «الحمر البنيين».

لكن، كما يقال، إذا كان «الغرب قد بنى نفسه من مادة المستعمرات» (ليفي- ستروس) فبالتالي تكرار هذه الطريق من قبل الآخرين مستحيل. المستعمرات السابقة مرتبطة «بالعالم الأول» ولا وجود لمستعمرات أخرى كامنة يمكن الحصول منها على المادة «لبناء الذات» على غرار الغرب. كتب سمير أمين عن هذا الجانب من المركزية الأوربية: «هذه الإيديولوجية المهيمنة لا تقترح لوحة للعالم فقط بل مشروعاً سياسياً للكرة الأرضية كلها وهو مجانسته عن طريق المحاكاة والتخلص من التخلف. لكن هذا المشروع غير ممكن. ألا يندرج الاعتراف بهذه الاستحالة في الاستنتاج المعروف بأن انتشار نمط حياة الغرب واستهلاكه بين خمسة مليارات كائن بشري يصطدم بعوائق مطلقة بما فيها العوائق البيئية؟.. تنتقل إيديولوجية السوق المتحولة إلى لاهوتية حقيقية في أطر مشروع المركزية الأوربية غير المنفذ (مع الإضافة المقترحة تلقائياً تقريباً – أي الديمقراطية) إلى مجال المغالاة».

تكتسب أساطير الغرب النيرة المشتقة كلها (عن الحرية والديمقراطية اللتين تميزانه وعن التقدم السريع وتوازن اقتصاد السوق فيه، وعن الثقافة الغربية «الملائمة بيئياً».. الخ) صفة الشبه بالحقيقة فقط لأن الغرب تمكن من الوصول إلى ثروات القسم الأكبر من العالم، واستطاع من خلالها «دفع ثمن» الأزمات واللامساواة كلها التي ضربت بسبب من ذلك الدول التابعة بقوة مضاعفة أضعافاً.

يمكننا أن نلحظ كم كانت عظيمة أبعاد تعويض الأزمات على حساب ثروات الآخرين من أمثلة بسيطة. حين ظهرت في فرنسا في العشرينيات من القرن الماضي أزمة ازدياد أعداد المزارعين استعمرت الدول المجاورة التابعة «للحضارة المتوسطية» ذاتها (المغرب). وتم ببساطة في الجزائر، مثلاً، نقل ما يقارب نصف (!) الأراضي المستصلحة منذ القدم إلى المستعمرين الفرنسيين. وعلى العكس من ذلك، حين ظهر في الولايات

المتحدة نقص حاد في اليد العاملة مع وجود فائض في الأراضي تم اختطاف الملايين من أقوى الشبان وأوفرهم صحة في أفريقيا وحولوا إلى عبيد (يقدرون عددهم بمائة مليون وصل منهم إلى شواطئ أمريكا ٩ ملايين). تدل الحسابات المعاصرة على أن سحوبات القيمة غير المرئية فقط التي قام بها «العالم الأول» من «العالم الثالث» تقدر بما يقارب ٤٠٠ مليار دولار في السنة (لا تدخل هنا التدفقات «المرئية»: تهريب الرأسمال الأجنبي والفوائد على الدين الخارجي و«هروب» رؤوس أموال البرجوازية الكومبرادورية).

الدعوة المتكررة إلى «إتباع طريق الغرب» تتناقض أيضاً مع السياسة الحقيقية للغرب ذاته. يكفي أن نذكر بأعمال مؤرخي الهند ومصر التي دلت على أن المستعمرين الأوربيين تحديداً قد دمروا البنى الرأسمالية التي ظهرت في هذه البلدان، والشبيهة جداً بالبنى التي تكونت في اليابان نتيجة إصلاح ميزا (استطاعت اليابان الحفاظ عليها بإقامة «ستار حديدي»).

ظهرت هذه البنى في مصر بمشاركة نشطة من المماليك منذ القرن الرابع عشر ووصلت مرحلة النضج مع بداية القرن التاسع عشر، وتم تقويضها بحملة نابليون، ومن ثم فككت بعد دخول الاستعمار الأوربي عام ١٨٤٠. أما في الهند فقمعت الرأسمالية ومن ثم دمرت تدميراً منهجياً من قبل المستعمرين الإنكليز.

الأسطورة التكنولوجية. يكمن أحد مزاعم المركزية الأوربية في أن الحضارة الغربية تحديداً قد بنت الثقافة (الفلسفة والحقوق والعلم والتكنولوجية) التي تغلب في العالم وتحدد مسبقاً حياة البشرية. يؤمن الإنسان المتكون بالمدرسة والتلفزيون إيماناً صادقاً، ولا يعود قادراً على النظر إلى ما حوله (فترويض الخيل عمل إبداعي لا يقل تعقيداً وإبداعاً عن صناعة القنبلة الذرية). تبدي الأسطورة التكنولوجية تأثيراً قوياً جداً في الإنتلجنسيا، وهي اليوم كما قلنا تلعب الدور الأهم في التلاعب بالوعي الاجتماعي.

أحد «فتوحات» المركزية الأوربية هو قمع الشعور التاريخي في الناس. صار الزمن متلاعباً به. كتب ك. ليفي- ستروس: «ثورة الغرب العلمية والصناعية كلها تنحصر في فترة تساوي نصف جزء واحد من ألف من الحياة التي عاشتها البشرية. ينبغي علينا أن نتذكر ذلك قبل التأكيد على أن هذه الثورة قلبت مسار هذه الحياة كلياً».

يضع بعد ذلك موضع الشك المعيار نفسه الذي يتم من خلاله تقويم المساهمة الثقافية لهذه الحضارة أو تلك: «كرست الحضارة الغربية نفسها قبل قرنين أو ثلاثة لتزويد الإنسان أكثر فأكثر بالآلات الميكانيكية الضخمة. إذا اتخذنا هذا معياراً فإن مؤشر مستوى تطور المجتمع البشري يصير نصيب الفرد من الإنفاق على الطاقة. بذلك ستتبوأ الحضارة الغربية مجسدة بأمريكا المقدمة.. إذا أخذنا معيار المقدرة على التغلب على الظروف الجغرافية شديدة الصعوبة فإن قصب السبق بلا شك سيكون من نصيب الأسكيمو والبدو. استطاعت حضارة الهند أفضل من غيرها بناء منظومة دينية فلسفية، وبنوا في الصين نمط حياة عوّض عن العواقب النفسية الناجمة عن الإجهاد الديموغرافي. وقبل ثلاثة قرون صاغ الإسلام نظرية حول تكافل أشكال الحياة البشرية كلها - التقنية والاقتصادية والاجتماعية والروحية- لم يستطع الغرب حتى وقت قريب أن يجدها، ولم تظهر عناصرها إلا في بعض جوانب الفكرة الماركسية والإثنولوجيا المعاصرة. الغرب، صاحب الآلة، يكتشف معارف أولية جداً عن استخدام الآلة الأسمى، التي هي الجسد الإنساني، وعن إمكاناتها. وعلى العكس من ذلك ففي هذا المجال ومجال العلاقات بين الجسدي والأخلاقي المرتبط به تخطى الشرق والشرق الأقصى الغرب بآلاف السنين - لقد بنيت هناك منظومات نظرية وعملية واسعة مثل يوغا الهند وأساليب التنفس الصينية أو رياضة الأعضاء الداخلية لدى الماوريين القدماء...».

تستخدم اليوم في روسيا استخداماً نشيطاً جداً أسطورة أن الغرب كان منذ البداية مولد التكنولوجية للعالم كله. يذكرنا ي. فريدبيرغ في صحيفة «نيزافيسيمايا» (المستقلة) بالخيرات التي حلت على روسيا من الغرب: «عبر إلى روسيا من خلال الحدود الغربية كل ما يمكن عده حتى اليوم أساس قوتها وعزتها القومية... - أنواع وسائل النقل كلها والألبسة وأغلب السلع الغذائية والمنتجات الزراعية - فهل نستطيع أن نتخيل روسيا اليوم محرومة من ذلك؟».

فعلاً، يستحيل تصور روسيا محرومة فجأة من أنواع الملابس كلها - لكن هل يمكن تصور إنسان راشد وإن كان على الأقل من صحيفة «نيزافسيمايا» مهتم جدياً بمثل هذا المشهد لروسيا؟ وحتى لو هبطنا إلى مستوى محاكمات فريدبيرغ فهل يعقل أنه يظن جاداً أن «أغلب أنواع المنتجات الزراعية» قد صنع في الغرب؟

نشير من بين الأساطير المشتقة عن الأسطورة التكنولوجية إلى أسطورة مهمة جداً لإيديولوجية التغيرات الحالية في روسيا حول الغرب الزراعي والشرق الرعوي البدوي. يستند مشروع تفتيت روسيا قبل كل شيء إلى وضع السلافيين («الغرب») بالتعارض مع سكان السهوب («الشرق»). لا تعمل الصحافة وحدها بنشاط في هذا الاتجاه، بل المجلات الأكاديمية أيضاً مثل «أسئلة الفلسفة» - حيث صار ف. كامنتور واحداً من أكثر «الخبراء» نشراً فيها. ولتقدير مدى الجهل فيها من المفيد قراءة أ. توينبي ول. ن. غوميليف على الأقل.

الأسطورة عن إنسانية الغرب والوعي الحقوقي فيه. لعبت هذه الأسطورة دوراً محوريا في برنامج التلاعب كله في أعوام البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي. لقد خفضوا وتيرتها الآن لكنها ما زالت قابعة في وعي المثقف المتوسط كصورة نمطية، ولم تنتزعها منه حتى غارات القصف على

الصرب. فلنحاول إمساك طرف الخيط المفضي إلى منابع هذه الأسطورة والحديث عن أشياء معروفة بما فيه الكفاية.

ميتافيزيقية الغرب كله وقاعدته الإيديولوجية مرتبطة بالفكرة الكالفينية عن القدرية. فوفاقاً لهذه الفكرة لم يذهب المسيح إلى الصليب ***من أجل الجميع*** بل من أجل ***المختارين*** فقط. بنيت بعد ذلك على هذه الفكرة المذاهب العرقية والاجتماعية كلها- الأعراق الأسمى والأعراق الدنيا، عرق الفقراء وعرق الإغنياء، عرق العمال (ومن ثم الطبقة العاملة). ترعرعت العنصرية – كما الإثنية كذلك الاجتماعية – من نظرية القدرية. وقد ترعرع الغرب كحضارة على أساس هذه العنصرية.

يكتب أ. توينبي عن انتشار الميول المركزية الأوروبية، وخصوصاً احتلالها المكانة الغالبة في الولايات المتحدة: «كان هذا مصيبة كبرى للبشرية، فحساسية البروتستانتية وأحكامها وسلوكها تجاه الأعراق الأخرى، هي، كما في الكثير من المسائل الحياتية الأخرى، مستلهمة أساساً من العهد القديم؛ وفي المسألة حول العرق فإن عبارات النبي السوري القديم صريحة للغاية ووحشية إلى أقصى حد».

أين يكمن جوهر التزييف الهائل الذي قام به إيديولوجيو البيريسترويكا والإصلاح في روسيا؟ يكمن في أنهم صوروا لنا نمط العلاقات في الغرب بين ***المواطنين المدنيين*** (بين «أهل البيت») وكأنه نمط شامل وأساسي في العلاقات مع الناس كلها. من الصعب تقبل فكرة أن الإنتلجنسيا الروسية بغالبيتها قد صدقت هذا الكذب الساذج جداً. لكن يبدو أن هذا ما كان. وهي صارت تدعو الشعب إلى «حضارة الغرب الصحيحة» هذه وكأن العلاقة تجاهنا هناك ستكون بوصفنا من «أهل البيت» وليست بوصفنا عرقاً أدنى. سَميتُ هذا التزييف ساذجاً لأن الغرب نفسه لم يقدم قط أي حجج للمراهنة على ذلك. بل على العكس، فقد بين من خلال إشارات صغيرة لا تعد ولا

تحصى علاقته الحقيقية تجاه «الأعراق الدونية» (بالمعنى الكالفيني الواسع للكلمة) وخصوصاً تجاه الروس. ***الإنسانية*** في الغرب مفهوم شرطي مثل الديمقراطية في اليونان القديمة مثلاً. نعم، إنها ديمقراطية لكن العبيد لم يندرجوا في عداد ***الديموس*** (الشعب). وهكذا هي حال الديمقراطيين الروس – يندفعون ليكونوا عبيداً ثم يستاؤون لأنهم لا يعترفون بحقوقهم الديمقراطية.

القناعة الصادقة بأن الناس من العرق الآخر (أو الثقافة الأخرى أو الدين أو الإيديولوجية... الخ) هم، إن لم يكونوا نوعاً بيولوجياً مغايراً، فعلى اقل تقدير من نوع فرعي آخر – أي ***لا يعدون أقرباء*** – كانت ضرورية تماماً للأوربي في فترة الاستعمار من أجل قمع الشعوب المحلية واستعبادها وتدميرها جسدياً. لقد دخلت العنصرية عميقاً في نسيج الثقافة الأنغلوساكسونية حتى أننا اليوم، بعد أن تم رفضها رسمياً وعلى نحو احتفالي كمذهب، وحين أقر إعلان اليونسكو عن العرقية وأعيد النظر على نحو حثيث في البرامج التعليمية، نراها تنفذ من الشقوق كلها.

العلاقة تجاه الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية هي علاقة بدائية. لكن لنتذكر الواقع مع ذلك وليس كما في أفلام هوليود حيث ينبغي لزاماً أن يوجد ضابط شرطة زنجي. إليكم استنتاج مركز واشنطن للدراسات السياسية (تموز ١٩٨٨): «الآفاق الاقتصادية في العموم أمام المواطنين السود قاتمة: نصفهم تقريباً يبدأ الحياة فقيراً؛ وفي أعوام الرشد يصطدمون بمستوى عال من البطالة؛ واحتمال أن يعيشوا سني الشيخوخة في فقر أكبر بثلاث مرات مما لدى البيض». وهاكم دراسة للأحكام القضائية في قضايا القتل في ولاية جورجيا. بيَّن تحليل ٢٤٨٤ حكماً أن قتلة المواطنين البيض قد حكم عليهم بالموت أكثر بأربعة مرات من قتلة المواطنين السود. الملفت للنظر أن الحامل الرئيسي للعنصرية هو الطبقة المتوسطة («عماد الديمقراطية»). فالأغنياء لا يهابون شيئاً ويستطيعون المضي ضد الرأي العام محافظين على الصلة بالسود. والفقراء «ليس لديهم ما يفقدونه».

صدر عام ١٩٨٩ كتاب دوني هاراوي «التصور عن الأوليات: الجنس والعرق والطبيعة في عالم العلم المعاصر». – هذا العمل الهائل الذي يدرس دراسة دقيقة تاريخ علم الأوليات (العلم عن القرود الشبيهة بالإنسان) في القرن العشرين. تبين أن هذه المادة غنية على نحو استثنائي من وجهة نظر علم الثقافة، لأن القرود، و«هي أناس تقريباً» تندرج مع الإنسان في فصيلة بيولوجية واحدة. صورة القرد في الثقافات كلها، بما فيها الأوروبية، مليئة بالمعنى الفلسفي، وحتى بالمعنى الصوفي. تعكس المفاهيم التي ترافق العالِم وهو يقارب دراسة هذا الموضوع أحكاماً إيديولوجية مخفية وهي عبارة عن استعارات جلية. لن نتوقف عند تحليل المؤلفات العنصرية على نحو مكشوف (كفيلم «طرزان» الضروري للولايات المتحدة) ولا تحليل الشفرات الثقافية التي يتشرب بها الإنسان الغربي العنصرية- فهذا الكتاب يجب أن يقرأ مراراً. سنورد أبسط الملحوظات «المعيشية» التي أبداها عرضاً دوني هاراوي.

بنى التلفزيون وعدد من المجلات المرموقة مثل «National Geographic» منذ وقت قريب، في الثمانينات، ملحمة كاملة عن النساء العالمات البيض، اللواتي عشن زمنا طويلاً في أفريقيا وهن يدرسن الحيوانات ويحمينهن. إنهن يعشن وحيدات وسط الطبيعة المتوحشة، وأقرب صلة لهم بالعالم هي مدينة تقع على بعد مائة كيلومتر. أما مساعدوهن الأفارقة (بمن فيهم الحاصلون على تعليم عال) الذين يعيشون إلى جانبهن ويعملون معهن فلا يعدون بشراً ببساطة. خصوصاً سكان القرى الذين يزودون النسوة العالمات بكل ما هو ضروري (حتى أن موسيقياً في إحدى الأحوال كان ينبغي أن يأتي من القرية ويقيم لهن حفلة موسيقية). يقدم الأفارقة عن عدم وعي وبصدق تام بصفتهم ***جزءاً من الطبيعة المتوحشة***.

يبدو الأمر تافهاً تماماً – لكن كم هو غير بريء: يحب أفراد فرق علماء الأوليات أن يلتقطوا لأنفسهم الصور بعد المواسم الميدانية الصعبة في

الغابات الاستوائية، ومن ثم ينشرون هذه الصور في مجلة علمية ضمن مقالة مع تقرير عن الدراسة. وبصفتهم رفاقاً طيبين فإنهم يلتقطون الصور مع المشاركين في العمل كلهم (وغالباً حتى مع القردة). ترد في المجلة تحت الصورة أسماء الباحثين البيض الكاملة بمن فيهم الطلاب (وغالباً ألقاب القردة) - ولا تذكر إطلاقاً تقريباً أسماء الأفارقة مع أنهم أحياناً يمتلكون مراتب علمية أعلى مما لدى زملائهم الأمريكيين أو الأوربيين. هنا أيضاً يعد الأفارقة جزءاً من الطبيعة.

العلاقة تجاه أناس من لون بشرة مغاير هي حال بسيطة وبذيئة تقريباً. العنصرية مفهوم أوسع. وهي جلية جيداً في الأفلام السينمائية التي باتت في متناول مشاهدنا تماماً. إليكم فيلم «قطار الإكسبريس الليلي» الذي عرض في موسكو وصور كما قيل «حادثة حقيقية». شاب أمريكي لطيف ووسيم وسامة استثنائية قضى عطلته على نحو متحضر في اسطنبول، وإذ انطلق إلى هناك قرر أن يكسب شيئاً من المال عن طريق تهريب المخدرات فالحشيش في تركيا أرخص ثمناً. ألقي القبض عليه في المطار، ومن ثم حوكم ودخل السجن. قضينا ساعة ونصف الساعة ونحن نشاهد كيف راح يتألم أمريكي مثقف في السجن التركي (مع اثنين من الأوربيين الفاشلين في التهريب). بدأنا ببساطة نكره هذه البلدان الشرقية حتى التي صارت أعضاء في الناتو. ينتهي الفيلم نهاية سعيدة وينجح الشاب في قتل حارسه التركي المقيت ويرتدي زيه ويهرب من السجن ويعود إلى جامعته الحبيبة وإلى أبيه المحب وخطيبته. وضع الفيلم بحيث يكون تعاطف المشاهد إلى جانب الأمريكي بغير جدل، فكيف يمكن له أن يقبع في مثل هذا السجن السيئ. كيف يمكن ضربه على قدميه! ونضطر إلى بذل جهد كبير (وهو ما لا يفعله ٩٩% من المشاهدين) لكي نرتب الحقائق كما هي، بأن نضع، مكان الأمريكي في السجن التركي، ***تركياً في السجن الأمريكي***. تخيلوا: تركي ألقي القبض عليه في عملية تهريب

مخدرات يقتل ضابطاً أمريكياً ويهرب. ستهب أمريكا كلها على قدميها وتطالب بقصف اسطنبول بالصواريخ.

كان أحد أفضل أفلام هوليود في السبعينيات مكرساً لمأساة أب من أكبر المستثمرين الأمريكيين وصديق لأعضاء مجلس الشيوخ ذهب إلى تشيلي بعد حدوث الانقلاب فيها للبحث عن ابنه المفقود. تبين في نهاية الأمر أنهم قتلوه هناك – وقع في يدٍ ساخنةٍ. الفيلم مثير للانطباع، ويخرج المشاهدون مذهولين. لكن ما إن تبدأ تفكر حتى تستنتج أن التأثير المطلوب قد تم بلوغه لأنهم تحديداً قتلوا ***أمريكياً***. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ ما الذي اقترفته أيديكم أيها الفاشيون الملعونون؟ وهذا التأثير ينتشر ضمن نفسية محضرة تحضيراً يجعلك لا تصاب حتى بالدهشة – يقترب في الفيلم من الأب المفجوع تشيليون يعرفون ابنه وقد طالت المأساة ذاتها الكثيرين منهم، لكنها غير محسوسة لديهم مقارنة بما حصل للأمريكي.

لنفترض أن الأتراك أو التشيليين هم زنوج تقريباً. لكن منذ وقت قريب لاقت النجاح في أوربا سلسلة أفلام هيتشكوك. إن هذه الأفلام هي تعبير فكري لموقف المجتمع الغربي المعاصر من العالم. لنأخذ إحدى تلك التحف («الستارة الممزقة»). عالِم أمريكي شاب ورائع يطلب اللجوء السياسي إلى ألمانيا الديمقراطية. خيل له أنها مهما كانت هذه الدولة فهي ألمانيا على الرغم من كل شيء. يعيَّن لمراقبته ضابطٌ من أمن الدولة – يساعده في البداية في البحث عن شقة ويدخله في الحياة العادية... الخ. هذا الضابط (وهو أحمق خالص طبعاً) يساعد الأمريكي بصدق تام ولا يظهر له العداء في أي لحظة من اللحظات – هذا ما تم تصويره في الفيلم. إنه لا يعرف أن الفيزيائي الشاب قد أتى ليكشف الصيغة السرية لحساب مسار الصواريخ التي أوجدها أحد علماء الرياضيات في لايبتزيغ. يبتعد الفيزيائي الشاب بحركة ماهرة في معرض للوحات في برلين عن مرافقه ويستقل سيارة أجرة ويغادر المدينة إلى

مزرعة للقاء المعادين السريين للشيوعية. لكن الضابط «شتازي» – الألمان هم الألمان – يحصل على دراجة نارية ويصل إلى المزرعة نفسها. يدخل المطبخ مقهقهاً قهقهة غبية إلى حيث كان الفيزيائي يتحدث إلى إحدى زميلاته، فيقبضان عليه معاً ويقتلانه بأسلوب فريد بأن يدسا رأسه في الفرن ويفتحا الغاز ويثبتاه حتى يكف عن التشنج. لا أثر للشك. لا وجود لأي صراع داخلي بسبب من ضرورة قتل إنسان كرمى لتنفيذ المهمة مهما كانت هذه المهمة نبيلة. لا وجود لأي ما يلمح إلى مأساوية هذا العالم وكم هي هذه الحرب الباردة عبثية... الخ. ينفذ البطل العالم مهمته مدمراً في طريقه عدداً من الألمان «الحمر» الذين لم يشكوا في شيء. فعن أي «قيم إنسانية عامة» يمكن الحديث بعد عرض تحفة الثقافة الأوربية هذه؟

هذه الحادثة من البلاغة خصوصاً أنهم في الاتحاد السوفييتي في الوقت نفسه تماماً صوروا أيضاً فيلماً غير سيئ هو «الموسم الميت». فهناك يغررون بممثل أخرق من مسرح الأطفال أرسل إلى ألمانيا ليتعرف على طبيب مجرم سابق، فيقبضون عليه ويعذبه الذين عذبوه سابقاً بأنفسهم. يكشف أحد الجواسيس السوفييت المقيمين عن نفسه ليساعد رفيقه – وفي النهاية يسمح له بأن يسدد لكمة نحو أسنان الطبيب الفاشي. يسلم الجاسوس نفسه من غير أن يحاول المقاومة ولم يقتل أي أحد. ليست المسألة في أن الـ ك.ج.ب. كان أنبل من إدارة المخابرات المركزية. ربما كانا معاً ينفذان بالطريقة ذاتها عملاً قذراً وقاسياً فالفيلمان معاً مستندان إلى بدعة فنية. تكمن المشكلة في ما يقبله الجمهور وما يرفضه. لو قتل الجاسوسُ السوفييتي في الفيلم مواطنَ بلد لسنا في حال حرب معه لأثار هذا استياء المشاهد السوفييتي ونفوره. أما مشاهد أفلام هيتشكوك فلم يبد ولو ظل شك لدى قتل مواطني ألمانيا الديمقراطية. أما عن الروس فحدث ولا حرج – إنهم يكومونهم أكواماً

في أحدث الأفلام وبلا أي سبب (حتى لو كان الموضوع تاريخياً عن كاليفورنيا الروسية).

لقد راح ديمقراطيونا يغرسون في الوعي أسطورة الغرب النيرة، مصورين روسيا (القيصرية وفي هيئة الاتحاد السوفييتي) على أنها «دولة الاستبداد الأسيوي»، في الوقت نفسه حين بدأت تتكشف قصة القتل الجماعي المليئة بالعبر في الأرجنتين. اعترف رئيس هيئة الأركان العامة في الأرجنتين رسميا عام ١٩٩٣ بأن الجيش قد نظم في السبعينيات إرهاباً ضد المعارضة ضمن مخطط جديد: مجموعات صغيرة من الضباط راحت تعمل بشكل مستقل من غير أن تقدم تقارير للقيادة ومن غير أن تترك أي وثائق. كانوا ينقلون الإنسان من منزله (غالباً ما كانوا يفجرون المنزل) ويعذبونه ثم يقتلونه. لقد ضربوا ناشطين وكتاب بارزين قاطنين في فيللاتهم في حي السفارات، واعتقلوهم بحضور الدبلوماسيين الغربيين مباشرة. كانت طريقة القتل المريحة هي التالية: لقد حملوا الناس المحقونين بالمخدرات على الطائرات ثم راحوا يرمونهم أحياء في المحيط. يشرح أحد الضباط الذين نفذوا هذا المخطط: وكانوا يسيرون من تلقاء أنفسهم من غير أي مقاومة. أغلب الظن أنهم قتلوا في الأرجنتين هكذا، بلا محاكمة ولا تحقيق ولا حتى اعتقال، ما يقارب ٣٠ ألف شخص من ١٤ مليون نسمة. نال هؤلاء العسكريون العفو التام جميعهم وما زالوا في مناصبهم. لقد تم إعدادهم جميعاً في الأكاديميات العسكرية في الولايات المتحدة، وظلوا جميعهم أعضاء محترمين في نخبة الغرب العسكرية.

أين تكمن أهمية تجربة الأرجنتين؟ يحللها الكاتب المعروف إدواردو غاليانو في كتابه المترجم إلى لغات العالم الأساسية كلها (ما عدا الروسية). الاستنتاج مرعب تحديداً في ضوء موضوعنا: لو سألنا الأرجنتينيين عام ١٩٧٤ إن كان هذا ممكن الحدوث في بلادهم لأجابوا ١٠٠% أن هذا غير

ممكن على الإطلاق. الأرجنتينيون هم أوربيون عملياً، وهم أساساً أبناء المهاجرين الإيطاليين والألمان في القرن العشرين. ضباطهم مؤهلون تأهيلاً أوروبياً معاصراً وراقياً. لم تحدث في البلاد حرب أهلية قبل ذلك، ولم يكن فيها تعصب ولا حقد متراكم. نفذت عمليات القتل بلا أي حماسة مثل ***تكنولوجيا اجتماعية***. وهذه التكنولوجيا هي تحديداً نتاج المجتمع الليبرالي المعاصر المصنًّع من قبل النخبة العسكرية والجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية.

بأي شكل تستطيع الإنتلجنسيا الروسية على خلفية هذا كله أن ترعى أساطير المركزية الأوربية وتقود الدعاية لها – إنه لغز العصر.

يبدو أن السبب يكمن في أن أساطير المركزية الأوربية تلقى العناية الشديدة من قبل الإيديولوجيين، وأي محاولة لجعلها مادة للنقاش تصطدم بمقاومة محكمة. إنها أهم حتى من أساطيرنا الوطنية من أجل القاعدة الفكرية لاقتصاد السوق. وهذا مفهوم، ففي الثقافات المستعمرة كلها تنفق الأموال الطائلة تحديداً من أجل تضليل التصورات عن الغرب. يشير سمير أمين قائلاً: «يثير نقد المركزية الأوربية أعنف مقاومة – فهنا ندخل مجال المحرمات. من يقدم على هذا النقد يرغب في إجبار الناس على الاستماع إلى ما حرِّم الاستماع له. حتى أن قبول الزعم بمركزية أوربية الإيديولوجية السائدة أصعب من التشكيك بمنظومة العلاقات الاقتصادية. إن نقد المركزية الأوربية في الواقع يضع تحت المساءلة وضع أغنياء هذا العالم».

في الختام ينبغي أن نورد تحفظاً وحيداً. اليوم، بعد الهزيمة في الحرب الباردة وبعد رؤية دمار بلادنا وقع القسم الأكبر من الإنتلجنسيا في حال إبداع أساطير موازية وشبيهة من حيث البنية بالحال البيريسترويكية. تبنى اليوم ***أسطورة*** الغرب ***السوداء***. إنها تدفئ روح الوطني لكنها تقلص فرصته في إدراك العمليات الجارية إدراكاً واقعياً واستيعابها. إن مثل هذه الأساطير لا

تقل فائدة للمتلاعبين، المهتمين بإبعاد الوعي العام عن جوهر التناقضات، عن أسطورة الغرب النيرة في الثمانينات. بيد أننا لن نناقش أسطورة الغرب السوداء هنا كي لا نجهد الوعي بنفي النفي. لكن سرعان ما سيكون مثل هذا النقاش ضرورياً.

القسم الثالث

التلاعب بالوعي والمؤسسات الاجتماعية

الفصل العاشر
الثقافة الجماهيرية ومؤسساتها

١- الحشد وبناؤه المصطنع.

كتب نيتشه: «حين يقف مائة شخص بعضهم قرب بعض يفقد كل منهم إدراكه ويحصل على إدراك ما آخر».

شكل ***الوعي الجماهيري*** منذ نهاية القرن التاسع عشر إحدى المشكلات الرئيسية في علم النفس والفلسفة وعلم الثقافة. كنا معزولين عن هذه المعرفة المتراكمة في هذا الحقل بسبب من علم الاجتماع، الذي انطلق من معيار ***الوعي الطبقي***. لكن هذين المعيارين لا يناقض أحدهما الآخر فالحديث يدور عن شيئين مختلفين. الطبقة هي جزء من المجتمع، وتكوين اجتماعي ذو بنية وموحد بمنظومة راسخة من المثل والمصالح ويشغل مكاناً محدداً في العملية التاريخية ويتمتع بثقافة وإيديولوجية متطورتين. الجمهور (وشكله الحدي المؤقت وغير المستقر – ***الحشد***) ليس جزءاً من المجتمع وإن كان يشكل الجماعات. لا توجد فيه بنية ولا منظومة ثقافية، ولديه عقل مغاير ونمط سلوك مختلف عن الطبقة.

يمكننا كذلك أن نفترض أن ظاهرة **الجمهور والحشد** لم تثر في الثقافتين الروسية والسوفييتية اهتماماً كبيراً، لأن هذه الإشكالية لم تكن حيوية. لم تتح المنظومة الفئوية المتماسكة في روسيا القديمة ظهور الحشود – كان قصور الصور النمطية والمقامات عظيماً إلى حد جعل معه الناس المتفرقين الملفوظين من المجتمع (المتسكعين والمتشردين ومن شابههم) يعيدون تكوين

بنى اجتماعية خاصة ذات حقوق وواجبات معينة. لم يكن المقيمون في ملجأ المبيت الليلي في مسرحية غوركي «في القاع» حشداً ولم يكونوا أفراد جمهور. انبعثت كذلك سريعا الفئوية في المجتمع السوفييتي لا بل، إن البنى تشكلت بقوة في المجتمع من خلال علاقات مغايرة، بحيث لم يكن ثمة حيز «*لتشكل الحشود*». راحت هذه المشكلة تظهر في أثناء الحضرنة السريعة في الستينيات، ما أدى إلى ظهور ***الإنسان الجماهيري*** والثقافة الجماهيرية، وصارت إحدى المقدمات لانهيار البناء السوفييتي المكتسح بالحشد المهيج اصطناعياً.

يعدد لوبون في كتابه الأساسي «علم نفس الجماهير» الخصوصيات التي لحظها في هذا التجمع البشري ذي العمر القصير. سنورد أطروحاته من فصل «روح الحشد».

في الحشد «تختفي الشخصية الواعية، مع العلم أن مشاعر وأفكار الوحدات المنفصلة التي تشكل الكل تتخذ المنحى ذاته. تتشكل روح المجموعة التي تمتلك، طبعاً، طابعاً مؤقتاً، لكنها تمتلك أيضاً ملامح محددة... الفرد المتواجد بعض الوقت وسط الحشد الفاعل ينتقل سريعاً، إما تحت تأثير التيارات المنبعثة من هذا الحشد أو لأسباب أخرى غير معروفة، إلى مثل هذه الحال التي تذكر كثيراً بحال الذات المنومة مغناطيسياً». الحشد هو منظومة جديدة نوعياً وليس خليطاً متكتلاً. «ليس فيه مجموع ولا متوسط للعناصر الداخلة في تكوينه، لكن فيه اتحاد لهذه العناصر وتكوين لصفات جديدة».

يكتسب الفرد في الحشد وعياً لقوة لا تقهر، وهذا الوعي يسمح له بالاستسلام لغرائز لم يكن ليهبها إرادته لو أنه وحده. يكون في الحشد أقل ميلاً لكبح هذه الغرائز لأن الحشد مجهول ولا تقع عليه أي مسؤولية. الشعور بالمسؤولية الذي يضبط دائماً الأفراد المنفصلين يختفي تماماً في الحشد».

يتصف الإنسان في الحشد بقابلية عالية للتأثر بالإيحاء: «أي شعور في الحشد وأي فعل يكون معدياً، وهو معد إلى حد أن الفرد يضحي بسهولة شديدة بمصالحه الشخصية لصالح الجماعة. غير أن مثل هذا السلوك مناقض للطبيعة البشرية ولذلك فالإنسان قادر على ممارسته فقط حين يشكل جزيئاً من الحشد... قبل أن يفقد أي استقلالية ينبغي أن يَحدث تغييرٌ في أفكاره ومشاعره، وأن يكون هذا التغير من العمق بحيث يستطيع أن يحول البخيل إلى مبذر، والمتشكك إلى مؤمن، والإنسان الشريف إلى مجرم، والجبان إلى بطل. قرار التخلي عن الامتيازات كلها الذي صوتت له الأرستقراطية تحت تأثير الحماسة ليلة ٤ آب المشهودة من عام ١٧٨٩ ما كان ليتخذ قط من أي من أعضائها منفرداً».

«لا يعرف الحشد إلا المشاعر البسيطة والمتطرفة: أي رأي أو فكرة أو معتقد يوحى به إلى الحشد إما يقبله أو يرفضه بكليته وينظر إليه إما بصفته حقائق مطلقة أو ضلالاً مطلقاً بالقدر نفسه. هكذا يحدث دائماً للمعتقدات التي أرسيت من خلال الإيحاء وليس من خلال النقاش... أياً كانت مشاعر الحشد، جيدة أم خرقاء، فإن ملامحها المميزة أحادية الجانب ومبالغ بها... قوة المشاعر في الحشد تزداد أكثر بغياب المسؤولية وخصوصاً في الحشد مختلِف المقاييس».

«لا يسعى الحشد إطلاقاً إلى الحقيقة؛ إنه يدبر عن الوضوح الذي لا يعجبه، ويفضل الإعجاب بالضلال إذا كان هذا الضلال يفتنه. من يستطع قيادة الحشد إلى الضلال يحكمه بسهولة؛ ومن يسع إلى دعوته إلى التعقل فإنه يصير ضحيته دائماً».

يفرد لوبون مكاناً كبيراً لقابلية الحشد للتبدل – أي مقدرته المدهشة على أن يستجيب فوراً «ودفعة واحدة» للنبض الذي يحصل عليه من قادته. هذا يدل على أن الإنسان في الحشد يتمتع فعلاً بنوعية جديدة هي أن يصير

عنصراً في المنظومة الجديدة. إنه لا يفكر بأفعاله، بل ينصاع برمشة عين للإشارة التي تصله بطريقة ما. يمكن تشبيه مثل هذا السلوك بالكيفية التي يستجيب لها نوعان من المجموعات - سرب الأسماك، ومجموعة سائقين جالسين في سياراتهم مثلاً. ما إن تصل الإشارة إلى سرب الأسماك عبر اهتزاز الماء حتى يستدير دفعة واحدة وفي الوقت نفسه. لا يوجد لدى كل فرد فيه رد فعل شرطي على الإشارة، وهو لا يتلكأ في معالجة المعلومة. يمكن نظرياً لمجموعة السيارات الواقفة عند إشارة المرور أن تنطلق دفعة واحدة وفي الوقت نفسه عند ظهور الضوء الأخضر - فالإشارة مرئية للجميع. لكن كل سائق يتصرف بحذر ويبدأ يتحرك فقط حين تنطلق السيارة الواقفة أمامه، لا بل مع شيء من إتاحة الوقت لعدم المقدرة على تحديد سلوك سائقها. وينتج أن المسافة بين السيارات تزداد، والسيارات التي في الخلف تنطلق بعد أن تغلق إشارة المرور. السائقون لا يكونون حشداً».

إذ يقدم لوبون وصفه للحشد فإنه لا يطرح السؤال لماذا لا يتحول أي تجمع للناس إلى حشد ولا يشدد على حقيقة أنه كتب تحديداً عن حشد ***الأفراد الغربيين***. لامس هذا الموضوع عرضاً فيما بعد أورتيغا- إي- غاسيت في كتاب «انتفاضة الجماهير». الفرد الميال إلى أن يكون إنسان جمهور وأن ينصهر في الحشد هو الإنسان المتربي في مدرسة من نوع معين، والمتمتع بنمط تفكير معين، والذي يعيش في مجتمع الثقافة الجماهيرية المدني المذرر. إنه الإنسان الذي يلقي عن كاهله بسهولة الشعور بالمسؤولية. يساعده في ذلك أيضاً السياسيون الذين يستخدمون «تشكيل الحشود» كتكنولوجيا سلوكية.

وصل الفاشيون إلى السلطة بعد أن استطاعوا أن يحولوا بعض الوقت الشعب الألماني العاقل إلى حشد - فاندفع في حملة عسكرية جنونية ناسياً الضمير وغير مفكر بالعواقب. أما ما يخص الشباب فقد دمرت الفاشية عمداً العلاقات التقليدية لديه. جرى نزع المعايير الطبيعية الثقافية لدى المراهقين،

وألغيت المحرمات وطاعة الكبار واحترامهم. وضع الإيديولوجيون الفاشيون نصب أعينهم مهمة بناء طراز خاص بحيث يشعر «الشباب بالملل في معسكر الشيوعيين». تم وضع فلسفة كاملة تحت عنوان «وما شأني»، أو نمط «المتسكعين والمتبجحين» - أي ببساطة الزعران. شجع المشرفون على الفاشيين الصغار على عنف الشوارع وحمل السكاكين والشبريات. حتى أن الفوهرر نفسه صرح: «نعم، نحن برابرة، ونريد أن نكون برابرة. هذا لقب شرف. سوف نجعل العالم شاباً». طبعاً شعار «ندرس وندرس وندرس» أكثر إثارة للملل بكثير.

يمكن أن يشكل تجمع جماعة المزارعين الحال المناقضة للحشد - أي تجمع الناس الشبيه به ظاهرياً، وخصوصاً إذا كان التجمع يتحضر من أجل القيام بأعمال عنف (تدمير ممتلكات إقطاعي مثلاً). يكمن الفارق في أن التجمع هو اجتماع ضمن منظومة مقامات واحترام ومكانة شكلت بنيتها على أعلى مستوى. إنه تحديداً الاجتماع الذي يلقي على عاتق كل فرد فيه ثقلاً هائلاً من المسؤولية. ها هو ت. شانين المؤرخ الإنكليزي للفلاحية الروسية يكتب عن أعمال العنف عام ١٩٠٧: «صارت أعمال الحرق الآن غالباً ما تتبع سيناريو خاصاً. تُتخذ القرارات بإشعالها في اجتماع الجماعة، ومن ثم يتم اختيار المنفذين بالقرعة من بين المشاركين في الاجتماع، بينما يقسِم الحاضرون الباقون على أن لا يشوا بالفاعلين... كانت أعمال الفلاحين مرتبة بدرجة ملحوظة حتى أنها لم تكن تشبه على الإطلاق الانغماس الجنوني في الحقد والتخريب، الذي كان يتوقع أن يراه أعداء الفلاحين وكذلك أولئك الذين مجدوا الجاكيريه(١) الفلاحية... تبين أن الاحتجاجات الفلاحية في روسيا

---

(١) jacquerie . لقب تحقيري كان الإقطاعيون يطلقونه على الفلاحين في فرنسا- والجاكيريه هو اسم انتفاضة الفلاحين ضد الإقطاع في فرنسا عام ١٣٥٨ في فترة حرب المائة عام (١٣٣٧- ١٤٥٣) (المترجم).

لم تكن شبيهة بصورة الجاكيريه الأوروبية التي تركها لنا جلادوها ومسجلو أحداثها».

يشير عالم الاجتماع الأمريكي البارز ر. ميرتون[1] في كتاب «النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية» (١٩٦٨) إلى القيمة الهامة «لحرية المنافسة» التي تولد مطامح لا يمكن أن تتحقق، وهذه المطامح هي ميل للسلوك الإجرامي (كانت المشاعة الفلاحية في روسيا، على العكس من ذلك، مؤسسة في داخلها قبل كل شيء على التضامن، وفي الوقت نفسه، لم يكن لدى الفلاحين المناضلين من أجل الأرض ضد الإقطاع أي مطامح لأن «يعيشوا مثل الإقطاعيين»). كتب ر. ميرتون: «إن إيديولوجية المساواة لدينا ترفض على نحو موارب وجود الأفراد المتنافسين والمجموعات المتنافسة في السباق من أجل النجاح المالي. بل على العكس، الجميع لديهم رموز نجاح متماثلة. لا ترتبط الأهداف بحدود طبقية وتستطيع أن تتخطاها. بينما يفرض النظام الاجتماعي تقييدات طبقية أمام تحقيقها. لهذا السبب تتحول الفضيلة الأمريكية الأساسية "الطموح" إلى العيب الأمريكي الرئيسي وهو "السلوك المنحرف"». الحشد، وخصوصاً الذي شرعنه لينتشي، يكاد يكون رمز أمريكا (والأرجح أن قيمته مبالغ فيها أضعافاً من قبل هوليود).

لحظ ر. ميرتون شروطاً مهمة أخرى تساعد على «تكوين الحشد». وهي تحويل العلاقات الاجتماعية إلى أساطير، ما يضع القناع على العلاقات السببية – النتيجية ويجعل التفكير وسواسياً (وهذا معناه، قابلاً للإيحاء): «يرى العامل حوله أناساً بلا عمل من ذوي الخبرة والمؤهلين. فإن كان لديه عمل

---

(١) **روبرت ميرتون** (١٩١٠) عالم اجتماع أمريكي، ممثل التحليل البنيوي الوظيفي. طرح فكرة ما يسمى نظريات المستوى الوسطي التي ينبغي ربطها بالدراسات التجريبية ونظرية علم الاجتماع العامة؛ وضع نظرية الشذوذ والسلوك والانحراف عن المعايير الاجتماعية. له مؤلفات في علم الاجتماع والاتصال الجماهيري والمعرفة والعلم. (**المترجم**).

فإنه يشعر بأنه "ناجح"، كلا- إنه ضحية "الفشل". العامل لا يرى تقريباً العلاقة المتبادلة بين الجدارة والمكافأة». يشير ر. ميرتون إلى صفة مهمة جداً من صفات الثقافة الجماهيرية في الولايات المتحدة، لا نعرف عنها إلا القليل: «الكراهية للعمل اليدوي هي بالتساوي تقريباً سمة من سمات الطبقات الاجتماعية كلها في المجتمع الأمريكي». يجب أن نتذكر هنا الفكرة التي كررها بإلحاح ك. لورينتس – العمل اليدوي تحديداً هو الذي يشكل الشرط المهم للحفاظ في الوعي والثقافة على التقاليد والمقدرة على الاحترام.

أخيراً، كوّن المجتمع البرجوازي صناعة كاملة للثقافة الجماهيرية. فهو بامتلاكه الإمكانات التكنولوجية الكبيرة يطرح في السوق سلعة مغرية جداً محتواها الإيديولوجي يحط على نحو موجه من قدر الإنسان ويجعل تفكيره طفولياً، ويرفع بشدة قابليته لتلقي الإيحاء. من الصعب أن نجد أفلاماً أكثر سذاجة من سلسلة ستيفن سبيلبيرغ «إنديانا جونز». عدا ذلك فهذه الأفلام تصير عنصرية إلى أقصى حد حين يكون البطل في الصين أو الهند – لا بل من المدهش كيف يستطيعون عرضها في المجتمع المعاصر. شاهدت هذه الأفلام في الخارج في حافلات النقل بين المدن ولم أكن أعرف بعد أن سبيلبيرغ المخرج الشهير راح يشتم في قرارة نفسه: تشتري شركات الحافلات البخيلة أرخص التفاهات لتعرضها. لذلك أصابني الذهول حين علمت أن فيلمين من هذه السلسلة يحافظان في الولايات المتحدة على الرقم القياسي في دخل شباك التذاكر في الأيام الستة الأولى من العرض: «إنديانا جونز في معبد الحساب الأخير» ٤٢،٣ مليون دولار، و«إنديانا جونز والحملة الصليبية الأخيرة» ٤٦،٩ مليون دولار. ومع أننا سمعنا عن سذاجة الأمريكيين، لكن ليس أمامنا سوى أن نرفع أيدينا يأساً.

يطرح لوبون فكرة هامة يبدو أنها سبقت زمانه، وأثارت على الأرجح العجب لدى معاصريه. لكن اليوم، مع تطور الإذاعة والتلفزيون صارت

حيوية جداً. جوهر الفكرة هو أنه من أجل تكوين الحشد ليس ضرورياً التماس الجسدي بين جزيئاته. كتب لوبون: «يمكن لآلاف الأفراد المنفصلين بعضهم عن بعض أن يقعوا في لحظات معروفة وفي وقت واحد تحت تأثير بعض الانفعالات القوية أو حدث وطني عظيم فيكتسبون على هذا النحو ملامح الحشد الملهَم... أحياناً يصير الشعب كله حشداً تحت تأثير ظواهر معينة، من غير أن يشكل اجتماعاً بالمعنى الخاص لهذه الكلمة».

هذا تحديداً ما نشاهده في العقود الأخيرة: سكان بلاد الغرب «المتطورة» المعرضة لتأثير التلفزيون والثقافة الجماهيرية المستمر يتحولون إلى حشد افتراضي هائل. وهو ليس في الساحات بل في الغرف الأنيسة أمام التلفزيونات، لكنه كله بلا بنية ويستمع إلى زعمائه وأنبيائه فقط من غير أن يدخل معهم في حوار. إنه يهرع كله ليدمر الباستيل أو ليعدم الصرب بغير وجه حق، وهو لا يفعل شيئاً سوى أنه يستحسن مثل هذه الأعمال التي تقوم سلطاته بها. حين تتحدث مع مواطن غربي عن الأعمال المدمرة التي يؤيدها يتملكه الرعب. هؤلاء الناس يستطيعون حقاً تدمير الأرض من غير أي نية سيئة، «من غير أن يفكروا» ببساطة.

كتب الفيلسوف العربي سمير أمين: «أحلت المركزية الأوربية محل التفسير العقلاني للتاريخ نظريات مزيفة جزئية بعضها يغطي بعضاً، وأحياناً يتناقض معه، لكنها بالمقابل تعمل على نحو رائع وبعضها يكمل بعضاً في بناء أسطورة تهدئ الأوربي وتحرر اللاوعي عنده من أي عقدة مسؤولية».

يتم الإيحاء بانعدام المسؤولية من خلال أدوات الإيديولوجية على أنه قيمة وطنية! ولإزالة أعراض الندم التي قد تظهر أحياناً يقدمون حتى على عمليات عسكرية من نمط العدوان العبثي على غرينادا (قمعت هناك فرقة من القوات الخاصة عددها ٦ آلاف شخص «مقاومة» بضع عشرات من عناصر

الشرطة ونالوا على ذلك ٨٠٠٠ وسام وميدالية في الولايات المتحدة)[١]. عام ١٩٧٧ صاغ الرئيس كارتر مبدأً ما عاد ينبغي، وفاقاً له، «على الأمريكيين أن يعتذروا أو يعانوا من تأنيب الضمير أو يلقوا الذنب على أنفسهم» ما داموا يتصرفون دائماً انطلاقاً من دوافع نبيلة.

هاكم الحادثة المزدوجة التي شكلت اختباراً مهماً للوعي الجماهيري في ثقافات مختلفة. عام ١٩٨١ دخلت طائرة الركاب الكورية الجنوبية KAL-007 المجال الجوي للاتحاد السوفييتي، وتعمقت فيه مسافة ٥٠٠ كم عابرة إياه من الشمال إلى الجنوب مستنفرة منظومة الدفاع الجوي كلها. أسقطت الطائرة في نهاية الأمر وبعد الكثير من التحذيرات. أثار ذلك في الاتحاد السوفييتي شعوراً ثقيلاً بغض النظر عن تقويم العمليات العسكرية. المأساة تظل مأساة. شكلت الحادثة في الغرب حجة لحملة طويلة (عشر سنوات) معادية للسوفييت[٢]. لكن الأمر الرئيسي في مكان آخر – عام ١٩٨٨ أطلقت السفينة الأمريكية «وينسينس» المتمركزة في الخليج العربي صاروخاً في وضح

---

(١) حقيقة مثيرة للفضول: ظهرت أعراض الندم الخطيرة على فيتنام (تقويم الحرب بصفتها غير عادلة وغير أخلاقية) بين «الناس البسطاء» فقط، بينما لم يكن لها أثر على الإطلاق بين النخب المتعلمة. رفضت النخبة أن تكون الحرب غير مؤثرة وغالية التكلفة وأنها أقد أساءت لوضع الولايات المتحدة بسبب من الخسائر بين الأفراد..

(٢) عام ١٩٩١ شاهدت في التلفزيون حين كنت في الغرب اجتماع منضدة مستديرة لخبراء في الطيران المدني مخصصاً لذكرى هذه الحادثة (عرض البرنامج لسبب ما في وقت متأخر من الليل). عرضوا في البداية فيلماً روائياً أمريكياً مع شرح أخرق وساذج للحادثة (الطيار «لم يسخن الكومبيوتر»). لم يقدم الخبراء حتى على مناقشته بسبب من تفاهته التامة، لكن ما أثار استغرابي هو أن الخبراء القادمين من دول عدة قد قدموا الشرح نفسه الذي قدمته الحكومة السوفييتية، لكنه لم يجد أي انعكاس له في الصحافة الغربية الحرة.

النهار وأسقطت طائرة إيرانية على متنها ٢٩٠ راكباً. كانت الطائرة قد أقلعت للتو ولم تكن قد عبرت بعد إلى المجال الجوي الدولي، ومازالت تطير فوق المياه الإقليمية الإيرانية.

حين عادت السفينة «وينسينس» إلى قاعدتها في كاليفورنيا استقبلها الحشد المهلل الهائل بالأعلام والبالونات، وراحت الفرقة النحاسية التابعة للأسطول العسكري البحري تعزف الألحان العسكرية على الشاطئ، أما على متن السفينة نفسها فصدحت الأغاني الحماسية من المكبرات المشغلة باستطاعتها القصوى. وأدت السفن الحربية الراسية على الرصيف التحية للأبطال بطلقات المدفعية.

حين أجرى نعوم تشومسكي تحليلاً بنيوياً للحادثتين أورد مقتطفاً من الصحف الأمريكية المركزية، التي ***أوحت*** حرفياً للأمريكيين بالشرح الذي يطهرهم تماماً من الإحساس بالمسؤولية تجاه حياة ٢٩٠ راكباً. لقد حققوا المستحيل. حين تقرأون هذه المقالات تبدأ رؤوسكم تدور. لقد أسقطوا الطائرة انطلاقاً من دوافع نبيلة، والركاب «لم يموتوا عبثاً» لأن إيران قد تراجع نفسها قليلاً...

بتنا في روسيا نرى في الأعوام العشرة الأخيرة ممارسات موجهة لتحويل الشعب إلى حشد - من خلال تغيير نوع المدرسة وإضعاف التقاليد والسخرية من أصحاب المكانة، ومن خلال تأثير الإعلام والتلفزيون والثقافة الجماهيرية، وتحفيز المطامح غير القابلة للتحقق والترويج لانعدام المسؤولية. إننا نرى الدلائل كلها على تلك الأساليب والتكنولوجيات المستخدمة في «تكوين الحشد» التي لفت الانتباه إليها الفلاسفة الذين درسوا هذه الظاهرة. ما زال الأمر يسير سيراً بطيئاً، لكن إن لم يع الناس الخطر فإن آليات الدفاع العفوية لن تستطيع العمل تحت مثل هذا الضغط.

٢- السماح بانعدام الأخلاق

قال يوهان هيويزينغا (١٨٧٢ -١٩٤٥) إن نظرية الدولة التي تتلاعب بالجماهير – من ماكيافيللي وهوبّز حتى منظري النازية – هي «جرح مفتوح في جسد ثقافتنا يدخل الدمار من خلاله». استقلال الدولة عن الأخلاق، كما يرى، هو الخطر الأعظم الذي يتهدد الحضارة الغربية.

لا أخلاقية السياسة! الاستعاضة عن الأخلاق العامة («الشمولية») بمراقبة القوانين المشرعة في البرلمان – هي عقيدة الديمقراطية على النمط الغربي. إن هذه الديمقراطية تُخرِج من السياسة مفهومَ الخطيئة، وفي الواقع، مفهوم *الضمير* («حرية الضمير») وتحل محله فقط مفهوم الحق. «***مسموحٌ كل ما لا يحرمه القانون***!». يؤكد هيويزينغا على أن مبدأ اللاأخلاقية عندئذ يكف عن أن يكون حكراً على الدولة، وتتبناه أيضاً المنظمات غير الحكومية والجماهير العريضة. التوق إلى العنف اللاأخلاقي لا يتقلص مع دمقرطة المجتمع.

بالمناسبة، لقد قدر هيويزينغا عالياً الماركسية لأنها رفعت عالياً من شان المبادئ العامة – التضامن، الروح الرفاقية، على الرغم من أن هيويزنغا ليبرالي ويعتقد أن المقاربة الطبقية قد ألحقت الضرر بالأخلاق. بيد أن الضرر الأكبر الذي لحق بالأخلاق برأيه كان من قبل الفرويدية التي أرجعت العمليات الروحية كلها إلى مستو يقع دون العقل، وحتى دون التفكير العقلاني.

اللاأخلاق من وجهة نظر موضوعنا «متموضعة» في ذلك الجزء من الثقافة حيث توضع القيم التي تقر بها الأخلاق العامة موضع الشك أو الرفض، وحيث تستبعد التقاليد ويتحرر التفكير من «قيوده» ليكون جاهزاً لتبرير أي فعل. فجوة اللاأخلاق، كالمرض في الجسم، تلعب على ما يبدو دوراً ضرورياً في التطور. وتخرج من بؤرة المرض العدوائي هذه أجنة الأفكار الجديدة مع القيح الاجتماعي. تشكل حقب كاملة من «الأخلاق

الموهنة»، كمثل البعث في أوروبا، المقدمة للتغييرات العميقة في المجتمع. كانت الكرنفالات في المجتمع التقليدي، مع أقنعة اللاأخلاق التي تحميها، تشكل عملية تجديد دوري و«وبعثاً صغيراً» لها. يؤكد م.م. باختين، وهو يشرح أهمية هذه اللاأخلاق الاحتفالية «الضَحكية»، على اختلافها عن لاأخلاق الزمن الجديد. كان الكرنفال يعني «انحطاط القيم» مع «إعادة إحيائها» تالياً في المرحلة النهائية منه. كانت القيم الأخلاقية حين تجتاز اختبار اللاأخلاقية الاحتفالية تبعث و«تتجدد». أما الهزل الأسود واللاأخلاقية في المجتمع البرجوازي الجديد فهما موجهان فقط إلى تدمير قيم المجتمع التقليدي من غير أي «إعادة إحياء». لقد أسقطت من خلال اللاأخلاق الرموز المقدسة والروابط الإنسانية العامة في «الأنظمة القديمة».

لقد «فتح» المجتمع المعاصر من خلال استبعاد مفهوم الخطيئة فجواتِ العيبِ محولاً إياه إلى ***بزنس*** مقبول أخلاقياً. هكذا، بالمناسبة، ظهرت الجريمة بصفتها ظاهرة اجتماعية (كانت الجريمة دائماً في المجتمع التقليدي عصياناً، وكانت دائماً اعتداء على السلطان وبالتالي على الله؛ يدرس م. فوكو هذا الفارق المهم في كتابه «الإشراف والعقاب»، ويدرسه س. كوبريك في فيلم «البرتقالة الميكانيكية»). صارت الدعارة جماهيرية وشرعية في المجتمع البرجوازي حتى ظهرت نقابات للمومسات وخصص لهن وقت في التلفزة. «تعمل» في مدن الولايات المتحدة ٣٠٠ ألف مومس صغيرة تتراوح أعمارهن بين ٩ سنوات و١٢ سنة. صارت سياحة الجنس أحد أهم أنواع السياحة من الغرب إلى دول آسيا الشرقية (ازداد عدد المومسات في بنوم بنه الصغيرة بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٢ فقط من ٦ آلاف إلى ٢٠ ألفاً). الدعاية السياحية في ألمانيا تدعو للذهاب إلى سيريلانكا «جنة اللوطيين».

الأمر ذاته حدث أمام أعيننا مباشرة مع تفشي المخدرات. تبنى سوقها اصطناعياً، ويشترك في إنتاجها وتوزيعها ملايين البشر. أضف إلى ذلك أنهم

يحضرون المجتمع لشرعنة هذا النوع من البزنس عبر وسائل الثقافة وباستخدام مكانة العلم. أقيم في تشرين الأول من عام ١٩٩٤ في إسبانيا المؤتمر الدولي الثاني لحالات الوعي المتبدلة جمع علماء من ٢٠ بلداً. دار الحديث عن المهلوسات (المخدرات المؤدية إلى الهلوسة). حمل القسم الأكبر من الآراء طابعاً إيديولوجياً خالصاً. وعد المحاور الرئيسي من الولايات المتحدة بأن ظهور المخدرات الجديدة سيكون الحدث الأكثر أهمية للتاريخ العالمي من إصلاح لوثر. جرى الحديث عن «حق الكائنات البشرية كلها باستخدام المهلوسات». وزيادة على ذلك تم التأكيد في المحاضرة الرئيسية في افتتاح المؤتمر على أن المسيحية غير قادرة على الحفاظ على دورها في الألفية القادمة إلا إذا قبلت تعاطي المهلوسات بصفته عنصراً مركزياً من عناصر الطقوس الدينية. قدِّم أيضاً تفسير جديد للمسيحية التي أسست في القرن الرابع «محاكم التفتيش الفارماكوقراطية» (العقاقيرية) مانعة استعمال المواد المخدرة. يمكن، طبعاً، عد مثل هذه المؤتمرات أحداثاً هامشية متطرفة، لكن مثل هذه الأحداث يجري بالجملة وتحظى بالتغطية الواسعة في الصحافة.

أدى الاتساع الحاد في الفجوة اللاأخلاقية، وانتشارها، في الحد الأقصى، في المجتمع كله إلى تليين النواة الثقافية وهو ما كان ضرورياً لتقويض هيمنة «المستبد» وإقامة هيمنة «المتلاعب» (وفاقاً لنظرية غرامشي). التلاعب بالإنسان ذي الأخلاق المقوضة سهل! تدمير الأخلاق التقليدية و«الثورة الجنسية» المستمرة هما شرطان مهمان لنزع الدروع النفسية ضد التلاعب بالوعي.

وكما هي الحال في ما يخص القيم عموماً فإن الأمر الرئيسي في نزع الدروع ضد التلاعب ليس استبدالاً لمنظومة قيم بمنظومة أخرى متكاملة بالدرجة نفسها، بل هو تدمير للمنظومة، وجعل القيم *نسبية*. إنه حرمان للإنسان من الموجهات الأخلاقية ومن منظومة الإحداثيات التي يستطيع فيها

أن يميز بين الخير والشر. إقحام الإنسان في جو اللاأخلاق يعطل منظومة الملاحة لديه، وهذا شبيه بتشغيل مولد التشويش الراديوي لحرف الطائرة عن مسارها (لذلك تحديداً يقولون «ديمقراطية الضجيج»).

لتكوين مثل هذا الوضع تُشغَّل عمليتان متبادلتان تنتقلان بعد ذلك إلى نظام العمل بالإنتاج الذاتي – يشجعون في المجتمع «الطلب على اللاأخلاق» ويحرفون على نحو مصطنع في الوقت نفسه نحو اللاأخلاق الصحافةَ، وخصوصاً التلفزيون، من خلال الوسائل الاقتصادية والسياسية. تظهر «صناعة اللاأخلاق» التي تخلق «الطلب» وتلبيه في الوقت نفسه. لا يمثل الاستهلاك الجماهيري للاأخلاق سوى مقطع خاص من مجتمع الاستهلاك. وقد رأينا ذلك بوضوح في الاتحاد السوفييتي وروسيا في الأعوام الخمسة عشر الأخيرة.

حدث «الإحلال» الشامل للإنسان المتوسط من الأخلاق في الغرب حين صارت هواية نطاق ضيق من الفنانين اللاأخلاقيين حرفة، وتحولت إلى جزء من ثقافة جماهير. الثقافة الفسيفسائية التي تحدثنا عنها في الفصل الرابع تترك بسهولة مكاناً للاأخلاق في «ثغراتها»، في الوقت الذي تجتث فيه الثقافة «الجامعية» المتماسكة ما يتعارض مع القيم وتلقي به في الأقبية، في المكان المغلق، في المكان المعارض للثقافة. ظهور الثقافة الفسيفسائية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصحافة وبالفئة الكاملة من رجال الفكر «التقدميين» الذين ولدتهم، والذين كانوا في حقيقة الأمر، وببساطة، موردين لسوق اللاأخلاق، وبرروها بحرية المعلومة وبالسعي إلى تحطيم قيود اضطهاد الأخلاق. كتب ف. نيتشه: «لا شيء يثير النفور الكبير ممن يسمون مثقفين متبعين "للأفكار العصرية" مثل انعدام الخجل لديهم ووقاحة النظر والأيدي التي يلمسون بها كل شيء ويلعقونه ويتحسسونه؛ وربما يكون الآن في الشعب، بين الفئات الدنيا،

وخصوصاً لدى الفلاحين، نبل وذوق ولباقة أكبر نسبياً بكثير من قارئ صحف الانحطاط الفكري، ومن الناس المتعلمين».

كان في مقدور الصحافة والأدب قبل مائة عام «إفقاد» قسم فقط من طبقة المجتمع المثقفة والجمهور القارئ أخلاقه. أما اليوم فأخذت التلفزة على عاتقها نقل سلعة صناعة اللاأخلاق إلى كل بيت. واضح، مثلاً، تأثير الإباحية على شاشة التلفزيون – يقارنون قوة تأثيرها بتأثير العرض المستمر لمشاهد العنف. إن التغيير الحاد في بنية «اللاأخلاق» وشدته يقللان على نحو مؤثر من استقرار الوعي خصوصاً. عادة يتم هذا التغيير في اللحظة الضرورية للقيام بالتأثيرات التلاعبية الكبرى (إشغال الانتباه العام، مثلاً، عن البرامج الاجتماعية غير الشعبية مثل الخصخصة أو تحويل الصناعة). يتأقلم المجتمع بسرعة كافية مع أنواع اللاأخلاق المعتادة (الإباحية، والدعارة الاستعراضية، وملء الصحف المحترمة بالدعاية الإباحية وما شابه ذلك) و«لا يلحظها» بحيث تنخفض فاعليتها. لكن قدرة مبدعي اللاأخلاق على الاكتشاف لا تنفد.

تمارس وسائل الإعلام بنشاط في العقدين الأخيرين الدعاية لنوع جديد من الفن هو فن البرفورمانس (*performance*) (التشخيص). وهو عرض مسرحي من غير سيناريو محكم، ويجمع بين الفن البصري والارتجال المسرحي. تعود جذوره إلى المذهب المستقبلي والدادائية، وأحياناً يسمونه الهيبينية، أو البودي آرت (فن الجسد)، أو الفن الخيالي (conceptual). إحدى أفكار هذا الفن الرئيسية هي تحديداً تدمير المعايير الأخلاقية والجمالية وإزالة المحرمات (التابويات) كافة. هاكم نبأن عن عرضين أقيما مؤخراً وأثارا اهتماماً كبيراً.

عرض بنجاح باهر منذ ثلاث سنوات في عدد من البلدان (المكسيك وإسبانيا وإيطاليا وسلوفينيا) برفورمانس «إيبيزو». سماه مؤلفوه «فرانكشتين

المعاصر»[1]. تلخص جوهر المسرحية في أن ممثلاً عارياً يوضع في «آلة تعذيب» على المسرح. وهذه الآلة مبرمجة بالحاسوب وفيها أجهزة هيدروليكية تستطيع أن تمط الفم والأنف والأذنين وغيرها من أجزاء جسم الفنان مسببة له الألم. ويستطيع المشاهدون التحكم بهذه الآلة فتجلب لهم سروراً كبيراً. عرضت هذه المسرحية، بالمناسبة، في إسبانيا في كنيسة القديس ستيبان الذي عذبه الرومان. أما في سلوفينيا فكان على المؤلف نفسه أن يعرض رؤوساً بشرية مرعبة مصنوعة من اللحم.

شتاء عام ١٩٩٩ في بيت أمريكا في مدريد قدم فنان من المكسيك بنجاح كبير برفورمانس «جيلاتين». حيث وُضعت على المنضدة قامة بشرية ضخمة وعارية وشبيهة جداً بالمؤلف نفسه، ومصنوعة من الجيليه (الهلام) الحلو، ومغموسة في قالب حلوى بالكريما شبيه بالتابوت. (نشرت الصحف حينذاك صوراً رائعة له). يقطِّع الفنان العاري تماماً (لكن المقنع) بمدية كبيرة جسده نفسه إلى أجزاء مختلفة بناء على طلب الضيوف ويقدمها لهم. أكل منها في البداية ممثلو النخبة الثقافية بغير رغبة (اشتكت إحدى السيدات: «مرأى مثل هذه الأشياء وحده يسبب الإسهال») لكنهم بعد ذلك راحوا يأكلونها بشهية كبيرة. وكما ذكرت الصحف فقد التهمت خطيبة الفنان عضوه التناسلي على نحو احتفالي. تبين أن المؤلف أراد من خلال هذه المسرحية أن يعبر عن «كانيبالية[2] المجتمع المعاصر».

إن اللاأخلاقية المبدئية لدى «السلطة الرابعة»- أي الصحافة، مرتبطة مباشرة بمسألة التلاعب بالوعي. لقد خطت نقابة العاملين في الصحافة في

---

(١) **فرانكشتاين** أو بروميثيوس المعاصر هو عنوان رواية الكاتبة الإنكليزية ماري شيللي (١٧٩٧- ١٨٥١) التي صدرت عام ١٨١٨ وعبرت فيها عن خيبة أملها من مُثُل التنوير. (**المترجم**).

(٢) cannibalism- أكلُ الحيوانِ لحم جنسه (**المترجم**).

الأعوام الأخيرة خطوة هائلة على طريق الاجتثاث التام للشعور بالخجل. صار انعدام الخجل بحد ذاته تكنولوجيا تُجرِّد الإنسان الطبيعي من سلاحه وتجعله أضعف أمام التلاعب. إننا نشهد اليوم انزلاقاً نوعياً- صارت نفسها عملية فضح حالات الكذب المباشر تقوي تأثير الصحافة.

كل عملية كذب أخرى تفضح مصحوبة بالتهكم على المشاهد والقارئ – من غير أي كلمة لوم توجه للكاذبين، هذا إذا لم نتحدث عن «محكمة الشرف» أو الاستقالات أو تأنيب الضمير. كان الحقد على العراق في أثناء حرب الخليج يؤجَّج بالمشاهِد التي تمزق الأرواح: المتطوعون من بين «الخضر» يغسلون بالصابون الطيور المسكينة التي سقطت في البقع النفطية التي أراقها العراقيون القساة. ثم سرعان ما نشر بعد ذلك خبر مفاده أن هذه اللقطات قد أخذت من تقرير صور في الألاسكا حيث اصطدمت ناقلة نفط بصخرة وأدت إلى تسرب ٧٠ ألف طن من النفط. أي تم التصريح بأعلى صوت بأن القنوات التلفزيونية الرائدة في العالم كله قد زورت المعلومات عمداً. فماذا حصل؟ ولا أي أثر. ولا أي جلسات استماع في البرلمانات، ولا أي إحالات إلى المحاكم، ولا أي قرارات في الأمم المتحدة. كان ذلك اختباراً آخر.

عام ١٩٩٨ عرض بنجاح في ١٤ دولة رائدة من دول العالم، ونال العديد من الجوائز (منها ٨ عالمية) الفيلم الوثائقي الإنكليزي «الالتحام» – عن صناع المخدرات في كولومبيا ومسار نقل الهيروين إلى لندن. كان عملاً رائعاً للصحفيين الشجعان. قادهم بارونات المخدرات إلى الوكر في الغابة معصوبي الأعين، وتحت فوهات البنادق. لكن هذا الوكر كان في الواقع مجهزاً في الفندق، وقد استؤجر للعب دور «البارون» المرعب متقاعد كان موظف مصرف سابقاً. إحدى أفضل اللقطات التي «تمكن» المصورون من التقاطها كانت مأخوذة من مشهد درامي حين يبتلع الموفد قبل انطلاقه إلى

المطار كبسولة فيها ٥٠٠ غ من الهيروين - كذب خالص. كان الفيلم الذي يفضح «الخطر على الحضارة» والذي صورته إحدى الشركات التلفزيونية الرائدة مزيفاً- من البداية حتى النهاية. لكن هل قلل ذلك من تأثير «السلطة الرابعة»؟ كلا، صار الخداع شرعياً، ولا يقوض ثقة المشاهد. حتى أن مؤلفي الفيلم لم يفكروا في إعادة الجوائز. راح ممثل الـــ بي. بي. سي، المتهمة بتزييف مماثل في سلاسلها «الوثائقية، لكن على نحو لا يقل إثارة للانطباع، يبرر هذا التزييف بأن المشاهد صار صعب الإرضاء جداً ويطلب مشاهد ذات نوعية عالية، وهو ما لا يمكن الحصول عليه في التصوير الحقيقي. لقد أزيلت مشكلة الحقيقة والكذب ذاتها من الثقافة. صاروا الآن يخبرون ببساطة الإنسان المتوسط من ينبغي عليه أن يعده «سيئاً». أما اللوحة التي تترافق معها الإشارة فهي شرطية.

يصف د. كاليدين في صحيفة «زافترا» (الغد) (العدد ٢٦- ١٩٩٩) قصة ظهور صورة «معسكر الموت الصربي» في الصحافة الغربية والتي عبرت العالم كله عام ١٩٩٢. هذه الصورة هي لقطة أطلقها عبر الأثير صحفيون إنكليز من شركة التلفزيون ITN (Independent Television Network) - أي الـــ ن. تي. في[١] التي لديهم). جعلت دقة المعلومات الصورة أشبه بالحقيقة: الوجه المنهك خلف الأسلاك الشائكة هو للمسلم البوسني فكرت عليتش الذي تحدث إلى الصحفيين ماداً يده من خلال السلك الشائك.

نوقشت هذه اللقطة التلفزيونية عام ١٩٩٢ في الكونغرس الأمريكي وصارت حجة شكلية ومبرراً للولايات المتحدة الأمريكية كي تتخذ موقفاً مكشوفاً معادياً للصرب في أثناء حرب البوسنة. نشرت في شباط عام ١٩٩٧ في إحدى الصحف اليسارية («الماركسية الحية») في إنكلترا مقالة أوجزت

---

(١) يلمح الكاتب لتلفزيون ن. تي. في. الروسي (**المترجم**).

فيها الظروف التي التقطت فيها هذه الصورة. الذي ظهر فيها هو ليس «معسكر موت» بل نقطة تجمّع للاجئين في مبنى إحدى المدارس. والسور المقام من الأسلاك الشائكة هو لفصل فناء المدرسة عن الطريق السريعة، وقد وضع قبل الحرب كي لا يركض الأطفال باتجاه الطريق.

صور الصحفيون «المعتقلين المسلمين» عبر الأسلاك – لكن كان في مقدورهم أن يتجاوزوها ويصوروا ببساطة كما يصورون من يرتاحون في الهواء الطلق (كان «المعتقلون» عراة حتى الخصر). كان الدخول إلى ما وراء السلك والخروج منه حراً، وقد بينت اللقطات الأخرى التي لم تبث عبر الأثير كيف راح «المعتقلون» يتسللون عبر السور أو يتجاوزونه. حصل موظفو مجلة «الماركسية الحية» على هذه اللقطات ونشروها على الإنترنت. اتهم مؤلف هذه المجلة الشركة التلفزيونية بالتلاعب، فادعت هذه الأخيرة على المجلة «بالافتراء».

فما الذي يكتسب الأهمية الخاصة لنا في هذه القصة؟ إنه يتلخص في أن الصحفيين التلفزيونيين والشركات التلفزيونية لا ترى على عاتقها أي ذنب مهني أو أخلاقي. نعم، إنهم هم من نشر هذه الصورة واللقطة التلفزيونية في العالم كله، والتي استخدمها بعد ذلك السياسيون لأغراضهم فصدق الساكن في الغرب بجمهوره تأويل السياسيين. لكن الصحفيين أنفسهم في تعليقاتهم على اللقطة استخدموا كلمتي «معسكر الموت» ولم يؤكدوا على أن الخروج من وراء السلك الشائك مستحيل. لذلك استدعيت مجلة «الماركسية الحية» إلى المحكمة بتهمة الافتراء.

هذا الابتعاد العضوي الصادق والتام عن مبادئ الحق والشرف فيما يتعلق بأولئك الذين قررت القيادات العليا الحاكمة معاقبتهم هو ظاهرة جديدة في الثقافة. إنه يعكس حالاً جديدة للإنتلجنسيا أخطر على الإنسان البسيط من وعظ المثقفين الثوريين الأخلاقي الشمولي. إنه ما بعد حداثة سياسية لسنا بعد مستعدين لها روحياً وفكرياً.

قصة لقطة الفيديو التي تصور «معسكر الموت» الصربي مهمة لنا بأن ما كان فيها من وجهة نظر الشركة التلفزيونية ليس كذباً مباشراً بل ***صمت*** فقط. هذا النوع من تشويه المعلومة يكشف أيضاً عن إمكانات للتلاعب أكبر من الكذب المباشر.

٣- الاستحواذ على الجمهور وإلحاقه.

تحدثنا لماماً عن أن إحدى أهم العمليات في أي برنامج للتلاعب بالوعي هي «الاستحواذ» على الجمهور- أي جذب اهتمام الهدف إلى ذلك الخبر الذي ينوي المتلاعب أن يرسله له، والمحافظة على اهتمامه به واكتساب ثقته، وإزالة دفاعاته النفسية. كتب الأخصائي الأمريكي المشهور في الحرب النفسية ر. كروسمين: «قبل أن تحاولوا إضعاف المعنويات بوقت طويل أو إلغاء القناعات أو تغييرها فإن المهمة التي ستكون الأولى أمامكم هي إجبار الآخرين على أن يصدقوكم[١]».

الخطوة الأولى- إقامة الصلة مع الجمهور، وبذلك بناء القناة التي يمكن للخبر من خلالها أن يعبر. تستخدم لهذا الغرض جملة من الخدع والطعوم المغرية. يَعْلَق النبأ بشيء ما جذاب بحيث تخضع فاعلية الطعم حتى للحساب الكمي (هذا واضح، مثلاً، من سعر زمن الدعاية التلفزيونية المقحمة في فيلم جماهيري أو في مسابقة رياضية مهمة). المرحلة الثانية هي ***الإلحاق***. هكذا يرمزون إلى الصلة التي تتجه إلى أن تدعم نفسها تلقائياً بفضل موقف الجمهور الإيجابي منها، ويعاد إنتاجها من غير أن يبذل المتلاعب جهوداً

---

(١) يعبر ر. كروسسمين بعد ذلك عن فكرة مهمة تشرح لماذا تضطر الصحافة والتلفزيون إلى انتقاد السلطة والنظام والحديث عن المصائب والهزائم. فهذا أسلوب قوي للاستحواذ على الجمهور. يكتب قائلاً: «تخلق الهزيمة من وجهة نظر الحرب النفسية إمكانات هائلة، خصوصاً إذا كنتم مهرة وقلتم إن الهزيمة أثقل مما هي في الواقع. عليكم أن تكونوا صريحين بهذا الشأن وأكثر صراحة من الحقائق نفسها».

خاصة كبيرة. يفرقون بين «الإلحاق وفاقاً...» و«الإلحاق بـ....». الأول هو الصلة التي يتم دعمها بفضل مؤشرات جامعة موضوعية ما (وفاقاً للغة والانتماء الإثني... الخ). أما مهمة المتلاعب الرئيسية فهي «الإلحاق بـ....» (بقيم أو شعارات أو أعمال ما).

القاعدة الأولى لتأمين نجاح الصلة هي الإعلان عن أن مرسل النبأ يشترك مع الجمهور بصفة جامعة (وفاقاً لمؤشر اجتماعي أو قومي أو ثقافي.. الخ). لذلك يتم وضع لغة مخاطبة كاملة: ***أيها الزملاء***، ***أيها الرجال***، ***أيها الأرثوذوكس***...الخ. وهكذا فإن أولى الخطوات من أجل إقامة الصلة هي المناشدة «إننا من دم واحد – أنت وأنا!»، ولذلك فإن المؤشر الأول على التلاعب هو المراوغة في طرح الموقف الخاص واستعمال كلمات واستعارات ضبابية. الكشف الواضح عن المثل والمصالح التي يدافع عنها «مرسل النبأ» يُشغِّل على الفور الدفاعات النفسية لدى أولئك الذين لا يشاطرونه الموقف، والأهم أنه يحرض على فكرة الحوار، والحوار يصعِّب كثيراً عملية التلاعب.

قال نابليون مرة في مجلس الدولة: «حين مَثَّلتُ ككاثوليكي استطعت أن أنهي الحرب الفانديانية؛ وحين مثلتُ كمسلم ثبت أقدامي في مصر، وحين مثلت كأولترامونتانت[١] [يسوعي] استملت إلى جانبي الآباء الإيطاليين. لو كنت أحتاج إلى حكم الشعب اليهودي لأعدت بناء هيكل سليمان».

الإلحاق الأكثر فاعلية للجمهور، الذي يصل إلى حد التبعية الخيالية لإرادة المتلاعب، يتحقق في تلك الحال التي يصل فيها الأخير وهو يعزف على «أوتار الروح» إلى أنموذجات اللاوعي الجماعي الأصلية ويحفزها. يقال إن التلاعب عندئذ يقع على «احتياطيات طاقة» الأنموذجات الأصلية

---

(١) من العبارة الإيطالية *papa ultramontano* «البابا من وراء الجبال» وهو تيار ديني وإيديولوجية في الكنيسة الكاثوليكية في روما تؤمن بالطاعة الصارمة من قبل الكنائس القومية الكاثوليكية لبابا روما وتدافع عن سلطته الدنيوية العليا على الدول الدنيوية. (**المترجم**).

المخبأة الهائلة فيكتسب بذلك قوة مجانية تبقى في الوقت نفسه مجهولة لأن الأنموذجات الأصلية مختبئة في اللاوعي تحديداً. وكما يقول ك. يونغ فإن الأنموذجات الأصلية تتجلى «على نحو آسر وفاتن». هذا معناه أنها عندئذ تعطل التفكير المنطقي والمعنى السليم وهذا خصوصاً ما يتجلى ببلاغة في تهييج الحشد أو في إشعال النزاعات الإثنية.

الأسلوب القديم المجرب منذ الثورة الفرنسية العظيمة في الاستحواذ على الجمهور هو عرض الأنباء الإيديولوجية على شكل «الثمرة المحرمة». عندئذ تحديداً يظهر «النشر الذاتي» - أي تحضير الأدب نصف الشرعي واللاشرعي ونشره. ازدهرت هذه الصناعة في الستينيات كأداة في الحرب النفسية (شاركت إدارة المخابرات المركزية مع حلول عام ١٩٧٥ بطرق شتى في إصدار أكثر من ١٥٠٠ كتاب باللغة الروسية لمؤلفين روس وسوفييت). حينذاك سرت في الاتحاد السوفييتي طرفة تقول: إن عجوزاً كانت تطبع على الآلة الكاتبة رواية «الحرب والسلم» لتولستوي، فسألوها: هل جننت؟ قالت: «لا، لكنني أريد أن تقرأ حفيدتي هذه الرواية وهي لا تقرأ إلا ما يطبع على الآلة الكاتبة». مع أنه يقال إن بعضهم لا يقرأون حتى الكتب المحرمة.

نشر منذ وقت قريب ميلوسلاف بيتروسيك عميد كلية العلوم السياسية في جامعة كارلوفا ورئيس جمعية علماء الاجتماع التشيك دراسة ممتعة عن المنشورات الذاتية في تشيكوسلوفاكيا. أظن لو أن منتجات النشر الذاتي في الاتحاد السوفييتي خضعت لمثل هذه الدراسة لكانت النتائج متشابهة.

صدر بين عامي ١٩٦٩ و١٩٨٩ في تشيكوسولفاكيا من خلال النشر الذاتي أكثر من ٨٠ مجلة (بعدد نسخ وسطي ١٣٢ نسخة)، وطبعت عدة مئات من المؤلفات الأدبية. اشتغل في الإصدار والتوزيع ٥% من عدد السكان. كان ثمة اتفاق غير معلن مع السلطات. طالب «النظام الشمولي» فقط بالالتزام ببعض الشروط الشكلية مثل أن يكتب على ورقة العنوان: نسخت من أجل

الأصدقاء ٧ نسخ. فاتسلاف هافل». وبذلك لم يعد هافل مسؤولاً عن نسخ المجلة.

شكل النشر الذاتي دعاية سياسية للناس انجلى انعكاسها عام ١٩٨٩- رجالات الفكر المنخرطون في عملية النشر الذاتي احتلوا على الفور المناصب الحكومية المهمة. لقد كان النشر الذاتي مدرسة لانتقاء الكوادر وتحضيرها. وفي أثناء وجود غورباتشوف على رأس السلطة، حين بدأت البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي، صارت تصدر مجلة «صورة الصديق» ذاتية النشر وفيها مواد من الصحافة السوفييتية. كان الغرب منذ البداية يقدم الدعم المالي للنشر الذاتي، لكن ذلك تم إخفاؤه.

فما هي الأحكام التي غرسها في الوعي هؤلاء المؤلفون – المخربون؟ يصفها م. بيتروسيك على النحو التالي: «لقد حطم النشر الذاتي الأساطير عن العظمة والبسالة القومية، مثل الأساطير عن أبعاد المقاومة ضد الفاشية أو الأساطير عن الطابع القومي التشيكي. لقد مس النشر الذاتي أيضاً المواضيع الحساسة (تهجير الألمان) والمسائل الجدلية الحادة (قانونية نشوء الدولة التشيكوسلوفاكية المستقلة ومبرراته التاريخية)». عموماً، لقد قوض أسس الوعي الذاتي القومي.

ما هي القيمة الثقافية التي كانت للمنشورات؟ يكتب بيتروسيك: « كان من المفترض في الأشهر الأولى بعد عام ١٩٨٩ أن تصدر عملياً عن دور النشر الحكومية مؤلفات النشر الذاتي الاجتماعية كلها... ثمة اتفاقات مع دور النشر، لكن الكتب لم تصدر، لأن أثراً واقعياً في جزءٍ وظرفياً في الجزء الآخر من ردة فعل سلبية تجاه النشر الذاتي قد ظهر: لقد طفت على السطح حقيقة مبتذلة هي أن كل ما ينشر عبر النشر الذاتي ليس له قيمة طويلة الأمد هذا إذا لم نتحدث عن جاذبيتها في نظر القارئ». وفي الأدب الخفيف belles

letters أيضاً «تفعل فعلها القوانين المذكورة أعلاه، فقد بين إصدار قسم من كتب النشر الذاتي غياب اهتمام القارئ بها».

بكلمات أخرى، لم يتم في برنامج «النشر الذاتي» الوصول إلى الاستحواذ على الجمهور وإلحاقه من خلال قيمة المادة العالية نفسها، بل من خلال طعم مجهز اصطناعياً هو حظر النص، بحيث يتوجه الناشرون والموزعون إلى الصور النمطية غير الالتزامية والإنشقاقية في الوعي.

كانت محطات الإذاعة الغربية التي وجهت برامجها إلى الاتحاد السوفييتي من أجل الدعاية «البيضاء» (أي باسمها هي) تؤكد دائماً على وجود تطابقات لديها في وجهات النظر مع الجمهور السوفييتي، وكان التشهير بالقيم المتجذرة في وعي الجمهور السوفييتي يزداد في جرعات قليلة كي لا تفقد الصلة به. إضافة إلى ذلك كانت الدعاية المعادية للسوفييت، كقاعدة، تعتمد على المطالب الاجتماعية الحقيقية لدى المستمعين من موقع القيم السائدة في الوعي الاجتماعي – العدالة الاجتماعية ومثل المساواة...الخ. هكذا تماماً بدأ غورباتشوف من شعار «اشتراكية أكثر!» و«العودة إلى لينين».

صارت الدعاية الغربية ابتداء من السبعينيات تستخدم على نطاق واسع الصورة (Image) ***الموحية بالثقة***، التي يتوجه بها السياسي إلى المواطنين على المستوى الشخصي، وكأنه «الشاب الطيب» بالعيوب والسلبيات المغفورة وببساطة الروح نفسها التي لدى المستمع أو المشاهد. ظهر جنس أدبي خاص هو «السيرة الذاتية» وظهرت أفلام صنعت فيها هذه الصورة (شاهدناها في التسعينيات حتى التخمة، مثل فيلم إ. ريزانوف عن إيانا إيوسيفنا وهي تقلي الكستليتا في المطبخ بانتظار قدوم زوجها الرئيس من عمله).

ارتكزت هذه التكنولوجيا في «إلحاق» المشاهد على سلسلة من الاختبارات النفسية والاجتماعية. ففي إنكلترا في أثناء الحملة الانتخابية عرض على ثلاث مجموعات من الناخبين ثلاثة برامج تلفزيونية مختلفة.

أوجز في أحدها برنامج المرشح على نحو منطقي وعقلاني مع وفرة في الرسوم والمخططات البيانية، والمنافع التي يجب أن يجلبها للسكان. قدم في الفيلم الآخر لقاء مع المارة الذين يؤيدون المرشح المعني وبرنامجه. وفي الثالث عرضوا فيلماً تلفزيونيا يصور المرشح في جو أسري منتعلاً خفه المنزلي ويساعد زوجته في المطبخ، أما حفيدته فتحضر دروسها... الخ. بينت قياسات فاعلية تأثير كل برنامج تلفزيوني أن الدرجة الأكبر من الثقة تجاه المرشح ظهرت نتيجة تأثير البرنامج الثالث. كانت الصورة الشخصانية هي الأكثر فاعلية في إرساء علاقة الإعجاب والثقة.

الإلحاق من خلال بناء الصورة الموحية بالثقة مع إرساء العلاقات القريبة من الشخصانية يمكن أن يستند إلى الأنماط الأصلية التي يخيل أنه من غير المناسب إيقاظها في الوضع السياسي المحدد. بنيت في السبعينيات في الولايات المتحدة تكنولوجيا باسم «البريد المباشر». يكمن جوهرها في جمع المعلومات عن الجمهور المعني ومعالجتها بالحاسوب، ومن ثم يرسل السياسي رسائل شخصية لكل فرد. استخدم من أجل المرسل إليهم المنتمين إلى وضع اجتماعي جيد نوع خاص من الورق، وأنماط طباعية خاصة، وحتى نمط خاص من الحبر من أجل التوقيع (أزرق لزاماً، لكن بتباينات مختلفة)، أما من أجل المرسل إليه العامي فأنماط الاستهلاك الواسع. ما الذي يدعو إليه السياسيون؟ ما الطعم الذي يجبر على استحسان المحتوى الإيديولوجي في الرسالة؟ ويا للغرابة، فالطعم كان طلب المساعدة المالية.

تم عند وضع هذه التكنولوجيا الوصول إلى الكثير من المكتشفات. فقد وجد علماء النفس، مثلاً، أن مجموع نقود المساهمة كان يزداد إذا طلب السياسي في رسالته مبلغاً محدداً بحيث يسير من المبلغ الأعلى إلى الأدنى، وليس العكس (يطلب إرسال ٥٠٠ دولار أو ٢٥٠ أو ١٠٠ أو حتى ٥٠ دولاراً). الرسالة المؤلفة من صفحتين تحدث أثراً أكبر من المؤلفة من صفحة واحدة. أما إرسال الرسائل فيجب أن يتم بعد التقدم بالترشيح فوراً، وإلا فإن

الأثر سيتلاشى بعد ذلك. عام ١٩٨٤، وفي اليوم نفسه الذي أعلن فيه ريغان ترشحه إلى منصب الرئاسة أرسل مكتبه ٦٠٠ ألف رسالة إلكترونية، فكان مجموع المساهمات التي حصل عليها ٣ ملايين دولار. يجلب الإنفاق الوسطي على البريد المباشر البالغ ٢٠٠ الف دولار ما قدره مليوني دولار من المساهمات، لكن الأمر الرئيسي ليس في النقود بل في النجاح الدعائي الهائل. الهبة تلين قلب الناخب الأمريكي أكثر بكثير من حصوله على نقود ما. «تلحق» الرسائل الممهورة بتوقيع السياسي الخاص الجمهور به بفاعلية وإن كان الكثيرون يشكون في تقليده.

يُقْدِمُ تقنيو التلاعب في أثناء بحثهم عن أساليب جديدة لإلحاق الجمهور على إنجاز اكتشافات نفسية، فينطلقون نحو تركيبات فريدة ومغامرة. تبدو الدراسات الأخيرة لإنتاج هوليود الإيديولوجي مثيرة للاهتمام. ففي سلسلة أفلام رامبو، مثلاً، أقدم مؤلفوها على خطوة غير متوقعة إطلاقاً: لقد وضعوا *الثقافة المضادة*، التي هي في الواقع معادية بشدة للروح المحافظة، في خدمة السياسة المحافظة. رامبو هو متحرر ذو جديلة شعر طويلة، ويناقض الدولة البيروقراطية. حملت الخصال الجذابة لدى التيارات التمردية في طياتها إيديولوجية يمينية متطرفة، فتم الوصول إلى الأثر المطلوب. أجري هذا التحليل على مثال أفلام رامبو، لكن الغرب أنتج مثل هذا الفيلم بالآلاف – وملأ بها العالم، والآن روسيا (جابهته روسيا بفيلم «القنفذ في الضباب»).

بما إن الإلحاق بالمتلاعب يتم من خلال صلة كافية طويلة الأمد فإن الأسلوب البسيط في إعادة بناء الدفاعات النفسية ضد التلاعب هو قطع الصلة الواعي والعشوائي بمنبع المعلومة الذي نشك في تلاعبه. يكفي مثلاً من وقت إلى آخر الكف عن مشاهدة التلفزيون أسبوعاً أو أسبوعين حتى يحصل «إصلاح» في الوعي. بعد ذلك تكتسب العين حدة بصر غير عادية، ويلحظ المرء بسهولة مدة من الزمن كيف «تمط» برامج التلاعب الآذان، وكيف يفقد التلفزيون سحره بعض الوقت.

الفصل الحادي عشر

المؤسسات الاجتماعية

١- المدرسة – إنتاج إنسان الجمهور

تشكيل المجتمع، الذي يعد التلاعب بالوعي الأداة الرئيسية للهيمنة فيه، مرتبط إلى حد كبير بنوع *المدرسة*.

حدثت على أثر الثورات البرجوازية العظمى ثورات في «تكنولوجيا» بناء المجتمع، وتحتل إعادة تكوين المدرسة مكاناً خاصاً بينها. المدرسة هي إحدى أكبر المؤسسات الاجتماعية المحافظة والمستقرة. إنها «قالب الثقافة الجيني». ويتم وفاقاً لهذا القالب إعادة إنتاج الأجيال اللاحقة. لذلك فإن بناء الإنسان بمواصفات جديدة يسهل معها التلاعب بوعيه يفترض لزاماً إعادة بناء الأسس المبدئية للتعليم المدرسي.

وضعت المدرسة ما قبل البرجوازية المستندة إلى التقاليد المسيحية، والخارجة من الدير والجامعة، نصب عينها مهمة «*تربية الشخصية*» – أي الشخصية المتجهة إلى الله (والأوسع – إلى المُثُل). أما المجتمع الجديد فيحتاج إلى *إنسان الجمهور* القابل للتلاعب به، والمتكون في الثقافة الفسيفسائية. بم تختلف المدرسة «الجامعية» الناشئة من اللاهوت عن مدرسة «الثقافة الفسيفسائية»؟ تختلف بأنها تسعى في كل مستوى من مستوياتها إلى تقديم جرد كامل لمبادئ الوجود. تبدو هنا واضحة صلة الجامعة بالمدرسة القديمة التي عبرت عنها بقوة خصوصية الغيمنازيا[1] الكلاسيكية. يدور منذ زمن الجدل

---

(١) الغيمنازيا هو اسم كان يطلق على المدرسة في روسيا القيصرية، وهي بمستوى المدرسة الثانوية لدينا (*المترجم*).

حول هذا النمط من المدارس الموجه نحو الفروع العلمية التأسيسية والمعارف الإنسانية واللغات. اضطررنا إلى سماع الكثير من التوبيخ بحق المدرسة السوفييتية التي بنيت على نمط الغيمنازيا- لأنها تقدم «معرفة غير نافعة في الحياة الواقعية». هذه التوبيخات هي جزء من الحملة العالمية الشاملة الموجهة نحو تقليص عدد الأطفال المتربين في حضن «الثقافة الجامعية».

هذه التوبيخات في الواقع هي ديماغوجية خالصة. ليست مهمة المدرسة، طبعاً، تقديم المهارات والمعلومة للإنسان ليحل مسائل عملية خاصة، بل تكمن في «هدايته إلى الطريق». ولم يكف العلماء والفلاسفة الذين شغلتهم قابلية الغرب على الحياة عن التذكير بذلك.

كتب نيتشه: «ليس لدى المدرسة وظيفة أهم من تعليم التفكير الصارم والحذر في المحاكمات والترابط في الاستنتاجات». إنسان الجمهور، كقاعدة، لا يفهم ذلك، فأضاف نيتشه: «قلَّ ما يرون أهمية الغيمنازيا في الأشياء التي يدرسونها هناك فعلاً والتي يخرجون بها من هناك إلى الأبد، بل في تلك الأشياء التي تدرس لكن التلميذ يستوعبها بنفور فقط كي ينفضها عن كاهله ما إن يصير ذلك ممكناً».

تابع ف. هايزنبرغ[1] هذه الفكرة بعد نصف قرن: «التعليم هو ما يبقى حين ننسى كل ما تعلمناه، التعليم، إن شئتم، هو ذلك الإشعاع الساطع الذي يلف أعوام الدراسة في ذاكرتنا وينير حياتنا اللاحقة كلها. إن هذا ليس فقط بريق الشباب الذي يسم طبعاً ذلك الزمان، بل هو النور المنبعث من المواظبة على شيء ما عظيم». فأين رأى هايزنبرغ دور المدرسة الكلاسيكية؟ رآه في أنها تنقل الخصوصية المميزة للفكرة القديمة- أي «المقدرة على تحويل أي مشكلة إلى مشكلة مبدئية». أي السعي إلى ترتيب فسيفساء التجربة.

---

(١) **فرنر هايزنبرغ** (١٩٠١-١٩٧٦) فيزيائي ألماني وأحد مؤسسي ميكانيك الكم. حائز على جائزة نوبل عام ١٩٣٢ (**المترجم**).

كتب هايزنبرغ: «من يدرس فلسفة الإغريق يصطدم في كل خطوة بهذه المقدرة على طرح الأسئلة المبدئية، وبالتالي، حين يقرأ الإغريقيين، فإنه يتمرن على حسن استخدام أحد أقوى الأسلحة الفكرية التي أنتجها الفكر الغربي الأوربي».

احتاج المجتمع البرجوازي الجديد إلى المدرسة من أجل «تصنيع الذوات» التي كان عليها أن تملأ المعامل والمكاتب بقوى عاملة معدومة الشخصية. لقد حل في هذه المدرسة العلم محل الله، وغرس في عقل التلميذ، وحتى في جسده، تصور جديد يحتاج إليه المعمل عن الزمان والمكان – المقسمين إلى أجزاء صغيرة ودقيقة وقابلة للتحكم بها.

قُسِّم جمهور التلاميذ أنفسهم إلى مثل هذه الجزيئات القابلة للتحكم بها – من خلال تكوين المدرسة كله ومنظومة التقويمات والمكافآت ومن خلال المنافسة المشجع عليها. لم تقدم المدرسة «المصنعة للذوات» للإنسان منظومة معرفة كاملة تعلمه أن يفكر بحرية واستقلال. كان ينبغي أن يخرج من المدرسة «مواطن وعامل ومستهلك حسن التنظيم». ولتنفيذ هذه الوظائف تم انتقاء احتياطي المعرفة الذي يوزع الناس مسبقاً «على الرفوف». بذلك انفصلت هذه المدرسة عن الجامعة، التي يكمن جوهرها تحديداً في كلية منظومة المعرفة. ظهرت «الثقافة الفسيفسائية» (مقابل «الجامعية»). وظهر حاملها– «إنسان الجمهور» المتخم بالمعلومات اللازمة لتنفيذ عمليات متحكم بها. الإنسان الراضي عن نفسه، الذي يعد نفسه متعلماً، لكن المتعلم تحديداً كي يكون برغياً – أي «اختصاصياً».

كتب الفيلسوف الإسباني أورتيغا إي غاسيت: «يشكل الاختصاصي في نظرنا مثالاً ساطعاً ومحدداً عن "الإنسان الجديد" ويسمح لنا بأن نتمعن في راديكالية المستجد فيه... لا يمكن تسميته متعلماً لأنه جاهل تماماً بكل ما لا يدخل في اختصاصه؛ وهو أيضاً جاهل لأنه مع ذلك "رجل علم" ويعرف

معرفة كاملة ركنه الضئيل من المعمورة. كان علينا أن نسميه "عالم الجهل"، وهذا كلام جدي تماماً، إنه يعني أنه سيسلك في المسائل كلها المجهولة له لا كإنسان غير مطلع على الأمر، بل كصاحب المكانة والاعتداد اللذين يتسم بهما العارف والاختصاصي... يكفي أن ننظر كيف يتصرف اليوم على نحو أخرق في المسائل الحياتية كلها – في السياسة والفن والدين – "رجال العلم" لدينا، ومن ورائهم الأطباء والمهندسون والاقتصاديون والمدرسون... يا للضحالة والحمق اللذين يفكرون بهما ويحاكمون ويتصرفون! عدم الاعتراف بأصحاب المكانة ورفض الانصياع لأي كان – سمتا إنسان الجمهور الأنموذجيان – يصلان إلى الذروة تحديداً لدى هؤلاء الناس المؤهلين تأهيلاً كافياً. إن هؤلاء الناس يرمزون تحديداً إلى هيمنة الجمهور المعاصرة ويحققونها إلى حد كبير، أما بربريتهم فهي السبب غير المباشر في انحلال الأخلاق في أوربا».

لكن سيكون من الخطأ لو قلنا إن المجتمع البرجوازي كله قد تشكل من الثقافة الفسيفسائية. تفترض الهيمنة من خلال التلاعب بالوعي وجود جزء من المجتمع غير خاضع للتلاعب أو خاضع له بدرجة قليلة. لذلك فإن المدرسة البرجوازية هي منظومة معقدة. لقد بنيت هنا من أجل تحضير النخبة، التي عليها أن تدير جمهور الأفراد المجزئين، مدرسة غير كبيرة بأبعادها مرتكزة على مبادئ مختلفة تماماً. يقدم فيها تعليم «جامعي» تأسيسي متكامل، وتربى فيها شخصيات قوية تحترم ذاتها ومنصهرة بروح جماعية. نشأت بذلك منظومة مدرسية مزدوجة ومنقسمة اجتماعياً، توجه تيار الأطفال إلى دهليزين (دخول قسم من أطفال العمال دهليز النخبة لا يغير في الأمر شيئاً). إنها «*مدرسة المجتمع الرأسمالي*» الظاهرة الجديدة في الحضارة.

فُصِّل جوهرها وطريقة تنظيمها ومبادئ وضع مخططاتها وبرامجها التعليمية تفصيلاً جيداً في كتاب عالمي اجتماع التعليم الفرنسيين ك. بودلو

ور. إيستابل. وبعد صدوره الأول عام ١٩٧١ أعيد طبعه ٢٠ مرة تقريباً. قُدِّم في الكتاب تحليل للمدرسة الفرنسية، وعدد كبير من الإحصاءات ومقتطفات ملفتة من البرامج والكتب المدرسية والتعليمات الوزارية وآراء المربين والتلاميذ. لكن ما ينتج عن هذه المواد هو استنتاجات عامة عن أساليب التعليم عموماً، وعن أي نمط إنساني يتم «تصنيعه» بمساعدة هذه التكنولوجيا التدريسية أو تلك (الحديث يدور طبعاً عن القوانين الإحصائية وليس عن الشخصيات).

تعالوا نستعرض مع أقصر التعليقات النتائج الرئيسية التي خلص إليها العالمان الفرنسيان - على الأقل كنوع من الاستيعاب الأولي لكتابهما الهام. نشير على الفور إلى الاعتراض المحتمل: فالكتاب نشر عام ١٩٧١، وقد حدثت بعد ذلك تغييرات جوهرية في المنظومة الاجتماعية للرأسمالية المعاصرة، وتغيرت المدرسة أيضاً. اتسعت مكونات البروليتاريا وبنيتها الوظيفية، وأطيلت فترة تهيئة القوى العاملة. لكن، برأي المدرسين الغربيين أنفسهم الذين قدر لي أن أتحدث معهم، لم يحدث تغيير في جوهر المدرسة أو تبدل في «نمطها الجيني» الاجتماعي والثقافي (لذلك يعاد طبع الكتاب دورياً ويعد حيوياً في الغرب اليوم أيضاً).

تبدو لنا اليوم استنتاجات عالمي الاجتماع الفرنسيين قريبة ومفهومة خصوصاً لأن جهوداً كبيرة تبذل في روسيا لتغيير المدرسة السوفييتية إلى مدرسة من نوع «مدرسة المجتمع الرأسمالي». إننا نرى أي بنى روحية وفكرية واجتماعية يضطرون إلى تحطيمها، وأي صعوبات تنشأ عن ذلك. ولذلك فإن مقارنة نهاية الستينيات تسمح بالحديث عن المدرستين الرأسمالية والسوفييتية كمنظومتين متكونتين على أحكام مبدئية محددة تماماً. سيدور الحديث عنهما وليس عن الأفضليات أو العيوب الجزئية.

أسطورة المدرسة الموحدة ودرجات الهرم المدرسي الموحد. بنيت المدرسة التي كانت نتاجاً للثورة الفرنسية العظمى تحت شعار الحرية

والمساواة والإخاء. فسر اليعاقبة ذلك على الفور بأن الكلام يدور عن المساواة في الحقوق القانونية وليس عن الإمكانات الواقعية. لكن كانت قد نشأت أسطورة المدرسة الواحدة وتمت المحافظة عليها بعناية بصفتها آلية اجتماعية تساوي، ولو مدة من الوقت، بين إمكانات الأطفال - وليكن القرار بعد ذلك لسوق القوى العاملة. إن الانحراف في الواقع عن هذه الصورة الأسطورية ليس سهواً وليس من مخلفات الماضي، بل جوهر المدرسة الرأسمالية الملازم لها. فلنقرأ عالمي الاجتماع الفرنسيين:

«المدرسة موحدة ومستمرة فقط لأولئك الذين يمرون بها منذ البداية حتى النهاية: أي لقسم من السكان المتحدرين أساساً من البرجوازية والبرجوازية الصغيرة المثقفة. المدرسة الموحدة ثلاثية الدرجات هي مدرسة للبرجوازية. أما فيما يخص الأغلبية الساحقة المشمولة بالتعليم فالمدرسة ليست كذلك.

إضافة إلى ذلك فإن لا وجود لمدرسة موحدة لأولئك الذين «يغادرون» بعد المدرسة الابتدائية (أو «التعليم المهني القصير»): توجد لهم مدارس متنوعة بلا أي رابط بينها. لا وجود «للدرجات» (ولذلك لا وجود للاستمرارية)، بل توجد انقطاعات جذرية في الاستمرارية. لا وجود حتى للمدارس عموماً، بل ثمة شبكات تعليم مدرسي مختلفة غير مترابطة فيما بينها... المدرسة الابتدائية و«التعليم المهني القصير» لا «يصبان» بأي شكل من الأشكال مثل النهر في المدرسة المتوسطة والعليا، بل يقودان إلى سوق القوى العاملة (وكذلك إلى عالم البطالة وفقدان الأهلية). وحدة المدرسة واستمراريتها من وجهة نظر الأسطورة هما طريق منقطعة. لكنها ليست منقطعة بأي حال من الأحوال من وجهة نظر سوق القوى العاملة...

ينقسم السكان المشمولون بالمدرسة بدقة إلى جمهورين غير متساويين، يتجهان إلى نوعين مختلفين من التعليم: التعليم الطويل المخصص للأقلية، والتعليم القصير أو المختصر المخصص للغالبية. تقسيم التلاميذ هذا إلى

نوعين هو الصفة التأسيسية للمنظومة المدرسية الرأسمالية: لقد أشار إليها تاريخ المنظومة المدرسية الفرنسية ومنظومات البلدان الرأسمالية الأخرى».

فكرة المدرسة الموحدة تتلخص في وجود «جسم عام للشعب» أطفاله متساوون منذ البداية كأطفال القبيلة الواحدة. وهم أيضاً يتربون في المدرسة الموحدة كمتكلمين بلغة ثقافة واحدة. تظهر المدرسة «المزدوجة» من التصور عن المجتمع المزدوج- المتحضر (المجتمع المدني أو «جمهورية المالكين») وغير المتحضر (البروليتاريا). ثمة بين قسمي هذا المجتمع علاقة، ليست ببساطة عداء طبقياً، بل علاقة عنصرية – إنها كعلاقة بين قبيلتين مختلفتين.

يشير المؤلفان إلى حقيقة «لا يطيق الإيديولوجيون»، كما يكتبان، الاعتراف بها: «يحدث التقسيم حتماً في المدرسة الابتدائية تحديداً. المدرسة الابتدائية ليست فقط مؤسسة "غير موحِّدة"، بل وظيفتها الرئيسية تكمن في التقسيم. إنها مخصصة لكي تفصل يومياً جمهور التلاميذ إلى قسمين مختلفين أحدهما متعارض مع الآخر. المدرسة الابتدائية هي في الواقع ليست المدرسة نفسها للجميع، وهذا ما يمكن التأكد منه من خلال دراسة كيف يقوم محتوى التعليم الابتدائي بالتمييز». يفسر المؤلفان الوضع السيئ المذهل وغير المفهوم للوهلة الأولى للإحصاء المدرسي في الغرب بضرورة إخفاء هذا الأمر تحديداً، بحيث يضطر عالم الاجتماع إلى إنجاز عمل صعب لإعادة ترتيب البنية الواقعية من معطيات متشابكة بطريقة غريبة.

يشير المؤلفان بعد ذلك إلى الأساليب التي يتم من خلالها تقسيم جمهور التلاميذ[١]. آلية التقسيم الاجتماعي الأولى هي *العمر*. ٦٣% من أطفال العمال

---

(١) بالمناسبة، تفضح المعطيات الدقيقة على الفور أسطورة المستوى التعليمي العالي للإنسان الغربي الأنموذجي. فوفاقاً لإحصاء عام ١٩٦٨ ٨٦،٦ % من الفرنسيين بعمر ١٥ سنة وما فوق لديهم شهادة تعليم ابتدائي، و٣٧،٥% ليس لديهم أي شهادة تعليمية، و٦% حاصلون على تعليم متوسط فما فوق. الوضع بين الشباب أفضل طبعاً: بين المنتقين بعمر ١٨ سنة ٦٦،٦% فقط حاصلون على مستوى المدرسة الابتدائية أو أقل.

و٧٣% من أطفال العمال الزراعيين (مقابل ٢٣% من أطفال «الأسر الجيدة») يتأخرون عاماً أو أكثر عن العمر «الطبيعي» اللازم للانتقال إلى الدرجة المدرسية الثانية. يتفاقم هذا الوضع مع مقدرة ثلث أطفال العمال فقط على الدراسة بدرجة «ممتاز» أو «جيد» مقابل ٦٢% من أطفال البرجوازيين. يخيل أن لا أهمية لأن يتأخر المرء في الطفولة عاماً أو عامين، فهو يستطيع التعويض لاحقاً. اجتاز جمهور هائل من الناس في الاتحاد السوفييتي المدارس المسائية والكليات في المعامل، وكونوا قسماً مهماً من أفضل الكوادر. لكن لا، فالعمر في المدرسة الغربية يستخدم كمعيار من أجل التمييز: يرسل الطفل إلى دهليز المدرسة الثاني لأنه «كبير جداً على متابعة المدرسة في صفه»(١).

يكتب المؤلفان: «تنظيم المدرسة وفاقاً للصفوف مع الاتباع الصارم للأعمار هو تاريخياً حقيقة غير قديمة، وغير معروفة قبل تطور الرأسمالية. هذا ليس سوى آلية اجتماعية خاصة ينبع معناها من النتيجة وليس من التبريرات البيولوجية الكاذبة والنفسية الكاذبة والعلمية الكاذبة التي تترافق معه. إنها خصوصية المدرسة البرجوازية المطورة اجتماعياً من أجل الحصول على الأثر المشار إليه».

والأثر هو توزيع الأطفال بين المدرسة المتوسطة الكاملة والمدرسة المهنية التي لا تقدم التعليم المتوسط. وهذا التقسيم متناظر على نحو مذهل: نسبة أولئك الذين يقعون في الدهليزين الأول والثاني بين أطفال العمال هي ١ إلى ٤،١، أما بين أطفال البرجوازيين فهي ٣،٩ إلى ١. ويوزع أطفال «الصف المتوسط» بين «الدهليزين» بالتساوي تماماً، ١ إلى ١. من المهم

---

(١) كان المدرسون وأفضل التلاميذ في المدرسة الابتدائية في الاتحاد السوفييتي يبذلون جهوداً كبيرة لمساعدة «المتأخرين» وخصوصاً المتقدمين في العمر على اللحاق بالصف. لم يكن المدرس أو المدرسة بصفتهما منظومة ينصاعان لإغراء «تجاهلهم». وكان الكثيرون منهم مع نهاية المدرسة الابتدائية يتكاملون مع صفهم ويجتازون الدورة كاملة بما في ذلك التعليم العالي.

التأكيد على أن المؤلفين يشيران إلى عدم وجود أي «شبكة ثالثة»، وما يسمى المدرسة المتوسطة التقنية ينقسم في الحقيقة إلى القسمين ذاتهما المتمثلين في المدرسة المتوسطة الكاملة والمدرسة المهنية غير الكاملة.

منظومتان: نمطان للممارسة المدرسية. «دهليزا» المدرسة في المجتمع البرجوازي ليسا حقيقة مخفية عن العين بل هما واضحان. يكتب المؤلفان: «الفوارق جلية للعين. يتجلى التقسيم إلى شبكتين في كل خطوة، إنه مرئي حتى في توزع الأبنية وديكوراتها هذا إذا لم نتحدث عن نظام الحياة في المؤسسة».

صفوف المدرسة «العملية نصف المتوسطة متباعدة مكانياً عن الصفوف الباقية: تقام في أبنية ملحقة، وفي أبنية مستقلة، في نهاية الدهليز وفي طبقة منفصلة؛ تخضع هذه الصفوف مع تلاميذها ومدرسيها في أغلب الأحوال للنفي من جانب الإدارة ومدرسي الصفوف "الطبيعية" وتلاميذها. بينما يقود الصفوف "الطبيعية" مدرسون بمعدل مدرس لكل مادة، أما هنا فيقود مرب وحيد صفاً كاملاً، ويؤمن كما في المدرسة الابتدائية تدريس المواد كلها بما فيها حصة الرياضة. تلاميذ الصفوف "الطبيعية" ينتقلون من غرفة إلى غرفة وفاقاً للمادة، أما تلاميذ المدرسة "العملية نصف المتوسطة" فيجلسون كما في المدرسة الابتدائية في الصف نفسه... لتلاميذها ومدرسيها فناء مستقل من أجل الاستراحات بين الدروس، ويتناولون الطعام في غرف مستقلة، وحين تكون غير متوافرة، يتناولونه في فترة فاصلة مستقلة تنظم من أجلهم»[١].

---

(١) يبحث عالما الاجتماع الفرنسيان في فصل مستقل عدم انصياع التلاميذ وسورات العنف الدائمة في المدارس في الغرب والمشاجرات المترافقة مع تخريب الممتلكات. ووفاقا لاستنتاجهما فإن هذا صراع طبقي عفوي يخوضه أطفال يرون في المدرسة أداة قمع لهم بصفتهم أطفال طبقة مستغَلة. أما أنموذجات الأنتروبولوجيين اللاحقة، الذين يصورون العلاقات الطبقية على أنها علاقات بين المستعمرين والأمم التابعة المعادية، فتسمح برؤية عصيان غير منظم في احتجاجات التلاميذ العفوية هذه ضد الاضطهاد القومي.

وهاكم، من وجهة نظري، الملحوظة الأهم: «تلاميذ هذه الصفوف لا يملكون كتباً، بل دفاتر فقط. إنهم لا يدرسون هنا الرياضيات أو الأدب، بل الحساب فقط والإملاء والمعجم... انعدام الكتب، أداة التعليم المدرسي الأولية، ليس مصادفة. يعترفون في منظومة المدرسة المتوسطة الكاملة بعبادة حقيقية للكتاب: تتم معرفة الواقع هنا من خلال الكتب، مع كل ما يرافقها من انحرافات مرتبطة بالتجريدية ومحتومة في ظل هذه الممارسة. لا يوجد شيء في المدرسة المتوسطة الكاملة يمكن عده مغرقاً في التجريد. وعلى العكس من ذلك تتصرف المدرسة "غير الكاملة" عن الكتب والتفكير التجريدي من أجل "دراسة الأشياء"».

يبدو من هذا واضحاً الانتقال من الثقافة الجامعية إلى الفسيفسائية، الذي تحدثنا عنه في البداية. لكنه يتجلى أكثر أيضاً في المواد العلمية. يتابع المؤلفان الفرنسيان:

«في الوقت الذي يعرضون فيه العلوم الطبيعية في "المدرسة المتوسطة الكاملة" على نحو منهجي وتجريدي طبقاً للتصنيف العلمي للعالم الغازي والنباتي والحي واضعين كل موضوع في الحفرة الموافقة له، فإن العلوم الطبيعية في شبكة المدرسة "العملية غير الكاملة" تعرض من خلال المراقبة التجريبية للوسط المحيط المباشر. حتى أن المنهجية هنا تعد مقاربة غير مرغوب فيها وخطرة. وكما جاء في تعليمات الوزارة "على المدرس أن يسعى إلى تشتيت انتباه الدارسين عن المراقبة المنهجية. يفضل، عوضاً عن المنهج السكوني المشظى في دراسة "الطبيعة المجزأة إلى شرائح من الفروع المعرفية"، المنهج الارتقائي في دراسة الكائن الحي أو الوسط الطبيعي في تبدلهما المستمر"... هذا التدريس المحدد تحديداً كاذباً، إذ يلفق الموضوع، يسمح بإزالة الحواجز التي تفصل بين فروع المعرفة في المدرسة "المتوسطة الكاملة". بذلك يضفى على التعليم هيئة التوحد التي تلعب دوراً سلبياً جداً. درسوا في أحد صفوف المدرسة "العملية نصف المتوسطة" الحصان شهراً

كاملاً: بيولوجيته ومراقبته في الطبيعة مع زيارة الإسطبلات، وفي درس النحت والرسم، وتغنوا به في درس الإملاء والتعبير».

إن هذا «التحديد الذي يقرِّب من الحياة» كما يقال، هو في الواقع وهمي. وتنتقى مواضيع الدراسة على هذا النحو من أجل تعميق الهوة التي تفصل المدرسة عن الحياة الاجتماعية وحياة العمل الحقيقية. تعداد المسائل والحالات التي ينصحون بها من أجل الدراسة يتحدث عن المعارضة المتعمدة بين المدرسة والممارسة: الحصان وعمل الحرفي، وبناء أنموذج الطائرة أو السفينة الشراعية. لا يقدم هذا التعليم أي إعداد للحياة الواقعية، حارماً في الوقت نفسه من المعارف التأسيسية "التجريدية" التي تسمح تحديداً باستيعاب الأوضاع الحياتية المعينة[1]».

من وجهة نظر مناهج التدريس في مدرسة «الدهليز الثاني» (من أجل العامة) تسود «تربية الكسل واستباحة كل شيء»، أما في مدرسة النخبة فتسود تربية ما يحفز الجهود الفكرية والروحية. بينت استطلاعات رأي المدرسين ومدراء المنظومة المدرسية أن المهمة الرئيسية برأيهم أمام المدرسة «العملية نصف المتوسطة» هي «إشغال» المراهقين على نحو اقتصادي «وممتع للتلاميذ» لأنهم «ليسوا كالآخرين» الذين في الصفوف الطبيعية. حتى أن علماء الاجتماع يخلصون إلى نتيجة أن «الأسلوب النشط»

---

(١) موضوع العمل نفسه محرم في البرامج التدريسية – وكأن العمل غير موجود، ولا يجوز الحديث عنه. إذا ظهر موضوع «العامل» فإن الكلام يدور على البستاني وبائع الخبز الطيب وفي أسوأ الأحوال على الجزائري المهاجر علي المجتهد الذي منحه «رب العمل» مكاناً جيداً. لقد جرى تحويل العمل إلى خرافة وتقوم المدرسة بالعمل الأول في تغريب الإنسان عن واقع العمل (كما يفعل الفن في أحوال أخرى أيضاً – من الصعب تذكر بطلة فيلم أمريكي تعمل حلابة في مزرعة أو بطل يعمل في ورشة). العمل في نظر الصبيان والفتيات في «الكوليدج» الغربية هو أن تكون مصمماً أو مراسلاً أو مصرفياً. هذا أيضاً ما نراه اليوم في «الكوليدج» الروسية وفي مدارسنا الخاصة.

المتبع هنا في التدريس يشجع على الفوضى، والصراخ، والتعبير غير المنضبط من قبل التلاميذ عن الانفعالات و«الاهتمامات»- أي تلقيح المراهقين بصورة سلوك نمطية تجعل من المستحيل تكييفهم (حتى لو حاول أحدهم ذلك) مع منظومة المدرسة المتوسطة الكاملة، التي تعلم زملاءهم الانضباط الصارم وتركيز الانتباه.

على هذا النحو فإن المدرسة «العملية نصف المتوسطة» ليست في أي حال من الأحوال الشكل «السيئ» للمدرسة المتوسطة الكاملة وكأنها درجتها «الأدنى» التي يمكن اجتيازها إلى المدرسة الطبيعية المتوسطة ببذل مزيد من الجهد. بل على العكس، تصوغ المدرسة «العملية نصف المتوسطة» المراهقَ بنشاط بصفته شخصية لا تتوافق من حيث المبدأ مع مدرسة النخبة. الانتقال إلى هذا الدهليز لا يعني ببساطة جهداً، بل مرحلة التدمير الذاتي للشخصية المتكونة- أي تدمير أيضاً لمنظومة المعرفة المستوعبة ومنهج المعرفة وصورة السلوك النمطية.

عندئذ تفعل المدرسة فعلها بغض النظر عن إرادة المدراء والمدرسين والتلاميذ الخيرة أو الشريرة. يتحدث عن هذا الأمر، إضافة إلى الكتاب الذي لخصناه هنا، الكثير من النتاجات الفنية العميقة والأفلام (لنتذكر على الأقل «إلى الأعلى على السلم المفضي إلى الأسفل»). لقد تكسرت جملة من الجهود البطولية لمدرسين إنسانيين على جدران هذه المنظومة. وليس نادراً أن نرى في الأفلام عن المدرسة تراجيديا لم يقصد المؤلفون عرضها قط وهم منشغلون بفكرة أخرى[1].

---

(١) هاكم الفيلم الأمريكي «رانديل» بممثليه الرائعين. يعين مدرس غير ملتزم كعقوبة له مديراً لكوليدج أنموذجي من منظومة المدرسة «العملية نصف المتوسطة» في إحدى الضواحي المنكوبة بالبطالة والجريمة. يحاول أن يجبر التلاميذ على الدراسة كما لو أن هذه المدرسة طبيعية «من الدهليز الأول» على الرغم من أن المدرسين والتلاميذ يشرحون له عبثية محاولته. لكنه بطل أمريكي أنموذجي، فيسير نحو المواجهة ويترك وراءه كومة من جثث تلاميذه! هذا من غبر أن نتحدث عن المدرسات المشوهات.

مدرسة «الدهليز الثاني» بصفتها ثقافة خاصة. المدرسة هي الآلية التي تحفظ الإرث الثقافي للمجتمع المعني وتنقله من جيل إلى جيل. وهي في الوقت نفسه آلية إيديولوجية «لتصنيع الذوات». يبين المؤلفان أن مدرسة «الدهليز الثاني» بنيت منذ ظهور المدرسة «المزدوجة» في المجتمع البرجوازي على أنها منتج خاص من منتجات الثقافة. تم ذلك عن قصد وعلى نحو موجه ومن قبل أشخاص مختصين وعلى أعلى المستويات، ولم يبخلوا بالأموال: فبعد الثورة «وزعت الجمهورية ملايين الكتب على أجيال عدة من المدرسين والتلاميذ. صارت هذه الكتب عصب منظومة التعليم الجديدة».

يؤكد المؤلفان على جهود الدولة من أجل وضع الكتب المدرسية المخصصة للمدرسة الابتدائية بين عامي ١٨٧٥ و١٨٨٥. «تم تجهيز هذه الكتب بعناية خاصة فيما يتعلق بالإيديولوجية من قبل فريق من العلماء المتألقين والشبان نسبياً والمتحمسين كلياً للإصلاح الرأسمالي. اختير نصاب المؤلفين النخبويين على النطاق الوطني ولم يستطع أن يقف ضدهم لا المربون ولا العلماء المتفرقون ولا رجال الدين. صار في مقدور المعرفة في المدرسة الابتدائية أن تتدفق منذ الآن من خلال السوربون وإيكول نورمال فقط... جعل الوضوح والإيجاز والفاعلية في العمل التربوي من هذه الكتب مثالاً للنمط التعليمي».

يبدو من مقارنة نصوص ***المؤلف نفسه*** المكتوبة ***في الموضوع نفسه***، لكن الموجهة إلى فريقين من التلاميذ، كم الفارق عميق بين نوعي المدرسة. أوردت في الكتاب مقتطفات من تاريخ فرنسا للافيس عن حكم لودفيغ الرابع عشر في شكلين. كان ذلك مذهلاً ببساطة. الشكل الأول هو وصف جدلي غني المحتوى يجبر على التفكير. الآخر قالب بدائي بمحتوٍ أخلاقي رخيص يتناقض في الكثير من المزاعم مع الشكل الأول. لا يمكن ببساطة تصديق أن من كتب الشكلين هو الكاتب نفسه.

بحث علماء الاجتماع مفصلاً في محتوى تعليم الأدب (اللغة والأدب الفرنسيين) في «الدهليزين». يدرس أطفال البرجوازية الأدب المستند إلى الأنموذج «اللاتيني»- أي أنهم يحصلون على تعليم ***كلاسيكي***. هذا التعليم ليس ببساطة عدم استمرار للهجاء والقواعد في المدرسة الابتدائية بل يعني انقطاعاً تاماً عن هذه المدرسة ويصورها على أنها «تعليم بلا استمرارية»، وأنها نتاج فرعي ثقافي خاص. تُكَامِل الثقافة «اللاتينية» تلاميذ المدرسة المتوسطة الكاملة كطبقة سائدة وتقدم لهم لغة عامة واحتياطياً هائلاً من الصور والاستعارات والقوالب الأخلاقية والأساليب الخطابية.

«يسمح امتلاك إرث لغوي معين للنخبة الثقافية بأن تنتج أسلوب تعبير مستند إلى المراجع والاستعارات والتلميحات المورفولوجية والنحوية، وإلى مخزون كامل من الأشكال الخطابية وهذا ما يحتاج إلى مبادئ أولية في اللاتينية واللغات الأجنبية. إن هذا لا يقدم منافع سطحية للنخبوية المترفة فقط. تحتاج الطبقة المهيمنة إلى هذا البنيان الأدبي لتمتين وحدتها الإيديولوجية، ومن أجل أن يعرف أفرادها بعضهم بعضاً، ولكي تتميز عن الطبقات الخاضعة لها وتؤكد هيمنتها عليها. أن تكون برجوازياً يعني أن تعرف راسين ومالارمه».

ماذا يتعلمون في المدرسة المتوسطة الكاملة؟ مؤلفات الكتاب الفرنسيين العظماء التي يسلط الضوء فيها على مشكلات الإنسان الدائمة، وحيث تعصف الأهواء والصراعات النفسية والاجتماعية ومآسي الحياة وتناقضاتها. يكتب التلاميذ وفاقاً لهذه التحف مواضيع الإنشاء (الأطروحات) التي يتم تقويمها وفاقاً لعمق فكرة الشاب وشاعرية إدراكه الذاتي ومقدرته على التفكير الجدلي. ***وهنا لا يعيرون انتباهاً إلى الأخطاء في القواعد.***

فما الذي يدرسه زملاؤهم في المدرسة «غير الكاملة»؟ يبدو الأدب نفسه والكتَّاب أنفسهم لكن فقط تلك المقتطفات التي توصف فيها مشاهد

الطبيعة الريفية، ويختفي الإنسان منها باستثناء العجوز النمطية أو الرحالة الجالس ليرتاح أو البطل الشاعري المجرد من الشخصية. هذه المقتطفات مليئة بالاستعارات الشاعرية ولغتها متكلفة وقاموسها منقطع تماماً عن اللغة العادية (مليء بالتباين مع لغة المؤلفات التي تدرس في المدرسة «المتوسطة الكاملة»). يكتب التلاميذ وفاقاً لهذه المقتطفات الإملاء والمواضيع. ويتم تقويمهم وفاقاً لدقة نقل النص وعدد الأخطاء – وتصير اللغة نفسها مصيدة وتضمن النتائج السيئة الشاملة.

على ماذا يحصلون من ذلك؟ يستنتج المؤلفان النتيجة التالية: «إن شبكة المدرسة المتوسطة الكاملة تصنع من كل فرد، بغض النظر عن المكان الذي سيشغله في تقسيم العمل الاجتماعي (قائد شرطة، أو مدرس في الجامعة أو مهندس أو مدير... الخ)، معبِّراً نشطاً عن الإيديولوجية البرجوازية. وعلى العكس، تدفع المدرسة "العملية غير الكاملة" إلى تكوين البروليتاريا الخاضعة خضوعاً سلبياً للإيديولوجية المهيمنة... إنها تحضرهم لوضع اجتماعي معين: أناساً عديمي المسؤولية وغير فاعلين وغير مسيسين.

في الوقت الذي يتعرض فيه البروليتاريون المستقبليون لتأثيرٍ إيديولوجي شامل وصارم، فإن البرجوازيين المستقبليين من شبكة المدرسة المتوسطة الكاملة يكتسبون، بغض النظر عن صغر سنهم، مهارة استخدام كل أدوات هيمنة الإيديولوجية البرجوازية. لا يوجد لدى هؤلاء الأطفال، حكام المستقبل، أي أسئلة أو مشاكل مفرطة في التجريدية أو غير لائقة جداً لا يمكن دراستها (طبعاً مع مصفاة الإنسانية الجامعية)».

خطا النظام السوفييتي خطوة هائلة- لقد انقطع عن المدرسة الرأسمالية بصفتها «معملاً للذوات» وعاد إلى المدرسة ما قبل الصناعية بصفتها «تربية للشخصية»، لكن من غير أن يكون الدين هو أساس التعليم، بل العلم. لقد أعلن مبدأ المدرسة التعليمية العامة الواحدة. طبعاً، المسافة بين إعلان المبدأ

وتحقيقه الكامل بعيدة. لكن المهم إلى أين تسير. مدرسة «الذوات» حتى لو كانت مزودة على نحو رائع بالأموال والمساعدات لن تكون سوى معمل أكثر فاعلية، لكن للسلعة ذاتها. أما في الاتحاد السوفييتي فحتى المدرسة القروية الفقيرة مرشحة لأن تكون جامعة ومربية للروح – لنتذكر فيلم «دروس الفرنسية» من رواية فالنتين راسبوتين.

إحدى مهمات الإصلاح بعد عام ١٩٨٩ في روسيا كانت تحويل المدرسة السوفييتية الواحدة إلى مدرسة «الدهليزين».

٢- العلم بصفته أداة تلاعب بالوعي

نشأ المجتمع الغربي المعاصر بصفته كلاً واحداً، وأحد الأعمدة التي استند إليها كان نمط المعرفة والتعلم والتفكير الجديد – أي ***العلم***. يمكننا كذلك أن نقول إن العلم كان أحد أقانيم هذا المجتمع لأنه «ملأ» ثغراته كلها. لكن المهم لموضوعنا هو جانب واحد من القضية: لقد حل العلم محل الكنيسة، كمقام سام يشرعن البناء السياسي والنظام الاجتماعي ويجعله مقدساً. صار العلم بذلك أداة هيمنة، والهيمنة في هذا النوع من المجتمعات، كما قلنا سابقاً، يستند إلى التلاعب بالوعي. فبأي طريقة استخدمت السلطة العلم وما زالت تستخدمه لتحقيق هذه الأهداف؟

العلم والإيديولوجية. نشأت ***الإيديولوجية*** مع العلم سوية، «كشقيقة» له، وكنتاج من نتاجات المجتمع البرجوازي. وسرعان ما صارت تتطفل على العلم. يشير أحد فلاسفة العلم البارزين إلى أن «غالبية الإيديولوجيات المعاصرة، بغض النظر عن نشأتها، تؤكد على أنها ترتكز إلى العلم أو أنها حتى تشكل قاعدته نفسها. لذلك فهي تسعى إلى تأمين شرعية لنفسها من خلال "العلم". شغل العلم المكانة التي كانت تعود من قبل إلى الإلهام الإلهي أو العقل». لنتذكر كلمات فيلسوف الثورة العلمية بيكون: «***المعرفة قوة***»، إحدى مركِّبات هذه القوة هو نفوذ أولئك الذين يمتلكون المعرفة. يتمتع العلماء بمثل

هذه القوة مثل الكهنة في مصر القديمة. السلطة التي تجتذب إليها هذه القوة تكتسب وسيلة مهمة من وسائل الهيمنة. يشير ك. ياسبيرس[١] قائلاً: «إذا كانت المعلومات الوافية قد قدمت للناس الحرية في البداية فإنها تحولت اليوم إلى هيمنة عليهم».

تسعى أي إيديولوجية إلى شرح النظام السياسي والاجتماعي الذي تدافع عنه وإلى تبريره من خلال اللجوء إلى القوانين الطبيعية. «***هكذا بني العالم***» و«***هكذا هي طبيعة الإنسان***»- هذه هي الحجج النهائية التي تؤثر تأثيراً أكيداً في الجمهور العادي. لذلك يبني الإيديولوجيون بعناية أنموذج الإنسان مستخدمين أي مادة تناسب القضية: المعلومات العلمية، الأساطير، المعتقدات، وحتى أتفه الأوهام. طبعاً، الأكثر إقناعاً للإنسان المعاصر هو الجُمل التي تذكر على نحو غامض بالصيغ العلمية وأقوال العلماء العظام التي سمعها على مقاعد الدراسة. أما إذا وضع تحت تلك الجمل توقيع أكاديمي، وهو أيضاً حائز على جائزة نوبل (ليس جائزة نوبل عالمية، بل ببساطة جائزة نوبل) فسيكون أفضل[٢].

مفهومٌ أن الإيديولوجية نفسها تصير عاملاً من عوامل صياغة الإنسان، وأن أساطيرها التي تخلقها، وخصوصاً إذا غُرست بمساعدة منظومة التعليم ووسائل الإعلام، تنحتُ الإنسان على صورة الصيغة المعطاة. أما صيغ

---

(١) **كارل ياسبيرس** (١٨٨٣-١٩٦٩) فيلسوف وعالم نفس ألماني، ممثل الوجودية الدينية. من أعماله «علم الأمراض النفسية العام» (١٩١٣) و«الفلسفة» (١٩٣٢) و«العقل والوجود» (١٩٣٥). **(المترجم)**.

(٢) برر هيمفري ديفي العظيم نفسه إيديولوجياً عام ١٨٠٢ استغلال المفاهيم الفيزيائية في المصطلحات: «إن التوزع غير المتساوي للملكية والعمل والفوارق في المراتب والأوضاع داخل البشرية هي منبع الطاقة في الحياة المعاصرة، وهي قوتها المحركة وحتى روحها الحقيقية».

الإيديولوجية، كممثل لغتها، فتبنى على صورة الصيغ العلمية واللغة العلمية. كلما كان الإيديولوجي والديماغوجي أكثر شبهاً بالعالِم صار أكثر إقناعاً. جرت عملية «تقديس» العلم، الذي صار اسمه وحده كافياً للإقناع بصحة المزاعم الإيديولوجية الخالصة. وكما قال الفيزيائي العظيم جيمس كليرك: «الاحترام الذي يوحي به العلم من العظمة بمكان بحيث أن أي رأي تافه يمكن أن يحظى بالقبول إذا ما أوجز بلغة تذكرنا بجملة علمية نعرفها».

هذا الاحترام لم يكتسب ببساطة طابعاً دينياً لاعقلانياً. تبين أن مكانة العلم *أعلى* من مكانة الدين. اكتساب هذه المكانة لم يحدث من تلقاء نفسه: ناضل العلماء مع السياسيين في إنكلترا الفيكتورية من أجل أن يشغل العلم مكان الكنيسة في الحياة الاجتماعية والثقافية (وفي منظومة التعليم قبل كل شيء). اعترف فرانسيس غولتون[١] أحد زعماء الجمعية العلمية أنه بإزاحة الكنسيين من المكانات العالية في التراتبية الاجتماعية يمكن في المملكة كلها بناء «تنوع في الرهبانية العلمية التي ستكون وظيفتها الرئيسية الوقاية الصحية ورفاهية الأمة بالمعنى الواسع للكلمة وسيكون أجرها متناسباً مع أهمية هذه الوظائف وتنوعها».

فعلاً، يعد «ترويض» النخبة العلمية في البلدان الصناعية كلها من أهم مهام السلطة. الخيرات والمكانة الرفيعة التي يحظى بها ممثلو هذه النخبة لا تتناسب مع واجباتهم الوظيفية كباحثين، فدورهم هو إضفاء القداسة على القرارات السياسية. وعلى نحو مماثل تزيد التيارات الإيديولجية المتمردة من قوة موقفها إذا نجحت في استمالة علماء مشهورين (ويفضل أن يكونوا من الحائزين على جائزة نوبل). الصورة الاجتماعية لحركة أنصار السلم في الخمسينيات تستند كثيراً إلى حضور علماء مثل فريدريك خوليو كيوري ولاينوس بولينغ. وكم كان موقف المتمردين في الاتحاد السوفييتي سيبدو

---

(١) **فرانسيس غولتون** (١٨٢٢-١٩١١) بيولوجي وعالم نفس وانتروبولوجي إنكليزي. **(المترجم)**.

أضعف لو لم يكن في زعامتهم الفيزيائي الضخم الأكاديمي أ. د. ساخاروف، على الرغم من أن لدى هؤلاء المتمردين لم تكن أي فكرة عن الفيزياء النووية. لذلك فإن قيمة التأييد لدى الإيديولوجيين من جانب العالم غير مرتبطة بأي حال من الأحوال بدراسته العلمية للمسألة(١). تأييد العالم يحمل طابعاً ***كاريزمياً***. الهدف من صورة العلم الموضوعية وغير المنحازة في الإيديولوجية هو تحديداً تحييد القيم الأخلاقية وتعطيل تأثيرها في الإنسان بصفتها شيئاً غير ملائم للقضية الجدية، وجعل الإنسان ضعيفاً أمام المذاهب التي تغرس في وعيه. حين تسمع دائماً أن المعرفة العلمية هي خيرٌ دائماً فإنك تتذكر جملة نيتشه الساخرة: «حيث تكون شجرة المعرفة تكون الجنة دائماً – هذا ما تبشر به أقدم الأفاعي وأحدثها».

التأثير المتبادل بين العلم والإيديولوجية هو موضوع كبير جداً، ولا نستطيع هنا أن نتعمق فيه(٢). سنلامس وحسب بضعة أسئلة: مشاركة العلماء المباشرة في التلاعب بالوعي بصفتهم غطاء لأقوياء هذا العالم، عناصر المعرفة الأساسية التي يصورها العلم على أنها إيديولوجيات (لوحة العالم والتصور عن الإنسان)، والتكافل بين وسائل الإعلام والعلم.

نفوذ العلم والسياسة. صار ***الخبير***، الذي يقنع المجتمع بصواب هذا القرار أو ذاك أو بخطره، أحد القامات المهمة في السياسة المعاصرة في

---

(١) عادة يكون العالم الذي يصرح تصريحاً إيديولوجياً غير فاهم للمسألة، لأنه طوال حياته مشغول بقضيته الضيقة. ما الذي كان في مقدور أ. د. ساخاروف أن يفهمه في خصخصة الأرض، وأي صلة هنا بالجزيئات العنصرية النووية؟ كان مهماً للسياسيين لقبه وليس رأيه.

(٢) شغلونا عن هذا الموضوع بمشاهد النزاعات غير الواقعية والمطروحة طرحاً كاذباً، والتي أضفي عليها طابع إيديولوجي: الكنيسة ضد غاليليه أو جوردانو برونو، ليسينكو ضد علماء الوراثة. وحتى هذه المشاهد حولوها إلى أساطير إيديولوجية بدائية، لم تسمح لنا بأن نستخلص منها دروساً مهمة.

الغرب. عندئذ غالباً ما ينشأ نزاع بين مصالح القوى الكبرى التي يقف وراءها كبار الشخصيات المالية والصناعية. فإذا لم يتوصلوا إلى اتفاق سري فإنهم يسلّون المواطن والنواب بمسرحية من المناظرات «العلمية» بين مجموعات الخبراء المتصارعين. يكتب أحد سوسيولوجيي العلم المشهورين: «اكتسبت عملية برهنة القرارات في الولايات المتحدة بالاستناد إلى نتائج دراسات لجان العلماء وظيفة طقوسية رمزية شبيهة بالممارسة القروسطية المتمثلة بربط القرارات المهمة بسابقات الكتاب المقدس وتنبؤاته».

لا تفوح من هذه المسرحيات رائحة الديمقراطية على الإطلاق - يشار إلى آراء الجمهور غير المتنور وشروحه كما يشار إلى أشياء غير عقلانية وتنم عن الجهل. ويتوجهون إلى ممثلي النخبة غير المطلعين باقتراح لبق بأن يدرسوا الجانب التقني من المسألة قبل توجيه النقد لهم. يلحظ ل. فينير في كتابه «التكنولوجيا ذات الحكم الذاتي» أن «هذه النصيحة هي نوع آخر من شرعنة السلطة من خلال معرفة الخبير، وهي تحتوي، استناداً إلى تجربتي، لا على دعوة إلى توسيع دائرة المعرفة بقدر ما تقترح الاستسلام». حين جعلت الولايات المتحدة من العلماء- الخبراء طبقة خاصة ودعاة ومتلاعبين بالوعي، فإنها ابتعدت أكثر من الدول الأخرى عن الديمقراطية نحو نظام حصل على اسم «دولة اتخاذ القرارات». السياسيون هنا، إذ يحاكون حيادية العلم (التحرر من القيم الأخلاقية) يستعيضون عن مشكلة ***الاختيار*** التي تمس المواطنين جميعاً بمشكلة ***اتخاذ القرارات***، التي هي شأن داخلي للسياسيين والخبراء. ومع مثل هذا التناول تختفي نهائياً أسئلة: «هل قصفُ يوغسلافيا جيد؟» أو «هل خصخصةُ الأراضي جيدة؟»، وتحل محلها أسئلة مثل «أي طريقة أفضل لقصف يوغسلافيا؟» و«أي طريقة أفضل لخصخصة الأراضي؟».

لا يدور الحديث عن أي موضوعية علمية، وخصوصاً عن حرية المعلومة بين العلماء المنفذين لدور المتلاعبين بالوعي. يكتب سوسيولوجي العلم ب. بارنيس: «معلوم للجميع أن العالِم الذي يعمل لحساب الحكومة أو

الشركة الصناعية لا يعبر علناً قط عن رأيه الخاص إذا لم يكن ثمة أمر من القيادة بالدفاع عن مصالح المنظمة. والقيادة، طبعاً، تستطيع إجباره على تنفيذ هذا الشرط وهذا ما لمسه الكثيرون من العلماء بأنفسهم. فعلى سبيل المثال، كما في بريطانيا العظمى كذلك في الولايات المتحدة، صار الخبراء في مجال الطاقة النووية الذين عبروا جهاراً عن شكوكهم الفنية بلا عمل في الحال». يظن بارنيس أن القرارات التي تلحق الضرر بالمجتمع تتخذ ليس بسبب من نقص المعلومة أو أخطاء العلماء، بل بسبب من الفساد. الأخطاء تحدث، لكنه يقوِّم دورها بصفته أقل أهمية بمئات وآلاف المرات من دور الرشوة والضغط. السوق هي السوق، ثمة طلب على الخبير المستهتر – وثمة عرض.

لكن الإيقاع بالخبير الكذاب غير ممكن. فالمنهج العلمي نفسه لا يستطيع أن يحل محل الخيار السياسي الذي يحدد انطلاقاً من الأخذ بالاعتبار الجوانب النوعية غير القابلة للقياس من المسألة (القيم الأخلاقية). وكما يقول كانط، «ثمة شيء ما، هناك، خلف الحدود التي يستطيع العلم النفاذ إليها». جوهر المنهج العلمي هو الاستعاضة عن الهدف الواقعي ***بأنموذجه***. ولكي يعرف العالم قسماً من أقسام الواقع فإنه ينتقي من بين تنوع ظواهره وارتباطاته ما يعده الأكثر جوهرية. إنه يحول الحياة إلى وصفها المبسط– أي إلى أنموذج. وهو باستبعاده كل ما هو «زائد» يُدخل الغموض مع كل خطوة يخطوها. ينشأ الغموض أيضاً حين يضع العالم الوصف ***النظري*** للأنموذج على شكل علاقات بين عناصر الواقع التي أبقى عليها من أجل دراستها. لماذا استبعدنا من البحث هذا العامل؟ لماذا أضفينا هذا الوزن على هذا المتحول ونرى أنه يتغير وفاقاً لقانون ما؟ ليس ثمة أسس غير قابلة للجدل لحل مثل هذه المسائل، ويجد العالِم نفسه مضطراً إلى تقديم ***اقتراحات***. عادة لا تكمن المشكلة فقط في استحالة التحقق من الاقتراحات بل إن الأمر لا يصل حتى إلى مرحلة صياغتها صياغة واضحة. حتى تلك الاقتراحات الأولية التي درسها الخبراء

من خلال طلابهم لا يتم تذكرها إطلاقاً، وإنما قد تكون، هي تحديداً، مهمة جداً للقرارات السياسية(١).

وصف المؤرخون وسوسيولوجيو العلم بالتفصيل المناظرات التي جرت في الولايات المتحدة بمشاركة العلماء، مثلاً، حول موضوع فلوَرة ماء الشرب واستخدام رباعي إيثيل الرصاص من أجل تحسين البنزين وحول الخطر الإشعاعي الناجم عن محطات الكهرباء الذرية. يمكن الوصول، بإعادة بناء مواقف مجموعات العلماء المتصارعة خطوةً خطوة، إلى استنتاج أن اختيار الأنموذجات والفرضيات الأولية تحديداً هو الذي يحدد مسبقاً في الأغلب الاختلافات التالية المنطقية تماماً. كتب م. مالكيي: «إن مجالات الأبحاث العلمية كلها تميزها أوضاعٌ يسمح فيها العلم بصياغة عدد من البدائل العقلانية، بحيث يستحيل الإقناع بأن واحداً منها فقط هو الصحيح. وتستخدم بوضوح أكبر أحكام العلماء السياسية والضغط من جانب المحيط السياسي في إيجاد الخيارات بين مثل هذه البدائل تحديداً، أكانت تتم على مستوى التعريفات العامة للمشكلة أم على مستوى التحليل التفصيلي».

فمثلاً، يكمن في أساس الاختلافات حول تأثير الإشعاعات في صحة الإنسان أنموذجان مختلفان اختلافاً مبدئياً: أنموذج العتبة والأنموذج الخطي. الإشعاع وفاقاً للأول لا يؤثر في صحة السكان تأثيراً ملحوظاً حتى يصل إلى

---

(١) الأمر أسوأ من ذلك. ليست المشكلة فقط في أن المقترحات المشكوك بها لا تصاغ، بل أيضاً في أنهم لا يقدمون تعريفاً للمفاهيم، ولا تصير المناظرات مسرحية فقط بل تصير مسرح عبث – لا أحد فيه يفهم الآخر، وكل يتحدث فيه بلغته. لقد اعتدنا، على سبيل المثال، على مفهوم «الحرارة»، ويخيل لنا أننا نفهم دائماً عما يدور الحديث، وأن ٢٠ درجة مئوية أكبر بمرتين من ١٠. أما في الواقع فهي مفهوم معقد مرتبط بسلسلة كاملة من الفرضيات والنظريات والأنموذجات. وحين يقول العالِم «حرارة» فإننا على الأرجح نغفل تحذيره أكثر مما نغفله حين يتفوه بمفهوم «الإنتروبيا» (الاعتلاج) الذي لم نعتده بالقدر نفسه.

قيمة معينة. أما وفاقاً للأنموذج الثاني فإن التأثير الضار (المقاس، مثلاً، بعدد الإصابات السرطانية) يتزايد خطياً مهما كان مستوى التلوث صغيراً، لذلك من غير الممكن الحديث عن المستوى «الآمن». واضح أن استنتاجات سياسية مختلفة تماماً تنتج عن هذين الأنموذجين. فكيف يختار الخبراء هذا الأنموذج أو ذاك؟ يختارونه انطلاقاً من التفضيلات السياسية (أو تبعاً لمن يدفع أكثر أو يهدد أكثر).

يخيل أنه كان في مقدور السياسيين أن يمولوا تجارب إضافية ويطلبوا من العلماء تحديد الاختيار الأفضل من بين هذا الكم من الأنموذجات المختلفة. لكن يتبين أن هذا مستحيل من حيث المبدأ. وقد صيغت مسألة مثل هذا التحقق بطريقة بسيطة إلى أقصى حد: هل حقاً ارتفاع الإشعاع إلى ١٥٠ ميلي رونتغين يزيد عدد الطفرات لدى الفئران بمقدار ٠,٥% (ازدياد مثل عدد الطفرات هذا يمكن عده تأثيراً ملحوظاً في الجسم). بينت الدراسة الرياضية لهذه المسألة أن التحقق التجريبي المضمون يستلزم ٨ مليارات فأر. بكلمات أخرى، الاختيار التجريبي للأنموذج مستحيل، ولا يمكن دحض أي من الفرضيات الأساسية. وبذلك لا يستطيع العلم بسبب من القيود الملازمة للمنهج العلمي نفسه أن يحل محل القرار السياسي. وتحصل السلطة (أو المعارضة) على فرصة اللعب على المسألة تحت غطاء نفوذ العلم. يظهر هذا الأمر ظهوراً بليغاً فيما يخص كارثة محطة التوليد الكهربائية الذرية في تشيرنوبل.

ولدت وسائل الإعلام من الزواج بين العلم والفن، وكان الابن الأكثر حيوية هو التلفزيون. بينت دراساتُ عمليةِ تكوّنِ الرأي العام شبهاً مذهلاً بينها وبين بنية العملية العلمية. تحوّل وسائل الإعلام أيضاً أي مشكلة واقعية إلى أنموذج، لكنها تفعل ذلك، خلافاً للعلم، لا بهدف المعرفة بل بهدف التلاعب المباشر بالوعي. المقدرة على تبسيط الظاهرة المعقدة، وإظهار العلاقات السببية النتيجية البسيطة فيها أو اختراعها تحدد إلى درجة هائلة فرص نجاح العملية الإيديولوجية. وهكذا فإن أداة العلم القوية كانت ***التبسيط*** – أي تحويل

الهدف إلى منظومة تتسم بأقصى درجة من البساطة. كذلك تفعل وسائل الإعلام. يصوغ الإيديولوجيون المسألة («الموضوع»)، ثم تلي ذلك مرحلة «أشكلته» (يقابلها في العلم تقديم الفرضية)، ومن ثم مرحلة التبسيط – أي تحويل المشكلة إلى أنموذجات بسيطة والبحث عن قوالب أو شعارات أو أقوال مأثورة أو صور توضيحية سهلة الفهم إلى أقصى درجة من أجل التعبير عنها. كتب أحد الاختصاصيين في مجال التلفزة: « يجب أن يتم النظر إلى نزعة التبسيط هذه بصفتها تهديداً للعالم والديمقراطية نفسها. إنها تبسط التلاعب بالوعي. إن البدائل السياسية تصاغ باللغة التي تفرضها الدعاية».

لوحة العالم العلمية. سننظر الآن كيف تستخدم ***لوحة الكون*** في الإيديولوجية. إن لوحة الكون في أي مجتمع هي تلك القاعدة المثالية التي يبنى عليها التصور عن بنية المجتمع الأفضل أو الممكنة. كان «ترتيب الأشياء الطبيعي» في الأزمنة كلها الحجة الأهم من أجل التأثير في الوعي. لقد كتب بحر من المؤلفات عن التأثير الذي أنتجته لوحة العالم النيوتونية في التصورات عن النظام السياسي والمجتمع والاقتصاد في أثناء الثورات البرجوازية. خرجت المفاهيم الليبرالية عن الحريات والحقوق واقتسام السلطات من أنموذج كون نيوتن مباشرة، الذي صور العالم كآلة تقع في توازن مع «كوابحها وأثقالها الموازنة» كلها. شكل، مثلاً، دستور الولايات المتحدة ونظرية الاقتصاد السياسي لآدم سميث[١] «ترجمة» لهذا الأنموذج إلى

---

(١) **آدم سميث** (١٧٢٣–١٧٩٠). اقتصادي وفيلسوف اسكتلندي كبير، وأحد أكبر ممثلي الاقتصاد السياسي الكلاسيكي. أجمل في كتابه «دراسة عن طبيعة ثروات الشعوب وأسبابها» (١٧٧٦) مائة عام من تطور هذا الاتجاه في الفكر الاقتصادي، فدرس نظرية القيمة وتوزيع الدخل ورأس المال وتراكمه والتاريخ الاقتصادي لأوربا الغربية، وأجمل وجهات نظره حول الاقتصاد والسياسة وتمويل الدولة. نظر إلى الاقتصاد بصفته منظومة تخضع لقوانين موضوعية قابلة للمعرفة. **(المترجم)**.

لغة البناء الحكومي والاقتصادي (حتى أن تعبير «يد السوق الخفية» أخذه سميث من نصوص نيوتن، لكن الأخير كتب عن «يد الجاذبية الخفية»). وبذلك تم تبرير النظام السياسي والاقتصادي في المجتمع البرجوازي بقوانين نيوتن مباشرة، ولن يكون لدى أحد حجة ضد العلم!

تمتع ***المذهب الميكانيكي*** (mechanism) المنبثق عن لوحة عالم نيوتن، والذي يصور أي واقع على أنه آلة، بقوة إيحائية هائلة،. كتب ليبنتس: «العمليات في جسم الإنسان وأي كل مخلوق حي هي ميكانيكية مثلها كمثل العمليات في الساعة». حين أقنعوا الإنسان الغربي بأنه آلة، وأنه في الوقت نفسه جزء من آلة أخرى ضخمة، فإن ذلك كان الخطوة الأهم على طريق تحويله إلى عضو متلاعب به في المجتمع المدني. صار الذين كانوا منذ وقت قريب نبلاء أوربا وفلاحيها ورهبانها المتجولين كتبةً ونواباً وعمالاً وراء السير الناقل. العالم الذي كان في نظر إنسان القرون الوسطى معبداً صار معملاً – أي منظومة آلات.

كان ياسبيرس يقصد حين طور فكرة شيطانية التقنية المعنى الإيديولوجي للنظرة الميكانيكية إلى العالم. لقد كتب: «إن المجتمع بنتيجة تشبيه النشاط الحياتي كله بعمل الآلة يتحول إلى آلة كبيرة واحدة تنظم حياة البشر كلهم. كل ما خطط له من أجل تنفيذ نشاط من الأنشطة يجب أن يكون مبنياً على صورة الآلة، أي يجب أن يتمتع بالدقة والرسم المسبق للأحداث، وأن يكون ملتزماً بالقواعد الخارجية... كل ما هو مرتبط بالمعاناة الروحية والإيمان غير مسموح به إلا بشرط أن يكون نافعاً للهدف الموضوع أمام الآلة. يصير الإنسان نفسه أحد أنواع المادة الأولية المخضعة للمعالجة الهادفة. لذلك فإن من كان من قبل جوهر الكل ومغزاه – أي الإنسان – يصير الآن أداة. يسمحون برؤية الإنسانية، لا بل حتى تصير مطلوبة، وحتى يعلنون بالكلمات أنها الرئيسية، لكن ما إن يستلزم الهدف غير ذلك حتى

ينتهكوها بأشد الأشكال حزماً. لذلك تدمَّر التقاليد بالمقدار الذي تتجذر فيها المطالب المطلقة، ويصير الناس بمجموعهم حبات رمل، وكونهم محرومين من جذورهم، فإن في مقدورهم أن يُستغَلوا لذلك بالصورة الأمثل»(١).

التصور عن الإنسان. وَهبت ميكانيكية لوحة العالم النيوتونية حياةً جديدةً ***للمذهب الذري***- أي نظرية بناء المادة من جزيئات ميكانيكية لا تتغير ولا تنقسم. لكن المذهب الذري دخل الإيديولوجية حتى قبل دخوله العلوم الطبيعية مبرراً بالنيابة عن العلم تقسيم الجماعة البشرية الذي أحدثه الإصلاح البروتستانتي في المجال الديني(٢). بنت إيديولوجية المجتمع البرجوازي بنجوئها إلى نفوذ العلم أنموذجها الأنتروبولوجي الذي يضم في ذاته عدة أساطير والذي تغير بمقدار ظهور مادة جديدة وطازجة وأكثر إقناعاً لإبداع الأساطير. استند هذا الأنموذج في البداية، في فترة الاجتياح الظافر لأنموذج للعالم الميكانيكي النيوتوني، على استعارة الذرة الميكانيكية (وحتى الكيميائية)، الخاضعة لقوانين نيوتن. وهكذا ظهر مفهوم ***الفرد*** الذي طوره جيل كامل من الفلاسفة والعلماء المتفلسفين. ثم مرت فترة طويلة من البيلجة (الداروينية الاجتماعية ومن ثم علم الجينات) حين صوِّرت الكائنات البشرية كحيوانات واقعة في مرحلة مختلفة من التطور وتتصارع من أجل البقاء. كانت آلية الاصطفاء الطبيعي هي المنافسة، وكان أصنام المجتمع حينذاك هم رجال الأعمال الناجحون، وقد أكدت سير حياتهم على «النظرة إلى المجتمع

---

(١) تحدثنا أعلاه عن السلوكية كمذهب من مذاهب التلاعب بالوعي، والتي تختزل الإنسان إلى آلة وإن كانت غير ميكانيكية، بل كيبرنيتيكية.

(٢) كتب الفيلسوف الإنكليزي إ. كاربينتر في بداية القرن العشرين: «الملفت للنظر أننا خلال هذه الحقبة الميكانيكية من القرن الأخير لم نصر ننظر وحسب عبر موشور التفكير الميكانيكي إلى المجتمع بصفته مجموعة من الأفراد المعزولين والمتحدين بعلاقات سياسية بسيطة، بل نشرنا هذه الفكرة في المعمورة كلها ونحن نرى فيها مجموعة من الذرات المعزولة والمتحدة بالجاذبية، أو، ربما، بالتصادمات المتبادلة».

بصفته آلة داروينية يتحكم بها مبدأ الاصطفاء الطبيعي والتكيف والصراع من أجل البقاء».

يضفي غ. شيللر على الأسطورة حول الفرد ومفهوم الملكية الخاصة المشتق عنها أهمية كبرى في منظومة الهيمنة كلها في المجتمع الغربي: «النجاح الأكبر في التلاعب، والأكثر وضوحاً في مثال الولايات المتحدة الأمريكية، هو الاستعمال الموفق لظروف التطور الغربي الخاصة من أجل تخليد تعريف الحرية من خلال لغة فلسفة الفردانية بصفته التعريف الوحيد الصحيح... على هذه القاعدة تحديداً ترتكز بنية التلاعب كلها».

أنموذجات (موديلات) الإنسان النظرية كلها التي اقترحها العلم على الإيديولوجيين، فغرسها هؤلاء في الوعي الجماهيري بعد معالجتها وتبسيطها، غيرت على نحو جذري تماماً تصور الإنسان نفسه عن ذاته وبرمجت بذلك سلوكه. تبين أن المدرسة ووسائل الإعلام أقوى من التقاليد والمواعظ في الكنيسة وحكايات الجدة. صارت ***النظرية*** اليوم، كما يقولون، الشكل السائد في الوعي الاجتماعي، وتأثيرها أكبر. يؤكد عدد من الفلاسفة بأشكال عدة الفكرة التالية: «سلوك الناس لا يمكن أن لا يرتبط بالنظريات التي يتبعونها هم أنفسهم. تصورنا عن الإنسان يؤثر في سلوك الناس لأنه يحدد ما ينتظره كل منا من الآخر.. التصور يساعد على صياغة الواقع». فكيف إذن ترجمت الإيديولوجية النظريات؟

يؤكد فلاسفة المجتمع المدني (هوبز، كانط) أن الإنسان في حاله «الوحشية» («حاله الطبيعية») هو وحش متعطش للدماء وأناني، وأن الخير في هذه الحال «لا يمكن أن يوجد إلا بصفته إمكانيةً، أو بصفته إرهاصاً داخلياً في الإنسان»، ولا يمكن أن يتحقق إلا في ظروف الحضارة حين يصير

الإنسان *مواطناً*(١). إن نقل المفاهيم البيولوجية إلى مجتمع البشر، لا بصفة استعارات بل بصفة نظريات عاملة، عمل غير شرعي. إنه عملية نمطية لاستنتاج الإيديولوجية من العلم. كتب الأنتروبولوجي الأمريكي م. ساكلينس: «واضح أن رؤية هوبز للإنسان في حاله الطبيعية هي الأسطورة الابتدائية للرأسمالية الغربية. تتمتع أسطورة هوبز مقارنة بالأساطير الابتدائية للمجتمعات المختلفة الأخرى ببنية غير عادية على الإطلاق، وتؤثر في تصورنا عن أنفسنا ذاتنا. إننا، بمقدار ما أعرف، المجتمع الوحيد على الأرض الذي يظن أنه نشأ من الوحشية المقترنة بالطبيعة التي لا ترحم. تؤمن الشعوب الأخرى كلها بأنها تحدرت من الآلهة... واحتكاماً إلى الممارسة الاجتماعية فإن بالإمكان النظر تماماً إلى هذا على أنه اعتراف غير متحيز بالاختلافات الموجودة بيننا وبين البشرية الباقية».

استنتج لوك أيضاً من هذا التصور الأسطوري عن الإنسان نظريته عن *المجتمع المدني* («جمهوريات المالكين»)، المحاط *بالبروليتاريين* (الذي يعيشون في حال «قريبة من الطبيعية») والبرابرة (الذين يعيشون في الوحشية).

---

(١) يقبع هذا التصور كليا في مجال الإيديولوجية، وهو غير صحيح علمياً إطلاقاً. استنتج هوبز نظريته من المعلومات عن تلك الحروب الطاحنة التي خاضها هنود أمريكا الشمالية فيما بينهم. وقد دلت الدراسات الأنتروبولوجية الأخيرة (نشرت نتائجها في مجلة «Scientific American») أن القبائل الهندية لم تكن تتحارب فيما بينها قبل قدوم المستعمرين الأوربيين. والذي حرض على هذه الحروب هو تدخل الأوربيين الذي زعزع مجمل منظومة العلاقات: الإنسان – القبيلة – الطبيعة. عدا ذلك كان المستعمرون في أثناء تنظيفهم الأرض يؤلبون بين الهنود عمداً دافعين لهم ثمن فروة الرأس سلاحاً وباروداً. لقد أثبت الآن إثباتاً أكيداً أن الإنسان «البدائي» تطور وعاش بفضل الأثيرية والتعاضد المتبادل، لذلك فإن هوبز و أموسوف وإيديولجيي الديمقراطية الروسية غير مطلعين على الأمر ببساطة.

وتكونت في مراحل تطور الإيديولوجية البرجوازية كلها ورسخت بشتى الوسائل أسطورة ***الإنسان الاقتصادي*** (*homo economicus*)، الذي بنى اقتصاد السوق والسعيد بالحياة فيه. لقد شرعن هذا الأنموذج الأنتروبولوجي تدمير المجتمع القديم وإرساء النظام الاجتماعي الجديد والخصوصي جداً، والذي تصير فيه القوة العاملة سلعة، ويتحول كل إنسان إلى مالك ومتاجر.

الأساسان الأهم للحق الطبيعي في اقتصاد السوق - بالتضاد مع المجتمعات «الباقية» كلها - هما ***أنانية*** الناس «الذرات» ***وعقلانيتهم***. وصف هوبز حال الإنسان على أنها «***حرب الجميع ضد الجميع***». أما نظرية داروين في الارتقاء فصورتها على أنها ***صراع من أجل البقاء***. من المفيد أن نتذكر أن داروين قد تأثر كثيراً بأعمال مالتوس[١] - أي بتعاليمه الإيديولوجية التي تفسر الكوارث الاجتماعية الناجمة عن اقتصاد الاستثمار الحر. كان مالتوس في بداية القرن التاسع عشر الكاتب الأكثر تعرضاً للمناقشة في إنكلترا، وعبر عن «نمط تفكير» ذلك العصر. قدم مالتوس لداروين، حين صور الصراع من أجل البقاء كقانون ضروري للمجتمع يهلك فيه «الفقراء والعاجزون» ويبقى الأكثر قدرة على التكيف، الاستعارة المركزية لنظريته عن الارتقاء - أي الصراع من أجل البقاء. أتى المفهوم العلمي المطبق على الطبيعية المتوحشة من الإيديولوجية التي تبرر سلوك الناس في المجتمع. بعد ذلك عاد من البيولوجية إلى الإيديولوجية مجهزاً بلصاقة العلمية. يا لهذا التعاون المتبادل!

يكتب ج. هوارد مؤرخ الداروينية: «عاد المفكرون دورياً بعد داروين إلى استنتاج المبادئ الأخلاقية المطلقة من نظرية الارتقاء. سادت في المجتمع الإنكليزي في المرحلة الفيكتورية المتأخرة وخصوصاً في أمريكا الصيغة

---

(١) **توماس روبيرت مالتوس** (١٧٦٦-١٨٣٤) اقتصادي إنكليزي، مؤسس المالتوسية التي تقول إن وتائر النمو السكاني تفوق بكثير وتائر ازدياد الإنتاج ووسائل البقاء، وتالياً فإن رفاهية الشعوب مرتبطة بهذا القانون (**المترجم**).

الوحشية لتبرير النظام الاجتماعي – الداروينية الاجتماعية – تحت شعار غ. سبينسير "البقاء للأكثر مقدرة". وقد تم تأويل قانون الارتقاء بمعنى أن انتصار الأقوى هو الشرط الضروري للتقدم»[١]. واضح أن إدخال فكرة الداروينية الاجتماعية في الوعي الجماهيري قد أثر تأثيراً برمجياً قوياً. ووفاقاً لكلمات الليبرالي الإنكليزي الجديد ر. سكروتون فإن «الاستياء لا يتم تهدئته بالمساواة بل بمنح اللامساواة قوة قانونية».

يشير مؤرخ آخر للداروينية وهو ر. غراسا إلى أن الداروينية الاجتماعية قد دخلت المخزون الثقافي للحضارة الغربية و«حصلت على جمهور واسع في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لا كنتيجة لمزاعمها في تبرير العلوم الاجتماعية بيولوجياً بل قبل كل شيء بفضل دورها في تبرير الليبرالية الاقتصادية والرأسمالية الصناعية البدائية. لقد تم تمجيد إثبات الفرد لذاته، وصار جزءاً من اللاوعي في إرث الغرب الثقافي. وعلى العكس، تم نسيان فكرة التعاون المتبادل ورفضها».

رفضت ثقافة روسيا، التي نفذت الرأسمالية إليها بصعوبة كبيرة، الفردانية. وفي هذا كان الفلاسفة الاجتماعيون جميعهم عملياً موحدين، من الماركسيين حتى المحافظين. قدم الفيلسوف المسيحي فل. سولوفيوف التفسير التالي: «كل شخص مفرد هو نقطة تمركز مجموعة لانهائية من العلاقات المتبادلة مع الآخر والآخرين، وفصله عن هذه العلاقات يعني انتزاع أي محتوى فعلي من محتويات الحياة منه».

---

(١) لا ينقل سبينسر المفاهيم العلمية وحسب إلى علم الاجتماع مضفياً عليها طابعاً إيديولوجياً. يكتب قائلاً: «فقر عديمي الموهبة والتعاسة التي تحل على عديمي العقل، والجوع الذي يضني الكسالى، وحين يزيح الأقوياء الضعفاء مبقين الكثيرين منهم "في المياه الضحلة والفقر" – هذا كله مشيئة عناية إلهية حكيمة تحمل الخير للجميع». أي أن التقسيم الاجتماعي هو نظام «طبيعي» يقدسه العلم.

استطاعت الثقافة الروسية أن تطهر على نحو ملفت الداروينية من مكوناتها الإيديولوجية. يقود الطرح الأساسي لهذا الغصن «اللامالتوسي» من الداروينية، المرتبط قبل كل شيء باسم ب. أ. كروبوتكين[١]، إلى أن فرصة بقاء المخلوقات الحية تزداد بالدرجة التي تتكيف بها على نحو متناغم فيما بينها ومع الوسط المحيط. ليست حرب الجميع ضد الجميع بل التعاون المتبادل! لخص ب. أ. كروبوتكين نظرته هذه في كتابه «التعاون المتبادل: عامل الارتقاء» الذي صدر في لندن عام ١٩٠٢، واشتهر في الغرب أكثر منه في الاتحاد السوفييتي. يجمل فكرته على النحو التالي: «التعاون المتبادل والعدالة والأخلاق هي مراحل متعاقبة نلحظها عند دراسة عالم الحيوانات والإنسان. إنها تكوِّن ضرورة عضوية تحتوي على تبريرها في ذاتها ويؤكدها كل ما نراه في العالم الحيواني... مشاعر التعاون المتبادل والعدالة والأخلاق متجذرة عميقاً في الإنسان بقوة غرائزه كلها. وأولى هذه الغرائز – غريزة التعاون – هي الأقوى».

صار بإمكاننا في مرحلة البيريسترويكا، على العكس من ذلك، أن نقرأ في «موسكوفسكي كومسموليتس»(١٩٨٨) موعظة مثل موعظة «رجل الأعمال السوفييتي» ل. فاينبرغ، رئيس اتحاد المؤسسات المشتركة: «قدم لنا علم البيولوجية رقماً غير عادي جداً: ثمة في كل قطاع بيولوجي من الكائنات أربعة في المائة من الأشخاص النشيطين. لدى الأرانب، ولدى الدببة، ولدى البشر. هذه الأربعة بالمائة في الغرب مؤلفة من المستثمرين الذين يقدمون العمل للباقين كلهم ويطعمونهم. مثل هؤلاء الأشخاص كانوا موجودين لدينا أيضاً، وهم موجودون، وسيكونون موجودين». صعب علينا أن نصدق، لكن

(١) **بيوتر ألكسندروفيتش كروبوتكين** (١٨٤٢-١٩٢١). أمير روسي ثائر. منظر للفوضوية، جغرافي وجيولوجي. له مؤلفات في علم الأخلاق والاجتماع وتاريخ الثورة الفرنسية. (**المترجم**).

هذه الحجة «العلمية» السخيفة للانتقال إلى اقتصاد السوق تكررت كثيراً على ألسنة الديمقراطيين.

يكمن التلاعب في نقل المفاهيم الميكانيكية والبيولوجية نفسه إلى الإنسان بصفته مخلوقاً اجتماعياً. كتب م. ساكلينس عن نزعة «الكشف عن ملامح المجتمع من خلال المفاهيم البيولوجية»: «هذا الجمع يطبق في المجتمع الأوروأمريكي منذ القرن السابع عشر. ابتداء من هوبز امتزج ميل الإنسان الغربي إلى المنافسة ومراكمة الربح بالطبيعة، ثم استخدمت من جديد الطبيعة المصورة على مثال الإنسان بدورها لتفسير الإنسان الغربي. كانت نتيجة هذه الجدلية هي تبرير مواصفات النشاط الاجتماعي للإنسان من خلال الطبيعة وتبرير قوانين الطبيعة من خلال مفاهيمنا ونشاط الإنسان الاجتماعي. يقدم آدم سميث نسخة اجتماعية عن هوبز؛ ويقدم تشارلز داروين نسخة طبيعية عن آدم سميث...الخ».

بدا منذ القرن السابع عشر أننا وقعنا في هذه الدائرة المسحورة، حين ألبسنا دورياً أنموذج المجتمع الرأسمالي على عالم الحيوان، ومن ثم استخدمنا صورة هذا العالم الحيواني «البرجوازي» لتفسير المجتمع البشري... يبدو أننا لا نستطيع الإفلات من هذه الحركة الأبدية إلى الوراء وإلى الأمام بين تثقيف الطبيعة وتطبيع الثقافة، والتي تقمع قدرتنا (الحركة) على فهم المجتمع والعالم العضوي معاً... تعكس هذه التأرجحات في المجمل كم هو العلم المعاصر والثقافة والحياة كلها مخترقة بإيديولوجية الفردانية التملكية السائدة»[١].

(١) المحاولة الأخيرة لإضفاء تبرير علمي طبيعي بهيئة البيولوجية الاجتماعية على أسطورة المركزية الأوربية عن الإنسان تم ردها سريعاً من قبل علماء الغرب أنفسهم- بدت الآذان الإيديولوجية ناتئة كثيراً. كتب م. ساكلينس: «ما انضوت عليه نظرية البيولوجية الاجتماعية هو إيديولوجية المجتمع الغربي التي شغلت موقع الدفاع الباهت، لضمان طابعها الطبيعي وتأكيد حتميتها».

نفوذ العالِم: التأثير التلاعبي المباشر. شكلت الاختبارات الاجتماعية النفسية التي أجريت في الستينيات في جامعة إيبلسك (الولايات المتحدة) – والتي تسمى «اختبارات ميلغرام» شاهداً ملفتاً على الحد الذي صار فيه الإنسان الغربي ضعيفاً أمام نفوذ اللقب العلمي. كان هدف الاختبارات هو دراسة درجة انصياع الإنسان الطبيعي المتوسط للسلطة والنفوذ. بكلمات أخرى، دراسة إمكان برمجة سلوك الناس عند التأثير في وعيهم. اختيرت مجموعة أنموذجية من الرجال الطبيعيين البيض من الطبقة المتوسطة لإجراء الاختبارات عليها، وطبعاً، لم يفصحوا لهم عن الهدف من هذا الاختبار. قيل لهم إنهم يدرسون تأثير العقوبة في فاعلية التدريس (الحفظ).

عرضوا على الخاضعين للاختبار أن يمثلوا دور المدرس الذي يعاقب التلميذ بهدف الوصول إلى استيعاب أكبر للمادة. كان التلميذ جالساً في غرفة مجاورة ويرد على الأسئلة عبر الهاتف. وعند ارتكابه الخطأ كان المدرس يعاقبه بشحنة كهربائية رافعاً التوتر مع كل خطأ بمقدار ١٥ فولطاً (كان أمام المعلم ٣٠ قاطعاً- من ١٥ حتى ٤٥٠ فولطاً). طبعاً، لم يكن «التلميذ» يتلقى أي شحنات وإنما يحاكي الأنين والصراخ- كانوا يدرسون سلوك «المعلم» الخاضع لأوامر قائد الاختبار اللاإنسانية. كان المعلم نفسه يتلقى قبل ذلك شحنة مقدارها ٦٠ فولطاً كي يعرف كم الأمر مزعج. وكان عند الشحنة ٧٥ فولطاً يسمع أنين التلاميذ أما عند الشحنة ١٥٠ فولطاً فيسمع الصراخ والتوسلات من أجل إيقاف العقوبة، وعند الشحنة ٣٠٠ فولط يسمع رفض متابعة التجربة. كانت الصرخات عند الشحنة ٣٣٠ فولطاً تصير مبهمة، وعندئذ لم يكن قائد الاختبار يهدد «المعلم» المرتاب بل يخبره بنبرة لا مبالية بضرورة متابعة الاختبار.

قدم الخبراء النفسيون من جامعات الولايات المتحدة المختلفة قبل الاختبارات، نزولاً عند رغبة ميلغرام، توقعهم بأن ما لا يزيد عن ٢٠% من

الخاضعين للاختبار سوف يستمرون في الاختبار حتى منتصفه (حتى ٢٢٥ فولطاً)، وأن ***واحداً من ألف*** فقط سوف يضغط الزر الأخير. لكن النتائج كانت مذهلة. وصل في الواقع ما يقارب الـ ٨٠% من الخاضعين للاختبار إلى منتصف المسطرة، وضغط الزر الأخير أكثر من ٦٠% منهم، ممررين الشحنة ٤٥٠ فولطاً القاتلة تقريباً. أي أن أغلبية الخاضعين للاختبار الساحقة انصاعت، خلافاً للتوقعات كلها، لأوامر «العالم» القائد للاختبار وعاقبت التلميذ بالصدمة الكهربائية حتى حين كف عن الصراخ وراح يركل الجدار بقدميه.

لم يتوقف في إحدى سلاسل التجارب من بين أربعين خاضع للاختبار ***أي شخص*** عند مستوى ٣٠٠ فولط. رفض خمسة منهم الانصياع بعد هذا المستوى فقط، وأربعة بعد ٣١٥ فولطاً واثنان بعد ٣٣٠ فولطاً وواحد بعد ٣٤٥ فولطاً وواحد بعد ٣٦٠ فولطاً وواحد بعد ٣٧٥ فولطاً. كانت الأغلبية مستعدة لتعذيب إنسان إلى ما يقارب الموت منصاعة انصياعاً أعمى لسلطة قائد الاختبار الوهمية والمؤقتة تماماً. كان كل منهم في أثناء ذلك يدرك جيداً ما يفعل. وعند تشغيلهم القاطع كانوا يصابون، وفاقاً لكلمات ميلغرام، باهتياج لم يقدر له قط أن يرى مثله في الاختبارات الاجتماعية النفسية. لقد وصل الأمر بهم حد التشنج[1]. حاول الخاضعون للاختبار بعد التجارب أن يشرحوا بهياج انفعالي شديد أنهم ليسوا ساديين وأن قهقهاتهم الهستيرية لا تعني أن تعذيب الإنسان يعجبهم.

---

(١) كتب في مجلة المخبري: «وصل أحد الخاضعين للاختبار إلى المختبر واثقاً من نفسه ومبتسماً – وهو رجل عملي وقور. بعد عشرين دقيقة تحول إلى خرقة وهو يهذي ويرتجف متشنجاً ويقترب بسرعة من النوبة العصبية. كان طوال الوقت يشد شحمة أذنه ويلوي يديه. غطى في لحظة من اللحظات وجهه بيديه وراح يئن: "يا إلهي، متى ينتهي هذا كله!" لكنه استمر في خضوعه لكل كلمة من كلمات المخبري ووصل بذلك إلى نهاية مسطرة التوتر».

تبدو هذه النتائج بحد ذاتها مذهلة، لكن ما يهمنا هنا هو حقيقة أن مثل هذا الانصياع الأعمى قد لوحظ حين كان قائد الاختبار يُقدَّم على أنه ***عالم***. أما عندما قدم قائد الاختبار نفسه من غير مرتبته العلمية كباحث عادي مبتدئ فقد انخفضت نسبة الضاغطين على الزر الأخير حتى ٢٠%. انخفض بأكثر من ثلاث مرات! هاكم إلى أي حد يقمع نفوذ العلم المعايير الأخلاقية لدى الإنسان الأبيض المتعلم.

الفصل الثاني عشر
وسائل الإعلام الجماهيري

١- أهداف وسائل الإعلام ونمط عملها ومكانها في الثقافة

ارتبطت صيرورة الغرب المعاصر ارتباطاً وثيقاً بتحرر الكلمة الروحي («***حرية الكلمة***») وظهور الإمكانات التكنولوجية لإنشاء الخبر الشامل (اختراع طباعة الكتب - ***الصحافة***). وقدم العلم المستحوذ على النفوذ للإيديولوجية ***منهجاً*** مقنعاً لإنشاء الأخبار في الصحافة. هكذا ظهرت ***وسائل الإعلام الجماهيري***. صارت تورد للمواطنين آراء جاهزة في غلاف مريح. قال الكاتب الإنكليزي س. باتلير: «يشتري المجتمع رأيه كما يشتري الحليب، لأن هذا أرخص ثمناً من تربية بقرته الخاصة. لكن الحليب هنا يتكون أساساً من الماء».

حرية الكلمة («الغلاسنوست»"العلنية")، والأوسع منها - ***حرية نشر المعلومة***، هي المبدأ المفصلي في المجتمع المدني المذرر ونظام الحياة الليبرالي. شكَّل قبول هذه الفكرة طفرة ثقافية وروحية ذات أهمية لا مثيل لها. لقد عنى ذلك تحديداً الانتقال إلى المجتمع الغربي المعاصر والعصر الجديد وإزالة المحرمات (التابو) التي يتسم بها المجتمع التقليدي كلها، وإزالة الأخلاق الواحدة (الشمولية)[1]. إننا نعرف هذا في المستوى العادي: ستجعل

(١) الملفت أن تحطيم دعائمنا الثقافية تحت شعار بناء «النظام المتحضر» بدأ تحديداً مع مطلب «العلنية التامة» (الشفافية)، ما يعد في حده الأقصى شمولية مطلقة- أي استحالة أن يختبئ الإنسان من الرقابة الخارجية.

العلنية التامة (مثلاً إمكان أن يقرأ كل منا أفكار الآخر) حياة الناس المشتركة مستحيلة. ستتقطع العلاقات الإنسانية ببساطة غالباً لأن «متمني الخير لك» سيخبرونك بما تعرفه بطبيعة الحال، لكنك تعرفه في قرارة نفسك.

يمكننا أن نجزم بقضية عامة: إن حرية الأخبار غير مقبولة من وجهة نظر الحفاظ على البنى الاجتماعية المعقدة والدقيقة (للمجتمع «غير المذرر»). وجود المحرمات الأخلاقية المنفذة من خلال شتى أنواع الرقابات، هو شرط ضروري لكبح تأثير المعلومة المدمر تحت حد ما حرج مقبول. لا نستطيع هنا أن نتطرق إلى هذا الموضوع الكبير، لذلك سنشير فقط إلى أن الرقابة والجدارة الفنية مترابطان ترابطاً ضعيفاً وليس كما يؤكد الديمقراطيون. ربما توجد حتى علاقة عكسية – لا يستطيع الكثيرون من الكتاب والمخرجون أن يبدعوا شيئاً معقولاً من غير رقابة (مثلاً- إلدار ريازانوف)[1]. ما تلغيه الرقابة «***يشحذ أسنان الكلمة***». إن حكم الرقابة بالمعنى المعروف هو مؤشر على احترام الكلمة والاعتراف بقوتها. لقد حان الوقت للحديث عن هذا الأمر حديثاً منفصلاً.

يجب الإدلاء بالتحفظ التالي: ***حرية الكلمة*** في المجتمع البرجوازي هي مقولة فلسفية (مثل ***حرية*** الثورة الفرنسية ***ومساواتها وإخائها***). صارت هذه الحرية في الممارسة الحقيقية متاحة فقط بالمقدار الذي ينصاع فيه الرأي العام للتلاعب. لم تلغ المحظورات الحقوقية على حرية الأنباء في الولايات المتحدة إلا في الستينيات من القرن العشرين حين صارت تكنولوجيا التلاعب خالية

---

(١) كتب فرويد: «كلما كان اضطهاد الرقابة أشد صار التقنع أفضل وصارت أحذق الوسائل التي تقود القارئ في إثر ما يجب أن ينكشف له فعلاً».

إلدار ألكسندروفيتش ريازانوف (١٩٢٧). مخرج سينمائي ومسرحي سوفييتي. حائز على لقب فنان الشعب في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٤ (**المترجم**).

من الأعطال[١]. يورد نعوم تشومسكي معلومات عن تاريخ الحقوق التي لم تكن الولايات المتحدة تسمح وفاقاً لها حتى وقت قريب لا بالقانون ولا بالممارسة بالتعبير العلني عن الرأي من غير موافقة السلطات المحلية، وأحياناً الفيدرالية. لم تعمل المحكمة العليا على هذا الأمر إلا بعد ١٩٥٩، لتلغي بعد ذلك عام ١٩٦٤ قانون عام ١٧٩٨ عن التمرد بصفته «لا يتطابق مع التعديل الأول للدستور». اتخذ هذا القرار بشأن استئناف صحيفة «نيويورك تايمز»، التي عوقبت في المحكمة على نشرها في إعلان مدفوع الأجر رسالة مجموعة من المدافعين عن الحقوق المدنية انتقدوا رئيس شرطة مدينة مونتغوميري في ولاية ألاباما. سمح قانون التمرد بتجريم أي نقد يوجه للحكومة. عام ١٩٦٤ فقط أقرت المحكمة العليا أن «النشر التمردي أو العرائض – أي انتقاد الحكومة – لن يعد جريمة في أميركا»[٢].

لكن الممارسة تبقى ممارسة أما المهم فهو الفلسفة. أعاد السياسيون اليوم إلى الحياة الجدل القديم الذي خاضه المجتمع البرجوازي (المدني) مع

---

(١) ثمة هنا تواز مباشر مع انتشار حق الانتخاب في الولايات المتحدة: صار يمنح لمجموعات جديدة من السكان (للنساء مثلاً) بمقدار تقدم انعدام تسييس الجماهير، وانخفاض عدد المشاركين في الانتخابات. لقد أزيل اليوم في الكثير من الولايات حتى أبسط الحواجز الواجب تخطيها للمشاركة في الانتحاب. يسمح هذا عن طريق الاتفاق بين المرشحين بالاستغناء عن الانتخابات. عام ١٩٩٠ مثلاً نجح إلى الكونغرس الأمريكي مرشحان من ولاية فلوريدا – حصل كل منهما نظرياً على صوت واحد (صوته الخاص) فصار نائباً. وهذا هو حلم سياسيينا الذي بات يقترب من التحقيق في دوائر مثل تشوكوتسك فقط حتى الآن.

(٢) يورد تشومسكي جملة من الأمثلة التي تبدو وحشية في ظروف «الديمقراطية الأمريكية». ففي إحدى الحوادث أمرت الرقابة بحذف فقرة من رسالة بابا روما نشرت في الصحف الكاثوليكية، يؤكد فيها على أن الولاء لله هو الواجب الأول على المسيحي، والولاء للدولة هو الثاني.

المجتمع المسيحي (القروسطي) في أوربا، لكنه يخوض اليوم مع المجتمعات «غير الغربية» كلها جدلاً عن معنى اللغة – أي الكلمات والصور. أدى هذا الجدل بشكله البشع مثلاً إلى النزاع المتعلق برواية سلمان رشدي «آيات شيطانية». رأى الخميني في هذه الرواية سخرية ماكرة بالإسلام وحكم بالموت على الكاتب. الحكم كان رمزياً، وأعلنت إيران مراراً أن أحداً لا ينوي إرسال قتلة إلى الكاتب «المختبئ» في الغرب. لكن دور النشر الغربية لم تكتف بنشر الرواية الاستعراضي وبعدد نسخ خيالي، بل اختارت رشدي ليكون رئيس جمعية الكتاب العالمية(١).

عادت مشكلة حرية الأنباء لتظهر على نحو جديد تماماً في مجتمع المدن في العقود الأخيرة حين صارت عملياً وسائل الإعلام ***الجماهيري*** تضيق تماماً على التواصل الشخصي بصفته مصدر الأخبار الذي يجلب المعلومة الجديدة. صارت التلفزة في الولايات المتحدة منذ منتصف الثمانينيات المصدر الأساسي للأنباء لـــ ٦٢% من الأمريكيين والصحف لـــ ٥٦%، والمذياع لـــ ١٣%، والمجلات لـــ ٩%، أما التواصل الشخصي المباشر فلـــ ١% فقط (المجموع أكثر من ١٠٠% لأنه كان بالإمكان ذكر أكثر من مصدر واحد للأنباء ما يقلل أكثر من أهمية التواصل الشخصي). بذلك يستثنى من عملية تلقي المعلومة ***الحوار***، الذي يشكل الدفاع الأهم ضد التلاعب بالوعي، ويتحول متلقو الأنباء إلى **حشد** بمعنى أنهم لا يستطيعون إلا أن يتقبلوا الإشارات تقبلاً سلبياً من قبل «المتصل صاحب الإيحاء».

---

(١) في أثناء تأجيجها نيران النزاع لم تتح صحيفة واحدة أو تلفزيون واحد الكلمة لرجل دين إسلامي أو لأحد خبرائها في الإسلام ليشرح أين يرى المسلمون الإهانة التي لا تغتفر. من يتحدث بهذا الموضوع الكتاب أو السياسيون الغربيون، وبسخرية دائمة: لقد قرأت الرواية ولم أجد شيئاً من ذلك– طبعاً الأمر مضحك، لكن الحرية هي هنا فقط.

أشير في البحث الفرنسي العلمي «الحرب النفسية» (١٩٥٤) إلى هذا التغيير في دور الصحافة: «لا يدور الحديث في الدعاية على الإطلاق عن لزوم الكتابة في الصحيفة بوضوح أو التحدث في البرنامج الإذاعي عما يجب أن يفكر الفرد به وفاقاً لرغبة المروِّج، أو ما الذي يجب أن يؤمن به. المسألة عملياً مطروحة على النحو التالي: إجبار هذا الشخص وذاك الشخص على أن يفكر بهذا الأمر وذاك، أو الأدق، إجبار مجموعة معينة من الناس على التصرف بطريقة معينة. كيف يتم الوصول إلى ذلك؟ لا يقال للناس مباشرة: "افعلوا هكذا وليس على نحو مغاير"– بل يتم إيجاد حيلة نفسية تثير رد الفعل المناسب. تسمى هذه الحيلة النفسية ***المحرض***. كما نرى، ليس للدعاية على هذا النحو أي شيء مشترك مع نشر الأفكار. والحديث الآن ما عاد يدور عن نشر هذه الأفكار بل عن نشر "المحرضات"، أي الحيل النفسية وحيل التحليل النفسي التي تحرض على تصرفات معينة ومشاعر معينة وفورات غامضة محددة».

صارت وسائل الإعلام الجماهيري الأداة الرئيسية لنشر الأخبار التي تؤثر في الرأي العام. وعلى الرغم، طبعاً، من أن الأدوات القديمة ظلت تستخدم، لكنها صارت أقوى بمشاركة الصحافة الجماهيرية(١). كتب أ. مول عن وسائل الإعلام: «إنها تراقب عملياً ثقافتنا كلها، ممررة إياها عبر فلاترها، وتستخلص عناصر متفرقة من كتلة الظواهر الثقافية العامة وتضفي عليها وزناً خاصاً، فترفع قيمة فكرة معينة وتحط من قيمة أخرى، لتستقطب بذلك حقل ثقافتنا كله. ما لا يجد طريقه عبر قنوات الاتصال الجماهيري لا يبدي في زمننا أي تأثير تقريباً في تطور المجتمع». على هذا النحو لا يستطيع الإنسان المعاصر أن يتفادى تأثير وسائل الإعلام (يعني أ. مول

---

(١) مثلاً، نشر الشائعات من خلال التواصل الشفهي؛ ففي أثناء الحرب عملت في ألمانيا منظمة خاصة «مكتب شفارتس فان بيرك» مهمتها تأليف الشائعات.

بالثقافة جوانب تنظيم الحياة الاجتماعية كلها التي تهبها الطبيعة بشكلها الابتدائي).

قلّ من يصدق اليوم موضوعية الصحافة الديمقراطية المشتراة من قبل «الأولغارشيين»، لكن إنتلجنسيتنا كانت حتى وقت قريب تؤمن بها بصدق – وهذا ما يثير الدهشة. لكن الذي يثير الدهشة أكثر هو أن أحداً في الغرب لا يخفي أن وسائل الإعلام تخدم مصالح الطغم المهيمنة ولا تدعي أي نوع من أنواع الموضوعية. أعلن ملك الصحافة الأمريكي غ. ليوس (مؤسس مجلات «التايم» و«لايف» و«فورتشون» والكثير غيرها) في كلمته أمام موظفي مجلة «التايم» (١٩٧٢) أن «الموضوعية الصحفية المتصورة، أي الزعم بأن الكاتب يقدم حقائق بلا أي نوع من أنواع التقويم القيمي، هي اختلاق معاصر لا يختلف عن الكذب بشيء. إنني أرفض هذا وأدينه. إننا نقول: "فلتذهب الموضوعية إلى الشيطان"». ممتع أن تسمع إنساناً صريحاً.

سنشير إلى الأساليب المنهجية الرئيسية التي تزيد من فاعلية الصحافة في التلاعب بالوعي.

اختلاق الحقائق (الكذب المباشر). غالباً ما يعلن السياسيون ورجال الصحافة المعاصرة معاً أن الصحافة لا تستخدم الكذب المباشر – فهذا مكلف وخطر. تكرر مثل الاستعارة التالية بأشكال متعددة: «ما المغزى من الكذب ما دام بالإمكان الوصول إلى النتيجة نفسها من خلال ضخ جرعات من الحقيقة بعناية؟» يكتب أ. مول أن تشويه الواقع يتم في أكثر الأحيان من خلال عملية: «مراكمة الانحرافات الصغيرة التي تحدث دائماً بالاتجاه نفسه أكثر منه من خلال الأفعال الحازمة الماثلة أمام العين بوضوح. " Honesty is the best policy" – أنفع بكثير دائماً أن تكون صادقاً إذا كان الحديث يدور عن الحقائق من أن تصمت عنها عمداً». يؤكد كذلك على أن الانحرافات الصغيرة المؤدية إلى «استقطاب» تيار الأخبار يجب أن تكون أقل من عتبة قدرة

الإدراك الدلالية لدى المتلقي المتوسط (أي أن المتوسطين يجب أن لا يلحظوها).

يقوّم الوضع بواقعية أكبر أولئك الاختصاصيون الذين يرون أن الكذب المباشر («اختلاق الحقائق») لا يستخدم فقط في تلك الأحوال التي يكون اكتشافه فيها سهلاً. يقدم ل. فرازير في كتابه الإرشادي المشهور «الدعاية» (١٩٥٧) مثل هذا الحكم: «لا تكذب إذا كان ثمة خطر افتضاح الأمر». أما حين يكون الافتضاح صعباً بسبب من تعذر الوصول إلى المعلومة أو تكلفته الغالية فإن الصحافة تكذب بغير أي وازع («كلمة "حقيقة" في السياسة تعني أي زعم لا يمكن البرهنة على زيفه»). ويتضح أن الكذب سهل خصوصاً حين يستند إلى الصور النمطية المغروسة في اللاوعي.

حدثت لي شخصياً الحادثة التالية. كنت صيف عام ١٩٩١ في إسبانيا، فطلبت مني صحيفة أراغون الرئيسية إجراء مقابلة صحفية. حاورني محرر القسم الدولي الشاب الذكي واللطيف كارلوس. غطت المقابلة صفحتين كاملتين وكان راضياً تماماً وافترقنا صديقين. حدث «الانقلاب» في موسكو في ١٩ آب فاتصل بي كارلوس في اليوم التالي وقال لي إنه سيطير فوراً إلى موسكو وسألني إن كنت أستطيع أن أدبر له لقاءات مع أشخاص من ذوي النفوذ. ساعدته، واستطاع أن يحاور عدداً من الناشطين البارزين «من جانبي المتاريس». أكدوا له جميعهم أن موسكو لم تشهد ولو ***حادثة عنف واحدة*** من قبل العسكريين وأن أحداً لم يوجه لهم أمراً للقيام بأعمال عنف. سافر كارلوس وقدر لي أن أكون في إسبانيا في أيلول فسلمني بفخر عدداً مخصصاً بأكمله لنشر مواد رحلته إلى موسكو. نظرت إلى العدد- الصفحة الأولى ممتلئة بالصور الجميلة: موسكو، دبابة، جنود، مجموعة أناس يسندون من تحت الإبطين رجلاً مشوهاً وقد غطاه الدم من رأسه حتى قدميه. وكتابة: «***مرة أخرى تحت الجزمة العسكرية السوفييتية***... الخ». سألته مذهولاً: «كارلوس!

لقد كنتَ في موسكو شخصياً! إنك تعلم أن شيئاً من هذا لم يحدث!» نظر إلي غير فاهم حقاً: «ما الفرق؟ نشرت هذه الصورة في الصحف الأوربية كلها. لقد اشتريناها. هذه صحيفة وليست مجلة علمية».

شرح ر.إيليس مخرج المسرحيات التلفزيونية في حملة نيكسون الانتخابية عام ١٩٦٨ كيف نظم برنامج «تيليتون» الذي دخل حينذاك في الممارسة العملية والذي يجيب فيه المرشح على الهواء مباشرة عن الأسئلة التي تطرح عبر الهاتف: «يجري ذلك كله على النحو التالي. تستقبل عاملة الهاتف الأسئلة، ثم يركض السعاة حاملين إياها إلى منضدة المخرج، ومن هناك تنقل إلى غرفة السيناريو حيث يمزقونها ويكتبون أسئلتهم. تحمل بعد ذلك إلى باد ويليكسون لقراءتها قراءة فنية ثم يقدم المتحدث الجواب من البطاقة المجهزة»(١).

كانت أساليب اختلاق الحقائق قد وضعت منذ إدارة غوبلز. وكانت مبتكرةً إلى حد كبير ووضعت الاختصاصيين الغربيين في مأزق. هكذا استعمل الفاشيون أسلوب ***شبكة تأمين الأنباء الكاذبة على أنها حقيقية*** وحتى لو كانت مزعجة جداً لهم، فالكذب في مثل هذا «الغلاف» يمر بلا منغصات.

---

(١) جربوا عام ١٩٩٨ أن ينظموا في التلفزيون برنامجاً أسبوعياً لاذعاً، يتناقش فيه ثلاثة أشخاص: أحدهم «من النظام السوفييتي» والثاني من فريق غورباتشوف والثالث من فريق يلتسين. دعوني مع ف. بورلاتسكي وف. نيكونوف. طرحت في كلمتي سؤالاً على نحو لم يتماش مع السيناريو المفترض، فارتبك محاوراي وصار البرنامج مليئاً بالانفعال وكان المخرج راضياً أتم الرضى. بدأت أسئلة المشاهدين فتوجهت إليَّ فتاة تدعى يوليا وطرحت سؤالاً يتعلق بفكرة من أفكاري، كما قالت، ولم أكن قد تطرقت إليها، لا بل حتى لم نقترب من موضوعها. نظرت إلى المخرج مذهولاً، فاحمر خجلاً ثم شرح بعد ذلك قائلاً: «لقد كتبنا الأسئلة مسبقاً ولم نكن نظن أنك ستخرج كلياً عن السيناريو».

لقد أولوا اهتماماً كبيراً لعمليات التحريض لتحقيق هدف وحيد هو تصوير فيلم «حقيقي» دعائي. فقد أعلنوا لسكان كراسنودار المحتلة أن رتلاً من الأسرى السوفييت سيعبر المدينة، وأن بالإمكان منحهم المواد الغذائية. احتشد عدد كبير من السكان حاملين السلال المليئة بالأغذية، لكن بدلاً من الأسرى مرروا رتلاً من السيارات التي تقل الجنود الألمان الجرحى وصوروا فيلماً عن «استقبالهم».

تنص إحدى أهم قواعد التلاعب بالوعي على أن النجاح مرتبط بالمقدرة على عزل المرسل إليه عزلاً تاماً عن التأثير الجانبي. الحال المثلى لتحقيق ذلك هي ***كلية التأثير*** – أي انتفاء وجود مصادر معلومات وآراء بديلة غير خاضعة للمراقبة. لا يتوافق التلاعب مع الحوار والنقاشات العامة. لذلك شكلت البيريسترويكا في الاتحاد السوفييتي سابقة لا مثيل لها من حيث فاعلية برنامج التلاعب. كانت وسائل الإعلام كلها في يد مركز واحد خاضع لبرنامج وحيد (كلية الرقابة على الصحافة في أعوام البيريسترويكا كانت أشمل بما لا يقاس منها في «سنوات الركود»).

تكمن صعوبة تنفيذ هذه القاعدة في تشكيل وهم الاستقلالية لدى المتلقي، ووهم تعددية قنوات المعلومة. لذلك يبنون تنوعاً ظاهرياً في وسائل الإعلام من حيث نوع المنظمات والصبغة السياسية والأجناس والأنماط – بشرط أن تكون هذه المنظومة واقعياً خاضعة كلها لأحكام رئيسية واحدة. الحال المثلى لذلك هي حين يتمكنون من بناء (أو الأدق، حين يسمحون ببناء) مصادر معلومات معارضة جذرياً، لكنها تقتصر في صراعها المعلوماتي مع النظام على الأسئلة التي لا تلامس جوهر برامج التلاعب الرئيسية. أما في المشكلات الباقية فيسمحون للمعارضة بالتلفظ بأقذع النعوت بحق السلطة.

إذا تم الإخلال بعزل المتلقي في أثناء سير التأثير (يظهر، مثلاً، مصدر معلومات غير خاضع للرقابة) فإن عملية التلاعب غالباً ما تطوى لأن فقدان

وهم الاستقلالية يزيد بحدة دفاع الجمهور النفسي. القبول بفقدان الأموال المنفقة على المحاولة الفاشلة أفضل من تقوية الضحية – فالمحاولات التالية ستكون أكبر كلفة.

يحلل نعوم تشومسكي حادثة مثيرة للفضول. خيضت في الولايات المتحدة في الثمانينات حملة لاتهام الاتحاد السوفييتي بزرع ألغام ضد الأفراد في أفغانستان (يعدد ن. تشومسكي عناوين المقالات في الصحف الكبرى والتصريحات الرسمية للولايات المتحدة). حين أخرجت القيادة السوفييتية جيوشها من أفغانستان قدمت لحكومة نجيب الله خرائط حقول الألغام، فوزعها نجيب الله على مناطق البلاد كلها بما فيها تلك التي كانت تحت سلطة الأعداء. استناداً إلى ذلك دعا عدد من السياسيين الأمريكيين إلى تهدئة غبار الحملة الصحفية لأن موقف الاتحاد السوفييتي ونجيب الله «يمكن أن يعطيهما الأفضلية في الدعاية». لكنه لم يقدم أي أفضلية لأن أي صحيفة لم تذكر أي خبر عن ذلك (حتى في الاتحاد السوفييتي كما أظن). طويت الحملة لسبب آخر. عام ١٩٨٩ سافرت مجموعة من المتطوعين من مشاة البحرية الأمريكية الذين صحا ضميرهم إلى فيتنام للمساعدة في نزع الألغام التي زرعوها هم أنفسهم قبل ٢٠ عاماً. حين عادوا أطلقوا تصريحاً حاداً عن أن الكثيرين من الناس ما زالوا يموتون إلى الآن في فيتنام بينما ترفض الولايات المتحدة تقديم خرائط حقول الألغام. بعد أربعة عشر عاماً على انتهاء الحرب! كان هذا مثالاً على نبأ غير متوقع ويجب بعده أن تتوقف العملية من غير أي تعليقات.

انتقاء أحداث الواقع من أجل الأخبار. قد يكون الشرط الرئيسي لفاعلية برمجة التفكير هو التحكم «بمخصصات الإنسان من المعلومات». واضح أن الطبقة المهيمنة في المجتمع الطبقي تضم المالكين المباشرين للقسم الأكبر من وسائل الإعلام وتفرض الرقابة الاقتصادية على البقية المتبقية. وللإيهام

بوجود حرية الكلمة يترك قطاع غير كبير من السوق للصحافة المعارضة، التي ينجحون عادة في حصرها في أطر ضيقة. وكما قلنا سابقاً، يسمح لها بشتم الأخيرين بالكلمات، لكن من غير أن تعرض تصوراً كاملاً مترابطاً منطقياً عن الواقع. والمؤلفون الذين يشتغلون على هذا الأمر سرعان ما يكفون لسبب ما عن نشر أعمالهم.

منظومة وسائل الإعلام المبنية جيداً هي تلك التي تخلق الصور النمطية نفسها وتستخدمها مع وجود وفرةٍ في المنشورات والبرامج وتنوعٍ في «المواقف» والأنماط، وهي التي توحي بمجموعة الرغبات الرئيسية ذاتها. اختلاف وجهات النظر يتم ***تصميمه مسبقاً*** – أي يسمحون لها بأن تكون برجوازية محافظة وفوضوية، لكن شرط أن تكون بنية التفكير واحدة لديها. حتى أنهم يسمحون لك، وفاقاً لرغبتك، بأن تكون موالياً للوجكوف أو بيريزوفسكي، لكن هذه «حرية بلا ضفاف»، وهي ممكنة فقط في ظل «الفوضى» الروسية.

يقال إن من يهيمن على الآراء هو ذلك الذي يحدد بنية تيار المعلومة، وينتقي «الحقائق» و«المشكلات» محولاً إياها إلى أخبار. من طرح هذا السؤال الذي يبدو وكأنه يقلق المجتمع؟ وهل هذا السؤال مهم حقاً على خلفية الأسئلة الأخرى؟ لماذا طرح على هذا النحو تحديداً، وليس على نحو مختلف؟ لا تبقي وسائل الإعلام مكاناً من أجل الحوار ففي مقدور صاحبها أن يعلن كالمحقق «أنا هنا من يطرح الأسئلة!».

يفسر غ. شيللر سبب مثل هذا الوضع قائلاً: «باستثناء قسم غير كبير منتقى من السكان ويعرف ما يحتاج إليه، ولأنه يستطيع أن يستفيد من تيار المعلومة الجماهيري، فإن غالبية الأمريكيين يقعون في مصيدة الحرمان من أي خيار معلوماتي، وإن كان على نحو غير واع. ليس ثمة أي تنوع في الآراء عملياً لا في الأخبار من وراء الحدود ولا عن الأحداث داخل البلاد ولا

حتى في الأخبار المحلية. هذا مشروط قبل كل شيء بتماثل المصالح المادية والإيديولوجية الملازم لأصحاب الملكية (الذين يملكون في هذه الحال وسائل الإعلام الجماهيري)، وكذلك بالطابع الاحتكاري لصناعة الإعلام بالمجمل. تحد الاحتكارات الإعلامية من الخيار الإعلامي في مجالات النشاط جميعها. فهي تقترح نسخة وحيدة فقط عن الواقع – هي نسختها».

مصادرة الحقائق والمشاكل من الواقع الحقيقي مرعبة بأبعادها. فمثلاً، لا وجود عملياً في وسائل الإعلام الغربية لمعلومات جادة عن آسيا. ما يرد من الصين والهند وحتى من اليابان ليس سوى الأخبار الشاذة (السنة القمرية الجديدة، الكاراتيه، المطبخ الصيني)، أو المقززة (سياحة الجنس، الجذام، المافيا)، أو السياسية المثيرة (الإرهاب، العنف الديني، الإعدامات العلنية لتجار المخدرات).

يخصص غ. شيللر فصلاً كاملاً في كتابه «المتلاعبون بالوعي» لتحليل إحدى أهم المجلات من الناحية الإيديولوجية في الولايات المتحدة وهي «National Geographic». من قدر له أن يقرأ هذه المجلة سيوافق على أنها قد بلغت حد الكمال من الناحية الفنية (الطباعة والصور والمعالجة الأدبية). وكونها مجلة كبرى وعلمية تقريباً فإنها استحوذت على جمهور واسع (يطبع منها ما يقارب ٥ ملايين نسخة، وعدد قرائها قرابة الـ ١٧ مليوناً)، وتمر الفئة المثقفة في الولايات المتحدة كلها في مرحلة من مراحل حياتها من خلال قراءة هذه المجلة. تحضّر المجلة أيضاً جملة من البرامج التلفزيونية المشهورة. وهي في الوقت نفسه إحدى المنشورات الأكثر أدلجة إذ يضم مجلس الوصاية عليها أفراداً نافذين من الأسر الحاكمة في الولايات المتحدة. فكيف تصوغ وجهة النظر الأمريكية عن العالم؟ هاكم المبدأ الذي صاغه رئيس تحريرها الشاغل لهذا المنصب ٥٥ عاماً: «لا تلقي المجلة الضوء إلا على النواحي المؤاتية من حياة أي بلد أو شعب». المؤاتية فقط! وهذا عن

البلدان التي كانت مستعمرات ومن ثم صارت مسرحاً للحرب أو بين مخالب الاستعمار الجديد. وكما قال أحد مؤرخي هذه المجلة الأمريكيين فإن «القارئ المتكل كلياً على الـــ "Geographic" يحصل على تصور عن العالم المحيط به لا يختلف عن التصور الذي كان لدى ماري أنطوانيت[١] في مقر إقامتها في فرساي». يكفي القول إن في المواد المنشورة عن الصين عام ١٩٤٨ لم يكن ثمة أي ذكر للحرب الأهلية التي اجتاحت البلاد حينذاك – والتي انتهت عام ١٩٤٩ بحدث تاريخي هو تشكيل جمهورية الصين الشعبية.

أنجز ن. تشومسكي عملاً كبيراً جداً في مجال التحليل الكمي لانعكاس الأخبار والمشاكل المهمة في التيار الإعلامي في وسائل الإعلام الأمريكية (هذه المعطيات منشورة في العديد من الكتب مع جداول بأدق التفاصيل). شكل صمت وسائل الإعلام الغربية التام عملياً عن عمليات القتل الجماعي في تيمور الشرقية التي احتلتها إندونيسيا بعد مجيء سوهارتو إلى السلطة تجربة بليغة (كانت عمليات القتل هذه نسبة إلى تعداد السكان هي الأضخم أبعاداً بعد الهولوكوست وفاقاً لكلمات ن. تشومسكي). تم احتلال تيمور الشرقية بموافقة الولايات المتحدة ومشاركتها، وكان الصمت عن هذه الحملة البارزة بقسوتها تاماً بحيث أن سكان العالم لا يعرفون تقريباً شيئاً عنها. يصل ن. تشومسكي إلى الاستنتاج التالي: «***يتلخص المبدأ الأساسي الذي قل ما يخل به في أن الحقائق التي تتناقض مع مصالح السلطة وامتيازاتها لا وجود لها***».

يجد ن. تشومسكي في سعيه إلى تحقيق الصرامة العلمية علاقة كمية بين عدد الأخبار وحجمها والمصالح السياسية لتلك القوى التي تتحكم بوسائل الإعلام. لهذا فهو يأخذ الأحداث (المشكلات) المتشابهة. درس بالتفصيل مجال «الاغتيالات السياسية لرجال الدين» وقارن مستوى انعكاس كل حادثة في

---

(١) **ماري أنطوانيت** (١٧٥٥-١٧٩٣) ملكة فرنسا وزوجة لودفيغ السادس عشر منذ عام ١٧٧٠. **(المترجم)**

الصحف المركزية الأمريكية وفي التلفزيون. اتخذ من مقتل القس د. بوبيليوشكو في ١٩ تشرين الأول من عام ١٩٨٤ في بولونيا أنموذجاً (تمت محاكمة القتلة، ولم تكن دوافع القتل واضحة تماماً لكن صحافة الولايات المتحدة عدتها سياسية). خصص لعملية القتل هذه في صحيفة «نيويورك تايمز» ٧٨ مقالة بطول عمود كلي بلغ ١١٨٣ إنشاً، و٤٦ برنامجاً إخبارياً في شركة التلفزة الأمريكية الرئيسية. بالمقارنة مع التغطية الإعلامية لمقتل بوبيليوشكو فإن عمليات القتل الصارخة لـ ١٠٠ رجل دين بأياد المنظمات اليمينية والأجهزة الخاصة التي تتحكم الولايات المتحدة بها في أمريكا اللاتينية تقدم ما يقارب نصف التيار الإعلامي(١). أي أن «الأهمية الإعلامية» لمقتل قس في بولونيا أكبر بـ ١٤٠ مرة من «قيمة» أحداث مماثلة في منطقة نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية.

يصير هذا التباين أكثر إثارة للذهول إذا أُخذت في الاعتبار المواصفات النوعية. فقد قتلت في السلفادور دفعة واحدة ٤ راهبات من مواطنات الولايات المتحدة! خيل أن هذا الحدث سوف يهز البلاد. لكن لا، فقد خصصت الصحافة لهن اهتماماً أقل بثلاث مرات مما خصصته لمقتل بوبيليوشكو (أما بطول المقالات فـ ١٧%). إضافة إلى ذلك قتل في السلفادور المطران أوسكار روميرو، وكيف قتل - في أثناء قداس الأحد مباشرة في كنيسة العاصمة الكاتدرائية. شكلت التغطية الإعلامية في الولايات المتحدة نسبة ١/٥ من تغطية موت بوبيليوشكو (الذي كان بالمناسبة قساً عادياً).

إلى جانب الصمت عن المعلومة «غير اللازمة» وبذلك بناء واقع «افتراضي» عوضاً عن عكس الواقع، تستخدم وسائل الإعلام على نطاق

---

(١) يأخذ ن. تشومسكي عمليات القتل الصارخة فقط. عدا ذلك فهو يستثني قتل رجال الدين الذين يتعاونون مع الأنصار ومع المعارضة الراديكالية عموماً، والذين عدوا نوعاً ما مناضلين.

واسع مبدأ ***ديمقراطية الضجيج*** – أي إغراق الخبر الذي يستحيل تجنبه، في تيار عشوائي من المعلومة الخالية من المعنى والمبتذلة. يكتب غ. شيللر: «كما تعيق الدعاية التركيز وتحرم المعلومة المقطوعة من الاتزان فإن تقنية معالجة المعلومة الجديدة تسمح بملء الأثير بتيارات من المعلومة ***غير الضرورية*** التي تعقِّد على الفرد أكثر عملية البحث اليائسة عن المعنى».

الدعاية الرمادية والسوداء. ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين نمط جديد تماماً من الحياة الاجتماعية – صارت وسائل الإعلام الجماهيري تستخدم تكنولوجيا ***الحرب النفسية***. كان هذا المصطلح في البداية وبعد الحرب العالمية الأولى يرمز إلى الدعاية التي تخاض تحديداً في أثناء الحرب حتى أن بداية الحرب النفسية كانت تعد أحد أهم المؤشرات على الانتقال من حال السلم إلى الحرب. يقدم المعجم العسكري الأمريكي لعام ١٩٤٨ التعريف التالي للحرب النفسية: «إنها أنشطة دعائية مخططة تؤثر في وجهات نظر المجموعات الأجنبية المعادية أو الصديقة وفي انفعالاتها ومواقفها وسلوكها بهدف دعم السياسة القومية».

أشار غ. لاسويل في «موسوعة العلوم الاجتماعية» (١٩٣٤) إلى سمة مهمة من سمات الحرب النفسية– إنها «تؤثر باتجاه قطع أواصر النظام الاجتماعي التقليدي». أي أن الحرب النفسية بصفتها نوعاً من أنواع التأثير في الوعي موجهة قبل كل شيء إلى تدمير تلك الروابط التي تجمع الناس في ***المجتمع المغني*** كمنظومة معقدة مبنية تراتبياً. تذرير الناس هو الهدف النهائي للحرب النفسية. فلو تخيلنا، مثلاً، المجتمع السوفييتي على شكل منظومة ذات أنواع متعددة من الروابط بين الناس والمجموعات والمؤسسات الاجتماعية لكان من السهل علينا أن نرى في كل برنامج من برامج «صوت أمريكا» أي نوع من الروابط هو المرمى الذي يصوبون نحوه. يتحدثون في مرجع آخر (١٩٦٤) عن أن هدف مثل هذه الحرب هو «تقويض البنية السياسية

والاجتماعية للبلد المستهدف إلى مستوى من الانحطاط في الوعي القومي يجعل معه الدولة غير قادرة على المقاومة». وهذا تحديداً ما حدث في الاتحاد السوفييتي – وكل منا سيتذكر في قرارة نفسه إلى أي جهة أطلق النار في تلك الحرب.

تحتوي توجيهات جيش الولايات المتحدة الأمريكية «إدارة الحرب النفسية» على تعريفات أنواع العمليات:

«١- الدعاية "البيضاء" هي الدعاية التي تنتشر ويعترف بها المصدر أو الممثلون الرسميون.

الدعاية "الرمادية" هي الدعاية التي لا تكشف عمداً عن مصدرها.

الدعاية "السوداء" هي الدعاية التي تقدم على أنها نابعة من مصدر مختلف عن مصدرها الأصلي».

كانت الحرب النفسية ضد الاتحاد السوفييتي جزءا مهماً من الحرب الباردة ما يعد، بالمناسبة، اعترافاً مهماً بحقيقة أن الحرب الباردة لم تكن استعارةً. كتبت مجلة فرنسية أن إدارة المخابرات المركزية خرجت منذ الستينات «عن أطر التجسس العادي، حيث لم تحقق، بالمناسبة، نتائج كبرى، لتبدأ في الواقع حرباً نفسية معاصرة». لكن الأهم لدينا هنا هو حقيقة أن تكنولوجية الدعاية الرمادية والسوداء قد دخلت حيز الممارسة اليومية لوسائل الإعلام داخل بلدانها نفسها. كان مثل هذه الأساليب يستخدم من قبل من وقت إلى آخر وكانت أشبه بالانحرافات عن الأخلاق المهنية. يعد النجاح البارز للدعاية السوداء هو الانتصار الذي حققه المحافظون في إنكلترا في الانتخابات عام ١٩٢٥. ففي ذلك الوقت غير عدة ملايين من الناخبين نواياهم قبل بضعة أيام نتيجة التزوير الذي نشرته الصحافة («رسالة الكومنترن»). افتضاح الأمر اللاحق لم يحدث أي أثر – لن يستطيع أحد أن يبرهن أنها أثرت في الناخبين، بل إنهم، هم أنفسهم، لا يعرفون شيئاً عن ذلك.

تستخدم وسائل الإعلام أوسع ما تستخدم أساليب الدعاية الرمادية – أي «المعلومة من الأيادي الأولى والمستخلصة من بين الأصابع». كرمى لها ناضلت وسائل الإعلام طويلاً وحصلت على حق قانوني «بعدم الكشف عن مصدر المعلومة». لم يصبح الاستناد إلى «موظف رفيع المستوى من الأوساط المقربة من... فضل عدم الكشف عن اسمه» استناداً عادياً ببساطة، بل صار سائداً. لا يتم على هذا النحو الكشف عن المصدر، وبذلك لا تتحمل وسائل الإعلام أي مسؤولية عن الخبر الكاذب. وقد خبرنا، نحن في روسيا، بأنفسنا هذه الأساليب إلى أقصى حد.

الذهانات الكبرى. تكمن وظيفة وسائل الإعلام الرئيسية في المجتمع المدني، مهما بدا ذلك أقرب إلى المفارقة، في تحويل المواطنين إلى حشد ضخم، لكنه غير متجمع في مكان واحد- من خلال الثقافة الجماهيرية وتيار المعلومة الواحد الذي «يسكب العقول في قوالب أحادية الشكل وأنموذجية ويوفر لكل وحدة بشرية توافقها مع الأنموذج المعطى». لقد أشار أنطونيو غرامشي إلى أن «تنميط شكل الفكر والفعل يصل إلى بعد قومي وحتى قاري». ورأى في ذلك أزمة المجتمع المدني التي لا يمكن الخروج منها، برأيه، إلا من خلال النضال من الأسفل من أجل زعامة التفكير السليم (مع العلم أن هذا أيضاً هو أحد أشكال الالتزام).

يصدق المواطن المتوسط أشد المزاعم سخفاً مع أن التفكير السليم كان سيجبره في الحد الأدنى على أن يشكك فيها. يبدو هذا الأمر أوضح من الجانب. هاكم حادثة بسيطة. يعد الإنسان العامل في الجامعة في الغرب، وخصوصاً إذا كانت قناعاته يسارية، أن من واجبه أن يصرح بأنه لا يصدق الصحافة والتلفزيون. عن وعي – نعم، لكن ليس لديه إمكان إدراك المعلومة كلها إدراكاً واعياً. مرة دعاني وزوجتي صديقي في إسبانيا إلى القرية لزيارة أهله في عيد الفصح. انهمكت زوجتانا في المطبخ فسمعتُ حديثهما بطرف أذني. سألت زوجة صديقي زوجتي:

- كيف عشتم في الاتحاد السوفييتي من غير منسوجات التريكو؟

- بأي معنى؟

- لم يكونوا ينسجون التريكو في الاتحاد السوفييتي.

- من قال ذلك؟

سمعتُ في صوت الصديقة ارتباكاً:

- كانوا يذكرون ذلك في التلفزيون دائماً...

- لكنك تقولين إنك لا تصدقين التلفزيون.

- نعم... لكن التريكو...

قد يبدو ذلك مسلياً، لكن الإنسان الغربي يقع في مثل هذا الموقف فيما يخص مشكلات الوجود كلها، وكل فرد (وربما ليسوا كلهم إطلاقاً) لا يفلت من تحت هذا التأثير إلا في نطاق ضيق جداً. حتى أننا نحن كنا كذلك حتى وقت قريب وما زلنا لم نتغير إلا قليلاً. منذ وقت قريب اشتكت سيدة في إحدى المناظرات لـــ غ. بوبوف من أنه «لم يكن يوجد في الاتحاد السوفييتي جنس»[١].

---

(١) صارت القناعة بان أي شيء في الاتحاد السوفييتي «لم يكن موجودا» صورةً نمطية راسخة رسوخاً مذهلاً. يبدو أنهم اشتغلوا عليها جيداً جداً. تكلمت مرة في ندوة بحضور مدرسين من جامعة هافاري (إسبانيا) وشرحت لهم نزولاً عند طلبهم بنية نمط الاقتصاد السوفييتي- مع رسوم ومخططات بيانية. وقف بروفيسور من جامعة خاصة مجاورة وصاح مضطرباً: «ما الذي تقوله لنا! لم يكن يوجد في الاتحاد السوفييتي اقتصاد زراعي!» جرى الحديث بعد ذلك كالحديث عن التريكو في المطبخ تقريباً. قلت له: إنك كتلك العمة التي أكدت أن لا وجود للجنس في الاتحاد السوفييتي. غضب وأورد حجة لا ترد: «كانت البطاطا تتعفن في الاتحاد السوفييتي في عربات القطار». وافقت قائلاً: «إنك تعترف بالحد الأدنى أنه كان ثمة بطاطا، وعربات قطارات وتحتها على ما يبدو سكة حديد. سننطلق من هنا شيئاً فشيئاً». كان ذاك بروفيسوراً في الجامعة.

يكتسب تأثير وسائل الإعلام بعده القاري (الذي صار الآن ما بين القارات) «المشكل للحشد» لأنها تقيم شبكة واحدة تغطي في الواقع كلياً جمهور الناس الذين ليس لديهم لا الوقت ولا العادة من أجل إدراك الخبر إدراكاً نقدياً. يصف آ. مول حادثة معينة لردة الفعل المترابطة على الأنباء:

«كان مراسل الصحيفة الستراسبورغية يتنزه في منطقة الخط التاريخي ماجينو، فاكتشف أن شركة ما تنفذ هناك أعمال تجديد لملجأ منهار، فكتب عن ذلك زاوية في قسم الأخبار المحلية. لفتت هذه الزاوية انتباه مراسل محلي لصحيفة باريسية فنسخها لسبب بسيط هو أن حجمها مناسب ليكمل نص مجموعة الأخبار التي يعدها إلى صفحة كاملة على الآلة الكاتبة. وصل الخبر إلى باريس، حيث لم يثر اهتمام أحد سوى مراسل صحيفة أجنبية فأرسله إلى هيئة تحريره. ثم وصل الخبر من خلال الوكالة الأجنبية إلى الصحيفة النيويوركية التي نشرته على الصفحة الثانية. عثر عليه هناك محرر الصحيفة الباريسية فانتقاه. أعادت الصحف كلها التي تقتفي أثر هذه الصحيفة الباريسية وصحيفة "نيويورك تايمز" نشر هذا الخبر تحت عنوان عريض ما أدى في النهاية إلى الإيضاحات الدبلوماسية المتعلقة بهذا الأمر».

أورد آ. مول حادثة نشوء عشوائي وعفوي لعملية صغيرة جارفة. لكن ليس نادراً أن تطلق مثل هذه العمليات عمداً، ومن ثم تبذل جهود كبيرة لتطويقها. قد يكون أحد أضخم الذهانات التي حدثت مؤخراً هو الذعر الذي سببته وسائل الإعلام بخصوص مرض «جنون البقر» في إنكلترا. أهداف هذه العملية غير واضحة تماماً، ولن يكشف عنها قريباً[1]. تلخص جوهر الأمر

---

(١) وفاقاً للفرضية الضبابية التي طرحت بحذر في الصحافة الغربية كانت هذه العملية جزءاً من عملية تسميم كبرى تعرضت لها الأسرة الملكية في بريطانيا العظمى بسبب من ذنوب اقترفتها بحق قوى خفية ذات نفوذ في العالم. اعتذر عن الملكة ميجور نفسه لكن هذا الاعتذار لم ينفع.

في ظهور سيل جارف من المقالات في الصحافة الأوربية عن جائحة مرض البقر الذي يعدي الناس (يهدم نسيج الدماغ). توفى في بريطانيا العظمى بسبب من هذا المرض ١٠ أشخاص، ونشرت الصحف سير حياتهم بما في ذلك وصف وجبات اللحوم التي كانوا يتناولونها. حكمت قيادة الاتحاد الاقتصادي الأوروبي على إنكلترا تحت ضغط هذا الذهان الشامل بعقوبة غير مسبوقة وهي أن تقضي فوراً على جميع الأبقار التي يتجاوز عمرها الثلاث سنوات وأن تحرق جثثها. فرض طبعاً حظر على استيراد اللحوم منها...الخ. لو نفذت هذه العقوبات في الواقع لكانت النتيجة كارثة على الاقتصاد الإنكليزي (هل يعد مزاحاً القضاء في ساعة واحدة على ثلث قطيع المواشي الضخم). اتسع نطاق الذهان وظهرت شركات متخصصة في تخطيط محارق للأبقار وبنائها. فحرق ملايين الجثث في فترة قصيرة مشكلة تقنية لا سابقة لها.

أسطورة «جنون البقر» ألفتها وسائل الدعاية الرمادية. ولم يكن بالإمكان تحديد مصادرها من خلال الأحاديث في الصحافة والتلفزيون. استندوا في البداية إلى مقالة في مجلة «Lancet» العلمية المشهورة، لكن العلماء تبرأوا في الحال ولم تقدم المقاطع التي نشرت في الصحف من تلك المقالة أي مبرر للذعر- وما ذكرته هو افتراض إمكان الصلة بين أمراض البقر والناس. لكن في مقدور الأبقار أيضاً أن تصاب بأمراض الناس وليس العكس. وعموماً، فإن وفاة عشرة أشخاص منذ لحظة اكتشاف المرض هو رقم ضئيل جداً، ومثل هذا المرض الغريب كثير. حين اجتاح الذعر أوربا وكف الناس عن شراء لحم البقر صارت تظهر في الصحافة بحذر شديد معلومات تعيد إلى الرشد. تبين أن ٥٣ شخصاً ماتوا في إسبانيا بسبب من هذا المرض، وعدد أكبر منه في سويسرا. لكن، وعلى نحو يثير الذهول، لم يحاول أحد في الاتحاد الاقتصادي الأوروبي أن يطرح مسألة العقوبات ضد إسبانيا أو سويسرا- بينما كانت في الوقت نفسه توسلات إنكلترا من أجل الرحمة لا تلقى أي صدى. أزيحت المشكلة من وسائل الإعلام عن طريق

إثارة جديدة بحيث نسي الجميع ببساطة «جنون البقر». ما عاد أحد يذكر كيف انتهى هذا النزاع – لم يرد بعد ذلك في وسائل الإعلام أي خبر عنه. كيف رفعوا العقوبات عن إنكلترا، وعلى أي أساس– لا أحد يعرف، ولا أحد يهتم. اختفت على نحو عجيب المحارق والشركات التي أرادت بناءها. انهمك الناس بمسرحية أخرى.

٢- وسائل الإعلام: علم الدلالة التلاعبي والخطابة التلاعبية

علم الدلالة التلاعبي: تغيير معنى الكلمات والمفاهيم. تحدثنا في الفصل الخامس عن بناء لغة جديدة للمجتمع المعاصر، وعن دلالة الأسطورة السياسية بصفتها تكنولوجيا موجهة لتغيير معنى الكلمات. أحد أنواع الكذب في الصحافة هو «تصميم» الخبر من مقاطع من التصريحات أو سلسلة من مشاهد الفيديو. عندئذ يتغير السياق ويبنى من الكلمات نفسها معنى مغاير تماماً. لا تبدو «جزيئات» الخبر المتفرقة كذباً، لكن الكل الكامل الذي نحته المراسل أو المحرر قد لا يكون له أي صلة بالواقع. ثمة لدى الصحفيين أنفسهم الطرفة التالية. سألوا بابا روما حين وصل إلى إحدى البلدان: «كيف تنظر إلى بيوت التسامح؟» فأجابهم بابا روما: «وهل هي موجودة لديكم؟» ظهر في الصحف في اليوم التالي خبر عاجل: «أول ما سأله بابا روما حين حط على أرضنا: هل لدينا بيوت للتسامح؟»

نؤكد مرة أخرى على المسألة التي ذكرناها عن أهمية علم المصطلحات في التلاعب بالوعي. يحذر غ. شيللر من أن «من المهم على كل من يناضل ضد منظومة الظلم أن يفهم أي قوة يتمتع بها من يتحكم بعملية صياغة التعريفات. تعليق اللصاقات المزيفة وتشويه أهداف صراع الأعداء الإيديولوجيين هما أسلوب أنموذجي لآلة المستغِل الدعائية. لذلك فإن الخطوة الأولى نحو فرض الرقابة على التعاريف تتلخص في عدم التنازل عن المساحة المصطلحية المهمة إلى أقصى حد».

أنجز في الولايات المتحدة في أثناء الحرب في فيتنام عمل ضخم لبناء لغة خاصة بالأنباء الصحفية. وضعت معاجم كاملة (THESAURUS) من أجل الرمز إلى هذه الظواهر أو تلك أو هذه الأفعال أو تلك، التي تولد لدى القارئ الانطباع المطلوب (يجري في الأعمال اللغوية تعداد مبادئ انتقاء الكلمات أيضاً). يرى عدد من الباحثين أن «لغة فرعية» قد اصطنعت وحملت اسم الفيتليزية [الفيتنامية الإنكليزية] (Vietlish, Vietnam English). وهكذا سميت العمليات العسكرية في فيتنام في الصحافة منذ عام ١٩٦٥ «برنامج إحلال السلام». وقد دخلت هذه الكلمة الاستعمال حتى أنه كان بالإمكان أن نقرأ في الصحف مثل هذا الخبر: «قاومت إحدى القرى بعناد إحلال السلام ما استلزم في نهاية الأمر تدميرها».

تسير عملية بناء اللغة المصطنعة في اتجاهين. يتم البحث عن كلمة مقبولة من حيث ***السلالة***. أي تنتقى الكلمات في السلالة (مجال المعاني) التي تحتوي على ما يمكن سحبه على ما ترمز إليه الظاهرة المعنية. حتى لو كان ذلك واحداً من معاني الكلمة الكثيرة، من الدرجة الثالثة أو قليل الاستعمال. لكنه موجود ولا يعد استعماله كذباً مباشراً. ***إحلال السلام*** و***الحرب*** يمكن أن تغطي إحداهما الأخرى، لذلك يؤخذ ***إحلال السلام*** عوضاً عن ***الحرب***. تأثير الكلمة الثاني هو ***المدلول***، أي تلك التداعيات التي يحرض عليها النطق بهذه الكلمة أو قراءتها. وهكذا احتلت في الدعاية مكاناً مهماً كلمة «ضبط النفس». مدلولها مفيد للدعاية. الإنسان المنضبط... لن تستطيع أن تقول إن الولايات المتحدة أظهرت في فيتنام حباً للسلام أو إنسانية، فهذا سيكون كذباً مباشراً. بل ضبط النفس... فهي لم تستعمل السلاح النووي! عام ١٩٧٢ أعلن نيكسون في خطابه الموجه للأمة: «أظهرت الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب كلها درجة لا مثيل لها من ضبط النفس في سجلاتها العسكرية». هنا، عموماً، بالغ كثيراً ما أثار تعليقات ساخرة في الولايات المتحدة.

المفهوم المفصلي الآخر كان التركيب اللفظي «رد الفعل الدفاعي». الدفاع... فعل الرد... مثلاً، سمي القصف المركز على فيتنام الشمالية عام ١٩٧٢ (١٣٩ غارة) «رد فعل دفاعي»(١). يكتب اللغويون أنه تم في أثناء الحرب الفيتنامية وضع أساليب بناء ***تعابير سياسية معقدة ملطفة***. وهذه ليست كلمات ومفاهيم منفصلة بل تصاميم لغوية كبيرة ذات تأثيرات في الوعي مقاسة بدقة(٢).

أزيلت من اللغة الكلمات كلها التي تثير التداعيات السلبية: ***الحرب، الهجوم، سلاح تدمير القوى الحية***. وأدخلت عوضاً عنها كلمات محايدة: ***نزاع، عملية، جهاز*** (*antipersonnel device*). على هذا النحو أنبأ قائد «عملية الفينيق» ي. كولبي في ١٩ تموز من عام ١٩٧١ أن جوهر العملية كان تنظيم اغتيال الناشطين الاجتماعيين غير المرغوب فيهم في فيتنام الجنوبية، وأنه تم حتى تلك اللحظة القضاء على ٢٠٥٨٧ من هؤلاء الناشطين. سميت المناطق الميتة التي دمرت فها النباتات بالديوكسين «مناطق عازلة»، وسمي النابالم «قذيفة ناعمة»، ومعسكرات الاعتقال العادية «قرى إستراتيجية»...الخ. فرضت محرمات على استخدام عدد كبير من الكلمات الطبيعية وتم الالتزام بهذه المحرمات التزاماً صارماً. وقد أعلن رئيس الجمعية

---

(١) بعد ردة الفعل الدولية الحادة جداً أقيل الجنرال الطيار د. لافيل من منصبه بسبب من «معرفته السيئة بعلم الدلالة»، التي أدت بالنتيجة إلى قيامه بالقصف من غير مصادقة القيادة العليا. بيد أنه راح في جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ يزمجر ويبرهن أن عبارة «رد الفعل الدفاعي» كانت محددة رسمياً وأن القيادة كانت مطلعة اطلاعا صحيحاً على طابع العمليات. كتب الطيارون في تقاريرهم بعد الغارات – تم تنفيذ «رد الفعل الدفاعي».

(٢) العمل الكبير في مجال أساليب «إضفاء المعنى الكاذب على الحقائق الصريحة بمساعدة الوسائل اللغوية» أنجز من قبل اختصاصيي غوبلز، وثمة مراجع كثيرة حول هذا.

اللغوية الأمريكية د. بولينجر حينذاك أن «أمريكا هي المجتمع الأول الذي تمكن من تحريم كل ما هو مثير للاستياء تحريماً حقيقياً».

يغير اليوم السياسيون والصحافة معاني الكلمات وقواعد اللعبة تبعاً لتقلب الأوضاع. وكما قال غ. تشيستيرتون: «كان "الحل الوسط" يعني من قبل أن نصف رغيف من الخبز أفضل من لا شيء. "الحل الوسط" لدى السياسيين الحاليين يعني أن نصف رغيف الخبز أفضل من الرغيف كله». حين «تحدى» صدام حسين في كانون الثاني من عام ١٩٩٣ الأمم المتحدة وطلب أن تدخل طائرات الخبراء أجواء العراق من جهة الأردن وليس من الجنوب شرح خبير حقوقي من جامعة مدريد لمستمعي الإذاعة لماذا ينبغي أن يتعرض العراق للقصف فوراً على هذا الطلب. لم يكن ثمة حاجة على الإطلاق إلى مثل هذا الشرح لو لم تكن في الجوار إسرائيل التي تخل مرتاحة البال بقرارات الأمم المتحدة كلها. بدا كل شيء بسيطاً للبروفسور. نعم، إسرائيل تحتل أراضي الغير وتهجر الفلاحين العرب من أراضيهم (وتطلق النار عليهم من وقت إلى آخر). لكن المجتمع الدولي لا يستطيع الضغط على إسرائيل ومساواتها باستبداد حسين لأن إسرائيل ***دولة قانون***. على الفلاح العربي المهجر، إذا أخطأ جاره الديمقراطي، أن يلجأ إلى المحكمة، والمحكمة في إسرائيل متحضرة. يقال هذا الكلام من أعلى كرسي وبكل ما للعلم من نفوذ – ويقلب رأساً على عقب مفهوم ***الحق*** نفسه. إنه الآن لا يهتم بحقوق الشخص الذي صار ضحية الجار المسلح بل بحق المعتدي. مسموح لهذا، ولذاك غير مسموح.

إن التعابير السياسية الملطفة، التي تقنّع المعنى الحقيقي للظواهر، تبنى أيضاً بمساعدة ***المصطلحات***. وهي كلمات خاصة لها معنى دقيق مع العلم أن الجمهور ينقسم انقساماً حاداً إلى الذين يعرفون المعنى الدقيق للمصطلح والذين لا يعرفونه. لكن الرئيسي في الأمر هو أن المصطلحات تتمتع بتأثير سحري في الوعي لأنها تحمل ختم نفوذ العلم. يخيل للناس أن من غير

الممكن أن تسمي قذارة ما بمصطلح جميل. تنتمي مثلاً كلمة ***حظر*** (EMBARGO) إلى مثل هذه المصطلحات. إذا كان الديمقراطي الغربي المتوسط يشعر بشيء من الصعوبة من جراء القصف المدمر للعراق «كعقوبة»، فإن فرض ***الحظر*** الشامل في آب من عام ١٩٩٠ على التجارة مع العراق لم يثر أي اعتراض على الإطلاق. لكن هذه الخطوة أخطر بكثير من القصف. سأحاول تفسير ذلك انطلاقاً من أوضاع واضحة. فالشائع أن النظام القائم في العراق هو نظام شمولي وديكتاتوري. العراق ليس الدانمرك أو اليونان وليس للسكان هناك حقوق ولا تقاليد ولا آليات كي يفرضوا رغباتهم على السياسيين العراقيين. لكن إذا كان الأمر كذلك فإن السكان يتحملون أيضاً مسؤولية أفعال قيادة النظام العليا. ووفاقاً للمنطق البسيط فإن معاقبة الفلاح العراقي بقتل ابنه جوعاً يعني أخذ هذا الفلاح ***رهينة*** ومعاقبته كي يضغط على عدوه (صدام حسين). مثل هذه التصرفات بحق الأوروبي، وفي طفولتي، بحق المواطنين السوفييت، كانت تعد جريمة حرب، وكل من كان يعطي أمراً بمثل هذه الممارسات كان يرسل إلى المشنقة. لكن هذا يسمى اليوم بحق الفلاح العراقي «آلية الحق الدولي»، ***وحظراً***. كلمة ***رهينة*** لا تستخدم – أي أنها محرمة.

تؤدي الاستعاضة عن الكلمات والمفاهيم بتعابير سياسية ملطفة بصفتها تكنولوجية كاملة إلى مرض المجتمع مرضاً شديداً كان فوكيديد قد سماه ***فساد اللغة***. بعد أن كان شاهداً على سقوط أثينا ترك وصفاً للفساد بصفته المؤشر الأهم لهذا السقوط. ومن بين أنواع الفساد الأخرى ميز خصوصاً فساد اللغة – حين بدأت الكلمات تعني عكس ما كانت تعنيه دائماً. صارت شتى الأحزاب تستخدم الكلمة نفسها بمعان مختلفة.

التبسيط، وصناعة الصور النمطية. لعبت الصحافة (ووسائل الإعلام عموماً) الدور الأهم في «تشكيل الحشود» في المجتمع الغربي. كان إنسان

الجمهور وهو نتاج الثقافة الفسيفسائية، مصنوعاً إلى حد كبير من قبل الصحافة. سرعان ما صارت وسائل الإعلام نفسها مادة للدراسة في ديناميه الثقافة الاجتماعية، وسرعان ما اكتشفوا الصلات بين الخبر البسيط وعملية إدراكه، وحتى أنهم عبروا عنها رياضياً. إن وسائل الإعلام، خلافاً للثقافة السامية، مخصصة للجماهير تحديداً[١]. لذلك فرضت فيها حدود صارمة على فرادة الخبر ودرجة تعقيده (وحتى على عدد الكلمات مع أنهم يسمحون بكلمتين مبهمتين أو ثلاث في المقالة كنوع من «البهار» – فهي تزيد من جاذبية المقالة بفضل تأثيرها الآني). عموماً، تكونت منذ وقت بعيد القاعدة التالية: «يجب أن يكون للخبر مستوى من الوضوح متوافق مع مُعامل القدرات الفكرية بـــ ١٠ درجات أقل من معامل تلك الفئة الاجتماعية التي يوجه الخبر إليها» (أ. مول).

يكمن في هذه القاعدة التجريبية تبرير نفسي مفاده أن الإنسان ميال في لاوعيه إلى التفسيرات البدائية للمشكلات المعقدة. نظرية ***التبسيط*** طرحها منذ بداية العشرينات أو. ليبمان (حين كان الصحفي رقم واحد في الولايات المتحدة). لقد رأى أن عملية الإدراك هي ليست سوى تسوية ميكانيكية لظاهرة ما زالت غير معروفة ضمن صيغة مستقرة عامة (صورة نمطية). لذلك يجب أن تقوم الصحافة ***بتنميط*** (نمذجة) الظاهرة التي أضحت موضوع الخبر. عندئذ ينبغي على المحرر، وفاقاً لتعبيره، أن يستند إلى الصور النمطية والآراء الروتينية وأن «يهمل بلا رحمة الدقة». يجب أن يدرك الإنسان الخبر بلا جهد وبلا نقاش، ومن غير صراع داخلي وتحليل نقدي. «الشيوعية تتمسك بعناد بكل ما هو سيئ. فتعالوا نتمسك بعناد بكل ما هو جيد» (ج. فوستر دالاس) – أمامكم أنموذج نمطي للتبسيط. وعلى هذا الأساس تتشكل

(١) «تكمن وظيفة وسائل الاتصال الجماهيري في أنها تجعل منتجاتها تتلاشى أو تتناثر في ما يسميه كورت ليفين ومورينو الحقل الاجتماعي». (أ. مول).

المذهب التبسيطي (reductionism) في وسائل الإعلام المعاصرة – أي تحويل المشكلات والظواهر الاجتماعية الحقيقية إلى مزاعم مبسطة إلى أقصى حد وسهلة على الإدراك.

يفقد الناس الذين يفكرون من خلال الصور النمطية المقدرة على الاتكال حتى على أسس نظامهم الخاص المعتاد الذي يخضعون له – فهذه الأسس تغدو غير واضحة خلف الصور النمطية. عام ١٩٥١ أجرت صحيفة أمريكية التجربة التالية. وضع موظفوها عريضة وتوجهوا إلى ممثلي الطبقة الوسطى للتوقيع عليها. نصت العريضة على التالي: «إذا صار أي شكل من أشكال الحكم يمنع تحقيق أهداف الشعب فإن الشعب يملك الحق بتغيير هذا الشكل أو تدميره وبناء حكومة جديدة مؤسساً إياها ومنظماً سلطتها على المبادئ وبالشكل الذي يراه الأنسب لتوفير أمنه وسعادته». رفض من بين ١١٢ شخصاً ١١١ التوقيع عليها عادين أنها عريضة «حمراء» ويمكن أن يطردوا من أعمالهم على الفور إذا وقعوا عليها. كان ذلك النص في الواقع مقطعاً من إعلان استقلال الولايات المتحدة.

قلنا سابقاً إن ما يلي عملية التبسيط هو ***التذليل***، أي البحث عن أكثر الكلمات ملائمة لكي يكسى بها الأنموذج الساذج. بنى أخصائيو الصحافة وفاقاً لتعبير أحدهم «سلسلة كاملة من الكليشيهات والشعارات والنعوت والجمل المقتضبة لكن الغامضة، التي يمكن بوساطتها وصف أي نبأ دولي». يصير إنشاء خبر جاهز عملاً هندسياً.

التأكيد والتكرار. يسمح التبسيط بالتعبير عن الفكرة الرئيسية التي ينبغي الإيحاء بها للجمهور «بالشكل المقتضب والحيوي والمثير للانطباع»- أي بشكل ***التأكيد*** (مثل أوامر المنوم المغناطيسي- أوامر بلا اعتراض). وكما يكتب س. موسكوفيتشي فإن «التأكيد في أي كلام يعني رفض المناقشة ما دامت سلطة الإنسان أو الفكرة التي يمكن أن تتعرض للنقاش تفقد أي شبه لها

بالحقيقة. هذا معناه كذلك الطلب من الجمهور قبول الفكرة كما هي من غير مناقشتها، الإجابة "بنعم" بلا تفكير ومن غير أن توزن كل الـــ "مع" وكل الـــ "ضد"».

صارت وسائل الإعلام في الوقت نفسه، استناداً إلى نمط تفكير إنسان الجمهور المتكون في الثقافة الفسيفسائية، العامل الأهم في تأكيد هذا النمط من التفكير. لقد علَّمت الإنسان التفكير من خلال الصور النمطية وخفضت تدريجياً المستوى الفكري للأخبار بحيث تتحول إلى أداة لنشر الغباء. يؤدي هذه المهمة المنهج الرئيسي في ترسيخ الصور النمطية اللازمة في الوعي – أي *التكرار*.

كان التكرار المتواصل واللجوج للكلمات والجمل والصور في وسائل الإعلام هو أول ما وقعت عليه عين الإنسان السوفييتي حين يذهب إلى الغرب. كان ذلك مدهشاً، لكنه تكنولوجيا ببساطة، وقد تعرفنا كلنا عليها في أعوام البيريسترويكا وما زلنا نعاني من تأثيرها يومياً اليوم. كتب س. موسكوفيتشي في «التعاليم عن الجماهير»: «تعتمد قواعد الإقناع على التأكيد والتكرار، على هذين المبدئين الرئيسيين». ثم يورد كلمات لوبون: «ينغرس التكرار في نهاية الأمر في أعماق اللاوعي حيث تولد من هناك دوافع تصرفاتنا». وقد استخدم هذا استخداماً كاملاً في الدعاية التجارية.

واضح أن التكرار هو إحدى «الخدع النفسية» التي تثلم الإدراك وتؤثر في آليات اللاوعي. عند الاستخدام السيئ لهذا الأسلوب تشتد الصور النمطية لتصير أوهاماً مسبقة راسخة، ويزداد غباء الإنسان. يولي س. موسكوفيتشي لهذا الأسلوب الكثير من الاهتمام، فيكتب: «على هذا النحو يعد التكرارُ الشرطَ الثاني للدعاية. إنه يضفي على المزاعم وزن القناعة الإضافية ويحولها إلى أفكار لجوجة. حين تسمعها المرة تلو المرة وفي شتى النسخ وبشتى أنواع المناسبات فإنك تبدأ تتشبع بها. وتأخذ هي نفسها تتكرر على نحو غير ملحوظ كاللغة والأفكار تماماً. يشيد التكرار في الوقت نفسه حاجزاً حتمياً في وجه أي

مزاعم أخرى وأي قناعات معاكسة من خلال استرجاع تلك الكلمات والصور والمواقف نفسها من غير أي محاكمات. يضفي التكرار عليها قابلية أن تكون ملموسة ووضوحاً يجبران على قبولها بالكامل من أولها حتى آخرها كما لو أن الحديث يدور عن منطقٍ قد حدث في مصطلحاته فعلاً ما كان ينبغي أن يتم البرهان عليه...

كونه فكرةً لجوجة يصير التكرار حاجزاً ضد الآراء التي تتميز عن موضوعه أو تختلف عنه. بذلك فإنه يخفض المحاكمات حتى الحد الأدنى ويحول الفكرة سريعاً إلى فعلٍ كان قد تشكل لدى الجماهير رد فعل منعكس شرطي تجاهه كما حدث لكلاب بافلوف الشهيرة... تنفصل الفكرة من خلال التكرار عن صاحبها. تتحول إلى وضوح غير مرتبط بالزمن والمكان والشخصية. وهي لا تعد بعد الآن تعبيراً عن الإنسان الذي يتكلم بل تصير تعبيراً عن الشيء الذي يتكلم عليه... للتكرار أيضاً وظيفة الربط بين الأفكار. فهو إذ يوجد في أغلب الأحيان بين مزاعم وأفكار متباينة فإنه يخلق مظهر السلسلة المنطقية». ما إن يظهر هذا المظهر حتى يسهل الاستحواذ على جمهور الإنتلجنسيا. يستطيع المثقف الآن وبكل نفس طيبة أن يصدق أي سخف لأنه لا يعترض على المنطق - «شرطة أمزجة الإنتلجنسيا».

التهشيم والفورية. تقسيم المشكلة الكاملة إلى مقاطعها المختلفة بحيث لا يستطيع القارئ أو المشاهد أن يربطها ويدركها ككل واحد هو أحد جوانب التبسيط الخاصة والمهمة. إنه المبدأ الأساسي في الثقافة الفسيفسائية. يتحقق التهشيم من خلال جملة من الأساليب التقنية: تقسم المقالات في الصحف إلى أجزاء وتنشر على صفحات مختلفة، أو يقطعون النص والبرامج التلفزيونية بالدعاية.

يقدم غ. شيللر وصفاً لمثل هذه التكنولوجيا: «لنأخذ، مثلاً، مبدأ إنتاج برنامج تلفزيوني أو إذاعي عادي أو مكونات الصفحة الأولى من صحيفة يومية كبرى. الصفة العامة لها جميعها هو التنوع التام في المادة المقدمة

والرفض المطلق للصلات المتبادلة بين الظواهر الاجتماعية. البرامج الحوارية الغالبة في الإذاعة والتلفزيون هي عبارة عن أنموذجات للتقطيع بصفتها أشكالاً لضخ المادة. مهما يقال فيها فإن كل شيء ينحل انحلالاً كاملاً في الإعلانات الدعائية اللاحقة والخدع التجارية والمشاهد الحميمية والنمائم».

يرى ب. فريره في التهشيم «أسلوباً مميزاً للقمع الثقافي» ومتبعاً كشكل خاص من أشكال تقديم المادة في الولايات المتحدة. انتشر هذا الأسلوب من الولايات المتحدة إلى منظومات وسائل الإعلام كلها التي تشتغل بالتلاعب. يشرح غ. شيللر فاعلية هذا الأسلوب على النحو التالي: «حين يلتفون عمداً على الطابع الكلي للمشكلة الاجتماعية ويقدمون أنباء متقطعة عنها على أنها "معلومة" موثوقة فإن نتائج هذا الأسلوب تكون واحدة دائماً: عدم الفهم، وعدم الاطلاع في أحسن الأحوال، وعدم الاكتراث واللامبالاة كقاعدة عامة». حين يمزقون المعلومة عن أمر مهم إلى أشلاء، وقد يكون حدثاً مأساوياً، فإنهم ينجحون في التقليل كثيراً من تأثير الخبر أو يفقدونه معناه تماماً[(١)].

لا تحمل عشوائية تيار الأخبار في الواقع سوى طابع ظاهري، ويتم انتقاء الأحداث التي يقررون تقديم المعلومة عنها من قبل بنية اجتماعية محددة يدخل في عدادها رجالات وسائل الإعلام القياديون. يكتب أ. مول: «مهمة مجموعة الرجالات تلك تنحصر في فرز من بين كل شيء ما هو **جديد** فقط (بالمعنى الأوسع للكلمة، أي بالأخذ بعين الاعتبار أن الجِدة تحمل طابعاً نسبياً

---

(١) يكتب غ. شيللر: «اللامبالاة التامة التي تبديها الدعاية تجاه أي حدث سياسي أو اجتماعي حين تقتحم البرنامج، بغض النظر عن الحديث الذي يدور فيه، تهبط بأي ظاهرة اجتماعية إلى مستوى أحداث لا تعني شيئاً». لقد عانينا من ذلك حين عرضوا عام ١٩٩٢ دعاية شامبو «ويدال ساسون» بعد اللقطات التي صورت جثث القتلى العارية التي جلبت من البرادات في تيراسبول بعد قصف خريجي المدرسة بالصواريخ. فعل التلفزيون الشيء نفسه بعد التقرير عن انفجار طريق كاشيرسكي السريعة في موسكو عام ١٩٩٩.

جداً)، وعدد غير كبير من ***العناصر والحقائق*** التي تستجيب للمعايير المعروفة المصوغة بدقة... عملياً، تحدد وسائل الاتصال الجماهيري بنفسها «أهمية» الحقائق... فهي تحديداً التي تقدم الحقائق بحيث يمثل في وعي ملايين الناس نبأ زواج الأميرة الإيرانية كحدث لا يقل أهمية عن الاكتشاف الأخير الضخم في مجال الطاقة الذرية».

«تصمم» وسائل الإعلام ظاهرياً تيار الأخبار العشوائي بحيث تخلق لدى القارئ أو المشاهد الصورة الكاذبة عن الواقع التي يحتاج إليها المالكون (والأوسع- الطبقة المهيمنة). يرتكز معيار انتقاء الأخبار إلى النظريات المتقدمة بما فيه الكفاية والجهاز الرياضياتي. يقوّم في كل خبر ***مستوى الصعوبة والمسافة التي تفصل عن الفرد*** (تفرق وسائل الإعلام عند القيام بهذه الحسابات بين ٤ إلى ٥ طبقات عمقٍ في نفسية الإنسان يجب أن يؤثر فيها النبأ). يكتسب الخبر من بين هذه المعطيات ***درجة أهميته*** التي تنطلق منها صياغة الصحيفة أو البرنامج الإخباري. لا يقْدِم المحررون الخبيرون، طبعاً، على تنفيذ مثل هذه الحسابات، فهم متمكنون من هذه الأساليب غريزياً (لكن الأمر الرئيسي هو أنهم يلتقطون بدقة الإشارات الآتية من «الأسياد»).

أحد شروط تقطيع المشكلة الناجح، والذي يبدو مبرراً، هو ***فورية*** المعلومة وسرعتها، وإكسابها صفة العجلة وعدم قابلية تأجيل الخبر. إن هذا هو أحد المبادئ الأساسية في وسائل الإعلام الأمريكية. يعتقدون أن ضخ الإحساس بالفورية يزيد بحدة من إمكاناتهم التلاعبية. إن التجديد اليومي، وأحياناً، كل ساعة، للمعلومة يحرمها من أي بنية ثابتة. فالإنسان ببساطة ليس لديه الوقت ليستوعب الأخبار ويفهمها - لأن أخباراً أجد منها تحل محلها.

كتب غ. شيللر: «الإحساس الخادع بالفورية، الذي يظهر بسبب من الإلحاح على العجلة، يخلق شعوراً بالأهمية غير العادية لمادة الخبر، وسرعان ما يتشتت هذا الشعور، وبالتالي يضعف المقدرة على تحديد درجة أهمية المعلومة. الأخبار المتوالية بسرعة عن الكوارث الجوية وعن هجوم

قوى التحرير الوطني في فيتنام، وعن الاختلاسات والإضرابات، وعن الحر الشديد... الخ، تمنع وضع التقويمات وتمنع المحاكمات. ومع مثل هذا الوضع تصير عملية التصنيف الذهني، التي تمكّن في الأحوال العادية من إدراك المعلومة، غير قادرة على تنفيذ هذه الوظيفة. يتحول الدماغ إلى غربال يسقط منه كل ساعة سيل من الأخبار، المهمة أحياناً، لكن الفارغة في قسمها الأساسي... يدمر تركيز الانتباه التام على الأحداث الجارية في اللحظة الحالية الصلة الضرورية بالماضي».

استطاعت وسائل الإعلام أن تقطع «سلسلة الزمن» من خلال إغراق الإنسان بالأخبار «العاجلة دائماً»، وخلقت نوعاً جديداً تماماً من الزمن – زمن المسرحية – الذي يكون الإنسان فيه محروماً من الإحداثيات التاريخية (بمعنى أنه يكف، مثلاً، عن أن يكون مسيحياً). تحدثنا أكثر من مرة عن الأهمية الكبرى لنزع الدفاعات النفسية ضد التلاعب. قال الفيلسوف الفرنسي (من اليونانيين) ك. كاستورياديس في لقاء صحفي عام ١٩٤٤ مجيباً عن سؤال حول كيف استطاع هذا «الزمن المتوقف» إلغاء المعنى من كل ما يحدث: «ثمة الآن زمن متخيَّل يتلخص في رفض الماضي الحقيقي والمستقبل الحقيقي – زمن من غير ذاكرة فعلية ومن غير مشروع فعلي. يخلق التلفزيون صورة قوية ورمزية جداً عن هذا الزمن: الموضوع المثير أمس كان الصومال، اليوم ليس ثمة أي ذكر للصومال؛ وإذا انفجرت روسيا، ويبدو أن الأمر يسير نحو ذلك، فسيتحدثون عنها يومين ومن ثم ينسونها. اليوم، لا يضفى فعلياً على أي شيء أي معنى سام، إن هذا ***حاضر أبدي*** أشبه بهريسة هرست مكوناتها كلها وصارت في المستوى ذاته من الأهمية والمغزى».

كان بإمكان تصوير وسائل الإعلام الغربية للعملية العسكرية الغربية التي قامت بها الولايات المتحدة في الصومال («عودة الأمل») أن يكون مادة تدريسية رائعة. لكن يا للأسف فقد تم على الأرجح نسيانها في روسيا. تابعتُ

هذه العملية من خلال التلفزيون الغربي، وكان ذلك حينذاك ما يزال أشبه بالأعجوبة. كانوا طوال فترة العملية يقصفون الناس بتقارير مثيرة وعاجلة من مكان الأحداث – ولم يشرحوا ولو ***مرة واحدة*** المعنى من هذه المغامرة. وفي أثناء ذلك كان عرض هذا المنظر المرعب يترافق مع تعليقات ساخرة ومتهكمة بحيث يشعر الإنسان البسيط الذي لم يكن بعد قد اعتاد على النظام العالمي الجديد بالصدمة. مرة أفرغ مشاة البحرية الأمريكية بسبب من الملل قذائف أسلحتهم في مقديشو ضد مجموعة «أنصار» كانت تجلس في أحد الأكواخ. لم يحاول أحد حتى أن يستوضح ضد أي مجموعة – فالأمر سيان. قال المذيع التلفزيوني بكل فخر إن «التفوق الناري لدى الجيش الأمريكي كان ساحقاً». لم يكن «الأنصار» في الواقع يجرؤون حتى على إطلاق طلقة ***واحدة***، ورفعوا في الحال خرقة بيضاء– لقد نُقلت العملية «النبيلة» من بدايتها إلى نهايتها عبر البث المباشر وسجلت على شرائط الفيديو (راح الصوماليون فيما بعد يقذفون بالحجارة المصورين التلفزيونيين الذين صوروا هذه العملية). كنا نشاهد على الشاشة كيف يسوق عمالقة مشاة البحرية أسرى الأعداء أمامهم – عدداً من المصابين بسوء التغذية، وبعضهم يسير على عكازات. يضيف المذيع بسخرية دقيقة: «يبدو أن هجوم الجيش الأمريكي لم يعجب الصوماليين، إذ راح الأطفال الجائعون يرمون بالحجارة الشاحنات التي كانت تحمل لهم المساعدات الإنسانية». كان في اللقطة التالية أطفال أشبه بالهياكل العظمية يقذفون الحجارة بآخر قوى يمتلكونها نحو شاحنات «US Army» التي كانت تحمل لهم الطعام. ما إن كفت الولايات المتحدة عن «إعادة الأمل» حتى اختفت كلمة الصومال نفسها من الصحف وعن شاشات التلفزيون في يوم واحد وكان اختفاؤها ***تاماً***. لا «أنصار» ولا جوع وما عاد أحد في وسائل الإعلام الغربية مهتماً.

قد يكون في تيار الأنباء من نيكاراغوا عبرة أكبر. فحين بدأت الولايات المتحدة حربها الكبرى ضد الحكومة الساندينية الاشتراكية الديمقراطية صارت نيكاراغوا أحد أهم المواضيع في الصحافة الغربية. عام ١٩٩٠ أعطى شعب هذه البلاد الصغيرة، والدموع في عينيه بعد أن أُنهِك، السلطةَ في الانتخابات للمعارضة التي وعدتها الولايات المتحدة بالسلام وتقديم مساعدة قدرها ٠،٥ مليار دولار. كان مخصصاً خلال تلك الفترة لنيكاراغوا في الصحف صفحة كاملة. تابعت الصحافة الإسبانية وكان هذا الموضوع في كل مكان فيها هو الرقم ١ - كانت اللغة العامة والثقافة القريبة والحزب الحاكم في إسبانيا مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالساندينيين. فأومبيرتو أورتيغا وفيليبه غونزاليس صديقان... الخ. سلم الساندينيون السلطة - وفجأة اختفت نيكاراغوا من على صفحات الصحافة والتلفزيونات تماماً. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ كان ثمة اهتمام لدى الإسبانيين بمعرفة كيف سارت الأُمور هناك، فلدى الكثيرين منهم أقارب هناك. لكن لا أخبار على الإطلاق. استطاعوا أن يعرفوا بعض الأمور من خلال اليسوعيين - فهناك الكثيرون من المبشرين، وبعضها الآخر من خلال الطلاب الذين سافروا إلى هناك لينقلوا إلى المدارس الكتب المدرسية وأقلام الرصاص التي جمعوها. ثم قفزت إلى الصحافة مادة كتبها أمثال أولئك السفراء، وكانت مذهلة. خصخص «الديمقراطيون» الذين استلموا السلطة المُلكيةَ العامةَ كلها، فاستحوذت عليها بضع أسر (كان كل شيء من قبل ملكاً للديكتاتور سوموزا ومن ثم خضع للتأميم). أما الولايات المتحدة الأمريكية التي أنفقت على الحرب ١٠ مليارات دولار فلم تقدم المعونة التي وعدت بها. بنتيجة ذلك شكلت البطالة في نيكاراغوا ٨٠% من السكان القادرين على العمل! وحدث ما لم يكن يتوقعه أحد - اتحد المحاربون القدماء في الحرب الأهلية والساندينيون والـ «كونتراس» وتوزعوا والسلاح في أيديهم على التعاونيات ليحموها من الخصخصة. يعيش الشعب هناك على بيع القهوة التي

تنتجها هذه التعاونيات (عمل في إحداها في قطاف القهوة الطلاب الإسبانيون الذين كتبوا هذه المادة). لكن هذا ليس بالحدث الذي تنشره وسائل الإعلام الغربية للجمهور الواسع.

الإثارة. يسمح استخدام ***الإثارة*** بتقطيع المشكلة وتجزئة المعلومة كي لا يحصل الإنسان أبداً على معرفة كاملة نهائية. إنها تلك الأخبار عن الأحداث التي تحظى بأهمية وتَفرّد فائقين فيتركز انتباه الجمهور عليها ويظل متركزاً المدة اللازمة من الوقت. يمكن تحت غطاء الإثارة إما الصمت عن الأحداث المهمة التي ينبغي أن لا يلحظها الجمهور، أو إيقاف النزاع أو الذهان الذي حان الوقت لإيقافه – لكن بحيث لا يعود أحد يتذكره.

الإثارة هي تكنولوجيا. وتم وضع معايير للأحداث التي يمكن تحويلها إلى إثارة. وقد جرى التعبير عنها بالقول المأثور: «إذا عض الكلب إنساناً فهذا ليس خبراً، وإذا عض الإنسان كلباً فهذا خبر». صانعو الدعاية، بمن فيهم السياسيون، مهتمون كما ذكرنا سابقاً بزيادة فرصة حفظ إشارتهم، ولو على مستوى اللاوعي. لذلك فهم يطالبون وسائل الإعلام بربط دعايتهم بالخبر الذي يمكن أن يتغلغل في ذاكرة الناس. يكتب أ. مول: «واضح أن خبر ولادة رضيع برأسين في تشيكوسلوفاكيا يمتلك حظاً كبيراً في أن يبقى في ذاكرة الكثيرين من القراء والقارئات. الأسباب المحددة لذلك قد تكون مختلفة، لكنها جميعها مرتبطة ارتباطاً مباشراً بطبقات النفس العميقة التي تكوّن مجال دراسة التحليل النفسي». لذلك يتم إشباع البرامج بالإثارة.

قصف الوعي المستمر بالإثارات التي تؤثر في المشاعر، وخصوصاً «بالأخبار السيئة»، ينفذ الوظيفة الهامة المتمثلة في الحفاظ على مستوى «العصبية» اللازم (كتب عنها مارات). هذه العصبية والإحساس بالأزمة المستمرة يرفعان بحدة القابلية الإيحائية لدى الناس ويخفضان مقدرتهم على

الإدراك النقدي. إن الإخلال بالوضع الاجتماعي الطبيعي المستقر يزيد دائماً ***القابلية الإيحائية الظرفية*** (يطلقون هذا الاسم للتمييز بين القابلية الإيحائية العامة والأحوال الخاصة التي تنشأ تحت تأثير الظروف غير الطبيعية). صار هذا مادة للدراسة في أوربا في العشرينيات حين لوحظ الضعف أمام الإيحاء ليس لدى السكان المتعرضين لكارثة اجتماعية وحسب (كما في الجمهورية الويمارية «Weimar») بل بين المنتصرين أيضاً[1].

يعد تحضير الأخبار المثيرة عملاً مضنياً ومكلفاً ويقوم به اختصاصيون محترفون. الملفت للنظر أن المعلومة المقدمة على شكل إثارة في التلفزيون مع كل ما يرافقها من تقارير من مكان الحدث ومن حوارات على الهواء مباشرة... الخ، إنما تشوه، كقاعدة، الحدث الجاري تشويهاً جذرياً. يشار إلى هذا الأمر في المراجع المختصة بهذا الموضوع. لكن هذا ليس مهماً، بل المهم هو الأثر الذي تطلق الإثارة من أجله. يكون المشاهد في هذه الحال مفتوناً تحديداً لأنه يراقب مادة حياتية غير منتقاة و«غير متوقعة»، بحيث لا يكون بينه وبين الواقع أي وسيط. وَهْمُ الموثوقية هذا إنما هو صفة قوية من صفات التلفزيون.

يستحق التلفزيون النظر فيه في فصل مستقل كونه نوعاً خاصاً من وسائل الإعلام.

---

(١) غالباً ما يوردون الحادثة التالية. وضع أحد الصحفيين الأمريكيين في أثناء مؤتمر فرساي «إعلاناً» يطلب فيه منح كاليفورنيا الاستقلال. كتب الإعلان بأسلوب الإعلانات السياسية الراقية، لكنه احتوى على نقاط بمنتهى السخف (المطالبة مثلاً بإعلان نهر كولومبيا منطقة محايدة لأن «سمك السلمون يعيش فيه ولا يمكن لسكان كاليفورنيا أن يتصوروا أن هذه الأسماك الكاليفورنية الخالصة قد تقضي طفولتها وسنوات شبابها تحت سلطة أناس من إثنيات غريبة»). حملت هذه الوثيقة على محمل الجد ونشرت في الصحافة الأوربية.

الفصل الثالث عشر

التلفزيون

١- حرية الأنباء – الرقابة – التلاعب بالوعي

التلفزيون هو نوع خاص من أنواع وسائل الإعلام، لكنه تشكّل أيضاً في الغرب في ظروف ***حرية المعلومة*** المنجزة من قبل أنواع وسائل الإعلام هذه كلها. عموماً، يختبئ في فلسفة الليبرالية الاجتماعية نفسها حظر على حرية الأخبار في التلفزيون. بيد أن الإيديولوجية تدخل في مرات غير نادرة في تناقض مع الفلسفة. ترسخ في إيديولوجية الليبرالية الجديدة كأمر مسلم به أن المعلومة هي ***سلعة***، وحركة السلع يجب أن تكون حرة. التعليل بسيط: يتمثل مبدأ السوق في حرية المستهلك (مشتري السلعة) في عقد صفقة البيع والشراء أو عدم عقدها؛ حرية كل مستهلك للتلفزيون مضمونة في أنه يستطيع في أي لحظة أن يضغط على الزر ويكف عن «استهلاك» الخبر المعني. أعلن الاختصاصي الإسباني في فلسفة الحقوق س. سافيدرا مؤلف كتاب «حرية التعبير عن الذات في دولة القانون»، في جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ عن عدم وجود أي قانون خاص بالتلفزيون غير قانون العرض والطلب: «السوق هي القيصر والسوق تُخضِع لهيمنتها المعلومةَ والثقافة والتسلية وحتى كرامة الأشخاص». طبعاً، أكد على ذلك استناداً إلى الحرية والديمقراطية: «يتجسد حق الصوت من خلال جهاز التحكم بالبرامج التلفزيونية» هذا التعليل مزيف، والأدق أنه كاذب. وهو مدحوض في إطار الحق الليبرالي البرجوازي.

الحجة الأولى لأنصار الرقابة الاجتماعية (بما فيها الحكومية) على وسائل الإعلام الجماهيري تتلخص في أن «المنتج الإعلامي» يخرج اليوم إلى السوق من قبل الشركات الخاصة الضخمة (السوبر شركات). دخل مثل هذه الشركات منذ بداية السبعينات في عداد أضخم ٥٠٠ شركة في الولايات المتحدة. عدا ذلك، حدثت منذ ذلك الوقت عملية انصهار بين هذه الشركات والبنوك الضخمة التي صارت المالكة الرئيسية لأسهم الشركات التلفزيونية. يشرح غ. شيللر هذا الوضع الجديد: «لا ينبغي النظر إلى الكتل التي تهيمن في مجال إنتاج المعلومة ونشرها – وأنواع الأخبار جميعها عموماً – كما يفعلون في الولايات المتحدة بصفتها أفراداً تشملهم الضمانات الدستورية المتعلقة بحرية الكلمة والنشر... إنها بالدرجة الأولى شركات خاصة تسعى إلى أقصى درجات الربح، وتنتج سلعها طبقاً للمتطلبات التجارية». على هذا النحو لا يصح استخدام مقولة الحقوق ***المدنية*** على الشركة التجارية التي تنتج سلعة للسوق. يجب أن تخضع هذه الشركة للرقابة نفسها التي يخضع لها أي منتج للسلع[1].

مجموعة الحجج الثانية مرتبطة بحقوق (حريات) المستهلك، يتلخص مبدأ السوق الضامن لحرية إرادة كل مشارك في الصفقة في إمكان اتخاذ القرار العقلاني. هذا معناه أن على المستهلك أن يمتلك إمكان المعرفة الأكيدة للعواقب التي سيؤدي إليها استهلاك السلعة المعنية. لذلك، مثلاً، تتم مراقبة رموز المكونات كافة على علبة السلع مراقبة صارمة، وخصوصاً تلك التي يمكن أن تحدث آثاراً جانبية غير مرغوب فيها أو تعد مصدراً للخطر عند استهلاكها غير السليم. ينظر إلى غياب مثل هذه المعلومات تحديداً على أنه

---

(١) ربما يخيل لنا، نحن الذين لم نسلق بعد في قدر «دولة القانون»، أن هذه المحاكمات كلامية. لكنها في الولايات المتحدة مشكلة حقوقية. يشير المحامون إلى أن حرية الطباعة هي حرية شخصية وأصحاب وسائل الإعلام لا يملكون إلا حق الملكية.

إخلال بحرية المستهلك – وتقوم منظومة رقابة حكومية كاملة بمراقبة الإفصاح عنها إفصاحاً موثوقاً به.

تُراقَب بصرامة سوق تلك السلع التي تغير سلوك المستهلك وتجعله «مرتبطاً» بها – لأنها تحرم المستهلك من الحرية وتحرمه من إمكان اتخاذ القرار العقلاني. ينتمي، مثلاً، إلى عداد مثل هذه السلع الكحول، الذي لا تعد سوقه في أي مكان (ما عدا روسيا الاتحادية على الأرجح) سوقاً حرة. التعبير الأوضح لصفة بعض السلع هذه يتجلى في المخدرات – فبيعها حتى الآن محرم في كل مكان تقريباً. لماذا؟ أين إذن الحرية «لا تريد، إذن لا تتعاطاها»؟ يكمن الأمر في أن الإنسان ما إن يبدأ يتعاطى المخدرات حتى يصير بسرعة ***مرتبطاً*** بها، ويفقد حريته. هذا معناه أن الدولة تحرم بيع هذه السلعة من خلال العنف، وغالباً العنف الفظ جداً.

فإلى أي فئة من المنتجات تنتمي «سلعة» التلفزيون؟ هذا الأمر بات اليوم، وبعد عشرين سنة من الدراسات الحثيثة الشاملة، لا يثير أي شك. المنتج التلفزيوني هو «سلعة» من نوع المخدر الروحي. إنسان المجتمع المدني المعاصر ***مرتبط*** بالتلفزيون. أي أن تأثيره المنوِّم ذو مستوى يجعل الإنسان يفقد جزئياً حرية إرادته فيقضي أمام شاشة التلفزيون وقتاً أكبر مما تتطلبه حاجته إلى المعلومة والتسلية. وكما بينت قياسات منتصف الثمانينيات فإن الأسرة الأمريكية المتوسطة كانت تقضي أمام التلفزيون أكثر من ٧ ساعات في اليوم، مضحية كرمى لذلك بالكثير من الهوايات وأنواع النشاط الأخرى (القراءة، زيارة المسارح، الرياضة، لقاء الأصدقاء.. الخ). مع نهاية التسعينيات تعلُّق الأمريكيين هذا انخفض، وخصوصاً الأطفال، لكنه بقي عالياً جداً (يقضي أطفال الولايات المتحدة أمام التلفزيون وسطياً ٢١ ساعة و٣٨ دقيقة في الأسبوع). تشير المراقبات لفئات المشاهدين المختلفة عبر سنين عديدة إلى أن القسم الأكبر منهم «مرتبط» فعلاً بالشاشة بالمعنى الحرفي للكلمة. أجرت صحيفة أمريكية عام ١٩٧٧ التجربة التالية: عرضت على

١٢٠ أسرة منتقاة اعتباطياً ٥٠٠ دولار لكل منها كي لا تشاهد التلفزيون خلال شهر كامل. رفضت ٩٣ أسرة (٧٨%) هذا العرض.

لا يستطيع الإنسان حين يستهلك أدبيات البرنامج التلفزيوني المتحررة من كل رقابة، أن يقوِّم عقلانياً، كما في حال المخدرات، طابع تأثيرها في نفسيته وسلوكه. زيادة على ذلك، وما دام قد صار «مرتبطاً» بالتلفزيون فإنه يستمر في استهلاك هذا المنتج حتى حين يدرك تأثيره المهلك. من هنا، وفي إطار مسلمات اقتصاد السوق والمجتمع الليبرالي، لا يمكن أن يطرح منتج التلفزيون في السوق (على الهواء) من غير مراقبة. الدولة ملزمة إذ تحمي حرية المستهلك بأن تفرض قيوداً، وببساطة، ***رقابة*** على هذه السوق. وإذا لم تفعل ذلك فإنها تصير لسبب من الأسباب شريكة لأحد الطرفين، وهذا ما يعد، وفاقاً للتعريف، فساداً. عادة يكمن جوهر هذا الفساد في أن التلفزيون «يسدد» للدولة حصتها عبر دعمه لها من خلال التلاعب بالوعي المتاح له.

عند مقاربته المشكلة من وجهة نظر مصلحة المستهلك يشدد غ. شيللير على الطرح الوارد أعلاه: «هل يمكن النظر إلى المؤسسات المختصة بإنتاج الصور والخاضعة لرقابة رأس المال المصرفي والصناعي بصفتها أفراداً يتمتعون بحقوق غير قابلة للانتزاع؟ طبعاً، لا. زيادة على ذلك فإن منتجات صناعة الاتصالات الثقافية تحتاج إلى رقابة مجتمعية ومراجعة أكبر مما تحتاج إليه السلع الاستهلاكية العادية... والويل لذلك المجتمع الذي لا تأخذ سياسته الاجتماعية بعين الاعتبار هذا الوضع الأكثر أهمية.

غلبت بالمجمل خلال نصف القرن الأخير عملية تحرر وسائل الإعلام من الرقابة («قَمعت الحريةُ المسؤوليةَ»). قد يخيل اليوم أن الإعلان الذي أطلقه عام ١٩٤٨ مدير لجنة حرية الصحافة في الولايات المتحدة ر. ليي بلا معنى: «تعني مقولة المسؤولية، التي أُوصلت إلى اكتمالها المنطقي، التخلص الواضح من فئة الاتصالات الجماهيرية اللامسؤولة الخطرة، التي لا ينبغي أن تخضع لحماية الحرية نفسها».

٢- أهل الكهف في القرن العشرين

الاستعارة الأقوى التي تشرح دور التلفزيون في عصرنا، أي عصر الفيديوقراطية، وضعها أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد. لقد لخص في الكتاب السابع من مؤلفه «الجمهورية» حكاية رمزية غنية وشاعرية على نحو مدهش. إليكم ملخصها البسيط:

ثمة في الكهف، إلى حيث لا ينفذ الضوء، أناس مقيدون بالسلاسل. إنهم في هذا الأسر منذ زمن بعيد، منذ الطفولة. كانت خلف ظهورهم وفي مكان مرتفع نار مشتعلة. وكان بينهم وبين النار جدار حجري يحرك المشعوذون عليه، كما في مسرح العرائس، أشكالاً مصنوعة من الخشب والحجارة لأناس ووحوش وأشياء. يحركونها ويقرأون نصاً فتتردد كلماتهم صدى مشوهاً في أرجاء الكهف. كان الأسرى، المقيدون بحيث لا يستطيعون النظر إلا إلى الأمام قبالتهم، يشاهدون ظلال الأشكال الضخمة على جدار الكهف. وكانوا قد نسوا شكل العالم والدنيا في الحرية، وباتوا واثقين من أن عالم الناس والأشياء الحقيقي هو هذه الظلال على الجدار وهذا الصدى. إنهم يعيشون في هذا العالم.

ها هو أحدهم يتمكن من أن يتحرر من قيوده ويتسلق إلى الأعلى نحو المخرج. أعماه ضوء النهار وسبب له آلاماً حادة. اعتاد على الضوء شيئاً فشيئاً وصار يتمعن بدهشة في العالم الحقيقي وفي النجوم والشمس. عاد هابطاً إلى المغارة سعياً منه إلى أن يساعد رفاقه ويحدثهم عن هذا العالم.

يبدأ أفلاطون بعد ذلك يناقش كيف يمكن أن يحدث اللقاء بينهم.

أراد الهارب حين وصل إلى رفاقه أن يروي لهم عن العالم، لكنه ما عاد الآن يرى شيئاً في الظلمة، ويكاد لا يتبين الظلال المتلألئة على الجدار. ها هم الأسرى يتناقشون – لقد غادر هذا المجنون الكهف فأصابه العمى وفقد عقله. وحين يبدأ يقنعهم بالتحرر من قيودهم والصعود إلى النور يقتلونه كما يقتلون مجنوناً خطراً.

فلو حدثهم، هم الذين اعتادوا الظلمة، عن كيف يبدو العالم الحقيقي لاستمعوا إليه بذهول ولما صدقوه، لأن عالمه لا يشبه مطلقاً عالمهم الذي شاهدوه بأعينهم وسمعوه بآذانهم سنين طويلة. ولو تبعوه، في أحسن الأحوال، إلى المخرج لكانوا سيلعنونه حين ستجرحهم الصخور، وما إن ينظروا إلى الشمس حتى يعودوا أدراجهم إلى الظلال المعتادة والمفهومة التي سوف تبدو لهم حقيقية أكثر بما لا يقاس من العالم في الأعلى الذي لا يستطيعون التمعن فيه بأعينهم التي يؤلمها الضوء.

عانى أفلاطون العذاب من صفة الطبع الإنساني هذه - أن يفضل المرء عالم مسرح الظلال الخيالي على نور الحقيقة الساطع وتعقيد العالم الحقيقي. لكن حساسيته هذه لم تتحقق في أي وقت بمثل هذه الدقة كما تحققت اليوم. يبني التلفزيون للإنسان مثل مسرح الظلال المصنوعة جيداً هذا، بحيث يبدو العالم الحقيقي مقارناً به ظلاً رمادياً وفي الوقت نفسه أقل حقيقة من الصور على الشاشة. والإنسان المقيد منذ الطفولة إلى التلفزيون ما عاد يرغب في أن يخرج إلى العالم، وصار يؤمن تحديداً بالمشعوذين، الذين يتلاعبون بالأشكال والأزرار، وبات مستعداً لأن يقتل رفيقه الذي يقنعه بالخروج إلى النور. وكما قال المخرج ستينلي كوبريك على لسان بطل فيلم «البرتقالة الآلية» فإن «ألوان العالم الحقيقي اليوم لا يعدها الإنسان حقيقية إلا بعد أن يراها على الشاشة»(١).

---

(١) كان هذا الفيلم ممنوعاً من العرض عام ١٩٧٦ في بريطانيا العظمى الديمقراطية - لاعتبارات فكرية خالصة. إنه أنموذج غربي «للجريمة والعقاب»، لكن من غير ذلك الأمل الذي بثه دوستويفسكي. عرض الفيلم المجتمع الخالي من الندم والتكفير عن الذنوب والمغفرة. كان فيه اتهام مرعب، وحكم على المجرمين والضحايا وأسلوب حياتهم كله. الأزعر المحكوم بسبب من جريمة قتل لا يجتاز آلام السجن بل «ينصلح» بمساعدة العلم: يقدمون له عقاقير نفسية ويجبرونه على أن يشاهد أفلام العنف كي يكوِّن ضدها ردود فعل منعكسة شرطية. ولم يصل إليه إلا «من خلال الشاشة» معنى الدم الذي لم يلحظه ببساطة في حياته الحقيقية.

صدر عام ١٩٩٦ في روما كتاب «الشباب - آكل لحوم البشر. أنطولوجيا الرعب المفرط»، الذي جذب اهتمام علماء الثقافة. الكتاب هو قصص لعشر كتاب شبان (من ٢٣ حتى ٣٥ سنة)، أسسوا للتغلب على ملل المدينة الغربية المعاصرة نوعاً جديداً من أدب الرعب مع وصف متفنن لعمليات التعذيب والقتل. فما الذي جذب اهتمام الاختصاصيين (يتحدثون عن «طفرة ثقافية»)؟ إنه حقيقة أن الجيل الجديد من الكتّاب لا يصف أساساً إلا العالم المدرك من خلال شاشات التلفزيون، وليس من خلال التجربة الشخصية أو القراءة. إن واقع التلفزيون الافتراضي بصفته منبعاً للمخيلة الفنية هو ***طفرة الطفرات***! تنشأ في هذا الأدب لغة جديدة أساسها هو مشكال (kaleidoscope) صور الدعايات التلفزيونية والنشرات الإعلامية والكليبات. إن التلفزيون بصفته آلية تغريب للإنسان عن الحياة يخلق على هذا النحو «مشتقه الثاني».

التلفزيون هو أيضاً تكنولوجية خاصة ومؤسسة اجتماعية خاصة ويكاد يكون مقاطعة خاصة. يتحدد طابع تأثيره في المشاهد بهذا كله، وليس بخصوصية التقنية. إذا ما اتبعنا روح الديمقراطية وحرفيتها، حتى الغربية (وهذا ليس على الإطلاق شكلها الوحيد) فإن أحداً - لا المشعوذ ولا العبقري، لا يملك الحق في الإبقاء على الناس مقيدين في المغارة. لا يحدد أفلاطون بدقة ما هي السلاسل التي كانت تقيد الناس، ولا من أي مادة. أهي من الحديد؟ أو ربما تكون قيود التأثير المخدر للظلال المتراقصة على الجدار؟ لو اتضح أن التلفزيون يقمع على نحو ما حرية إرادة المشاهد المقيد إلى الشاشة لنتجت ضرورة الرقابة الاجتماعية على التلفزيون من صيغة الديمقراطية نفسها مباشرة - تماماً كما تنشأ ضرورة المراقبة الحكومية (الرقابة) المفروضة على تجارة المخدرات.

كما قلنا سابقاً فإن ارتباط الناس بالتلفزيون صار شاملاً. وهذا الارتباط لدى بعض الفئات (خصوصاً لدى الأطفال والمراهقين) يتطور إلى حد أنه يلحق ضرراً ملموساً حتى بالصحة الجسدية. كان الأطباء والمربون في

البداية، ومن ثم السياسيون اليوم، ينصحون الأهل بأن ينسوا الديمقراطية وراء أبواب بيوتهم وأن يتصرفوا باستبداد حرصاً على خير أطفالهم قبل كل شيء. يمكننا أن نعد أن وجود القيود التي يصنعها التلفزيون، وإن كانت غير مرئية، هو حقيقة مثبتة، وأن مسألة حرية التلفزيون من الرقابة الاجتماعية لا تنبع من متطلبات الديمقراطية بل من مصالح بعض المجموعات الاجتماعية وهي غير ديمقراطية إطلاقاً. خصوصاً وأن هذه المصلحة يتم أخفاؤها بعناية وبالتالي فهي تتعارض مع مصالح الأغلبية. ما زلنا لا نتحدث عن المحتوى الذي تضمَّنُه في مسرح ظلالها المجموعة التي تتحكم بالتلفزيون، وعن أي مذاهب تغرسها في رؤوس أسراها المقيدين بالسلاسل. المشكلة تحديداً في أن هذه السلاسل هي التي تحمل الخطر بحد ذاتها. تنشأ دائرة مسحورة: يخدِّر الإنسانَ ويقيده تحديداً ذلك التلفزيون الذي يرغب في مشاهدته ويشاهده – أي التلفزيون «من الدرجة الأولى». إنه كالطعام الأجنبي المشبع بالمنكهات الذوقية: ترغب في مضغها لكنك تشعر في داخلك بأنها قاذورات سامة. أفضلية التلفزيون «الممل» (الذي كان في الزمن السوفييتي) في أن الإنسان لا يستهلكه بأكثر مما يحتاج إليه في الواقع للحصول على المعلومة والمعرفة والتسلية.

قال رئيس جمعية محرري الصحف الأمريكية لورين غيليوني في كلمة ألقاها عام ١٩٩٣: «ولدت التقارير الإخبارية في التلفزيون دائماً الشك في إن كان ما يصور فيها حقيقياً أم لا. إن طبيعة وسائل الإعلام البصرية – أي تسلية المشاهد الجماهيري وتحويل الحياة إلى دراما وتكوين أحلام اليقظة لديه – تؤثر في محتوى المعلومة. فيمتزج عالم الخيال مع عالم الحقيقة ويصير ما يظهر على الشاشة في نظر الكثيرين من الناس واقعاً»[١].

لماذا بدأ يتحدث غيليوني عن هذا الأمر في كلمته «صحفيُّ الغد»؟ لأن بناء الواقع الوهمي مرتبط ارتباطاً مباشراً بالتلاعب بالوعي. وإليكم استنتاجه

---

(١) ظهر في مجلة «نيويوركير» عام ١٩٧٠ رسم كاريكاتوري يشرح فيه أب لولديه وهو يبدل إحدى عجلات سيارة الأسرة قائلاً: «كيف لا تفهمان؟ هذه هي الحياة، هذا ما يحدث فعلاً. إننا لا نستطيع أن نتحول إلى قناة أخرى».

الإنساني: «الصحفيون الحقيقيون يجب أن يقفوا ضد ضغط المتلاعبين، وديكتاتوريي "الناخبين" الساعين إلى طمس الحدود بين الواقع والخيال».

٣ – التلفزيون بصفته تكنولوجية تدمير الوعي

تحدثنا سابقاً عن تعاليم أنطونيو غرامشي الذي وضع نظرية جديدة للثورة. لقد علَّمنا أن علينا العمل لا بالمجابهة، ولا بالهجوم على قاعدة المجتمع، بل من خلال البنية الفوقية – أي بقوى المثقفين محققين «عدواناً جزيئياً» على الوعي من غير أن نحطم «النواة الثقافية» للمجتمع. إن تضلل الناس وتقوض مرتكزاتهم الثقافية فإنك تستطيع أن تأخذهم أحياء وأن توزع الملكية والسلطة كما تريد. الشرط المهم للتلاعب الناجح، كما ذكرنا، هو تدمير الدفاع النفسي لدى الإنسان وتلك الدعائم التي ترتكز عليها مقدرته على الإدراك النقدي للمعلومة.

صار التلفزيون في الثورة «وفاقاً لغرامشي» السلاح الرئيسي، وهو أقوى من عربة رشاش تشابايف[١]. إضافة إلى ذلك فإن نظرية غرامشي قد دخلت في أساس الدعاية المعاصرة. فالغايات متشابهة من حيث المبدأ – وهي إقناع الإنسان بشراء شيء لا يحتاج إليه إطلاقاً أو أن يختار خاكامادا في البرلمان. وتبين اليوم أن توحيد هذين النوعين من الدعاية يضاعف قوة «العدوان الجزيئي». فتتحول على هذا النحو مجموعة محترفة غير كبيرة من موظفي التلفزيون المبدعين إلى منظمة، وإلى نوع خاص من الأجهزة المختصة تخوض حرباً ضد وعي جماهير كاملة من مواطنيها وضد تفكيرهم.

ينبغي الاعتراف بأن الغرب قد أنجز قفزة كبيرة في تكنولوجية التلاعب الفكرية. وليس مهما أن تفكير «الإنسان المتوسط» هناك قد بقي بمجمله ميكانيكياً وغير مرن– أي من يرغب يستوعب هذه التكنولوجيات الجديدة. لقد استوعب الإختصاصيون والخبراء الناصحون للسياسيين التصورات العلمية

---

(١) عربة يجرها حصانان أو ثلاثة ويركب عليها رشاش موجه إلى الخلف. استخدمت في الحرب العالمية الأولى، وكان البريطانيون أول من استخدمها (**المترجم**).

الجديدة التي تأسست عليها «فلسفة انعدام الاستقرار»، فتعلموا سريعاً تحليل حال الغموض وحال انتقال البنى التي تعمل باستقرار إلى الفوضى وحال نشوء النظام الجديد. يشير المؤرخون إلى «تهجين» النخبة الفكرية في الولايات المتحدة بصفته عاملاً مهماً، ومشاركة عدد كبير من المثقفين اليهود فيه مع ما يتمتعون به من مرونة وتناقض في التفكير غريبين عن الإنغلوساكسونيين.

إن المغزى الاقتصادي السياسي لتلك «السلاسل» التي تقيد أهل كهف القرن العشرين إلى شاشات التلفزيون في مجتمع السوق يطفو على السطح. يقال إن السوق الرئيسية اليوم هي ***سوق الصور***، فحتى سلعة كالسيارة اليوم هي قبل كل شيء الصورة التي يتخيلها فيها مالكها وليست وسيلة تنقل. تملي سوق الصور قوانينها، ويسعى بائعها (الشركة التلفزيونية) إلى تقييد اهتمام المشاهد إلى قناته. فإن تمكن من ذلك فإنه يأخذ أجره من البائعين الآخرين الذين يعلنون صورهم من خلال قناته. تؤمن الدعاية في الغرب ٧٥% من دخل الصحف و١٠٠% من دخل التلفزيون (تشغل الدعاية في الولايات المتحدة ربع زمن البث). حتى بعض قنوات التلفزيون الحكومية القليلة الباقية يتم تمويلها إلى حد كبير من خلال الدعاية (ثمة قناتان حكوميتان في فرنسا مرتبطتان بالدعاية بنسبة ٦٦%، أما الأقل ارتباطاً بالدعاية فهو التلفزيون الألماني). كان في نهاية الثمانينات ثمن بث شريط إعلاني مدته ٣٠ ثانية في أثناء عرض المسلسل المسائي في التلفزيون الأمريكي يقدر وسطياً بـ ٦٧ ألف دولار، أما في أثناء المباريات الرياضية الرائجة فـ ٣٤٥ ألف دولار. عام ٢٠٠٠ سيكون ثمن عرض شريط إعلاني مدته ٣٠ ثانية في أثناء المباراة النهائية لبطولة الولايات المتحدة في كرة القدم الأمريكية ١،٥ مليون دولار[1].

---

(١) الشريط الذي سيعرض سيكون تحفة من تحف التلاعب. سيصورون أعجوبة- ممثل مشهور مصاب بالشلل منذ سنوات نتيجة سقوطه عن الحصان، سينهض على قدميه ويمشي. سوف «يضعون» رأسه بمساعدة التقنيات الحاسوبية على جسد بديل له. تأمل الشركة المستثمرة التي حجزت الدعاية في أن تذهل المشاهد وفي أن تحقق أرباحاً من بيع أسهمها.

يضفي اتحاد التلفزيون مع الدعاية عليه نوعية جديدة تماماً. تتحد في الدعاية حاجة المستثمر «الجزيئية» إلى تقدم سلعته في السوق في ظروف المنافسة مع حاجة البرجوازية الاجتماعية إلى تماسك المجتمع (تأمين زعامتها الثقافية). إن هذا التأثير المشترك لتقاطع الحاجات تحديداً هو الذي أدى إلى التطور الانفجاري للدعاية كثقافة خاصة وصناعة[1]. لن نتعمق في طبيعة الدعاية المعقدة جداً وغير المتوضحة إلى حد بعيد، ونشير فقط إلى الجانب الذي يهمنا. إن الدور الإيديولوجي للدعاية في المجتمع البرجوازي المعاصر بالمجمل أهم كثيراً من دورها الإعلامي. تخلق الدعاية عالماً افتراضياً مبنياً وفاقاً «لمشروع صاحب الطلب»، مع التسيد الثقافي المضمون للقيم البرجوازية. إنه عالم مخدِّر متخيَّل، ويصير تفكير الإنسان الغارق فيه ***ذاتوياً***. عموماً، يؤلف أمثال هؤلاء الناس ***مجتمع المسرحية*** بشكله الجلي – فهم يعرفون أنهم يعيشون وسط الصور المختلقة لكنهم خاضعون لقوانينه.

أجريت في الولايات المتحدة خلال ١٠ أعوام (ابتداء من عام ١٩٨٦) دراسة كبيرة نظمها صندوق كارنيغي عن مراهقين تتراوح أعمارهم بين ١٠ و١٤ سنة. وكان التقرير الذي نشر في تشرين الأول عام ١٩٩٥ مثيراً في الكثير من جوانبه، لكن ما يهمنا هو نتيجة واحدة: «التلفزيون لا يستغل إمكاناته في التربية ويقدم غذاءً من أشد أشكال السلوك الاجتماعي سلبية... قد يحد النضوج السلبي للدعاية من التفكير الانتقادي لدى المراهقين ويحفز على السلوك العدواني».

---

(١) الرأسمالية المبكرة المستندة إلى المنافسة لم تكن بحد ذاتها على الإطلاق مرتبطة بالدعاية ارتباطاً ضرورياً. بل على العكس، يشير ماكس ويبر في دراسته للأخلاق البروتستانتية إلى أن المنافسة في «اقتصاد العرض والطلب» يجب أن تكون مستندة فقط إلى نوعية السلعة الجيدة وليس إلى مقدرتها على إغراء المشتري. صارت الدعاية ضرورية اقتصادياً عند ظهور مجتمع الاستهلاك «واقتصاد العرض»، حين صار غير ممكن بيع السلعة قبل خلق الطلب على نحو مصطنع.

يشتد تأثير الدعاية هذا بحدة، كما قلنا، حين يرتبط بأخبار النشرات الإعلامية التي يخيل أنها موثوقة وموضوعية. ينشأ إدغام بين نوعين من الأخبار فيصاب وعي الناس بالانفصام. تقنع صورُ الدعايةِ المتخيلةُ من خلال تباينها (contrast) المُشاهدَ بصحة الأنباء، والآن تزيد الأنباء «الحقيقية مسبقاً» سحر تأثير الدعاية: يبني التقرير المحايد كمون «الثقة» الذي ينسحب على الدعاية التي تتبعه، أما الدعاية المهيجة للانفعالات فتحضر التربة لإدراك الأفكار المضمنة في التقرير «الحيادي».. لذلك يعدُّ الربط بين الدعاية وآخر الأنباء في التلفزيون مسألة من مسائل السياسة الكبرى. تخفض، من جهة أخرى، الدعاية التي تمزق نسيج العمل الفني المتكامل (الفيلم السينمائي مثلاً) بحدة تأثيره المفيد في وعي الإنسان. استطاع الشيوعيون في إيطاليا في بداية التسعينيات أن يحصلوا على منع قطع الأفلام السينمائية من فئة «الأفلام الفنية الراقية» بالدعاية. ترافقَ اتخاذ القانون مع أزمة حكومية صعبة، وكانت من أحد أشرس الصدامات السياسية في الأعوام الأخيرة. شكَّلَ استبعاد الدعاية من على الشاشة مدة ساعة ونصف الساعة فقط مسألة ذات أهمية مبدئية غيرت على نحو ملموس الوضع في المجتمع. بدا هذا الوقت بالتزاوج مع التأثير الصحي للفيلم غير المقطوع كافياً لإصلاح الوعي.

تؤثر الدعاية في سياسة التلفزيون الثقافية كلها. غالباً ما يشيرون إلى تلك الحقيقة الجلية وهي أن التلفزيون في أثناء «مطاردته للمشاهد» يسيء استغلال عرض الأحداث المثيرة وغير العادية. طبعاً، يشوه التلفزيون بذلك صورة الواقع. لكن الأهم هو أمر آخر: أسهل طريقة لجذب المشاهد، وهذا معناه، صاحب الدعاية أيضاً – هي التوجه نحو الغرائز والرغبات الخفية والمكبوتة وغير السليمة التي تعشش في اللاوعي. إذا كانت هذه الرغبات تعشش عميقاً جداً في اللاوعي فيجب ***إفساد*** المشاهد، وتقوية اهتمامه غير السليم اصطناعياً. تحدث أحد المخرجين التلفزيونيين الغربيين عن هذا الأمر بصراحة: تجبرني السوق على البحث عن الإثارات ***الدنيئة*** وعرضها؛ ما

المغزى من أن أعرض كاهناً يدعو الناس إلى الخير – هذا أمر مبتذل؛ لكن إذا أقدم هذا الكاهن في مكان ما على اغتصاب فتاة شابة، والأفضل إن كان صبياً، والأفضل إن كانت عجوزاً، فهذا سيثير الاهتمام، وها أنا أبحث في العالم كله عن مثل هذه الإثارات. والعالم واسع وثمة ما يكفي التلفزيون من هذه المادة فيه.

يتبين أن السلع الأكثر نفعاً للتلفزيون هي تحديداً تلك الصور التي تمنع المحظورات الثقافية تأملها. عدد مثل هذه الصور آخذ بالازدياد طوال الوقت، وهي تصير مدمرة أكثر فأكثر. باتت الإباحية البسيطة والعنف مضجرين ويعمل في البحث عن المحرمات في الثقافة والصور الفنية التي تخرق هذه المحرمات جمهور هائل من الموهوبين. وجهت منذ وقت غير بعيد للمسلسل التلفزيوني «بروكسايد» الذي صورته القناة التجارية الرابعة في التلفزيون البريطاني «ملحوظة» من قبل مجلس الرقابة على نوعية البرامج التلفزيونية (يوجد مثل هذا المجلس في بريطانيا الديمقراطية). لقد عرض المخرج «بلا أي داع» لجذب المشاهد مشهد سفاح قربى – عملية جماع بين أخ وأخته. والذي فاقم الأمر أكثر هو أنهم جلبوا لتمثيل هذا المشهد ممثلين جذابين جداً يمثلان عادة أدواراً إيجابية (جون سيندفورد وإيلن غريس). فكيف برر المخرج الأمر؟ قال: لقد أقحمنا موضوع سفاح القربى لأن هذا يسمح لنا «بالهجوم على آخر المحرمات». لا يمكن أن يقال شيء أفضل من هذا.

بذلك فإن السوق، بغض النظر عن الصفات الشخصية للمستثمرين التلفزيونيين، تجبرهم على إفساد الإنسان. وإذا توافق هذا مع المصالح السياسية للمجموعة الاجتماعية المعنية فإن التلفزيون يصير قوة مدمرة هائلة. إذن، ما الذي نعرفه عن تدمير الدعائم الثقافية من خلال التلفزيون؟ يلجأ التلفزيون قبل كل شيء وبتواتر شديد إلى عرض ما لا ينبغي أن يراه الناس، وما منعتهم المحظورات العميقة غير المستوعَبة من رؤيته. حين يعرضون

هذا ليراه الإنسان (والثمرة المحرمة حلوة المذاق) يصاب بالاهتياج ويستنفر كل ما هو دنيء في نفسه. عدد مثل هذه المواضيع هائل ويركزون عادة على الإباحية منها. لكننا سنذكر سر الموت. الموت هو الحدث الأهم في حياة الإنسان وينبغي أن يبقى مخفياً عن عين الآخرين. وضعت الثقافة طقوساً معقدة لعرض المتوفى على الناس. وأحد الاتهامات الرئيسية التي توجه للتلفزيون هو أنه ينزع الأغطية عن الموت. يفتح هذا على الفور فجوة في الدفاع الروحي لدى الإنسان ما يجعل إدخال شتى أنواع الأحكام ممكناً من خلال هذه الفجوة.

يصر أصحاب الإعلانات على العرض المتكرر للموت. يرى اختصاصيو الدعاية الذين يتبعون مدرسة الفرويدية أن مشهد الموت الذي يشبع «عقدة تاناتوس» يهيج انتباه المشاهد واهتمامه أكثر من أي شيء آخر. يشير أ. مول إلى أن هذا الرأي منتشر كثيراً بين محرري الصحف والتلفزيون: «"الموت" هو قيمة لا شك فيها، لأن الإنسان يعرف بكل سرور أن أحداً ما قد توفى في الوقت الذي ما زال فيه هو حياً»[١].

يشعر الناس في الوقت نفسه بأن التلاعب بصورة الموت يدمر الثقافة. لذلك فالمكان هنا هو منطقة نزاع اجتماعي مهم، وإن كان خفياً في أغلب الأحيان. ينتصر جانب تارة وتارة أخرى الجانب الآخر. مصور الغرب المشهور الذي عرض الصور الفنية المتقنة لمنازعة والده الموت أضحى

---

(١) تنشر الصحيفة الباريسية المتوسطة («كومبا») وسطياً ٨٧ خبراً عن الموت في اليوم. يستخدم المحررون الأساليب الكمية في حساب «قيمة» الأخبار عن الموت. وهكذا يتمتع «الموظف من الدرجة العليا» بقيمة تساوي ٠،٥ من قيمة الموت؛ جريمة القتل الغامضة من غير معرفة الأسباب تساوي بالقيمة موتين. هذا معناه أن جريمة قتل موظف من الدرجة العليا في ظروف غامضة تتمتع بدرجة ٤،٥. أما إذا مس ذلك الشعور الوطني فإن القيمة تزداد ازدياداً حاداً.

منبوذا من المجتمع على نحو غير معلن. ومنذ وقت قريب أطلق النار على نفسه المصور الفرنسي صاحب أفضل صور في العقد الأخير: طفلة صغيرة في الصومال تسير بصعوبة نحو مركز توزيع الطعام، وخلفها على بعد خطوتين طائر الرخم(١) يتبعها قافزاً – منتظراً سقوطها. سألوا المصور في فرنسا إن كان قد أبعد الفتاة. قال: لا، فأنا لست سوى مراسل يجلب لكم الأخبار. لقد أعدمه الفرنسيون في واقع الأمر(٢).

صارت الصومال، عموماً، حقل الرمي الأهم للتلفزيون في حقبة ما بعد الحداثة. لقد غُرس على نحو غير واضح، لكن بفاعلية، في وعي المواطن الغربي فكرة أن القبائل الأفريقية وإن كانت تشبه البشر، إلا أنها، كما ترون بأنفسكم، نوع فرعي دوني وعاجز. عرض التلفزيون دورياً (بتواتر مثالي محسوب على ما يبدو) الأطفال الصوماليين في ظروف غير إنسانية، بأجسادهم المحطمة بسبب من نقص البروتين، والمشرفين على الموت، وأحياناً، الميتين جوعاً. وعرضوا إلى جانبهم، كأنموذج للإنسان، جندياً متورد الوجنتين من مشاة البحرية أو صبية فاتنة من هيئة الأمم المتحدة بوجه ناشطة في «جمعية حماية الحيوانات». ولم يحدث مرة أن اقتحم أحد الإنسانيين التلفزيون صارخاً بأن هذا جريمة – أن يعرضوا مثل هذه الصور ومن ثم دعاية شامبو (أحيانا تكون هذه الصور جزءاً من الدعاية). يمكننا أن نحكم من خلال المراجع على التصنيف الذي يضعه علماء النفس والخبراء للتلفزيون، وعندئذ سنضطر إلى استبعاد افتراض أنهم لم يفهموا ما كانوا يفعلون: حين يجعلون مشاهديهم يعتادون على صورة الأفارقة المشرفين على الموت فإنهم

---

(١) gryps طائر جارح ضخم يتغذى على النفايات والمخلفات والجثث (**المترجم**).

(٢) بالمناسبة، كان في مقدورنا أن نسأل مراسلي تلفزيون الـ «إن تي في» الذين صوروا خلال أسبوع كامل جثتي جنديين من جنودنا لم يدفنا وعرضوها علينا: لماذا لم تضعوا كاميراتكم جانباً ساعة فقط لتدفنوا هذين الجنديين في الحديقة نفسها على الأقل؟ الأناس الطبيعيون في مثل هذا الموقف يحفرون القبور ولو بأيديهم.

لا يصنعون من الإنسان الأبيض على الإطلاق إنساناً أكثر تضامناً. بل على العكس، تحدث في اللاوعي (وهذا أهم من الكلمات الرخيصة) شرعنة للتصورات الداروينية الاجتماعية عن الأفارقة بصفتهم نوعاً فرعياً دونياً. يجب الاهتمام بهم (مثل الطيور التي تقع في بقعة النفط)، وإرسال شيء من الحليب الجاف لهم. لكن ماذا عن الأخلاق؟ تجاه هؤلاء الأطفال الهزيلين المبتسمين بغباء قبل أن يموتوا؟ يا للفكرة المستغربة. صيغة السؤال نفسها تدخل المثقف المتوسط في حال من عدم الفهم.

لكن لنتخيل رضيعاً يموت لدى أحد الأوربيين، ثم يندفع شبان عمليون من التلفزيون مبعدين الوالد، وحاملين كاميراتهم ومصابيحهم وهم يمضغون العلكة، ويبدأون يصورون مشهد منازعة الموت. ثم يعلق في الغد في مكان ما في أحد البارات رجل سمين أمام التلفزيون وهو يحتسي الجعة: «انظر، انظر كيف يلقي أظلافه، هذا النذل الصغير. كيف ترتجف يداه». مرة اقترحت في الغرب حين كنت مشاركاً في مناقشات عن التلفزيون هذا «الاختبار الذهني». استاء الجميع منه. قلت: لكن تلفزيونكم يفعل هذا بانتظام مع الأفارقة ولا ترون في ذلك أي شيء سيئ.

يطارد التلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية بالمعنى الحرفي للكلمة أي فرصة ليعرض «الموت على الهواء مباشرة». إليكم الخبر التالي: سمح قاضي بالتيمور بتسجيل إعدام المحكوم جون تانوس في حجرة الغاز على الفيديو. ترى منظومة التلفزيون المأجور أن بث عملية الإعدام على الهواء مباشرة سيصير برنامج القرن وسيأتي بربح قدره ٦٠٠ مليون دولار. ثم كانت محاكمة نجم كرة القدم أو. سيمبسون - اتهموه بقتل زوجته وعشيقها بوحشية. صارت المحاكمة التي أنفق عليها ٣ ملايين دولار عرضاً قومياً. سمح القاضي بالبث التلفزيوني على الرغم من أنه استلم ١٥ ألف رسالة اعتراض. توقعوا طلباً لا يمكن تخيله على البطاقات التي تحمل صورة الإعدام. لم يكن الناس يتيحون للمحامين السير في الشوارع والذهاب إلى

المحلات التجارية – كانوا يطلبون منهم تواقيعهم للذكرى. في الأول من أيار عام ١٩٩٨ قطعوا عرض برامج الأطفال في أراضي الولايات المتحدة كلها كي يبثوا على الهواء مباشرة انتحار شخص في شارع من شوارع لوس أنجلس علم أنه مريض بالإيدز. كان ذلك مسرحية بمنتهى الروعة: أحرق في البداية سيارته التي حبس فيها كلبه، ثم تسلل منها وسرواله يحترق والسلاح في يده وأطلق النار على رأسه مالئا الشارع كله بالدماء. صوروا ذلك كله من مروحية، وكان الأطفال في البلاد كلها مضطرين إلى أن يشاهدوا هذا المشهد ما أثار اعتراض أهاليهم. قدمت الشركات التلفزيونية للأهالي اعتذاراتها وهذا ما يجب أن نقدره لها.

الهدف غير مفسَّر تماماً، لكن الحقيقة المثبتة أكيدة: يصوغ تلفزيون المجتمع الغربي «ثقافة العنف»، ويجعل العنف الإجرامي نمط حياة مقبولاً وحتى مبرراً لدى القسم الأكبر من السكان. يبالغ التلفزيون بشدة في دور العنف في الحياة مخصصاً له وقتاً طويلاً؛ يصور التلفزيون العنف على أنه وسيلة فاعلة لحل المشاكل الحياتية؛ يبني التلفزيون صورة أسطورية عن الرجل العنيف بصفته بطلاً إيجابياً. يقول خبراء التلفزيون إنهم حين يعرضون «مسرحية» العنف يصرفون الانتباه عن العنف الحقيقي: حين يعود الإنسان إلى الحياة فإنها تبدو له حتى أفضل مما هي على الشاشة. يقولون «إن ثقافة عنف تتكون لتحل محل العنف الحقيقي» (إنها ما يسمى ***فرضية التنفيس*** catharsis). أما علم النفس فيؤكد على أن ثقافة العنف لا تحل محل العنف الحقيقي بل تشرعنه. أضف إلى ذلك فإن أعمال العنف في الحياة معزولة، أما التلفزيون فيخلق العنف بصفته منظومة تؤثر في النفس تأثيراً أكبر من الواقع. يرى عالم النفس إ. فروم أن عرض العنف في التلفزيون محاولة لتعويض الملل المخيف الذي يستحوذ على الفرد المحروم من العلاقات الإنسانية الطبيعية. إنه «يعاني من انجذاب سلبي إلى صورة الجريمة والكوارث والمشاهد

الدموية القاسية – أي إلى الخبز اليومي الذي تطعم به الصحافة والتلفزيون الجمهور. يتشرب الناس بنهم هذه الصور فهذه هي الوسيلة الأسرع لتوليد الاهتياج الذي يخفف من شعورهم بالملل من غير قسر داخلي. لكن ما يفصل الاستمتاع السلبي بالعنف عن الاهتياج النشط الناجم عن الأفعال السادية والمدمرة هو خطوة واحدة فقط». يتحول التلفزيون إلى «مولِّد» للعنف الذي يخرج من الشاشة إلى الحياة. وعلى أي حال فإن هذا مثبت تماماً لدى قسم من السكان.

صارت واضحة منابع هذه العدمية وهذه الكآبة – إنها ثمن حرمان العالم من قداسته وغبطته. السبب الأهم هو الغذاء الروحي وتلك الصور التي يحصل عليها الإنسان من التلفزيون. يبتلعها الإنسان بنهم كي يحمي نفسه من الكآبة، بيد أن التلفزيون قد خلق مثل هذا النوع من الصور التي تستهلك بسهولة، لكن المفرغة من الجوهر، وخلق هذا التيار الهائل من القوالب. إنها تمتلك تأثيراً منوِّماً وتصوغ بديلَ الآراء، لكنها تقوض أي نشاط خلاق وروحي لدى الإنسان. إن هذا استنتاج الاختصاصيين وتبرهن عليه المراقبات المعقدة والدقيقة.

بالنتيجة ينبغي على الإنسان، كما في حال المخدرات، أن يستهلك كماً متزايداً من الصور الأقوى والأشد فظاظة- إلى أن يدمَّر كفرد أو ينتقل إلى نوع آخر من التسلية. وجدت الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة قبل عشر سنوات مثل هذه التسلية – تبادل الزوجات في أيام العطلة الأسبوعية. لكن هذا بات اليوم بلا نكهة. فنشأ بيزنس جديد باسم عامي هو*snuff* (السعوط). يختطفون الناس كي يعذبوهم بعد ذلك حتى الموت في استديوهات تحت الأرض، حيث يصورون تلك العمليات بأجهزة متطورة: التعذيب والمنازعة والموت. تسوق أشرطة الفيديو هذه بأسعار عالية جداً وصار هذا النوع من البزنس مزدهراً[١]. يعمل في إنكلترا في توزيع أفلام تعذيب الأطفال فقط

---

(١) عرض في التلفزيون الروسي فيلم المخرج الإسباني الشاب أ. أمنابار «الأطروحة» حول هذا الموضوع.

قرابة أربعة آلاف بائع وفاقاً لمعلومات سكوتلاند – يارد. لكن هذا مرحلة منطقية تماماً من لولب العنف «الوهمي» ذلك الذي أطلقه التلفزيون.

أبدع المجتمع البرجوازي الإنسانَ الجديد وأنجز عملاً من أعمال الكفر – لقد خلق لغة جديدة. اللغة العقلانية التي قطعت الصلة بالتقاليد وجملة المعاني العميقة التي ترعرعت على الكلمات خلال قرون. لقد خرج التلفزيون اليوم مثل الغولم(١) الأسطوري من تحت السيطرة (هذه الاستعارة مذهلة خصوصاً بأن رابي ليوف قد أحيا الغولم بعد أن كتب على جبينه كلمة «حقيقة». الكلمة نفسها حرفياً مكتوبة على جبين التلفزيون). السلاح الذي تسلح به المجتمع الغربي والذي يدمر به منافسيه بات يدمر «صاحبه» أيضاً. ينجر الغرب إلى ما سماه الفلاسفة «الحرب الأهلية الجزيئية» – أي العنف الجماعي والفارغ ظاهرياً من أي معنى على جميع المستويات، من الأسرة والمدرسة حتى أعلى قمة في الدولة. التصدي له مستحيل لأنه «جزيئي»، ولأنه غير منظم من قبل أي حزب ولا يسير وراء أهداف محددة. حتى تهدئته مستحيلة بتلبية مطالبه. لأن لا أحد يطرحها مباشرة وهي متناقضة إلى درجة أن من المستحيل إيجاد أي «حل وسط» معها. يصير العنف والتدمير هدفين بحد ذاتهما – إنهما مرض المجتمع بأسره.

٤- التلفزيون وخلق الواقع

أجري في الولايات المتحدة عدد كبير من الدراسات حول كيف يؤثر التلفزيون في الإنسان. والإجابة ما عادت تثير أي شكوك: التلفزيون ليس

(١) الغولم في الأساطير الفولكلورية اليهودية هو عملاق من الطين يحييه رجل يهودي يعيش في الحي اليهودي في براغ اسمه رابي ليوف بوسائل سحرية فينفذ كل ما يكلف به من أعمال، لكنه يخرج من تحت سيطرة خالقه فيقضي على كل شيء (**المترجم**).

«مراسلاً يحمل الأنباء» كما يحتج إي. كيسيليوف[١]. بل إنه يصوغ «النبأ» أي يبني ***واقعاً وهمياً***، كما قال مخرج برامج التلفزيون السياسية الأمريكي المشهور في زمنه د. هيويت «لا أحب أن أوجز الخبر- إنني أحب أن أصنعه»[٢]. إضافة إلى ذلك فإن وجود عين التلفزيون في الأحداث يؤثر فيها تأثيراً نشطاً – إنه يشكل «***واقعاً واقعياً***».

لنتحدث في البداية عن بناء الواقع الوهمي – أي صورة ذلك الواقع المشوه الذي كان قد تحدث عنه أفلاطون. بما أن الإنسان يتصرف طبقاً لإدراكه للواقع (أي طبقاً ***لصورته***) فإن التلفزيون قادر على أن يخلق هذه الصورة، ويصير وسيلة لبرمجة سلوك الإنسان.

قدمت تجربة التقارير التلفزيونية عن المحاكمات القضائية مادة كبيرة جداً. أنشئت في الولايات المتحدة قناة تلفزيونية لا تبث برامجها إلا من قاعة المحكمة. وقد نالت شهرة استثنائية. لن نشتت الانتباه بالجدل حول المحاكمات المثيرة التي أشعلت مشاعر فظة (مثل محاكمة الزوجة التي قطعت ثأراً عضو زوجها التناسلي الذي أساء إليها). لنتذكر محاكمة نجم كرة القدم ومعبود الناس في الولايات المتحدة سيمبسون. لقد هزت هذه المحاكمة البلاد ومن ثم قسمتها عرقياً: رأت أغلبية الزنوج أن سيمبسون غير مذنب في قتل زوجته البيضاء وصديقها، بينما رأى البيض أنه مذنب.

إليكم استنتاجات العلماء حول الدور الذي لعبه التلفزيون بصفته اليوم وسيلة الإعلام والتأثير الثقافي الأهم في الإنسان. الاستنتاج الأول والمذهل حقاً هو: يتمتع التلفزيون بصفة ***استبعاد الحقيقة من الأحداث***. إن عين

---

(١) **يفغيني ألكسندروفيتش كيسيليوف** (١٩٥٦) صحفي تلفزيوني. عمل منذ عام ١٩٨٠ في هيئة الإذاعة والتلفزيون في الاتحاد السوفييتي، ومنذ عام ١٩٩٣ في تلفزيون إن. تي. في الروسي (نائب رئيس التلفزيون منذ عام ١٩٩٦). (**المترجم**).

(٢) ثمة قول مشابه آخر: «لا يدور الحديث عن "إذاعة الحقيقة" بل يدور عن "خلق الحقيقة"».

الكاميرا التلفزيونية تحديداً، التي تنقل الحدث بمصداقية قصوى، هي التي تحوله إلى «**حدث مزيف**» وإلى مسرحية. أشرطة تسجيل أحداث المحكمة لا يمكن أن تعد وثائق من وثائق التاريخ - لأنها تشوه الواقع. تعمل عدسات الكاميرا على نحو يجعلها تغير أهمية الأحداث و«وزنها» وتمسح الحدود بين ما هو حقيقي وما هو مختلق. هذا الأثر ما زال غير مفسَّر تماماً لكن تجربة الـ بي بي سي الكبيرة والمكلفة تؤكده.

وها هو الاستنتاج العام عن الفارق بين الفنين البصريين: المسرح والتلفزيون. تؤدي الدراما على المسرح، بغض النظر عن عدد الجثث في الختام، إلى التطهير الانفعالي لدى المشاهد - أي إلى التنفيس الذي يحرره من الدوافع والرغبات المظلمة. أما المحاكمات على شاشة التلفزيون (محاكمة سيمسون وغيره) فهي ليست فقط لا تؤدي إلى التطهير، بل إنها، على العكس، تخلف «رواسب الغضب والشك والاستهتار والانشقاق الدبقة». بيَّن التحليل أن التلفزيون تحديداً هو الذي «يصمم الواقع» - أي أن المشاركين جميعاً في محاكمة سيمبسون «كانوا يعملون من أجل الكاميرا». وارتد ذلك الانطباع الذي تركته هذه المسرحية في البلاد على المحكمة نفسها. حتى القاضي كان، حين يدلي بالتصريح، يدير وجهه نحو الكاميرا. وكان تأثير حضور التلفزيون كبيراً إلى حد أن رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق السيناتور أندريوتي وافق على المثول أمام المحكمة إذا كانت الجلسات سوف تبث على الهواء مباشرة. لقد كان على دراية بتأثير الكاميرا. أما السابقة فكانت عام ١٩٨٦ في نانت (فرنسا) حيث حصل المتهمون على السلاح سراً وأخذوا المحكمة كلها رهينة، لكنهم لم يختبئوا، بل اشترطوا أن يتم استدعاء التلفزيون إلى المحكمة. فتحولوا آلياً من مجرمين إلى أبطال مسلسل تلفزيوني يأسر الألباب.

كتب محام مرموق أن عدسة الكاميرا التلفزيونية التي تقدِّم من خلال لقطة قريبة وجه المتهم أو النائب العام أو القاضي هي عين المشاهد الاصطناعية التي تقربه إلى مسافة محرمة وتخلق لديه شعوراً مقززاً بالثأر.

مقدرة التلفزيون هذه ليس لها أي علاقة بالحق الديمقراطي بالحصول على المعلومة، إنه حق النظر من خلال «ثقب القفل». إن حضور الكاميرا في قاعة المحكمة، وفاقاً لتعريف هذا المحامي، يخلق جنساً خاصاً من الإباحية، ولا تستطيع المحكمة التلفزيونية إلا أن تكون مسرحية غير لائقة. قاعة المحكمة بوجود الكاميرا التلفزيونية هي سيناريو خاص يعمل بقوانينه الخاصة ويختلق «حقيقته» الخاصة.

إذا كان التلفزيون لا يعكس الواقع، بل ***يخلقه***، فهذا معناه أن من المستحيل مقارنته بالمرآة البريئة التي لا يمكن أن تلام بشيء. التلفزيون يشوهنا أنفسنا. الصحافة مليئة بالأخبار عن تأثير التلفزيون المباشر في الأحداث الحقيقية، وفي «خلق» المآسي الإنسانية. تتماز في هذا السياق خصوصاً برامج من جنس جديد محورها الأحاديث الصريحة الصادقة (*talk show*). فبهدف الإثارة يتسلل مذيعو التلفزيون إلى نفوس الناس ويبسطون أمام الكاميرا الخطايا والأسرار العائلية والنذالات المدفونة في أعماق الذاكرة – بعد ذلك يحل على الضحايا الندم والضغينة، وتحدث حتى جرائم قتل.

بينت سلسلة كاملة من الدراسات في الولايات المتحدة (أكثر من ٧٠) أن العدد الأكبر من الناس، وخصوصاً الأطفال والمراهقين، يصير غير قادر على التمييز بين المسرحية والحياة الواقعية. إنهم أطفال غير أسوياء انفعالياً ونتاج التوتر المديني وأوقات الفراغ غير السليمة. ثمة في الولايات المتحدة ١،٥ مليون تلميذ من الأطفال «الحدوديين» الذين لا يستطيعون التركيز على شرح المدرس. فيستجيب هؤلاء الأطفال لإشارات التلفزيون كما يفعل السرنميون. يقودهم التلفزيون مباشرة إلى العنف غير المستعدين له لا روحياً ولا اجتماعياً. لكن الأطفال والمراهقين الطبيعيين تماماً أيضاً لا يستطيعون الصمود في وجه تأثير التلفزيون المبرمِج. لن نتحدث عن الإحصائيات والدراسات الاجتماعية النفسية الكبرى لتأثير التلفزيون في نفسيات الناس

وسلوكهم. تعالوا نلقي نظرة إلى بضع أخبار صحفية فقط. فأمثلة الممارسات الوحشية تنشر في الصحف يومياً والحديث يدور تحديداً عن ظاهرة جماهيرية.

برشلونة. أعاد ثلاثة مراهقين تمثيل خدعة أعجبتهم بعد مشاهدة التلفزيون. مدوا في وقت متأخر من المساء عبر الشارع شريطاً بلاسيتيكياً وراحوا يراقبون كيف قطع حنجرة راكب دراجة نارية. لقد مات في مكانه.

لندن. حطم طفلان بعمر ست سنوات منزل جيرانهم عن بكرة أبيه كي يكرروا برنامجاً تلفزيونياً ويحصلا على الجائزة. عُرض في برنامج الأطفال ذلك بيت مبني في الاستديو، والمطلوب تحطيمه بأشد الطرق فرادة. ويحصل الأطفال الفائزون على جوائز قيّمة.

أوسلو. مجموعة أطفال بعمر ٥ إلى ٦ سنوات ضربوا حتى الموت في مرج غير بعيد عن المنزل صديقتهم. لقد مثلت في اللعبة دور السلحفاة النينجا التي ضربها الجميع في البرنامج الأخير.

فالنسيا. شاب عمره ٢٠ عاماً تسلل مرتدياً زي سلاحف النينجا إلى المنزل المجاور وذبح زوجين وابنتهما.

نيويورك. أصحاب صغار السن عاقبوا بعد أن شاهدوا معاً فيلماً حربياً متوسطاً ابن أصحاب الشقة الصغير لأنه رفض أن يستل لهم السكاكر من الخزانة. أمسكوه من يديه ودلوه من نافذة الطبقة الثانية عشرة مطالبين إياه بالانصياع. وبما أنه لم يرد (كان مصعوقاً على الأرجح) فقد أفلتوا يديه. كان أخوه الصغير يقفز ويبكي قربهم لكنه لم يستطع أن يساعده في شيء.

يتزايد ورود مثل هذه الأنباء أكثر فأكثر. والحديث يدور فيها جميعها عن أطفال طبيعيين تماماً من المدرسة المتوسطة. إنهم ببساطة يعيشون في «مجتمع المسرحية» ولا يستطيعون أن يميزوا بين الحياة وما يرونه على

شاشة التلفزيون. إنهم ضحايا حزية الأنباء[1]. وعندئذ ينبغي أن نؤكد على أن الضربة الأقوى التي يوجهها «العنف التلفزيوني» إنما يوجهها للأطفال. كانوا في منتصف السبعينيات يعرضون مشاهد العنف في التلفزيون الأمريكي بتواتر متوسط قدره ٨ مشاهد في الساعة. لكن هذا كان المتوسط، أما التواتر الأعلى لعرض مثل هذه المشاهد فكان في أفلام الكرتون. بالمناسبة، ثمة ملحوظة عن «ديمقراطية» سوق التلفزيون: بينت استطلاعات الرأي في معهد غيلاب في منتصف السبعينات أن ثلثي الأمريكيين رفضوا «العنف التلفزيوني» لكنهم كانوا عاجزين عن التغلب على مصالح الشركات المنتجة للتلفزيونات وأصحاب الإعلانات.

طبعاً، ليس الأطفال وحدهم من يقع تحت التأثير المباشر للتلفزيون في السلوك. ففي إحدى الدراسات، التي أجريت في الولايات المتحدة في بداية الثمانينات، أعلن ٦٣% من المساجين أنهم ارتكبوا جرائمهم تقليداً لأبطال الأفلام التلفزيونية، واكتسب ٢٢ % منهم من برامج التلفزيون «تقنية الجريمة». بيد أن الأطفال والمراهقين هم المجموعتان الأقل حصانة ضد تأثير التلفزيون. يبدأ الأطفال يتعرضون «للعدوى» الاجتماعية تحت تأثير شاشات التلفزة منذ عمر ما قبل المدرسة. وقد خصص علماء النفس في جامعة ستانفورد بقيادة أ. باندورا عدداً كبيراً من الدراسات مرسين بذلك بداية مجال علمي كامل.

درس أ. باندورا في البداية «العدوى» عند مراقبة مشاهد العنف في الحياة الطبيعية – حين يسلك أحدهم (راشد أو طفل آخر) بحضور طفل سلوكاً

---

(١) ربما كان الأكثر إثارة للرعب حين كانوا يحاكمون في لندن منذ وقت قريب مجموعة أخرى من أمثال هؤلاء الأطفال القتلة – الضحايا، وحاول حشد من الليبراليين الراشدين الوقورين الهجوم على عربة السجن وإعدام الأطفال من غير محاكمة. حاولوا أن يجعلوا منهم ضحاياهم مرة ثانية. أما نحن فما زلنا لا نعدم أطفال روسيا الصغار، ما زلنا فقط لا نحميهم.

عدوانياً - كأن يضرب الدمى أو يعطب الحيوانات الآلية... الخ. وكما يكتب عالم نفس مشهور آخر هو أو. برونفينبرينير الأستاذ في جامعة كورنيلسكي فإن «أطفال ما قبل سن المدرسة الطبيعيين والأسوياء تماماً يبدأون بعد مراقبة مثل هذه المشاهد، ومن غير أي تحريض على ذلك، يسلكون سلوكاً عدوانياً. مع العلم أنهم لا يعيدون فعل ما رأوه فقط بل يضيفون "مركَّب النشاط" لمخيلتهم الخاصة»(١).

غيَّر باندورا بعد ذلك مشاهد العنف الحقيقية بالمشاهد التي تعرض في التلفزيون (في أفلام «مخبرية» مجهزة خصيصاً، وكذلك في الأفلام التمثيلية والوثائقية). أجري عدد هائل من التجارب على أناس من أعمار مختلفة (أطفال، مراهقون، طلاب، راشدون) وتم الوصول إلى استنتاج مؤكد: تثير مشاهد العنف على شاشة التلفزيون دوافع عدوانية قوية. وعندئذ لا يؤدي منظر عذابات ضحية العنف إلا إلى زيادة شدة رد الفعل العدواني لدى المشاهد. بكلمات أخرى، تدحض هذه التجارب «فرضية التنفيس» التي أشرنا إليها، والتي تنص على أن مشاهد العنف الافتراضي تضيق على الدوافع العدوانية. صاغت الشركات المنتجة للتلفزيونات تصريحاً جماعياً متعلقاً باستنتاجات أ. باندورا محاولة أن تضعها موضع الشك. لكنها لم تفعل شيئاً بذلك سوى أنها صبت الزيت على النار وحرضت على الكثير من المشاريع

---

(١) يلخص أو. برونفينبرينر هذه المعطيات في فصل «تأثير التلفزيون» في كتابه «عالمان للطفولة. أطفال الولايات المتحدة وأطفال الاتحاد السوفييتي»، الصادر في نيويورك عام ١٩٧٠ وموسكو عام ١٩٧٦. ألف الكتاب على أساس مواد برنامج «دراسات مقارنة في مجال تربية الأطفال» الذي نفذ خلال ٥ سنوات في ٦ بلدان بتمويل من الصندوق القومي العلمي في الولايات المتحدة. أحد مواضيع الكتاب هو شرح أسباب عدوانية الأطفال الأمريكيين العالية وغياب العدوانية لدى الأطفال السوفييت الذي أدهش عالم النفس. ربما كان من المفيد جداً للمواطنين الروس أن يقرأوا هذا الكتاب اليوم تحديداً.

البحثية الجديدة التي أكدت هذه الاستنتاجات (أجريت في إنكلترا في الثمانينات دراسات كبرى بهذا الشأن).

يختم أو. برونفينبرينير الفصل مؤكداً على ارتباط تأثير التلفزيون بالفردانية بصفته عاملاً يزيد من الضعف النفسي لدى المراهق: «إن الفراغ الأخلاقي والانفعالي المتكون يُملأ قسرياً بشاشات التلفزيون مع كل ما تحمله من نشر يومي لروح المتاجرة والعنف... يستحق الأمر أن نشير إلى أن بلداً واحداً من بين البلدان الست التي أجريت فيها الدراسات تتفوق على الولايات المتحدة في ميل الأطفال فيها إلى السلوك اللااجتماعي، مع العلم أن هذا البلد هو الأقرب إلينا من وجهة نظر تقاليد الفردانية الأنجلوساكسونية. يدور الحديث عن إنكلترا موطن فرقة "البيتلز" و"رولينغ ستونغ" ومنافستنا الأساسية في مجال إثارات الشوارع والجريمة والعنف الشبابيين».

من أين للتلفزيون مثل هذه القوة في التلاعب بالوعي؟ الصفة المهمة الأولى من صفات التلفزيون هي «تأثيره المنوِّم» الذي يوفر سلبية الإدراك. يجعل تداخل النص مع الصور والموسيقى والظروف المنزلية الدماغ يسترخي، وهذا ما يؤدي إليه البناء الماهر للبرامج. كتب أحد الأخصائيين الأمريكيين البارزين: «التلفزيون لا يزعجكم ولا يجبركم على الاستجابة، بل يحرركم ببساطة من ضرورة إظهار ولو القليل من النشاط الذهني. إن دماغكم يعمل في اتجاه لا يُلزِمه بأي شيء».

تتحدث في الولايات المتحدة سلسلة كبيرة من الفضائح المتعلقة بكشف عمليات النصب في المسابقات الاستعراضية التلفزيونية المشهورة عن القدر الذي صار فيه الإنسان مرتبطاً بمثل هذا المشهد. أجرى حينذاك معهد غيلاب استطلاعاً لآراء مشاهدي التلفزيون واتضح أن ٩٢% من المشاهدين كانوا يعرفون بعمليات النصب هذه، لكن ٤٠% منهم «رغبوا في مشاهدة هذه المسابقات التلفزيونية مع علمهم بأنها مزيفة».

يستطيع الإنسان أن يراقب و«يفلتر» الأخبار التي يحصل عليها عبر قناة واحدة، من خلال الكلمة والأشكال البصرية مثلاً. وحين تتحد هذه القنوات فإن فاعلية غرس المعلومة في الوعي تزداد ازدياداً حاداً - تتمزق «الفلاتر». وهذا ما حصل في حال الكوميكس: إن أي نص ساذج يمكن أن يستصلح بسهولة إذا ترافق برسوم بالقدر نفسه من السذاجة. صارت الكوميكس الجنس الأدبي الأول والأقوى في صياغة وعي «الجمهور». ضاعف التلفزيون قوة هذا المبدأ. فالنص المقروء من قبل المذيع يتم إدراكه على أنه حقيقة واضحة إذا قدم على خلفية سلسلة بصرية - أي صور ملتقطة «من مكان الأحداث». يصير الاستيعاب النقدي أصعب كثيراً حتى لو لم يكن للسلسلة البصرية أي علاقة بالنص. ليس مهما! المهم هو أن الأثر من حضوركم «في النص» يتحقق(١).

أعيروا انتباهكم إلى أن ما يقارب نصف الأخبار في البرامج الإعلامية تتضمن مقاطع لتسجيلات فيديوية من الأرشيف. إنهم حتى لا يمسحون تاريخ تصوير اللقطة أحياناً عند التركيب (المونتاج) ويحدث أن يكون التقرير الحيوي المعد «من المنطقة الساخنة» مترافقاً بصور فيديو مسجلة قبل عدة سنوات. نشب عام ١٩٩٦ توتر في العلاقات بين الولايات المتحدة والصين بخصوص تايوان. ترافقت التعليقات الإنكليزية المعادية للصين لمذيعي التلفزة الغربية واللقطات المصورة من على حاملات الطائرات الأمريكية الضخمة (الدفاع عن الديمقراطية التايوانية) مع لقطات تضرب المشاعر بقوة - مع منظر الموت. راح المذيع يحذر: سنعرض الآن مشهداً قد يكون صعباً جداً على أعصابكم. يلتصق جمهور المشاهدين بالشاشة. نعم، المشهد ثقيل الوطأة

---

(١) مشهورة الحالات التي تم فيها تحقيق الهدف من البرنامج مع وجود تناقض تام بين النص والسلسلة البصرية. ففي عام ١٩٧٠ عرضت شبكة سي. بي. إس (الولايات المتحدة) فيلماً عن نجاحات الصين الشعبية صوره المراسل الإنكليزي الشيوعي أو. بيرتشيت. لكن عوضاً عن تعليق المؤلف تمت قراءة نص مذيع الشركة التلفزيونية في الخلفية- فبدا الفيلم معادياً كلياً للشيوعية.

– إعدام المتاجرين بالمخدرات في الصين. كانوا جاثمين على ركبهم ويطلقون النار على رؤوسهم من الخلف. وفي الزاوية اليسرى في الأسفل كان واضحاً التاريخ – ١٩٩٢. لكن المشاهد لا ينظر إلى ذلك، وهو يربط منظر الإعدام بتايوان عام ١٩٩٦ وبحاملات الطائرات المبحرة لنصرتها. وأحياناً، إما بهدف اختبار غبائنا أو لتعمد الأذى، يعرضون على الشاشة موضوعاً مختلفاً تماماً – سيارات ما أو جمالاً أو حشوداً سائرة في المدينة.

تضفي كثرة القنوات الإعلامية في التلفزيون مرونة عليه تجعل بالإمكان إدراك الكلمة نفسها بطرق مختلفة، بحيث يصير بالإمكان تضمين النص نفسه محتويات متعددة (يسمح هذا بالمناسبة بتجاوز معايير القوانين الخاصة بالتلفزيون التي يكون موضوعها هو النص قبل كل شيء). يكتب الأستاذ الأمريكي أو. هارا في كتابه «وسائل الإعلام من أجل الملايين» عن المذيع الماهر قائلاً: «قد يبدو خبره موضوعياً بمعنى أنه لا يحتوي على تأييد أو شجب، لكن إضافاته الصوتية ونبرته وفواصل الصمت التي تحمل الكثير من المعاني، وكذلك تعابير وجهه، غالباً ما تمتلك التأثير نفسه الذي يمتلكه رأي المحرر».

تسمح إمكانات التلفزيون التقنية بنحت صورة الهدف حتى المنقول على الهواء مباشرة. يكتب أحد النقاد التلفزيونيين الفرنسيين: «يمكن فعل أي شيء للصورة التلفزيونية كما الكلمة. ضعوا من تجرون معه اللقاء بحيث تنظر إليه الكاميرا من الأسفل وسيتخذ أي إنسان على الفور هيئة متغطرسة ومتكبرة. ركبوا اللقطات كما ترونها مناسبة، قصوا قليلاً هنا، وأضيفوا شيئا ما هناك وقدموا التعليق الملائم... فتستطيعون أن تبرهنوا لملايين الناس ما تشاؤون». ليس نادراً أيضاً التزييف الصريح[1].

---

(١) كتبت صحيفة «الفيغارو»: بثت الـــ بي. بي. سي تقريراً مباشراً عن أحد الإضرابات. ويتساءل المرء، ما الذي يمكن أن يبدو حقيقياً وأكمل من ذلك؟ لقد استبدلوا بالمضربين جميعهم ممثلين محترفين».

لقد تحدثنا عن *إزالة ساتر أضواء المسرح*، وعن ضعف الإنسان في «مجتمع المسرحية». «إزالة ساتر أضواء المسرح» هو إخلال بالتابو الثقافي الأهم الذي يحرم دخول «من هم على الجانب الآخر» إلى العالم. ساتر الأضواء (أو إطار اللوحة) – هو تلك العلامة المرسومة بالطبشور التي تفصل حياتنا الأرضية عن صورتها وشبحها المبنيين من قبل مخيلة الفنان. هذه العلامة لا تسمح له بالنزول إلينا، ولا تسمح لنا بالصعود إلى عالم الأشباح ذلك. أي مزج مثل هذا المزج بين العالمين، وأي خروج إلى عالم شخصيات اللوحة والبورتريهات، وأي دخول لنا إلى هناك تمثل دائماً في كابوس الفنان على أنه لقاء مع البداية الشيطانية. لكن «بورتريه» غوغل أو مسرح ليوبيموف كانا مقدمة فقط. صار الإنسان ضعيفاً أمام *شاشة التلفزيون*. لقد أجبروا من خلاله اليوم، وفي ذاكرة السنوات الأخيرة، الكثيرين من الناس وشعوباً كاملة على أن تقدم على أفعال مرعبة بنتائجها.

تقود الحروب «الغريبة» في التسعينيات إلى استنتاج أشد وطأة أيضاً: يوضع الكثير من المسرحيات الدموية منذ البدء كمسرحيات تلفزيونية. لم يكن لا «لعاصفة الصحراء» ولا لمقتل الأفارقة في جنوب أفريقيا، ولا لتحليق صاروخ «توماهوك» نحو الجسر الصربي على نهر الدوناي، أي لزوم لو لم يتم عرضها في التلفزيون. كانت هذه العمليات كلها عبارة عن مشاهد محضرة بعناية، والمغزى منها هو بثها إلى كل منزل وكل أسرة. تبدو بهذا المعنى ملفتة عملية قصف الطيران الأمريكي لطرابلس الغرب عام ١٩٨٦. («عملية استباقية ضد هجمات محتملة من قبل الإرهابيين الليبيين»)[(١)]. كان

---

(١) اسم هذه العملية نفسه هو أنموذج للغة الجديدة. جرى بالقرب منا نقاش ممتع بين خبراء في القانون الدولي: نتج أن قصف العاصمة الليبية يمكن النظر إليه إما على أنه عدوان (يميل إلى هذا الرأي مجلس الأمن في الأمم المتحدة)، أو أنه إرهاب دولي – وليس ثمة صفة ثالثة.

سقوط الصواريخ على المدينة محدداً بدقة ليتزامن مع بداية النشرات الإخبارية المسائية في تلفزيون الولايات المتحدة. استطاع التلفزيون على هذا النحو أن يذيع خبر العملية على الفور ووحَّده في الحال مع التقارير عنها في طرابلس كي يتمكن المشاهدون من مراقبة انفجار القنابل والصواريخ الأمريكية على الهواء مباشرة في «وكر العدو». كانت تلك أول عملية قصف في التاريخ تنظم في اللحظة المقررة على أنها تقرير تلفزيوني- أي **كرمى** لهذا التقرير إلى حد كبير.

٥- التلفزيون والتلاعب بالوعي في السياسة

كتب الباحث الأمريكي في وسائل الإعلام ر. ماكنييل في كتابه «آلة التلاعب بالشعب» عام ١٩٦٨: «صار التلفزيون سبباً لتغييرات جذرية في وسائل الإعلام السياسي للمجتمع لم يحدث لها مثيل منذ زمن تأسيس جمهوريتنا. لم يدخل أي شيء قبل انتشار التلفزيون مثل هذه التغييرات المرعبة في تقنية إقناع الجماهير».

القضية في الواقع ليست في التلفزيون فقط، بل في أنه صار أساساً تقنياً من أجل استخدام مذاهب معقدة في التلاعب بالوعي. يدور الحديث قبل كل شيء عن بناء صناعة كاملة للدعاية السياسية التلفزيونية. لماذا غدا التلفزيون في السياسة وسيلة للإيحاء أشد فاعلية بكثير من الصحافة والراديو؟ لأنه تم اكتشاف مقدرة شاشة التلفزيون المدهشة، والتي لم توضح تماماً بعد، في «مسح» الفوارق بين الحقيقة والكذب. حتى الكذب الواضح المعروض من خلال التلفزيون لا يثير لدى المشاهد إشارة الخطر الآلية – فدفاعه النفسي متوقف.

نشرت مجلة «شبيغل» منذ وقت قريب معطيات دراسة ضخمة أجراها علماء نفس بطلب من الـــ بي. بي. سي. جهز المعلق السياسي الإنكليزي البارز روبين دي أنموذجان لخطاب في الموضوع نفسه. الخطاب الأول كان

كاذباً من أوله إلى آخره، أما الثاني فكان صحيحاً. قدم الأنموذجان من خلال ثلاثة أنواع من وسائل الإعلام: نشرا في صحيفة «ديلي تلغراف»، وبثا عبر إذاعة الــ بي بي سي. وعرضا في برنامج «عالم الغد» التلفزيوني. طلبوا من القراء والمستمعين والمشاهدين الإجابة عن أي أنموذج يرونه صحيحاً. أجاب ٣١،٥ ألف إنسان – وهذا رقم ضخم لمثل هكذا دراسة. ميز بين الحقيقة والكذب ٧٣،٣% من مستمعي الراديو و٦٣،٢% من قراء الصحف و٥١،٨% فقط من مشاهدي التلفزيون. النتيجة: التلفزيون بسبب من طبيعته ذاتها مبني على أن لا يتم التمييز في أخباره عملياً بين الحقيقة والكذب. وكما قال مدير المشروع فإن «الكاذب الماهر يعرف أن عليه أن ينظر إلى عيني محدثه».

أريد أن أؤكد أن الفارق بين التلفزيون والصحيفة والمذياع أكبر مما يمكن تخيله من هذه الأرقام. لقد نظمت التجربة بحيث يعتمد الخاضعون للاختبار على عقولهم فقط – أي أنهم لم يتلقوا أي «تلقين» من مذيع البرنامج التلفزيوني أو أي إيماءة منه أو تنغيم في الصوت. أغلبية المشاهدين تقوِّم صحة الخبر لماماً موحدة المعلومة التي يحصلون عليها عبر قنوات الإدراك كلها – إنهم «يخمنون» الحقيقة والكذب من غير محاكمة. لو كانت الحقيقة والكذب في الحال القصوى غير قابلين للتمييز إطلاقاً لكان عدد المشاهدين الذين قبلوا الخبر على أنه حقيقة مساوياً لعدد المشاهدين الذين قبلوه على أنه كذب – ٥٠% و٥٠%. قَبِل في التجربة ٤٨،٢% (أي ١٠٠ – ٥١،٨) من المشاهدين ***الكذب على أنه حقيقة***. لكن هذا معناه أن هذا العدد نفسه من الناس قَبِل ***الحقيقة على أنها حقيقة***، ليس لأنهم محصوا الخبر، بل بالمصادفة – مثل الطرة والنقش. أي أن من ميز الحقيقة تمييزاً واعياً هم ٣،٦%. أي لا أحد عملياً. أما بين مستمعي الراديو فعلى العكس «من حزر – من لم يحزر» هم ٥٣،٤ % وميز الحقيقة تمييزاً واعياً ٤٦،٦% أي النصف عملياً. وهذا

رقم كبير (كان لدى قراء الصحف أقل بعض الشيء ٢٨% - لكنه يقارب الثلث مع ذلك).

إن قوة الإيحاء غير الطبيعية التي يتمتع بها التلفزيون يمكن أن تكون إشارة لاكتشاف مشكلة أساسية أكبر وهي تغيير نوع الوعي والتفكير مع انتقال البشرية إلى وسيلة جديدة للحصول على المعلومة، ليس من الورقة بل من الشاشة. إن مجتمعات الزمن الجديد المتطورة كلها، بغض النظر عن نوع الثقافة، تنتمي إلى ***حضارة الكتاب***. والأدق، إلى حضارة قراءة النص المنشور بطريقة الطباعة. إن قراءة النص المطبوع على الورقة تحديداً هي التي تفرض إيقاع العملية الفكرية وبنيتها على الفئة المثقفة في الدول كلها وتوحد الجميع في الحضارة المركبة من بنى التفكير المتشابهة هذه. إن هذا النوع من القراءة ونمط التفكير الموافق له ليسا نتيجة بسيطة للارتقاء البيولوجي للدماغ. فهما لم يظهرا إلا في فجر الزمن الحديث نتيجة ظهور طباعة الكتب والانتشار الواسع للنص المطبوع. ظهر أسلوب قراءة جديد - من خلال الحوار بين القارئ والنص.

حين قرأ إنسان القرون الوسطى الكتاب المخطوط باليد (عادة على نحو جماعي وبصوت مسموع وبترنم) لم يكن ذلك حواراً - كان القارئ يسير عبر النص مثل الحاج إلى الحقيقة المختبئة فيه. قال أحد الفلاسفة: هكذا ينتظر الرهبان في صلاة الصبح الفجرَ الذي سينير زجاج الدير الملون. كان النص متاهة، وأيقونة تقريباً - مرسوماً من قبل فنان من غير علامات تشكيل. لم يكن بالإمكان مناقشته، كان ممكنا التعليق عليه فقط. ثم قدمت الطباعة نوعاً جديداً من الكتاب فصاروا يقرأونه في سرهم، ويعيدون قراءته ويتأملون فيه ويتجادلون مع مؤلفه. صار القارئ ***مشاركاً في التأليف***، وصارت القراءة إبداعاً.

باتت الشاشة اليوم- التلفزيون أو الحاسوب - هي حامل النص الرئيسي. ظهر فائض هائل في المعلومة («ضجيج») وسرعة هائلة في خلق

نوع جديد للقراءة من غير حوار، قراءة الاستهلاك. النص على الشاشة مبني مثل تيار من «الأحداث الأصغرية (الميكروية)» وقد أدى هذا إلى حدوث أزمة «النص الكبير» الذي يفسر العالم والمجتمع(١). أما الإنترنت الآخذ بالنمو سريعاً فإنه، إضافة إلى نشره نصوص الشاشة، يعيد التواصل المباشر بين الناس، لكن ما زال مبكراً تقويم تلك التأثيرات في المجتمع التي ستأخذ الغلبة. حتى الآن ما زالت الغلبة في التواصل عبر الإنترنت «لديمقراطية الضجيج» مع جرعة صغرى من التفكير والحوار. عدا ذلك، وخلافاً لتوقعات مصممي الشبكة أنفسهم فإن التواصل عبر الإنترنت لا يقلل اغتراب البشر بعضهم عن بعض بل يزيده(٢). عموماً، يسمى ذلك المجتمع الذي يتكون عند القراءة من الشاشة والحصول على المعلومة منها أسماء مختلفة: ديمقراطية الضجيج،

---

(١) إننا نرى الأمر نفسه مثلاً في أفلام الكرتون المخصصة للأطفال- أي الاستعاضة عن القراءة لدى الأطفال. ترتكز أفلام الكرتون الأمريكية الحالية على السرعة غير المعقولة في استبدال الأشكال. حين راحوا في بداية البيريسترويكا يستعيضون في التلفزيون عن أفلام الكرتون الوطنية بالأمريكية لم يكن الأطفال السوفييت قادرين حتى على تبيُّن هذه الأشكال فما بالكم بالتقاط محتوى الموضوع. لا تسمح أفلام الكرتون هذه بأي تفكير أو حوار، بل تسمح فقط بالاستهلاك.

(٢) مولت شركات الحاسوب «آبل» و«إنتل» و«هيولت باكارد» دراسات عن التأثيرات النفسية بين مستخدمي الإنترنت. نشرت عام ١٩٩٨ نتائجها في مجلة «The American Psychologist» وحتى في صحيفة «النيويورك تايمز». وها هي النتائج: كل ساعة استخدام للإنترنت في الأسبوع تقلص وسطياً التواصل المباشر بين المستخدمين بمقدار ٢،٧% وتزيد بمقدار ١% «كمونه الاكتئابي»؛ العلاقات الإنسانية الافتراضية المقامة عبر الإنترنت لا تقدم للمستخدم ذلك الدفء والدعم اللذان ينشآن في العلاقات الشخصية المباشرة. على هذا النحو فإن الإنترنت يزيد اكتئاب الإنسان وعزلته. أعلن أحد علماء النفس البارزين في جامعة كارنيغي ميلون (الولايات المتحدة): «إننا مندهشون من نتائج الدراسة كونها تتناقض مع ما كنا نظنه عن تأثير استخدام الإنترنت في العلاقات الإنسانية».

الفيديوقراطية، مجتمع المسرحية...الخ. لكن لنعد إلى ما حدث عندما استخدموا الدعاية السياسية استخداماً واسعاً في التلفزيون.

يبدو عمق التبدلات في المجتمع ونوع السلطة واضحين من أن مسألة ***الاختيار السياسي من خلال تصادم الأفكار*** نفسها قد استبعدت من الحياة الاجتماعية. إذا كانت السياسة تفترض سابقاً وجود برنامجٍ وتأطيرٍ للمسائل وتفسيرٍ لبدائل حلها ومخاطبة مصالح المواطنين وعقولهم، فإن كل شيء قد حل محله اليوم التنافس بين أشكال السياسيين وصورهم مع العلم بأن هذه الصور تتشكل وفاقاً لقوانين البزنس الدعائي[١]. الصيغة هي التالية: «إذا لم تقبلني كما أنا في الواقع فإنني سأصير كما تريد أن تراني». المراجع مليئة بوصف كيف يُقدم السياسيون الراغبون في الاستحواذ على مجموعات متنافرة، وحتى متناقضة، من الناخبين على تجهيز عدة أفلام دعائية بصور(image) مختلفة تماماً وغير متطابقة.

على هذا النحو فإن التلفزيون في الغرب قد استبعد الديمقراطية كديمقراطية، فهي تعني استيعاب المشاكل والاختيار العقلاني في هيئة أفكار سياسية. أشار الباحث الأمريكي ك. بليوم حين حلل حملة رونالد ريغان عام ١٩٨٤ إلى أن: «كل من حافظ في نهاية القرن العشرين على قناعته بأن السياسة يجب أن تبنى على الأفكار فإنه، على الأرجح، لا يشاهد التلفزيون». المهم لدى السياسيين الآن هو حقيقة الظهور على التلفزيون نفسها وغرس صورتهم في لاوعي الناس. وغالباً ما تكون خطاباتهم أمام الكاميرا التلفزيونية خالية تماماً من أي محتوى، وليس فقط من الأفكار. يتجنب السياسيون بعناية،

---

(١) الفارق من حيث الجوهر بين الخطاب السياسي والدعاية قد تم محوه. قوَّم نصف المشاهدين خطاب رئيس الوزراء في استطلاع الآراء الذي أجرته قناة التلفزيون الفرنسي الأولى على أنه معلومة، والنصف الثاني على أنه دعاية. هذا معناه أن من غير الممكن تمييز الفارق إطلاقاً.

مثلاً، المواقف التي يكونون مضطرين فيها إلى نشر قيمهم الخاصة (مثلهم ومبادئهم ومعاييرهم وخيارات الحلول) – إنهم «يستعيضون عن القيم بالتقديرات». إنهم يبيعون صورتهم(١).

يشخصن التلفزيون التناقضات الاجتماعية والسياسية ويقدمها لا على أنها صدام بين المصالح الاجتماعية وما يقابلها من برامج، بل على أنها صدام بين الزعماء («الوجود يحل محل الجوهر»). يضيِّق فن الخطاب الشخصاني على فن الخطاب السياسي، وتصير المناظرات السياسية مسرحاً ذا إخراج جيد (فمثلا، ما يلعب الدور الأكبر في هذه المناظرات ليس المقولات بل الميزانسون والإيماءات والمظهر الخارجي). كل من يتابع هذه المناظرات على التلفزيون يتقمص دور المشاهد ويفقد حرية الإرادة والمسؤولية التي يتمتع بها المواطن المقدم على الاختيار. قد لا يكون لدى المستشارين السياسيين أنفسهم، الذين يخرجون هذه المسرحيات، أي ميول إيديولوجية على الإطلاق، بل يلعبون دور اختصاصيين في التسويق. وليس نادراً أن يتعاقدوا بعد انتهاء إحدى الحملات الانتخابية مع المنافس السياسي «لمرشحهم».

كان لبناء الصورة التلفزيونية بصفتها تكنولوجية الصراع السياسي الرئيسية عواقب مخيفة على الثقافة وعلى المجتمع ككل. يقال «إن الصورة تسود على الكلام» – أي أن تبدلاً قد حدث في لغة السياسة. صارت اللغة في حال تجعل السياسي قادراً على أن يتحدث نصف ساعة حديثاً أملس، لكن من المستحيل بعد ذلك تكرار ملخص محتوى كلامه الأساسي. باتت تستبعد من السياسية مقولة التناقض والصراع نفسها. قلب التلفزيون اللغة السياسية (الخطاب) من لغة صراع إلى لغة توافقية – أي أن السياسي حين يبني

---

(١) استخدمت إمكانات التلفزيون أول مرة في الدعاية السياسية في الولايات المتحدة عام ١٩٥٢ في حملة إيزنهاور الانتخابية. وعام ١٩٦٠ استأجر كنيدي من أجل حملته شركة دعاية كاملة.

صورته فإنه يَعِد دائماً «بالتعاون مع القوى السليمة كلها». بذلك يتم استبعاد أي جدلية من السياسة. اللغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمنظومة القيم، وظهور لغة تلفزيونية خاصة، كما يُظن، أدى إلى حدوث أزمة في مقولة القيم نفسها في السياسة. الانتقال من اللغة الجدلية إلى «التوافقية» يعني اتحاداً كارثياً وتبسيطاً للحياة السياسية. اليوم، ليست متاحة إطلاقاً في الغرب لأستاذ جامعي متوسط تلك اللغة السياسية التي كان يتمتع بها عامل متعلم في بداية القرن العشرين.

قدر لي مصادفة بعد موت فرانكو عام ١٩٧٧ أن أنغمس في الحياة السياسية في إسبانيا. كان الكاتب يوليان سيميونوف يرأس هناك المركز الصحفي السوفييتي فجلب لي صندوقاً هائلاً من الصحف والمجلات، وطلب مني أن أقرأها وأساعده في إعداد بعض التقارير، وهذا ما فعلته طوال الصيف. كانت تلك قراءة ملفتة - راح المجتمع الإسباني بعد خلاصه من الديكتاتورية الغبية يستمتع بالفكر الجدلي وبالمناظرات المليئة بالمرح والمضامين. ثم زرت إسبانيا عام ١٩٨٩ بعد أن انتقلت الحياة السياسية إلى لغة التلفزيون، لكنها كانت ما تزال تحمل في ذاتها الشحنة القديمة. كان التلفزيون ما يزال بالعطالة قائماً على «صراع الأفكار». ثم رحت بعد ذلك أراقب خلال عشرة أعوام انحطاط اللغة السياسية والمحتوى. كان أشهر السياسيين في منتصف التسعينيات أمين عام الحزب الشيوعي خوليو أنغيتا، المدرس السابق. كان يدهشني بكلامه الذي يقدرونه عالياً في إسبانيا. كان أنغيتا يتحدث مثل مرب دؤوب يشرح الدرس للأطفال المتخلفين عقلياً. تحدثت مرة عن هذا الأمر مع أحد رجال الفكر البارزين من الاشتراكيين الديمقراطيين. قال لي: «إن أنغيتا مضطر في لغته إلى أن ينحدر إلى مستوى السينديكاليين الفوضويين في نهاية القرن التاسع عشر، وأن يتحدث عن "الأغنياء والفقراء"، و"الطيبين والأشرار". لو راح يتحدث بمستوى الثلاثينيات على الأقل لما فهمه أحد في إسبانيا». هذا ما فعله التلفزيون خلال عشر سنوات فقط. وها نحن ننزلق في روسيا مباشرة إلى هذه الحال.

صار التلفزيون في ***السياسة الدولية*** الأداة الرئيسية لتغلغل الولايات المتحدة في الوسط الإعلامي للبلدان الأخرى بهدف التأثير في الوعي الاجتماعي فيها خدمة لمصالحها. تجعل الوسائل التقنية الجديدة ومبادئ القانون الدولي الجديدة صعباً على الدول بناء «ستائر حديدية» لحماية وعي موطنيها. يؤكد غ. شيللر على ما يشبه المسلمة: «لضمان نجاح تغلغل الدولة العظمى الساعية إلى الهيمنة فإن عليها أن تستحوذ على وسائل الإعلام الجماهيري». طبعاً، يتم تقويم هذه المسلمة تقويماً مختلفاً من قبل المستحوذين وضحايا هذا الاستحواذ. فمثلاً يصرح رئيس وزراء غوايانا: «الأمة التي تدار وسائل إعلامها من الخارج ليست أمة»[١].

قال أحد آباء الحرب الباردة جون فوستر دالاس في زمنه: «لو كان علي أن أنتقي مبدأ واحداً للسياسة الخارجية ولا شيء غيره لأعلنت مبدأ تيار المعلومة الحر». وضع مذهب هذا التيار الحر بعناية خلال سنوات عدة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، وكان جاهزاً لاستخدامه في مفهوم الحرب الباردة. طرح هذا المذهب أول مرة على المستوى الدولي في شباط من عام ١٩٤٥ في مؤتمر دول أمريكا حول مشاكل السلم والحرب في مكسيكو، ثم «ثبّت» من خلال اليونسكو وهيئة الأمم المتحدة، فصار سلاح الولايات المتحدة المهم في الحرب الباردة – من أجل توطيد معسكر حلفائها قبل كل شيء في الصراع ضد إمبراطورية الشر. اتسع على نحو مواز نطاق تيار المعلومة «نصف الحر» الموجه إلى إنتلجنسيا بلدان «الحلف السوفييتي».

صار مذهب تيار المعلومة الحر قاعدة «الإمبريالية الثقافية» للولايات المتحدة. فتم رفضه على الفور من قبل دول المعسكر الاشتراكي ومن ثم من

---

(١) يؤكد عدد من المؤلفين من بلدان «تابعة» (أميركا اللاتينية مثلاً) على أن أمركة وسائل إعلامهم لا تتم نتيجة «التدخل» بقدر ما تتم بمبادرة من الطبقات الحاكمة في هذه البلدان نفسها. تسعى هذه الطبقات إلى «دخول الحضارة»، والشرط الضروري لذلك هو تقويض الثقافة الوطنية التي تقاوم ذلك دائماً.

قبل عدد كبير من بلدان «العالم الثالث» ودول عدم الانحياز (عام ١٩٧٣ انتقد رئيس فنلندا أورخو كيكونين بشدة هذا المذهب وعملية ممارسته). بيد أن الغرب استطاع في مؤتمر الأمن والتعاون في أوربا عام ١٩٧٥ أن يكسر قيادة الاتحاد السوفييتي. لم تُزل بيريسترويكا غورباتشوف ببساطة العقبات نهائياً بل أدرجت في برنامجها عضوياً تيار المعلومة القادمة من الولايات المتحدة.

النوعية التقنية للبرامج التلفزيونية الأمريكية، والجهود الكبرى التي يبذلها علماء النفس «لموافقتها» مع أذواق المشاهد المعين وعُقَده، تجعل من هذه البرامج سلعة رائجة بحيث سيعد أي «إنسان جمهور» نفسه في بلدان العالم كلها محروماً ومضطهداً إذا منع من الوصول إلى هذا المنتج التلفزيوني. وإذ تستغل الولايات المتحدة ذلك فإنها تستطيع أن تعقد اتفاقيات تصدر وفاقاً لها منتجها التلفزيوني في «سلة واحدة» - أي من غير التمتع بحق الانتقاء. بذلك تغدو البلدان المستوردة محرومة من إمكان غربلة الأخبار ذات التأثير التلاعبي الشديد. يمكننا أن نحكم على حجم التصدير من خلال أمريكا اللاتينية التي تورد الولايات المتحدة إلى بلدانها١٥٠ ألف برنامج سنوياً. تشكل هذه البرامج ما بين ٤٠ إلى ٩٠% من البث التلفزيوني الوطني (يكفي القول إن حجم الأخبار الإعلامية عن حياة الولايات المتحدة تفوق بكثير حجم الأخبار عن حياة البلاد نفسها).

٦- مقاومة المجتمع

حين فاق التأثير المدمر للوعي حداً معيناً صار المجتمع الغربي يحد منه (المقدرة على إنتاج آليات الدفاع الذاتي بسرعة كافية هي صفة مهمة من صفات المجتمع المدني). ظهر نزاع واضح بين المجتمع وإيديولوجيته الخاصة.

إذ اعترف إيدولوجيو الليبرالية الجديدة فعلياً بأن استعارة أفلاطون عن مسرح الظلال في الكهف هي انعكاس صحيح لجوهر التناقضات الحالية،

فإنهم استمروا في إعلان «حرية التعبير في التلفزيون». إنهم يرون أن الموقف المتشكل في الكهف كله هو نتيجة محزنة للديمقراطية لكنها ضرورية. ويدَّعون أن المشعوذين يملكون الحق في عرض أشكالهم المشوهة وإذاعة صوتهم الكئيب، مؤكدين على أن هذه هي حقيقة العالم، وأن الأسرى يملكون الحق في أن يجلسوا مقيدين إلى الشاشة – عفواً، إلى جدار الكهف، وأبصارهم مصوبة نحوه. أما ذلك الذي يقنعهم وأحياناً يدفعهم لينظروا إلى العالم الحر فهو معاد للديمقراطية. أقصى ما يوافق عليه أنصار مثل هذه الديمقراطية هو أن يشعل المشعوذون ثلاث نيران أو أربع عوضاً عن واحدة، وان يجعلوا السلاسل مريحة أكثر، بحيث تكون لدى الأسرى «حرية الاختيار» – أي أن يديروا أعناقهم وينظروا إلى ظلال مختلفة قليلاً على جدران مختلفة من الكهف نفسه. أما الرقابة على ما يعرض ومن يسمح له بالوصول إلى أقفال السلاسل والنار والنور فتبقى قطعاً تحت قيادة المشعوذين.

يرد المجتمع على ذلك قبل كل شيء من خلال الارتكاس وظهور *الرأي العام* حول المشكلة. رأى، وفاقاً لمعطيات دراسة عام ١٩٨٤ في الولايات المتحدة، ٦٧% من مشاهدي التلفزيون الذين تم استفتاؤهم أن تأثير التلفزيون في الأطفال سلبي أكثر منه إيجابي. هذا الرأي اليوم تعزز أكثر. فالمدهش أنه حتى الأطفال اليوم في الولايات المتحدة، حيث قصفوا المجتمع فيها بقوة أكبر من غيره، باتوا واثقين من تأثير التلفزيون السلبي. قال عالم الاجتماع الذي أدار استفتاء واسعاً عام ١٩٩٦ بين أطفال تراوحت أعمارهم بين ١٠ و ١٦ سنة: «كنا مذهولين حين أعلن الأطفال أن قيمهم مرتبطة بوسائل الإعلام وحين رأينا الحماسة التي يطالبون بها التلفزيون بمعايير أخلاقية أسمى». أعلن ٨٢% أنه كان على التلفزيون أن يعلمهم التمييز بين الخير والشر، أما ٧٧% فكانوا مستائين من أن التلفزيون يعرض غالباً علاقات جنسية خارج إطار الزواج ويعودهم على فكرة أن الناس في غالبيتهم غير أشراف. كان الأطفال مستائين من الكيفية التي يعرض بها التلفزيون الأسرة والمدرسة.

رأى أكثر من نصفهم أن التلفزيون «يعرض الأهل أغبى بكثير مما هم عليه في الواقع»، أما المدرسة فتبدو وكأنهم لا يدرسون فيها، بل يأتون إليها ليلتقوا بأصحابهم أو ليدبروا مكيدة ما. اتهم ٧٢% من المراهقين الخاضعين للاستفتاء التلفزيون بأنه يدفعهم إلى العلاقات الجنسية المبكرة جداً. يخطر في البال كم هم المراهقون الأمريكيون الذين سطَّح التلفزيون عقولهم أكثر مسؤولية في محاكماتهم من مثقفينا «الديمقراطيين»!

بعد ذلك تبدأ عمليات التنظيم الذاتي. فقبل خمس سنوات تشكلت في الولايات المتحدة جمعية «أمريكا المتحررة من التلفزيون» («TV-Free America») التي تروج «للامتناع الكاتودي» - أي الامتناع عن ***التلفاز***. تنظم هذه الجمعية على النطاق الوطني أسبوعاً في العام للمقاطعة التامة للتلفزيون. عام ١٩٩٦ مثلاً، استجاب لها ٤ ملايين مشاهد و٣٦ ألف مدرسة، والجمعية الطبية الوطنية. دعم المقاطعة محافظو ٢٦ ولاية. عموماً، خسرت في ذلك العام أكبر ثلاث شركات تلفزيونية ١،٥ مليون مشاهد.

رداً على ذلك بدأت الشركات التلفزيونية حملة دعائية لا سابقة لها لإغراء الناس ***بمشاهدة التلفزيون*** ببساطة - ليس مشاهدة برنامج محدد بل عموماً. ملأت الدعاية غير العادية المنفذة بأحرف كبيرة، من غير أي صور، الصحفَ والمجلات: «الحياة قصيرة، شاهد التلفزيون!»، «الأريكة هي أفضل صديق لك!»، «لا تقلق، ما زال لديك المليارات من الخلايا العصبية!»، «اليوم نهار رائع - فما الذي تفعله هناك في الشارع؟»...الخ. كانت تلك هي البداية فقط لكنها مع ذلك بليغة جداً.

حين ينشأ الرأي العام تحدث التحولات في السوق السياسية أيضاً. يبدو ملفتاً للنظر بماذا بدأ كلينتون حملته الانتخابية عام ١٩٩٦ - الخطوة الأولى كانت في أنه كان عليه أن يستجيب لرغبات الأغلبية الساحقة من الناخبين. فبدأ بالقول إنه مناصر لفرض الرقابة على التلفزيون. والمهم أيضاً هو أن

منافسه في الانتخابات دول قد أعلن الشيء نفسه. كانت قضية كلينتون الأولى هي: «إنني أرغب في أن يعرض مدراء التلفزيون تلك الأفلام والبرامج التي في مقدورهم أن ينصحوا أطفالهم وأحفادهم بمشاهدتها». يتلخص الأمر في أن دراسة واسعة في أوربا قد بينت أن نخبة رجالات التلفزيون لا يسمحون لأبنائهم وأحفادهم بمشاهدة التلفزيون باستثناء عدد قليل جداً من البرامج، وتحديداً تلك التي كان يتميز بها التلفزيون السوفييتي - أي البرامج الهادئة واللائقة والغنية بالمعرفة. وهكذا، يفرضون الرقابة على أطفالهم أما الآخرون فينبغي تسطيح عقولهم. كان الاتهام الذي رماه كلينتون على نحو غير واضح في وجه قادة التلفزيون فيه الكثير من المخاطرة، لكنه جذب إليه المشاهد العادي تحديداً.

كانت الخطوة التالية لكلينتون أشد راديكالية: دعا الكونغرس إلى الإقرار العاجل لقانون يلزم منتجي التلفزيونات بوضع شريحة فيها (مخططا مكروياً) يسمح للأهل بفرض الرقابة - أي حجب البرامج التي تحتوي على فائض من الجنس والعنف. كانت التكنولوجية جاهزة لذلك ومر القانون بسرعة مدهشة في الكونغرس. طبعاً، ثمة هنا عنصر نفاق: ما كان في مقدور الدولة أن تفعله وأن تتحمل البرق والرعد، أرخى بظلاله على ملايين الأهالي الذين باتوا مضطرين الآن إلى احتمال النزاعات المنزلية. المهم لنا هنا هو الواقعة نفسها: اعترف كلينتون بقيامه بمثل هذه الخطوة بوجود استياء شامل في الولايات المتحدة من «حرية» التلفزيون غير الخاضعة للرقابة، الذي تحول إلى قوة تحللية معادية للمجتمع.

سرعان ما اتخذت العملية في أوربا شكلاً حقوقياً (كنا قد تحدثنا، بالأخص، عن منع إدراج الدعاية في الأفلام ذات المستوى الفني الراقي). أقر البرلمان الأوربي قراراً طوعياً خالصاً، ليس له أي علاقة بمبادئ السوق: أي قناة تلفزيونية في أوروبا ملزمة بأن تخصص ٥١% من الوقت لمنتجات

المؤلفين الأوربيين. وقد فرضت في شباط عام ١٩٩٦ غرامة على القناة الفرنسية الأولى من قبل المجلس الأعلى للبث التلفزيوني في فرنسا قدرها ١٠ ملايين دولار، لأنها لم تستطع خلال عام ١٩٩٥ إكمال ٦٥ ساعة لعرض الأفلام الأوربية – أي ما يزيد على ساعة في الأسبوع[١]. عام ١٩٨٩ غرمت بالمبلغ نفسه تقريباً بسبب من المخالفة نفسها شركة بيرلسكوني التلفزيونية في إيطاليا. إنها الرقابة.

لكن مع ذلك فالرقابة العادية في الغرب لا حصر لها. كنت قد ذكرت منع عرض س. كوبريك في إنكلترا. أما عام ١٩٩٦ فمنع في أثناء انتخابات البرلمان في إسبانيا شريط فيديو لحزب الباسك الراديكالي الكبير – رأوا فيه امتداحاً للإرهابيين. كان في مقدور المحكمة وحدها أن تفعل ذلك وفاقاً لمنطق «حرية الكلمة»، ***وبعد*** عرض الشريط فقط. لكن النظام الذي يعد أحد الأنظمة الأكثر ديمقراطية في الغرب، انطلق قبل كل شيء من اعتبارات سياسية (وهذا، طبعاً، محرم تماماً على الأنظمة «الشمولية» كلها).

أخيراً، أقرت في أوربا الغربية قوانين مشابهة خاصة بالتلفزيون، وتم تأكيد دوائر الرقابة وشتى أنواع «المجالس العليا». يمكننا أن نميز من بين تلك المعايير، التي تم تثبيتها في أطر قانونية وكلفت هذه المجالس بمراقبتها، التالية:

– إلزام التلفزة بتقديم معلومة صحيحة وموضوعية وحيادية.

سيدرك كل مطلع على عمل التلفزيون الروسي أنه بمجمله سيشكل إخلالاً بمعيار القانون هذا، وأنه كان سيثير منذ اليوم الأول سيلاً من الشكاوى في المحكمة. ماذا كان سيساوي الخطاب العادي المعادي للشيوعية في

---

(١) تم استبدال الغرامة الحكومية بعقوبة تلزم القناة الفرنسية الأولى باستثمار المبلغ نفسه في إنتاج أفلام فنية تلفزيونية في استوديهات ليست فروعاً لها.كان سبب هذا التساهل هو عدم تعريض الشركة لسحب ترخيصها الذي كانت ستنتهي مدته عام ١٩٩٧.

القنوات الرئيسية (انحياز واضح) أو الإعلان، حتى في النشرات الإخبارية، عن «إعدام الملايين بالرصاص» في الاتحاد السوفييتي (كذب واضح).

- إلزامها بالفصل الدقيق والمحدد بين ***المعلومة*** و***الرأي*** مع الإشارة الدقيقة للأشخاص أو المنظمات التي تعبر عن هذا الرأي.

بات مذيعو ومديرو التلفزة الغربية وفاقاً للمعيار القانوني هذا ملزمين لفظياً (من خلال النص المباشر) وبالنبرة الفصل بين المعلومة المذاعة والرأي حول مسألة ما. فمثلاً كان على سوروكينا وهي تناقش موضوعها المحبب عن القمع الستاليني أن تقول: «وفاقاً للمعطيات الرسمية والمؤكدة أكثر من مرة فقد حكم بالإعدام خلال فترة السلطة السوفييتية كلها ٧٠٠ ألف شخص والكثير من هذه الأحكام لم يوضع موضع التنفيذ. هذه أيها السادة المشاهدون معلومة موضوعية. بيد أنه، وفاقاً لرأي سولجينيتسين، أعدم ٤٣ مليون شخص. رأيي يتطابق مع رأي سولجينيتسين».

- إلزامها عند تقديم الأنباء عن المشاكل الخلافية في المجتمع بالتنبيه إلى وجود فوارق في مواقف المجموعات والحركات الاجتماعية.

لا يملك مذيع التلفزيون في الغرب الحق في أن يقول: «علينا أن نبني اقتصاداً زراعياً سليماً ولذلك يجب خصخصة الأرض». عليه أن يقول في الحال إن جميع الفلاحين تقريباً وغالبية المواطنين، وكذلك هذه الأحزاب والحركات وتلك يقفون جميعاً ضد وجهة النظر هذه التي يدعمها يلتسين وتشوبايس وبوروفا.

- يخصص في التلفزة الحكومية للأحزاب والكتل البرلمانية كلها وقت من أجل عرض برامجها ووجهات نظرها ***بحرية*** بما يتناسب مع عدد نوابها، وكذلك للأحزاب والحركات السياسية الأخرى والنقابات والجمعيات - وفاقاً للمعايير التي يتم التوافق عليها مع مجالس الرقابة.

ليس مهماً هنا تحديد حصص الوقت من أجل العرض *المنتظم* للمواقف، بل المهم هو حقيقة أن هذا الموقف يتم عرضه بلا وسيط وبلا مشاركة من آخرين مع أسئلتهم وتعليقاتهم الملفقة خصيصاً.

- حق المواطنين والمنظمات الاجتماعية والحكومية في دحض المعلومة غير الصحيحة عبر القناة نفسها وفي الوقت نفسه.

يدور الحديث تحديداً عن الحق، وليس عن إرادة مالكي التلفزيون الطيبة. وإذا ما أخذنا بالاعتبار كم هو الزمن التلفزيوني باهظ الثمن فإن تحقيق هذا الحق سيتحول إلى عقوبات اقتصادية جدية ولا يلحق بالقناة التي تقدم معلومة غير صحيحة ضرراً معنوياً وحسب بل مالياً أيضاً.

- تأكيد حق ***الحصانة ذات الشكل الشخصي***.

إن هذا - الحق المهم والجديد نسبياً - هو خطوة إلى الأمام قياساً على حق الحصانة الجسدية لجسم الإنسان الذي أقر في الزمن الجديد من قبل دولة القانون. كان سيبدو غير معقول إطلاقاً في أوربا الغربية ما فعله مثلاً دورينكو بالصور الشخصية لأولئك الذين لا يعجبونه (تحول الوجوه إلى جماجم... الخ).

- تخصيص حصص إلزامية من أجل عرض منتجات الثقافة الوطنية، وكذلك تحديد أوقات عرض الدعاية خلال اليوم وخلال الساعة الواحدة.

طبعاً، لا ينفذ أي قانون في أي مجتمع إذا لم تدعمه الأخلاق السائدة ومصالح القوى الاجتماعية صاحبة النفوذ. يدل الوضع في المجتمع الغربي اليوم على أن هذه القوانين الخاصة بالتلفزة قد بدأ تطبيقها.

الفهرس

الصفحة

مقدمة ٧

القسم الأول: ما معنى التلاعب بالوعي ١٥

الفصل الأول: عمّ يدور الحديث ١٧

الفصل الثاني: «تشريح وفيزيولوجيا» التلاعب بالوعي ٣٦

الفصل الثالث: الديمقراطية والشمولية والتلاعب بالوعي............. ٦٦

الفصل الرابع: المذاهب الأساسية للتلاعب بالوعي ١٠٧

١- تكنولوجيا التلاعب بصفتها معرفة مغلقة ١٠٧

٢- تعاليم أنطونيو غرامشي عن الزعامة............................ ١١٥

٣- المذهب النفسي.. ١٢٧

٤- الدينامية الاجتماعية للثقافة. ١٤٥

القسم الثاني: المرامي الرئيسية للتلاعب بالوعي ١٤٩

الفصل الخامس: تجهيزات العقل: منظومات الرموز.................. ١٥١

١- لغة الكلمات... ١٥٢

٢- لغة الصور ١٧٤

٣- منظومات رمزية أخرى ١٨٤

الفصل السادس. التفكير: أنواعه وعتاده............................ ١٩٦

١- التفكير المنطقي.. ١٩٦

٢- التفكير الجمعي. الاستعارات. ٢١٩

٣- الصور النمطية STEREOTYPE ٢٣١

الصفحة

الفصل السابع: المشاعر ٢٤٧

١- التأثيرات الانفعالية بصفتها مقدمة للتلاعب. ٢٤٧

٢- الخوف الغربي ٢٥٥

٣- مخاوف الحرب الباردة.. ٢٦٨

٤- المخاوف ونوع الثقافة.. ٢٧٥

٥- خوف الإرهاب.. ٢٨٦

الفصل الثامن: المخيلة، الانتباه، الذاكرة ٣٠٢

١- المخيلة والسلوك ٣٠٢

٢- مجتمع المسرحية ٣١٦

٣- التلاعب بالانتباه.. ٣٢٥

٤- التلاعب بالذاكرة والتأثير فيها ٣٣٠

الفصل التاسع: أساطير الوعي الاجتماعي: مشاريع التلاعب الكبرى. ٣٣٨

١- الأساطير السود ٣٤١

٢- أساطير الغرب «المضيئة»: المركزية الأوروبية. ٣٤٨

القسم الثالث: التلاعب بالوعي والمؤسسات الاجتماعية...................... ٣٧٣

الفصل العاشر: الثقافة الجماهيرية ومؤسساتها. ٣٧٥

١- الحشد وبناؤه المصطنع. ٣٧٥

٢- السماح بانعدام الأخلاق ٣٨٥

٣- الاستحواذ على الجمهور وإلحاقه. ٣٩٤

الفصل الحادي عشر: المؤسسات الاجتماعية ٤٠١

١- المدرسة - إنتاج إنسان الجمهور ٤٠١

٢- العلم بصفته أداة تلاعب بالوعي ٤١٦

الصفحة

الفصل الثاني عشر: وسائل الإعلام الجماهيري ٤٣٦
١- أهداف وسائل الإعلام ونمط عملها ومكانها في الثقافة ٤٣٦
٢- وسائل الإعلام: علم الدلالة التلاعبي والخطابة التلاعبية ٤٥٦
الفصل الثالث عشر: التلفزيون ٤٧٢
١- حرية الأنباء – الرقابة – التلاعب بالوعي ٤٧٢
٢- أهل الكهف في القرن العشرين ٤٧٦
٣ – التلفزيون بصفته تكنولوجية تدمير الوعي......................... ٤٨٠
٤- التلفزيون وخلق الواقع ٤٩٠
٥- التلفزيون والتلاعب بالوعي في السياسة ٥٠١
٦- مقاومة المجتمع ٥٠٩

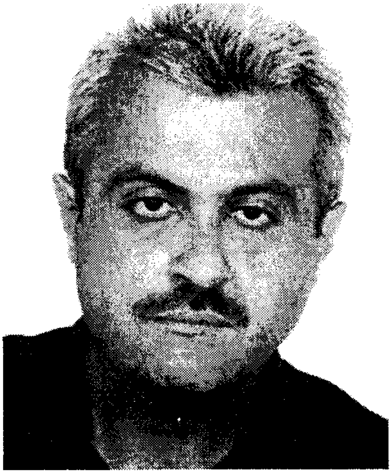

عياد ميخائيل عيد

- من مواليد مشتى الحلو في محافظة طرطوس عام ١٩٦٦.
- مهندس يحمل شهادة تصميم آلات النسيج والصناعات الخفيفية من موسكو عام ١٩٩٠.
- مهتم بالترجمة عن اللغة الروسية.
- عضو اتحاد الكتاب العرب – جمعية الترجمة – منذ عام ٢٠٠٠.
- حائز على الجائزة الثالثة في مسابقة سامي الدروبي للترجمة عام ٢٠١٠

ترجم عن اللغة الروسية الكتب التالية:

الأمير بوظة	جاني روداري	قصة	١٩٩٤	وزارة الثقافة
كوكب شجيرات رأس السنة	جاني روداري	رواية للفتيان	١٩٩٦	وزارة الثقافة
القافلة	فيلهيلم هاوف	رواية للفتيان	١٩٩٧	وزارة الثقافة
شيخ الإسكندرية وعبيده	فيلهيلم هاوف	رواية للفتيان	١٩٩٧	وزارة الثقافة
نزل شبيسارت	فيلهيلم هاوف	رواية للفتيان	١٩٩٨	وزارة الثقافة
مغامرات تشيبولينو	جاني روداري	رواية للفتيان	١٩٩٩	وزارة الثقافة
رحلة السهم الأزرق	جاني روداري	رواية للفتيان	١٩٩٩	وزارة الثقافة
الاختيار	يوري بونداريف	رواية	٢٠٠١	اتحاد الكتاب العرب
سوريا تاريخ كبير لبلد عريق	ميدفيدكو وأوسيبوف	دليل سياحي	٢٠٠٢	دار الينابيع
الإغواء بالعولمة	ألكسندر بانارين	دراسة	٢٠٠٥	اتحاد الكتاب العرب
مثلث برمودا	يوري بونداريف	رواية	٢٠١٠	اتحاد الكتاب العرب
طرفتان ريفيتان	ألكسندر فامبيلوف	مسرحيتان	٢٠١١	وزارة الثقافة
أساطير رومانية	جاني روداري	قصص للفتيان	٢٠١١	وزارة الثقافة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٣٨٠ ل.س أو ما يعادلها